
مذكرات بابلو نيرودا
أعترف بأنني قد عشت
ترجمة وشرح : الدكتور محمود صُبح
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
Bibliotheca Alexandrina
0159209



مذكرات بابلو نيرودا



مُذكّرات بابلو نيرودا

أعترف بأنني قد عشت

ترجمة وشروح

الدكتور محمود صبح

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٧٨

ملاحظات حول هذه المذكّرات

١ ـ ان عنوان هذه المذكرات بالاسبانية هو : بابلو نيرودا ، اعترف بانني قد عشت ، مذكرات» . (Pablo Neruda, CONFIESO QUE HE VIVIDO, Memorias).

٢ ـ لقد تم طبع هذا الكتاب في برشلونة بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) من عام ١٩٧٤ ، اي بعد مضي ستة اشهر على وفاة الشاعر ، كما جاء في الصفحة الاخيرة من الكتاب بالنص .

٣ ـ ان عدد صفحات الكتاب في نصه الاصلي هو (٥١٥) صفحة من الحجم المتوسط وبحرف متوسط وبورق عادي .

٤ ـ لقد شرعنا في ترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر ايار (مايو) من عام صدور الكتاب ، وقد اقتنينا اول نسخة بيعت في مدريد .

٥ ـ لقد قمنا بتعريبها على مرحلتين ؛ الاولى : ترجمة حرفية استغرقت ثلاثة اشهر ، والثانية : تعريب مع المحافظة على النص الاصلي وذلك

بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة فجملة ومراجعة النص الاصلي في الوقت نفسه ، وقد استغرقت هذه المرحلة اربعة اشهر .

٦ ــ وضعنا بعد ذلك الشروح الضرورية ، وهذه الشروح هي :
أ ــ عرّفنا بأسماء الاعلام الواردة في الكتاب ، وذلك بالعودة الى كتب التراجم والموسوعات وغير ذلك .
ب ــ عرّفنا ببعض أسماء الاماكن .
ج ــ أشرنا الى الكلمات التي أصلها عربي ، وهي كثيرة في اللغة الاسبانية .
د ــ حافظنا على التعابير والامثال الاسبانية كي نزيد لغتنا العربية غنى على غناها ، ولكننا أشرنا الى ذلك ، وفي اكثر الاحيان وضعنا ما يقابل او يماثل كل واحد منها في اللغة العربية .
هـ ــ شرحنا الكلمات التي لم نجد لها تعريبا ، مثل اسماء بعض الاشجار والازهار والاطيار والحيوانات وغير ذلك .
و ــ فسّرنا ما غمض أحيانا او ما كان تضمينا الخ .

٧ ــ لم نترجم ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات بلغات اخرى غير الاسبانية ، الا فيما ندر .

٨ ــ لم نشرح الكلمات العربية الصعبة التي اضطررنا احيانا الى استعمالها الا فيما ندر ، وذلك لاعتقادنا أن هذا من عمل القارىء ولفائدته ــ مع الاعتذار ــ .

٩ ــ حاولنا أن نحافظ على ما جاء في الكتاب من علامات ونقط وغير ذلك من علامات التعجّب والاستفهام والفواصل والاقواس الخ ، كلما امكن ذلك . (ان جمل (نيرودا) قصيره ، أحيانا ، وهو يضع كثيرا من النقط) .

١٠ ــ وضعنا أسماء الاعلام بين قوسين ، وبجانب كل اسم يذكر لاول مرة، رسمه بالحروف اللاتينية ، تجنبا للخطأ في النطق . فان تكرر الاسم لم نرسمه باللاتينية ، الا ما فاتنا . (وهذا يدل القارىء على أن الاسم كان قد ذُكر من قبل وعُرّف به) .

١١ــ وضعنا اسماء الاماكن بين فواصل ، ووضعنا كل اسم مكان يذكر لاول مرة ، داخل قوسين بالحروف اللاتينية ، الا ما اشتهر منها او فاتنا فى الحالتين .

١٢ــ لقد حاولنا أن ننقل الى القارىء العربى أسلوب (نيرودا) في هـذا الكتاب ، فهو مختلف متباين يتراوح بين الاسلوب النقي العالي وبين الاسلوب المباشر العادي ، (يستعمل ضمير «أنا» ؛ مثلا ، كثيرا جدا).

١٣ ــ قد يأخذ علينا القارىء اننا اسرفنا في أسلوبنا العربي ، أحيانا ، او اجحفنا (مثلا ، ذكرنا ضمير «أنا» بعد الاسم لا قبله ، فلـم نقل ، على سبيل المثال : أنا والملك ، بل قلنا : الملك وأنا) فنرجو منـه الصفـح .

١٤ــ لم ننسأ ان نكتب مقدمة نبيّن فيها رأينا في هذه المذكرات وندحض بعض افكار (نيرودا) الخاطئة ، (مثلا ، رأيه فـي حرب العصابات ، تحامله على (ماوتسي تونغ) و(فيديل كاسترو) ، وغير ذلك من الآراء السياسية والادبية التي تستدعي الرد والدحض) ، تجنبا للاطالة ، فالكتاب كبير ضخم .

١٥ ــ لقد وضعنا نصب أعيننا منذ ان بدأنا بترجمة هذه المذكّرات الى ان انهيناها ، الحديث النبوي الشريف :

«ان الله تعالى يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» .

وبيت المتنبّي :

ولم ار في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فنرجو من القارىء أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب، بيت أبي تمّام :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا.

د. محمود صبح
مدريد في ١٦ــ٢ــ١٩٧٥



الفصـل الأوّل

الشاب القروي

الغابة التشيلية

.... تحت حمم البراكين ، ازاء القمم الثلجيـة العاصفة ، بين البحيرات الكبيرة ، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة الشذية .... تغوص الأقدام في اوراق الشجر الميتة ، لقد خشخش غصن هش ، ها هـي اشجار «الراولي» (١) الضخمة تشمخ بقاماتها المتغضنة ، ثمة عصفور يعبر من الدغل البارد ، يرفرف ، يتوقف بين غصون الشجر الظليلة ، ثم مـن مخبئه يصفّر مثل مزمار صغير .... يسري عبر انفي حتى مسارب روحي

---

١ ـ راولي (Rauli) : الكلمة من اصل «اراوكاني» (Araucano) وهي لغة قبيلة هندية كانت تسكن في احدى مناطق تشيلي ، اما «الراولي» فهو شجر عظيم ، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين مترا ، له ورق شاحب اللون ، متغضن ، تؤخذ الاخشاب من هذا الشجـر للبناء وصنع الابواب والنوافذ .

شذى الفار البري ، شذى شجيرة «البولدو» (٢) الداكن ... سرو المخافر يعترض خطوي ... انه لعالم شاقولي : أمة من العصافير ، حشد من الاوراق .... أتعثر بحجر ، أخدش الوقبة المكتسوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمقني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان ... عقرب مذهّب ينفث نحوي سمه المنبثق ، بينما يختفي فوسه القزحي المتسع مثل برق خاطف .... حين أمرّ أجتاز غابة من شجر السرخس أكثر علواً من قامتي : تدع أن يتساقط عليّ ، فوق وجهي المسرئب ، ستون دمعة تنهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي تظل مراوحها ترتعد لمده طويلة ..... ثمه جذع متآكلة : يا له من كنز !... نبات الفطر الاسود والازرق قد منحها آذانا ، نباتات طفيلية حمراء قد افعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى اعارتها لحاها وينفجر ، سريعا ، افعوان يطلع من احشائها المتآكله ، كما انبثاق الفجر ، كما لو أن الروح هربت من جذعها الميتة .... وهناك بعيدا ، كل شجرة انتحت مكانا قصيا مبتعدة عن نظيراتها ... نميس فوق بساط الدغل الكتوم ، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء او مكتنزة او ورفاء او ملساء لها نمط مختلف وشكل آخر كما لو أن مقصا ذا حركة مبدلة قد قصها ففصّلها بعضها ليس كبعض .... ثمه غدير ، الماء الشفاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأعبل واليشب .... يطير فراشة نقية كنقاوة الليمون ، تتراقص بين الماء والنور .... تحيّيني عن قرب الرياحين وهي تنحني لي برؤوسها الصغيره الصفراء .... وهناك في الاعالي ، مثل قطرات فصدت من الترايين ، تتماوج زهور «الكوبيهوية» (٣) الحمراء ... الاحمر منها هو زهر الدم ، والابيض منها هو زهر الثلج ... قد تشق السكون تعلب سريع فاهتزت الاوراق ، بيد أن السكون هو ناموس هذه الاوراق .... قلّما يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ ..... رجع وخاز لعصفور مختبيء الا لماما ....

---

٢ ـ بولدو (Boldo) : الكلمة من اصل «اراوكاني» ، وهو شجر ضخم ، اوراقه دائمة الخضرة وأزهاره بيضاء ، تؤكل ثماره ، تطبخ اوراقه العطرة لتعلك بعد ذلك في سبيل شفاء امراض المعدة والكبد .

٣ ـ كوبيهويه (Copihue) : الكلمه من اصل «اراوكاني» ، وهو زهر جميل يشبه الليلك ، يستعمل للزينة .

فلتما يوشوش عالم النبات الا قليلا قليلا الى ان يهب زوبعة فتجعل موسيقى الدنيا كلها تتجاوب .

من لا يعرف الغابة التشيلية ، فهو لم يطأ هذا الكوكب الارضي .

من تلك الاراضي ، من ذاك الطين ، من ذاك السكون ، خرجت أنا لأسير ، لأغني عبر الكون .

طفولة وشعر

سوف اشرع في الكلام عن ايام طفولتي واعوامها قائلا ، ان المطر كان لي الشخصية الوحيدة التي لا انساها . مطر القطب الجنوبي الغزير الذي يهطل مثل شلال من قطب «بولو» (Polo) ينحدر من سماء «كابو دي هورنوس» (٤) حتى سماء الثغر . في هذا الثغر ، او «فار وست» (٥) بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للارض ، للشعر والمطر .

مع اني قد تجولت كثيرا فانه يبدو لي انه قد ضاع فن الامطار هذا الذي كان يمارس وكانه موهبة متسلطة هائلة بارعة ، في ارضي ، ارض «اراوكانيا» (Araucania) . كانت السماء تمطر خلال شهور بكاملها ، أعوام بأسرها . كان المطر يندلى خيطانا كانها ابر طويلة من البلور يتكسر على أسطحة المنازل ، او انه يستحيل امواجا شفافة تلطم النوافذ ، وكانت كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء الا بشق الأنفس والجهد الجهيد في ذلك المحيط الشتائي .

فلبس لمطر جنوب امريكا البارد هذا هبّات الرياح الهائجة التي تسفّ المطر الساخن لافحا كأنه السياط ثم يمضي وإذ بالسماء زرقاء صافية .

---

٤ ــ كابو دي هورنوس : معناها ، راس الافران ، وهو على ساحل تشيلي .

٥ ــ فار وويست: هي منطقة الغرب الاقصى من الولايات المتحدة الامريكية .

مطر الجنوب على العكس من ذلك له صبر وأناة فهو لا يفتأ يتساقط من السماء الرمادية اللون بلا حد ولا قيد .

تجاه داري ، الشارع امسى بحرا هائلا من الوحول . ارى عبر النافذة ومن خلال المطر عربة قد أوحلت في وسط الشارع . وهناك فلاح ملتف بعباءة سوداء يسوّط الثيران التي لم نعد تقوى على المضي بين المطر والوحل .

لقد كنا نتوجه الى المدرسة عبر الدروب ، ننقل الخطى من حجر الى حجر ، متعرضين للبرد والمطر . الرياح تتخاطف المظلاّت . الماطرات (البرشكوتات) كانت غالية جدا . ولم تكن تستهويني القفازات ، وكانت الاحذية تبتل بالماء . سوف اذكر دائما الجرابات المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيرا من الاحذية وهي تنفث بخارا يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة . ثم تأتي الفياضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش اكثر الناس فقرا ، الى النهر . كذلك كانت الارض تنهزّ راجفة. احيانا أخرى ، كانت تطلّ من سلسله الجبال قنزعة نور رهيب : البركان « يايما » (Llaima) كان يستيقظ .

ان «تيموكو» (Temuco) هي مدينة رائدة ، من هذه المدن التي لا ماض لها ولا تراث ، غير ان لها دكاكين حدادة . بما أن الهنود لا يعرفون القراءة، فان دكاكين الحدادة تتباهى بشعاراتها البارزة في الشوارع : منشار ضخم ، قدر كبيره ، قفل فخم ، معرفه هائله . هناك بعيدا محلات الاسكافية ، عليها جزمه عظيمة .

اذا كانت «تيموكو» هي السبّاقة الرائدة في الحياة التشيلية بأراضي جنوب تشيلي ، فان هذا يعني تاريخا داميا طويلا .

أثناء زحف الفاتحين الاسبان ، بعد ثلاثمائة سنة من الكفاح والنضال، اضطرت قبائل (اراوكانو) الى التقهقر نحو تلك المناطق الباردة . لكن التشيليين واصلوا ما سمّي بـ «تهدئة أراوكانيا» ، اي ، مواصلة حرب بالدم والنار لانتزاع الاراضي من أبناء وطننا . ولقد استخدمت كل أصناف

الاسلحة بسخاء ضد الهنود : اطلاق نيران البنادق عليهم ، احراق أكواخهم، ومن بعد ، بطريقة اكثر أبوية ، استعمل القانون والخمر ، فالمحامي أصبح اختصاصيا كذلك في اجلائهم عن اراضيهم ، والقاضـــــي ادانهم حين اعترضوا ، والكاهن هددهم بالنار الخالدة الدائمة . اخيرا ، ماء الحياة (العرق) انجز تصفية جنس عريق عظيم، من مآثره الشجاعة والجمال ، وهو ما تركه محفورا في مقاطع شعرية من حديد ويشب ، السيد (الونسو دي ارتيـــا) (٦) في ديوانه «أراوكانا» .

والداي هما من بلدة «بار ّال» (٧) ، حيث ولدت انا . هناك ، فـــي وسط نتيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ . من غير أن اذكـــر ، دون أن اعرف ان كنت نظرت اليها مرة بعينيّ ، ماتت امي السيدة (روســـا باسوالتو). انا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز (يوليو) من عام١٩٠٤ . بعد شهر ، في آب (اغسطس) ، هلكت أمي بمرض السل ، امي لم تعـد توجـد .

الحياة كانت قاسية بالنسبة لصغار المزارعين في وسط البلاد . لقد كان لجدّي السيد (خوسه انخـــل رييس) (José Angel Reyes) قليل من الارض وكثير من البنين . لقد كانت اسماء أعمامي تبدو لي وكأنها اســـاء أمراء مـــن ممالك نائيــــة قصيّة . فقد كانـــوا يسمون (امــوس) ، (اوسياس) ، (خويـــــل) ، (اباديـــاس Abadias) (٨) والـــدي كان اسمـه بسيطـــا (خوسه ديـــل كارمـــن) . هجر ابي ملكيات ابيه وهو شاب صغير ليعمل في سدود ميناء «تالكاهوانو» ، ثم أصبح عاملا في السكك الحديدية ب «تيموكو» .

كان سائق قطار صابورة . قلائل هم الذين يعرفون ما هو قطـــار صابورة . في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضبان

---

٦ ــ الونسو دي ارثيا : شاعر اسباني(١٥٣٣ ــ ١٥٩٤) .

٧ ــ بارال (Parral) : معناها ، العرائش او الدوالي .

٨ ــ يقال ان اسرة (نيرودا) كانت يهوديه ثم تنصرت .

الحديدية ان لم يكن قد وضعت لها حصوات وحجـــيرات بين الروافد . ولذلك فانه يجب أن تستخرج الصابورة من المقالع في قفف ثم يقلب الحجر الصغير الى العربات المستوية السطوح في القطار . قبل اربعين سنة كان سائقو قطار من هذا النوع يجب ان يكونوا قطاحل اشداء . اما أجـــور التركة فقد كانت بائسة جدا ، وما كان يطلب من الدبن كانوا يريدون العمل في القطارات الصابورية ان يبرروا شهادة بلا سوابق (لا حكم عليه) . والذي كان يسوق القطار ، ليس الا ، لكنه كان قد تعوّد على الامر والطاعة فهو احيانا يامر واحيانا يطيع . ولطالما اخذني معه . كان الرجال هناك يقتلعون الاحجار في منطقة «بورو1» التي هي القلب البري للثغر والتي كانت مسرحا للمعارك الرهيبه بين الاسبان والاراوكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني نوعا من النشوة وتبعث فيّ شيئا مـــن الـمالة . لشد ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، ببوض الحجل . وكم كان صعبا العثور عليها خبيئة بين الفجاج والتشقوق ، غامقة اللـــون برّاقة المحيا والبشرة ، اونها كان شبيها بلون ماسورة البندقية . ولشد ما كنت اعجب بكمال الحشرات ودقة ابداعها . كنت التقط «أمات الحنش». بهذا الاسم الغريب كان يشار الى كبرى الحشرات من صنف مغمـــدات الاجنحة . سوداء الحبلّة ، صقيلة البدن ، لماعة المظهر ، متينة الاضلاع ، قوية الهمة . عملاقة الحشرات في تشيلي . لقد كانت رؤيتها بغتة تقشعر لها الابدان ، رابضة في أحضان جذوع شجر «الماكي» (٩) والتفاح البري و«الكوبـهويـة» ، لكنني كنت أدري انها جد قوية ومتينة ، فلو دست عليها بأقدامي لن تتهشم . وهي في صلابتها الدفاعية العظيمة ما كانت لتحتاج لسلاح السم .

ان اسكشافاتي هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشغيلة . وسرعان ما اخذوا يولون اهتماما بهذه المكتشفات . فما ان يسهى والذي او يلتهي حتى ينطلقوا الى الغابة البكر ، وكانوا يعثرون لي على كنوز غريبـــة

---

٩ – ماكي (Maqui) : الكلمة من اصل « اراوكاني » ، وهو شجر يبلـغ علـوه ثلاثة امتار ، له ثمر حلو الطعم .

عجيبة ، طبعا ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب . من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه (مونخه) ، كان والدي يقول عنه انه ضارب سكاكين خطير . وكان له في وجهه الاسمر خطان كبيران ، احدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خددتها في خده حد سكين والخط الآخر كان مرسم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف ، مفعمة باللطافة والمكر معا . (مونخه) هذا كان يجلب لي زهور شجر «الكوبيهوية» البيضاء، عناكب كثيفة الشعر ، أفراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو اكثر خلبا للابصار ، أحضر لي جُعل شجر «الكوبيهويه» والقمر . لست أدري ان كنتم قد رأيتموه ذات مرة ، فأنا لم أره الا في تلك المرة . كان برقا يرتدي قوس قزح . لقد كانت الوان ذيله وقشرته تخلب الابصار بالاحمر والبنفسجي والاخضر والاصفر . ثم فر من بين يديّ حين لم يكن معي (مونخه) لكي يعود فيلتقطه لي . ما استطعت قط أن أبرأ من تلك المشاهدة الخلاّبة ولا نسيت ابدا ذاك الصديق . لقد قص عليّ ابي حكاية مونه ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجا في بادىء الامر ، فتوقف القطار ، لكن ، كما كان يروي لي ابي ، ما عثروا الا على جثة هامدة وكيس من العظام .

انه لمن الصعوبة بمكان اعطاء فكرة دقيقة عن دار مثل دارنا . فقد كانت دارا تقليدية كأغلب دور الثغر قبل ستين سنة .

اولا ، المساكن العائلية كانت تتحاذى ، بعضها كان يتصل ببعض . هناك في عمق كل فناء كان يسكن آل (رييس) ، آل (اورتيغا) ، آل (كانديا) ، آل (ماسون) . وكانت هذه العائلات تتبادل الادوات او الكتب او الحلويات في مناسبات أعياد الميلاد . او المراهم للدلك ، او المظلات او الطاولات والكراسي .

هذه الدور الرائدة كانت تغطي حاجات شعب بكامله وتلبي فعالياته .

كان زعيم آل (ماسون) هو السيد (كارلوس Carlos) وكان ذا

شعر ابيض كثيف مسترسل يتبه (اميرسون) (١٠)، وقد قدم من امريكا الشمالية. وقد كان ابناؤه اصيلين في انتسابهم الى طائفة «كريويوس» (١١) Crillos . وكان له كتابه المقدس ولهنواميس يسير عليها ويطبقها. لم يكن امبرياليا ، بل كان مؤبسا أصليا . في هذه الاسرة لم يكن احد يملك شيئا من المال ومع ذلك .فقد كانت تنمو لها مطابع وفنادق ومحلات بيع اللحوم . بضعة من ابنائه كانوا مديري صحف وآخرون كانوا عمالا في المطبعة نفسها . كل شيء كان يمضي مع مضي الزمن وكل الناس كانوا يظلون فقراء كما كانوا عليه من قبل . الالمان فقط كانوا يواصلون حديثهم الفائض عن حده ، عن ممتلكاتهم وثرواتهم ، وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من سكان الثغر .

فدورنا كان لها شيء من حفل او بعض من مرآب ، تعلن عن نفسها ؛ فما ان يدخل المرء حتى يرى براميل وأدوات ومطايا وحاجات صعبة الوصف .

كانت الغرف تمكث دائما من غير اتمام وانتهاء ، والسلالم او الادراج غير مكتملة البناء، ودائما كانوا يتحدثون عن ضرورة مواصلة التعمير والبناء، ثم شرع الآباء يفكرون في ضرورة ادخال ابنائهم الى الجامعات .

في دار السيد (كارلوس ماسون) كانت تجري الاحتفالات الكبرى في مناسبات الاعياد .

في كل وليمة كان يدعو اليها ، كان ثمة أوزّ مع كرفس ، خرفان مشوية على السفود وحليب مخثر مثلج في نهاية الاكل . منذ كثير من السنوات لم اتذوق طعم الحليب المخثر المثلج . رب العائلة ذو الشعر الكثيف المسترسل الابيض كان يجلس في راس المائدة غير المتناهية ، وإزاءه

---

١٠ ــ اميرسون : شاعر وكاتب من الولايات المتحدة الامركية (١٨٠٣ ــ ١٨٨٢) .

١١ ــ كريويوس : هو من كان امريكيا من اصل اوروبي ، و (S) هو حرف الجمع في اللغة الاسبانية .

زوجته السيدة (ميكائيلا كانديا) . خلفه كان يوجد علَم تشيلي كبير وقد الصق عليه بدبوس راية امريكا الشمالية ولكن بحجم صغير جدا ، هذا كان ايضا يمثل نسبة حصة الدم ، فنجمة علَم تشيلي الوحيدة كانت تسود وتطفي .

في دار آل (ماسون) هذه كان ثمة قاعة أخرى كذلك ، لم يكن يسمح لنا نحن الصغار بالدخول اليها ، ما عرفت ابدا لون اثاثها حين كنت الج اليها لأن هذا الاثاث كان مغطى بأغطية بيضاء تمنع عنها التوسخ والتلف الى ان هبّت النار يوما فابتلعت الاثاث واغطيته . كان في هذه القاعة مجمع (البوم) صور للأسرة . وكانت هذه الصور اكثر رقة وروعة من صور التكبيرات الفظيعة التي اجتاحت الثغر فيما بعد .

في هذه القاعة كان معلقا رسم أمي داخل اطار ، كانت سيدة ترتدي ثوبا أسود ، نحيلة متأملة . لقد قالوا لي انها كانت تكتب الاشعار ، غير اني ما شاهدت هذه الاشعار ابدا ، لم أر الا ذاك الرسم البديع .

تزوج والدي للمرة الثانية بالسيدة (ترينداد كانديا ماربيرده) ، فغدت بهذا خالتي زوجة ابي . يبدو لي شيئا مستحيلا قبيحا ان يطلق هذا الاسم على الملاك الذي كفل طفولتي وحدب عليها . لقد كانت امراة نشيطة عذبة ، كان لها روح الدعابة الريفية وكان لها طيبة حيوية متجددة فياضة .

فما ان كان يدلف والدي الى الدار حتى تستحيل الى طيف عذب وظل خفيف ليس الا ، كجميع نساء ذلك الزمن وذاك المكان .

في بهو دارنا رأيت رقصات «مائوركا» (١٢) و «كوادريا» (١٣) تبعث

---

١٢ ــ مائوركا : الكلمة من اصل بولوني ، وهي رقصة بطيئة الحركات ، تعبر عن الود والمحبة .

١٣ ــ كوادريا : هي رقصة جماعية ، تعبر من التآلف والانسجام .

الفرح والطرب .

كان في دارنا كذلك صندوق يحتوي على اغراض واشياء ساحرة فاتنة . وفي أسفله كان يلتمع قفص رائع . ذات يوم ، بينما كانت «أمي» تعيد تنظيم تلك السفينة المقدسة ، وقعت على راسي في جوف الصندوق لابلغ ذاك القفص . لكن مع نمو عمري وجسمي كنت افتحه سرا لانظر ما فيه ، كانت فيه مراوح نسائية ثمينة جدا لم تمس قط .

احتفظ بذكرى اخرى عن ذاك الصندوق . اول رواية غرامية اثرت بي وهي عبارة عن بطاقات بريدية مرسلة من شخص ما ، بتوقيع ، لم أعد أذكر ، اهو (انريكه) أم (البرتو) ، وكانت جميعها مرسلة الى (ماريا ثيلمان)، وكانت هذه البطاقات رائعة حقا ، فهي صور لممثلات شهيرات في ذلك الوقت مطلية ببرنيق وكانت ما تزال في رونقها غير متلفة ولا ممحوة واحيانا كانت ملتصقة عليها خصلات شعر . كذلك كان في هذه البطاقات صور قلاع ومدن ومناظر طبيعية غير مالوفة . خلال عدة سنوات كنت اتمتع برؤية الصور فقط ، غير اني ما أن كبرت قليلا حتى اخذت اتلذذ بقراءة تلك الرسائل الغرامية المسطرة بخط جميل متقن . وكنت دائما اتخيل ذلك العاشق انه رجل بقبعة سوداء وعكاز ، وبالماس في ربطة عنقه ، بيد أن تلك السطور خطتها يد عاشق ولِه ، ومداد عاطفة جيّاشة اخاذة . لقد أرسلها مسافر من جميع انحاء العالم . كانت مدبجة بعبارات ساحرة باهرة املتها جراة عشق واندفاع هوى . شعرت اني قد بدات أعشق انا كذلك (ماريا ثيلمان) . لقد كنت اتصورها ممثلة أنوفا متوجة بالدر والجوهر . لكن كيف وصلت هذه الرسائل الى صندوق امي ؟ ما استطعت أن اعرف ذلك قط .

ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل الى «تيموكو». في هذا العام الذي اذكره دائما دخلت الى المدرسة . كانت عبارة عن دارة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة وسرادب تحت الارض معتمة . وهناك من علو المدرسة كان يلمح ، في الربيع ، نهر «كاوتين» المنعطف اللذيذ وهو يصافح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية .

كنا نهرب من الدروس لكي نغطس أرجلنا في الماء الفرات الذي ينرقرق فوق الاحجار الصقيلة البيضاء .

لكن المدرسة كانت حقلا لمجالات عديدة بالنسبة لاعوامي الستة . فكل شيء كان له احتمال المجهول . مخبر الفيزياء الذي ما تركوني ادخله ابدا ، كان مليئا بأدوات باهرة ، بأنابيب معوجّة ، بأوان كثيرة . المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة أبوابها . ما كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم . بيد أن القبو اكثر الاماكن سحرا وروعة . ففيه كان يخيم السكون وتسود العتمة ، وهناك كنا على ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الاسرى بالاعمدة العتيقة . ما زلت حتى الان أشتمّ رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة «تيموكو» .

كنت آخذ بالنموّ جسما وعقلا ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت نجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة (بوفالو بيل Buffalo Bill (١٤) وفي رحلات (سالغاري Salgari) (١٥) . اما أوائل الحب النقية جدا فقد كانت تفيض في رسائل موجهة الى (بلانكا ويلسون) . وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة التسهير ، وبناء على طلب احد الفتيان النائهين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية اليها . لم أعد اذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما انها باكورة اعمالي الادبية ، اذ انه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عمّا اذا كنت أنا هو من كان يصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجرؤ على انكار أعمالي الادبية ، وبتلكؤ أجبتها ان اجل . اذ ذاك ناولتني سفرجلة لم أشأ ان أقضمها فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين ، وهكذا ، وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت ادبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة اثر سفرجلة .

---

١٤ ــ بوفالو بيل : هو ممثل من الولايات المتحدة كان «بطلا» من ابطال العرب الامريكي في الافلام ، يسلي الاطفال ويثير حماسهم (١٨٤٦ ــ ١٩١٧) .

١٥ ــ سالغاري : كاتب ايطالي (١٨٦٣ ــ ١٩١١) .

ما كان صبيان المدرسة يعرفون اني شاعر ، وان عرفوا ما كانـــوا يقدّرون لي هذه الموهبة . لقد كان للثغر هذا الطابع الرائع طابع «فـــار ويست» الخالي من الاوهام والهواجس . القاب زملائي كانت على النحو التالـي : (شناكس) ، (شيلير) ، (هاوسيرس) ، (سميت) ، (تايتوس) ، (سيرانيس). وكانت القاب عائلاتنا متشابهة فهي: (اراثيناس) ، (راميريث)، (ربيبس) . لم يكن هناك القاب «بسكوية» . كان ثمة القاب «سيفاردية» : (البالاس) ، (فرانكو) . كانت هناك القاب ايرلاندية : (ميـــك غينتيس) ، بولونية : (يانيشيويكيس) . كانت تشعّ نورا غامقا الالقاب الاراوكابية ، وهي تفوح برائحة الخشب والماء : (ميليبيلوس) ، (كاتريوس) .

كنا نتراشق ، احيانا ، في البهو المغلق ببلوطات (١٦) . لا احد ، ما لم يكن قد تلقى ضرباته ، يعرف كم هو موجع البلوط حين يصيب جسم المرء او رأسه . قبل الوصول الى المدرسة ، كنا نملأ جيوبنا بالاسلحة والذخائر، اما انا فقد كانت لي قدرة ضئيلة ، اقذف من غير حول ولا قوة ، اصوّب بقليل من البراعة والدهاء . بينما كنت اتلهّى بتأمل البلوطة الرائعة الشكل كانت تتوالى عليّ اخواتها فيصيبني منها اسوا قسط ولكن اكثره واوجعه. كم هي جميلة البلوطة ، خضراء رشيقة ، بقلنسوتها الخشنة الرمادية ، اثناء ما كنت احاول ، بغباوة وقلة دراية ، ان اصنع منها غليونا من هذه الغليونات التي كان يصنعها رفاقي ، كانوا يتخاطفونها مني ، بعد ان ينصبّ فوق رأسي طوفان من زخات البلوط ووخزاته .

خطر لي ، حين كنت في السنة الثانية من المدرســة الابتدائية ، ان اضع على رأسي قبعة غير نافذة للماء ، ذات لون احمر فاقع ، وكانت هذه القبعة لوالدي ، بما ان دثارها القشتالي (١٧) وسهامهـــا ذات الشارات الخضراء والحمراء كانت تسحرني وتدهشني ، فقد كنت اضعها ، كلمـــا

---

١٦ ـ بلوطات : هكذا في الاصل Bellotas عن العربية

١٧ ـ القشتالي : نسبة الى «قشتالة» Castilla وهي المنطقة الوسطى فـي اسبانيـا .

استطعت ذلك ، وامضي بها الى المدرسة مختالا مزهوًّا . ذات مرة كانت السماء تمطر بلا هوادة ولا رحمة ، اذن ، فليس هناك افضل من هـــذه القبعة ذات المشمع الاخضر التي كانت تبدو وكأنها ببغاء ، وما ان ولجت البهو الذي كان يتراكض فيه حوالي ثلاثمائة من اللصوص وقطّاع الطرق، حتى طارت قبعتي كما يطير ببغاء . وكلما كنت اتبعها واوشك أن أصطادها، كانت تعود فتطير من جديد بين النباح والعواء والمواء مما كان يخز فـــي سمعي ويصمّ أذني ، في حياتي كلها ما سمعت قط مثل هذه الجلبة ومثل هذا الضجيج ، أما القبعة فقد طارت الى الابد .

لست أرى جيدا في هذه المذكرات تتابع الزمن وتسلســل الحوادث بدقة ونظام . تتشابك في مخيلتي وتتراكم أحداث كثيرة كانت ذات اهمية بالنسبة لي ويبدو لي أن هذه الحادثة الممتزجة في شكل غريب بالتاريــخ الطبيعي هي أولى مغامراتي الهزلية . ربما كان الحب والطبيعة منذ مطلع حياتي هما فلزات شعري .

مقابل دارنا كانت فتاتان تقيمان هناك ، على الدوام وباستمرار كانتا ترمياني بنظرات تبعث في نفسي الحياء والخجل . بقدر ما كنت انا وجلا خجلا ، صامتا ساكنا ، كانتا هما يافعتين قبل الموسم والأوان ، ماكرتين شيطانتين . في احدى المرات ، بينما كنت واقفا على باب دارنا وأنا أحاول الا انظر اليهما ، لمحت بين أيديهما شيئا خلبني فخبلني ، فدنوت منهمـــا بحيطة واحتياط فأرتاني عش عصفـــور بري ، منسوجـــا من الطحلب والريشات ، يكنّ في داخله بُييضات صغيرة رائعة ذات لون فيروزي . حين هممت لاخذه ، قالت لي واحدة منهما انه بادىء ذي بدء لا بد مـــن أن يجسّاني ويتحسّساني تحت سروالي فارتعدت هلعا واقفلت مسرعا ، تطاردني الفتاتان البكران اللتان كانتا تلوّحان بالكنز المثير ، اثناء عمليـــة المطاردة دلفت في زقاق باتجاه محل خاو كان مخبزا يمتلكه والدي ، وهناك ادركتني المعتديتان وطفقتا تنزعان عني سروالي وملبسي ، وما أن همّتا بي حتى سمعت في المشى خطوات ابي ، اذّاك تهشّـــم العش وانفقصت بييضاته البديعات الرائعات في ذاك المخبز المهجور ، بينما كنا نحن: المعتدى عليه والمعتديتان ، نكتم أنفاسنا تحت المنضدة .

اذكر كذلك انه ، ذات مرة بينما كنت أفتش عن حاجات عالمي الصغيرة

وحبواناته الضئيلة في فناء دارنا ، عثرت على فجوة في السياج الخشبي ، نظرت من خلال الفجوه فرايت حوسا شبيها بحوش دارنا ، أرضا بسورا ودشرة خلاء ، براجعت بضعة خطوات لانه نولد لدي احساس غامض مبهم بانني على وشك ان أدوس شيئا ما ، وبغتة ظهرت يد صغيرة ، انها يد طفل في سنني ، لما اقتربت من جديد لم اعثر على يد الطفل بل على حمَل صغير ابيض اللون ضئيل الحجم .

كان حمَلا ذا صوف قليل باهت اللون ، قد فرت منه العجلات التي كان يدحرج عليها ، ما رأيت طيلة حياتي حمَلا في رشاقة ذاك الحمل وجماله ، ذهبت الى بيتنا لأعود له بهدية وضعتها في المكان ذاته ! كوزا من الصنوبر ، نصف مفلوق ، ذا شذى ، بلسميا ، وكنت انا اعبده وأتعشقه.

ابدا من بعد، ما عدت فرأيت يد الطفل ، ما شاهدت قط حمَلا مثل ذاك الحمَل . لقد فقدت الحمل في حريق اختطفه مني ، وما زلت حتى الآن على كبر عمري ، حين أمر بحمَل للعب الاطفال ، انظر خاسة الى الواجهات الزجاجية ، علني اعثر عليه ، لكنني عبثا أبحث ، فلقد عجزت المصانع ان تاتي بحمَل كمثل ذاك الحمل .

الفن والمطر

مثلما كان يحل البرد والمطر ووحل الدروب ، اي شتاء جنوب امريكا المستهتر المدمر ، كان كذلك يكتسح هذه المناطق الصيف الاصفر اللافح . كانت تحيط بنا الجبال البكر ، غير اني كنت في شوق عارم لرؤية البحر والتعرف عليه . لحسن حظي استطاع ابي ذو النية الطيبة ان يحصل على دار أعاره اياها احد عرابيه العديدين في السكة الحديدية . في الساعة الرابعة ليلا (ما استطعت حتى الآن أن أعرف لماذا يقال الساعة الرابعة صباحا) ، وفي جو يسوده الضباب الكثيف ، ايقظ والدي ، السائق ، جميع من في الدار بصفارته ، صفارة سائق . منذ هذه اللحظة ما عاد ثمة سلام وهدوء ، ولا حتى ضوء ، وعلى لهب الشموع الذي كان يترنح ويذبل كلما تسللت من جميع الجهات هبات الرياح ، كانت تلوب أمي ،

اخني (لاورا) ، اخي (رودولفو) ، الطاهية ، يتراوحون من مكان الى آخر ، ويطوون الفرش الكبيرة فتغدو مثل كرات ضخمة ، ويلفونها بأقمشة من القنب الهندي ، وكان لا بد من شحن الاسرّة في القطار ، حين انطلقنا الى المحطة القريبة كانت الفرش لمّا تزل ساخنة دافئة . اما انا ، المراض والمحموم بطبيعتي ، فكنت أشعر بالغثيان والقشعريرة وقد قفزت من عز نومي ، بينما كانت التحركات في الدار تتابع من غير هوادة وبلا انتهاء . ما بقي شيء لم يحمل في سبيل هذا الشهر ، شهر عطلة الفقراء ، حتى المجففات المصنوعة من الصفصاف والتي كانت توضع فوق المجامر المتوقدة حتى تسخن ثم تجفف بها التراشف والملابس التي كانت تغدو بليلة دائما بسبب رطوبة الطقس ، قد رفعت فحشرت في العربة التي كانت تنتظر الطرود والحزم .

كان القطار يجتاز جزءاً من تلك الناحية الباردة ، من «تيموكو» حتى «كاراهوه» . كان يعبر مساحات واسعة غير آهلة لا بالبشر ولا بالزرع . كان ينسرب عبر الغابات البكر ، كان يرتجّ كأنه هزّة ارضية وهو يخترق الانفاق والقناطر . كانت المحطات تبدو منعزلة في وسط الحقول بين الاشجار الشذية وأشجار التفاح المزهرة . كان الهنود «الاراوكانوس» بأزيائهم الطقوسية وبهيبتهم العريقة ينتظرون في المحطات لكي يبيعوا للمسافرين خرافا ، دجاجا ، بيضا ، منسوجات . وكان والدي بعد الكثير من المفاصلة والمماحكة يشتري شيئا منهم . وكم كان جميلا أن يُرى وهو يشيل دجاجة حتى مهوى لحيته الصغيرة الشقراء ، في وجه امرأة «اراوكانية» جلفة عنيدة لا تخفض ثمن بضاعتها ولا بنصف فلس .

كان لكل محطة اسم جد بديع ، هذه الاسماء جميعها تقريبا كانت تراثا ينحدر من منازل «الاراوكانوس» القديمة . وهذه المنطقة كانت مجالا للمعارك الطاحنة بين الغزاة الاسبان وأوائل التشيليين ، أولئك الذين كانوا ابناء هذه الارض عن أصالة وصدق محتد .

«لابرانشا» كانت اولى هذه المحطات ، ثم تتوالى محطة «بوروا» فمحطة «رانكيلكو» . اسماء ذات شذى كشذى النباتات البرية ، كانت تأسرني بنبرات مقاطعها ، فهذه الاسماء «الاراوكانية» كانت تنبيء دائما عن شيء لذيذ :

شهد خبيء ، بحيرة او نهر ازاء غابة ، جبل بلقب عصفور . كنـــا نجتاز «امبريال» الضيعة (١٨) الصغيرة فذكرت انه هنا أعدم الحاكم الاسبانـــي الشـاعر السـيد (الونسـو دي ارثيا) · فلقـد كانـت هنـا عاصمـة الغزاة الفاتحين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فاختـــرع «الاراوكانيون» تكتيك الارض المحروقة ، فلم يدعوا حجرا على حجر في هذه المدينة التي وصفها (ارثيا) بالجمال والجلال .

لقد آن الوصول الى المدينة النهرية، فالقطار كان يطلق اكثر صفاراته فرحا وكان يغطي الحقول والمحطة بدياجير من خصلات الدخان الفحمـــي المنسدلة ، فشرعت الاجراس تدق وبدانا نتنسم عطر المجرى المديد لنهــر «امبريال» السماوي الهادىء عند اقترابه من مصبه في المحيط . انزال الطرود والحزم العديدة ، ترتيب الاسرة الصغيرة ، اركابها والاحزمة في عربة تجرها الثيران حتى نتوجه نحو المركب الذي سيهبـــط عبر نهر «امبريال» ، كل ذلك كان عملية يقودها والدي ويوجهها بعينيه الزرقاوين وبصفيره القطاري . انحشرنا نحن والحزم في البويخرة التي كانت ستقلنا الى البحر . لم يكن ثمة غرف في البويخرة ، ولذا فاني قعدت قـــرب قيدومها . كانت العجلات تحرك بريش مراوحها التيار النهري ، وكانت آلات السفينة الصغيرة تلهث وتصهل ، وكان اناس الجنوب المطرقون يمكثون بلا حراك منتشرين على ظهر المركب .

كان ثمة اكورديون يرسل نغمات اساه الرومانطيكية ، يبعث شكواه الى الحبيب . ليس من شيء يجتاح قلبا ذا خمسة عشر عاما كمثل ابحار عبر نهر عريض مجهول بين ضفاف جبلية باتجاه البحر الطلسم .

ان «باخو امبريال» (١٩) Bajo Imperial كان عبارة عن صف مـــن المنازل ذات سقوف ملونة تقوم على جبهة النهر . من الدار التي نزلناها بله

---

١٨ ـ الضيعة : هكذا في الاصل Aldea عن العربية

١٩ ـ باخو : معناها ، تحت ، فالبلدة اسمها اذن : امبريال التحتانية .

من الارصفة المتشققة حيث رسا المركب ، اخذت انصت ، من على بعد ، الى الرعد البحري، الى هيجان قصي . لقد كان التموج يتسرب الى اعماق وجودي .

كانت هـــــذه الدار التـــي نزلناها ملكـــا للسيد (اورائيـــو باتشيكـــو) ، كان مزارعا جبارا فذ"ا ، كان خـلال هذا الشهر الـــذي احتللنا فيــه داره ، يمضي عبر التلال والدروب الوعـــرة الصعبـــة بعربته وآلته الدارسة ، وكان بآلة اخرى يحصد القمح للهنود الحمر ولبعض الفلاحين النائين عن سكان الساحل . كان رجلا ضخما ، على حين غرة ودون سابق انذار او اخبار كان يقتحم الدار ويفجأ اسرتي السكك حديدية ويتكلم بصوت جهوري وبجسم مفطى بالغبار وتبن الحبوب ، ثم بالجلبة ذاتها وبالسرعة نفسها يعود الى أعماله في الجبال ، وكان بالنسبة لـــي انموذجا آخر لهذه الحيوات الصعبة القاسية في منطقتي الجنوبية .

كان كل شيء يبدو لي غريبا غامضا ، الدار نفسهـــــا ، الشوارع المتشققة ، الكائنات المجهولة التي تحيط بي ، النغم العميق للبحر المديد البعيد . كانت للدار ، كما بدا لي ، حديقة فسيحة غير منظمة ولا معتنى بها . وفي وسطها ، فسحة كانت قد أتلفتها الامطار ، وكانت هذه الفسحة مصنوعة من أخشاب بيضاء تغطيها بعض النباتات . وما من احد غـــير شخصيتي التي لا اهمية لها ، كان يأوي الى هذه الوحدة الظليلة حيث ننمو أشجار اللبلاب وزهور العسل وشعري . على فكرة ، كان في تلك الحديقة الغريبة شيء آخر يخلب الالباب ويثير المشاعر : زورق كبير ، غدا يتيما بعد أن غرقت أمه السفينة ، كان هناك في الحديقة يرقد بلا أمواج هائلة ، ساكنا بين شقائق النعمان .

ما هو غريب ايضا في تلك الحديقة البرية هو انه ، سواء أكان ذلك عن تصميم او عن غير تصميم ، ما كان يوجد من النبات الا شقائق النعمان، أما النباتات الاخرى فقد انسحبت من ذاك المكان الظليل . وكانت شقائق النعمان على أنماط وألوان مختلفة ، منها ما هو كبير ابيض كالحمامة ، منها ما هو قرمزي كقطرات الدماء ، منها ما هو بنفسجي وأسود كالأرملـــــة

المنسية . ما كنت شاهدت من قبل مثل هذه الكثرة من زهور شقائـــق النعمان ، وأبدا من بعد، ما عدت فرأيت مثلها كثرة وتنوعا . مع اني كنت انظر اليها بكثير من الاحترام والاجلال ، وبشيء من الخوف الخرافي الذي لا تبثه الا ّها من بين اصناف الزهور كلها ، فاني من حين الى حين كنت اقطف واحدة منها فتترك ساقها المهشمة في يدي حليبا خشن الملمس ، ورشة من الشذى الدفين ، ثم اداعبها وادغدغها ثم احتفظ بها في كتاب بأوراق حريرية فاخرة . لقد كانت هذه الشقائق بالنسبة لي فراشـــات كبيرة لا تحسن القفز ولا تعرف الطيران .

حين مضيت الى المحيط لاول مرة وبقيت وحيدا أمامه ، شعـــرت بالهلع والذهول . ومن هناك ، بين ربوتين كبيرتين ربوة «ال هويلكه» وربوة «ال ماوله» ، كان يصطخب غضب البحر ، ليس غضب الامواج الهائلـــة الهاوية التي تعلو عدة أمتار فوق رؤوسنا فحسب ، بل كذلك كان دوي قلب جم ، وجيب كون وخفقان يم .

هناك على شاطىء البحر ، عائلتي كانت تفترش غطيتها وتعد ّ أوانيها، وكان الاكل يبلغ فمي رملي الطعم واللون ، ولكن هذا ما كان يهمني كثيرا بل ان الذي كان يبعث في نفسي الهلع والخوف هو اقتراب اللحظة الـــتي يأمرنا فيها والدنا بالاستحمام البحري الذي كان خبزنا كفاف يومنا ، ومع اننا كنا : انا واختي (لاورا) ، بعيدين عن الامواج العملاقة ، فان الماء كان يجلدنا بضربات سياطه الباردة اللاذعة . وكنا نظن مرتعدين ان إصبع احدى الموجات سوف يجرجرنا نحو جبال البحر السامقة الرهيبة ، وعندما نتهيأ للموت وقد اخذنا نتقارب يدا بيد ، بأسنان مصطكة بردا وخوفا وباضلاع دكناء مزرورقة ، ترن الصفارة القطارية ويأتي امر والدنا لينقذنا مـــن العـــذاب .

سوف أروي الان غرائب وعجائب أخرى عن تلك المنطقة ، وسأكتفي بقصتين الاولى عن الخيول والاخرى عن دار النساء الثلاث ، الساحرات الرائعات .

في ربض البلدة كانت تشمخ بيوت كثيرة ، كانت عبارة عن أماكـــن

للدباغة ، فيما اظن . يملكها بعض «البشكنس» (٢٠) الفرنسيين ، كـان هؤلاء «البشكنس» دائما ، يقومون فى جنوب تشيلي بصناعـة الجلود ودباغتها . الحقيقة هي انني ما كنت اعرف على وجه الدقة عما كان عليه امرهم وشأنهم ، بل ان ما كان يهمني معرفته هو ان ارى الخيول وهي تخرج من بوابات كبيرة فى ساعة معينة عند الغروب لتكتسح القرية وتجتازها . كانت الخيول مؤلفة من أحصنة ومهور وأفراس ذات أجسام ضخمة قوية، اعرافها الكبيرة كانت تتدلى وكأنها ضفائر شعر او خصلات صبية على صهوات الخيل العالية ، أرجلها ضخمة متينة مغطاة كذلك بغصون من الشعر تتماوج لدى القمص كأنها مجموعة من القنابر والقنزعات والخصلات ، حمراء ، بيضاء ، وردية اللون . لو ان البراكين تخب وتقمص لبدت مثل هـذه الخيول الجسيمة الهائلة . كانت تمضي عبر الشوارع المغبرة المنقضمة كأنها الزلزال الرجراج المهزاز ، غطاريس صناديد تختال وتنوس، كانت كالتماثيل والاصنام المتحركة ، لا عد لها ولا حصر ، ابدا ما عدت فرأيت مثلها فـي حياتي ، اللهم الا تلك التي شاهدتها في الصين محفورة منحوتة في الحجر الصلد نصبا وشواهد على أجداث سلالة (مينغ Ming) ، لكن مهما كان الحجر قيّما ومقدسا فانه لا يمكن له ان يمثل او يتمثل تلك الحيوانـات الرائعة الفياضة بالحركة والحيوية ، تلك الخيول بدت أمام مخيلتي الطفولية وكأنها تنبثق من ظلمات الاحلام لنلجّ في عالم آخر ، عالم العمالقة .

والواقع ان ذلك العالم كان مكتظا بالخيول ، فعبر الشوارع ، كـان الفرسان التشيليون والالمان والهنود الحمر من قبائـل «مابوتشيس» (٢١) بعباءاتهـم المغزولة المنسوجة مـن الصوف الاسود القتتالـي ، يمتطون صهوات خيولهم او ينزلون عنها . وتبقى الخيـول الضامرة او المكتنزة ، النحيلة او الثخينة ، هناك حيث يتركها فرسانها ، تعلك الكـلأ

---

٢٠ ـ البشكنس : هو الاسم الذي اطلقه العـرب على «البسك» Vascos وهم شعب يسكن في شمال اسبانيا وجنوب غرب فرنسا ، لا يُعرف من اين جاء هذا الشعب ولا مصدر لغته ، فهي ليست من اصل لاتيني ، لم يعتنق «البسك» الديانة المسيحية الا في وقت متأخر فقد بداوا باعتناقها في القرن الثالث عشر .

٢١ ـ مابوتشيس : هو اسم آخر للقبائل «الاراوكانية» .

وعشب الدروب ، تقذف الدخان والانفاس من خياشيمها . لقــد الفت سواعد فرسانها وتعودت على حياة الدشرة الموحشة المنفردة .. ثم ، اذا جاء المساء ، تؤوب مثقلة بأكياس العلف والعدد والادوات ، تمضي نحــو الارباض البعيدة المتشابكة ، تصعد الدروب الوعرة او تقمص الى الابد في الرمال ازاء البحر . من حين الى حين كان يخرج من احدى وكالات الشغل لو من احدى الحانات المعتمة احد الفرسان «الأراوكانيين» ، يحاول ، بصعوبة، أن يمنطي حصانه الثابت الراسخ ، ثم يولي وجهه شطر داره بين الجبال، يترنح من جانب الى آخر وقد بلغت منه الخندريس غايتها . حين أراه يشرع المسير ثم يواصل الطريق ، كان يخيّل اليّ ان المسخ (٢٢) الثمل سيهوي على الارض كلما مال به جسده ناحية او اخرى بشكل خطير ، غير اني كنت أخيب في ظني وتحسبي ، فقد كان يعود فيستقيم ، ثم يميل الى الجانب الآخر مرة اخرى ثم يعود فيستقيم وهكذا دواليك ، وفي كل مرة يستعيد انفاسه ويلتصق بالسرج ، ثم يروح على ظهر حصانه يقطع فرسخا اثــر فرسخ الى ان ينصهر والطبيعة الغابية البرية كأنه حيوان ساهم متردد ، لا يصيبه سهم ولا اذية .

لقد عدنا ، دائما بالاحتفالات والتحركات العائلية عينها ، لنقضي عطلة الصيف مرات كثيرة ، الى هذه المنطقة المثيرة الساحرة . وكنت انا آخذ في النمو ، اقرأ ، اكتب ، مع مضي الزمن ، بين فصول الشتاء المرة فــي «تيموكو» وبين فصول الصيف العجيبة في الساحل .

الفت ركوب الخيل ، وحياتي كانت تصير اكثر علوّاً واوسع مدى حين أتهادى عبر الدروب الطينية المزلاجة ، عبر الطرقات المنعطفــة على حين غرّة تخفّ للترحيب بي النباتات المتشابكة ، السكون او نغم العصافــير البرية ، حفيف شجرة مزهرة ملتحفة بثوب قرمزي كأنها أسقف جليل لهذه الجبال او مندوفة بثلوج معركة ازهار مجهولة . او تبرز من حين الى حين كذلك زهرة الـ «كوبيهويه» ، هكذا فجأة ، متوحشة ، برية ، وحشية ،

---

٢٢ – المسخ : El Centauro كلمة من اصل اغريقي ، وهي في الاساطير اليونانية مسخ نصفه انسان والنصف الآخر حصان ، قد يكون **النسناس** .

مزمنة الالم والوحدة ، متدلية كأنها قطرة دم نضرة .. لقد تعودت على ركوب الخيل ، وتمرست باللجم والمهاميز القاسية التي كانت تطن تحت عقبيّ وكعبيّ . لقد بدأ اتصال ما بين سواحل لا نهاية لها وجبال كثيفة متشابكة وبين روحي ، اي بين هذه الارض ، اكثر الاراضي وحشة في العالم ، وبين شعري . هذا جرى قبل سنوات كثيرة ، بيد ان هذا الاتصال وهذا الوحي وهذا الحلف المقدس مع الفضاء ، ما فتئت جميعها تقيم في وجودي ، تستمر في حياتي .

اولى قصائدي

الآن ساروي لكم حكاية عن العصافير . كانوا في بحيرة «بودي» (Budi) يطاردون البجع بشراسة ، كانوا يقتربون منها بزوارقهم في صمت وسكون، ثم في سرعة ، في سرعة يجففون البجع ، مثل القواديس ، شروعها بالطيران صعب ؛ اذ لا بد لها من أن تجري منزلجة على سطح الماء لترفع فيما بعد بصعوبة فائقة أجنحتها الكبيرة . كانوا يدركونها فيقضون عليها بضربات هراوات ثم يحملونها .

إحضروا لي بجعة نصف ميتة . كانت واحدة من هذه الطيور التي ما عدت فرأيت مثلها في الدنيا ، بجعة ذات عنق أسود . سفينة من ثلج ، بعنق رقيق أهيف ، كأنما أدخل في جراب ضيق من حرير أسود . المنقار برتقالي اللون والعينان حمراوان .

ان هذا حدث قرب البحر في «بورتو سابيدرا» ، ببلدة «امبريال ديل سور» (٢٣)

لقد اعطونيها شبه ميتة . غسلت جراحها وحشرت لها في حلقها فتات خبز وفتايل سمك . كانت تتقيأ كل شيء . ثم اخذت تستعيد قواها وتبرأ

---

٢٣ ـ امبريال ديل سور : معناها امبريال الجنوب .

من اوجاعها ، وبدات تعي باني صديق لها . وبدات انا اعـــي ان الحنين يضنيها والشوق الى الماء ينضيها . فاحتضنت العصفور الثقيل بين ذراعيّ ومضيت عبر الشوارع لآخذها الى النهر . كانت تعوم قليلا ، قريبة مني ، كنت أريد لها ان تصطاد شيئا فأدلها على الحجيرات في القعر وعلى الرمال حيث تنزلق أسماك الجنوب المفضضة . لكنها كانت تنظر البعد فتخشاه بعينين جد حزينتين .

هكذا كل يوم ، اكثر من عشرين يوما ، كنت آخذها الى النهر وْاحملها الى بيتنا . كانت البجعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة في التفكير جدا ، سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالزبابات التي اردت بهـــا تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها الى حضني من جديد بنيّة أن احملها الى دارنا ، وما ان أوشكت ان ترتاح في صدري حتى شعرتُ ان شريطا قد انحلّ ، ان شيئا كانه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطـــه فالنفتّ وإذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت ان البجع حين تموت لا تغني .

ان الصيف لحار لافح في «كاوتين» . يحرق السماء والقمـــح . ان الارض تود لو تستفيق من سباتها . والدور لم تتخذ عدتها للصيف ، كما لم تتخذ مؤونتها للشتاء . كنت امشي عبر الحقول اسير وامشي . اضيع في تلة «نييلول» (Nielol) . هانذا وحدي ، جيبي مليء بالخنافس . في صفت صغير أحمل عنكبوتا كثيف الشعر حديث الصيد . السماء لا تُرى . الغابة دائمة الرطوبة ، اتزحلق ، فجأه يصرخ عصفور ، انه الصراخ الشبحي لـ «ال تشوكاو» (٢٤) (El chucao) . تنمو من اخمـــص قدميّ قشعريرة نذيرة رهيبة . زهور «ال كوبيهويس» هي قطرات دم تكاد لا تبين . لست غير مخلوق ضئيل تحت السراخس العملاقة الهائلة . قاب قوسين او ادنى من فمي تطير حمامة مطوقة، حفيف اجنحتها جاف خفيف. عصافير اكثر تحليقا تضحك مني وتستهزيء بي ضحكة جشاء بحيحة .

---

٢٤ ــ التشوكاو : كلمة من اصل «مابوتشي» ، وهو عصفور في حجم الزرزور ، ذو ريش اغبر اللون ، يقطن الغابات الكثيفة جدا .

اتلمس الدرب فأجده وقد لا أجده . ها هو الليل يرخي سدوله .

لمّا يات والدي بعد . سيأتي في الثالثة او الرابعة صباحا . أصعد الى غرفتي . أقرأ لـ (سالغاري) . المطر ينسكب كانه شلاّل . المطر والليل في لحظة يخفيان الكون . هاأنذا هنا وحيدا اكتب الاشعـــــار في دفتر الحساب . انهض في صباح اليوم التالي مبكرا . الخوخ لما يزل اخضر . اقفز فوق الروابي . احمل معي علبة صغيرة فيها ملح . اصعد الى شجرة. اتمركز في موضع مريح . اقضم في حذر خوخة فاتال منها فلقة ثـــم أغمسها في الملح فآكلها . هكذا الى ان التهمت مائة خوخة . من بعد عرفت انني أفرطت وافضت .

بما ان دارنا قد احترقت ، فان هذه الدار الجديدة تبدو لي غريبة عجيبة . اصعد على سور الحائط وانظر الى الجيران ؛ ما من احد . ارفع بعض العصي عن السور الخشبي ، لا شيء الا عناكب بائسة صغيرة . هناك في آخر فناء الدار المرحاض . للاشجار القريبة منه يساريع . أشجار اللوز تعرض فاكهتها المبطنة في قطيفة بيضاء . اعرف كيف اصيد قمع الذباب بمنديل دون ان أسبب لها اذى . احتفظ بها سجينة لفترة من الزمن وادنيها من أذني . يا له من طنين رائع بديع .

يا للوحدة ، وحدة طفل شاعر صغير ، يرتدي السواد ، في الثغـــر الفسيح المديد الرهيب . كانت الحياة وكانت الكتب تجعلني ارى شيئـــا فشيئا غرائب كثيرة جمة .

لا استطيع أن انسى ما قرأته تلك الليلة : فاكهـة الخبز انقـــذت «ساندكان» واصحابه في بلد بعيد يسمى «مالاسيا» .

لا يعجبني (بوفالو بيل) لانه يقتل الهنود. لكن يا له من عدّاء على الخيل ماهر سريع ! يا للمروج ويا للخيمات المخروطية الشكـــل ذات البشرات الحمــراء !

لقد سئلت مرات عديدة متى كتبت اولى قصائدي ، متى ولد فـــيّ الشعــر .

ساحاول ان اتذكر ذلك . في مهتبل طفولتي وفي بداية تعلمي الكتابة، شعرت ذات مرة بعالج عارم يغمرني فسطّرت بضع كلمات شبه مسجوعة، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الاليفة . اعدت نسخها في خط انيق بعد ان شذبتها ، كنت حينذاك اسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ، شعور مسنبطن غير مسبور ، نوع من الكآبة والاسى . كانت قصيدة موجهة الى أمي ، اي ، الى المرأة التي كنت ادعوها امي ، الى خالتي زوجة ابي الملائكية التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولتي كلها وحدب عليها ورعاها . ما كنت بقادر على تقييم قصيدتي ، اخذتها الى والديّ ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من احاديثهما هذه التي كانا يهمسان بها همسا بصوت خفيض جدا ، احاديث تفصل اكثر من نهر بين عالمين : عالم الصغار وعالم الكبار ، وكان ذاك الحديث على ما يبدو خاصا بعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت أرتعد من هول زيارة الوحي الاولى، تناولها والدي وهو ساه غافل ، فقرأها وهو ساه غافل ، أعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

— من اين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع أمي في صوت خفيض عن شؤونهما المهمة العاجلة والآجلة .

هكذا ولدت أولى قصائدي وهكذا تلقيت أولى عينات النقد الادبي الغافل الساهي .

بيد اني كنت امضي قدما في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدي أو ترتيب مثل بحار يمخر في الخضم وحده . ما كان ليرتوي او يقنع نهمي للقراءة في آناء الليل واطراف النهار . عثرت ، على الشاطىء بميناء «بورتو سابيدرا» على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل ، هو السيد (اوغوستو وينتر) . فأكبرني واكبر فيّ نهمي الادبي . «افقرأتها جميعها ؟» كان يقول لي ، وهو يناولني كتابا جديدا لـ (بارغاس بيلا) او لـ (ايبسن Ibsen) (٢٥) ، او لـ (روكامبول Rocambole) . كنت

---

٢٥ — ايبسن : هو الروائي والمؤلف المسرحي النرويجي الشهير (١٨٢٨ — ١٩٠٦) .

التهم كل شيء دون تمييز كما النعامة .

في ذاك الوقت وصلت الى «تيموكو» سيدة طويلة القامة ، ترتـــدي ملابس طويلة فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطىء قصير . انها المديرة الجديدة لمدرسة الاناث، قدمت من مدينتنا الجنوبية، من تلوج «ماغايانيس». تدعى (غابريلا ميسترال Cabriela Mistral) (٢٦) .

كنت انظر اليها وهي تجتاز شوارع قريتي بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت أخشاها . غير انه ، حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة . كانت تتألق اسنانها البيضاء في وجهها الملوّح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دنّ «اراوكاني» جميل ، حين بتسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان.
ما كنت لأكون خليلا لها لانني كنت بعد صبيا هيّابا مغرقا في التفكير والتأمل . رأيتها من بعد مرات قليلة ، وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وانا احمل كتبا تهديها اليّ ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها هي افضل واجمل ما في الادب العالمي . أستطيع القول ان (غابريلا) قـــــد اربكتني في هذه الرؤية الجدية الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس، وأن (تولستوي) و(ديستويفسكي) و(تشيخوف) كانوا الاثيرين عندي ومـا زالوا يرافقونني .

دار الارامل الثلاث

دُعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالافراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيد جدا عن القرية . استهوتني مغامرة ان امضــــي وحيدا أستجلي الدروب وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك . وان تهت فلا ريب في اني سأجد من يغيثني ويعينني . ابتعدنا : انا ومطيتي ، عــــن «باخو امبريال» واخترقنا حاجز النهر . كان المحيط الهادي هناك يفـــك

٢٦ ـ غابريلا ميسترال : شاعرة من تشيلي مشهورة جدا حازت على جائزة نوبل للآداب (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) .

عقاله فيلطم في تواتر وكرّ وفر الصخور واحراج ربوة «ماوله» . آخر تلة على الشاطيء ، شاهقة سامقة جدا . ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» . تلاطم الامواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة . كان علينا أن ننتهز تلك الفرصة ، حين تتفتت احدى الموجات، وتتقهقر لتستعيد انفاسها ، لنعبر بضيق شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة .

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر ، بدت تتجلى صفيحة البحيرة الزرقاء الساكنة . كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطيء حتى مصب بحيرة «تولتين» (Toltén) . ان هذه الشواطيء التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل أشرطة رفيعة مديدة تسمح للعابر ان يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال وإزاءه زبد البحر .

انها سواحل تبدو ابدية غير منتهية ، كأنها تشكل على امتداد تشيلي خاتما لكوكب ، خاتما محدقا تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة ، مدرجا يبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي الى ما هو أبعد من القطب الجنوبي .

على جوانب الطرقات كانت تحييني أشجار البندق ذات الاغصان المورقة الخضراء القامقة البراقة بجميع أصنافها ، ما كان منها مرصعا بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، أشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزيّنت بزنجفر فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة . سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جدا الى درجة اننا ، انا وحصاني ، كنا نسير تحت أغصانها دون ان نستطيع لمسها . وان دنت احيانا فجسّت رأسي ، فانها ترش علينا من نداها . على جانبي الايمن ، تمتد بحيرة «بودي» : صفيحة مثابرة زرقاء تتجاور والغابات النائية .

ما رأيت احدا الا في آخر الشوط ، صيادين غريبين . في ذلك المدى حيث يلتصق المحيط والبحيرة يتعانقان او يتشاحنان ، كان ثمة بعض اسماك بحرية ، تجرفها الامواه الشديدة العنيفة . اكثرها جشعا وطمعا هي الاسماك الملساء العريضة المفضضة التي كانت تتشاحن في هذه المنخفضات البحرية متخبطة تائهة . كان الصيادون ؛ واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ،

خمسة ، وهم في وضع شاقولي وفي حالة تمعن وانتظار ، يترصــــدون حالة السوق ومعرض الاسماك التائهة ، ثم على حين غرة ، يقذفون خطافا طويلا الى الماء ، من بعد يشيلون نحو الاعلى وقد غنموا تلك الالباب الكروية الشكل ، الفضية اللون التي ترتعد وتلتمع في شعاع الشمس قبل أن تلفظ انفاسها في أسفاط السمّاكة . لقد دنا الغروب . كنت قد خلّفت ورائي ضفاف البحيرة وكنت قد مارست البحث عن السبيـــــل عبر منحدرات الجبال المعقدة الوعرة . كان الظلام يمضي شبرا فشبرا . فجأة اخترق الفضاء انين عصفور وحشي مجهول كأنه همس أجش . صقر او عُقاب بدا من علوّه الشفقي وكأنه يوقف اجنحته السوداء عن الطيران ليشير الى حضوري ووجودي ، يواكبني من عل في طيران ثقيل بطيء . تعوي او تنبح او تخترق ثعالب سريعة عجولة ذات ذيول حمراء ، او وحوش ضاريـــة مجهولة من هذه الغابات السرية .

ادركت اني قد تهت . الليل والغابة ، اللذان كانا لي البهجة والسرور، ها هما يتهددانني ويتوعدانني ، يملآنني رعبا وهلعا . طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإياي في وحدة الطريق المدلهمة . حين تقاربنا توقفت فرأيته فلاحا من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له الا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحدا من هؤلاء الرعاة الذين يطلعون من السكون .

قصصت عليه ما جرى لي .

اجابني بأني لن ابلغ البيدر تلك الليلة . هو كان يعرف المكان كلـــه موضعا موضعا وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين اين يدرسون القمح . قلت له اني لا أريد ان أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه ان يرشدني الـــى موضع آوي فيه الى ان يبزغ الفجر ، فأشار لي في ايجاز بأن امضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين . «سوف ترى من بعيد بيتـــا خشبيا كبيرا ذا طابقين» ، قال لي .

ــ اهو فندق ؟ سألته .

ــ كلا ، ايها الفتي ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة . انهن ثلاث

فرنسيات يعملن في تجارة الاختشاب ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة . انهن طيبات المعشر مع الناس جميعا . ولسوف يأوينك ويرحبن بك .

شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة . هو ابتعد يخب بــه حصانه المقوّض وانا سلكت الدرب الضيق كأني نفس في جوى واسى . هلال بكر ابيض معقوف كقلامة ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلا انوارا ، لا مندوحة في انها منبعثة من منزل. اجهدت حصاني قبل ان تحرمني الأقفال والمفاتيح من دخول ذاك المعبد ذي الاعاجيب .. اجتزت حواجز الحمى ، متجنبا جذوعا مقطوعة وجبالا مــن نشارة ، وصلت الى الباب بله الى رواق ابيض لتلك الدار الضائعة في تلك الانحاء المنفردة المتوحدة . ناديت من وراء الحجرات ... قرعت الباب ، بادئا في رفق ثم فــي قوة ثم في عنف . حين يئست وقد مرت دقائــق رهيبة ، وظننت ان ما في الربع من احد ، اطلت سيدة ذات شعر ابيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بَين بَين ، كي تستقصي الطارق القادم في غبر وقت .

من انت وماذا تريد ؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .

لقد تهت في الغابة . انا طالب في مدرسة . دعاني لحضــــور درس الحنطـــــة على البيــدر آل (ايرنانديث) لقـــــد انهكني المســـير . لقد قيل لي انك واختيك فعّالات للخير ، لست ابغي الا ان انام في اي ركن وأن أواصل حين يطلع الفجر طريقي نحو حصاد آل (ايرنانديث) .

تفضـّل ـ اجابتني ـ لأنت في بيتك .

قادتني الى بهو معتم وهي بنفسها اشعلت قنديلين او ثلاثة من زيت القطران . لاحظت ان القناديل جميلة Art - nouveau (٢٧) ، مــــن

---

٢٧ ـ Art nouveau : التعبير فرنسي ، معناه : فن حديث .

البرونز المذهب . البهو يفوح برائحة الرطوبة . ستائر كبيرة تنسدل على النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها . مم ؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومغلق كالحلم . السيدة الساهمة الحالمة ذات الشعر الابيض كانت تتحرك دون ان أتبين لها قدما او أن أسمع لها خطوا ، يداها تلمسان شيئا او آخر ، مجمع صور ، مروحة ، هنا او هناك داخل السكون .

تخيلت اني قد هويت الى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقا منهوكا . فجأة دخلت سيدتان طبق الاصل من التي استقبلتني . كان الوقت متأخرا وكان ثمة برد شديد . جلستا من حولي ، احداهما في ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق والاخرى تنظر الي بعينين كئيبتين ، كعيني التي فتحت لي الباب .

ابتعد الحديث كثيرا عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة بآلاف الحشرات ، المخترقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية . سألنني عن دروسي . فاجأتهن حين لفظت على غير توقع منهن اسم (بودلير) (٢٨) واستغربن حين قلت لهن بأني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن . تغيرت عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما لو ان ثلاثة براقع نزعت عن وجوههن ذوات الملامح العتيقة .

ــ (بودلير) ــ هتفن . لعل هذه هي المرة الاولى التي فيها يتلفظ باسمه في هذه الاماكن المنعزلة منذ ان وجد الكون . لدينا هنا كتابه Fleurs du mal (٢٩) . ليس من احد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة في هذه الاماكن على مسافة دائرة قطرها ٥٠٠ كيلومتر . لا احد يعرف

---

٢٨ ــ (شارل بودلير) : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ ــ ١٨٦٧) .
٢٩ ــ Fleurs du mal : بالفرنسية ، ازهار الشر .

الفرنسية في هذه الجبال .

اثنتان من الاخوات الثلاث ولدتا في «افينيون» (Avinon) ، الصغرى تشيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعا . جدودهن ، آباؤهن ، اقرباؤهن جميعا ، ماتوا منذ زمن بعيد . هن الثلاث كنّ قد تعودن على المطر ، على الريح ، على نشارة الاخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من الفلاحين البدائيين والخدم الاجلاف المتأخرين . قرون البقاء هنا في هذه الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المسننة الوعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء الى السيدة الكبرى . حينذاك خرجنا بإشارة منها عبر دهاليز باردة جدا الى غرفة الطعام . اندهشت وذهلت . في وسط القاعة ، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين ، مضاءة بشمعدانين من فضة مليئين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان معا على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاحني حياء عارم ، كما لو ان الملكة (فيكتوريا) كانت قد دعتني الى وليمة في قصرها . فقد جئتهن اشعث الشعر ، مغبر الثياب ، مرهق الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة امير ، وانا على حالتي ابعد الناس عن ان اكون اميرا ، بالاحرى كنت ابدو وكأني راعي بغال برائحة كريهة ، ترك عند الباب قطيع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جدا أكلت كمثل هذه المرة ، مضيفاتي كنّ معلمات في الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطييب.

على الرغم من ان التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فاني كنت أسمعهن يتحدثن عن اشياء غريبة . كان فخر الاخوات الاعظم الاكبر هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة ارث مقدس ، ممارسة ثقافة لن يعدن اليها ابدا وقد عزلهن عن وطنهن الزمن العتي والبحار الهائلة . أرانني ، كأنهن يستهزئن من انفسهن ، سجلا غريبا .

ـ نحن عجائز معتوهات ـ قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابرا قصدوا هذه الدار النائية ، بعضهم بغرض التجارة وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة. ما لم يثر من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد من زوّارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الاكل التي أعددنها في كل مناسبة .

ـ نسجل وجبة الاكل حتى لا نقدم منها ولا طبقا واحدا فيما اذا عاد فزارنا من كان قد تذوق هذه الاطباق من قبل .

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق . عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابسي. عندما أسرج لي الحصان احد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح .

ما تجرأت على توديع السيدات الكريمات السخيات اللابسات ثياب الحداد. في أعماقي شيء كان يقول لي ان ذلك كله كان حلما غريبا لذيذا، وانه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحدث اربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة مراهقتي . فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن (أزهار الشر) في وسط تلك الغابة البكر ؟ ماذا حصل لزجاجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة ؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الاشجار ؟.

لا بد انه طرأ ما هو أبسط شيء ! الموت والفناء . ربما ان الغابة التهمت تلك الحيوات وتلك القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية. لكنهن ما زلن يحيين في ذاكرتي كما لو كنّ في عمق بحيرة الاحلام الشفّاف . مجدا وطيبا لهاته النساء الثلاث الحزانى اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصنّ لياقة عريقة . كنّ يدافعن عما اتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، اي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيذة ، هناك بعيدا ، في اقصى حدود جبال هي اكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

الحب ازاء القمح

وصلت الى مرابع آل (ايرنانديث) قبل الظهيرة ، منتعشا جذلا ، موكبي المنفرد عبر الدروب الخالية ، استجمامي من الارهاق والوسن ، كل ذلك كان يتألق في شبابي الصموت ويبدو على محيّاي النضر .

في ذلك العهد كان درس الحنطة والنبوبان والشعير تقوم به دابة تلف وتدور . ليس من شيء في العالم أروع وأبدع من رؤية دوران الافراس وهي تخب حول اكداس الحبوب المكومة ، تحت صراخ الفرسان المزعج لها كي لا تحرن او تراوح او تماطل . الشمس تشرق رائعة باهرة ، النسيم كأنه الماسة برية غابية تجعل الجبال تلتمع تحت أشعة الهجير . ان الدرس لهو مهرجان ذهبي . التبن الاصفر يتكوم في جبال مذهّبة ، كل شيء كان نشاطا وفعالية وبهجة ، اكياس تجري فتملأ ، نساء تطهو ، احصنة تعلك الشكيمة ، كلاب تنبح ، اطفال لا بد من انقاذهم في كل لحظة يبدون وهم يلعبون كأنهم اوراق التبن او ارجل الخيول .

ان آل (ايرناندث) هم قبيلة فريدة في نوعها . كان رجالهـــا شعث الشعر ما تطيبوا ولا حفوا ذقونهم يوما ، يمضون ، دائما ، بـــلا سترة مكتفين بأكمام قمصانهم ، مسدساتهم في احزمتهم ، مدسمين بالزيت ، او معفرين بغبار الحبوب ، او موحلين بالطين ، او مبتلين حتى العظـــام بالامطار . كانوا جميعا ، آباء ، ابناء ، احفادا ، اعماما ، اخوالا ، ابنـــاء عمومة ، ابناء خؤولة ، انسابا ، اصهارا ، يبدون في مظهر من البداوة والجلافة ينم عنهم ويدل عليهم . يمكثون ساعات بكاملها منهمكين فـــي اصلاح محرك ، او مجففين سلائقهم على أسطحة منازلهم ، او متسلقين آلة حاصدة او دارسة . ابدا ما كانوا يتحدثون او يثرثرون . ما كان كلامهم الا مزاحا في كل امر اللهم الا حين يتشاحنون ويتخاصمون ، فهم فـــي العراك والنزال اعاصير بحرية ، يقوضون كل من او ما يقف في وجوههم . اما في الشواء ، وبخاصة شوي رؤوس الغنم ، في النبيذ الاحمر ، فى القيثارة النوّاحة فقد كانوا جهابذة أوائل . كانوا رجالا من الثغر ، اي القوم الذين أعجب بهم ويطيبـــون لي . كنت احس انا الطالب الشاحب بضآلتي وصغري ازاء أولئك البرابرة النشيطين الفعالين ، وهم ، لست

أدري السبب ، كانوا يعاملونني بلطافة لم تكن لاحد غيري .

بعد الشواء والقيثارة والتعب المنعمي من شمس ومن قمح ، كان لا بد من ترتيب الامور لقضاء الليل ، المتزوجون مع زوجاتهم، والنساء الوحيدات، جميعا رقدوا في الخيمة المنصوبة على عمد حديثة القطع . اما نحن الفتيان فقد خصص لنا البيدر لننام عليه . ان البيدر بجبله التبني يمكن لقرية بأسرها ان تترصع في طراوته الصفراء .

كان ذاك الموضع بالنسبة لي مزعجا مقلقا ، لم اكن اعرف كيف اتصرف ، كيف أتمدد ، وضعت في حذر حذائي تحت طبقة من التبن لتكون لي مخدة او وسادة ، نزعت ثيابي ، التحفت بعباءتي وغطست في جبل التبن . كنت بعيدا عن الآخرين جميعا ، لكنهم سرعان ما اخذوا بالتنخير في عزف جماعي .

مكثت هكذا فترة طويلة ، مستلقيا على ظهري ، عيناي محدقتان في السماء ، وجهي وذراعاي مغطاة بالتبن . كان الليل جليا باردا لاسعا ، ما كان القمر قد طلع في السماء لكن النجوم تبدو حديثة الابتلال بالمطر، وفوق نوم الآخرين الاعمى كانت تتلألأ في حضن السماء لي ، ليس غير .

ثم غفوت قليلا فصحوت لان شيئا ما كان يدنو مني ، جسم شيء كان يتحرك من تحت التبن ويقترب شيئا فشيئا من جسدي ، شعرت بالخوف، هذا الشيء كان يقترب اكثر فأكثر ولكن في تؤدة ، شعرت ان اقذاء التبن كانت تتكسر من حولي تتهشم كلما تماست والجسد الزاحف ، كان جسدي جميعه في حالة طوارىء ، اترقب مرتعدا ، كدت انهض ، كدت أصرخ ، لكنني بقيت جمادا بلا حراك ، أسمع انفاسا قرب راسي .

على حين غرة تحسستني يد ، يد كبيرة ، خشنة الملمس كيد عاملة ، بيد انها يد انثى ، لمست جبيني ، جفني ، وجهي ، كل وجهي ، بعذوبة، ثم ان ثغرا نهما التصق بفمي فأحسست على طول جسدي حتى أخمص قدمي بجسد امرأة كانت تشدني وأشدها شدا .

لذة عارمة كانت تهزم دياجير خوفي شيئا فشيئا ، أجلت يدي في

خصلات شعر منسدل ، فوق جبين أملس ناعم، على عينين بجفنين مطبقين ناعمين لزجين كشقائق النعمان ، يداي راحتا تبحثان عن كنوز ، لقفت نهدين راسخين عظيمين ، جسست اردافا عريضة ، لمست ساقين التفتّتا بساقيّ ، أفرقت أصابعي في عانة غضّة بضّة مثل طحالب الجبال . ولا بكلمة واحدة نبس ذلك الثغر المجهول .

كم هي صعبة ممارسة المضاجعة دون اثارة ضجيج ولا حتى حفيف في جبل من تبن مجوف بسبعة او ثمانية من الفتيان الغارقين في النوم الذين ان اوقظوا غضبوا وأثاروا التبن والفضيحة . غير ان الفتى لقادر على انجاز كل شيء مهما كلفه من جهد وحذر . وما ان مضى هزيع من الليل او بعضه حتى همدت تلك المجهولة نائمة قربي ، وانا محموم مـــن تلك الحالة ، بدأت بإثارة الفزع في نفسي . عما قريب سينبثق الفجر ، كنت افكر ، أوائل العاملين في البيدر سيجدون هذه المرأة عارية ، مستلقيـة قربي . لكنني انا كذلك أخلدت للنوم ، وحينما صحوت مددت يدي فزعا فما لمست غير فجوة باردة وما وجدت الا غيابها وارتحالها . ها هو عصفور يزقزق ثم ضجت الغابة وامتلأ الجبل أغاريد واناشيد . رن مزمار آلة وإذ بهم جميعا رجالا ونساء ينطلقون نحو البيدر يكدون ويعملون . بدأ يـــوم للدرس جديد .

عند الظهيرة بينما كنا متحلقين حول طاولات كبـــيرة ، وبينما كنت انظر وانا آكل ، نظرات خاطفة ، باحثا عن زائرتي في الظلام ، بين النساء، أهذه هي ؟ لا . فهذه عجوز شمطاء ، أتلك ؟ كلا فهذه نحيفة ضامرة . انا أبحث عن امرأة مكتنزة رداح بنهدين طيبين وبذوائب مسترسلة طويلة، واذ بامرأة تتقدم ومعها شريحة من اللحم المشوي ناولتها لزوجهـــا من آل (ايرنانديث) أهذه ؟ ، أجل ، قد تكون هي . حين رمقتها من طرف المائدة وهي في الطرف الآخر ، لاحظت ان تلك السيدة الجميلـــة ذات الذوائب المسترسلة لحظتني بنظرة سريعة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة جدا . غير ان هذه الابتسامة كانت تكبر في عينيّ ، تتعمق في قلبي ، تتفتح فـــي جسدي .

الفصل الثاني

... ضائعاً في المدينة

غرف للايجار

بعد عدة سنوات قضيتها في المدرسة حيث كنت دائما اتعثر في شهر كانون اول بامتحان الرياضيات ، اصبحت مهيأ ، خارجيا ، لمواجهة الجامعة في «سانتيافو» بتشيلي (١) . اقول ، «خارجيا» ، لانه «داخليا» كان رأسي مليئا بالكتب والاحلام والقصائد التي كانت تئز كالنحل .

مجهزا بصندوق من صفيح ، بالبدلة التي لا غنى عنها ، بدلة الشاعر

---

١ ـ سانتيافو Santiago : هي عاصمة تشيلي ، وتذكر معها ، عادة ، كلمة «تشيلي» تمييزا لها عن مدينة اخرى بهذا الاسم تقع في شمال غرب اسبانيا وهي (Santiago de compostela) وكان العرب يدعونها ، «شانت (قديس) يعقوب» .

السوداء ، نحيلا جدا ومبربا كشفار ، صعدت فى الدرجة الثالثة للقطار الليلي الذي كانت رحلته تستغرق يوما بليله ونهـــاره في الوصول الى « سانتياغو » .

ما زلت اذكر لهذا القطار حتى الساعة سحره الغريب، فلطالما سافرت فيه وهو يجتاز مسافات مختلفة ومناطق عديدة وأجواء متباينة . كانت تجري فى عربات الدرجة الثالثة حباة بكاملها ، فلاحون بعباءات تتقطر ماء وبسلال مكتظة بالدجاج ونساء من قبائل «مابوشـه» (Mapuche) عابسات متجهمات . الكثيرون كانوا يسافرون مجانا دون ان يدفعوا شيئا. على ما يبدو المفتش كان يمسخ الارواح والاجساد . بعضهم يختفي ، بعضهم يختنق تحت عباءة يجلس فوقها حالا اثنان ويتظاهران بأنهما يلعبان الورق فيمر المفتش دون ان تلفت نظره هذه الطاولة التي نصبت فجأة .

كان يمر القطار من حقول البلوط والصنوبر والبيـوت ذات الخشب البليل ، الى حور أواسط تشيلي ، الى الابنية المعمولة من الطوب المغبر . مرات كثيرة قمت بهذه الرحلات ذهابا وأيابا بين العاصمة والناحية لكنني دائما كنت اشعر بالاختناق حين اخرج من الغابات الكبيرة ، من جوف أمي، من الخشب . بيوت الطوب واللبن ، المدن ذات الماضي العريق ، جميعها كانت تبدو لي مليئة بالهلل والسكون والعناكب والدخان . ما زلت حتى الان شاعر الزوابع والاعاصير ، شاعر الغابة الباردة التي فقدتها منذ ذلك الحين .

لقد نصحت قبل المجيء من قريتي باستئجار غرفة في بيت يقع في شارع «ماروري» (Maruri) رقم البيت هو ٥١٣ . لا أنسى هذا الرقم ابدا . قد أنسى التواريخ كلها والسنين جميعها ، لكن هذا الرقـم ٥١٣ سوف يبقى حيا في دماغي ما حييت ، اذ اني حشرته فيه منذ كثير مـن السنين خوفا من أن لا أبلغ هذا البيت وأن اتيه في العاصمة المجهولـــة الكبيرة . في الشارع المذكور أعلاه وفي البيت المذكور في دماغي وعلى شرفة غرفتي كنت أجلس ارقب حشرجة المساء ، أجلي النظر في السماء المزدانة بالرايات بألوانها البديعة من أخضر وازرق وأحمر قان ، ألمح كآبة اسطحة منازل ضواحي المدينة المهددة بحريق السماء .

حياة الطلبة في غرف الإيجار هذه خلال تلك السنين العجاف كانت جوعا على جوع . كتبت شعرا اكثر مما كنت كتبت من قبل لكنني كنت آكل أقل بكثير . لقد هلك الكثير من الشعراء الذين عرفتهم في تلك الايام بسبب صوم الجوع الصارم . من بين هؤلاء اذكر شاعرا كان في عمري لكنه اكثر طولا واسوأ رفلة مني . شعره الغنائي القتيب مفعم بالهيولي والشفافية . كان حيث ينشد تنتشي الاجواء وتطرب الاسماع . يدعى (روميو مورغا) .

ذهبنا : هو وانا ، ذات مرة لننشد أشعارنا في مدينة «سان برناردو» القريبة من العاصمة . قبل أن نصعد المنصة لانشاد شعرنا كانوا قد احتفلوا باختيار ملكة الزهور ، فهناك كانت الملكة بثيابها البيضاء وشعرها الاشقر، كان وجهاء المدينة قد القوا خطبا رنانة ، والفرق الموسيقية قد عزفت الحانا نشازا ، عندما صعدت وبدأت بانشاد اشعاري في صوت متأوه ، لم يكن في العالم كله صوت اكثر منه تأوها ، تبدل كل شيء ، الجمهور يعطس ، ينكت ، يتلهى بشعري الكئيب الحزين . حين رأيت هذه الاستجابة المخزية من قبل هؤلاء البرابرة الهمج أسرعت في القراءة وأوجزت فنزلت تاركا المنصة لزميلي (روميو مورغا) . ان ما حدث عند ذلك لجدير بالتخليد والذكر . فما ان صعد (دون كيخوته) (٢) هذا الفارع الطول بثيابه الغامقة الرنة المضحكة وأخذ ينشد بصوت اكثر من صوتي انينا وتأوها ، حتى بدأ الجمهور وقد فقد قدرته على ضبط النفس وكظم الغيظ ، بالصراع والهناف : «يا شعراء الجوع ، لا تفسدوا لنا الاحتفال» .

من تلك الغرفة بشارع «ماروري» انسحبت مثلما ينسل رخوي من صدفه . ودعت ذيل السلحفاة ذاك لكي أتعرف على البحر ، اي ، على العالم . البحر المجهول هو : شوارع «سانتياغو» التي ما كنت شاهدتها من قبل حين كنت أمضي غاديا او رائحا ، ذهابا او ايابا بين الجامعة العتيقة

---

٢ ـ دون كيخوته (Don Qijote) : هو بطل رواية (سيرفانتس) الخالدة المعروفة بهذا الاسم ، والنطق هو كما رسمناه ، وليس (دون كيشوت) الذي اخذنا نطقه عن النطق الانجليزي او الفرنسي ، حيث لا تنطق الخاء كما هو في الاسبانية والعربية معا .

والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع «ماروري» رقم ٥١٣ .

كنت أدري ان مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة . اكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كنّ ينقذنني بحبة بطاطا او برأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء . لكنما ، لم يكن من ذلك بد ؛ الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لالبيها او هكذا خيّل اليّ .

ان اول تحفة مستقلة ملكتها كانت غرفة استأجرتهـــــا في شارع « ارغوبيس » (٣) قريبـــــة من المعهــــد التربـوي . فـــــي احدى نوافذ هذا الشارع الرمادي كانت تطل لافتة مكتوب عليها : «للايجار» . صاحب الدار كان يشغل الغرف المطلة على الشارع . كان أشعث الشعر شائبه ، له مظهر نبيل ، ذا عينين كانتا تبدوان لي غريبتين . كان ثرثارا متحذلقا . يكسب عيشه بمقصه ومشطه فقد كان حلاقا للسيدات ، لكنه لم يكن يولي اهمية لهذا الفن ، اذ ان اهتماماته قد انحصرت واقتصرت ، حسب ما شرح لي ، على العالم اللامرئي ، على عالم ما هناك ، عالم ما وراء الطبيعة .

اخرجت كتبي وملابسي الزهيدة القليلة جدا من الحقيبة والصندوق اللذين جاءا معي من «تيموكو» واضطجعت على الفراش لاقرأ ، لانام ، معتزا باستقلالي مزهوا بكسلي .

لم يكن للدار فناء بل دهليز تطل عليه غرف مغلقة لا حصر لها ولا عد . حين سبرت أغوار الدار المتوحدة الخالية في صباح اليوم التالي ، لاحظت ان على الجدران وفي المرحاض لوحات معلقة مكتوب عليها كلها العبـــــارة التالية : «اقنعي . لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» . في كـــــل موضع علّقت لافتة كأنها اشارات تحذير وخطر ، في غرف النوم ، في

---

٣ — ارغوبيس : سوف يسكن (نيرودا) في شارع او بالاحرى حي بهـذا الاسم نفسه حين يسافر الى مدريد .

غرفة الاكل ، في الدهاليز ، في القاعات ، كلها تقول : «اقنعـــــي ، لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» .

كان الفصل شتاء ، من هذه الفصول الشتوية القارصة الصقيعية ، في «سانتياغو» تشيلي . لقد ورث بلدي عن الاستعمار الاسباني ازدراء الطبيعة الصارمة وعدم الارتياح اليها (بعد خمسين سنة على حدوث مـــا اورويـــه الان ، قال لي (ايليا ايهريمبـورغ) انه مـــا احس ببـرد اشد مما احس به في تشيلي ، في اي مكان من العالم البتة ، وهو كان يعيش في موسكو المثلجة دائما) . كأن ذلك الشتاء لغزارته قد طلى الزجاج بمادة مانعة للتأكسد . أشجار الشوارع ترتعد بردا . خيول العربـــات القديمة تقذف غيوما دخانية من خياشيمها ومخاطمها . لقد كانت تلـــك الفترة أسوأ فترة يحياها المرء في تلك الدار ، بين ايماءات الجن وتحذيرات ما وراء الطبيعة .

شرح لي صاحب الدار حلاق السيدات الالمعي وطبيب العيون اللوذعي في جدية بينما كان يغرز عينيه في أعماق عينيّ ، كأنه مجنون بعينين لا تهدآن ولا تستقران ، فقال :

ــ لقد ماتت زوجتي (لا تشاريتو) (٤) منذ اربعة شهور . ان حالـــة الموت حالة صعبة بالنسبة للاموات . هم يرتادون دائما الاماكن نفسها حيث كانوا يحيون . نحن لا نراهم ، لكنهم هم لا يعرفون بأننا لا نراهم . لا بد من اشعارهم بأننا لا نراهم حتى لا يظنوا بأننا غير مبالين بهم وكيلا يتعذبوا من اننا لا نراهم . لذلك وضعت هذه اللافتات وكتبت عليها هذه العبارة حتى تدرك (لا تشاريتو) حالتها الآنية المؤقتة في أنها متوفاة .

لكن الرجل ذا الشعر الرمادي قد يكون حسبني حيا بإفراط وزيادة فقد بدأ يراقب دخولي وخروجي ، يقيد عدد من يزورنـــي من الاناث ،

---

٤ ــ لا تشاريتو : هو تصغير تحبب لمن تسمى Charo ، وأداة التعريف ، المؤنثه هنـــا : (La) ، لا تدخل على اسم العلم الا للتحبب او التحقير .

يتجسس على رسائلي وكتبي . كنت الج الى حجرتي في غير الوقت المعتاد احيانا فأجد طبيب العيون يتفحص اثاثي الضئيل ، يجس حوائجي الفقيرة.

كان لا بد لي من ان ابحث في عز الشتاء ، متخبطـــا في الشوارع العدائية ، عن مأوى جديد حيث احفظ استقلالي المهدد . عثرت عليه في مكان قريب من ذاك ، على بعد بضعة امتار من هناك ، في مغسلة من هذه المغاسل الكبيرة . بدا للعيان وللعين ان صاحبة هذه المغسلة ليست لهـــا علاقة بما وراء الطبيعة . بعد اجتياز فناءات باردة وباحات كأنها البحيرات وينابيع ماء راكد لا دافق حيث الطحالب المائية تغطي سجاجيد متينة خضراء وعلى الجانبين تمتد حدائق مهملة مهجورة ، وصلت الى غرفة ذات سماء وجدران ملساء جرداء ، ذات نوافذ متسلقة مثقوبة فوق ساكف الابواب العالية الفسيحة . وهذا ما جعل المسافة بين الارضية والسقف تكبر في عينيّ وتعظم في تقديري . في هذه الدار وفي هذه الغرفة مكثت .

لقد كنا نحن الشعراء الطلبة نحيا حياة غريبة عجيبة . انا دافعت عن عاداتي الريفية ، كنت أشتغل في غرفتي ، اكتب عدة قصائد في اليوم ، اتناول طاسات من الشاي لا تنتهي. كنت أطيّب الشاي وأعدّه انا بنفسي. لكن ، خارج غرفتي وبعيدا عن شارعي ، انطلق كما اهوى فقد كان لفوضى تلك الفترة واضطرابها جاذبيتها الخاصة . زملائي ما كانوا ليرتادوا المقاهي بل الخمارات والحانات . كانت الاحاديث والاشعار تروح وتجيء حتى مطلع الفجر ، ودراستي تروح وتجيء لاعنة شاتمة .

كانت شركة السكك الحديدية تهب والدي بردة ذات نسيج سميك رمادي اللون ، تقيه البرد والصقيع ، لكن والدي ما استعملها ابدا فوهبها للشعر . بدأ ثلاثة من زملائي الشعراء او اربعة منهم يشتملون ببرود شبيهة ببردتي التي كنت اعيرها كذلك لآخرين . هذا الطراز من الثياب كان يثير حفيظة الناس : الطيب منهم والسيء . كانت تلك الفترة هي فترة رقصة «التانغو» التي قدمت الى تشيلي ليس بأنغامها و«مقصها» العازف ، بآلات «الاكورديون» ووقع الحانه ، فحسب ، بل كذلك بجوقة من الصعاليــك الاوغاد الذين اكتسحوا الحياة الليلية والزوايا التي كنا فيها نجتمع .

ان هذه الطغمة من الاوباش ، برقصهم وعربدتهم ، كانوا يشنـــون المعارك ضد برودنا ووجودنا ، فكنا نحن الشعراء نكيل لهم الصاع صاعين ونقاومهم ببسالة وصلابة .

فى تلكم الايام اقتنيت صداقة غير متوقعة ، صداقة ارملة ما نسيتها قط ، ذات عينين زرقاوين واسعتين تعبران في حنان ورقّة عن ذكــرى زوجها الحديث الوفاة . كان زوجها روائيا شابا ، شهيرا برشاقته البديعة. كانا قد كونا معا تنائيا جديرا بالذكر والذكرى ، هي بشعرها القمحـــي وجسدها المتقن الصنع وعينيها المحيطيتين وهو بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة . الروائي هلك من بعد بمرض السل ، من هذا النوع الذي ينعتونه بالسل المستعجل . من بعد فكرت في ان رفيقة حياته الشقراء لا بد انها ساهمت بنصيبها من السل المستعجل في القضاء عليه فهـــي «فينوس» السل والشبق ؛ فالسل المستعجل ، قبل اكتشاف البنسلين ، وهـــذه الشقراء الملتهبة ، نقلا من هذا العالم ذاك الزوج المتين كالصنم في اشهر معدودة .

لم تكن تلك الارملة الجميلة قد نزعت عنها بعد ، لي ، ثيابهـــا الغامقة المنسوجة من حرير اسود وبنفسجي ، التي كانت تجعلها تبدو وكأنها ثمرة يانعة رطبة محفوفة بلحاء من سواد . هذا اللحاء انزلق ذات مساء فـــي غرفتي ، هناك في عمق المغسلة ، فلمست وقطفت تلك الفاكهة الخالدة من ذوات الثلج المحرق والرونق المتوهج . حين اوشكت الغيبوبة الطبيعية على الاستنفاذ ، لمحت تحت عينيّ عينيها وهما تطبقان تغيبـــــان وهي تصرخ متنهـــــدة او جاهشة : « آه ، إيـــه ، آي » (روبرتـــو ، روبرتو) . (بدا لي ذلك كأنه مشهد من الاعمال الطقوسية . العذراء في المعبد الروماني تنادي الإله المختفى قبل ان تستغرق في طقس جديد) .

على الرغم من شبابي المتدفق الظمىء فان هذه الانثى بدت لي مفرطة في سغبها وغليلها . كانت تهيجاتها وتهييجاتها تزداد استعجالا في كل مرة وقلبها المتقد الحار يقودني شيئا فشيئا الى هلاك عاجل : وما كانت الغلمة لتتوافق مع الفاقة وعدم التغذية . وفاقتي كانت في كل يوم تغدو اكثر مأساوية .

الخجـل

ان الحقيقة هي انني عشت خلال كثر من سنواتي الاولى ، قد تكون سنوات العقد الاول والثاني من حياتي ، كأنني أصم" ابكم .

كنت ارتدي رداء اسود منذ صباي ، اقلد بذلك شعراء القرن الماضي الاصيلين ، فقد كان لي انطباع غامض بأني لست قبيح المظهر . لكنني بدل من ان أقترب من الفتيات كنت افضل ان أمر" بهن جانبا وابتعد عنهن مظهراً لامبالاة بهن . الحق يقال اني كنت في داخلي اهتم بهن وابالي غير اني كنت أخشى ان دنوت منهن وكلـّمتهن ان أتلعثم او احمر خجلا امامهن . لقد كن بالنسبة لي طلسما وسرا عميقا لا نسبر أعماقه . وددت لو اني امـــوت احتراقا في هذه المجمرة السحرية ، اختناقا في هذه البئر ذات القاع اللغز بيد اني ما كنت لأجرؤ ان اقذف بنفسي الى النار او الى اللجة . ربما كان سبب ذلك هو اني ما عثرت على من يدفعني فأنقذف . كنت احاذي ضفاف السحر دون ان التفت ولو بنظرة او ابتسامة .

الشيء نفسه كان يقع لي مع الكبار ايضا ، مع اناس فقراء ، مــــع مستخدمين في السكك الحديدية او في البريد ، مع «سيداتهم حرمهم» ، فهكذا كانوا يدعونهن اذ ان البورجوازية الصغيرة كانت تشعر بالفضيحـــة والعار ان لفظت كلمة «امرأتي ، امرأتك ، امرأته» . كنت انصت للاحاديث في مجالس والدي ، لكن ، اذا ما صادفت في اليوم التالي ، احدا من الذين كانوا قد تعشوا في بيتنا الليلة البارحة ، ما كنت أجرؤ على تحيته او رد السلام عليه ، بل انني كنت اغيّر سبيلي كي اتفادى اللحظة الحرجة .

ان الخجل لهو طبع غريب ، انه لمرتبة ، انه لمدى يطل على الوحـــدة والشعور بالانفراد والعزلة . وهو كذلك معاناة لا تنفصم عن المعايشة فكأنما للمرء بشرتان اثنتان : الباطنية منهما تشمئز وتتشنج تجاه الحياة . ان هذه الميزة وهذه الأذية بين بني الانسان ، لهما جزء من السبيكة التي تدعم ، في ظرف مديد ، تأبيد الوجود وتخليد الانسان .

لقد استغرق تثاقلي في المسير ، اغراقي في التفكير المستديم فترة

اكثر مما يجب . عندما قدمت الى العاصمة تباطأت في كسب الصديقات والاصدقاء . كلما أولاني احدهم اهمية اقل اوليته صداقتي بسهولة أقل. ما كان عندي اذاك فضولية في التعرف على النوع البشري . لا استطيع أن اتعرف على اناس هذا العالم كلهم ، كنت اقول في نفسي . وهكذا نشأت في بعض الاوساط فضولية شاحبة حول هذا الشاعر الجديد ذي ١٦ سنة من العمر او اكثر قليلا ، فتى منطو منعزل يُرى في مجيئه وذهابه وهو صامت ساهم لا يلقي السلام ولا يرد التحية ، لا يـودع ولا يستودع . بالاضافة الى انني كنت ارتدي بردة طويلة من الطراز الاسباني تجعلني أشبه شيء بفزاعة عصافير . ما كان احد يظن ان ردائي الفضفاض هذا كان نتاجا مباشرا لفقري وعوزي .

من بين الذين استقصوا عني واهتموا بي اثنان كانا من أبرز طليعة تلك الفترة في التانق وحب البروز : (بيلو يانيث) وزوجته (مينا) . كانا يمثلان الانموذج الكامل في البطالة الرائعة التي وددت أن احياها ، غير انها بعيدة المنال بالنسبة لي ، أبعد من حلم جميل . لاول مرة في حياتي تلك دخلت الى دار ذات تدفئة وثريات بديعة هادئة ومقاعد لطيفة مريحـة وجدران طافحة بكتب أكعابها مختلفة الالوان والاشكال كأنها ربيع دائم . آل (يانيث) كانوا يدعونني مرات كثيرة لزيارتهم فقد كانوا كرمـاء رصينين لا يعيرون اهتماما لبداءة بردتي الغريبة ، بردة الرهبنة والتأمل والانكباب . اغدو من بيتهم راضيا فيلاحظون ذلك فيدعونني من جديد فالبي راضيا .

في تلك الدار رأيت لاول مرة لوحات تكعيبية ومن بينها لوحة (خوان غريس Juan Cris) (٥) . أخبروني أن (خوان غريس) كان صديقا لعائلتهم في باريس . لكن أكثر شيء لفت انتباهي هو البيجاما التي كان يرتديها صديقي (بيلو) . كنت أستغل كل فرصة سانحة لانظر الى هـذه البيجاما الجميلة شزرا بطرف عيني وفي اعجاب شديد . لقد كان الوقت شتاء وتلك كانت بيجاما من قماش سميك كأنها قطيفة طاولة «البليياردو»، لكنها في زرقة لجة البحر . آنذاك ما كنت أعرف صنفا آخر لبيجاما اللهم

---

٥ ــ خوان غريس : رسام اسباني عاش في فرنسا (١٨٨٧ ــ ١٩٢٧) .

الا تلك الخطوط التي تبدو كانها زيّ سجين في حبس معتم . ان بيجاما (بيلو بانيث) هـــذه فاقت البيجامات جميعها وخرجت عـــن الاطر كلها . نسيجها المتين السميك وزرقتها المشعة كانا يثيران حسد شاعر فقير يعيش في ضواحي سانتياغو . لكنني، في الحقيقة ، ما رأت عيناي خلال خمسين سنة بيجاما مثل تلك .

لم أعد ارى آل (بانيث) لسنين طويلة . هي هجرت زوجها وفارقت كذلك الدراري والاروقة الفاخرة ومضت مع بهلوان سيرك روسي مر يوما بسانتياغو . فيما بعد صارت تبيع التذاكر في العالم من أستراليا حتـــى الجزر البريطانية ، مساهمة في استعراضات البهلوان الذي بهتها وخلب قلبهـــا . ثم تسمت ب (روسا كـــروث) او شيئا مـــــن هــــذا القبيل ، وعاشت في مجمع متاع مختلط الجنسين بجنوب فرنسا .

اما (بيلو بانيث) زوجها ، فقد غيّر اسمه واستبدل به اسم (خـــوان ايمـــار) ، وتحـــوّل مع مرور الزمـــــن الى كاتب قدير ولكـــــن باسمه المستعار هذا . كنت له صديقا طيلة حياته . صامتا وانيقا وفقيرا عاش ومات هكذا . ان مؤلفاته الكثيرة ما زالت حتى الان دون نشر ، بيد ان ابداعه لا بد ان يظهر ذات يوم .

سأنهي الحديث عن (بيلو بانيث) او (خوان ايمار) (ولسوف أعود من بعد لموضوع خجلي) ذاكرا انه خلال عهدي الجامعي ، أصر صديقي (بيلو) هذا على تقديمي الى والده . «سيؤمّن لك السفر الى اوروبا بكل تأكيد» قال لي . في تلكم الاوقات شعراء امريكا اللاتينية ورساموها جميعهم كانت عيونهم مسمّرة في باريس . والد (بيلو) كان شخصية مهمة جدا ، عضوا في مجلس الشيوخ . كان يعيش في دار من هذه الدور الضخمة القبيحة، في شارع قريب من ساحة «ارماس» ومن القصر الجمهوري ، الذي كان يفضل هو من غير ما شك ، أن يعيش فيه لو سنحت له الظروف .

صديقي (بيلو) وزوجته ــ لما تكن قد هجرته ــ بقيا في الرواق بعد ان نزعا عني بردتي لكي ابدو شخصا عاديا . فتح باب قاعة الشيخ لي ثم أغلق خلف ظهري . قاعة واسعة جدا ، ربما من قبل كانت قاعـــة للاستقبالات الحافلة ، غير انها كانت خاوية خالية . ميزت من بعيد ، في الطـــرف

الآخر من القاعة ، تحت مصباح مرتكز على سارية ، مقعدا عظيما والشيخ عليه . صفحات الجريده التي كان يقرأها كانت تخفي عني طلعته كأنما الجريدة حجاب يحجبه .

حين خطوت اول حطوة فوق الارضية الخشبية المصقولة والمشمعة بشكل اجرامي ، تزحلقت كأني منزلج ماهر . سرعة هرولتي كانت تتزايد في عجلة هائلة ، دعست على المكبح كي أتوقف واذ بي انخض واهتز وارتض عدة مرات كانت آخرها عند أقدام الشيخ الذي خزرني بعينين باردتين مواصلا قراءة الجريدة .

توصلت الى ان أجلس نفسي على مقيعد بجانبه . الرجل العظيم تفحص فيّ بنظرة عالم حشرات تعب قد احضر له نموذج من الحشرات عرفه بالذاكرة ، عنكبوت مسالم . سألني في تكاسل عن مشاريعي . انا ، بعد الرضرضة والتدحرج ، كنت اكثر خجلا واقل فصاحة مما انا عليه عادة .

لا ادري ماذا قلت له . بعد عشرين دقيقة ناولني بعضا من يده كعلامة للانصراف . كأني سمعته يقول بصوت ناعم خفيف بأنه سيتصل بي ويخبرني بشيء . ثم عاد ليواصل قراءة جريدته وأنا شرعت بالاياب ، عبر تلك الارضية الخشبية الخطيرة ، مسرفا في اتخاذ الاحتياطات اللازمة التي كان عليّ أن اتخذها من قبل حين انطلقت لاجتازها . طبعا ما وصلني من الشيخ والد صديقي اية بشرى ولا خبر ، ابدا . انتفاضة عسكرية ، على فكرة ، غبية ورجعية ، أطاحت به من على مقعده هو وصحيفته التي لا تنتهي . اعترف بأني سررت لذلك وفرحت .

اتحاد الطلبة

في «تيموكو» كنت مراسلا لمجلة «كلاربداد» **Claridad** ‹٦› الناطقة

---

٦ ـ كلاربداد : معناها ، **الوضوح** .

باسم اتحاد الطلبة ، وكنت أبيع منها من عشرين الى ثلاثين نسخـــة بين زملائي في المدرسة . ان الاخبار التي وصلت الينا ونحن في «تيموكو» عام ١٩٢٠ ، قد طبعت ابناء جيلي بندوب دموية ... منظمة «الشبيبـــة الذهبية» ، لدى طبقة الاقلية الحاكمة ، كان قد هاجم أفرادها مقر اتحاد الطلبة فحطموه تحطيما . العدالة التي منذ الاستعمار حتى الوقت الحالي كانت في خدمة الاغنياء ، لم تسجن المعتدين الآثمين بل الابرياء المعتـــدى عليهـــم . (دومينغـــو غومث روخاس) الشاب الـــذي كان امل الشعـــر التشيلي اذاك ، جن مـــن وطأة العذاب وقضى نحبـه فـــي معتقله . كان صدى هذه الجريمة ، ضمن الاوضاع المحلية لبلد صغير ، شديدا وعميقا ، كما لو كان اغتيال (فيديريكو غارثيا لوركا) بغرناطة .

حين وصلت الى «سانتياغو» في آذار من عام ١٩٢١ ، لكي التحـــق بالجامعة ، لم يكن عدد من سكان العاصمة يبلغ خمسمائة الف نسمة . كانت تفوح برائحة الغاز والبن . آلاف الدور كانت مسكونة بأناس غرباء وبالبق . تقوم بالمواصلات بين الشوارع والاحياء حافلات «ترام» صغيرة غير منظمة ، تضطرب في مسيرها وتئز بحدائد كانت لها وأجراس صغيرة . السفر بين نهـــج « اينديبيندنثيـــا » وبين الطرف الآخر مـــن العاصمـــة ، حيث كان معهدي الجامعي قرب المحطة المركزية ، كان لا ينتهي لطـــول المسافة وتباطؤ الحافلة .

كان يدخل ويخرج من مقر اتحاد الطلبـــة زعماء التمرد الطلابـــي المشهورون حينذاك ، وهم عقائديا كانوا مرتبطين بالحركة الفوضويـــة القديرة الكاسحة في تلك الفترة . كان اكثر هؤلاء القادة والزعماء تاريخيا في النضال ، الرباعي العنيف : (الفريدو ديماريا) ، (دانييل سشيويتزير) ، (سانتياغو لاباركا) ، (خوان غاندولفو) ، وكان (خوان غاندولفو) ، من غير ما شك ، اعظمهم واروعهم ، كان يُهاب لوعيه السياسي العميق الجريء ولشجاعته المجربة في كل معترك . كان يعاملني كما لو كنت طفلا صغيرا وفي الحقيقة كنت لما أزل طفلا . ذات مرة وصلت متأخرا عن الموعد الـــى عيادته من اجل استشارة طبية ، نظر اليّ مقطب الجبين وقال : «لماذا لم تأت في الساعة المحددة ؟ ، هناك مرضى آخرون ينتظرون» . «ما كنت

اعرف كم كانت الساعة» ، أجبته . «خذ من اجل ان تعرف الوقت في المرة القادمة» ، قال لي وأخرج ساعة من جيب صدريته فأعطانيها هدية ، شكرته عليها .

(خوان غاندولفو) كان صغير القامة ، مكور الوجه مدوره ، أصلع قبل الاوان . غير ان هيبته كانت دائما تفرض نفسها . تحداه للمبارزة ذات مرة احد العسكريين الذين قاموا بالانقلاب في ذلك الحين ، وكان هذا متهورا بأنه عربيد وقح ، فقبل (غاندولفو) التحدي ، ثم تعلم فن المبارزة في خمسة عشر يوما ، وفي يوم النزال جندل خصمه وعفره . وفي هذه الايام ذاتها حفر على الخشب غلاف اول ديوان لي «شفقيات» Crepusculario ومشاهده المرسومة فيه. فاتت حفريات مدهشة قام بها رجل لا احد يقارنه في الخلق الفني والابداع .

ان اكثر الشخصيات أهمية ، في الحياة الادبية الثورية ، كان هو (روبيرتو ماثا فوينيس) ، مدير مجلة «خوبينتود» (٧) ، التي كانت ايضا تابعة لاتحاد الطلبة ، كانت احسن انتقاء وأكثر اتقانا من مجلة «كلاريداد». وعلى صفحاتها كان يبرز (غونثاليث بيرا) و(مانويل روخاس) (٨) ، وهما من جيل أقدم من جيلي . (مانويل روخاس) جاءنا من الارجنتين ، وله من العمر سنون كثيرة ، فأدهشنا بقامته الهيابة وبكلماته التي يسقطها من فمه بشيء من الازدراء او من الزهو والاعجاب . كان يعمل صافًا للحروف في المجلة. اما (غونثاليث بيرا) فقد كنت اعرفه منذ ان جاءني الى «تيموكو» هاربا اثر هجوم الشرطة على مقر اتحاد الطلبة ، جاء مباشرة من محطة القطار التي تبعد بضعة أمتار عن بيتنا ليراني . كان مظهره جديرا بأن أذكره دائما وقد كان لي اذاك ١٦ سنة ، في بداية مسيرتي الشعرية . ابدا ما رأيت من قبل وجها اكثر شحوبا من شحوب وجهه الضئيل جدا كأنه قدّ من عاج وجمع من عظام ، كان يتشح برداء اسود قد انفرط خيطه في الاكمام والاطراف . دون ان يفقده اناقته . كلامه رن لي منذ اللحظة الاولى حاد

---

٧ – خوبينتود : معناها ، **الشباب** .

٨ – مانويل روخاس : روائي ولد عام ١٨٩٦ .

النبر هارلا ، اثارني حضوره في تلك الليلة المطرة التي قادته الى بيتنا ، دون ان ادري من قبل عن وجوده شيئا : كان وصوله كوصول ذاك العدمي الثائــــر الى بيت (سانتـــا يفوليــف) ، بطـــل (اندريـــف Andreiev) (٩) تلك الشخصية الي كان شباب امريكا اللاتينيــة المتمرد يتخذها انموذجا وأمثولة .

البيرتو روخاس خيمينيث

في مجلة «كلاريداد» التي انتميت اليها عضوا سياسيا وادبيا ، كـل شيء تقريبا كان يدار ويوجه من قبل (البرتو روخاس خيمينيث) ، الذي غدا فيما بعد من اكثر زملائي الذين في سني ومن جيلي حبا في نفســي وتعظيما . كان ينجلل بقبعة فرطبية ويضع شارات طويلة كأنه شريف من الشرفاء . انيقا رشيقا بخطر ويتخايل ويتمخطر كأنه عصفور مذهب مزدان على رغم بؤسه وعوزه . كانت تتمثل فيه صفات الفتوة الجديدة كلها : سلوك متعفف أبي . ادراك كامل للنزاعات العديدة وإلمام بها ، معرفة جذلى (وشهية طيبة) بكل الاشياء الحيوية . كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وارخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستعمله حتى الثمالة وفـــي تفاصيله ودقائقه ، غادبا او رائحا . كان يتنقل في الوسط الادبي بنسيم منعش وطلعة تنمّ عن فاسق ولفتات تدل عن حاذق ومبادهات تنبىء عن نابغ وإشارات تخبر عن ساحر . ربطات عنقه كانت دائما عينات غنـــى ومساطر ثروة ، في اطار الفقر العام . كان يبدل دورا ومدنا وبلدانا دائما ابدا لا يقر له قرار ولا يستقر على حال وهو بهذا التنقل وبسروره الفرح الجذل وببوهيميته الفطرية كان يسر لبضعة ايام او اسابيع السكان الباغتين المفاجئين حيث يحل او يمر ب «رانكاغوا» ، ب «كوريكو» ، ب «بالديبيا» . ب «كونثيبثيون» ، ب «بالبارائيسو» . كان يرحل كما قدم ؛ حيث ينزل، يدع أشعارا ، رسوما ، ربطات عنق ، عاشقات ، صداقات . بما انه كان من جِبلّة امير حكايات شرقية ومن محتد كريم خيالي لا بصدق ، فقد كان

---

٩ ــ اندرييف : روائي ومسرحي روسي (١٨٧١ ــ ١٩١٩) .

يهدي كل شيء ويجود بكل ما عنده : قبعته ، قميصه ، سترته ، صرافيته، وحتى بحذائه . حين لا يبقى معه شيء مادي يمنحه ويهديه فانه كان يرسم شيئا على الورق ، او يكتب جملة او بيت شعر او اية املوحة لطيفة وبإيماءة كريمة منه يعطيكه فترضى كما لو انه ترك في يديك جوهرة لا تقدر ، ثم ينطلق .

كان ينظم أشعاره على الطراز الاخير ، متابعـا في ذلك تعاليم (ابوللينير) (١٠) والعصبة التطرفية (١١) في اسبانيا . لقد أسس مدرسة شعرية جديدة باسم «أغو» Agu هذه الكلمة ، كما كان يقول ، هي صرخة الانسان الاولى ، اول بيت شعر ينطق به الوليد .

ان (روخاس خيمينيث) فرض علينا أنماطا في اللبس ، في طريقة التدخين ، في الخط والكتابة . مستهزئا بي ولكن في لباقة لا حد لها ، ساعدني على ان أنزع مني نغمتي الكئيبة . لم يَعدني ابدا بتشككه الظاهري وارتيابه في كل شيء ولا بسكره العاصفي ، فقد خرجت من ذلك سليما. بيد اني ما زلت أذكر حتى الان بحنين شديد شكله الذي كان يضيء كل شيء ، يجعل الجمال يطير من كل الانحاء كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مختبئة .

لقد تعلم من السيد (ميغيل دي اونا مونو) (١٢) صنع عصافير من ورق . كان يشيد عصفورا ذا عنق طويل وأجنحة مديدة

---

١٠ – ابوللينير : شاعر فرنسي (١٨٨٠ – ١٩١٨) .

١١ – **العصبة التطرفية** : هي عصبة شعرية انتشرت مبادئها في اسبانيا عام ١٩١٨ ثم عمت امريكا اللاتينية كلها ، كانت تدعو الى صرورة الاسراع في اجراء تغييرات جذرية في الشعر وفي الحياة .

١٢ – ميغيل دي اوناموتو : هو المفكر والشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٦٤ – ١٩٣٦) ، لقد ترجمنا له وعنه في كتابنا «دون كيخوته في القرن العشرين» منشورات المعهد الاسباني العربي للثقافة في مدريد عام ١٩٦٨ ، وفي كتابنا الآخر « مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٣ .

فينفخ فيه ليطير. كان يدعو هذا النفث، اعطاء العصافير«الدافع الحيوي».
كان يكتنف شعراء من فرنسا ، قوارير خمر في الاقبية ، كان يوجـــه
رسائل غرامية الى بطلات (فرانثيس جيمس) (١٣) .

ان ابياته الجميلة كانت تتعرج وتلتف في جيوبه ، وهي حتى الآن لم
تنشر .

ان شخصيته المفرطة في غرابتها كانت كثيرا ما تلفت الانظار الـــى
درجة انه في احد الايام ، بينما كان جالسا في مقهى ، اقترب منه رجل
مجهول وقال له : ايها السيد ، لقد كنت استمـــع اليك فأعجبتنـــي
فاستلطفتك ، اتسمح لي ان اقول لك شيئا ؟ ، «وما هو هذا الشيء» ؟
أجابه (روخاس خيمينيث) في جفاء ، «أن تسمح لي ان اقفز فوقك» قال
الرجل المجهول ، «لكن ، كيف ؟» قال الشاعر «هل انت جد قدير ونشيط
الى درجة انك تقدر على ان تقفز من فوقي ، وانا جالس في هذه الطاولة؟»
«كلا ، ايها السيد» استدرك الرجل المجهول في صوت خفيض ، «انا اريد
ان اقفز من فوقك في وقت آجل ، حين ستستريح حضرتك في التابوت ،
ان هذا هو الشكل الذي اكرم فيه الشخصيات الهامة التي أتعرف عليهم
في حياتي الا وهو القفز من فوقهم ، ان يسمحوا لي بذلك ، حين يكونون
جثثا في التوابيت ، انا رجل وحيد متوحد وهوايتي الوحيدة هي هذه» ،
ثم أخرج مفكرة من جيبه وقال له : «هنا في هذه المفكرة لديّ قائمـــة
بأسماء الشخصيات الذين قفزت من فوق جثثهم» . فقبـــــل (روخاس
خيمينيث) وقد جن فرحا ، هذا الاقتراح الغريب . بضعة سنوات من بعد،
في فصل من فصول الشتاء الاكثر امطارا وبردا مما اذكر انه مرّ علينا في
تشيلي ، مات (روخاس خيمينيث) كان قد ترك سترته كعادته في احدى
حانات مركز مدينة «سانتياغو» . وليس على جسده غير قميص خفيف عبر
المدينة في ذلك الشتاء القارص القاسي متوجها الى منزل اخته (روسيتا)
بدار المعلمات الخامسة . لم يمض يومان حتى اختطفت من هذا العالم ،
ذات الرئة، واحدا من اكثر الاشخاص الذين عرفتهم سحرا وروعة ، ذهب

١٣ ـ فرانثيس جيمس : شاعر وروائي فرنسي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨) .

الشاعر بعصافيره الورقية طائرا عبر السماء وتحت المطر .

لكن ، في الليلة التي كان يسهر اصدقاؤه حول نعشه ، جاءهم زائر غريب . كان المطر يتساقط مدرارا على أسطحة المنازل ، والرياح والرعود والبروق كانت تضيء وتهز اشجار اللوز في باحة دار المعلمات ، حين فتح الباب فدخل رجل متشح بالسواد وعليه علامات الحزن والحداد ومبتلا بالامطار ، لا احد منهم كان يعرفه ، امام استغراب هؤلاء الذين كانوا يسهرون حول النعش ، تراجع المجهول قليلا ثم قفز من فوق التابوت، دون ان ينبس ببنت شفة غادر المكان فجاة مثلما جاء ، ثم اختفى تحت اجنحة الليل وزخات المطر . وهكذا ختمت حياة (البرتو روخاس) المفاجئة ، بمفاجاة طقس لغز لا احد حتى الآن استطاع له تفسيرا وتبيانا .

كنت على وشك الوصول الى اسبانيا ، حين نعي الي . مرات قليلة في حياتي شعرت بألم شديد وحزن ممض كالذي شعرت به وأنا في برشلونة ، على فقد هذا الصديق ، حالا شرعت بكتابة مرثاتي (البرتو روخاس خيمينيث) «يجيء وهو يطير» (Alberto Rojas Giminez Viene Volando) ثم نشرتها من بعد في مجلة «اوكثيدينته» (١٤) .

لكن ، كان علي أن أؤدي طقسا من الطقوس لتوديعه . لقد مات بعيدا عني ، في تشيلي ، في ايام ذات أمطار مخيفة اغرقت المقبرة بأسرها . لا بد ان اجري للاحتفال بذكراه شيئا، فأنا لم أمكث عند رفاته نادبا ولم أمش في جنازته نائحا ، ذهبت الى صديقي الرسام (اسائياس كابيثون) ، فرافقني في التوجه الى الكنيسة الكبيرة الرائعة ، كنيسة «سانتا ماريا ديل المار» (١٥) . اشترينا شموعا كبيرة ، طويلة جدا تقريبا بقدر طول هيكل

---

١٤ ـ اوكثيدنته : معناها ، **الغرب** وهي مجلة اسسها في مدريد الفيلسوف الاسباني (اورتيغا اي غاسيت) ، وقد ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور «دون كيخوته في القرن العشرين» ، وما زالت هذه المجلة تصدر حتى الآن .

١٥ ـ سانتا ماريا ديل مار : معناها ، **القديسة مريم البحر** ، وكذلك فان اسم مريم معناه **قديسة اليم** .

انسان ، ودخلنا بها الى ظلال ذلك المعبد الغريب . بما ان «سانتا ماريا ديل المار» كانت كاتدرائية البحارة فقد بناها حجرا على حجر منذ عـــدة قرون صيادون وبحارة . من بعد زيّنت بآلاف النذور ، بقوارب من جميع الاشكال والحجوم تمخر عبر الخلود ، كانت تفرش بها جدران الكنيسة الجميلة وسقفها البديع . تصورت ان هذا المكان هو مشهد ومسرح جديران بالشاعر الفقيد ، فلو كان حيا وعرف هذه الكنيسة لاتخذها مراحــــا له ومسرحا ولكان مكانه المفضل . اشعلنا التموع في صحن الكنيسة العظيمة تحت قبابها العديدة ، ونحن جالسان في الكنيسة الخاوية ، وزجاجــة نبيذ اخضر ارائي واخرى ازاء صديقي الرسام ، فكّرنا في ان هذا الاحتفال الصامت ، على الرغم من اعتقادنا بمذهب اللاادرية ، يقربنا من صديقنا في عالمه السحري بشكل من الاشكال السحرية الغامضة . التموع المشتعلة في وسط هذه الكنيسة الكبيرة الخاوية كانت تبدو وكأنها شيء حي يلتمع حياة وبريقا كما لو ان عيني ذاك الشاعر المجنون الذي اخمد قلبه الى الابد كانتا تنظران الينا من بين الظل والنور في تلك النذور .

مجانين في الشتاء

على ذكر (روخاس خيمينيث) اقول ان الجنون ، نوعا من الجنون ، يمضي احيانا كثيرة في احضان الشعر . فكما ان ذوي الحكمة والعقــل يكلفهم جهدا كبيرا ان يصبحوا شعراء كذلك فان الشعراء يكلفهم طاقــــة عظيمة من العناء ان يغدوا عقلانيين ، بيد ان العقل دائما يربح الجولــــة ويكسب الشوط ، فالعقل اساس العدل الذي يجب ان يسود في العالم ويسوده . (ميغيل دي اونامونو) ، الذي كان يحب تشيلي كثيرا ، قال ذات مره : «ما هذا القول ، بالحجة او بالقوة ؟ بالحجة ودائما بالحجة» .

من بين الشعراء المجانين الذين عرفتهم في فترة اخرى سأخُــــص بالحديث الان (البرتو بالديبيا Alberto Valdivia) ، كان واحدا من اكثر الخلق نحافة ، شاحب الوجه أصفر اللون . كما لو انه خلق من عظم بلا لحم ولا شحم ولا دم ، ذا لبدة كثيفة جدا ، رمادية اللون ، وزوج من النظارات تحجب عينيه المبليتين بقصر النظر ولكنهما ترسلان نظرات بعيدة.

كنا نسميه «الجثة بالديبيا» .

كان يدخل ويخرج في سكون من الحانات والندوات والمقاهي وحفلات عزف الموسيقى ، دون ان يثير ضجيجا ولا غبارا وتحت ابطه حزمة من الصحف، غريبة عجيبة . «ايتها الجثة العزيزة» كنا نقول له نحن اصدقاءه، ونحن نحضن جسده اللاجسدي فنحس كأننا نعانق مجرى هوائيا .

لقد نظم اشعارا قيّمة رائعة مفعمة بشعور رقيق وعذوبة آسرة ، اليكم بعض هذه الابيات :

«كل شيء سوف يمضي ، السماء ، الشعاع ، الحياة :
انتصار الشر يقوى والردى الحتميّ يطغى
ليس يبقى غير عينيك ازائي في مصيري
يا ابنة النور ويا أخت حياتي في الغروب» .

شاعرا حقيقيا كان ذلك الذي كنا ندعوه في محبة وود «بالديبيا الجثة» . مرات كثيرة قلنا له : «ايتها الجثة ، ابق للاكل معنا» . لم يكن ينزعج ابدا من هذه التسمية . احيانا في شفتيه الرفيعتين الرقيقتين كانت تطل ابتسامة . جملة كانت موجزة مقتضبة لكن مشحونة بالتلميح والفحوى . لقد اصبح طقسا من الطقوس المقدسة اخذه كل سنة الى المقبرة . في الليلة السابقة لفاتح تشرين الثاني كنا نقدم له عشاء فاخرا جدا بقدر ما كانت تسمح به جيوبنا الضامرة ، جيوب طلاب وأدباء شبان . «جثتنا» هذا كان يشغل مكان الصدارة ويجلس على حجر الشرف ، في الساعة الثانية عشر تماما من منتصف الليل طبعا كانت المائدة تُرفع فنذهب في مسيرة طروب نحو المقبرة . في سكون الليل كانت تُلقى بعض الخطب احتفالا وتكريما وتأبينا للشاعر «المرحوم» . من بعد ، كل واحد منا يودعه في حزن وخشوع ووقار ثم ننطلق راجعين تاركينه وحده عند بوابة الجبّانة . «الجثة بالديبيا» كان يقبل هذا التقليد الذي لم يكن فيه قساوة او احتقار ، برحابة صدر ، اذ انه كان يشارك في هذه المسرحية الهزلية حتى آخر لحظة يؤدي دوره على أحسن وجه . قبل ان نتركه كنا نعطيه عادة «بيسوس» Pesos ؛ قروشا حتى يستطيع ان يأكل ما طاب له من «سندويش» ، في حفرته بالمقبرة .

لم يكن يفاجأ احد منا حين يدخل هو بعد يومين او ثلاثة من جديد في صمت وسكون الى حلقات التنكيت والتبكيت ، او المقاهي . طمأنينته مضمونة حتى فاتح تشرين الثاني من العام التالي .

في «بونوس ايريس» تعرفت على كاتب ارجنتيني غريب الاطوار جدا، يدعى (عمر بيغنوله Omar Vignole) . لا ادري ان كان ما يزال حيا حتى الآن . كان رجلا ضخم الجثة عظيم الهيئة ، يحمل في يده عكازا ثخينا غليظا . ذات مرة ، في احد مطاعم مركز المدينة حيث دعاني الى العشاء ، بينما كنا قرب المائدة اشار لي بيده المبسوطة وقال بصوت جهوري سمع في قاعة المطعم الغاصة بالزبائن : «تفضل اجلس ، يا سيد (عمر بيغنوله)»، فجلست وعلائم الانزعاج بادية على وجهي وسألته حالا : لماذا تناديني باسم (عمر بيغنوله) علما انك انت هو وانا (بابلو نيرودا) ؟» ، «أجل ، ــ أجابني ــ لكنما في هذا المطعم ثمة أناس لا يعرفونني الا باسمي فحسب ، وبما ان هناك عددا ليس بالقليل يرغب ان يعرفني شخصيا فينهال عليّ ضربا ، فاني افضل ان تكون من نصيبك هذه الضربات بدلا مني .

ان (بيغنوله) هذا كان مهندسا زراعيا في محافظة ارجنتينية ومنها احضر معه الى العاصمة بقرة كان بها يعقد صداقات متينة حميمة . كان يتنزه وينزه بقرته عبر شوارع «بونوس ايريس» قاطبة ، وهو يجر بقرته بحبل ورسن . في ذلك الحين نشر عدة كتب يعنونها دائما بعناوين تلميحية: **ما يدور في خلد البقرة ، انا وبقرتي** [16] الخ .

حين انعقد في بونوس ايريس لاول مرة مؤتمر «نادي القلم» العالمي Pen Club [17] ، كان الكتاب المؤتمرون برئاسة (فيكتوريا اوكامبو) [18] يرتجفون فزعا بعد أن بلغهم ان (بيغنولة) وبقرته سوف يأتيان

---

١٦ ــ انا وبقرتي : وهو تقليد لكتاب الشاعر الاسباني (خوان رامون خيمينيث Juan Ramon Jiménez) (١٨٨١ ــ ١٩٥٨) المعروف باسم **انا وحماري** وقلد هذا الكتاب كذلك اديبنا (توفيق الحكيم) ، وقد ترجمنا لهذا الشاعر وعنه في كتابنا المذكور **مختارات من الشعر الاسباني المعاصر** .

١٧ ــ نادي القلم : هو جمعية ادبية لها طابع امبريالي وصهيوني ، هناك قصة حدثت (نيرودا) مع هذا النادي سيرويها فيما بعد .

١٨ ــ فيكتوريا اوكامبو : هي كاتبة ارجنتينية معاصرة .

للمشاركة في جلسات المؤتمر ومداولاته . أبلغوا السلطات المسؤولة عن الخطر الذي سوف يداهمهم ويهددهم فجاء رجال الامن وطوقوا الشوارع المؤدية الى فندق « بلاثا » كي يمنعوا ان يصل الى المقر الفخم حيث كان ينعقد المؤتمر ، موكب صديقي الغريب الشاذ وبقرته المجترّة . عبثا كان ما حاولوه واتخذوه من اجراءات واحتياطات ، اذ انه بينما كانوا يتدارسون العلاقات بين عالم الاغريق الكلاسيكي ومجرى التاريخ الحديث، اقتحم قاعة المحاضرة ببقرته التي لا تفارقه ابدا ، وثالثة الاثافي ان هذه البقرة حين اتخذت لها موضعا في القاعة اخذت تخور كما لو انها كانت تريد المشاركة في الجدال والبحث . كان قد احضرها الى مركز المدينة حيث الفندق داخل عربة شحن مغلقة كبيرة ، فهزئت بحراسة الشرطة وبالمؤتمرين .

عن هذا (بيفنولة) نفسه سأروي الآن حكاية اخرى ، حكي انه ذات مرة ، تحدى (بيفنولة) بطلا في المصارعة اليابانية الحرة ، بعد موافقة البطل المحترف وتحديد المكان والزمان ، وحين حانت ساعة التواجه وليلة التقابل وهيئت حلبة النزال وامتلأت الساحة وغص المكان ، برز (بيفنوله) وبقرته في الموعد المحدد ، فقيدها بركن من أركان الحلبة المربعة ، ثم نزع عنه طيلسانه الانيق ودثاره ذا البريق وصعد الحلبة لمنازلة البطل الشهير باسم «مارد كالكوتا» .

لكنه لسوء حظه وا فول نجمه ما افادته بقرته في النزال ولا نفعته زينته في السجال ولا أعانه شعره في القتال ، فقد خرّ عليه «مارد كالكوتا» وما هي الا لحظات حتى جعله منطرحا مرميا كانه كتلة هامدة بلا حول ولا طول ، ثم وضع المارد رجله على حلقه اذلالا له وإرغاما ، فيا للثور الاديب المعفر ويا للحنجرة الشاعرة المهروسة المدعوسة بين استهزاء الجمهور الشرس واستخفاف المتفرجين الذين كانوا يطالبون باستمرار الصراع ومواصلة القتال ولكنه كان في حال من الاحوال .

بعد بضعة شهور نشر كتابا جديدا بعنوان «احاديث مع البقرة» ، ابدا لن انسى الاهداء الذي لم يُسبق اليه ، والذي استهل به كتابه ، هذا نصه ، ان لم تخنّي الذاكرة: «أهدي هذا الكتاب الفلسفي الى الاربعين الف

ابن قحبة الذين كانوا يصفّرون لي ويستهزئون بي ويطالبون بموتي في حلبة الصراع ليلة ٢٤ من شباط» .

في باريس ، قبل الحرب العالمية الاخيرة ، تعرفت على الرسام (البارو غويفارا) وكانوا دائما ينادونه في اوروبا باسم (تشيلي غيفارا) . ذات يوم اتصل بي هاتفيا وقال لي : «انه موضوع مستعجل وفي غاية الاهمية» .

كنت قد قدمت من اسبانيا وكان صراعنا في تلك الفترة ضد (نيكسون) ذلك الزمان المدعو (هتلر) . كانوا في مدريد قد اغاروا على منزلي بغارات جوية ورأيت هناك رجالا ونساء واطفالا وقد مزقت اجسادهم قنابل المغيرين وتناثرت جثثهم في كل مكان . الحرب العالمية كانت على وشك الانفجار فعقدنا العزم نحن فئة من الكتاب ، على محاربة الفاشية بسلاحنا الخاص الا وهو كتبنا التي كانت تعرّف الناس بالخطر الداهم وتحضهم على الاستعجال في درء شروره .

ابن بلدي هذا كان على هامش هذا الصراع ؛ كان رجلا هادئا صموتا ، رساما يشتغل كثيرا ، مكبا على اعماله وأشغاله . لكن الجو اذاك كان من بارود . عندما تمنع القوى الكبرى وصول الاسلحة الى الجمهوريين الاسبان ليدافعوا عن انفسهم ، ومن بعد ، في «ميونيخ» يقررون فتح الابواب امام الجيش الهتلري ، فان هذا يعني ان الحرب لا بد واقعة .

أسرعت في التوجه لمقابلة من يسمى بـ «تشيلي غيفارا» ، ففد كان شيئا مهما وعاجلا ما كان يريد ان ببلغني به .

— بم يتعلق الامر ؟ — قلت له .

— ليس هنا وقت لاضاعته — اجابني — . ليس لك ان تعادي الفاشية ، وليس على المرء ان يكون ضد اي شيء . يجب الذهاب مباشرة الى لب الموضوع ، وهذا اللب قد عثرت عليه انا . اريد اخبارك به كي تترك المشاركة في المؤتمرات المعادية للنازية فتنصرف بكليّتك الى العمل الادبي، ليس ثمة من وقت تضيعه .

ـ حسنا ، قل لي بم يتعلق الامر ، فالحقيقة يا (البارو) ان وقت الفراغ عندي لقليل جدا .

ـ الحقيقة يا (بابلو) هي ان افكاري شرحتها في عمل مسرحي من ثلاثة فصول ؛ أحضرته معي كي أقرأه عليك .

وبوجهه ذي الحاجبين الوارفين وملامح مصارع قديم ، كان ينظر اليّ في ثبات وامعان وهو يخرج من جيبه مخطوطا ذا حجم كبير جدا .

من فزعي احتججت له بقلة الوقت واقنعته ان يشرح لي شفهيا افكاره التي يعتقد في انها ستنقذ العالم والانسانية .

ـ انه بيضة (كولمبوس) (١٩) ـ قال لي ـ ، سأشرح لك ذلك . كم حبة بطاطا تخرج من حبة بطاطا تغرس ؟.

ـ حسنا ، يمكن ان تخرج اربع او خمس ـ قلت له على سبيل المجاملة .

ـ اكثر بكثير ـ أجاب ـ . احيانا اربعون ، احيانا اكثر من مائة . تصور لو ان كل شخص يغرس حبة بطاطا في الحديقة ، في الشرفة ، في اي مكان . كم نسمة عدد سكان تشيلي ؟ ثمانية ملايين ، فإذن ، ثمانية ملايين حبة بطاطا مغروسة ، اضرب ، يا (بابلو) ، بأربعة ، بمائة ، اذن الحرب انتهت الى الابد بانتهاء الجوع . كم نسمة في الصين ؟ خمسمائة مليون نسمة ، أليس كذلك ؟ ان غرس كل صيني حبة بطاطا واحدة ، فانه ستخرج من كل حبة بطاطا مغروسة اربعون حبة بطاطا فالنتيجة هي حاصل ضرب خمسمائة مليون نسمة بأربعين حبة بطاطا ، وبهذا تنقذ الانسانية نفسها .

---

١٩ ـ بيضة كولمبوس : هو تعبير اسباني يشبه في معناه ما نقوله بالعربية ، العصا السحرية .

حين دخل النازيون باريس لم يهتموا بهذه الفكرة المنقذة : بيضـــة (كولمبوس) او بالاحرى حبة بطاطا (كولمبوس) . اعتقلوا (البارو غيفارا) في ليلة باردة ذات ضباب ببيته في باريس . اخذوه الى معتقل ، وهنـــاك احتفظوا به وعلى ذراعه وصمة الى ان انتهت الحرب . خرج من جهنم وقد غدا هيكلا عظميا . لكنه ما استطاع ان يستعيد عافيته وقواه ، فعاد في نهاية الامر الى تشيلي كما لو انه احب ان يودع ارضه ويطبع عليها القبلة الاخيرة ، قبلة رجل مروبص ، ثم عاد الى فرنسا حيث انتهى من موته في الحيـاة .

ايها الرسام العظيم ، ياصديقي العزيز ، ايا «تشيلي غيفارا» اريد ان اقول لك شيئا : انا ادري انك ميت ، وانه لم تجدك نفعا كونك لاسياسيا وانه لم تكن لك من سياسة غير سياسة البطاطا . ادري ان النازيين قـــد قتلوك . بيد اني ، في شهر حزيران من العام الماضي ، دخلت الى «صالة العـــرض الوطنية» مـــا كنت انوي أن أشاهـــد غير لوحات (تورنير) فقـــط ، لكنني قبـــل ان اصل الى القاعـــة الكبرى لمحت لوحـــة رائعة مؤثرة : لوحة بدت لي جد بديعة مثل لوحات (تورنير) اتقانا وابداعا، لوحة مدهشة باهرة . كانت صورة لسيدة مشهورة ، تدعى (اديث سيتويل Edith Sitwell) (٢٠) . رأيت توقيعك عليها فكبرتـــك وعظمتك ، كانت اللوحة الوحيدة لرسام من امريكا اللاتينية بلغ من العبقرية والمهارة درجة بوّأته مكانا بين تلك النماذج الفريدة في ذلك المتحف العظيم بلندن .

ليس المكان ما يهمني ولا القيمة ما يثيرني ولا حتى تلك اللوحـــة ما يبعث في نفسي الاعجاب بل ان ما يحز في نفسي هو اننا ما تعارفنا كثيرا، ما تفاهمنا كثيرا ، ما توافقنا كثيرا ، ان ما يهمني ويؤلمني هو اننا قد تقابلنا وما تفاهمنا وما كان الذنب عليّ او عليك يا صاح ، بل على حبة البطاطا .

انا كنت رجلا بسيطا جدا : هذا شرف لي وعار عليّ . لقد رافقت فرقة تمثيلية متجولة كان يجوب بها الاصدقاء لي في هذه الحياة فحسدت

---

٢٠ ـ اديث سيتويل : شاعرة انجليزية (١٨٨٧ ـ ١٩٦٤) .

فيهم يراعهم اللامع الرائع وسلوكهم الشيطاني ، عصافيرهم الورقية وحتى هذه البقرات التي قد يكون لها علاقة ما في شكل غامض سحري مع الادب . على كل حال يبدو لي اني ما ولدت كي اتهم وادين بل كي احب واعشق. اما هؤلاء الهمازون اللمازون المفسدون المثبطون الذين يهاجمونني، الذين يتجمعون ويتآلبون يريدون اطفاء نور عيني ، فقء بصيرتي بعدما تغذوا من شعري وغرفوا من بحري . هؤلاء جميعا لا يستحقون مني الا الصمت والسكوت فانا قط ما خشيت ان أنعدي بسمومهم او ان اغدو من طينتهم وليس لي من اعداء الا اعداء الشعب .

لقد قال (ابولينير) : «الرحمة لنا نحن الذين نستنبط حدود اللاواقع». اروي من الذاكرة ، وانا افكر في هذه الحكايات التي رويتها ، حكايا اناس، ليس لكونهم غريبي الاطوار يستحقون محبة اقل وليس لانهم شاذون ، هم اقل قيمة .

صفقات كبيرة

نحن الشعراء نفكر دائما بأن لدينا افكارا عظيمة لكي نثري ونغنى ، واننا عباقرة في التخطيط لصفقات تجارية مع ان الآخرين لا يدركون عبقريتنا . اذكر انني ، مدفوعا بفكرة من هذه التشكيلة المزدهرة في حديقة الافكار ، بعت الى ناشر في تشيلي عام ١٩٢٤ حقوق نشر كتابي «شفقيات» وملكيته لا لطبعة واحدة بل الى الابد ، ظانئا بأني سوف اثري بهذه الصفقة فوقعت العقد امام كاتب العدل ودفع لي هذا المخلوق مبلغا قدره خمسمائة «بيسو» عداً ونقدا ، وهي تساوي في تلكم الايام اقل من خمسة دولارات. (روخاس خيمينيث) و(البارو هينوخوسا) و(هوميرو ارثه)، كانوا ينتظرونني عند باب كتابة العدل لكي نحتفل بهذا النجاح التجاري .، فعلا رحنا فأكلنا في احسن مطعم كان يوجد في ذلك الحين وهو «لا باهيا» (٢١) ، وشربنا نبيذا فاخرا ودخنا تبغا ممتازا وختمنا ذلك بتناول بعض المشروبات ، وكنا

---

٢١ ـ لا باهيا La Bahia : معناها ، الرصيف ، رصيف الميناء .

قبل هذا قد لمّعنا احذيتنا فغدت تضيء كأنها مرايا ، وما استفاد من تلك الصفقة الا صاحب المطعم وأربعة مساحي أحذية وناشر ، اما الشاعر فلم تدنُ الرفاهية منه ولا صافحه الرخاء واليسر .

ان من كان يقول ان له عينيّ باز في الاعمال التجاريــــة هو (البارو هينوخوسا) . كان يدهشنا بخططه العظيمة جدا التى لو انها توضع موضع التنفيذ لجعلت السماء تمطر دنانير فوق رؤوسنا . وكنا نحن ، بوهيميين محرومين تعسين ، لا نشك في ان اتقانه اللغة الانجليزية ، لفافاته ذات التبغ الاشقر ، سنواته الجامعية في نيويورك سوف تضمن نجاح الفلسفة العملية لدماغه التجاري العظيم .

ذات يوم دعاني الى التباحث في سرية مطلقة وقال لي انه يريد ان يجعلني عضوا مشاركا في محاولة رائعة بغية اكتساح ثروة سريعة واكتساب غنى داني القطوف ، انا سأكون شريكه في ربــــح الخمسين بالمائة على ان اساهم ببضعة «بيسوس» قد استلمها من جهة ما وهو سيدفع المبلـــغ الباقي . ذلك اليوم سنستعر اننا رأسماليون حقيقيون من غير رب ولا دين ولا قانون ، عازمين على كل شيء ومصممين على المغامرات الرابحة الاخرى.

ـ وما هي هذه التجارة ؟ سألت في خوف ملك التمويلات العجيب .

(البارو) اغمض عينيه ، قذف بنفحة من دخان استحالت الى دوائــر صغيرة ، ثم أجاب في صوت خفيضْ :

ـ جلود .

ـ جلود ؟ اعدتُ مندهشا مستغربا .

ـ اجل ، جلود ذئب البحر ، لكي اكون دقيقا ، جلود ذئب البحر ذي الشعر الوحيد الواحد .

ما تجرأت على ان استقصي عن دقائق وتفصيلات اكثر . كنت أجهل

ان عجول البحر او الذئاب البحرية لها شعر واحد وحيد . حين انعمت نظري فيها وهي على صخرة في سواحل الجنوب بتشيلي ، رايت لها شعرا براقا يلتمع تحت شعاع الشمس دون ان الحظ لها اي شعر فوق كروشها الكسلى .

قبضت ما وردني من دخل ، في سرعة البرق ، ومن غير ان اسدد ما كان عليّ من ايجار ، ومن قسط للخياط ومن وصل للاسكافي ، وضعت مساهمتي المالية في يدَي شريكي المموّل .

ذهبنا لنرى الجلود . كان (البارو) قد ابتاعها من عمة (خالة) له ، من اهل الجنوب ، مالكة لعديد من الجزر غير المنتجة . فوق الجزر الصغيرة ذات المجالات غير المموجة كانت الذئاب البحرية قد اعتادت على ممارسة احتفالاتها الغرامية واتصالاتها الجنسية . ها هي الان امام عينيّ ، وقد غدت حزما كبيرة من الجلود الصفراء بعد ان ثقبها بطلقات البنادق خدم العمة الماكرة فخرّت صريعة . كانت أسفاط الجلود تبلغ سقف ذلك القبو الذي استأجره (البارو) كي يبهر بها انظار المشترين المزعومين .

ــ وماذا سنفعل بهذا الحشد ، بهذا الجبل من الجلود ؟ سألته في خطف من الكلام .

ــ ان الناس كل الناس في حاجة ماسة الى جلود من هذا الصنف الجيد ولسوف ترى . فخرجنا من القبو ، (البارو) مودعا شررا من الطاقة يطلقه من لفافته وانا مطرق الرأس صامتا .

(البارو) كان يروح من هنا الى هناك وهو يحمل سجلا فيه عينة من جلودنا الاصلية الاصيلة ، جلود «ذئب بحري ذي شعر واحد وحيد» وكان قد ملأ السجل بأوراق بيضاء في بياض لكي يعطيه مظهرا تجاريا . قروشنا الاخيرة ذهبت في اعلانات بالصحافة عسى ان شخصية مهتمة ومتفهمة تقرؤها فتكفينا وكفى . وسنصبح ان بعناها ، أغنياء أثرياء . (البارو) ، وهو ما هو من رجل متأنق أنيق ، كان يحلم بشراء نصف اثنتي عشرة بدلة من الجوخ الانجليزي ، اما انا ، اكثر تواضعا منه ، فكنت اداعب احلامي

لترضى بأنني سوف اقتني مرشّة ماء او فرشاة حلاقة احسّن بها ذقني ، اذ ان الفرشاة الحالية كانت توشك على ان تغدو صلعاء جرداء .

اخيرا حضر المشتري ، كان سرّاج خيل ، ذا جسم ضليع متين ، قصير القامة ، ذا عينين رابطتي الجأش ثابتتي الجنان ، قليل الكلام ، وفي عرض (٢٢) من الصراحة هي في حكمي بعض من السفاهة . استقبل (البارو) في جفاء وفتور واقيين حتى لا يعرف مدى اهتمامه به وحدد له موعدا بعد ثلاثة ايام لكي نريه بضاعتنا الممتازة .

في مجرى هذه الايام الثلاثة ، اقتنى (البارو) لفائف من الدخان الانجليزي وبعضا من السيجار الكوبي من صنف «روميو وجولييت» وضعها بشكل مرئي في الجيب الخارجي من سترته . حين حانت ساعة انتظار وصول المعني ، بعثرنا على ارض القبو الجلود التي تنمّ عن حالة احسن ووضع افضل ومنظر اجمل .

الرجل خف الى الموعد المحدد بالضبط . لم ينزع عنه قبعته ، وحيّانا بهمهمة تكاد لا تسمع ، ثم نظر الى الجلود الممدودة على الارض نظرة سريعة مزدرية ، من بعد أجال عينيه الصارمتين الخبيثتين في الرفوف المكتظة . رفع يدا غليظة سميكة وسنّ إظفرا كي يحزّ به حزمة من الجلود فيختبرها، في المكان ذاته حيث حشرت انا اكثر الجلود حقارة واقلها قيمة .

(البارو) استغل تلك اللحظة الحرجة ليقدم له واحدا من السجاير الاصيلة الكوبية ، فالتقطه المشتري بسرعة خاطفة وعضه من طرفه ثم تف ثم أدخله في حلقة بين شدقيه وهو ثابت الجأش والنظر مشيرا الى الحزمة التي كان يريد أن يحتزها ويقيّمها .

لم يكن بد من عرضها عليه واظهارها له . شريكي صعد السلم وهو

---

٢٢ - عرض : هكذا في الاصل مع «ال» التعريف Alarde ، والكلمة من اصل عربي واضح ، ومن معانيها كذلك في اللغة الاسبانية ، مفاخرة ، استعراض ، تبجح .

مبتسم ابتسامة المحكوم عليه بالموت شنقا ، ثم نزل وأنزل الحزمة الثخينة.
المشتري استعرض جلود الحزمة واحدا اثر واحد ومن حين الى حين كان يسحب من سيجار (البارو) الذي أهداه اليه دخانا ثم يقذف به جوا .

كان الرجل يرفع جلدا من الجلود ، يدلكه ، يدعكه ، يكشطه ، يطويه، يبصق عليه ، يرميه ، يتناول آخر وهكذا دواليك . بعد ان انتهى من تفحصه وتفتيشه أجال من جديد نظره البازي عبر الرفوف المكومة المرصوصة بجلودنا الذئبية البحرية ذات الشعر الوحيد ، آخر الامر ركز عينيه في جبين شريكي الخبير بالتمويلات والصفقات . كانت اللحظة مؤثرة جدا .

وقتذاك قال بصوت حازم جاف جملة خالدة ، على الاقل بالنسبة لنا.

ـ يا سادتي ، انا لا اتزوج بهذه الجلود . ورحل الى الابد ، وقبّعته على رأسه كما دخل ، وهو يدخن سيجار (البارو) الهائل ، دون ان يودّع او يستأذن بالانصراف ، فقضى من غير رحمة ولا شفقة على أحلامنا المليونيرية .

أوائل كتبي

التجأت الى الشعر في سرعة الخائف الوجل . كانت ترفرف فوق «سانتياغو» المدارس الادبية الجديدة . في شارع «ماروري» ، رقم ٥١٣ ، انتهيت من كتابة ديواني الاول . كنت اكتب قصيدتين ، ثلاثا ، اربعا ، خمسا ، في اليوم الواحد . في الأماسي عند أفول الشمس ، امام الشرفة كان يجري يوميا مهرجان ما كنت لاستبدل به اي شيء في العالم . كان غروب الشمس يختال في حشد من الالوان عظيم ، توزيعات نور متقنة ، مراوح هائلة من لون برتقالي وآخر قرمزي . الفصل الرئيسي في ديواني أسميته «شفق ماروري» » ، لا احد سألني ابدا، ما هو هذا «ماروري» ، لعل القليلين هم الذين يعرفون اني اشير بهذا الى شارع متواضع يزوره أروع شفق وأبدعه .

في عام ١٩٢٣ ، نشر ديواني الاول هذا «شفقيات» . كي ادفع تكاليف

الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة وأحقق انتصارات عظيمة ، اثاثي الفليل بيع ، الى دار الرهائن على عجل مضت ساعتي التي كان والدي قد اهداني اياها في وقار وجلال ، اذ انها كانت ساعته الخاصة به وكان قد نقش عليها بيرقين صغيرين منصالبَين . ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء . لقد كان صاحب المطبعة رجلا لا يرحم ولا يشفق اذ انه بعد ان اصبحت الطبعة جاهزة والاغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : «لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها» . ساهم الناقد الادبي (الونه Alone) في سخاء بدفع ما تبقى عليّ من «بيسوس» فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت الى الشارع وكتبي على منكبيّ بحذاء مهنرىء ممزق ، مجنونا من الغبطة والطرب .

يا لديواني الاول ! كان رايي دائما هو ان عمل الكاتب ليس لغزا ولا هو بالمأساوي ، بل انه ، على الاقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة . ان ما هو اكثر شبها بالشعر ، هو رغيف خبز او وعاء خزفي او حفر على الخشب متغول في طراوة وحنان ، ولو ان الايدي التي تصنع هذه التحف كانت بليدة غير متقنة . بيد اني اعتقد انه ليس ثمة من صانع واحد يشعر ، كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو اول خلق ابتدعته يداه وجناه تيه احلامه الذي لما يزل خافقا دافقا لحظة الابداع . انها لحظة ابدا لن تعود مرة اخرى ، اعني لحظة الابداع الاولى والفرح الاول بأول كتاب . قد ينشر في طبعات اخرى كثيرة اكثر اتقانا واجمل مظهرا من طبعته الاولى قد تنتقل كلماته واشعاره لتسكب في كأس لغات اخرى مثل نبيذ يغني ويفوح في اماكن اخرى من الارض بعيدا عن موطنه ، غير ان هذه اللحظة التي يولد فيها اول ديوان طازج المداد طري الورق ، ان هذه اللحظة الفاتنة الساحرة المسكرة ذات الانغام كأنها حفيف اجنحة عصفور يرفرف لاول مرة ، ذات الالوان كأنها تفتق برعم يتبدّى في اعلى قمة لاول مرة ، لهي الحضور الوحيد في حياة الشاعر .

ان احدى قصائدي بدت وكأنها حادت عن ذاك الديوان الطفولي واتخذت لها طريقا خاصة بها ، الا وهي قصيدة «فيريويل» (٢٣)

٢٣ — فيريويل : الكلمة انجليزية ، معناها ، رحلة ممتعة .

Farrwell ، التي يحفظها كثير من الناس حتى الان عن ظهر قلب . حيثما ذهبت وفي الاماكن التي لا اتوقع ان اسمعها ، ينشدونها لي من الذاكرة او انهم يطلبون مني ان أنشدها عليهم . ما ان أحضر في مكان للمشاركة في ندوة او اجتماع او جلسة حتى تنطلق فتاة من الفتيات الحاضرات في صوت مرتفع بترديد تلك الابيات المسيطرة على الذهن ، وان كان ذلك يزعجني كثيرا . وأحيانا كان وزراء يستقبلونني وقد اتخذوا وضعا عسكريا إحتراما وإجلالا فيباغتوني بانشادهم المقطع الاول من القصيدة .

بعد عدة أعوام ، حكى لي (فيديريكو غارثيا لوركا) ، باسبانيا ، ان الشيء نفسه كان يحدث له بالنسبة لقصيدته «المتزوجة غير الوفية» (٢٤). فعد كان كل واحد من الناس يطالبه بأن ينشد له قصيدته الجميلة الشهيرة هذه برهانا منه على ما يكنه من صداقة نحو هذا الشخص او ذاك . ثمة حساسية ايجابيةعند الناس نحو النجاح الاستاتيكي الساكن الدائم لعمل ما من اعمالنا الادبية . ان هذا لهو شعور صحّي وحتى انه احساس بيولوجي. ان هذا التكليف من لدن القارئين يحاول تجميد الشاعر في لحظة واحدة ، بينما الخلق في حقيقة الامر هو عجلة دائمة تدور على الدوام نحو الامام بمهارة اكثر وبوعي أعمق وأشمل ولو انها برونق أقل وعفوية أصغر .

كنت أمضي مخلفا ورائي ديواني «شفقيات» . كان ثمة قلق يدفع شعري ويحركه . كنت أجدد قواي في رحلات سريعة وأسفار عابرة نحو جنوب تشيلي . في عام ١٩٢٣ اقتنيت تجربة غريبة . كنت قد عدت الى بيتنا في «تيموكو» . بعد منتصف الليل وقبل ان اضطجع فتحت نوافذ غرفتي . خلبتني السماء وبهرتني . كانت عامرة بجمهرة من النجوم المتلألئة المتكاثرة . الليل حديث التضمخ بالرذاذ غب المطر والنجمات القطبية تتناثر على راسي .

---

٢٤ ـ المتزوجة غير الوفية : لقد ترجمنا هذه القصيدة في كتابنا «مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» ص ٩١ ـ ٩٣ .

شملتني نشوة ، اخذتني سكرة ، تعتعتني خمرة سماويـــة كونية .
اسرعت الى قرطاسي فكتبت في هذيان كما لو انه كان يُوحى اليّ ويملى عليّ ، القصيدة الاولى لديوان أسميته بأسماء عديدة الى ان استقر في النهاية على اسم «حامل المقلاع المتحمس» . كنت أعوم في يم صيغ سلسة اغرف منها ما اغرف وكاني اسبح في مياهي الحقيقية .

في اليوم التالي قرات مفعما بالمتعة قصيدتي الليلية . من بعد ، حين وصلت الى «سانتياغو» ، قرأتها على الناقد الساحر (اليريو اويارثون) ، الذي استمع اليها بإنصات واعجب بها ، ثم سألني بصوته العميق :

ـ اانت متأكـد من ان هذه الابيـــات ليست متاثرة ب (سابـــات ارسكاتي) (٢٥) ؟.

ـ اعتقد اني متأكد . لقد كتبتها في نوبة هيجان .

خطر لي آنذاك ان ابعث بقصيدتي الى (سابات ارسكاتي) نفسه ، ذلك الشاعر العظيم ، شاعر «اورغواي» الكبير ، الذي تنوسي في هذه الايام ظلما واجحافا . كنت قد رأيت في هذا الشاعر انه قد تحقق فيه تطلعي وطموحي لشعر لا يحتوي على الانسان فحسب بل على الطبيعة ايضا ، على القوى الخبيئة ، شعر ملحمي يواجه سر الكون الرهيب العظيم وكذلـــك امكانات الانسان الهائلة . كنا نتراسل . كنت في الوقت الذي اعمل فيه جاهدا على انضاج شعري وتطويره ، اتمعن مليا في رسائل (سابـــات ارسكاتي) التي كان يهديها الى شاعر شاب غير معروف فأستزيده شاكرا.

ارسلت اليه في «مونتيفيدو» هذه القصيدة تلك الليلة ذاتها متسائلا عما اذا كان يرى فيها تاثرا بشعره ، اجابني على جناح السرعة في رسالة كريمة نبيلة : «مرات قليلة في حياتي قرأت قصيدة في غاية الاتقان وفي أوج الروعة كما هي عليه قصيدتك هذه ، لكنني اجد انه لا بد لي من ان

---

٢٥ ـ سابات ارسكاتي : (كارلوس Carlos) : شاعر من اورغواي ولد عام ١٨٨٧ .

اقول لك شيئا : اجل ، ثمة في ابيات قصيدتك هذه بعض من التأثير بشعر (سابات ارسكاتي) » .

كان ما قاله لي مثل نور برق في ليـــــل داج ، ما زلت حتى الآن اشكره عليه ،. بقيت الرسالة في جيبي خلال عدة ايام ، تنطوي وتتجعد الى ان اهترأت . لقد كان كل شيء بعدها قيد الرهان محك الاختبار. كنت أهجس بالهذيان العاقر لتلك الليلة حتى لا يفتنني هذيان ليلة أخرى فأهذي او ألغو او أقلد . عبثا غطست في لجة تلك النجوم ، عبثا غمرت حواشي تلك العاصفة الجنوبية. لقد كنت في ضلال . عليّ الا اثق بالوحي والالهام. يجب ان يقودني الوعي عبر السبل الصغيرة خطوة اثر خطوة . عليّ ان اتعلم ان اكون متواضعا . مزقت قصائد كثيرة ، أضعت أخرى . بعد عشر سنين من ذلك الحين ، يُعثر على هذه القصائد فتنشر .

انتهى برسالة (سابات ارسكاتي) طموحي في الاحاطة بشعر فسيح . اغلقت الباب على فصاحة كان محالا ان استمر على سننهـــا . اختصرت متعمدا أسلوبي وعبارتي . وانا ابحث عن ملامحي الاكثر بساطة ، عـــن عالمي المتناسق الخاص بي ، شرعت بكتابة ديوان غزلي آخر . فكان حصيلة ذلك كتاب «عشرون قصيدة» .

ان ديوان «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة»، هو كتاب اليمّ ورعوي يتضمن عواطف مراهقتي العاصفة جدا ، ممتزجة بالطبيعة المستبيحـــة الجارفة في جنوب وطني . هو كتاب احبه كثيرا لانه على الرغم من كآبته الحادة ، فيه متعة الوجود حاضرة . ساعدني في كتابته نهر ومصبه : نهر «امبريال» . ان قصائد «عشرون قصيدة» لهي «رومانث» (٢٦) سانتياغو ، بشوارعها الطلابية ، لهي الجامعة ، وهي فوح الزيزفون للحب المتبادل .

---

٢٦ ــ رومانث Romance : هي نوع من القصائد نشأت في اسبانيا بالعصـــور الوسطى .

ان المقاطع المتعلقة بـ «سانتياغو» نظمت بين شارع «ايتشورين» و«نهج اسبانيا» وفي داخل المبنى القديم للمعهد التربوي ، لكن المنظر العام مستوحى من مياه الجنوب وأشجاره . اما أرصفة قصيدة «اغنية يائسة» فهي الارصفة العتيقة لـ «كارهويه» و«باخو امبريال» . ان الالواح الغليظة الثخينة المكسرة والاخشاب كأنها جدعات يلطمها النهر الفسيح ورفرفة النوارس كنت أحس بها وما أزال ، كأنها تسري في مسام الجسد عند ذاك المصب .

في زورق مهجور طويل نحيل ، لباخرة غريفة ، قرأت كتاب (خوان كريستوبال) بكامله وكتبت قصيدة «اغنية يائسة» . كان للسماء من فوق رأسي زرقة عنيفة جدا لم أر مثلها قط . انا كنت انظم في القارب المختبىء في الارض . أعتقد اني ما عدت شعرت باني جد شامخ الى السماء وجد عميق في باطن الارض ، كما كنت أشعر اذاك . من فوقي السماء الزرقاء العميقة ، في يدي كتاب (خوان كريستوبال) او الابيات الوليدة في قصيدتي ، ازائي كل ما وجد وما يزال يوجد في شعري : صراخ العصافير البرية والبحر المتوقد دائما ليس يخمد او ينفد كأنه الموسج الذي لا يموت .

لقد سئلت دائما من هي ملهمة «عشرون قصيدة» ، انه لسؤال صعب الاجابة . الاثنتان او الثلاث اللواتي تداخلن في هذا الشعر الكئيب المتوقد فلنقل انهن «ماريسول» (٢٧) و«ماريسومبرا» (٢٨) . ان (ماريسول) هي «عتابا» (٢٩) منطقة رائعة ساحرة ، ذات نجوم لبلية هائلة وعينين غامقتين كسماء «تيموكو» البليلة المضمخة . تتجسد بفرحها وجمالها الحي في صفحات الديوان كلها ، محاطة بمياه الميناء ومكللة بالهلال الذي يطل من فوق الجبال . اما (ماريسومبرا) فهي الطالبة الجامعية ، قبعة رمادية ،

---

٢٧ ــ ماريسول : معناها ، مريم الشمس .

٢٨ ــ ماريسومبرا : معناها ، مريم الظل .

٢٩ ــ عتابا : في الاصل Idilio ، وهي مقاطع شعرية شعبية تتغنى بالرعي والرعاة .

عينان رقيقتان ناعمتان ، شذى الحب الطلابي المتنقل المتجول الذي يفوح كعطر الزيزفون ٣ خمود جسدي اثر التقاءات عاصفية مثيرة في مخابيء المدينـــة .

اثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي .

مدويا كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحث بين الطلبة والكتاب عن دعم أصلب وتأييد امتن . من جهة اخرى ، كان الزعيم الكبير للبورجوازية الصغيرة ، (ارتورو اليستاندري بالما) الديناميكي الديماغوجي، قد توصل الى ان يصبح رئيسا للجمهورية بعد ان هز البلد قاطبة بفصاحته الساطعة المخيفة . على الرغم من شخصينه الفائقة فانه سرعان ما تحول وهو على كرسي الحكم الى حاكم تقليدي شبيه بمن سبقه من حكام امريكا الجنوبية . ان الفئة المسيطره من البورجوازية الكبيرة التي كان من قبل يحاربها ، فتحت بلاعيمها وابتلعت خطبه النورية واحتوتـــه واستحوذت عليه فغدا يأتمر بأمرها . واستمر بلدنا يتخاصم في نزاعات رهيبة عنيفة.

في الوقت نفسه ، كان الزعيم العمالي (لويس اميليو ريكابار ٌيـــــن) بفعاليته المدهشة ، ينظم صفوف البروليتاريا ، يشكـل نقابات مركزية ، يؤسس حوالي عشر صحف عمالية في طول البلاد وعرضها . كانت البطالة وقلة الاعمال تهز مؤسسات النظام الرأسمالي . انا كنت في تلك الاوقات اكتب في مجلة «وضوح» اسبوعيا . كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية وندافع عنها وكثيرا ما كنا نصطدم بالشرطة اثناء مظاهراتنا في شـــــوارع سانتياغو[٤] فينهال رجال الامن علينا ضربا وتشتيتا . كان يصل الى العاصمة آلاف العمال المطرودين من اعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس . لقد كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امتزجت السياسة فــــي شعري وفــي حياتي . لم يكن ممكنا ان اغلق الباب عن الشارع واقبع داخل قصائدي كما لم يكن ممكنا اغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، او عن الحزن في قلبي ؛ قلب شاعر شاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الكلمــة »

... كل ما شئت ، ايها السيد ، اجل كل ما شئت ، بيد ان الكلمة ترنم ، تحلّق وتهبط ... فأركع لها واسجد ... اهيم بها ، اذعن لها ، اتابعها ، الثمها ، اتلمّظها ، أذيبها ... انا مغرم بالكلمة ... كل كلمـــة مباغتة .... انتظرها في نهم ، اترصدها في شغف ، الى ان تحط على حينَ غرة ... لفظة حبيبة ... تلتمع كالدرة ، تقفز كالسمكة الفضية ، انها لزبد ، لخيط ، لمعدن ، لندى .... ألاحق كلمة أطارد اخرى ، أريد لحسنها ان التقطها جميعها ، أن أحضنها في شعـــري ... اوشك أن التقط هنا وهناك ، تطير ، تئز ، اقتنص احداها ، انظفها ، انتف شعرها، اهيء نفسي امام الصحن ، أجسها فأحس بها شفافة ، رجراجة ، عاجيّة، لزجة ، دبقة ، كالثمرة ، كالطحلب ، كمصقل العقيق ، كحبة الزيتون... اقلبها ، اخضها ، اهزها ، اترشفها ، التهمها ، اتمثلهـــــا ، ازخرفها ، اعتقها ... تتدلى من القصيدة كما تتدلى عناقيد الرواسب من سقـــف مغارة ، صقيلة كرصائع خشب ثقيف ، كالماس تترسب في شعري كمـــا تترسب بقايا سفين غريق في قاع اليمّ ، مجلية كهدايا الموج كالدرّ .... كل شيء يكمن في الكلمة ... تتبدل الفكرة ان كلمة حرّفت عن موضعها او ان أخرى تربعت مثل مليكـــة على عرش جملة ، عنـــوة ، فخضعت لجبروتها ... ان للكلمة لظلا ، لرونقا ، لوزنا ، لزغبا ، ان لدنها كل مـــا اقتنته في تسيارها عبر مساري الانهار ، كل ما اكتنزته في ترحالها عبر مسالك الاوطان ، كل ما ادخرته في تجوابها عبر نسغ الجذور ... انها لتليدة جدا وجديدة جدا ... تكتنّ في عش خبـــيء ، تجتنّ في برعم زهرة ... لكم هي طيّبة لساني ، لكم هي رائعة هذه اللغة التي ورثناها عن أولئك الغزاة القساة ... أولئك كانوا يمضون قدمـــا يجتازون سلاسل الجبال الهائلة ، يخترقون غابات امريكا الشائكة بحثا عن البطاطا ، عـــن شرائح اللحم ، عن الفاصولياء ، عن التبغ الاسود ، عن الذهب ، عن الذرة، عن بيض مقلي ، في شهيّة نهمة شرهة ما شوهد لها في العالم مثيل من بعد البتّة ... كانوا يلتهمون كل شيء : الاديان ، الاهرام ، القبائـــــل ، الاصنام الشبيهة بالصلبان والانصاب التي احضروها معهم في اكياسهم الكبيرة ... اينما مروا هدموا ، حيثما حلوا أفسدوا فالارض منهم موات يباب خراب ... غير انه كانت تتساقط من هؤلاء البرابرة ، من نعالهم ، من

لحاهم ، من خوذهم ، من حدواتهم ، عدد الحصى ، كلمات مضيئة بقين
هنا يلتمعن يتوهجن ... مكثت اللغة . أجل لقد خسرنا ... بلى لقـــد
غنمنا ... اخذوا منا الذهب ، تركوا لنا الذهب ... اخذوا كل شيء ،
تركوا كل شيء ... لقد تركوا لنا الكلمة .



الفصل الثالث

دروب العالم

صعلوك «بالبارائيسو» (Valparaiso)

ان «بالبارائيسو» لقريبة جدا من «سانتياغو» . لا يفصل بينهما الا الجبال الهلباء المزبئرة المسننة التي في قممها ترتفع، كأنها المسلات، اشجار «كاكتوس» (١) Cactus الضخمة العدائية المؤذية المزهرة ، غير انه ثمة شيء صعب التحديد يبعد بينهما . «سانتياغو» هي مدينة سجينة تحيط بها أسوارها الثلجية ، بينما «بالبارائيسو» هي على العكس من ذلك تشرع ابوابها على البحر اللامحدود ، على ضجيج الشارع ، على عيون الاطفال .

في لحظات شبابنا الاكثر فوضوية كنا نحشر انفسنا في عربة قطار من

---

١ ـ كاكتوس : هي اشجار كثيرة الاضلاع ، مخددة ، ذات أزهار كبيرة صفراء، تكثر في المكسيك .

الدرجة الثالثة دائما دون ان نكون قد نمنا بعد ، ودون اي فلس في جيوبنا . كنا شعراء ورسامين في العقد الثاني من عمرنا مزودين بشحنة قيّمة من الجنون العنيد تريد أن تفرغ ، أن تمتد ، ان تنفجر . كانت نجمة «بالبارائيسو» تنادينا بنبضها الساحر .

ما شعرت بمثل هذا النداء الا بعد عدة سنوات وذلك في مدينة اخرى. وخلال سنوات اقامتي في مدريد فقد كنت وأصدقائي ، كلما دخلنا الى حانة او خرجنا من مسرح في السحر ، او تجولنا في شارع او آخر ، نسمع صوت طليطلة ينادينا ، صوت أشباحها الابكم ، لحن سكونها . في هذه الاوقات المتأخرة كنا نمضي مجموعة من الاصدقاء المجانين كجنون رفاق شبابي في تشيلي ، نحو هذه المدينة العريقة العتيقة ذات البيوت الكلسية والأزقة الضيقة المعوجة كي ننام فوق ضفاف نهر «التاخو» (٢) تحت القناطر الحجرية .

لست ادري ما سبب انه من بين رحلاتي الرائعة الساحرة الى «بالبارائيسو» بقيت رحلة واحدة عالقة بذاكرتي ومحفورة في ذهني ، مضمّخة بشذى اعشاب اقتلعتها على فزع من الحقول . كنا نروح لتوديع صديقين لنا احدهما شاعر والآخر رسام يزمعان السفر الى فرنسا ، طبعا، بالدرجة الثالثة . بما اننا جميعا لم نكن نملك ما ندفع به اجرة مبيتنا في فندق من الفنادق ولو كان اكثرها فيرانا ، فقد فتشنا عن (نوبوا Novoa) وهو احد مجانيننا المفضّلين ومن سكان مدينة «بالبارائيسو» العظيمة . لم يكن الوصول الى بيته بالامر السهل . صعدنا وترحلقنا فوق تلال وتلال لا تنتهي ، لا نرى في العتمة غير طيف (نوبوا) الذي كان يقودنا ويرشدنا .

كان (نوبوا) رجلا مهيبا ، ذا لحية عامرة ، وشوارب ثخينة ، كانت اطراف ردائه الغامق يخفق بعضها بعضا كأنها اجنحة طيور في قمم تلك الجبال العجيبة التي كنا نصعد فيها على عماوة وفي ضيق شديد . ما

---

٢ ـ التاخو : هو نهر يمر بطليطلة ، كان العرب يدعونه : التاجه ، والقناطر الموجودة عليه هي من العرب .

كان يسكت او ينصت . كان قديسا مجنونا ، معروفا جيدا لدينا نحـــن الشعراء . وكان ، طبعا ، طبيعيا من المؤمنين بالطبيعة ، نباتيا من آكلي النبات حتى منبت الاصالة . كان يشيد علاقات سرية ، لا يعرفها غيره ، بين الصحة الجسدية وهبات الارض الطبيعية . كان يعظنا بينما كنا نطلع على التلال ، يوجه نحو الخلف صوته المنغم ، كما لو كنا تلاميذ له . كان شكله الضخم يزحف كأنه قامة القديس (كريستوبـــال Cristobal) لكن هذا القديس ولد في الليالي المعتمة وفي الضواحي المنعزلة .

بعد المشقة والعناء القينا عصا الترحال في بيته واذ به مجرد كوخ صغير او خص حقير من غرفتين ليس غير ، الواحدة منهما يشغلها سريـــر صاحبنا القديس (كريستوبال) والاخرى يملأ جزءاً كبيرا منها كرسي عظيم مصنوع من شجر الصفصاف ، متشابك في وفرة بتزيينات هشّة مـــن القش وبجوارير غريبة عجيبة مضافة الى ارجله واذرعته ، انه لتحفة فنية من عهد الملكة (فيكتوريا) . المقعد الكبير خُصّص لي كي انام عليه تلك الليلة. أما أصدقائي فقد مدوا على الارض صحفا مسائية وتمددوا في وقار وقناعة فوق الاخبار والافتتاحيات .

بعد قليل من الوقت عرفت بفضل الزفير والشخير انهم قد نامـــوا جميعا . لقد كان صعبا بالنسبة لتعبي ان يصالح النوم ويصاحبه طالما انه لا يستريح فوق ذلك المقعد التذكاري . ما كان يسمع الا سكون مرتفعات وصمت قمم متوحدة او نباح كلاب فلكية كانت تخترق الليل او صفـــير سفينة بعيدة جدا تدخل الى الميناء او تخرج منه . كل هذا كان يؤكد لي انني في «بالبارائيسو» .

شعرت فجاة بنشوة غريبة فاتنة تسري في جسدي . نشوة شذى جبلي ، فوح سفوح المروج ، عطر كعطر نباتات كانت قد نمت ونمو طفولتي ثم نسيتها في ضوضاء حياتي بالمدينة . شعرت اني قد تصالحت والنوم فعفوت عنه وغفرت له اني يقظ مسهّد تلك الليلة ، احسست اني ملفوف بهديل الام الارض وترنيمها . من اين يجيء خفق الارض البرّي هذا ؟ ، بكارة الاشذاء الطاهرة النقية هذه من اين تأتي ؟ وانا ادخل أصابعي مـــن خلال الوعور الصفصافية لذلك المقعد الضخم اكتشفت جُويريرات لا حصر

لها وفي داخلها جسست نباتات جافة ملساء ، اغصانا خشنة مدوّرة ، اوراقا رمحية الشكل ، طرية او صلبة . عثرت اذن على دار الصناعـــة الصحية التي يخبئها واعظنا النباتي ، عن صورة طبق الاصل لحياة هذا القديس العاكف على التقاط الاعشاب بيديـــــه الكبيرتين كيدي القديس (كريستوبال) ، وهو ابدا خصب الجنى ، جوّاب الحقول .

بعد ان كشفت عن اللغز وعرفت السر نمت في طمأنينة ، في رعاية شذى تلك الاعشاب الساهرة الحارسة .

لقد سكنت خلال بضعة اسابيع ، في بيت يواجه بيت السيد (ثويلو ايسكوبار) بشارع ضيق من شوارع «بالبارائيسو» . شرفات غرفنا كانت تقريبا تتلامس ، كان جاري يخرج مبكرا الى الشرفة ليجري تمارين رياضية في جسم ناسك زاهد متقشف تنمّ عنه أوتار قيثار اضلاعه . يرتدي دائما بدلة شغل (فارول) فقيرة او سترة خالقة بالية . كان نصفه ملاكا والنصف الآخر بحّارا . وكان قد انسحب منــــذ زمن بعيد من إبحارته ، مـــن الجمارك ، من الموانيء والبواخر . كل يوم يمسح وينفض ويسحج بدلته ، بدلة الزينة الوحيدة في اتقان وكمال دقيقين . كانت بدلة من الجوخ الفاخر الاسود ما رايته ابدا يلبسها ولا مرة واحدة خلال عدة سنين ، فلقد كان يحفظها في الخزانة بين كنوزه الكثيرة .

لكن كنزه الاكثر حدة والاكثر تمزيقا للقلب كان آلة كمان من نـــوع «ستراديفاريوس» احتفظ به وصانه في حيطة واعتناء طيلة حياته كلها ، دون ان يلمسه او يعزف عليه ودون ان يسمح لاحد ان يلمسه او يعزف عليه . كان السيد (ثويلو) يفكر في انه سوف يبيع هذا الكمان في مدينة نيويورك فهناك سوف يدفعون له مبلغا محترما ثمنا لهذه الآلة الموسيقية الشهيرة . يخرجه احيانا من الخزانة الفقيرة ويسمح لنا ان نتأمله فـــي خشوع ديني وعاطفة مؤثرة . كان يحلم في انه سيسافر الى الشمال ذات يوم وسيعود بلا كمان لكن سيعود محملا بالخواتم الفاخرة والاسنان الذهبية التي ستحل في فمه بدل التجاويف التي حتّها ونخرها مجـــرى السنين وعبور الدهر الطويل .

صباح ذات يوم لم يخرج السيد (ثويلو) الى الشرفة لاجراء التمارين الرياضية . دفناه هناك في اعلى المدينة ، في مقبرة الربوة ، مكفئنا ببدلته السوداء التي لاول مرة غطت هيكله العظمي الصغير ، هيكل ناسك زاهد متقشف . أوتار كمانه ما بكت على رحيله ، لا احد كان يعرف ان يعزف عليه الآه . حين عدنا ففتحنا الخزانة لم نعثر على ذلك الكمان اليتيم لعله طار الى البحر او الى نيويورك ، كي يحقق أحلام السيد (ثويلو) .

ان مدينة «بالباراثيسو» هي كنوم ، ملتوية ، متدرجة . تنسفح الفاقة على سفوح روابيها كأنها شلال عارم . نعرف عن سكان هذه الروابي المكتظة بهم ما يأكلون وما يلبسون (ونعرف كذلك ما لا يأكلون وما لا يلبسون) . الملابس المنشورة للتجفيف ترفرف كالبيارق فوق كل دار والأقدام الحافية المعرضة للشمس بلا توقف علها تطهرها من أوساخها ، تنم عن حبها الذي لا يخمد نحو هذا الحبيب الذي ليس يخمد .

لكنما ، قرب البحر ، في السهل ، ثمة بيوت لا تفتح نوافذها ولا تترع شرفاتها ، لا تدخل اليها أقدام كثيرة ولا تحمل اليها الغبار قط . من بين هذه الدور كانت دار الرائد . قرعت الباب بمطرقة برونزية كبيرة ، عدة مرات متتالية كي يسمع طرقي . اخيرا سمعت خطوات خفيفة تقترب واذ بالباب ينفتح نصف مصراع ويطل منه وجه متفحص لا تبدو عليه علائم الثقة بي وكأنه يرغب ان يطردني ، كان وجه الخادم العجوز العتيقة في تلك الدار ، عليها منديل كبير وعلى خصرها مئزر طويل يكاد لا يسمح لخطوها ان يهمس .

كان الرائد ايضا رجلا عجوزا ، يسكن وخادمه وحيدين منعزلين هذه الدار الفسيحة ذات النوافذ المغلقة . قصدته كي يريني تشكيلة مجموعته من الاصنام . كانت تملأ الدهاليز والجدران مخلوقات عجيبة شقراء اللون، مساخر (٣) مخددة ، باللون الابيض وباللون الرمادي ، تماثيل تمثل جثثا

---

٣ ـ مساخر : هكذا في الاصل Mascaras وهي جمع اسباني للكلمة العربية مسخرة، بمعنى قناع او برقع .

بائدة لآلهة هائلة ، خصلات شعر مجففة ، دروع رهيبة فوق اطر خشبية ملبسة بجلود نمور رقطاء ، أطواق من أسنان مفترسة ، مجاديف قوارب لعلها كانت قد قطعت زبد المياه السعيدة المحظوظة (٤) . مُدى ونصال وسكاكين عنيفة كانت تبعث الذعر في الجدران التي تتدلى منها اوراق فضية اللون كأنها افاع تتلوى في الظلال .

لاحظت ان التماثيل الخشبية للآلهة الذكور كانت مصغرة جدا . العضو الذكري منها كان مغطى في اعتناء بستر من قماش هو نفسه القماش الذي استفيد منه لصنع منديل الخادم ومئزرها ، كان التأكد من هذا في غاية السهولة .

الرائد العجوز كل يتنقل في خفوت بين تلك الانصاب التذكارية. يشرح لي قاعة اثر قاعة بين جد وهزل عن هذه المخلوقات العجيبة شرح من عاش كثيرا وما يزال يعيش على قبس تماثيله . ذُقينه الابيض يبدو كلحية وثن في «ساموا» . اراني البنادق ذات المواسير الطويلة والمسدسات التي بها طارد العدو وعفّر الرئم والنمر . كان يحكي لي عن مغامراته دون ان يماوج في لحن همسه الوتير . كان ذلك كما لو ان الشمس تسربت على الرغم من النوافذ المغلقة وتركت هنا شعاعا صغيرا واحدا لا غير ، فراشة حية ضئيلة ترفرف بين التماثيل والاصنام .

عند التوديع قلت له بأن لديّ مشروعا للقيام برحلة نحو الجزر ، وان لديّ رغبات شديدة للتوجه شطر الرمال المذهبة في اقرب وقت ممكن . آنذاك ، بعد ان التفت الى الجانبين ، قرب من اذني شاربيه البيضاويين المتآكلين وهمس لي راجفا : «حتى لا تسمع هي ، حتى لا تعرف ، انا كذلك أنوي ان اقوم برحلة وقد اعددت لها العدة» . بقي هكذا ساهما ، لحظة ، واصبعه بين شفتيه، كأنه يصغي لوطء نمر في الغابة. ثم أغلق الباب فجاة، على الظلام ، كما يهبط الليل على افريقيا .

---

٤ — قد يعني بهذا جزر «كناريس» **Canarias** التي كان العرب يدعونها «الجزر السعيدة» وكذلك تدعى بالاسبانية **Las Islas Afortunadas** .

سألت الجيران :

ــ هل ثمة رجل آخر غريب الاطوار هنا ؟ هل ثمة شيء يحرز همّ مجيئي الى «بالبارائيسو» .

اجابوني :

ــ ليس لدينا تقريبا اي شيء مما يمتع بغرابته او اي شخص مما يستحق المشاهدة لشذوذه ، لكن ، ان مضيت في هذا الطريق سوف تتعثر بالسيد (بارتولوميه) .

وكيف سأميزه من بين الآخرين وأتعرف عليه ؟

ــ ليس ثمة مجال للخطأ ، آيته انه يرحل دائما في عربة يجرها حصان .

بعد ساعات قليلة ، بينما كنت اشتري تفاحا من دكان بهذا الشارع نفسه ، توقفت عند بابها ، عربة يجرها حصان ، ونزل منها رجل طويل ، ارفل عديم الرشاقة والهندام ليس له الا ثوب اسود مهلهل .

جاء ليشتري تفاحا كذلك . على منكبه ببغاء اخضر سرعان ما طار نحوي وحط على راسي دون تقدير او احترام .

ــ هل حضرتك هو السيد (بارتولوميه) ؟ ــ سألت ذلك الفارس .

ــ اجل ، انها الحقيقة ، انا أدعى (بارتولوميه) ــ واشهر سيفه الذي كان يتمنطق به تحت ثوبه فأعطانيه كي ينحني ويملأ سلته بالتفاح والعنب. كان سيفا عتيقا ، طويلا حادا ، ذا مقبض بديع صنعته أيدي صناع ماهرين، مقبض كأنه الوردة المتفتحة .

انا ما كنت اعرفه من قبل ولا عدت فرايته من بعد ، لكنني رافقته في اجلال واحترام. ثم فتحت له باب العربة فصعد ودخل ودخلت سلته ،

وضعت بين يديه ، في وقار وكياسة ، الببغاء والسيف .

ان عوالم «بالبارائيسو» لهي مهجورة متروكة ، بلا معنى ولا زمن ، كأنها صناديق رست ذات مرة الى قعر قبو سفينة ليس يدرى من اين جاءت ولا احد سأل عنها او ادعاها لنفسه ، فهي ابدا حبيسة ذلك القبو المعتم لن تستطيع البتة الانطلاق من حدودها ودياجيرها . ربما مكثت في اسرار «بالبارائيسو» المسيطرة وفي أرواحها الطاغية ، الى الابد ، سلطة موجة ضائعة ، عاصفة ، ملح ، بحر يهوج ويموج ، بحر كل نسمة من سكان «بالبارائيسو» ، يرغي ويزبد ، يثور ويهدد ، لكنه حبيس سجين فغــدا هديرا لا تستجاب شكواه ، حركة وحيدة اليمة تتفتت طحينا وتمج زبدا اذ تخيب احلامها وترتد على صخر الواقع الصلد .

في هذه الحيوات الغريبة الاطوار التي عثرت عليها او بها ، كانت دائما بفجوبي وحدتهم المطلقة والميناء المؤثر ، انصهارهم الكامل في مياه البحر . فهناك في الاعالي ، عبر الروابي ، يزهر البؤس وينبثق في فوران محموم من القطران (٥) والفرح . ان ارصفة الميناء والرافعات والعربات واشغال العمال تغطي خصر الساحل ببرقع صبغته السعادة الهاربة من بــؤس الروابي . غير ان ثمة آخرين ما استطاعوا ان يبلغوا الاعالي ليسكنوا التلال ولا الاسافل ليعملوا في الميناء بل مكثوا في صناديقهم محتفظين بنصيبهم من عالم اللانهاية عالم البحر .

لقد صانوا كل ذلك باسلحتهم الخاصة ، بينما الفناء يقترب منهم كما الضباب .

ان «بالبارائيسو» لتهتز احيانا مثل حوت جريح . ترتج ، تحتضر ، تموت وتبعث .

ان كل مواطن هنا يحمل في ذاكرته زلزالا . انه لهول ملتصق بقلب

---

٥ – القطران : هكذا في الاصل Alqutràn . عن العربية

المدينة . ان كل مواطن هنا لهو بطل من قبل ان يولد . اذ ان في ذاكـرة الميناء انطبعت رعشة الارض التي ترتعد من اخفاقها وتثور على فشلهـــا وتطلق صرخة من الندم تبلغ اعماقها ، كما لو ان مدينة ترسو تحت البحر وتستقر تحت الارض ، فجاة ، شرعت تطوي ابراجها واشرعتها الدفينة لتقول للانسان ان كل شيء قد انتهى وانها ستقلع باحثة عن مغامرة اخرى قد تكون رابحة ظافرة .

أحايين ، حين تكون الاسوار والجدران والسقوف قد تدحرجت بين الغبار والسنة النيران ، بين الضجيج والسكون ، بعد ان يخمد كل شيء الى الابد في أحضان الموت ، تخرج من البحر ، كانها آخر هول ، الموجة الكبيرة ، اليد الخضراء الهائلة ، طائلة ملو ّحة بالخطر ، تعلو كأنها برج حاقد ثم تهوي لتسحق وتجرف حيثما وقعت او صفعت ، كل ما تبقى مـــن حيـــاة .

كل شيء كان يبدأ بحركة كسلى فيستيقظ من كان قد نام من سكان «بالبارائيسو» . تأخذ الروح وهي بين الاحلام تنصـــل بجذور عميقة ، بعمقها الارضي . لقد أحبت الروح دائما ان تعرف عمقها وها هي تعرفه. ثم تنقض ّ حركة الارتجاف الاخير ، ليس ثمة من يغيث او يعين فالآلهـــة رحلوا والكنائس المزهوة غدت كتلا مطحونة مهروسة .

ان هذا الرعب ليس كرعب من يعدو هاربا من نور هائج غضوب ، ليس كذعر من يهدده خنجر ، ليس كخوف من أوشك على الغرق ، انه لهـــول كوني ، انه لخطر مفاجيء . الكون ينهار يتهدم يتقوض بينما الارض تدو ّي في رعد أصم ، بصوت ، ما من احد سمعه قبل ولا عرف له مثيلا .

يترسب الغبار الذي اثارته البيوت عند انهيارها شيئا فشيئا وكل شيء يهدأ ، يخمد . نظل وحدنا مع أمواتنا دون ان ندري اننا اموات نحن أم أحياء .

تنطلق المدارج من تحت ومن فوق وتتلوى درجة درجة بعضها فوق بعض دون تماس ّ بين الواحدة والاخرى . تغدو نحيلة رفيعة كأنها شعر او

خيط ، تستريح قليلا ، تطلع شاقولية الظهر ، تراوح ، تسرع الخطو ، تمتد . تتقهقر . لا تنتهي ابدا .

كم من مدراج ؟ كم من درجة مدراج ؟ كم قدم على الدرجات ؟ كم قرن من الخطى ، من النزول والصعود مع الكتاب ، مع الطماطم ، مع السمك، مع الزجاجات ، مع الخبز ؟ كم ألف من الساعات دارت على هذه الدرجات فأبلتها وجعلتها قنوات تجري فيها الامطار لاعبة او باكية ؟.

يا لها من مدارج !

ما من مدينة سفحت المدارج ، عرّتها في تاريخها ، في وجهها ، ذرّتها ثم جمعتها ، كما مدينة «بالباراثيسو» . ما من وجه له مثل هذه الاثلام والاخاديد حيث تروح وتجيء الحيوات كما لو انها دائما وابدا تصعد الى السماء ، كما لو انها دائما ابدا تهبط الى البحر مصدر الخلق .

يا لها من مدارج انبتت في منتصف الدرب حراشف من الزهور الارجوانية ! يا لها من مدارج اخذت بيد بحار آب من سفره الى آسيا ليجد في بيته ضحكة جديدة او غيابا رهيبا ! يا لها من مدارج هوى من عليها مثل نيزك اسود ، سكّير فتدحرج فوقها ! يا لها من مدارج تصعد الشمس عليها لتمنح حبها الخالد الى التلال !

أن مشينا مدارج «بالباراثيسو» كلها فاننا نكون قد درنا حول العالم كله .

يا «بالباراثيسو» يا مدينة آلامي . . . ماذا جرى لك في وحدة المحيط الهادي الجنوبي ؟ ألنت نجمة تائهة أم معركة ديدان نجا تألقها من المصيبة ؟

يا له من ليل ، ليلك ! نقطة من الكوكب الارضي وقد أضيء ، ضئيلا، في الكون الفارغ الخاوي . حباحب خفقت ، حدوة من ذهب توهجت بين الجبال .

ان ليلك الهائل نشر مِن بعد اشكالا عظيمة ضاعفت من نورك . فنجمة

الدبران (٦) سطعت بنبضها القصيّ البعيد ، الثريا نشرت ملابسها البرّاقة عند ابواب السماء ، بينما كانت تدور عربة القطب الجنوبي الصامتة في المدى الليلي لنهر المجرّة .

اذّاك برج القوس الشامخ الكثيف الشعر القى الماسة من اقدامه الضائعة ، برغوثا من جلده المصي البعيد .

لقد ولدت «بالباراثيسو» ، متوهجة وثرثارة فاضحة ، مزبدة وبغيا.

امتلأ ليل أزقتها بحور البحور السمراوات السوداوات ، تترصدك في الظلام الابواب ، تتخاطفك الايدي في العتمة ، شراشف الجنوب تينهت البحارة ، أسرّتها ضيعت الرحاله والجوالة والعابر والمسافر . ان البغايا : (بوليانتا) ، (كارميلا) ، (فلور دي ديوس) ، (مولتيكولا) ، (بيرينيثه) وغيرهن كثيرات ، انشان الحانات والملاهي ، صنّ الغرقى من الهذيان بالهذيان ، حفظن السكارى من التعتعة بالتعتعة ، تبدّلن ، تجددن ، رقصن ، بلا خلاعة ، ولكن بكآبة اصيلة ممطرة وحزن جنسي دامٍ .

لقد خرجت من الميناء لصيد الحيتان اكثر السفن صلابة وجلدا ، وسفن أخرى انطلقت نحو جزر الذهب . هذه الاخيرة عبرت البحار السبعة لتاخذ فيما بعد من الصحراء التشيلية فلزات «الآزوت» التي ترقد هناك كأنها غبار لا يحصى لتمثال محق وسحق تحت اكثر منطقة في العالم جفافا.

لقد كانت هذه هي المغامرات الكبرى .

لقد تلألأت «بالباراثيسو» عبر ليل الكون ، لقد بدت بواخر تمخر من عالم الى عالم ، سفن موشاة كأنها حمائم سحرية ، سفن شذية عطرة ، اشرعة جائعة ارساها «كابو دي اورنوس» في مراسيه ردحا من الزمن ... احايين كثيرة كان الرجال حديثو العهد في الاقلاع والإبحار يستعجلون

---

٦ ـ الدبران : هكذا في الاصل Aldebaràn ■ عن العربية

اليابسة ويستوحشون الكلأ .... كانت أياما ضارية ساحرة حين لم تكن المحيطات تتصل فيما بينها الا عن طريق مسافات المضيق «الباتاغوني» ، حين كانت «بالبارائيسو» ندفع بعملة جيدة أجرة البحارة الذين كانـــوا يتفثون عليها ويعشقونها .

في احدى السفن وصلت آلة موسيقية من الطراز القديم ، فـــي اخرى عبرت السيدة (فلورا تريستان) وهي الجدة «البيروانيـــــة» (٧) لـ (غاوغين Cauguin) (٨) ، وفي «واجير» (Wager) وصـــــل (روبينسون كروزو) ، الآلة الموسيقية شحنت بقدها وقديدها (٩) من ميناء «خوان فيرنانديث» ؛ سفن أخرى جلبت ثمر الاناناس ، بنتا ، فلفلا مـــن «صوماطـــرا» ، موزا من «غواياكيل» Cuayaquil ، شايا مـــع الياسمين (١٠) من «استام» Assam ، مشروب « الـ انيس» (١١) من اسبانيا ... امتلأ الرصيف البعيد وحدوه «سنتورو» Centauro المؤكسده بالأشذاء والعطور : في هذا الشارع تفعمك عذوبة القرفة ، اذ ذاك تخترق روحك مثل سهـــم ابيض رائحة فاكهــــة « تشيريمويا » Chirimoyas (١٢) من هذا الزقاق او ذاك تطل لتقاتلك فتات طحالب البحر : طحالب البحر التشيلي كله .

كانت «بالبارائيسو» آنذاك ، تتشح وتتقلد بالذهب الاسود ، تستحيل الى شجرة برتقال بحرية ، كان لها أغصان وأوراق ، كان لها نضارة وظل، كان لها تلألؤ الثمر وألق البحر .

---

٧ ـ البيروانية : نسبة الى «البيرو» ، احدى جمهوريات امريكا الجنوبية .

٨ ـ غاوغين : رسام فرنسي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٣) .

٩ ـ بقدها وقديدها : في الاصل بلحمها وعظمها .

١٠ ـ الياسمين : هكذا في الاصل (Jazmin) عن العربية

١١ ـ الـ أنيس Anis مشروب يشبه العرق ، منه الحلو ومنه الحاد .

١٢ ـ تشيريمويا : هي كلمة من اصل امريكي ، وهي شجرة تكثر في امريكا الوسطى ، يبلغ علوها حوالي ثمانية أمتار ، على جذعها اغصان كثيرة ، وقمتها كثيفة ، أزهارها عطرة، اوراقها مستطيلة خضراء ، تؤكل فاكهتها .

لقد قررت قمم «بالبارائيسو» القاء رجالها ، الاطاحة بالمنازل من الاعلى كي تحور هذه المنازل في المستنقعات التي يصبغها الصلصال باللون الاحمر ، المتاهات الذهبية باللون المذهب ، الطبيعة النفور باللون الاخضر. لكن الرجال ابوا والمنازل جفخت فتشبث الرجال والمنازل بالقمم ، التفوا عليها ، تسمّروا فيها ، تعذبوا منها ، تعوّدوا على كل ما هو شاقولي بها ، تعلقوا بأسنانهم في كل مغارة ، غرزوا اظافرهم في كل هاوية . وما ميناء «بالبارائيسو» الا الحرب السجال بين البحر وطبيعة الجبال المراوغة ، بيد ان الانسان في هذا الصراع ربح الجولة فتصالحت القمم والامواج ونعاونت الرابية والمتساطىء على تكوين المدينة وخلقها فالبساها زيا واحدا ليس كما هو الحال عليه في الثكنات بل في تنوّع الربيع ، في تلوّن الوانه ، في تشكل رسومه ، في تناغم الحانه ، في نشاطه ، في حركته . ففدت المنازل الحانا وألوانا : من ازرق واصفر ومن اسود وأحمر ومن أرجواني وأخضر. هكذا انجزت «بالبارائيسو» مهمتها ففدت ميناء حقيقيا ، سفينة راسية لكنها حية تعجّ نشاطا ، اشرعة راياتها مشرعة على الرياح فلقد كان المحيط العظيم بأمواجه ورياحه يستحق مدينة ذات بيارق ورايات .

لقد عشت بين هذه الربا الشذية الجريحة ، هي رُبا مفعمة لذيذة فيها الحياة تلطم بأمواج تتجاوز الاسوار ، تقذف بأصداف لا تسبر ، تعزف بأبواق معوجة . في المدرج ينتظرك ، مهرجان برتقالي ، راهب يهبط ، طفلة حافية غارقة في بطيختها التي تأكلها ، زحمة من بحارة ونساء ، بيعة من حدائد متأكسدة ، سيرك صغير جدا لا يسع شبوطه الا شاربَي المروّض المهرّج ، مدرج يصعد الى الغيوم ، مصعد يرتفع وقد حمّل بالبصل ، سبعة حمير تحمل ماء ، سيارة اطفاء تعود من حريق ، واجهة محل فيها من الزجاجات ما يحيي أو يميت .

لكن هذه الروابي لها اسماء عريقة عميقة . ان الحفر بين هذه الاسماء ليس ينتهي أو ينقضي لان رحلة «بالبارائيسو» لا تنتهي لا في الارض ولا في الكلمة . اليكم هذه الاسماء او بعضا منها (١٣) : الربوة الفرحة ، الربوة

---

١٣ — نحاول هنا ان نترجم هذه الاسماء علما بانها اسماء اعلام واماكن .

الفراشة ، الربوة القطبية ، ربوة المستشفى ، ربوة المسيح ، ربوة الركن ، ربوة الذئاب ، ربوة المراسي ، ربوة أواني الفخار (١٤) ، ربوة السنديان ، ربوة البطم ، ربوة الطاحونة ، ربوة القصب ، ربوة السيدة (البيرا) ، ربوة القديس (اسطفان) ، ربوة الزمردة ، ربوة اللوزة ، ربوة (رودريغيث) ، ربوة المدفعية ، ربوة الحلاّبين ، ربوة مريم العذراء ، ربوة المقبرة ، ربوة شوك الدراج ، ربوة الشجرة المطوقة ، ربوة المستشفى الانجليزي ، ربوة سعف الجريد ، ربوة الملكة (فيكتوريا) ، ربوة القديس (خوان دي ديوس ، ربوة الفرضة ، ربوة «فيثكايا» ، ربوة السيد (الياس) ، ربوة الرأس ، ربوة قصب السكر ، ربوة السفرجل ، ربوة الثور ، ربوة «فلوريدا» .

لم اعد اقدر على المسير بعد في اماكن اخرى كثيرة . ان «بالبارائيسو» تحتاج الى نسناس بحري جديد او الى اخطبوط (١٥) حتى يستطيع ان يتعرف عليها ويطوف بها . اما انا فاني استغل شيئا ما من مداها الفسيح، مداها الذاتي الودود ولكنني لا ابلغ ان اضمها من يمينها ذات الالوان العديدة ، من يسارها ذات الخصوبة والعطاء من راسها او من هاويتها .

انا فقط اتبعها في اجراسها ، في تموجاتها ، في اسمائها .

لاسيما اسماءها ، اذ ان للاسماء جذورا واصولا ، ان لها لهواء وزيتا، ان لها تاريخا ، لدنها دم في مقاطعها وحروفها .

قنصل لتشيلي في جنحر

جائزة ادبية طلابية ، بعض من الشهرة لكتبي الجديدة ، بردتي الشهيرة ، كل هذا منحني هالة من الوقار والاحترام ، وذلك خارج اطر الدوائر الفنية والادبية . لكن الحياة الثقافية لبلداننا في عام ٢٠ كانت

---

١٤ ــ أواني الفخار . هكذا في الاصل Alfareras عن العربية

١٥ ــ اخطبوط (Octopierna) : كلمة من اصل افريقي ومعناها ، ذو الثمانية ارجل، تقرأ بضم الهمزة .

تتوقف كلية على اوروبا ، ما عدا استثناءات بطولية معدودة . في كل جمهورية من جمهوريات امريكا اللاتينية كان هناك محفل كوني لا يهتم الا في الثقافة الاوروبية وبخاصة الفرنسية منها واما بالنسبة لكتاب الفئة الحاكمة فقد كانوا يعيشون في باريس . لم يكن شاعرنا الكبير (بيثينته هويدوبرو) (١٦) يكتب باللغة الفرنسية ، فحسب ، بل انه غيّر اسمه لينطق كما هو بالفرنسية ، استبدل به اسم «فينسنت» .

والحقيقة هو انه ، ما ان حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس . يسألونني ان راوني في احد الشوارع او احد الاماكن : «لكن ، ماذا تفعل هنا ؟ عليك ان تذهب الى باريس» .

لقد توسط لي صديق من اصدقائي لدى رئيس دائرة في وزارة الشؤون الخارجية ، فاستقبلني هذا الرئيس حالا احسن استقبال ، اذ انه كان قد قرأ شعري .

ـ بالاضافة الى شعرك فاني اعرف كذلك تطلعاتك . اجلس في هذا المقعد المريح ؛ فمنه تستطيع ان ترى الساحة ومهرجان الساحة . تأمل في هذه السيارات ، ان كل شيء لباطل وعبث . انك لسعيد كونك شاعرا شابا . أفترى ذاك القصر ؟ لقد كان ملكا لعائلي . وها انت تراني هنا ، في هذه الحطيره ، مكبلا وقد غدوت بيروقراطيا ؛ . ليس من شيء ذي قيمة سوى الروح . هل يعجبك (تشايكوفسكي) (١٧) ؟

بعد ساعة من الحديث الادبي والفني . عندما مد لي يده لتوديعي ، قال لي بالا أقلق حول هذا الموضوع اذ ان الامر في أيد امينة ، كيف لا وهو مدير الخدمات القنصلية وصاحب الامر والنهي في هذا الموضوع .

---

١٦ ـ بيثينته هويدوبرو : شاعر من شيلي (١٨٩٣ ـ ١٩٤٨) .
١٧ ـ تشايكوفيسكي (Pioty Ilich) : الموسيقي الروسي الشهير (١٨٤٠ ـ ١٨٩٣) .

ـ اعتبر نفسك من الآن معيّنا لمنصب في الخارج .

كنت اتردد خلال سنتين كاملتين الى دائرة هذا الرئيس الدبلوماسي الكيّس ، وهو في كل مرة اكثر كرما وترحيبا . ما ان يراني اطل من الباب حتى ينادي في فتور على احد من مساعديه ويقول له وهو يفتل شاربيه : اسمع ، لست اليوم مستعدا لاستقبال احد مهما كان ، دعني انسى النثر اليومي ، ان ما هو روحي في هذه الوزارة هي زيارة الشاعر ، ليس الا ، ليته لا يغادرنا ابدا .

كان يكلمني في صراحة وصدق ، انا متأكد من هذا . من بعد يأتي الفصل التالي ، يحدثني عن الكلاب الاصيلة «من لا يحب الكلاب ، لا يحب الاطفال» . ثم يستعرض الروايات الانجليزية ، ثم يعرّج على علم طبائع الانسان ثم يحلّق الى الروحانيات لينتهي متحدثا عن مسائل تتعلق بعلم الانساب وبخاصة أشعرة الاشراف . لدى توديعي يعيد على مسمعي هامسا ، كما لو كان الامر سرا بين اثنين لا يجوز البوح به ، ان لا احزن او أقلق وان منصبي في الخارج اكيد . مع اني كنت في عوز وأحتاج الى المال لكي آكل على الاقل ، فقد كنت اخرج من عنده راضيا ، استنشق الهواء كأني وزير او مستشار . وحين كان يسألني اصدقائي «ماذا كنت تعمل هذا اليوم ؟» اجيب بأني أعدّ نفسي للسفر الى اوروبا .

لقد دام هذا الامر الى ان التقيت صدفة بصديقي (بيانتشي Bianchi) . ان آل (بيانتشي) في تشيلي هم فخذ من قبيلة نبيلة . منهم رسامون وموسيقيون مشهورون وقضاة وكتاب ورواد مكتشفون ومتسلقون لجبال «الانديس» Andis ، تنفذ الحكومة لهم ما يشاؤون وتلبي مطاليبهم او وساطاتهم في أسرع وقت . سألني صديقي هذا الذي كان سفيرا يعرف الاسرار الوزارية والديبلوماسية :

ـ الم يصدر تعيينك حتى الان ؟

ـ سوف أحصل عليه بين لحظة واخرى ، كما أكد لي ذلك احد حماة الفنون والآداب ممن يعملون في الوزارة .

ابتسم لي ثم قال :

ـ هيا بنا الى الوزارة .

تأبطني من ذراعي الى ان وصلنا الوزارة فصعدنا الدرجات المرمرية ، فكان يخلي لنا الدرب الصاعد فراشون ومستخدمون ونازلون وطالعون . لقد كنت مندهشا جدا الى درجة اني ما استطعت ان انطق ببنت شفة حين استقبلنا وزير الخارجية فهذه هي اول مرة التقي فيها بوزير للخارجية ، كان قصير القامة جدا ولكي يخفي قصره ، جلس على مقعد عال وراء مكتبه. شرح له صديقي الامر وكلمه عن رغباتي الشديدة بالخروج من تشيلي ، فوضع الوزير أبهامه على زر من أزرار أجراسه الكثيرة واذ بحامي الادب وحامي حماي الروحي وشفيعي يطلّ بطلعته البهية فجأة مما ضاعف من بلبلتي وزاد في ارتباكي .

ـ ما هي المناصب الخالية في دائرتكم ؟ قال له الوزير .

لم يكن ليستطيع هذا الموظف الموبخ ان يتكلم الآن عن (تشايكوفسكي)، بل اقتصر على تعداد اسماء مدن مبعثرة في العالم ، ما التقطتُ منها سوى اسم واحد لا غير بدا لي اني كنت قد سمعت به او قرأته من قبل ... « رانغـــون » .

ـ الى ابن تريد الذهاب يا (بابلو) ؟ قال لي الوزير .

ـ الى رانغون ـ اجبت بلا تردد .

ـ أصدر تعيينه حالا ـ أمر الوزير ظهيري وشفيعي الذي جرى ثم عاد بقرار التسمية .

كان هناك في القاعة الوزارية كرة للكرة الارضية . صديقي (بيانتشي) وانا اخذنا نبحث فيها عن مدينة «رانغون» المجهولة . كان للخارطة الكروية العتيقة جدا انبعاج عميق كأنه جُحر ، بناحية من آسيا وفي هذا التحويف اكتشفناها .

ـ رانغون . ها هي هنا رانغون .

لكن حين التقيت من بعد باصدقائي الشعراء ، وارادوا الاحتفال بتعييني ، حصل انه نسيت كليا اسم المدينة ، ما استطعت الا ان اقول لهم بأنني عيّنت قنصلا في الشرق الخرافي وان المكان الذي عينت فيه يوجد في جحر من الخارطة .

« مونتبارناسّه » (Montparnasse)

انطلقنا ذات يوم من ايام حزيران لعام ١٩٢٧ نحو المناطق القصيّة البعيدة . استبدلنا ببطاقتي من الدرجة الاولى اثنتين من الدرجة الثالثة واقلعنا في سفينة « الـ بادين» Baden . كانت باخرة المانية ، قيل بأنها وحيدة في نوعها ، لكن كان يجب ان يقال بدلا من هذه «وحيدة» ، خامسة او سادسة الخ . كانت الوجبات في هذه الباخرة تقوم على مرحلتين متتابعتين ان انتهي من الاولى شرع بالثانية : واحدة منهما سريعة الى المغتربين البرتغاليين والجليقيين (١٨) ، والاخرى الى المسافرين الآخرين على اختلاف أجناسهم وبخاصة الالمان الذين كانوا يعودون من عملهم في المناجم او المعامل بأمريكا اللاتينية . صاحبي (البارو Alvaro) صنّف المسافرات حالا . كان مغازلا فعالا ، فقد قسمهن الى مجموعتين، اللواتي يهاجمن الرجل ، واللائي يخضعن للسوط. لم تكن هذه الصيغ في التصنيف والتقسيم دقيقة دائما . كان يستعمل انواع الحيل جميعها ليوقع الفتيات في حبائله ويصيدهن في شباكه . حين كان يطل عند جسر الباخرة مثنى من المسافرات المهمات ، يأخذ يدي بسرعة ويتظاهر بأنه يفسر لي معاني خطوط كف يدي ، بإشارات غريبة . حين ترجع المتنزهتان من جولتهما الاولى ، تتوقفان فترجوانه ان يقرأ لهما البخت . فورا يأخذ يد هذه او تلك فيداعبها ويدغدغها اكثر مما يجب وكان

---

١٨ ـ الجليقيون (Gallegos) : هم سكان منطقة «غاليثيا» Calicia او «جليقيا» كما كان يدعوها العرب ، وهي المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا .

يوقع لهما المستقبل السعيد الا وهو زيارة غرفتنا في السفينة .

بالنسبة لي تحوّلت رحلتي الى شيء آخر فلم اعد انظر الى المسافرين الذين كانوا دائما يحتجون صارخين على وجبة الطعام الخالدة من « كارتوفيل » (١٩) لم أعد اتأمل في الكون او في المحيط الاطلسي الرتيب ، فقد قصرت نظري على التمعن في عينين سوداوين واسعتين لفتاة برازيلية، برازيلية في كل شيء، برازيلية الى حد ما لا حد له، منذ ان صعدت الى الباخرة بصحبة أبويها واخويها في ميناء "ريو دي جينيرو".

ان مدينة «ليشبونة» البهجة الفرحة في تلكم الاعوام بصيادبها الذين يملأون أرصفة مينائها وشوارعها ، ومن غير ان يكون بعد في العرش (سالازار) (٢٠) ، ادهشنني وفتنتني ، الأكل في الفندق الصغير كان لذيذا، صوان كبيرة من الفواكه كانت تتوّج المائدة . الدور الكثيرة الالوان، القصور القديمة ذات الاقواس فوق الابواب ، الكنائس الهائلة المخيفة كأنها بقبابها قشور بيض الرخّ والتي كان الله قد غادرها منذ قرون ليعيش في أماكن أخرى ؛ دور الميسر داخل القصور العتيقة ، الجمهور المتطفل بشكل طفولي في الشوارع الطويلة ، (الدوقة براغانثا) (٢١) ، وقد فقدت عقلها ، تمضي عبر شارع مرصوف بالاحجار ، في وقار وجلال ، وهي تُتبع بمائة من الشبان الصعاليك الذاهلين ؛ هكذا كان دخولي الى اوروبا .

ومن بعد ، مدريد بمقاهيها المكتظة بالناس ، في تلك الايام كان (بريمو دي ريبيرا) (٢٢) الدمث يلقي الدرس الاول في الديكتاتورية

---

١٩ ـ كارتوفيل : هو نوع من الاكل الالماني .

٢٠ ـ سالازار (Antonio de Olivera) : الديكتاتور البرتغالي المعروف (١٨٨٩ ـ ١٩٧٠) .

٢١ ـ الدوقة براغانثا : من الاسره الملكيه البرتغالية التي اقصيت عن الملكية والحكم.

٢٢ ـ بريمو دي ريبيرا (Miguel) : كان جنرالا في الجيش ثم حكم اسبانيا حكما ديكتاتوريا (١٨٧٠ ـ ١٩٣٠) .

على بلـــد سيتلقى من بعد الدرس الاكمل . ان قصائـــدي الاوليـــة في ديواني «مقام في الارض» قد تأخر الاسبان في فهمها ، وهم ما فهموها واستوعبوها الا حين نشأ جيل (البرتي) «٢٣» و(لوركـــا) و(اليكسانـــدره) و(ديغو) . واسبانيا كانت بالنسبة لي كذلك القطار اللامنتهي والعربة من الدرجة الثالثة ، اكثر العربات قساوة ورداءة في العالم ، التي أقلتني الى باريس .

لقد اختفينا ؛ انا وصاحبي ، بين جمهـــــرة مقهى «مونتبارناس» الدخانية ، بين ارجنتينيين وبرازيليين وتشيليين . اما الفانزويليون فلم يكونوا قد حلموا بعد بأن يبينوا ويظهروا ، فقد كانوا مقبورين اذ ذاك تحت نير حكم (غومث Comez) «٢٤» . وهناك في زاوية من زوايا المقهى جلس أوائل الهنود الحمر من الذين اتوا الى باريس بملابسهم السابقة . وقربي على طاولة مجاورة جارتي تتناول في تؤدة قهوة بالحليب وحول عنقها التفت افعى . كانت جاليتنا الامريكية الجنوبيـــــة تشرب «كونياك» ، ترقص «التانغو» وهي تنتظر سانحة كي تبدأ بمشاجرة كبيرة والتعارك مع اكثر الناس هناك .

لقد كانت باريس وفرنسا واوروبا بالنسبة الينـــا نحن القرويين البوهيميين القادمين من امريكا الجنوبية لا تعدو ان تكون مئتي متر ليس الا ، وزاويتين : «مونتبارناس» ، وال «روتوند» وال «روم» وال «كوبول» ، وثلاثة مقاه او اربعة اخرى ليس اكثر . لقد اصبحت عادة عند الامريكيين الجنوبيين وبخاصة الارجنتينيين منهم الذين كانوا اكثر عددا واكثر عربدة واكثر غنى ، مسامرة الملاهي المليئة بالسود . في كل لحظة كانوا يثيرون الشغب في هذا المقهى او ذاك ويشاهد دائما منظر احد الارجنتينيين وهو

---

٢٣ ـ البرتي : لقد ترجمنا له ومنه وكذلك لشعراء جيله المعروف بجيل عام ٢٧ في كتابنا المذكور «مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» ، وهو شاعر ولد في قرية من قرى «قادیش» عام ١٩٠٢ ويعيش منذ نهاية الحرب الاهلية الاسبانية في ايطاليا ، وله كذلك مسرحيات رائعة . لقد عاد الى اسبانيا في عام ١٩٧٧ .

٢٤ ـ غومث (Juan Vicente) : دیکتاتور فينزويلي (١٨٥٧ ـ ١٩٣٥) .

بحمل بين اربعة من النوادل ويمر بين الطاولات بلا توقف لبوضع على ناصية الشارع في صخب واحتجاج اذ لم تكن نعجب ابناء عمنا ابناء «بونوس ايرس» ، هذه التصرفات العنيفة ـ علما بأنهم كانوا هم الذين يبدؤون بها ـ التي تعسد لهم سراويلهم الانيفة . وما هو اكتر حطورة انها كانت تخربط تسريحات شعرهم ، فلقد كانت الاناقة واللياقة جزءاً اساسيا فى الثقافة الارجنتينية تلك الفترة من الزمن .

ان الحقيقة هي انني ، في هذه الايام الاولى لي بباريس التي كانت تطير ساعاتها دون ان أدري ، لم اتعرف على اي فرنسي ولا على اي أوروبي ولا على اي آسيوي بله على اي مواطن من افريقيا او من المحيط الهادي . كان الامريكيون الناطقون باللغه الاسبانية جميعا ، من المكسيكيين حتى البانتاغونيين ، يقضون اوقاتهم في مجالس للتنكيت والتبكيت يضخمون العيوب ، يصغر بعضهم بعضا ويحقره ، دون ان يستطيعوا ان يعيشوا مفترقين لحظة واحده فقد كان رجل من غواتيمالا ، مثلا ، يفضل لفضاء الوقت في شكل لذيذ ، مصاحبة صعلوك من باراغواي على مصاحبة (باستور) (٢٥) .

في هذه الايام تعرفت على (ثيسار بابيجو) (٢٦) ، الذي هو «تشولو» (٢٧) عظيم وشاعر شعر متغضن صعب الملمس خشن المجس كأنه جلد الغابة ، لكنه شعر عظيم جدا ذو أبعاد انسانية .

لقد وقعت لي معه حادثة حين قدموني اليه في مقهى الـ «روتوند» فقد قال لي وهو يصافحني فى لهجته البيروية المهذبة :

ـ انت اعظم شعرائنا كلهم ، لا يقارن بك الا (روبين داريو) (٢٨) .

---

٢٥ ـ باستور Louis : كيميائي فرنسي (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) .
٢٦ ـ ثيسار بابيجو : شاعر من البيرو (١٨٩٣ ـ ١٩٣٨) .
٢٧ ـ تشولو Cholo : هو الهجين المختلط الدماء من دماء الهنود الحمر ومن دماء الاوروبيين .
٢٨ ـ روبين داريو : شاعر مشهور جدا من «نيكراغوا» (١٨٦٧ ـ ١٩١٦) .

ـ يا (بابيخو) ـ قلت له ـ اذا اردت ان نكون اصدقاء دائما فأرجوك الا تعود فتقول لي شيئا من هذا القبيل ، فلست أدري ان بدأنا علاقتنا على هذا النحو من المدح والمجاملة وعلى هذا الشكل في التخاطب بأننا أديبان كبيران ، اين سنقف فيما بعد والى اين سنصل .

بدا لي ان كلماتي هذه قد أزعجته جدا . تربيتي المعادية للأدب كانت تجعلني أصير سيء الادب ، بينما هو ، على العكس من ذلك ، ينتمي الى جنس اكثر عراقة من جنسي ذي مجد وكياسة ولباقة . لقد شعرت حين لاحظت انه تضايق من كلامي ، كأني ريفي جلف فظ .

لكن ذلك مر كسحابة صيف ومنذ تلك اللحظة غدونا صديقين حميمين . بعد عدة سنوات ، حين عرجت على باريس مرة اخرى لقضاء بعض من وقت ، كنا نتقابل يوميا . حينذاك عرفته في عالمه الذاتي وأحببته اكثر فأكثر .

كان (بابيخو) أقصر قامة مني، اكثر عظما، كان كذلك اكثر «مهندا»(٢٩) مني بعينيه الغامقتين وبجبهته الشامخة المعقودة قناطر وقبابا وبميسمه الـ «إينكي» (٣٠) الجميل الحزين في شيء من الجلالة والمهابة . كان مزهوا معجبا متباهيا كجميع الشعراء قاطبة فلقد كان يسره ويرضيه ان يطنب الناس في الحديث عن سجاياه البدوية وملامحه الهندية ، كان يشمخ برأسه كي الحظ في وجهه هذه المزايا فأكبرها وأطريها ويقول لي :

ـ أفليس حقا ان في وجهي لنضارة البدوي ؟ . ثم يضحك من نفسه في ابتسامة صامتة .

ان افتخاره لمختلف جدا عن فخر (بيثينته هويدوبرو) ، هذا الفخر

---

٢٩ ـ مهنّد : لم نجد اصلح من هذه الكلمة لترجمة ما معناه انه كان اكثر هنديا احمر.

٣٠ ـ الـ «اينكي» : نسبة الى (inca) وهو ملك او امير او نبيل في قبائل «البيرو» القديمة .

الذي كان يبدبه احايين كثيرة هذا الشاعر المتقاطر و(باييخو) في اشياء كثيرة ، فلقد كان (هويدوبرو) يترك على جبينه عقيصة من الشعر تتدلى ويحسر أصابعه في صدرينه ويشرئب راسا وصدرا ثم يتساءل :

ـ أفما تلحظون شبهي من (نابليون بونابرت) ؟

ـ بلى ، كانوا يجيبونه مستهزئين احيانا .

كان (باييخو) متجهما عبوسا كئيبا ، بيد ان ذلك لم يكن الا في المظهر فكأنه رجل يقف في شبه ظل نصفه نور ونصفه الآخر عتمة ، خلال ردح طويل من الزمن ، فلا النور يبلغ الظلام ولا الظلام يبلغ النور وكل في مكانه لا يبرحه . كان في طبعه جليلا وقورا ، ووجهه كأنه قناع صلب لا يرق ولا يلين ، رصين يحسبه الناس تكلفا وما هو بذلك . لقد رأينه عدة مرات (وبخاصة حين كنا نقدر على اجتثاثه من سيطرة زوجته ، كانت امرأة فرنسية طاغية مدعية وهي ابنة بواب) . لقد شاهدته حين يخرج معنا ، وهو يقفز قفزات التلامذة فرحا وغبطة ، ثم يعود الى وقاره وجلاله الى خضوعه وانقياده .

على حين غرة طلع من ظلال باريس نصير الا.ب هذا الذي كنا ننتظره ولا يأتي ابدا ، نصيرا يأوينا ويعطينا . كان حامي الادب هذا كاتبا تشيليا، صديقا لـ (رافائيل البرتي) وللفرنسيين ولنصف العالم . وكذلك كان ، وهذه ميزة اكثر أهمية من غيرها ، ابن صاحب اكبر شركة تشيلية للسفريات البحرية . وكان شهيرا بتبذيره واطلاق يده .

كان ذلك المسيح الحديث السقوط من السماء يريد ان يحتفل بي ويكرمني فقادنا جميعا الى ملهى للروس البيض يدعى «الحانة القفقاسية»، كانت جدران هذه الحانة مزينة بأزياء ومناظر من جبال القفقاس ، ما ان جلسنا حتى أحاط بنا عدد كبير من الروسيات او المدعيات بأنهن روسيات، متزينات كما تتزين فلاحات تلك الجبال .

ان (كوندون) ، هذا هو اسم مضيفنا راعي الفنون ، يبدو وكأنه آخر روسي من عصر الانحطاط ، هشتا أشقر ، كان يطلب بلا هوادة او انقطاع

زجاجة «شمبانيا» اثر زجاجة ، يقفز قفزات جنونية ، مقلدا رقصـــات القوزاق» (٣١) التي ما رآها او رآهم قط .

ـ «شمبانيا ، شمبانيا» ، ثم خر ساقطا مضيفنا المليونير الشاحب الوجه البدن . ظل مخزونا تحت الطاولة ، نائما نوما سباتا كأنه جثـــة هامد . مفقاسي أهلكه الدب الابيض .

..ت بنا رعشة تلجية وهزة جليدية ، لا الرجل يستفيق فيدفع ــ لقد حاولنا بعثه بأضمدة من ثلج بزجاجات من نشادر مفتوحة موضوعة قيد انفه ــ ولا نحن نملك ان ندفع . الراقصات ما عدا واحدة منهن ، هجرننا وقد رأيننا في حيرة وتشتت . بحثنا في جيوب مضيفنا فما عثرنا الا على دفتر «شيكات» مزخرف ، ما كان صاحبنا في شزوطه الجنشية تلك بقادر على التوقيع .

لقد الح صاحب الحانة القفقاسي الاعظم على ان يكون الدفع عدًا ونقدًا وحالا ، فأغلق باب الخروج تحسبا كيلا نولي الأدبار ، فما استطعنا ان ننجو من السجان الا بترك جواز سفري الديبلوماسي الجديد القشيب هنـــاك حبيسا لدبه مرهونا بدلا منا .

خرجنا وقد حملنا مضيفنا المليونير المنهك فكلفنا جهدا كبيرا نقله الى سيارة «تكسي» ، تكفيته فيها ، انزاله منها عند باب فندق فاخر فتركناه بين أذرعة بوابين ضخمين لابسين ازياء حمراء فحملاه كما لو انهما يرفعان أمير بحر (٣٢) سقط على جسر سفينته .

كانت تنتظرنا في سيارة «التاكسي» فتاة الحانة ، الفتاة الوحيدة التي ما هجرتنا في وقت الضيق والتعاسة . دعوناها ، انا و(البارو) ، الى مطعم «ليس هاليس» Les Halles لتتذوق حساء البصل عند الفجر ،

---

٣١ ـ القوزاق (Cosacos) : هم سكان ببعض مناطق روسيا ، وكذلك هم العساكر الخيالة في روسيا القيصرية .

٣٢ ـ امير بحر : او امير البحر ، هكذا في الاصل Almirante . عن العربية

اشترينا لها وردا من السوق وقبلناها قبلات شكر وامتنان على سلوكها السامري فشعرنا ان لها جاذبية ما . لم تكن لا بالجميلة ولا بالقبيحة ، بل ان انفها الباريسية المتجعدة المتغضنة كانت تمنحها شيئا من الاعتبار . آنذاك دعوناها الى فندقنا البائس التعس ، لم يكن هناك من جانبها اي مانع او تعقيد في الذهاب معنا .

دخلت مع (البارو) الى غرفته ، وأنا هويت في فراشي مستسلما للنوم ، لكن ما ان غفوت قليلا حتى احسست ان احدا يهزني ، يخضني ، كان (البارو) ، وجهه بدا لي غريبا كوجه مجنون وديع .

ـ هناك شيء يجري ـ قال لي ـ ان لهذه المراة لشيئا متميزا غريبا غير مألوف ، شيئا ما انا بقادر على ان أشرحه لك ، عليك ان تجربها بنفسك الآن حالا .

بعد دقائق معدودات جاءت هذه المراة فحشرت نفسها بلطافة وهي كأنها حالمة ساهمة ، في فراشي . حين ضاجعتها خبرت فيها هذه الميزة الغريبة ، هذه الهبة السحرية ، كان شيئا لا يوصف ، شيئا ينبع من اعماقها يتفجر ، ثم يرجع أدراجه الى اصل الشهوة ، نبع اللذة ، مولد الموجة ، الى سر «فينوس» الخصب ، ثم يعود يقذف ثم ينخطف . ان (البارو) لعلى حق وفي يقين .

في اليوم التالي ، اثناء الفطور ، حذرني (البارو) قائلا باللغة الاسبانية:

ـ ان لم ندع هذه المراة الآن ، فان سفرنا سيبوء بالفشل والاحباط اذ اننا ، يا عزيزي ، لن نركب البحر بل سر الجنس المقدس ولغز هذه المراة الذي لا يسبر .

قررنا ان نفعمها هدايا : وردا ، شوكولاتا ، نصف ما تبقى معنا من «فرنكات» . اعترفت لنا بأنها ما كانت تعمل في ذلك الملهى القفقاسي ، بل انها زارته لاول مرة تلك الليلة . ثم من بعد اخذنا لها سيارة تاكسي وركبنا معها . كان سائق التاكسي يجتاز حيا مجهولا ، حين أمرناه بالتوقف

فودعناها وتودعنا منها بقبل كثيرة كبيرة ، تركناهـــا هناك ، تائهة لكـن مبتسمة .

ابدا لم نرها من بعد ، قط .

سفر الى الشرق

كذلك لن أنسى القطار الذي أقلّنا الى مرسيليا ، محملا مثل سلة فواكه غريبة ، بأناس شتى ، بفلاحين وبحارة ، بآلات «أكوردبون» واغان كانت تتسق وتتجاوب في عربات القطار كلها . كنا نمضي نحو البحـــر الابيض المتوسط ، نحو أبواب النور .... عام ١٩٢٧ . لقد سحرتنـــي مرسيليا برومنطيكيتها التجاريه وميناء «بيوكس» ، المجنح بأشرعنه الفوارة في كدرها القائم . لكنما الباخرة التي كانت تابعة الى شركة «مبساجريس» البحريه والتي قطعنا تذكرتين للركوب بها حتى «سينغابور» ، كانت قطعة من فرنسا في البحر ، ببرجوازيتها الصغيرة التي كانت تهاجر لتشغـــل مناصبها في المستعمرات النائية . حين لاحظ بحارة السفينة ان لدينا آله كاتبه وانه يبدو علينا من كنبنا واوراقنا اننا من الكتّاب ، وذلك خلال الرحله ، طلبوا منا ان نكتب لهم على الآلة الكاتبة رسائلهم . كنا نكتب ما يملونه علينا من رسائل غرامية بحثّارية غريبة عجيبة ، الى خطيباتهم فــي مرسيليا ، في «بوردو» في الريف . ما كان يهمهم كثيرا ان نحسن الاسلوب وندبّج الجمل الجمله ، بل ان ما كان يهمهم هي الآلة الكاتبة ، لكن ما كان يقولونه في هده الرسائل كان يشبه قصائد (تريستان كوربيير) ، رسائل كلها فظاظة وطراوة معا . راح البحر الابيض المتوسط ينفتح امام قيدوم سفينتنا بموانئه ، بسجاجيده ، ببضائعه ، بأسواقه . في البحر الاحمر أدهشني ميناء «جيبوتي» Djibuti ، الرمال المحترقة المخددة من كثرةذهاب (ارثور رامبو Arthur Rimbaud (٣٣)، تلك الفتيات السوداوات كأنهن تحف بسلالهن المليئة بالفاكهة ، تلك الاكواخ البائسة لاولئك السكان

---

٣٣ – ارثور رامبو (آرثور Jean) : الشاعر الفرنسي الشهير (١٨٥٤ – ١٨٩١).

البدائيين ، وهواء غير متناسب ونسيم تلك الانحاء في مقاه منارة بضوء شاقولي ذي أطياف .... هناك كانوا يتناولون الشاي المبرّد بالليمون .

ان المهم هو رؤية ما يجري في «شانغهاي» ، ليلا . ان المدن ذات السمعة السيئة والصيت «الحسن» تجذب المرء اليها كمثل نساء سامئات. كانت «شانغهاي» تفتح شدقها الليلي لتبتلعنا نحن الاثنين . فنحن اثنان من ريفيي العالم ، مسافران من الدرجة الثالثة ، ليس لهما الا قليل من المال وكثير من الفضولية الحزينة .

دخلنا الى هذا الملهى وذاك ، الى القريب والبعيد . كانت ليلة في منتصف الاسبوع ، لذلك فان الملاهي كانت خاوية . لقد كان محزنا ومحبطا أن ترى تلك المدارج ؛ مدارج الرقص الهائلة ، كأنما بنيت لكي يرقص فوقها مئات الفيلة ، وهي خاوية على مدارجها ، لا يرقص فيها احد . في الزوايا الكئيبة كانت تطلع منها فجاة روسيات ضامرات من عهد القيصر يتثاءبن وهنّ يطلبن منا ان ندعوهن على زجاجة «شمبانيا» . هكذا تجولنا في ستة او سبعة من محلات اضاعة الوقت حيث لم يكن يضيع منا الا وقتنا .

كان الوقت متأخرا كي نعود على أرجلنا الى الباخرة التي خلفناها بعيدة جدا، خلف أزقة الميناء المتصالبة فلذلك استأجرنا لكل واحد منا «ريكتشا». لم نكن متعودين على هذا النوع من النقليات بأحصنة بشرية . لقد كان صينيو عام ١٩٢٨ يخبّون وهم يجرون العربة بلا هوادة ولا راحة عبر مسافات طويلة بعيدة .

«يا للصينيين من عرق جدّ ناعم وجدّ ماهر ، ليس عبثا ان لهذا الجنس الفي عام من الحضارة» كنا نفكر في هذا : (البارو) وأنا ، كل في مقعده المتدرّج الجاري .

غير ان شيئا بدأ يوسوس في صدري ويقلقني . لم اكن ارى شيئا ، وأنا سجين تحت حصار اتخذت فيه كافة الاحتياطات كيلا ارى شيئا ، لكن ، بلى ، كنت اسمع على الرغم من القماش المشمع ، صوت حصاني وهو يهمهم ويدمدم وصوت حوافره وهي تخبّ وتدبّ . على نغم حوافره

أضيفت من بعد اصوات اخرى متناغمة لأقدام حافيـــة كانت تخب عبر الاسفلت البليل . اخيرا همدت الاصوات والضجّات ، علامة بأن الاسفلت قد انتهى . لقد اصبح مؤكدا اننا نسير فوق اراضي حقول بور ، خـــارج المدينـــة .

توقفت فجأة ، عربتي . فك الحوذي في مهارة القماش الذي كـــان يحميني من المطر . لم يكن ثمة اي ظل لاية باخرة في تلك الضاحية غـــير الآهلة . والعربة الاخرى كانت واقفة ازائي ، ثم نزل منها (البارو) تائهـــا مخبولا .

ـ «موني ، موني» Money Money (الفلوس، الفلوس) كانوا يرددون بالانجليزية في صوت هادىء ، ونظرنا واذ بهم سبعة او ثمانية يحيطون بنا.

ابدى صديقي حركة بيده وكأنه يبحث عن سلاحه في جيب السروال فكان هذا كافيا لكي يضربونا كلينا بضربة في القفا لكل منا . انا هويت نحو الخلف ، لكن الصينيين في خفة وسرعة تلقفوا راسي وهو في الهواء كي يحيلوا بينه والصدمة العنيفة على الارض وفي رقة ونعومة فرشوني على الارض البليلة مستلقيا . قلبوا جيوبي ، بحثوا في قميصي ، خلعوا عني قبّعتي ، نزعوا مني حذائي ، سلخوا مني جرابي ، فكوا عن عنقي ربطتي، في سرعة عجيبة وفي حذاقة بالغة كما البهلوان . لم يدعـــوا سانتيمترا واحدا من الملابس الا حركوه وقلبوه ولا «سانتيما» واحدا مما كان معنا وهو قليل وحيد ، الا واخذوه وسرقوه . لكن لصوص شانغهاي بما لهم من لباقة تقليدية وعفة نفس أبية احترموا لنا في حرص وقداسة ، أوراقنـــا، وجوازي سفرنا .

بعد ان مضوا وبقينا وحدنا ، تحركنا باتجاه الانوار التي كانت تُرى من على بعد ، فوجدنا مئات من الصينيين الليليين لكنهم شرفاء محترمون. لم يكن بينهم من يعرف الفرنسية او الانجليزية او الاسبانية ، غير انهم ابدوا استعدادهم لمساعدتنا في الخروج من ورطتنا وانقطاعنا عن الباخرة فأرشدونا الى ان وصلنا الى غرفتنا من الدرجة الثالثة ، غرفة فردوسية تنفسنا فيها واسترحنا .

وصلنا الى اليابان . لا بد ان المال الذي كنا ننتظر ان يصل من تشيلي، قد وصل الى القنصلية . اضطررنا أن نأوي تلك الليلة الى ملجأ بحارة في «يوكوهاما» . فقضينا فيه عدة ايام ، كنا ننام فوق نضائده من الحلفاء ، انكسر زجاج النافذة ، أثلجب السماء ، كان البرد يلدغ ويلذع حتى روحنا ، وما من احد يهتم بنا او يرثي لحالنا . ذات سحر انشقت سفينة بترول الى قسمين أمام الساحل الياباني فامتلأ الملجأ بالناجين من الغرق . من بينهم بحّار بشكانسي لم يكن يعرف من اللغات الا لغته واللغة الاسبانية فحكى لنا مغامرته : خلال اربعة ايام بلياليها بقي عائما على قطعة من الباخرة ، وهو محاط بأمواج النفط الملتهبة . هؤلاء الناجون من الغرق كانوا يتلقـــــون مساعدات ومؤنا ، وكان هذا الشاب البسكوي الكريم يعطينا من كل شيء وكأنه حامينا وراعينا .

نقيضه كان القنصل العام لتشيلي ــ يبدو لي انه يدعى (دي لا مارينا) او (دي لا ريبيرا) ــ استقبلنا من مقامه العالي الرفيع وهو يحاول ان يشعرنا بضآلتنا ، بضآلة من نجا من الغرق ويطلب العون والمساعدة . فهو وقته قصير جدا ، وهذه الليلة سيتعشى مع «الكونديسه» (يوفـــــو سان) ، الحاشية الامبراطورية ، دعته لتناول الشاي في القصر ، هو عاكف علـى دراسة عميقة عن السلالة الملكية .

ــ يا له من انسان رقيق جدا جلالة الامبراطور ، الخ .

كلا ، ليس عنده هاتف ، فما هي حاجة الهاتف في «يوكوهامـــــا» بالنسبة له ؟ ان كلموه فانهم سيكلمونه باللغة اليابانية اما بالنسبة لاخبار اموالنا ، فان مدير المصرف ، وهو صديق حميم له ، لم يكن قد تفضّل فأخبره بشيء حول هذا الامر . انه ليأسف ان يودعنا ، اذ انهم ينتظرونه في حفلة استقبال ، الى الغد ، ان شاء الله ، الى الغد .

وهكذا كل يوم ، كنا نغادر القنصلية ونحن نرتعد من البرد لان ملابسنا كانت قد تضاءلت نظرا للسطو والهجوم الذي شن علينا ، لم نكن نلبس الا ما يُعطى لنا من ملابس الناجين من الغرقى . علمنا في آخر لحظـــــة ان أرصدتنا قد وصلت الى «يوكوهاما» قبل ان نصل نحن اليها . وكـــــان

المصرف قد ارسل ثلاث رسائل يخبر فيها السيد القنصل بوصول المبلغ، لكن تلك الدمية ذات القلائد اعني ذلك الموظف العالي السامي جدا لم يكن قد درى بهذا الشيء الضئيل الذي هو اقل كثيرا من ان يصل الى عالي مقامه ورفيع شأنه . (حين اقرأ في الصحف ان قنصلا او آخر قد أغتيل من قبل احد مواطنيه الغاضبين ، افكر بحنين في ذاك المقلّد المبجّل) . تلك الليلةذهبنا الى احسن مقهى فيطوكيو وهو مقهى الـ «كورونكو» Koroncko بـ «غينشا» Ghinza . لقد كان يؤكل جيدا في تلكم الاوقات بطوكيو، بفضل اسبوع الجوع الذي كان يملأ الاطعمة توابل . شربنا بمصاحبة فتيات يابانيات لذيذات ، عدة مرات ، نخب المسافرين التعساء كلهم ، نخب أولئك المسافرين الذي لا يعتني بهم القناصل الفاسدون التافهون الموزعون في انحاء العالم .

انها «سينغابور» . كنا نظن انفسنا قرب «رانغون» . يا له من فشل مرير ! ان ما كان في الخارطة وهو لا يعدو ان يكون بضعة ميليمترات قد استحال الى هاوية مرعبة . ما زالت تنتظرنا عدة ايام على ظهر الباخرة ، ولكن اية باخرة ! فالباخرة الوحيدة التي تقوم عادة برحلة بين المدينتين كانت قد أقلعت في اليوم السابق الى «رانغون» . لم يكن معنا ما ندفع به اجرة الفندق ولا ثمن التذكرتين . فأرصدتنا الجديدة تنتظرنا في «رانغون» .

لقد وجدتها !. فلأمر ما ثمة هنا في «سينغابور» قنصل تشيلي ، انه زميلي ، السيد (مانسيّا) . اتصلنا به فخفّ سريعا الى فندقنا ، لكن ابتسامته اخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، تخفّ الى ان اختفت كليا لتترك مكانها تكشيرة غضب وانزعاج .

— لا أستطيع مساعدتكما في شيء ، اتصلا بوزارة الخارجية في تشيلي .

حرّضت فيه النخوة وتضامن القناصل الاخوي . عبثا ، فلقد كان للرجل وجه كوجه سجّان لا يرحم ولا يشفق ، اخذ قبّعته وخرج مهرولا، وما كاد أن يختفي حتى خطرت لي فكرة رائعة :

ـ يا سيد (مانسينًا) ، اني لأجد نفسي مضطرا أن أقوم بالقاء عـدة محاضرات عن بلدنا على ان يدفعوا لي مقابلها مبالغ مسبقة ، وبهذا أستطيع ان اجمع ما يكفي لشراء البطاقتين والمصاريف الاخرى ، فلهذا اني ارجوك ان تؤمّن لي المكان والمترجم والاذن اللازم .

أصبح الرجل عند ذلك شاحب الوجه مضطربا . ثم أردف قائلا :

ـ ماذا ، امحاضرة عن تشيلي في «سينغابور» ؟ لا اسمح بهذا ، هذه هي منطقة اختصاصي ومجال نشاطي ، ما من احد يستطيع الكلام عـن تشيلي هنا سواي .

ـ هدّىء من روعك ، يا سيد (مانسينًا) ـ اجبته . كلما كان عـدد المحاضرين عن وطننا النائي اكثر ، كان أفضل ، لا ارى بهذا ما يدعوك للغضب .

اخيرا عقدنا صفقة في هذه التجارة الغريبة من التلميح بالتهديد في انه يعادي الوطنية . جعلنا نوقع له على عشرة وصول ، وهو يرتعد مـن غضب ، ثم ناولنا النقود التي حين احصيناها وعددناها وجدنا ان الوصول كانت تتضمن مبلغا اكثر مما دفعه لنا .

(بعد عشرة ايام ارسلت له انا «شيكا» لايفائه الدَين من «رانغون» ، لكن بدون تضمين الفوائد ، طبعا) .

من على ظهر السفينة التي كانت تتهادى مقتربة من «رانغون» ، رأيت، مطلّ القمع الذهبي الهائل للمعبـد الرائع ، معبد « سوي داغـون » Swei Dagon . كانت جمهرة من الازياء الغريبة تتزاحم على رصيف الميناء في حشد من الالوان عنيف . نهر عريض وسخ يصب هناك في خليج «مارتابان» . ان لهذا النهر اسما هو أجمل اسم نهر من أنهار العالـم جميعها «ايراوادهي» .

ازاء مياهه ، على ضفافه بدأت حياتي الجديدة .

(Alvaro «البارو»)

.... انه لعفريت (البارو دي سيلبـــا) (٣٤) .... يعيش فـــي نيويورك ... اتخيله وهو يأكل برتقالة في لحظات غاضبـــة شائمة ... يحرق بالكبريت ورق لفائفه من التبغ ، يوجه اسئلة مزعجة مغيظة الى نصف العالم .... لقد كان دائما معلما فوضويا ، ذا ذكاء لامع ، ذكـــاء يستقصي لكنه لا يؤدي الى أية جهة ، الا الى نيويورك ، كان ذهابه الى هذه المدينة في عام ١٩٢٥ .... كان يحيا بين شقائق النعمان التي كانت تفرّ من بين يديه وهو يعدو مسرعا ليقطفها فيعطيها الى مسافرة مجهولة يريد مضاجعتها دون ان يعرف لها اسما ولا جهة ولا يدري من اين جاءت والى اين تمضي وبين قراءاته التي لا تنتهي لـ (جويس Joyce) (٣٥) ، كان يدلي اليّ والى آخرين كثيرين ، بآراء يُشكّ في مدى صحتها ، وجهات نظر في كل شيء كأنه مواطن يعيش في كهفه بالمدينة ويخرج من حين الى آخر ليتمتع بالموسيقى ، بالرسم ، بالكتب ، بالرقص ... دائما يأكـــل برتقالا ، يقشر تفاحا ، حمية غذاء لا تحتمل ، يتدخل في كل شيء ، لقد رأيت فيه مجسما نقيض الريفي الذي طالما حلمت في ان اكونه ، بله نحن الريفيين جميعا نحلم دائما ان نكونه ، لا يرحل بعناوين ملصقـــة على الحقائب ، بل يمضي يدور حول نفسه وفـــي نفسه مزيج من البلـــدان والالحان والحفلات والمقاهي حتى مطلع الفجر ، والجامعات ذات الثلوج على الاسطحة... لقد بلغ في أحلامه المفرطة حدا جعل لي العيش مستحيلا... انا حيث أصل أحاول ان أحلم حلم النبات في ان يكون له موضع لا يتزحزح منه ، ان أحدد لي مكانا لا أبرحه ، ان اغرز جذرا كي أفكر ، كي أوجد... بينما (البارو) كان يمضي من كهربة الى أخرى ، من فكـــرة الى اختها ، مسحورا بالاقلام التي يمكن ان نمثل فيها ، لبسنا ذات مرة ملابس جعلتنا نبدو كمسلمين كي نذهب الى الاستوديوهات فيتعاقدوا معنا للتمثيل ... ثم توجهنا الى هذه الاستوديوهات (في الطريق حين دخلنا الى حانـــوت

---

٣٤ – سيلبا : معناها ، غابة .

٣٥ – جويس (جيمس James) : كاتب ايرلاندي (١٨٨٢ – ١٩٤١) .

لنشتري تبغا ، وأنا أرتدي زيا بنغاليا ، وذلك في «كلكوتا» ، الناس ظنوا اني من عائلة اطاغور) . وصلنا الى استوديوهات «دوم ـ دوم» Dum - Dum وسرعان ما خرجنا منها مطرودين ـ ما زلت احتفظ بصور لي في تلك الازياء ـ ووشيكا خرجنا راكضين من فندق «ي م ك أ» YMCA لاننا ما دفعنا اجرة اقامتنا فيه .... اما عن المرضات اللواتي كن يعشقننا فحديثهن يطول .... (البارو) حشر نفسه في اعمال تجارية هائلة ... كان يريد ان يبيع شاي «اسّام» Assam اقمشة من «كشمير» ، ساعات ، كنوزا قديمة .... كل شيء كان يعطي ثماره عما قريب ... كان يترك عينات من الحرير الكشميري ، مساطر من الشاي فوق الطاولات ، فوق الأسرّة ... كل ذلك وقد هيأ حقيبته للسفر او انه قد أصبح في مكان آخر من العالم ... في ميونيخ ... في نيويورك ...

ان كنت انا قد تعرفت على كتاب مثابرين ، مشمرين ، متقنين ، خصبين فاني أجزم قائلا بأن (البارو) هو أعظمهم جميعا وأفضلهم على الاطلاق ... قلّما ينشر ما يكتب ... لا أفهم لماذا ... كان في كل صباح، وهو في السرير ، ونظارته طالعة من حديبة (٣٦) انفه ، «هزّي ، هزّي» (٣٧) على الآلة الكاتبة ، مستهلكا مواعين وحزما من انواع الورق كله ، والاوراق جميعها ... لكنه لا يستنفد حركاته ، كهرباءه ، انتقاداته، برتقالاته ، تحولاته الزوبعية ، كهفه في نيويورك ، باقاته من شقائق النعمان ، غموضه الذي يبدو واضحا ، وضوحه الذي يبدو غامضا ... وما يبدعه ويؤلفه يقبع ولا يخرج .... قد يكون لانه لا يرغب ... وربما لانه لا يستطيع نشره ... قد يكون لانه جد مشغول ... ربما لانه جد غير مشغول ... بيد انه يعرف كل شيء ، يعلم بكل شيء ، يرى كل شيء عبر القارات بهاتين العينين الزرقاوين الجريئتين، بهذا اللمس الحاذق الذي يدع رمل الزمن يتسلل بين اصابعه .

---

٣٦ ـ حديبة : في الاصل Jorobilla وهو تصغير اسباني للكلمة العربية حدبة.

٣٧ ـ هزّي : في الاصل Dale que Dale بمعنى اعطيه ، اعطيه ، وهذا يقال للراقصة او الراقص كي يتحمس ويميد ويزيد .



الفصل الرابع

الوحدة المضيئة

اطياف من الغابة

لقد غرقت في هذه الذكريات ، عليّ ان استيقظ توّا . انه لصخب البحر . أكتب الان ، في «ايسلا نيغرا» (١) Isla Nigra على الساحل، قرب «بالبارائيسو» . لقد هدات زوابع عظيمة كانت تسوّط(٢) الشاطيء . ان المحيط ــ ينظر اليّ بألف عين من زبد اكثر مما انظر اليه انا عبر نافذتي ــ ما يزال يحقن في تموجه اصرار العاصفة الرهيب .

يا لها من سنين بعيدة نائية ! ان تشييدها من جديد لهو كما لو ان انغام الامواج هذه التي أصغي اليها الآن تتسرب في داخلي مترادفة متتابعة متذبذبة ، أحيانا تتماوج كي تنيمني ، وأحيانا أخرى تلتمع كبريق سيف مباغت . سألتقط هذه الاطياف بلا سرد تاريخي متصل ، مثل هذه الامواج التي تروح وتجيء .

---

١ ــ ايسلانيغرا : معناها ، جزيرة سوداء .

٢ ــ تسوّط : هكذا في الاصل ، والفعل مشتق من الكلمة العربية السوط .

عام ١٩٢٩ ، ليلا . ارى جمهرة من الناس وقد اجتمعوا في الشارع. انه احتفال اسلامي . لقد حفروا خندقا كبيرا في الشارع وملؤوه جمرا. اقترب . تلهب وجهي حدّة الجمر المكوم ، تحت طبقة خفيفة من الرماد ، فوق شريط قرمزي من نار حية متوهجة . تظهر فجأة شخصية غريبة ، بوجه مصبوغ بالابيض والاحمر ، محمولة على اكتاف اربعة رجال يلبسون كذلك ثيابا حمراء . ينزلونه ، يبدأ يمشي متمايلا عبر الجمر او فوقه ، ويصيح بينما هو يمضي سائراً :

ـ الله ، الله (٣) .

كان الحشد الهائل من الناس يبلع هذا المنظر مذهولا مندهشا . لقد عبر الساحر سليما هذا الشريط الطويل من الجمر . حينذاك ينطلق رجل من بين صفوف الحشد ، يخلع خفيّه ويقوم حافي القدمين بالمسير على الجمر . ثم ينطلق متطوع آخر فآخر وهكذا دواليك . بعضهم يتوقف في الخندق لكي يراوح فوق النار على صياح «الله ، الله» يؤدي حركات وإشارات فظيعة ، يرفع النظر الى السماء . آخرون يعبرون حاملين اطفالهم في احضانهم . لا احد منهم يُصلى بهذه النار الحامية او لعلهم يُصلون فيصبرون ونحن لا نعرف .

ازاء النهر المقدس يرتفع معبد « كهالي » إلاهة الموت عندهم . دخلنا مع مئات الداخلين من الحجّاج الذين اتوا من اقاصي البلاد كي يتبركوا بها ويحصلوا على نعمتها . حفاة عراة ، او بأثياب رثة واسمال بالية ، خائفين فزعين ، يدخلون فيجبرهم البراهمة على ان يدفعوا مالا في كل خطوة يخطونها مقابل اي شيء يرونه او يتبركون به . كان البراهمة يرفعون مسحا من المسوح السبعة للالهة الكريمة ، وحين يرفعونه ، ترنّ ضربة قارعة كأنها قُرعت كي تقوض الكون كله ، وما ان يرى الحجاج ذلك حتى يخرّوا سجّدا ثم يكبرون وأيديهم مرفوعة كأنهم يحيون معا ، ولكن بكلتيهما معا ، ثم يسجدون ويضعون جباههم على الارض ويمضون هكذا

---

٣ ـ الله ، الله : هكذا في الاصل (Alà ! Alà !)

الى ان يرفع المسح الثاني فالثالث .. الخ يأخذ الكهنة بتجميع الحجاج في فناء واسع حيث يضحئون التيوس ويقطعون رؤوسها بضربة واحدة تذبحها وتدميها فيقبضون منهم اتاوات جديدة . ثغاء الحيوانات الجريحة لا يسمع اذ تخنقها الضربات الطارقة القارعة وتخفيها . ترشّ الحيطان الكلسية الوسخة بالدم حتى السقف . وما هذه الإلهة الا صنم ذو وجه غامق اللون وعينين بيضاوين ولسان قرمزي طوله متران ينزل من فمها حتى يبلغ الارض . في أذنيها وفي عنقها علّقت أطواق من جماجم وشمارات ترمز للموت . يدفع الحجاج نقودهم الاخيرة قبل ان يُدفعوا الى الشارع .

لقد كان الشعراء الذين تحلقوا من حولي لينشدوا لي اغانيهم واشعارهم مختلفين جدا عن أولئك الحجاج المدعنين الخاضعين . فلقد جاء هؤلاء الشعراء ومعهم طنيبيرات (٤) ، وهم يرتدون ملابسهم البيضاء السابغة الفضفاضة ، فجلسوا القرفصاء على السندس الاخضر ، كل واحد منهم كان يطلق بحة وصرخة بين بين تكاد لا تبلغ ان تكون صرخة ، فتصعد من شفتيه أغنية نظمها هو بنفسه وأجراها على بحر من بحور الاغاني القديمة الالفية ، غير ان المعنى جديد والمحتوى قد تغير . لم تكن هذه الاغاني اغاني حسية شهوانية لمتعة او لذة ، بل هي اغاني احتجاج على الجوع ، أغان مكتوبة في السجون . ان كثيرا من هؤلاء الشعراء الشبان الذين التقيت بهم في كل مكان على طول الهند وعرضها ، والذين لن انسى نظراتهم الظليلة الكئيبة ، كانوا قد خرجوا من السجن امس او اول امس وربما يعودون اليه غدا او بعد غد . لانهم كانوا يحاولون التمرد على البؤس والثورة على الآلهة . ان هذا لهو الزمن الذي قدّر لنا ان نعيش فيه ، وهو العصر الذهبي للشعر العالمي . بينما تطارد الاغاني الجديدة والاناشيد الجديدة ، فان مليونا من البشر يفترشون الدروب ليلة بعد ليلة ، ينامون في العراء في ضواحي «بومباي» . ينامون ، يولدون ، يموتون . لا دار ولا خبز ولا دواء . في هذه الشروط القاسية ، تركت انجلترا المتمدنة المتبجحة مستعمراتها : مستعمرات امبراطوريتها العظمى . لقد ودعت مواطنيها القدماء دون ان تترك لهم شيئا ؛ لا مدارس ولا مصانع ولا مساكن، اللهم الا سجونا وجبالا من زجاجات ويسكي فارغة .

---

٤ ــ طنيبيرات : في الاصل صيغة تصغير اسبانية وبالجمع للكلمة العربية طنبور .

ان ذكرى انسان الغاب «رانفو» لهي طيف آخر غض طري يأتي خياله مع الامواج . في «ميدان» بسومطرا لمست ، احايين ، باب تلك الحديقة النباتية الخراب . كان هو بنفسه يأتي ليفتح لي الباب فادهش واعجب. كنا نتجول معا وقد اخذني من يدي الى ان نجلس حول طاولة كان هو يضربها بيديه وبرجليه ، عند ذلك يظهر نادل ويأتي لنا بزقّ من خمرة الجعة (بيرة) ، لا هو بالصغير ولا بالكبير ولكنه كاف لانسان الغاب وللشاعر.

كنا نرى في حديقة الحيوانات ب «سينغابور» الهدهد داخل قفص متالقا وهائجا ، رائع الجمال كأنه طير قد جاء لتوّه من جنة عدن . وهناك كان يتنزه في قفصه نمر ارقط ابيض اسود كان ما يزال يفوح برائحة الغابة ، لقد كان مقطعا غريبا من الليل المنجم ، شريطا مغناطيسيا يهتز بلا هوادة ، بركانا اسود مطاطيا يريد احراق العالم ، محرك قوة نقية تتلوى تتموج ، له عينان صفراوان مسددتان كما الخنجر ، تتساءلان بنارهما عما لم يكن يفهمه لا السجن ولا البشر .

وصلنا الى المعبد الغريب معبد لا سيرپيينته (٥) La Serpiente في ضواحي مدينة «بينانغ» ، في المنطقة التي كانت تسمى من قبل ، الهند الصينية .

ان هذا المعبد معروف موصوف من قبل رحالة وصحفيين ، لست ادري ، بعد العديد من الحروب والتهديم وبعد عتو الدهر ومضيّ الزمن وتساقط الامطار ، ان كان ما يزال صامدا حيا . تحت سقف من قرميد ثمة بناء واطيء ومسود ، متآكل بأسنان الامطار المدارية وحتّها ، تحفّ به غابة كثيفة من اوراق الموز الكبيرة الحجم ، وله رائحة كرائحة الرطوبة ، شذى كشذى الخبز العفن . لما دخلنا الى المعبد لم نر شيئا في الظُلَيْل (تصغير ظل) . أريج قوي شديد كرائحة البخور ، وثمة شيء يتحرك . انها لأفعى تتثاءب تتجبّد . شيئا فشيئا لمحنا اخرى فاخرى ثم اخرى واذ هي بالعشرات . من بعد عرفنا ان هناك بالمئات وبالآلاف ؛ منها

٥ــ لا : سناها ، الافعى .

صفيرات ملتفات معقوفات على شمعدانات ، منها غامقات ، منها معدنيات . منها نحيلات رفيعات ، كلها غافية متخمة . ففي كل الجهات ، فعلا ، ثمة أطباق رقيقة من الزجاج الفرفوري (بورسيلان) ، بعضها طافح بالحليب وبعضها مليء بالبيض لم تكن الافاعي تنظر الينا او تلحظنا . مررنا محاذين لها عبر متاهات ضيقة في المعبد ، ها هي فوق رؤوسنا ، معلقة بالفن المعماري المزخرف ، ها هي تنام في المحراب المحجري ، ها هي في المذابح. وها هي ذي افعى «روسيل» (٦) المهابة ، تبتلع بيضة قرب اثنتي عشرة حية قاتلة كأنها جوقة من الراقصات اللواتي لهن خواتم تفصح عن سمهن السريع الفتك . ميزت من بينها حية «فير دي لانس» ، عددا كبيرا من تنينات البر (ذات القرون) ، حية «ديروسي» ، حية «نوبا» ، كانت تملأ البهو الافاعي الخضراء ، الرمادية ، الزرقاء ، السوداء . كل شيء في سكون . من حين الى حين كان يعبر الظل كاهن برداء زعفراني (٧) . كان بزيق لون بردته يجعله يبدو وكأنه حية اخرى ، تتحرك ، تتثاءب ، تتجبد بحثا عن بيضة او عن طبق من حليب .

اتيتم بهذه الافاعي الى هنا ؟ كيف تآلفت وتعودت ؟ على اسئلتنا كانوا يجيبون بابتسامة ، قائلين لنا انها اتت وحدها وانها ستذهب وحدها حين يخطر لها ذلك . ما هو اكيد ان الابواب كانت دائما مفتوحة وليس عليها مشبكات من حديد او خشب وليس فيها زجاج ولا شيء من هذا القبيل مما يجبرها على البقاء في المعبد .

خرجت سيارة الركاب من «بينانغ» وكان عليها ان تجتاز ادغال الهند الصينية وضيعها كي تصل الى «سايغون» . لا احد في هذه السيارة يعرف لغتي ولا انا اعرف لغة احد منهم . كنا نتوقف في منعطفات الغابة البكر ، على مدى الطريق الذي لا ينتهي ، فينزل المسافرون ، فلاحون بملابس غريبة ، وبكرامة صامتة مطرقة ، وعيون زائغة ، لم يبق الا ثلاثة مسافرين

---

٦ ـ روسيل : هذه الاسماء كلها بالفرنسية .
٧ ـ زعفراني : هكذا في الاصل Azafran . عن العربية

او اربعة في السيارة التي تشق طريقها وهي تصرصر وتهدد كي تنطلق تحت الليلة الحارة .

شعرت فجاة برعب متدفق طاغ ، اين انا ؟ والى اين أمضي ؟ لماذا أقضي هذه الليلة الطويلة بين أناس لا أعرفهم ؟ كنا نجتاز «لاووس» و«كامبوديا» . تمعنت في وجوه آخر مرافقيّ في هذه الرحلة الغريبة ، كانت وجوها صلبة متجهمة . وعيونهم مستيقظة ، ملامحهم وتقاسيم وجوههم بدت لي مريعة مخيفة ، لا شك في اني بين عصابات قطاعي طرق أصيلين من هؤلاء الذين تحكي عنهم الحكايات الشرقية .

كانوا يتبادلون نظرات من ذكاء حاد ويلحظونني عرضا وخطفا . في هذه اللحظة توقفت السيارة في سكون وسط الغابة . لقد اخترت موضعا لي كي اموت هنا غريبا وحيدا . لا ، لن أسمح لهم ان يأخذوني فيصلبوني تحت ظل تلك الاشجار التي لم ارها من قبل ، والتي تخفي عني السماء بظلها الغامق الشاحب . سأموت هنا في هذه السيارة الحانية ، على مقعدها ، بين سلال الثمار وأقفاص الدجاج ، فهذه الدجاجات هي الشيء الوحيد الاليف في هذه اللحظة الرهيبة . نظرت فيما حولي ، مقررا ان أواجه غيظ جلاّديّ ان همّوا بقتلي ، فتنبّهت الى انهم قد اختفوا .
انتظرت زمنا بدا لي دهرا ، وحيدا ، بقلب واجف خائف ، مغموراً مطموراً بظلام هذه الليلة الاجنبية الشديد الكثيف . انا سأموت ، هانذا اموت دون أن يدري بموتي احد ، بعيدا عن بلدي الصغير الحبيب ، نائيا عن اهلي وحبي وكتبي . على حين غرة ، بزغ نور ، طلع نور آخر ، امتلأت الطريق بالانوار والاضواء ، قرع طنبور ، تفجرت انغام تصرّ الاذن من الحان موسيقى «كامبويا» ، صدحت النايات تجاوبت الطنيبيرات ، تلألأت المشاعل ، فملأت الطريق انغاما وأنوارا . صعد رجل فقال لي باللغة الانجليزية :

لقد حصل عطل في السيارة ، بما ان الانتظار سيكون طويلا ، ربما حتى شروق الشمس ، وليس هنا من مكان صالح للنوم فان المسافرين قد ذهبوا الى الضيعة للبحث عن فرقة موسيقية وراقصين حتى تسامروا الليل وتقضوا وقتا ممتعا جميعا ، وها هم قد عادوا والفرقة الموسيقية .

خلال ساعات عديدة ، تحت تلك الاشجار التي لم تعد تتهددني وتتوعدني ، شاهدت الرقصات الطقوسية الرائعة البديعة لشعب ذي ثقافة نبيلة وحضارة عريقة ، واستمعت الى ان اشرقت الشمس ، الموسيقى اللذيذة التي كانت تكتسح الطريق .

ليس للشاعر ان يخشى الشعب ، بدا لي ان الحياة كانت تحذرني وتعلمني الى الابد درسا : درس الشرف المكتنز ، درس الأخوّة التي لا نعرفها ، درس الجمال الذي يزدهر في الدياجير .

مؤتمر في الهند

ان هذا اليوم لهو يوم مشرق ، ها نحن في مؤتمر الهند . امة في اوج كفاحها في سبيل تحررها . آلاف المندوبين يملأون الاروقة . اعرف (غاندي) شخصيا وكذلك اعرف (البانديت موتيلال نهرو) الذي هو ايضا زعيم الحركة التحررية واعرف ابنه الشاب الانيق (جواهر لال نهرو) الذي وصل حديثا من انجلترا . (نهرو) كان من مؤيدي الاستقلال الكامل بينما (غاندي) كان يدعو الى نوع من الحكم الذاتي البسيط كخطوة اولى لازمة . (غاندي) : وجه ناعم لثعلب ذكي جدا ، رجل عملي ، سياسي شبيه بزعمائنا المتامركين (٨) القدماء ، معلم ماهر في اللجان والمؤتمرات ، عالم خبير بالتكتيك والمراوغة ، لا يتعب ولا يمل . بينما كانت الجماهير مثل تيار جارف لا ينتهي ، تلمس بشكل طقوسي ديني ، طرف بردته البيضاء وتصيح (غاندي ! غاندي !) ، هو كان يحييهم تحية هادئة ويبتسم لهم دون ان يرفع عن عينيه النظارة ، يستلم رسائل ويقرأها ، يجيب على البرقيات، يؤدي اعماله كاملة دون ان يبذل جهدا كبيرا حتى لا يتعب ، ان (غاندي) لقديس لا ينفد . وأما (نهرو) فهو أستاذ ذكي للثورة الهندية .

---

٨ ـ المتأمركون : وجدنا انها اصلح كلمة لترجمة Criollos وهم الامريكيون ذوو الاصول الاوروبية .

كانت الشخصية الكبيرة في ذلك المؤتمر هو (سوبحاس شاندرا بوسه Subhas Chandra Bose) هو ديماغوجي مندفع ، عدو للامبريالية عنيف ، شخصية سياسية تسحر ابناء وطنه . انضم في حرب عام ١٩١٤ الى اليابانيين الذين غزوا بلده ، وذلك لكي يقاوم الامبراطورية البريطانية. بعد عدة سنوات ، في الهند نفسها ، حكى لي احد رفاقه كيف سقط رجل «سينغابور» القوي :

ـ كانت اسلحتنا موجهة نحو اليابانيين المحاصرين . ثم تساءلنا ... ولماذا ؟ امرنا جنودنا : «وراء ، در» وصوبناها ضد القوات الانجليزية . القضية كانت واضحة . كان اليابانيون غزاة عابرين . بينما الانجليز كانوا غزاة خالدين .

لقد أعتقل (سوبحاس شاندرا بوسه) ، حوكم ، أدين بالموت من قبل المحاكم البريطانية في الهند نظرا لانها اعتبرته قد اقترف الخيانة العظمى. توالت الاحتجاجات وتضاعفت من طرف الجناح الاستقلالي . اخيرا ، بعد معركة قانونية حامية ، توصل محاميه ــ (نهرو) على وجه الدقة ــ الى الحصول على العفو عنه . منذ تلك اللحظة استحال الى بطل شعبي .

(الآلهة المتكئة)

... في كل جهة تماثيل (بوذا) ، «اللورد» (بوذا) ... تماثيل صارمة، شاقولية ، متآكلة ، بمذهب من الزينة كأنه ألق ذو حياة وبمسحة من الاحباط كأنما هذه التماثيل تخشى ان يستنفدها الهواء .... ومما يزيد في ابراز المذهب وهذه المسحة من الاحباط بها ان عليها في خدودها ، في ثناياها ، في مرافقها ، في سررها في أفواهها وابتساماتها لطخات صغيرة: فطر ، نباتات مسامية ، روث ، براز ، غائط ، من حيوانات الغابة .... أو بالاحرى ثمة رواقد كبيرة ، نصب حجرية بأربعين مترا ، من الغرانيت المرمل ، شاحبة ، ممددة بين الادغال الهامسة ، على حين غرة ، تطلع من هذه الزاوية بالغابة او من تلك ، تبرز من على منصة محدقة بالاشجار او من على مرتفع من الارض مكتنف بالأيك .... أراقدة هي ام غير راقدة

في احلامها العميقة ؟ لست أدري ، بيد انها هناك هي منذ مائة سنة ، الف سنة ، الف الف سنة .... لكنها تنتظر ناعمة هادئة وهي بهذا الحشر الارضي الغامض المعروف لا تدري أفستمكث أم ستمضي .... عجبا هذه الابتسامة الحجرية الناعمة ، هذه الجلالة المهيبة المصنوعة من حجر صلد خالد ، لمن تبتسم ، لمـن ، فوق هذه الارض الدامية ؟... لقد مرت بها الفلاحات الهاربات ، رجال الحرائق ، المحاربون المتقنعون ، الكهنة ، السواح الشرهون .... فما برحت مكانها هذه النصب ، هذه الاحجار الهائلة ذات الركب ، ذات الانحناءة في العباءة الحجرية ، ذات النظرة الضائعة لكنها موجودة باقية ، لقد مكثت هذه النصب اللاانسانية الى الابد ، سرمديـــة خالـــدة ولكنها كذلك انسانيـــة ، بشكل ما ، او فـــي تضاد مـــن النحت متناقض ، فسواء اكانت آلهة أم لم تكن ، وسواء أكانت احجارا ام لم تكن ، لقد مكثت تحت نعيب الطيور السوداء ، بين رفرفة الطيـــور الحمراء : طيور الغابة .... نحن كذلك نفكر بشكل او بآخر في تماثيل المسيح الاسبانية الرهيبة التي ورثناها نحن بدماملها وبكل شيء ، ببثورها وكل شيء ، بندوبها وكل شيء ، بهذه الرائحة كرائحة الشمع ، كرائحـة الرطوبة ، كرائحة قطعة لدى الكنائس حبيسة .... تماثيل المسيح هذه كذلك شكّت في ان تكون بشرا او ان تكون آلهة ... كي تصبح بشرا ؛ لكي تقترب اكثر ممن يعانون ويتعذبون ، من النساء الحوائض ومـــن المضروبة اعناقهم ، من المفلوجين والبخلاء ، من اصحاب الكنائس ومـــن الناس الذين يحيطون بالكنائس ، كي تصبح هذه التماثيل انسانية فـــان المثّالين النحّات وهبوها قروحا تقشعر لها الابدان فاستحال كـــل ذلك العذاب الى دين : « اذنب تتعذب ، لا تذنب تتعذب ، عش وتعذب ليس لك من منجى يحررك ولا من مهرب ...» ... هنا ، كلا ، هنا السلام بلغ الحجر ... فلقد تمرد المثّالون النحّات على نواميس الالم فتماثيل بـوذا هذه الهائلة الجسيمة ذات أقدام آلهة عملاقة ، لدنها في الوجه ابتسامة حجرية انسانية تبعث في النفوس الطمانينة ، تحررها من المعاناة والالم . ينبع منها اريج ، ليس كرائحة غرفة ميتة ، ليس كرائحة خزانة اشيـــاء الكنيسة المقدسة ورائحـــة بيوت العنكبوت ، بـــل كشذى فضاء مـــن نبات ، كعطر زخات اعصارية تتساقط مشحونة بطلع من الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بريش طيورها بأوراق اشجارها .

أسرة انسانية تعيسة

لقد قرات في بعض المقالات حول شعري ان اقامتي في الشرق الاقصى اثرت في جوانب معينة من شعري وانها انطبعت بشكل خاص في ديواني «مقام في الارض» . في الحقيقة ان اشعاري الوحيدة لتلك الفترة هـي القصائد التي يحتويها «مقام في الارض» ، لكن ، دون ان أجرؤ على دعم هذا الراي الذي سابديه في شكل صارم ، اقول انه يبدو لي مخطئا هذا الكلام عن التأثر والتأثير .

ان كل هذه الباطنية الفلسفية للحياة في الاقطار الشرقيـة ، حين واجهت الحياة الواقعية تكشفت عن قلق ، عن عصاب ، عن ضياع ، عن انتهاز غربي ، اي عن ازمة المبادىء الراسمالية . لم يكن في الهند خلال تلك السنوات مجال واسع للتأملات الباطنيه العميقة ، حياة ذات متطلبات مادية قاسية ، شروط استعمارية مستندة الى اكثر الدناءات نقاوة فـي الخسة ، آلاف الموتى كل يوم بالكوليرا ، بالجدري ، بالحمى ، بالجوع ، قطاعات اقطاعية غير متوازنة بسبب الغنى المفرط في السكان والفقر المدقع بالصناعة ، كل هذه الامور كانت تضغط على الحياة وتطبعها بشراسة؛ ففيها تنعدم التأملات الصوفية وتختفي الانعكاسات الروحية .

لقد كانت الخلايا الصوفية توجه ، تقريبا دائما ، من قبل مغامرين غربيين ، من بينهم الامريكيون سواء من الشمال او الجنوب . ليس هناك مجال للتشك في ان من بين هؤلاء وأولئك ثمة اناسا ذوي نيات حسنة ، لكن الاكثرية كانت تستغل سوقا رائجة رخيصة حيث كانت تباع ، في كميات هائلة وبالجملة ، تمائم ، تعاويذ ، أوثان غريبة ، محفوفة ملفوفة بالماورائيات التافهة المتهافتة . هؤلاء كانوا يتخمون بفضل الـ «دهارمـا» والـ «يوغا» ؛ فلقد كانوا يستطيبون جدا الرياضة الدينية المضمخة بالفراغ والسفسطة .

لهذه الاسباب ، فان الشرق اثر في نفسي كونه اسرة انسانية كبيرة تعيسة ، دون أن أفرغ في ضميري اي مكان لطقوسه او آلهته . لا اعتقد، اذن ، ان شعري في ذلك الحين ، قد عكس شيئا آخر غير الشعـور بالوحدة ؛ وحدة غريب نقل من منبت غرسه الى عالم عنيف غريب .

أذكر واحدا من أولئك السوّاح، سوّاح الباطنية، كان نباتيا ومحاضرا فذا . كان طرازا صغيرا في حجمه ، قصير القامة ، في منتصف العمر ، ذا صلعة لمّاعة كاملة شاملة ، وعينين زرقاوين صافيتين واضحتين ونظرة خارقة مستهترة ، لقبه هو (بوبيرس) ، قدم من الولايات المتحدة ، من كاليفورنيا ، كان يؤمن بالديانة البوذية ومحاضراته كانت تنتهي دائما بهذه الوصفة النافعة في الحمية : «كما كان يقول (روكيفلر (٩) Rockefller : تغذ ببرتقالة كل يوم» .

(بوبيرس) هذا ، استلطفته لقلة أدبه ووقاحته الحلوة المفرحة ، وكان يعرف اللغة الاسبانية . بعد محاضراته كنا نروح معا لنلتهم وجبات كبيرة متخمة من الخروف المشوي (كباب) (١٠) ، مع البصل . كان بوذيا لاهوتيا، لست أدري ان كان بشكل شرعي او غير شرعي ، ذا شراهة اكثر اصالة من مضمون محاضراته .

لقد افتتن ، اولا ، بفتاة خلاسية هجينة ، هامت بملابسه (سموكين) وبنظرياته ، كانت آنسة ضامرة هزيلة ، ذات نظرة اليمة وهي كانت تعتقد انه إله ، انه بوذا حياً . هكذا تبدأ الديانات .

بعد مضي عدة اشهر على هذا الحب ، جاء ذات يوم يبحث عني كي احضر زواجا جديدا له . تركنا خلفنا ، ونحن على درّاجته النارية التي كانت تضعها تحت تصرفه شركة تجارية يخدم فيها بائع مبردات كهربائية ومراوح هوائية ، غابات ، منازل ، مزارع رز ، الى ان وصلنا اخيرا الى ضيعة صغيرة بأبنية من الطراز الصيني وسكان صينيين . استقبلوه بأسهم نارية وموسيقى بينما الخطيبة الصغيرة ظلت جالسة في مكانها وهي متزينة بالبدلة البيضاء كأنها صنم ، على كرسي اعلى من كراسي الاخريات ، على

---

٩ ـ روكيفلر John Danjon : هو الراسمالي اليهودي الامريكي (١٨٣٩ ـ ١٩٣٧) ، وابنه كذلك كان له الاسم نفسه (١٨٧٤ ـ ١٩٦٠) ، وهو والد نائب رئيس الولايات المتحدة السابق .

١٠ ـ (كباب) : هكذا في الاصل Khebab ، والقوسان من المؤلف .

وفع الموسيقى تناولنا المشروبات المرطبة من كل نوع . (بويرس) وعروسه ما تبادلا كلمة واحدة .

عدنا الى المدينة ، شرح لي (بويرس) انه في هذه المِلة ، حسب شرعها، الخطيبة هي وحدها من يتزوج . وان الاحتفالات ستستمر دون حاجة الى ان يكون العريس موجودا ، وانه في وقت لاحق سيعود ليعيشا معا .

ــ افتدري انك بهذا تمارس تعدد الزوجات ؟ سألته .

ــ ان زوجتي الاخرى تعرف هذا وستكون سعيدة جدا وراضية ؟ ــ اجــاب .

كان في تأكيده هذا كثير من الحقيقة مثلما هو الامر عليه ، في برتفالة كل يوم . حين وصلنا الى بيته ، بيت زوجه الاولى ، وجدناها ، اعني الخلاسية الاليمة ، تحشرج وكأسها من السم موضوعة على المائدة الصغيرة قرب سريرها، وقرب الكأس رسالة وداع . كان جسدها الاسمر ، عاريا تماما ، هامدا تحت كلّتها ، دام احتضارها عدة ساعات .

لقد صاحبت (بويرس) على الرغم من اني شعرت بالاسف لهذا الامر مشمئزا ، لانه كان يتألم بشكل واضح . لقد حطمه الاستهتار الذي كان يحمله في داخله . ذهبت معه الى الاحتفال الجنائزي . على ضفة نهــر وضعنا التابوت (١١) الرخيص فوق تل عال من الحطب . أشعل (بويرس) النار في العيدان بعود ثقاب ، وهو يتمتم بالسانسكريتي جملا طقوسية .

كان بضعة من العازفين وهم يرتدون برودا بلون مائل الى البرتقالي ، يرتلون او ينفثون في آلات جد حزينة . انطفأت النار في الحطب وهي في منتصف استنفادها للعيدان ، فكان لا بد من تجديد الجذوة بعود ثقاب . كان النهر يجري داخل مجراه غير مبال ولا مهتم . كانت السماء الزرقاء الخالدة ؛ سماء الشرق ، تبدي جمودا مطلقا ، سكونا سرمديا نحو تلــك

---

١١ ــ التابوت : هكذا في الاصل El ataud . عن العربية

الجنازة الحزينة الموحشة ، جنازة مهجورة مسكينة .

لم تكن حياتي الرسمية تشتغل الا مرة واحدة كل ثلاثة اشهر . فلقد كان عليّ حين يصل مركب الى «كالكوتا» وهو ينقل زيت القطران (برفين) الصلب واسفاطا كبيرة من الشاي الى تشيلي ، ان اختم وأوقع وثائق واوراقا بسرعة محمومة . من بعد تمر ثلاثة اشهر اخرى من البطالة والعطالة ، من التأمل الصوفي في اسواق ومعابد . هذه هي اكثر فترة اليمة في شعري .

لقد كان الشارع هو ديني ومعبودي . الشارع البيرماني ، المدينة الصينية بمسارحها في الهواء الطلق وتنانينها المصنوعة (جمع تنّين) من الورق ، وفوانيسها الرائعة . الشارع الهندي ، هو اكثرها تواضعا ، بمعابده التي كانت أماكن تجارة لهذه الطائفة او لتلك ، والناس المساكين الفقراء الساجدين على الوحل خارجها . ان الاسواق حيث أوراق الـ «بيتيل» [١٢] ترتفع في اهرامات خضراء مثل جبال من دهنج . حوانيت الطيور ، اماكن لبيع الوحوش والطيور المتوحشة . الشوارع الملتفة المتجعدة حيث تعبر النساء البيرمانيات الرجراجات وفي ثغورهن لفافة تبغ طويلة . كان كل هذا يستولي عليّ ، يمتصني ثم يروح يغرقني في رقية الحياة الواقعية .

ان الطوائف جعلت سكان الهند يصنفون كما لو كانوا في مدرج أروقة يعلو بعضها بعضا وهذا المدرج متوازي السطوح ، في أعلاه تجلس الآلهة . كان الانجليز من جهتهم لهم مدرجهم من الاجناس يبدأ من المستخدمين الصغار في الحوانيت ، يمر بأصحاب المهن والمثقفين ، يأتي الى المستوردين ويتوج بسطح هذا المركب الذي يجلس فيه براحة تامة ارستوقراطيو الخدمة المدنية وأصحاب بنوك الامبراطورية .

ما كان لهذين العالمين ان يتماسّا . فلم يكن ابناء البلاد الاصليون يستطيعون الدخول الى الاماكن المخصصة للانجليز . وكان الانجليز يعيشون

---

١٢ ــ بيتيل : هو نبات يشبه ثمرة الفليفلة ، ولاوراقه طعم كطعم النعناع .

بعيدين عن نبض البلاد . لقد جلبت لي هذه الوضعية صعوبات ومشاكل. ذات مرة شاهدني اصدقائي البريطانيون وانا أركب عربة تسمى «غاهري» gharry وهي عربة مختصة بمواعيد الغرام المؤقتة المتدحرجة حيث يمـــارس الحب على عجـــل . لفتوا نظري بشكـــل لطيف قائلين ان قنصلا مثلي انا يجب عليه الا يستعمل هذه العربات مهما كان السبب . كذلك أسرّوا لي اشياء وقالوا انه يجب عليّ الا اجلس في مطعم فارسي ، وهو مكان مليء بالحياة ، كنت فيه اتناول احسن شـــاي بالعالم فـــي طاسات (١٣) صغيرة شفافة . كانت هاتان النصيحتان آخر ما قالوه لي من عتاب ونصيحة ، من بعد لم يعودوا يسلمون عليّ ابدا ولا يردون لي تحية البتـــة .

شعرت اني سعيد بهذه المقاطعة . لم يكن اولئـــك الاوروبيون ذوو الافكار المسبقة والعقد النفسية يهمونني في شيء اذ انهم لم يكونوا مهمين حتى نفول ... وفي نهاية الامر ، انـــا ما جئت الى الشرق كي اتعايش ومستعمرين عابرين ، بل جئت كي احيا مع روح ذاك العالم القديمة ، مع تلك الاسرة الانسانية الكبيرة التعيسة . لقد تغلغلت في روح هؤلاء الناس وحياتهم جدا الى درجة اني عشقت هناك واحدة من بنات البلد . كانت تلبس مثل انجليزية واسمها الفني الشارعي كان هو (خوسيه بليس) ، لكن في العلاقات الحميمة ببيتها الذي شاركتها السكن فيه ما أن تعرفت عليها وعشقتها ، حتى كانت تنزع عنها تلك الملابس وذلك الاسم وتستعمل ثوبها الباهر «سارونغ» واسمها البيرماني العميق الخفي .

«تانغو (١٤) الأرامل»

لقد كانت لي صعوبات في حياتي العاطفية الخاصة . اذ ان هـــذه الفتاة الحلوة (خوسه بليس) راحت تكشف حبها لي وتتأجج عاطفة الى ان

---

١٣ ـ طاسات : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٤ ـ تانغو : اسم رقصة .

اصيبت بداء الغيرة . ولربما ، لولا هذا السبب ، كنت قضيت حياتي معها الى الابد . كنت أهيم بأقدامها العارية ، كنت أغرم بالزهور البيضاء التي كانت تتألق في شعرها الغامق . لكن مزاجها الحاد كان يقودها الى حالة من النوبة الهمجية . كانت تغار وتنفر من الرسائل التي تصلني من بعيد ، تخبيء البرقيات التي تصلني دون ان تفتحها ، كانت تنظر في حقد الى الهواء الذي أستنشقه .

احايين كان يوقظني شبح يتحرك خلف الكِلّة ، واذ بها هي ، بثوبها الابيض ، تسن لي سكينها الطويلة الحادة ، او تتنزه حول سريري حائرة تهمّ بقتلي ولا يطاوعها قلبها . «حين تموت ستنتهي مخاوفي» كانت تقول لي . في اليوم التالي كانت تؤدي طقوسا غريبة كي تهبها الجن ضمانا عن وفائي .

لا بد انها قاتلتي يوما ما . لحسن حظي ، تلقيت رسالة رسمية بانتقالي الى «سيلان» . لقد حضّرت سفري سرا ثم خرجت من البيت صباح ذات يوم كما هي عادتي ، طبعا تركت ملابسي وكتبي ، وصعدت الى الباخرة التي ستقلني الى مكان بعيد .

لقد هجرتها ، هجرت هذا النمر الارقط المدعو (خوسه بليس) ، والالم يمضني والحزن يضنيني . ما ان شرعت الباخرة بالاهتزاز في أمواج خليج «بينغالا» حتى جلست أكتب قصيدة «تانغو الارمل» ، وهي قطعة مأساوية من شعري ، موجهة الى المراة التي فقدتها وفقدتني لان في دمها بركان الكوليرا يزفر ، يفرقع ، يقرقر من غير هوادة ولا استراحة . فيا لها من ليلة جد كبيرة ويا لها من ارض جد وحيدة .

(الافيون)

.... كان ثمة شوارع برمتها عاكفة على الافيون ... جالسين على منصات وعتبات يمتد المكيفون المدخنون فوقها ... انها لمعابد الهند الحقيقية ... فلا سجاجيد ولا وسائد من حرير ولا بذخ ولا ابهة ... بل الواح خشبية

بلا لون ، غلايين من خيزران ، وسائد من فخّار صيني ... تطفو في الاجواء سكينة ورصانة وصرامة ما عهدتها المعابد ... الرجال صرعى خاشعون بلا حراك ولا صراخ ولا عياط ... تناولت غليونا فنشقته ... ليس بشيء ... ما هو الا دخان قاتم بارد فاتر لزج لزوجة اللبن ... دخنت اربعة غلايين ، مكثت خمسة ايام مريضا ، غثيان اثر غثيان ، يأتيني من البصلة النخاعية ، من الشوكة الظهرية ، ينزل عليّ من المخ من النخاع من الدماغ .... كراهية للشمس ، حقد على الوجود .... عقاب الافيون ... ما كان لهذا ان يكون خاتمة المطاف ... فلطالما كتبت عن هذا السم المقدس الشهير ، ولشد ما قيل عنه ، وكثيرا ما قلبت الحقائب ونفضت المحافظ في مخافر الحدود الجمركية وفي المطارات بحثا عنه علّ هذا السم يقتنص او يمسك به قبل ان يطير .... كان لا بد لي من ان اهزم القرف ، اغلب التقزز ، أقهر الاشمئزاز ... كان لا بد لي من معرفة الافيون معرفة حقا ، من ان اسبر غوره ، أكشف سره، اعرف امره ، أفضح لغزه ، كي اعطي شهادتي وأدلي بحكمي ... عكفت عليه ، دخنت غلايين كثيرة ، حتى خبرت كنهه .... ليس فيه من حلم ، ليس فيه من خيال، ليس فيه من نوبة ، ليس فيه من حدّة ... كل ما فيه وهن ، كل ما فيه ضعف ، كل ما فيه ارتخاء رخيم مطرب كما لو ان معزوفة موسيقية ناعمة ابدية امتدت في الزمن ، في الفضاء .... يحس المرء ان اغماء بداخله ، ان دغلا بعروقه .... فأية حركة مرفق او قفا ، اي صوت مركبة بعيد، اي تزمير ، اية جلبة شارع ، تأتي فتشكل قسما من كل ، من لذة مريحة .... أدركت لماذا كان بياذق الزراعة والمستخدمون المياومون والحوذيون الذين يجرجرون عربات الـ « ريشكا » كل يوم ، يخرون تواً هناك غافلين هامدين ساكنين .... لم يكن الافيون جنة الشاذين او فردوس هواة اللذة والغرابة ، كما قيل لي كذبا وبهتانا ، بل منجى المستغلّين الوحيد ، مناص الفقراء الوحيد .... لقد كان أولئك العاكفون على الافيون جميعهم اناسا فقراء مساكين .... لا اريكة مطرزة عندهم ولا وسادة حريرية لديهم، لا علامة على غنى ولا اشارة عن ثروة... لا شيء يلمع في ذاك المكان حيث يقبع المكيفون المدخنون ولا حتى عيونهم الساهمة شبه المغمضة .... اتراهم يستربحون ، أم تراهم يغفلون ؟.... ابدا ما عرفت ، قط ما دريت ... لا احد ينطق ... لا احد ينبس ... لا احد يهمس... ليس ثمة من اثاث، ليس هناك من فرش ولا أرائك...

لا شيء غير مخدات خشبية صغيرة ... لا شيء الا السكون ورائحة الافيون جبارا عتيا ، مسيطرا سائدا يبعث الاشمئزاز والنفور ... لا شك في ان هناك طريق الابادة ، درب الفناء ... ان افيــون الشرفاء والاعيــان والمستعمرين كان يخصص للفقراء المستعمرين .... فلقد كان لأولئـك المدخنين لافتة علقت على الباب ، تبين الترخيص بالبيع والترويج ، رقم المحل ، تاريخ الامتياز ... وفي الداخل كان يسود سكون رهيب كئيب ، جمود خافت هامد ، عطالة تخفف التعاسة تحلي التعب .... سكينــة مظلمة ، رواسب احلام مبتورة وجدت غديرها وماءها ... أولئك الذين كانوا يحلمون بعيون ساهمة مغمضة بين بين ، كانوا يحيون ساعة مغمورين في لجة البحر، ليلة كاملة على ظهر ربوة متلذذين باستجمام رقيق ممتع...

بعد ذلك ما عدت اليهم .... فلقد عرفت ... ولقـد خبرت ... ولقد لمست ... ولقد جسست شيئا لا يمسك ... لا يحتوى ... شيئا خفيا قصيئا يتلاشى في الهواء ...

« سيـلان »

لقد كان لسيلان ، اجمل جزر العالم الكبيرة ، عام ١٩٢٩ الوضــع الاستعماري نفسه الذي كان يسيطر في بيرمانيا والهنــد . كان الانجليز يتحصنون في احيائهم وفي نواديهم ، محاطين بجمهرة غفيرة من موسيقيين، من صانعي أوان فخارية ، من خياطين ، من أقنان ، من رهبان يرتدون الملابس الصفراء ، من آلهة هائلة مصنوعة في الجبال الحجرية .

ما كنت انا لاستطيع أن اختار بين الانجليز الذين يرتدون «سموكين» كل ليلة ، وبين الهنود الذين كانوا في اكثريتهم الغفيرة منعزلين لا أطالهم، الا ان اعيش وحيدا . لقد كانت هذه الفترة من حياتي اكثرها وحــدة ووحشة ، لكنني اذكرها على انها اكثر فترات حياتي اضاءة وبريقا ، كما لو ان اشعاعا خارقا حط على نافذتي كي يضيء مصيري ، نورا ينبعث من داخلي ، ومن خارجي ..

ذهبت لاعيش في بيت صغير ، حديث البناء بضاحية «ويلويلدا» ازاء البحر . كانت منطقة غير آهلة . كانت الامواج تتكسر على الارصفة ، في الليل تنمو الموسيقى البحرية .

كانت تأسرني في كل صباح اعجوبة تلك الطبيعة المجلية الحديثة الاغتسال . منذ مطلع الشمس وانا مع الصيادين . كانت القوارب المجهزة بعوامات طويلة جدا تبدو كانها عناكب بحرية . يجلب الرجال أسماكا ذات الوان عنيفة من قاع البحر ، اسماكا مثل عصافير الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بعضها بزرقة غامقة فصفورية لماعة مثل مخمل فاقع اللون ينبض بالحياة ، بعضها على شكل كرة واخزة ناخسة ، يفرغ هواءها في الفضاء حتى يستحيل الى كيس صغير مسكين من الشوك .

كنت اتأمل في رعب اغتيال جواهر البحر وتحفه وحليه . كانت الاسماك تقطع فتباع الى السكان الفقراء قطعا قطعا . لقد كانت مدى الذابحين تقطع هذه الاضاحي ، تفتت مادة اللجّة الربانية كي تحيلها تجارة دامية .

كنت امشي عبر الشاطىء حتى ابلغ حمّام الفيلة . ما كنت اضيع او اخطىء دربي وقد اتخذت لي رفيقا كلبي . كان يطلع من الماء الهادىء فطر رمادي جماد ، من بعد يغدو افاعي ، من بعد يصير رؤوسا هائلة مكومة ، من بعد يصبح جبالا ذات انياب . لا قطر في العالم له مثل هذا الفطر ، لا بلد له مثل هذه الفيلة التي تعمل في الطرق . لو اراها الآن — ليس في السرك او في الحديقة الحيوانية تحت الدوالي — كما كنت اراها مندهشا وهي تعبر بحمولتها الخشبية من جانب الى آخر ، كانها عمال مستخدمون ضخام عظام مجدّون مجتهدون .

ما كان لي من رفيق أو صديق غير كلبي ونمسيتي . كانت هذه النمسة الحديثة الخروج من الغابة تنام في سريري ، تأكل من زادي على مائدتي . لا احد يستطيع ان يتصور مدى حنان النمسة وحنوها . كانت حُيَيْوانتي الصغيرة تعرف كل لحظة من وجودي ، كل شيء عن حياتي . تتنزه عبر اوراقي تجري خلفي كل يوم ، تحشر نفسها بين كتفي وراسي ساعة

القيلولة ، تنام في هذا الحلم الفزع الكهربائي الذي تتصف به الحيوانات البريـة .

صارت نمستي الاليفة شهيرة في الضاحية . ان للأنماس في المعارك التي تخوضها ضد الافاعي الاصلال لقيمة وسمعة حسنة الى درجة تكاد تبلغ ان تكون شيئا خرافيا . انا اعتقد بعد ان رأيتها تتصارع كثيرا مـن المرات ضد الحيّات أن الدله تهزم الحية بسبب ما للدله من خفة وسرعة حركة وبسبب جلدها السميك ذي الشعر الملون بلون ملحي ولون فلفلي مختلطين وهذا يحير الزحافة . من هنا جاء الاعتقاد بأن الدله بعد خوضها المعارك ضد اعدائها السامة تخرج تبحث عن عشيبات الترياق .

ان هذا الصيت الشائع الذي اكتسبته نمستي ــ كانت دائما تصحبني في تجولاتي الطويلة عبر الشاطىء ــ جعل اطفال الربض (١٥) يتوجهون ذات مساء نحو بيتي في مسيرة مهيبة . فلقد ظهرت في الشارع افعى فظيعة فجاؤوا يستنجدون بـ «كيريا» Kiria ، نمستي المشهـورة ، لان انتصارها الاكيد جعلهم يستعدون لاجراء احتفال عظيم سيقومون به حال القضاء على العدو الداهم . فحملت نمستي بين ذراعيّ وتقدمت العرض العسكري ومن خلفـي اتبع بالمعجبين ــ عصابات بأسرهـا من الاولاد السيلانيين ، لا يلبسون الا خرقا بالية تغطي عوراتهم ــ .

الافعى كانت نوعا اسود مما يسمى الافعوان المخيف او حية «روسيل»، ذات قدرة مميتة . كانت تتشمس بين اعشاب خضراء وهي على انبـوب ابيض تبدو واضحة متميزة كأنها سوط فوق الثلوج .

توقف الاولاد بعيدا وهم ، هادئون ، ينتظرون ، يرقبون ، انا تقدمت على الانبوب الغليظ الكبير الى بعد مترين من الافعى التي كانت قبالتي ، أطلقتُ نمستي ، اشتمت الخطر من الهواء ، توجهت بخطى بطيئة نحـو الافعى ، انا وأصحابي الصغار كتمنا انفاسنا ، فالمعركة العظيمة على وشك

---

١٥ ــ الربض : هكذا في الاصل Arrabal عن العربية

البدء ، التفتت الافعى ، رفعت رأسها ، فتحت شدقها ، صوّبت نظرتها المخدرة الى الحَيَوان ، الدله استمرت تتقدم ، لكن ، ما ان اصبحت على بعد قليل من السنتيمترات من فم المسخ حتى انتبهت انتباها دقيقا وتنبهت لما سيجري واذ بها تقفز قفزة هائلة وتشرع بمسابقة سريعة جدا باتجـــاه عكسي تاركة خلفها الافعى والمتفرجين الذين فوجئوا بجبن النمسة ، لم تتوقف عن جريها حتى وصلت غرفة نومي وهناك ارتاحت واطمأنت .

هكذا اضعت سمعتي الحسنة وصيتي العظيم في ضاحية «ويلواذا» منذ اكثر من ثلاثين سنة .

في هذه الايام احضرت لي شقيقتي دفترا يحتوي على اشعاري الاولى، نظمتها بين عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩ . حين تصفحتها ابتسمت لذلك الالم الطفولي والعذاب المراهقي ، ضحكت من ذلك الشعور الذهني بالوحـــدة الذي يطبع كل تآليف الشبان . ان الكاتب الشاب لا يستطيـــع ان يكتب شيئا دون هذه الرهبة من الوحدة ولو كان كل ذلك وهميا ذهنيا فرضيا، كما ان الكاتب الكهل الناضج لا يستطيع ان يعمل شيئا من غير طعـــم المصاحبة الانسانية ، طعم المجتمع .

الوحدة الحقيقية عرفتها في تلكم الايام والاعوام ب «ويلواذا» . لقد نمتُ خلال ذلك الزمن كله على سرير مثل هذه الأسرّة التي يستعملهـــا الجنود او متسلقو الجبال . ما كان يصحبني في بيتي غير طاولة وكرسيين وعملي وكلبي ونمستي والفلام الذي كان يخدمني ويعود الى ضيعته فـــي الليل . هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما نسميه مصاحبة لان شرطه كخادم شرقي كان يفرض عليه ان يكون اكثر صمتا من ظل ، كان يسمى او انه ما زال يسمى (برامبي) Brampy لم اكن اضطر الى أن اطلب منه اي شيء او آمره بأي شيء ، اذ ان كل شيء كان معدا جاهزا ، دائما ، طعامي علـــى المائدة ، ملابسه نظيفة مكوية ، زجاجة الويسكي على الشرفة ، كان يبدو وكانه قد نسي الكلام ، ما كان يعرف الا ان يبتسم بأسنان كبيرة .

لم تكن الوحدة في هذه الوضعية موضوعا لابتهال ادبي ووحي شعري فحسب بل كانت كالجدار ، كجدار سجين ، تستطيع ان تضرب راسك به وتكسره دون ان يخف لنجدتك احد ، تصيح وتبكي وما من مجير .

لقد كنت ادرك انه كان هناك عبر الهواء الازرق ، في الرمل المذهب ، ابعد من الغابة التي كنت اتردد عليها ، ابعد من الافاعي والفيلة التي كنت اشاهدها ، مئات الآلاف من البشر الذين يغنون ويعملون ازاء الماء وفي البحر ، يصنعون نارا ، يصوغون جرارا ، وان هناك نساء كذلك ملتهبات ينمن عاريات فوق الحصر وعلى الارض تحت ضوء النجمات الرائعات . لكن، كيف اقترب من هذا العالم الخافق دون ان يعتبروني عدوا يتجسسهم ويتجسس عليهم ؟

رحت اتعرّف خطوة فخطوة على الجزيرة العظيمة . ذات ليلة عبرت كل احياء «كولمبو» المعتمة المظلمة كي احضر وليمة عشاء . كان ينطلق من دارمعتمة صوت طفل او امراة تغني. امرت الحوذي أن يقف. فاكتسحتني حين اقتربت من الباب الفقير ، هبّة اريج عطر ، اريج «سيلان» الذي لا يخطئه الانسان ، مزيج من الياسمين (١٦) والعرق وزيت الجوز الهندي ، والمغنوليا . فدعاني اصحاب البيت ان ادخل على الرحب والسعة ، كانت وجوههم غامقة اللون مصهورة بالحر وشذى الليل ، قعدت هادئا ساكنا على الحصيرة المفروشة ، بينما كان يرنم في العتمة من احدى الزوايا المظلمة ذلك الصوت الانساني الساحر الذي جعلني اتوقف فاطرق بابا لا اعرف اصحابه ، صوت طفل او امراة ، مرتعش باك ، صوت يصعد ، يصعد الى ما لست ادري ، يخفت فجاة ، يتطامن ، يهبط حتى يغدو معتما كالدياجير، صوت يتّحد والعنبر ، يلتف في توريقات رسوم عربية (ارابيسكو) ، يسقط على حين غرة بكل ثقله الشفاف كما لو ان فوّارة من ماء لمست السماء كي تنعتق لتوها فتنهار بين ازهار الياسمين .

لقد امضيت هناك وقتا طويلا ، ساكنا جمادا تحت رقية الطنبور وسحر ذلك الصوت ، من بعد تابعت طريقي ، ثملا من لغز شعور لا يفسر ، من نغم سره كان يخرج من كل الارض ، ارض رنانة منغمة ، ملفوفة بالظل ، محفوفة بالشذى .

كان الانجليز قد جلسوا على المائدة ، لابسين اسود وابيض .

---

١٦ ـ الياسمين : هكذا في الاصل Jazmin . عن العربية

ـ سامحوني ، فلقد توقفت في الطريق كي استمع الى موسيقى ـ قلت لهم .

هم ، وقد عاشوا خمسة وعشرين عاما في «سيلان» ، تفاجأوا بشكل انيق ، موسيقى ؟ أفلأبناء هذا البلد موسيقى ؟

ما كانوا يدرون بهذا ، كان بالنسبة لهم الخبر الاول حول هـــذا الموضوع .

لم يكن لهذا الانفصام الرهيب بين المستعمرين الانجليز والعالم الآسيوي الفسيح الرحب حد ولا نهاية . وكان يعني دائما انعزالا لاانسانيا، جهلا كاملا بقيم أولئك الناس وحياتهم .

كانت هناك بعض الاستثناءات في الاستعمار ، تحققت من ذلك في وقت لاحق . لقد عشق احد الانجليز عشقا جنونيا فتاة هندية اصيلة ، كـــان هذا الانجليزي يعمل فـــي « نادي الخدمـــات » فعـزل من منصبه ، حالا وعزل عن ابناء وطنه وكأنه اجذم . حدث كذلك في ذلك الوقت ان المستعمرين أمروا بحرق كوخ فلاح سيلاني بقصد اخلائـــه والاستيلاء على ملكية الارض ، كان الانجليزي الذي يجب عليه تنفيذ الاوامر باحراق الكوخ موظفا بسيطا يسمى (الونرد وولف) ، لكنه رفض ان يطيع فخلع من منصبه وعاد الى انجلترا . كتب هناك كتابا من احسن ما كتب حول الشرق : (Avillage in The Jungle) هو مؤلف انموذجي في الحياة الحقيقية ، في الادب الواقعي . لكن هذا المؤلف أفحم كثيرا او قليلا بشهرة زوجة (وولف) التي هي (فيرجينيا وولف) (١٧) ، كاتبة عظيمة واصيلة ذات شهرة عالمية كبيرة فغطت بشهرتها على شهرة زوجها ، فما لاقى هذا الكتاب الشهرة التي يستحقها .

شيئا فشيئا اخذت تتحطم القشرة الصلبة وبدات باكتساب اصدقاء

---

١٧ ـ فيرجينيا وولف : الكاتبة الانجليزية الشهيرة (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) .

قليلين ولكنهم جيدون . اكتشفت في الوقت نفسه الشبان الغاطسين في الثقافة الاستعمارية الذين ما كانوا يتكلمون الا عن آخر كتاب ظهر في بريطانيا . وجدت ان عازف البيانو المصور السينمائي الناقد اليونيل ويندبت) هو مركز الحياة الثقافية التي كانت تعج بالمناقشة والمجادلة بين كتاب الامبراطورية مع ميل لعكس قيم «سيلان» البكر .

ان (اليونيل ويندبت) هذا الذي كان يملك مكتبة كبيرة ويستلم أواخر الكتب الصادرة في انجلترا ، كانت له عادة غريبة وجيدة في الوقت نفسه، الا وهي انه كان يرسل لي الى داري البعيدة عن المدينة رجلا يركب درّاجة ومعه كيس مليء بالكتب والمجلات كل اسبوع . وهكذا خلال تلك الاوقات كنت اقرأ الكثير من الكيلومترات من الروايات الانجليزية ، من بينها «ليدي تشارلي» في طبعتها الاولى الخاصة المنشورة في «فلورنسا» . ان مؤلفات (لورانس Lawrance) (١٨) ادهشتني بسبب أسلوبها الشعري وبسبب ما لها من مغناطيسية حيوية اكيدة موجهة الى العلاقات الخبيئة بين ابناء الوجود . لكن بعد مدة وجيزة انتبهت الى انه ، على الرغم من عبقريته ، كان خائبا فاسدا كما هم عليه الكثير من الكتاب الانجليز الكبار ، بسبب رغبته التربوية ونزعته التعليمية . ان السيد (د. هـ. لورانس) يجلس على كرسي الاستذة في التربية الجنسية التي ليس لها الا ما ندر من العلاقة مع تعلمنا الفطري الطبعي للحياة وللحب وللجنس . انتهيت منه مالاً بشكل نهائي ، سئما تماما دون ان يقلّ اعجابي ببحثه الصوفي ــ الجنسي المعذب الذي كان اكثر الما كلما كان اكثر عديم جدوى وغير مفيد .

اذكر من بين اشياء «سيلان» ، عملية صيد الفيلة الضخمة .

كانت الفيلة قد تكاثرت بافراط في ناحية معينة من تلك المنطقة وكانت تغير على المنازل والمزارع فتؤذيها ، فراح الفلاحون ــ بالنيران والمجامر وأنغام «تام ــ تام» ــ يجمعون القطعان الوحشية من هذه الفيلة ويدفعونها نحو ركن من الغابة ، واستمروا على هذا المنوال اكثر من شهر على طول

---

١٨ ــ لورانس (D.H.) : روائي انجليزي (١٨٨٥ ــ ١٩٣٠) .

نهر كبير يخترق الغابة ، ليل نهار والمجامر في أيديهـــــم وهم يرددون «تام ــ تام» وهذا على ما يبدو كان يخيف الفيلة ويقلقها فأخذت هـــذه الوحوش الكبيرة تتحرك مثل نهر بطيء نحو الشمال الغربي من الجزيرة .

ذات يوم وقد هُيِّيء الـ «كرال» El Kraal والحواجز كانت تسد قسما من الغابة ، رأيت في ممر ضيق ، اول فيل دخل ، وما ان دخل حتى شعر بأنه محاط فلم يعد يستطيع التراجع . ثم تقدمت المئات وعبرت في هذا الممر الضيق المسدود . لم يستطع هذا القطيع المؤلف من حوالي خمسمائة فيل لا ان يتقدم ولا ان يتقهقر .

توجهت فحول الفيلة الاكثر قدرة وهمة نحو الحواجز لتحطمها ، لكن خلف هذه الحواجز كان الفلاحون يكمنون فرشقوها بسهام عديدة أوقفتها عن زحفها . عند ذلك قررت الفيلة التراجع الى مركز ذلك المكان المسور بالحواجز والرجال لحماية الاناث والصغار . لقد كان دفاعهم وتنظيمهـــم موثرين في نفسي جدا . كانت الفيلة تطلق نداء مقلقا ، نوعا من الصهيل او الحنين ، وهي من يأسها كانت تجتث الاشجار من جذرها الاكثر وهنا وضعفـــا .

ثم ، دخل مروّضان يمتطيان صهوتي فيلين اليفين كبيرين . كان هذا الزوج الاليف من الفيلة يعمل وكأنه شرطة رخيصة سخيفة . كان هـــذان الشرطيان يتمركزان على جانبي الحيوان السجين ثم يضربانه بخرطوميهما حتى تهن قواه الى درجة لا يقدر بعدها على التحرك ، اذ ّاك يأتي الصيادون فيربطون رجلا من رجليه الخلفيتين بحبال سميكة متينة الى جذع شجرة متينة قوية . وهكذا فقد أخضع الفيلة واحدا فواحدا .

يرفض الفيل السجين الغذاء لعدة ايام . لكن الصيادين يعرفون نقطة الضعف فيه . يتركونه يصوم زمنا ما ، ثم يحضرون له براعم ونوى من شجيراته المفضلة ، من هذه الاشجار التي كان يبحث عنها ، حين كان حرا طليقا ، في رحلات طويلة عبر الغابة . وفي النهاية يقرر الفيل اكل هذه المغريات واذ به يغدو حيوانا اليفا ويبدأ بتعلم أعماله المرهقة وحمل اثقاله المضنيـــة .

الحياة في «كولومبو»

لم يكن يبدو في «كولمبو» اي ارهاص لثورة او تمرد . كان الجـــو السياسي مختلفا عما هو عليه في الهند . فلقد كان كل شيء غارقا في سكينة جائرة مزعجة . كان هذا البلد يعطي للانجليز أفضل انواع الشاي الناعم الرفيع في العالم .

كان هذا البلد مقسما الى نواح او مقاصير يعلو بعضها بعضا . تأتي، بعد الانجليز الذين كانوا يشغلون قمة الهرم ويعيشون في منازل كبيرة ذات حدائق واسعة فسيحة ، طبقة منوسطة شبيهة بالطبقة المتوسطة فـــي امريكا الجنوبية . كان أفراد هذه الطبقة يدعون او ما زالوا يسمـــــون «البورجوازيين» ، وهم ينحدرون من «البوير» القدماء ، أولئك المستعمرين الهولانديين في افريقيا الجنوبية الذين نفوا الى «سيلان» خلال الحـــرب الاستعمارية التي جرت في القرن الماضي .

تحت هذه الطبقة تأتي طبقة السكان البوذيين والمحمديين (١٩) مـــن السيلانيين وهذه الطبقة مؤلفة من ملايين كثيرة ، وتحت هذه الطبقة تأتي طبقة اخرى في أسوأ شروط عمل واقل أجرة وهي كذلك كانت تعد ملايين من المهاجرين الهنود جاؤوا من جنوب الهند وهم يتكلمون «تاميل» وديانتهم هي «الهندوسية» .

كان فيما يسمى «بالعالَم الاجتماعي» الذي كان يقيم احتفالاته فـــي نوادي «كولمبو» الجميلة ، زعيمان يتنازعان الميدان ، احدهما نبيل فرنسي مزيّف اسمه (الكونت ماوني) الذي كان له مريدوه وأتباعه ، والآخر بولوني أنيق مستهتر ، صديقي (وينزر) الذي كان يبـــــدي آراءه في مجالس محدودة . هذا الرجل كان عبقريا بشكل ظاهر واضح ، مستهترا بشكل مبالغ ، عالما بكل ما في الكون ، مهنته كانت غريبة عجيبة : «محافظ الكنز الثقافي والاثري» ، وما كنت أدري بهذا الى ان اصطحبته مرة في جولة من جولاته الرسمية .

---

١٩ ـ المحمديون : هكذا في الاصل Mahometanos ، يعني بهم المسلمين .

ما كان صديقي (وينزر) يؤدي مهنته بشكل سيء ، بل كان يذهب الى الاديرة النائية ، وبرضى من الرهبان البوذيين كان ينقل الى سيارة شحن صغيرة رسمية اعمال النحت الرائعة من حجر ألفي ، ثم ينتهي مصير هذه التحف النحتية في متاحف انجلترا . كان هؤلاء الرهبان المرتدون برودا بلون زعفراني ، حين يترك لهم (وينزر) كتعويض عن تحفهم القديمة ، دمى سيئة الصنع من «سليوليود» ياباني تمثل (بوذا) ، يفرحون جدا وينظرون الى هذه الماثيل الصغيرة التافهة باجلال وتقديس ويضعونها في المذابح نفسها حيث كانت تبتسم خلال قرون وقرون تلك التماثيل اليصيبة والفرانيتية التي تنقل الى انجلترا .

لقد كان صديقي (وينزر) نتاجا ممتازا للامبراطورية ، اي ، كان رجلا وغدا انيقا .

جاء شيء ليعكر لي تلك الايام التي كانت تستهلكها الشمس وتستنفذها . حبيبتي البيرمانية العاصفة (خوسه بليس) تمركزت تجاه بيتي . جاءت من بلدها البعيد تحمل معها كيسا من الرز ــ كما لو انه لا رز الا في « رانغون » ــ ، اسطواناتها المفضلة لـ (باول روبيسون) سجادة طويلة مطوية . عكفت على مراقبتي من الباب المواجه لبابي ، من بعد شنت السب والشتم ضد كل من كان يزورني ، بدافع من غيرتها الشرهة ومن توجسها المسيطر عليها ، وكانت تهدد باحراق بيتي دائما . اذكر انها اغارت وسلاحها سكين ، على فتاة حلوة اورو آسيوية جاءت لتزورني .

اعتبرت الشرطة الاستعمارية ان وجودها يشكل بؤرة فوضى في هدوء ذلك الشارع وقالوا لي بأنهم سوف يطردونها من البلاد ان لم اتول شأنها انا وآخذها الى بيتي . عانيت عدة ايام ، حائرا متذبذبا بين الحنان الذي يوحي لي به حبها التعيس، وبين الرهبة التي كنت أشعر بها اذ انني لم اكن أدعها تضع رجلا في بيتي خوفا منها وحذرا، فقد كانت ارهابية غرامية قادرة على كل شيء .

اخيرا قررت ذات يوم الرحيل . رجتني ان اصطحبها حتى الباخرة.

عندما كانت الباخرة على وشك الاقلاع وكان عليّ ان اغادرها ، انطلقت هي من بين مرافقيها في السفر فانكبّت عليّ تملأ وجهي بالدموع وهي تقبلني في رباط (٢٠) من الحب والالم . كما في طقس من الطقوس كانت تقبل لي ذراعيّ ، يديّ ، بدلتي ، ثم هوت على حذائي تقبله دون ان استطيع ان اتجنب ذلك ، حين نهضت من جديد كان وجهها مغبرا ملطخا بحوّار حذائي الابيض . لم استطع ان اقول لها أن تدع السفر وأن تغادر معي الباخرة التي كانت ستبعدها عني الى الابد . لقد كان العقل يمنعني من ذلك ، لكن قلبي تفطر لها وما زال فيه ندب ما التأم ولم يبرأ منه حتى الان . لم تزل في ذاكرتي ذكريات ذلك الالم المضطرب العنيف الحاد وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة على الوجه المغبر الحزين .

كنت قد انتهيت تقريبا من كتابة الجزء الاول من ديواني «اقامة في الارض» ، غير اني كنت أكتب في بطء . لقد كنت منفصلا عن عالمي بسبب البعد والسكون وكنت عاجزا عن الدخول في العالم الغريب الذي يحيط بي.

كان ديواني يلتقط كفصول طبيعية نتائج حياتي الراسبة في الفراغ : «أقرب الى الدم منها الى المداد» (٢١) لكن أسلوبي أصبح اكثر صرفا واشد نقاوة وأعطيت نفسي أجنحة في تكرار كآبة محتدمة . أصررت على الحقيقة والبلاغة (لان طحين الحقيقة والبلاغة يصنع خبز الشعر) في أسلوب مر الخ بشكل اصراري نظامي على تهديمي الذاتي ، ليس الاسلوب هو الانسان فحسب بل هو ايضا ما يحيط به ، فاذا الجو لم ينفذ الى داخل القصيدة فان القصيدة تكون ميتة ، ميتة لانها لم تستطع التنفس .

ابدا ما قرأت في عذوبة ولذة ونهم وكثرة كما في تلك الضاحية من «كولومبو» التي عشت فيها زمنا طويلا . من حين الى حين كنت أرجع الى

---

٢٠ ــ رباط . هكذا في الاصل Arrebato وكانت تعني باللهجة الاندلسية العربية ، الغارة وهي تعني بالاسبانية ، هيجان ، احتداد ، نوبة ، الخ .

٢١ ــ بيت شعر من قصيدة في الديوان .

(رامبو) ، الى (كيبيـــــدو) (٢٢) ، الى (بروست) (٢٣) . ان مقطوعـــــة « عبر طريق «سوان» » اعادتني الى الحياة ، جعلتني أعيش من جديـد عواصف مراهقتني وحبها وغيرتها . وادركت انه في تلك المقطوعة لقطعة «فينتويل» الموسيقية ، مقطوعة موسيقية نعتها (بروست) بأنها «نسيميـة واليمة» ، ليس يذاق الوصف الاكثر لذة للانغام المؤثرة فحسب ، بل كذلك مدى العاطفة اليائس .

لقد كانت مشكلتي في تلك الوحدة المضة هي ايجاد هذه الموسيقى والعثور عليها ، لاستماعها . بحثت بمساعدة صديقي الموسيقي والعالـم بالموسيقـــى الى ان عرفت ان «فينتويل (بروست)» الّفهـــا ، ربما ، (شوبرت) (٢٤) و(فاغنر) Wagner (٢٥) و(سينت ـ سينس) (٢٦) و(فوري) Faure (٢٧) و(ثيسار فرانك) Cessar Frank (٢٨) و(سيندي) Cindy (٢٩) . لقد بقيت تربيتي الموسيقية السيئة الشنيعة جاهلة بكل هؤلاء الموسيقيين تقريبا ، وظلت أعمالهم العظيمة مثل صناديق غائبة او مغلقة . لم يستطع سمعي ان يميز حتى اكثر الالحان وضوحا ، وان ميز ذلك فبصعوبة بالغة وبمساعدة احد اصدقائي .

توصلت اخيرا وانا استقصي استقصاء اكثر ادبيا منه موسيقيا الى الحصول على مجمع (البوم) بثلاث اسطوانات من عزف موسيقي على البيانو والكمان لـ (ثيسار فرانك) . لم يكن ثمة مجـــال للشك بأن في هــــذه

---

٢٢ ـ كيبيدو : كاتب وشاعر اسباني مشهور (١٥٨٠ ـ ١٦٤٥) .

٢٣ ـ بروست (مارسيل) : الروائي الفرنسي المعروف ، مؤلف الزمن الضائع (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) .

٢٤ ـ شوبرت (فرانز) : الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٩٧ ـ ١٨٢٨) .

٢٥ ـ فاغنر (ريتشارد) : الموسيقي الالماني المعروف (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) .

٢٦ ـ سينت سينس (كميل) : موسيقي فرنسي (١٨٣٥ ـ ١٩٢١) .

٢٧ ـ فاوري (غابريل) : موسيقي فرنسي (١٨٤٥ ـ ١٩٢٤) .

٢٨ ـ ثيسار فرانك : موسيقي فرنسي (١٨٢٢ ـ ١٨٩٠) .

٢٩ ـ سيندي (Vicente) : موسيقي فرنسي (١٨٥١ ـ ١٩٣١) .

الاسطوانات كانت مقطوعة «فينتويل» ، ليس في هذا شك البتة .

ان شغفي ما كان الا ادبيا · لقد توقف (بروست) ، وهو في رأيي اعظم اديب واقعي شعري ، في تأريخه النقدي لمجتمع يحتضر كان يحبه ويمقته في الوقت نفسه ، في مسرة عاطفية، عند اعمال كثيرة من الفن ، من اللوحات، من الكاتدرائيات ، من الفنانات الممثلات ، من الكتب . لكنه أعاد ، مع انه كان يضيء كل ما كان يلمسه ، سحر هذه القطعة الموسيقية وعبارتهـــا المنبعثة من جديد في حدة ما اظنه وهبها لقطع وصفية اخرى . لقد قادتني كلماته الى ان اعيش من جديد حياتي الذاتية ، مشاعري البعيدة الضائعة في داخل نفسي ذاتها ، في غيبوبتي نفسها . أحببت ان ارى في المقطوعة الموسيقية مقال (بروست) الادبي الساحر فأخذت محمولا على أجنحـــة الموسيقى .

ان المقطوعة تختبىء في خطورة الظل ، تنطلق ، تبلغ باحتضارها درجة الخطر ثم تطيل هذا الاحتضار . تبدو وكأنها تبني احتباس انفاسها مثل العمارة «القوطية» التي تكرر الحلي المعمارية فيها ، مدفوعة بالنغم الذي يعلو بلا هوادة ، المربعات نفسها .

ان المادة المولودة من الالم تبحث عن مخرج لها منتصر ، لا ينكر وهو في القمة أصل هذه المادة التي امضّها الالم وعنّفها الحزن . يبدو هـــذا المخرج وكأنه يتلوى وينعقف في شكل حلزوني مؤثر ، بينما البيانو الشاحب الغامق يصحب مرة بعد اخرى الموت وانبعاث اللحن . ان أحشاء البيانو الظليلة تلد طلقا اثر طلق هذا الوليد الحلزوني الافعواني الى ان يندغم الحب والالم في الانتصار المحتضر .

لم يكن ثمة شك ، بالنسبة لي ، في ان هذه هي القطعة الموسيقية المنشودة .

كان هذا الظل المباغت يسقط مثل قبضة اليد فوق داري الضائعة بين اشجار الجوز الهندي في «فيلا واذا» ، لكن هذه القطعة الموسيقية كانت كل ليلة تعيش معي ، تقودني ، تلفني ، تهبني حزنها الدائم الخالد ، كآبتها المنتصرة .

لما ير النقاد الذين طالما نكلوا بمؤلفاتي حتى الآن هذا التأثير السحري الذي اعترف به هنا . لاني هناك في «فيلا واذا» كتبت قسما كبيرا من ديواني «مقام في الارض» . مع ان شعري ليس هو «شذيا ولا نسيميا» بل هو ارضي في شكل حزين ، فانه يبدو لي ان مواضيع قصائدي التي ترتدي لباس الحداد في هذا الديوان لها علاقة وشيجة بالذاتية الباطنية البلاغية لتلك الموسيقى التي تعايشت وإياي هناك .

حين عدت الى تشيلي بعد عدة اعوام تلاقيت في ندوة ادبية مع ثلاثة من الموسيقيين الشبان كانوا اعظم موسيقيي تشيلي ، جرى ذلك ، فيما اظن عام ١٩٣٢ ، في بيت (مارتا برونيت) . كان (كلاوديو آراو) Claudio Arrau «٣٠» يتحدث على حدة مع (دومينغو سانتا كروث) و(ارماندو كارباخال) ، فاقتربت منهم ، فما اعاروني انتباها او التفاتا ، بل مضوا في حديثهم الصافي الهادىء عن الموسيقى والموسيقيين . حاولت ان الح بالتكلم عن تلك القطعة الموسيقية الوحيدة التي كنت اعرفها .

نظروا اليّ بشكل ذاهل ثم قالوا لي في تكبر :

ـ (ثيسار فرانك) ، لماذا (ثيسار فرانك) ؟ ان الذي عليك ان تعرفه هو (فيردي) . ثم تابعوا حديثهم بعد ان قبروني في جهلي الذي لما اخرج منه حتى الآن .

سينغابور

الحقيقة هي ان الوحدة التي كنت اشعر بها في «كولمبو» لم تكن ثقيلة خانقة فحسب بل كانت كذلك كابوسا سباتيا . لم يكن لي الا القليل من الاصدقاء في ذلك الشويرع الذي كنت اسكن فيه . كانت تمر بسريري ذي الطراز العسكري صديقات من مختلف الالوان دون ان يدعن فيه ذكرى

٣٠ ـ كلاوديو اراو : عازف بيانو تشيلي ولد عام ١٩٠٣ .

البرق الجسدي . لقد كان جسدي مجمرة متوقدة متوحدة ليل نهار في ذلك الشاطىء المداري . كانت تجيء صديقتي (باستـــي) ، على الدوام ، بمجموعة من صديقاتها : صبايا سمراوات ومذهبات ، ذوات دماء مختلفة ؛ دم «بويري» ، دم انجليزي ، ومن مشتقات الله واصنافه ، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلحي .

لقد باحت لي احداهن بزيارة قامت بها الى «شومّريس» Chummeries وهو اسم المنازل التي كان يعيش فيها مجموعات من الشبان الانجليز ، من مستخدمي المحلات والشركات ، يعيشون معا كي يقتصدوا فـــي الملابس والاغدية على شكل مشاعة صغيرة . حكت لي هذه الفتاة بشكل طبيعي ودون شعور بالابتذال او بالبذاءة انه في احدى المناسبات ضاجعها اربعة عشرُ رجلا منهم .

ــ وكيف فعلت ذلك ؟ سألتها .

ــ كنت المرأة الوحيدة بينهم تلك الليلة ، وكانوا يحتفلون بشيء ما . وضعوا الحاكي وانا اخذت ارقص مع كل واحد منهم بضعة خطوات ثـم اثناء الرقص كنا نضيع في غرفة النوم ، هكذا أرضيتهم جميعا واحدا اثر واحـــد .

لم تكن هذه الفتاة بغيا محترفة بل كانت بالاحرى نتاجا استعماريا ، فاكهة ساذجة ومعطاء ، حكايتها هذه اثـّرت بي جدا ولكنها ما اثـّرت على علاقاتي بها فقد ظللت اكن لها المحبة والاستلطاف .

لقد كان منزلي المتوحد المنعزل بعيدا عن المساكن الاخرى كلها . حين استأجرته حاولت أن اعرف اين يقع المرحاض منه ، اذ انه ما كان يرى ولا في اية ناحية من هذا المنزل . من بعد اكتشفت انه في عمق المكان وراء الحمـّام .

بدافع من حب الاستطلاع تفحصته واذ به صندوق من الخشب وفي وسطه فتحة ، كان لهذا المرحاض شبـّه غريب بذاك الذي عرفته في طفولتي

الفلاحية ، في بلدي ، غير ان مراحيضنا تلك كانت تتركز فوق بئر عميقة او فوق مجرى مائي ، بينما مرحاضي هذا ليس له من مستودع الا سطل معدني بسيط يقع تحت تلك الفتحة المدورة .

كان السطل هذا يصحو مع الشروق نظيفا كل يوم دون ان ادري كيف كان يتخلص من مضمونه وأين يختفي هذا المضمون. صباح ذات يوم نهضت من فراشي في وقت ابكر مما كانت عليه عادتي في النهوض ، فدهشت حين رأيت ما كان يجري .

كانت هناك امرأة تسير نحو هذا المرحاض كأنها تمثال غريب يمشي ، امرأة ما رأيت مثلها في الحسن بسيلان من قبل قط ، من جنس «تاميل» ومن طائفة «باريا» (٣١) Paria ، كانت ترتدي «ساري» Sari احمر ومذهب من قماش خشن جدا ، وفي قدميها الحافيتين كانت تضع خلاخيل (٣٢) ، على كل جانب من انفها كانت هناك خرزتان صغيرتـــان حمراوان تلتمعان ، قد تكونان بلورتين عاديتين ، لكن عليها كانتا تبدوان وكأنهما جوهرتان .

توجهت بخطى جليلة وقورة نحو المرحاض ، دون ان تلتفت الي او تعيرني انتباها وكأنها لا تشعر بوجودي ثم اختفت والاناء القذر فوق رأسها مبتعدة بخطوها الربّاني .

لقد كانت جد جميلة الى درجة انني بقيت مشغول البال مضطربا . كأنها غزال نفور اتى من الادغال وهو ينتمي الى عالم آخر ، الى وجـــود آخر ، الى عالم منفصل لا يمت بصلة الى عالمي . ناديتها فلم تجب ، ذات مرة تركت لها في طريقها هدية : حريرا ، مرة اخرى فاكهة ، مرة اخرى عطرا ، كانت تمر ولا تدري بي ولا تنظر الى هداياي . لقد تحول طريـــق مسيرها وعملها البائس الى احتفال اجباري بملكة غير مبالية ، كنت انـــا

---

٣١ - باريا : هي طائفة من البراهمة ، محرومة من الحقوق الانسانية والمدنية .

٣٢ - خلاخيل : في الاصل Ajorcas وهي مأخوذة من الكلمة العربية الشركة .

المحتفل وهي الملكة الأنوف بما لها من جمال وحسن .

ذات صباح وقد قررت ما قررت وعزمت ان أغامر، اخذتها بقوة من معصمها وجذبتها الي" ونظرت اليها وجها لوجه وما وجدت لغة أكلمها بها ، فانصاعت وتأودت فقلدتها ، دون ان تبدو على شفتيها اية ابتسامة ، وعر"يتها دون ان تبدي حراكا ، أملتها على السرير فمالت ، أنمتها فنامت ، كان خصرها النحيل جدا ، الضامر جدا ، كانت أردافها المكتنزة جدا ، الممتلئة جدا ، كان نهداها الطافحان جدا ، الواثبان جدا ، تجعلها تبدو وكأنها تحفة الفية من تحف جنوب الهند وتماثيلها . وكان اللقـــاء لقاء رجل بصنمه . مكثت الوقت كله وعيناها ساهمتان مفتوحتان ، كانت جمادا بلا حراك . لقد احسنت صنعا باحتقاري وازدرائي ، والتجربة ما تكررت من بعد .

لقد كلفني جهدا ان أقرأ البرقية التي وصلتني ، وزارة الخارجيـــة تعلمني بنقلي الى مكان جديد . فقد نقلت من قنصل في «كولمبو» الى قنصل في «سينغابور» و«باتافيا» اي المهمة ذاتها والعمل نفسه ولكن هذا المنصب الجديد يرفعني من دائرة الفقر الاولى الى دائرة الفقر الثانية . كان لي الحق بكولمبو في ان أحجز لنفسي من المبالغ التي تكسبها القنصلية ، مرتبي (ان توفر في هذه المبالغ) وقدره مائة وستة وستون دولارا وستة وستـــون سنتيما . الان بعد ان اصبحت قنصلا في مستعمرتين معا فاني سوف استطيـــع ان آخذ مبلغا قدره ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون دولارا واثنـــان وثلاثون سنتيما (ان توفر في صندوق القنصلية) وهذا يعني انني ، عمـا قريب ، سوف أدع النوم على السرير العسكري ، طموحي المادي ما كان مفرطا وما كنت اطمع باكثر من هذا .

لكن ، ماذا سأفعل ب (كرينا) نمستي ؟ أأهديها الى اولاد الحي الذين لم يعودوا يكنون لها الاحترام اللازم بعد ان فقدوا ايمانهم بقدرتها علـــى مقارعة الافاعي ؟ لا ، لا ابدا ، فانهم لن يعتنوا بها ولن يدعوها تأكل معهم على المائدة كما كنت قد عو"دتها على ذلك ، بل انهم سيفلتونها في الغابة لترجع الى وضعها البدائي الحيواني ، فهي من غير شك فقدت غرائزها الدفاعية وأصبحت اليفة وهناك في الغابة ستلتهمها الطيور الجارحة او الزاحفة دون سابق انذار او اعذار . من جهة اخرى ، كيف أحملها معي ؟

انهم في الباخرة لن يقبلوا بمثل هذا المسافر الغريب من نوعه .

قررت حينذاك ان اصطحب معي في السفر (برامبي Brampy) خادمي السيلاني ، كان ذلك مصروفا باهظا لا يتحمله الا مليونير وكذلك كان جنونا ، لاننا سنذهب الى قطرين وهما ماليزيا واندونيسيا ، يجهل خادمي (برامبي) لغتيهما . لكن النمسة تستطيع السفر خفية في داخل سفط نضعه على ظهر الباخرة تحت جسرها وهناك يرقد خادمي قربها فهي تعرفه وتطمئن اليه فتظل خبيئة دون ان يراها احد ، لكن المشكلة كانت الجمارك فلعلهم ينقبون في السفط ويرونها ، لكن خادمي (برامبي) الماكر تكفّل بخداع رجال الجمارك .

وهكذا ، بحزن ، بفرح ، بنمسة ، تركنا جزيرة سيلان قاصدين عالما آخر لا نعرفه .

قد يكون من الصعب على الآخرين ان يفهموا لماذا كان لتشيلي هذا العدد الكثير من القناصل المبعثرة في انحاء العالم كله . انه فعلا لغريب ان جمهورية صغيرة منزوية قرب القطب الجنوبي ترسل ممثلين رسميين الى ارخبيلات ، سواحل ، أرصفة (٣٣) في الجانب الآخر من الكرة الارضية.

في عمق الامر ــ اشرح انا وهذا رايي الخاص ــ ان هذه القناصل كانت نتاج الوهم واعطاء الاهمية للذات والتركيز عليها وهذا ما نتميز به نحن الامريكيين الجنوبيين عادة . من ناحية اخرى كنت قد قلت في مجال آخر انه من هذه الاماكن النائية جدا كانت تشحن الى تشيلي ، قنب هندي ، زيت القطران الصلب (بارفينا) لصنع الشموع وبخاصة شاي ، شاي كثير جدا ، اذ اننا نحن التشيليين نتناول الشاي اربع مرات في اليوم ، ولا نستطيع زرعه في بلادنا . لقد اضرب مرة عمال ملح البارود اضرابا هائلا محتجين على نقص هذه المادة الغذائية الغريبة جدا. اذكر ان احد المصدرين

---

٣٣ ــ ارصفة : هكذا في الاصل Arrecifes وهي في الاسبانية تعني الهوادي او الصخور تحت الماء او الحيود البحرية . عن العربية

الانجليز سألني في احدى المناسبات بعد أن سقاني ما سقاني من الويسكي، عما نفعل نحن التشيليين بمثل هذه الكميات الهائلة من الشاي .

ـ نتناولها ـ قلت له .

(لقد كان يظن انه سأبوح له بسر استغلاله صناعيا ليعرف هـــذه الصناعة وينقلها الى بلده ، تأسفت لتخييبي آماله) .

لقد كان للقنصلية التشيلية في سينغابور عشر سنوات من الوجود . نزلت من الباخرة بالثقة التي كانت تعطينها الثلاث والعشرون سنة مـن العمر ، دوما بصحبة خادمي (برمبي) ونمستي (كرينا) . توجهنا مباشرة الى فندق «رافليس» . هناك أمرت بفسل ملابسي التي لم تكن بالقليلة ، ومن بعد جلست على شرفة الغرفة ، تمددت في كسل على كرسي مريح هزاز وطلبت كأسا ، كأسين ، ثلاث كؤوس ، من «الجن» .

كل شيء كان Sommerst Maufham (٢٤) جدا ، الى ان خطر لـــي البحث في دليل الهاتف عن مفر قنصليتي ، فلم تكن مسجلة هذه القنصلية في الدليل ، يا للشياطين ! طلبت أن يصلوني حالا بمركز الحكومة الانجليزية هنا ، أجابوني بعد طول استشارة وبحث انه ليس ثمة قنصلية تشيلية . سألتهم عما اذا كانوا يعرفون اي شيء عن القنصل السيـــد (مانسيا) فأجابوني بالنفي المطلق .

شعرت بالانزعاج والضيق اذ لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع أجرة تلك الليلة في الفندق وتكاليف غسل ملابسي . فكرت في ان مقر القنصلية لا بد أن يكون في «باتافيا» ، ولذلك فاني قررت المضي في السفر علـــى ظهر الباخرة نفسها التي احضرتني الى هنا وكانت ما تزال راسية في المرفأ على وشك الاقلاع نحو «باتافيا» . أمرت باخراج ملابسي من الغلاية حيث كانت تنتقع ، صنع (برامبي) منها حزمة بليلة وانطلقنا مسرعين نحو رصيف المينـاء .

---

٢٤ ـ لا نحاول ترجمة التعابير الواردة بلغة غير اللغة الاسبانية .

كانوا قد رفعوا سلم الصعود الى ظهر السفينة . صعدت درجات السلم لاهثا . نظر الي رفاق سفري السابقون المستمرون في رحلتهم وضباط الباخرة مستغربين مندهشين . حشرت نفسي في الغرفة نفسها التي كنت قد تركتها صباحا ثم تمددت على ظهري في السرير وأغمضت عيني فيما كانت الباخرة تبتعد عن الميناء المشؤوم .

لقد تعرفت في الباخرة على فتاة يهودية ، تدعى (كروزي) شقراء ، سمينة شيئا ما ، ذات عينين طافحتين بالفرح ولونهما برتقالي . قالت لي ان لها منصبا جيدا في «باتافيا» ، اقتربت منها في الحفلة الاخيرة للرحلة البحرية . بين كأس وكأس كانت تجرني الى الرقص وأنا كنت أتبعها بشكل غبي في تلك الالتواءات البطيئة التي كان الرقص عليها في تلكم الاوقات . في هذه الليلة الاخيرة قررنا ان نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي ، عارفين بأن مصيرينا التقيا صدفة ولمرة واحدة . حكيت لها عن خيبة آمالي وفشلي فأشفقت علي ورقت لي في نعومة بالغة فوصل حنانها الى قلبي وتغلغل في روحي .

اعترفت لي (كروزي) من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في «باتافيا» . كان ثمة منظمة فلتدعها دولية ، كانت مهمتها هي ان تشبك فتيات اوروبيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب او القاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين «مهراجا» او امير من سيام او تاجر صيني غني فقررت اختيار هذا الاخير ، لكونه شابا وديعا .

حين هبطنا الى اليابسة ، في اليوم التالي ، لمحت سيارة «رويلرويز» وجانبا من وجه صاحبها الصيني ، العين الغني الذي كان يجلس في الخلف وذلك من خلال ستائر حريرية مزهرة على نوافذ السيارة . ثم اختفت (كروزي) بين الناس والعفش والبضائع .

أنا نزلت في فندق « دير نيديرلاند » ، كنت استعد للغداء حين رأيت (كروزي) تدخل ثم ارتمت بين ذراعي مختنقة بالبكاء .

— انهم يطردونني من هنا ، يجب علي ان أرحل غدا .

ـ لكن ، من هم هؤلاء الذبن يطردونك ، ولماذا يطردونك ؟.

حكت لي بشكل متقطع عن خيبنها وعن الضرر الذي لحق بها ، قالت انه كانت على وشك الصعود الى السيارة الفخمة حين جاء رجال شرطة الهجرة فاعتقلوها كي يخضعوها الى تحقيق قاس ، لم تحد بدا مـــن الاعتراف بكل شيء . اعتبر المسؤولون الهولانديون ان نيتها في العيش مع رجل صيني على شكل تسرّ هي جناية خطيرة . اطلقوا في النهاية سراحها شريطة الا تزور عشيقها هذا وشريطة ان تركب ، لترحل في اليوم التالي ، الباخرة نفسها التي وصلت بها والتي كانت ستقلع لتعود الى الغرب ..

ان ما كان يحزّ في نفسها هو انها خيبت آمال ذاك الرجل الذي كان ينتظرها ، لم يكن بعيداً عن التأثير في شعورها هذا اغراء تلـك السيارة الفخمة . لكن (كروزي) في اعماقها كانت عاطفية جدا . كان في دموعها شيء اكثر من مصلحة خابت ، اكبر من اغراء مادي : كانت تشعر بأنهـــا اهينت وانها جُرحت في كرامتها .

ـ هل تعرفين عنوانه ، اليس عندك رقم هاتفه ؟ سألتها .

ـ بلى ـ اجابتني ـ لكنني اخاف ان يعتقلوني فلقد هددوني بالسجن في زنزانة .

ـ لن تخسري شيئا ، اذهبي كي تري هذا الرجل الذي قد فكر فيك دون ان يعرفك ، فانت تدينين له على الاقل ببضعة كلمات تشرحين بها له الامر . ماذا يهمك بعد من رجال الشرطة ؟. دعيهم وشأنهم . اذهبـي وانظري صينيّك ، خذي احتياطاتك واهزئي ممن أهانوك وستشعرين انك انتقمت وبهذا تخرجين من البلد وأنت اكثر رضى وأحسن حالا .

لقد عادت تلك الليلة صديقتي في وقت متأخر . فقد ذهبت ورات المعجب بها عن طريق المراسلة فقصت عليّ تفاصيل المقابلة التي جـــرت بينهما . الرجل هو شرقي متفرنس ومثقف ، يتكلم الفرنسية بشكـــل طبيعي ، متزوج على طريقة الشرفاء الصينيين وهو يملّ من زوجـــه وحياته كثيرا .

كان هذا الخطيب الاصفر قد جهز لخطيبته البيضاء التي جاءته من الغرب منزلا بحديقة فسيحة ، تشبيكات على النوافذ ضد الذباب والناموس ، اثاثا من طراز لويس الرابع عشر ، سريرا كبيرا ذا كلة حريرية وضع تحت التجربة تلك الليلة . اخذ صاحب الدار هذا يريهـا التحف الصغيرة التي اعدها وهيأها : الشوك ، السكاكين الفضية (هو لا يأكل الا بالعيدان) ، المشروبات الاوربية ، الثلاجة المكومة بالفواكه وأشياء اخرى .

من بعد توقف ازاء صندوق كبير مغلق بشكل محكم ، اخرج مفتاحا صغيرا من جيب سرواله ، فتح ذلك الصندوق وأرى عيني (كروزي) أعجب كنز في الكنوز ، مئات من الكلاسين النسائية ، سراويل قصيرة ناعمة الملمس ، كلسات ضئيلة الحجم . مشدات خاصة بالحريم بالمئات بل بالآلاف كانت تتوج ذلك الكنز المطهّر بالشذى والمعطر بأريج الصندل . هناك اجتمعت انواع الحرير كلها ، الالوان جميعها فالسلسة كانت تتدرج من البنفسجي الى الاصفر ، من الالوان الوردية المختلفة الى الالوان الخضراء السحرية ، من الالوان الحمراء العنيفة الى الالوان السوداء البهية ، من الالوان السماوية الكهربائية الى الالوان البيضاء الشفافة الرفرافة . جمع هذا الوثني قوس قزح الشهوة الذكرية كله في سبيل ارضاء لذته الشهوانية الغريبة .

ـ لقد بهرت وسحرت ـ قالت لي (كروزي) ثم غرقت بالبكاء والنحيب ـ تناولت انا هكذا على غير اتفاق قبضة من هذه المشدات وها هي الآن معي ـ أردفت قائلة .

لقد شعرت انا كذلك بالتأثر واستهواني هذا السر الانساني . هذا الصيني التاجر الجدّي الحازم المستورد او المصدر يصنف ويجمع كلاسين ومشدات نسائية كما لو كان هاوي فراشات يتابعها ويصطادها ، كيف هذا ومن يفكر في مثل هذا ؟

ـ دعي لي واحدا من هذه الكلاسين ـ قلت لصديقتي .

هي اختارت واحدا ابيض أخضر وداعبته بنعومة وحنان قبل ان تعطينيه .

ـ اهديه لي واكتبي لي عليه شيئا ، يا (كروزي) ، من فضلك .

اذ ذاك هي مطته بعناية تامة وكتبت اسمي واسمها على سطح الحرير الذي بللته كذلك بالدموع .

في اليوم التالي انطلقت راحلة دون ان أراها وما عدت فرأيتها من بعد ابدا . كلسونها الخفيف الرقيق الشفاف واهداؤها عليه ودموعها فيه مشت مع حقائبي ، مختلطة بملابسي وكتبي خلال سنين كثيرة . لا اعرف متى وكيف احدى زائراتي المستغلات خرجت من داري وقد لبسته فطار معها .

« باتافيا »

في تلكم الازمان ، حين لم تكن توجد بعد الفنادق الضخمة كان نزل «نيديرلاند» شيئا خارقا للعادة . كان له بهو مركزي كبير مخصص لقاعة الطعام وللمكاتب ، وشقة لكل مقيم نازل تفصلها عن الاخرى حديقة صغيرة واشجار قديرة عظيمة وفي قمم هذه الاشجار كانت تستوطن عصافير لا حصر لها ، سناجب غشائية تطير من غصن الى آخر ، حشرات تصر وتصرف كما في الغابة . كان خادمي (برامبي) منصرفا الى عمله في الاعتناء بالنمسة التي كانت كل يوم اكثر قلقا واشد حزنا في منزلها الجديد هذا .

هنا ، نعم ، كان ثمة ما يسمى بقنصلية تشيلي ، على الاقل كانت مذكورة في دليل الهواتف . في اليوم التالي بعد أن غدوت احسن حالا وآنق ملبسا توجهت شطر مكاتبها . كان الشعار القنصلي لتشيلي معلقا في صدر بناء كبير وعلى واجهة محل كتب عليه كذلك ما يدل على انه مقر شركة للسفريات البحرية . قادني احد الاشخاص العديدين الذين كانوا هناك الى مكتب المدير ، وهو رجل هولاندي ضخم الهيئة عظيم الجثة ملون الوجه والبشرة ، لا تبدو عليه علائم مدير شركة بل له ملامح عتال ميناء .

ـ انا القنصل الجديد لتشيلي هنا ـ قدمت نفسي ـ اني لابدا باجرال

الشكر اليكم على خدماتكم الجليلة العظيمة راجيا ان تطلعوني على مجريات الامور المهمة في القنصلية ، اذ انني أرغب بتولي مهام منصبي تو"ا .

ـ ليس من قنصل هنا سواي ـ اجاب حانقا هائجا .

ـ وكيف ذا ؟

ـ ابدأوا بأن تدفعوا لي ما انتم مدينون به ـ صرخ .

قد يعرف هذا الرجل عن الابحار الشيء الكثير ، لكن اللياقة لم يكن يعرفها ولا في اية لغة . كان يهرس الجمل يدعسها ويقضم بعضـ"ات غاضبة السيجار الثقيل الذي كان يدعف الهواء فيما حوله .

لم يدع لي هذا المَمسوس المتخبط فرصة كي أقاطعه اثناء كلامـه المتدفق . ان شعوره بالاهانة والسيجار كانا يسببان له هجومات مـن السعال مدوية صخابة حين لا تسببان له تفا ونفا وغرغرة . اخيرا استطعت ان أحشر جملة في محاولة للدفاع عن نفسي :

ـ ايها السيد ، انا لا ادين لك بشيء وليس عليّ ان ادفع لك شيئا. اني لأعرف ان حضرتك قنصل Ad Honorem اي فخري، فان كان هذا امرا قابلا للنقاش في رأيك فانني لا اجد ما يمكن اصلاحه بهذا الصراخ الذي لست على استعداد للقبول به مطلقا .

في وقت لاحق تأكدت من ان هذا الثخين الهولاندي كان لديه بعض من الحق . فلقد كان هذا الرجل ضحية لنصب واحتيال حقيقيين ما كنت انا ، طبعا ، ولا حكومة تشيلي بمسؤولين عما لحقه من اجحاف وظلم . لقد كان (مانسيا) هذه الشخصية الماكرة الملتوية ، هو من كان يهيج حنق الهولاندي وغضبه . فلقد بدأت أعرف ان (مانسيا) هذا لم يقم على راس عمله في «باتافيا» ابدا ، بل كان يعيش في باريس منذ زمن طويل ، وكان قد اتفق مع هذا الهولاندي كي يقوم بمهامه القنصلية بدلا عنه وأن يرسل

اليه الاوراق والعوائد المالية لقاء مرتب شهري ، غير انه لم يدفع له هذا المبلغ قط . ومن هنا شعور الهولاندي بالاهانة والظلم ، ومن هنا غضب الهولاندي الارضي (٣٥) الذي تداعى فوق رأسي كتداعي طنف الحائط .

في اليوم التالي شعرت بأني مريض جدا ؛ حمّى خبيثة ، زكام ، ضنك ، وحدة ونزيف ، حر وعرق . كانت الأنف تنزف مني دما مثلما في طفولتي بتيموكو ، تحت برد تيموكو .

توجهت بعد ان بذلت جهدا قويا ، جهد من يريد ان يحيا ، الى قصر الحكومة حيث كان يقع في منطقة «بويتنزور» Buitenzor داخل حديقة اشجار رائعة فسيحة . ابعد البيروقراطيون بصعوبة عيونهم الزرق عن أوراقهم البيض وزووا ما بين عيونهم ثم أخرجوا أقلاما كانت كذلك تترشح مثلي وكتبوا اسمي ببعض قطرات من عرق .

خرجت اكثر مرضا مما دخلت . مشيت عبر النهج الى ان جلست تحت فيء شجرة هائلة . كل شيء هنا كان منعشا صحيا طازجا حيا ، الحياة تتنفس هادئة قديرة . تكشف الاشجار السامقة الهيفاء عن سيقانها الصقيلة الملساء لنجينيثة البدن ، كثيفة الفرع ، ازائي ، امامي ، ورائي ، كان يبلغ علوها مائة متر او اكثر . قرات الصفائح المطلية بالميناء حيث تصنف الاشجار فصائل فصائل من اشجار الكافور ، لم اكن اعرفها من قبل . تنزّلت من العلو الهائل موجة من الشذى الرطب فتنسمتْ ملء رئتيّ ، تساقطت عليّ موجة من الأريج الزكي فأفعمت قلبي . تلك الشجرة الامبراطورة بين الاشجار رقت لحالي فأرسلت اليّ من روحها نفحة عطر اعادت اليّ روحي وشفّتني .

او لربما كانت شفائي جلالة الحديقة الخضراء ، تناغم الاوراق ، تلون الثمار ، تصالب الخطوط ، السحليات التي كانت تنفجر مثل نجمات بحر بين اوراق النبات، العمق البحري لذلك الحرش الغابي، صراخ البّبغاوات،

---

٣٥ ـ الهولاندي الارضي : اشارة وتمييزا للهولاندي البحري واسطورته المعروفة .

عياط القرود . كل هذا أعاد لي الثقة في مصيري ، أرجع لي الفرح بالحياة التي كانت تطفأ فيّ مثل شمعة استهلكت فنفدت .

عدت الى النزل وقد استعدت أنفاسي . جلست في شرفة شقتي ومعي اوراق للكتابة ونمستي فوق الطاولة الصغيرة جالسة ، وقررت ارسال برقية الى حكومة تشيلي . كان ينقصني المداد . ناديت على نادل في النزل وطلبت منه بالانجليزية حبرا ink كي يحضر لي محبرة . لم يبد عليه انه فهمني بل اقتصر على النداء الى نادل آخر كان يرتدي بدلة بيضاء مثله وكان حافيا جدا مثله كي يساعده على تفسير رغباتي المبهمة اللغز . لم يكن هناك ما يمكن عمله اذ انني حين كنت اقول : ink واحرك قلمي وانا اغمسه في محبرة خيالية وهمية كي يفهموا قصدي كان الغلمان السبعة او الثمانية الذين خفوا لمساعدة الاول على حل هذا المعضل، يكررون ايقاع مناورتي باقلام يخرجونها من جيوبهم وينادون في حدة واندفاع (ink, ink) مبتين ضحكا . كان هذا الذي اقوم به من حركات يبدو لهم على انه طقس من الطقوس الجديدة يريدون تعلمه واتقانه. بعد ان يئست انطلقت الى الشقة المجاورة وانا أتبع بسلسلة طويلة من الخدم المرتدين البياض ، الحفاة الاقدام ، وتناولت من على طاولة وحيدة منزوية محبرة كانت هناك باعجوبة فأشهرتها أمام عيونهم المندهشة وصرخت بهم :

— هذا ، هذا This This .

عند ذلك ابتسموا وقالوا في ايقاع واحد :

— حبر ، حبر . Tinta! Tinta! .

وهكذا عرفت ان الحبر كما هو في الاسبانية يقال له بلغة «ملايو» (Tinta)

لقد حانت اللحظة التي أعيد فيها اليّ الحق بأن اتمركز قنصليا . كانت ثروتي المتنازع عليها هي : خاتم مع ممحاة متآكلة منقرضة منقضمة،

قطعة قماش مغموسة بالمداد كي احبّر الخاتم ، بعض ملفات ووثائق تحتوي على المجمل والباقي . كان الباقي قد راح ليتوقف في جيوب ذاك القنصل الغشاش الذي كان يعمل من باريس في هذه القنصلية. سلمني الهولاندي الذي استهزيء به اعواما كثيرة الحزمة التافهة، دون ان يدع علك سيجاره، في ابتسامة باردة . ابتسامة «مستدون» (٣٦) خائب الامل ٠

— من حين الى حين كنت اوقّع على وصولات قنصلية واضع عليها الخاتم الرسمي المتضعضع . وهكذا اخذت تردني الدولارات التي كانت تحوّل الى العملة الوطنية «غولديرس» Gulders فتكفي بشكل مضغوط لدعم وجودي : المبيت والتغذية لي ، راتب خادمي ، العناية بنمستــــي (كيريا) التي كانت تنمو بشكل واضح جلي وتاكل ثلاث بيضات واحيانا اربع ببضات في اليوم ، بالاضافة الى هذا فقد كان عليّ ان اشتري سموكين Smoking ابيض و«فراك» Frac والتزمت ان ادفع الثمن علىاقساط شهرية . كنت اجلس احيانا ، وحيدا دوما ، في المقاهي الغاصة بالناس في الهواء الطلق ، ازاء القنوات المريضه كي اشرب بيرة او «جن» فعدت من جديد لاحيا حياه هادئة يائسة .

ان وجبة مطعم الفندق كانت جليله . كانت تدخل الى قاعة الطعام مسيره مؤلفة من عشرة خدام الى خمسة عشر خادما احيانا ، ثم يروحون يستعرضون انفسهم امام كل واحد من نزلاء الفندق وقصعاتهم مرفوعة على اكفهم التي تعلو وتهبط . وكل قصعة مقسمة الى اوعية ، وفي كل وعــاء يلمع طعام لذيذ غريب . فوق قاعدة من الرز كانت تلك الماكولات اللانهائية تشيد دعائمها . كنت انا ، وانا رجل اكول ولزمن طويل غير مغذّى ، اختار شيئا من كل قصعة من هذه القصعات ، من كل خادم من الخمسة عشر خادما او الثمانية عشر ، حتى يصبح طبقي جبلا حيث الاسماك الغريبة ، حيث البيضات المعماة ، حيث الخضراوات غير المتوقعة ، حيث الفراخ غير المفسرة ، حيث اللحوم غير المالوفة ، كانت كل هذه اللذائذ تتوج قمة غذائي كما راية على قمة جبل قاعدته من رز . يقول الصينيون ان الاكل يجب ان

---

٣٦ ــ «مستدون» Mastodonte : فيل الري منقرض ٠

يحتوي على ثلاث خصائص لذيذة : طعم ورائحة ولون . كانت وجبة نزلي تجمع هذه الخصال الثلاث ورابعة اخرى وهي : الوفرة .

في تلك الايام فقدت (كيريا) : نمستي . كانت لها العادة المجازفة الخطرة وهي متابعتي حيث امضي بخطيواتها السريعة القصيرة . ان الذهاب خلفي كان يعني اجتياز الشوارع التي تخترقها السيارات الصغيرة والكبيرة والشاحنات وعربات «ريكيشا» التي يجرها البشر والمارة الهولانديون والصينيون والملايويون . انه لعالم مضطرب مزدحم بالنسبة لنمسة لا تعرف في الدنيا الا شخصين اثنين : انا وخادمي .

لقد جرى ما لا يمكن تفاديه وكان ما خفت ان يكون . حين عدت الى الفندق ونظرت الى خادمي فهمت المأساة ، لم اسأله شيئا . لكن حين جلست في الشرفة ، هي لم تقفز الى حضني ولا امرت ذيلها الكثيف الشعر عبر رأسي .

وضعت اعلانا في الصحف :« نمسة ضائعة ، تستجيب لنداء (كيريا) ».

ما من احد أجاب ولا من جار رآها فدل عنها ، ربما ماتت ، لقد اختفت الى الابد .

شعر حارسها (برامبي) بذنب كبير الى درجة انه اختفى عن نظري خلال زمن طويل . كان شبحا كان من يغسل ملابسي وينظف احذيتي . كان يخيل لي احيانا وكأني أسمع صراخ (كيريا) يناديني من على غصن شجرة في الليل ، اشعل النور ، افتح النوافذ والابواب علّها تأتيني . اتحرّى شجر الجوز الهندي ، أستقصي كل مكان ، واذ هي ليست اياها. ان العالم الذي كانت (كيريا) تعرفه وتألفه قد استحال الى احتيال ، انهارت ثقتها في غابة المدينة المهددة المتوعدة . لقد شعرت لزمن طويل اني مثقوب بالكآبة ، منخول بالهمّ .

قرر (برامبي) من خجله العودة الى بلده . تأسفت لهذا كثيرا ، لكن ، في الحقيقة ، تلك النمسة كانت الشيء الوحيد الذي يجمعنا . جاء ذات

مساء بغرض ان يريني البدلة الجديدة التي اشتراها كي يصل الى قريته الأم ، حسن الهندام بهي المنظر . ظهر فجأة وهو يرتدي الابيض ومزرزر حتى العنق . ما كان اكثر مفاجأة هي قلنسوته الهائلة كأنه رئيس الطهاة فقد كان قد البسها رأسه الغامق جدا ، حين بدا هكذا انفجرت في قهقهة عارمة . لم يشعر (برامبي) بالاهانة بل على العكس ابتسم لي في عذوبة شديدة بابتسامة تصفح لي جهلي وتتفهمه .

ان اسم شارع داري الجديدة في «باتافيا» هو «بروبولينغو» . هذه الدار هي عبارة عن قاعة ، وغرفة نوم ومطبخ وحمّام . ابـــدا ما امتلكت سيارة ولكن في هذه الدار كان يوجد كراج ظل دائما فارغا . كان في هذه الدار الجديدة متسع يزيد عن حاجتي . اتخذت طاهية من جزيرة «جاوا»، فلاحة عجوزا تشعر بالمساواة وتؤمن ان الناس سواسية وكانت كذلك لطيفة جدا . واتخذت كذلك خادما صغيرا جاويا ايضا كان يخدمني في المائدة وينظف ملابسي ويمسح احذيتي . هناك انهيت ديواني «مقام في الارض».

لقد تضاعف شعوري بالوحدة ففكرت بالزواج . كنت قد تعرفت على فتاة «كريويا» ، بالاحرى هولاندية مع قطرات دم من ملايو . كانت تعجبني جدا ، كانت امرأة طويلة وناعمة لطيفة ، غريبة كليا عن عالم الفنـــون والآداب (بعد عشرين سنة ستكتب كاتبة تاريخ حياتي وصديقتي (مارغاريتا اغيرّه) عن زواجي هذا ما يلي : «لقد عاد (نيرودا) الى تشيلي في عام ١٩٣٢ . قبل هذا بعامين تزوج في «باتافيا» بـ (ماريا انطونيته اجينار **Maria Antonieta Agenar** وهي شابة هولاندية مستقرة في «جاوا» . تفتخر جدا لكونها زوجة قنصل ، ولها عن امريكا الجنوبية فكرة غريبة جدا ، هي لا تعرف الاسبانية فتبدأ بتعلمها . لكن ليس ثمة شك في ان ما لم تتعلمه ليس اللغة فحسب . ومع كل هذا فان انسجامها العاطفي مع (نيرودا) هو قوي جدا فدائما يُريان معا . ان (ماروكا) وبهذا الاسم يدعوها (بابلو) ، هي طويلة جدا ، بطيئة ، متكلفة الرصانة» .

كانت حياتي بسيطة جدا . تعرفت من بعد على اشخاص آخرين لطفاء جدا . القنصل الكوبي وزوجته كانا صديقيّ الاجباريين اذ كنا متحديـــن باللغة . كان هذا القنصل يتكلم بلا انقطاع ولا هوادة كأنه آلة متحركة دائما.

كان رسميا يمثل (ماتشادو Machado) (٢٧) طاغية كوبا ، غير انه ، كان يحكي لي ان ثياب السجناء السياسيين ، ساعاتهم ، خواتمهم ، وأحيانا أسنانهم الذهبية كانت تظهر في بطون الاسماك الكبيرة الشرهة بخليج «هافانا» .

كان القنصل الالماني(هرتث) يعجب بالتشكيلة الحديثة la plastica بالخيول الزرق لـ (فرانث مارك) بالاشكال المستطيلة لـ (ويلهيلم ليهمبروك). كان شخصا حساسا ورومانطيكيا ، وهو يهودي ذو قرون من التراث الثقافي ، سألته ذات مرة :

ــ و(هتلر) هذا الذي يظهر اسمه من حين الى حين في الصحف ، هذا الزعيم المعادي للسامية وللشيوعية ، الا تعتقد انه قد يصل يوما الى سلطة الحكم ؟

ــ مستحيل ــ قال لي .

ــ كيف تجزم بأنه مستحيل ، بينما نشاهد في التاريخ كل ما هو محال وغير معقول ؟

ــ انت لا تعرف المانيا ــ ادلى برايه ــ ثم اردف قائلا :

ــ اجل ، هناك في المانيا هو امر مستحيل ، ان محرضا مجنونا مثل هذا (هتلر) لا يمكن له ان يحكم ، ولا حتى في ضيعة .

يا صديقي المسكين ، يا للقنصل المسكين (هيرث) ، لقد كان ينقص القليل كي يحكم ذاك المحرّض المجنون العالم كل العالم . لا بد ان (هيرث) الساذج قد انتهى في غرفة غاز مجهولة ورهيبة مع كل ثقافته ورومانطيكيته النبيلة .

---

٣٧ ــ ماتشادو Morales, Cerardo : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٩).

الفصل الخامس

اسبانيا في القلب

كيف كان (فيديريكو Federico) (١)

سفر طويل عبر البحر دام شهرين اعادني الى تشيلي عام ١٩٣٢ . هناك في تشيلي نشرت ديواني «حامل المقلاع المتحمس» الذي كان مبعثرا بين أوراقي ، ونشرت كذلك ديواني «مقام في الارض» الذي نظمته في الشرق . في عام ١٩٣٣ عينت قنصلا لتشيلي في «بوينس أيرس» حيث وصلت في شهر آب .

لقد وصل الى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريبا (فيديريكو غارثيا لوركا) كي يدشن مسرحيته ، مأساة «أعراس الدم» ، ويشرف على تمثيلها

---

١ ــ فيديريكو غارثيا لوركا : هو الشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٩٨ ــ ١٩٣٦) ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ، مختارات من الشعر الاسباني المعاصر . ونحن في صدد اعداد كتاب عن المواضيع والالفاظ العربية في اعماله .

الذي قامت به فرقة (لولا ميمبريبيس Lola Membrives) . لم نكن قد تعارفنا بعد فتم تعارفنا في «بوينس ايريس» . وكثيرا ما كان الادباء والاصدقاء هناك يحتفلون بنا معا ويكرموننا . على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث . كان لفيديريكو خصوم . وكذلك كان لي ايضا خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون . هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزيا كي يطفئوا النور حتى لا يُرى . وهذا ما حصل في تلك المرة . بما انه كان هناك اهتمام عند الناس لحضور حفلة التكريم التي كان يريد اقامتها على شرفنا «نادي القلم» في فندق «بلاثا» ، فان احد هؤلاء الخصوم اخذ يتصل بالناس هاتفيا كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي كان سيقام على شرف (لوركا) و(نيرودا) قد أُلغي . وقد بلغ بهذا الخصم او الخصوم الحد من الصفاقة انهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدّوا الوليمة . لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا اخيرا وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتّاب الارجنتينيين .

لقد بادرنا الحضور بمفاجأة ادهشتهم . كنا حضّرنا خطابا على التناوب «أل اليمون» (٢) . أعتقد ان كثيرا من القراء لا يعرفون معنى هذه الكلمة وأنا كذلك لم اكن أعرفها لكن (فيديريكو) الذي كان دائما مليئا بالابداعات والاملوحات والنوادر والخواطر شرح لي ذلك فقال :

«اثنان من مصارعي الثيران يصارعان في الوقت نفسه وبمعطف واحد وحيد . ان هذه الطريقة في المصارعة هي أخطر تجربة في فن مصارعة الثيران ، ولذا فقلّما تُرى في حلبات المصارعة . لا تُرى الا مرة أو مرتين كل قرن ولا يمكن ان يؤديها الا مصارعان أخوان او ان لهما دما مشتركا ، وهذا ما يسمى عندنا في اسبانيا بالمصارعة على «اليمون» . وهذا ما سنقوم به ، انت وأنا ، في خطاب نلقيه على المحتفلين بنا» .

وهذا ما صنعناه ، وما من احد من الحضور كان يعرف هذا الاسلوب

---

٢ ــ ليمون : اصل الكلمة عربي ، الليمون ، وال «اليمون» اي على الليمون ، هو نوع من اللعب يقوم به الاطفال وهم يغنون ويرددون هذه الكلمة بالتناوب ، وهو كذلك مــا يشرحه (نيرودا) والمصارعة اخذته من لعبة الاطفال هذه .

في المصارعة او المخاطبة . حين وقفنا لكي نشكر مدير النادي على هـذا التكريم ، وقفنا معا في الوقت نفسه كأننا مصارعا خطاب واحد . بما أن الوليمة قد قدمت على موائد صغيرة منفصلة ، بعضها يبعد عن بعض فان (فيديريكو) كان في طرف وانا في الطرف الآخـــر ، ولهذا فان الناس الجالسين قربي كانوا يشدّونني من طرف سترتي معتقدين انني على خطأ وأن المتكلم الان هو (فيديريكو) ، والشيء ذاته جرى لفيديريكو في الطرف الآخر من القاعة . شرعنا في الوقت نفسه بالخطاب فقلت انا «سيداتـي» وتابع (فيديريكو) و«سادتي» وهكذا .اخذنا نتناوب وتتشابك جملنا الـى درجة ان هذه الجمل بدت وكأنها نص وحيد متناسق مترابط الى ان ختمنا كلامنا . ذات الخطاب كان مخصصا ومهديـــا الى (روبين داريّـــو Ruben Dario) (٣) لاننا ، (فيديريكو) وانا ، كنا نبجـل (روبين داريو) باعتباره واحدا من عظماء مبدعي اللغة الشعرية في اللغة الاسبانية ، دون ان نتهم في اننا «محدثون» (٤) Modernistas . وإليكم نص الخطاب :

نيرودا : سيداتي ...

لوركا : .... وسادتي : ثمة في فن مصارعة الثيران طريقـــة تدعى :

« المصارعة على «اليمون» » ، في هذه الطريقة يصارع اثنان معا مختلسا احدهما جسد الآخر ، آخذين بالدثار ذاته .

نيرودا : (فيديريكو) وانا ، مربوطين بسلك كهربائي ، سوف نتناوب كـــي نجيبكم على هذا الاستقبال الحار .

لوركا : انها لعادة نبيلة في مثل هذه الندوات ان الشعراء يعرضون كلمتهم الحية ، سواء أفضية كانت أم خشبية ، ويحيُّون بصوتهم الخاص زملاءهم وأصدقاءهم .

---

٣ ــ روبين داريو : هو شاعر من «نيكراغوا» بأمريكا الوسطى (١٨٦٧ ــ ١٩١٦) .

٤ ــ محدثون : من ينتمون الى مذهب ادبي عرف باسم «الحداثة» Modernismo وقد انتشر هذا المذهب في اسبانيا وأمريكا اللاتينية في مطلع هذا القرن ، وكان (داريو) زعيما لهذا المذهب .

نيرودا : لكننا الآن سنبعث فيما بيننا رجلا ميتا ، نديما ارمل ، داكنا في دياجير ميتة هي أكبر ميتة ، انه أرمل الحياة ، ذاك الذي كان في ابانه وزمانه بعلا ماهرا ، سنختبيء تحت ظله المتوقد ، سنكـــرر اسمه حتى تقفز قدرته من الفناء والنسيان .

لوركا : اننا سنروح ، بعد ان نرسل تحياتنا في حنان طائر البطريق الى الشاعر الرقيق (امادو بيثار Amado Villar) ، سنروح نقذف فوق هذا السماط باسم عظيم ، متأكدين انه لا بد من ان تتكسر الاقداح ولا بد من ان تتناثر في الفضاء الشوك والسكاكين بحثا عن العين التي طالما اشتاقت اليها وحنّت ، وانه لا بد ان تلطخ هـذا السماط ضربة من بحر . نحن سنذكر اسم شاعر امريكا واسبانيا: (روبين) ....

نيرودا : (داريو) . لانه ، سيداتي ...

لوركا : وسادتي ....

نيرودا : اين هي ، في بوينس ايريس ، ساحة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو تمثال (روبين داريو) ؟

نيرودا : لقد كان يعشق الحدائق ، فأين هي حديقة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو حانوت الزهور والورود باسم (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين هي شجرة النفاح وتفاحات (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هي اليد القطعاء يد (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين ؟

لوركا : ان (روبين داريو) ينام في مسقط راسه : «نيكاراغوا» تحت اسده

المرمري الفظيع مثل هذه الاسود التي يضعها الاغنياء عند أبواب منازلهم .

نيرودا : أسد مطمور في مخزن لمن اسس الاسود ، أسد بلا نجوم لمن كان يمنح النجوم !

لوركا : لقد صوّر حفيف الغابة بكلمة نعت واحدة وكان مثل (فراي لويس الغرناطي Fray Luis de Cranada) (٥) رئيس لغات ، لقد صنع اشارات نجمية بالليمون ورجل الأيل ، والرخويات المليئة بالرعب والابد ؛ ووضعنا على البحر بزوارق والظلال في بآبيء عيوننا ، وشاد منتزها هائلا من جن (٦) فوق اكثر مساء رمادي امتلكته السماء ، وحيئى ندأ لندّ ريح الجنوب الداكنة ملء رئتيه ومدى صدره كأنه شاعر رومانطيكي ، ووضع يدا فوق تاج العمود «الكورنتي» (٧) في شك تهكمي حزين من العهود كلها .

نيرودا : ان اسمه لجدير بالذكر في اتجاهاته الجوهرية؛ بآلام قلبه الرهيبة، بارتيابه المتوهج ، بهبوطه الى متاهات جهنم ، بصعوده الى قلاع الشهرة ، بنعوته ؛ نعوت شاعر كبير ، منذ ان كان والى الأزل ، ولا بد من ذكره .

لوركا : لقد علّم ، كونه شاعرا اسبانيا ، قدماء المعلمين وعلّم الاطفال ، بشعور من العالمية والكرم لا نجدهما في الشعراء الحاليين، لقد علّم (بايه ـ انكلان Valle Inclàn) و(خوان رامون خيمينيث)

---

٥ ـ فراي لويس الغرناطي : كاتب وشاعر اسباني ولد في غرناطة (١٥٠٤ ـ ١٥٨٨) .

٦ ـ جن : هكذا في الاصل gin وهي كلمة لا توجد في قاموس المجمع الملكي للغة الاسبانية ، قد تكون ما قيدناه او خمر «الجن» المعروف او شيئا آخر ، وقد سألنا عنها المختصين فلم يهتدوا الى معناها في هذا النص .

٧ ـ الكورنتي : نسبة الى جزيرة «كورينتو» Corinto باليونان .

٨ ـ بايه ـ انكلان Ramon del : كاتب اسباني معروف (١٨٦٩ ـ ١٩٣٥) .

والاخوين (ماتشادو Machado) (٩) وكان صوته ماء وملح بارود، في اخدود اللغة الموقرة . لم يكن للغة الاسبانية منذ زمن (رودريغو كــارو) الى زمـــن الاخوين (أرخينسولا) (١٠) او السيـــد (خوان ارغويخو) (١١) ، أعياد كلمات ، اصطدامات حـــروف ، اضواء وصيغ مثلما كان لها في (روبين داريو) . لقد تنزه (داريو) من منظر (بيلاثكيث Vilazquez) (١٢) ومجمرة (غويا (١٣) وكآبة (كيبيدو) حتى لون الفلاحات، «المايوركيات» (١٤) التفاحي الخفي ، في ارض اسبانيا كما في ارضه نفسها .

نيرودا : لقد اتت به الى تشيلي دوّامة بحر الشمال الساخن فتركه هناك البحر ، مهجورا على الشاطيء القاسي المسنن وكان المحيط يلطمه بازباد واجراس وكانت ريح «بالبارائيسو» السوداء تملأه بملح ذي جرس ورنين ، فلنصنع هذه الليلة تمثاله بالهواء يخترقه الدخان والصوت والظروف والحياة على منوال شاعريته المخترقة بالاحلام والالحـــان .

لوركا : لكنني أريد ان اضع فوق هذا التمثال الهوائي دمه مثل غصـــن مرجان يهزه التموج ، أعصابه على نمط مطابق لباقة أشعة ، راسه

---

٩ ـ الاخوان ماتشادو : هما الشاعران الاسبانيان (مانويل Manuel (١٨٧٤ ـ ١٩٤٧) و(انطونيو Antonio (١٨٧٥ ـ ١٩٣٩) ، وقد ترجمنا لهما وعنهما في كتابنــا المذكور ، ونحن الآن في صدد اعداد كتاب عن (انطونيو) بتكليف من وزارة الاعــلام العراقية ـ قيد الطبع ـ

١٠ ـ الاخوان ارخينسولا : هما الكاتبان الاسبانيان (بارتولوميه ليوناردو) (١٥٦٢ ـ ١٦٣١) شاعر ومؤرخ ، و(لوبيرثيو ليوناردو) (١٥٥٩ ـ ١٦١٣) شاعر وكاتب مسرحي .

١١ ـ خوان ارغويخو : شاعر اسباني (١٥٦٧ ـ ١٦٢٣) .

١٢ ـ بيلاثكيث : رسام اسباني شهير (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) .

١٣ ـ غوياFrancisco رسام اسباني معروف (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) .

١٤ ـ المايوركيات : نسبة الى جزيرة «مايوركا» وهي جزيرة اسبانية في البحـــر الابيض المتوسط .

الكوكبي حيث الثلج «الغونغوري» (١٥) اللجيني النقي يلونه ويدبجه طيران الطيور الصداحة ، عينيه الداكنتين الساهمتين الرقراقتين بمليون دمعة ، وكذلك عيوبه . ان الرفوف قد اكلها اللفت البري ، حيث يرن القصب فارغا من الناي ، زجاجات الكونياك فارغة من الثمالة المأساوية ، حيث ذوقه السيء اللذيذ وفضلاته المتهتكة التي تملأ بالانسانية جمهرة اشعاره . ان المادة الخصبة لشعره العظيم تظل منتصبة صامدة خارج الاشكال والصيغ والمهاميز .

نيرودا : اننا : (فيديريكو غاربيا لوركا) ، اسبانيّا ، وايثاي ، نشيليّا ، نوجه انظار المسؤولية في هذه الليلة الرفاقية نحو هذا الظل العظيم الذي غنى اعلى مما غنّينا وحيّى بصوته العبقري هذه الارض الارجنتينية التي نطأها .

لوركا : أننا ؛ (بابلو نيرودا) ، تشيليّا ، وايثاي ، اسبانيّا ، قد توافقنا في اللغة وفي الشاعر النيكراغوي الارجنتيني الشيلي الاسباني العظيم : (روبين داريو) .

نيرودا ولوركا : تكريما له وتمجيدا نرفع كؤوسنا لنشرب نخبه .

اذكر اني ذات مرة ، تلقيت من (فديريكو) دعما مفاجئا في مغامرة هزلية ـ فلكية ـ فلقد دعانا الى عشاء وقضاء ليلة صاخبة مليونير من هؤلاء الذين لا يمكن ان تنتج أمثالهم الا الارجنتين او الولايات المتحدة . كان هذا المليونير رجلا متمردا عصاميا استطاع ان يجمع حظا من المال عن طريق صحيفته الواسعة الانتشار ذات التأثير المهم في الاوساط جميعها ، كانت داره الفسيحة المحاطة بحديقة واسعة تجسد أحلام غني جديد يحب التطبيل والتزمير . المكتبة ليس فيها الا الكتب القديمة التي كان يشتريها برقيا من المزادات التي كان يقيمها من حين الى حين اصحاب مكتبات اوروبيون ، وهذه المكتبة بالاضافة الى سعتها كانت طافحة عامرة . لكن ما هو اكثر فخفخة وفخامة كان سطح قاعة القراءة العظيمة هذه فقد كانت

---

١٥ ـ الغونغوري : نسبة الى (غونغورا) وهو شاعر اسباني (١٥٦١ ـ ١٦٢٧) .

مفروشة كلها بجلود نمور رقطاء ، مخاط بعضها الى بعض حتى تبدو وكأنها سجادة واحدة ضخمة مديدة . عرفت ان لهذا الرجل في افريقيا وفي آسيا وفي الامازون اشخاصا مهمنهم هي حصد جلود النمور الاراقط والأيائل والوعول والقطط الرائعة الخلابة التي كانت تلتمع بقع من بعضها تحت قدمي في هذه المكتبة الفاخرة .

هكذا كانت الاشياء عليها في دار الشهير بـ (ناتاليو بوتانا) رأسمالي قدير مسيطر على الراي العام في بونوس ايريس . (فيديريكو) وانا جلسنا حول المائدة على جانبي صاحب الدار المليونير ، وجلست مقابلنا شاعرة طويلة شقراء خفيفة الظل والدم صوبت عينيها الخضراوين خلال الاكل اليّ اكثر مما صوبتهما الى (فيديريكو) . كان هذا الاكل مؤلفا من عجل ضخم حُمل بكامله الى الجمر والرماد على نعش هائل ، وكان المشيعون الذين حملوه على أكتافهم هم اربعه عشر راعيا من رعاة البقر . كانت الليلة زرقاء مليئة بالنجوم بتسكل غاضب نزق ، وعطر المشوي بجلده ، اختراع رفيع للارجنتينيين ، يمتزج بنسيم السهوب ، بأشذاء البرسيم والنعناع على وشوشة آلاف الجداجد والاشراغ .

وقفنا بعد الاكل واقتربنا ، أنا و(فيديريكو) الذي كان يبتهج لكل شيء ويبتسم لكل شيء ، من الشاعرة ، ثم ابتعدنا سوية نحن الثلاثة باتجاه المسبح المضاء هناك ، (فيديريكو) كان يسير أمامنا ولم يكن يدع الضحك والكلام فقد كان سعيدا وهذا طبعه وهذه عادته فلقد كانت السعادة جلده ، بشرته .

كان هناك برج عال يطل على المسبح ، وكان بياضه المتلألىء يلتمع تحت الانوار الليلية .

صعدنا حتى اعلى مرأى في البرج .

هناك بقينا نحن الشعراء الثلاثة ذوي الاساليب المختلفة ، منفصلين عن العالم ، عين المسبح الزرقاء تبرق من تحت ، من بعيد تسمع انغام القيثار وأغاني الحفلة ، من فوق يكاد يمسك الليل ذو النجوم القريب الداني برؤوسنا ليغرقنا في أعماقه .

حضنتُ الفتاة الشاعرة الطويلة الذهبية فعرفت حين قبّلتها أنها امرأة مغتلمة ناضجة ومجربة . أمام دهشة (فيديريكو) انبطحنا ارضا في ذلك المرأى وما ان بدأت بتعرينها من ملابسها قطعة قطعة حتى لمحت فوقنا عيني (فيديريكو) مختلتين مضطربتين تنظران وهما لا تصدقان ان ما يجري ، يجــري .

ــ ابعد عنا ، امش ، اذهب من هنا ، خذ بالك من أن يصعد على الدرج احد من الناس ، صرخت به .

بينما كانت الاضحية الى السماء ذات النجوم والى (افروديت) الليلية تستهلك ، تستنفذ ، هناك في اعلى البرج ، ركض فيديريكو فرحا لتأدية مهمته ؛ مهمة قواد وناطور ، لكنه هرول كثيرا وكان حظه سيئا في هــذه المهمة ، فتدحرج عبر درج البرج المعتم فكان علينا ان نخف : انا وصدقتي، لمساعدته ولم يكن الامر سهلا . وظل (فيديريكو) يعرج خلال خمسة عشر يومــا .

(ميغيل ايرنانديث Miguel Hernandez) (١٦)

لقد مكثت زمنا طويلا في قنصلية تشيلي ببونس ايريس . ثم نقلت في بداية عام ١٩٣٤ الى قنصليتنا في برشلونة باسبانيا . كان السيــــد (توليو ماكييرا) هو رئيسي في عملي الجديد اذ انه كان قنصلا عاما لتشيلي في اسبانيا . كان هذا الرجل احسن موظف ممن عرفتهم ، تأدية لواجبه، كان صارما حازما مشهورا بأنه نفور غضوب ولكنه كان يعاملني بشكــــل ممتاز في طيبة وتفهم وود .

لقد اكتشف السيد (توليو) بسرعة اني كنت اضرب واطرحُ فــــي

---

١٦ ــ ميغيل ايرنانديث : هو شاعر اسباني مشهور (١٩١٠ ــ ١٩٤٢) ترجمنا له ومنه في كتابنا المذكور .

صعوبات كثيرة وتعثرات جمة واني ما كنت احسن التقسيم (ابدا ما استطعت أن اتعلم هذا التقسيم اللعين) ، عند ذلك قال لي :

ــ (بابلو) ، يجب ان تعيش في مدريد ، هناك الشعر ، هنا في برشلونة ثمة هذه الضربات والطرحات والتقسيمات الرهيبة التي لا تحبك وانا استطيع ان اكتفي بنفسي في هذا الامر .

حين وصلت الى مدريد وقد غدوت في ليلة وضحاها وبفن الخفة قنصلا لتشيلي في عاصمة اسبانيا ، تعرفت فيها على اصدقاء (فيديريكو غارثيا لوركا) و(رفائيل البرتي) جميعهم . كانوا كثيرين . خلال بضعة ايام واذ بي أصبح شاعرا اسبانيا آخر بين الشعراء الاسبان . طبعا نحن الامريكان مختلفون عن الاسبان ، اختلافا يبرز دائما في افتخار او خطأ من قبل هذا الفريق او ذاك .

كان اسبانيو جيلي اكثر مودة واكثر تضامنا واكثر بهجة مما هم عليه زملائي في امريكا اللاتينية . تأكدت في الوقت نفسه اننا نحن كنا اكثر عالمية ، اكثر تمثلا ومعرفة للغات اخرى وثقافات اخرى . فلقد كان عدد الذين يعرفون اللغات الاجنبية من بينهم جد قليل وما كانوا يتكلمون الا اللغة القشتالية . حين جاء (ديسنوس) و(كريفيل) الى مدريد ، كان عليّ ان اقوم بالترجمة بينهما وبين الكتاب الاسبان .

كان احد اصدقاء (فيديريكو) و(رفائيل) هو الشاعر الشاب (ميغيل ايرنانديث) . لقد عرفته حين جاء وهو ينتعل نعلا مصنوعا من خيوط القنب ويلبس سروالا فلاحيا محاكا من نسيج صفيق ، من اراضي بلده «اوريويلة» Orihuela حيث كان فيها راعي عنز . أنا نشرت له في مجلتي «كاباثو فيرده» Caballo Verde (١٧) أشعاره فكانت تبهرني بوميضها وبريقها وغزارتها .

كان (ميغيل) فلاحا جدا الى درجة انه كانت تشتمّ منه رائحة التراب ،

---

١٧ ــ كابايو فيرده : معناها ، الحصان الاخضر .

له وجه من قطعة سكّر ، من كعك ، ومن بطاطا ، يستخرج في شروشه ويتقلع مع جذوره ويظل محتفظا بنضارته وورنق ما تحت التراب .

كان يعيش ويكتب في منزلي . لقد اثر به شعري ذو الآفاق الامريكية والأبعاد الاخرى فراح هذا الشعر يبدله ويغيره .

كان يروي لي حكايا أرضية عن حيوانات وعصافير . كان هذا الكاتب الطالع من الطبيعة مثل حجر لم يُمَسّ من قبل في عذرية غابية وقـــوة حيوية جارفة . كان يحكي لي عن مدى الروعة والتأثير والدهشة حين يضع المرء سمعه فوق بطن العنزة النائمة فيسمع جلبة الحليب الذي يصل الى الضروع ، الحفيف السري الذي ما استطاع احد سماعه الا ذاك الشاعر ؛ شاعر العنز .

كان ، مرات اخرى ، يكلمني عن شدو العنادل. كان الشرق الاسباني، موطنه ، مليئا ببيارات البرتقال المزهرة وبالعنـــادل . بما انه في بلدي لا يوجد هذا العصفور ، هذا المغني الرفيع فان المجنون (ميجيل) احب ان يعطيني اكثر صورة تعبيرية تشكيلية عن حيوية هذا الطائر فتسلق شجرة في الشارع حتى بلغ الغصن الاخير تم اخذ يصفر ويزغرد ويغرد مثـــل عصافير بلده مسقط رأسه ، مثل العنادل الحبيبة اليه .

لم يكن عنده ما يعتاش به ولذلك بحثت له عن عمل . لقد كان صعبا في تلك الاوقات ايجاد عمل لشاعر في اسبانيا. في النهاية اهتم بالموضوع رجل «فيكونت» كان موظفا عاليا في وزارة الخارجية واجابني بأنه موافق على تعيين (ميجيل) في منصب من المناصب وانه أعجب بأشعاره التـــي قرأها مليا وان الامر الان يتوقف على (ميغيل) اذ ان عليه ان يقول ما هو المنصب الذي يرغب به كي يصدروا قرار التعيين توّا . طربـــا (١٨) قلت للشاعر :

---

١٨ ــ طربا : في الاصل Alborozado ، وهي مشتقة من الكلمة العربية، البروز al borozo ومن معانيها بالاسبانية ما قيدناه .

ـ (ميغيل) ، ها ان لك مصيرا وحظا . ان «الفيكونت» سيوظفك . ستصبح موظفا عاليا . قل لي ما هو العمل الذي ترغب ان تشغله حتى يصدروا قرار تعيينك .

ميغيل اطرق مفكرا . تغطى وجهه ذو التجعيدات الكثيرة المبكرة عن موسمها ، بغشاء من الترويات والتأملات . مرت الساعات ولم يجبني الا في المساء فقال لي وعيناه تومضان كمن وجد حلا لمشاكل حياته :

ـ الا يستطيع الـ «فيكونت» هذا ان يتوسط فيجد لي قطيعا من العنز أرعاه هنا قرب مدريد ؟.

ان ذكرى (ميجيل ايرنانديث) لا يمكن ان نفلت من جذور قلبي . شدو العنادل الشرقية (شرق اسبانيا) وأبراجها النغمية المنصوبة بين العتمة والازهار (١٩) كانت بالنسبة له حضورا متسلطا على عقله وجزءاً من مواد دمه ، من شعره الارضي الغابي الذي اندغمت فيه رائعات الشرق الاسباني؛ لونه ، شذاه ، صوته بغزارة الفتوة الرجولية القديرة وأريجها .

لقد كان وجهه وجه اسبانيا ، مصقولا بالنور ، متجعدا مثل ارض مفلوحة مزروعة بشيء حاسم من قمح ومن تراب . كانت عيناه المتوهجتان في هذا الميسم المحروق المتصلب على الريح (٢٠) ، شعاعين من قوة ومن حنان .

لقد رأيت مواد الشعر نفسها تخرج من كلماته لكنها الآن تنبثق من ضخامة جديدة ، من بريق غابي ، من أعجوبة الدم التليد الذي تمثل في

---

١٩ ـ الازهار : هكذا في الاصل **Azhares** وهي في الاسبانية زهر البرتقال المنتشر في شرق اسبانيا .

٢٠ ـ الريح : اشارة الى ديوان الشاعر «رياح الشعب» .

ابن (٢١) . اني لاستطيع الجزم في انني خلال حياتي كلها ؛ حياة شاعر رحالة ، ما رأيت ولم تعطني الحياة فرصة كي ارى ظاهرة شبيهة ، من نبوغ ومعرفة كهربائية شفهية ، بظاهرة (ميغيل ايرنانديث) .

((كابايو فيردا)) (حصان اخضر)

كنا نتقابل يوميا في منازل ومقاه على شكل مجموعة واحدة او مجموعات صغيرة مؤلفة من (فيديريكو) و(البرتي) الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل من الاشجار ، ندعوه **الغيل الضائع** ، والرسام (البرتو) وهو خباز من طليطلة كان اذ ّاك معلما في النحت التجريدي ، و(التولاغيرة) (٢٢) و(بيرغامين) (٢٣) والشاعر العظيم (لويس ثيرنودا) (٢٤) و و(بيثيننه اليكساندره) (٢٥) شاعر ذي مدى غير محدود ، والمهندس المعماري (لويس لاكاسا) . كنا نرحل من شارع «لا كاستّيانا» او من محلات البيرة عند «البريد» حتى نصل قرب بيتي ، الذي كنا ندعوه بيت الزهور ، في حي « ارغواييس » . كنا نهبط من الطابق الثاني لحافلة كبيرة كان يدعوها مواطني وابن بلدي العظيم (كوتابوس) سيارة اطفاء ، مجموعات صاخبة للاكل والشرب والغناء . اذكر من بين الشبان الزملاء في الشعر والسرور (ارتورو سر ّانو بلاخا) (٢٦)

---

٢١ ـ ابن : اشارة الى ابن الشاعر الوحيد ، وقد اهداه ابوه قصيدة وهو في سجنه، ترجمناها في كتابنا المذكور ص ١٤٨ ـ ١٥١ .

٢٢ ـ التولاغيره (مانويل Manuel) : شاعر اسباني (١٩٠٦ ـ ١٩٥٩) .

٢٣ ـ بيرغامين (خوسيه José) : كاتب اسباني ولد عام ١٨٩٧ .

٢٤ ـ لويس ثيرنودا : شاعر اسباني (١٩٠٢ ـ ١٩٦٣) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

٢٥ ـ بيثينتة اليكساندره : شاعر اسباني ولد عام ١٨٩٨ في اشبيلية ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ونحن في صدد اعداد كتاب عنه . حاز على جائزة نوبل للآداب لعام ٧٧ . ونلت انا جائزته عام ٧٨ .

٢٦ ـ ارتورو سرانو بلاخا : شاعر وناقد اسباني ولد عام ١٩٠٩ .

وهـــو شاعر ، و (خوسه كاباييرو) وهـــو رسام ، ذو حـــذق وبراعة ولطافة ، و(انطونيو اباريثيو) (٢٧) ، الذي وصل من الاندلس (٢٨) مباشرة الى بيتي ، وآخرين كثيرين لم يعودوا موجودين في المكان او لـــم يعودوا موجودين في الحياة بيد ان اخوّتهم تنقصني الآن بشكل حي كجزء من جسدي ومادة من روحي .

يا لمدريـد تلـــك ! كنت اغدو مع (ماروخا مايـّـو) الرسامـــة الجليقية عبر الاحياء السفلى لمدريد باحثين عن محلات بيـــع الحصر والحلفاء ، باحثين عن ازقة صانعي البراميل ودكاكين بائعي الحبال ونبحث ثم نبحث عن مواد اسبانيا الصلبة كلها ، مواد تجدل قلبها ، تفتل قلبهـا وتشدّه . ان اسبانيا لصلبة وقديرة تلوّحها الشمس الشاقولية وتخرج من سهولها وسهوبها الشرر وتبني قلاع نور وســـط العجاج . ان انهار اسبانيا الحقيقية الوحيدة لهم شعراؤها، (كيبيدو) بمياهه الخضراء العميقة ذات الأزباد السوداء ، (كالديـــرون) (٢٩) بغدرانـــه التي تغنـــي ومقاطع حروفة التي تنشد ، الاخوَان (ارخينسولا) الشفـّافان الفراتان ، (غونغورا) نهر جواهر وحلي .

لقد شاهدت (بايّه ـ انكلان) مرة واحدة فقط ، كان جـــد نحيل ، بلحيته البيضاء اللامنتهية ، بدا لي وكأنه يخرج من بين صفحاته واوراق كتبه نفسها وقد طبع بها فجاء بلون صفحة صفراء .

لقد تعرفت على (رامون غومث دي لا سيرنا) (٣٠) في سردابه ب «بومبو» ومـــن بعد رايته فـــي بيته . لا استطيـــع ابدا ان انسى صـــوت (رامون) الجهوري وهو يوجه ويقود ، من مكانـــه في المقهى ، الحديث

---

٢٧ ـ انطونيو اباريثيو : شاعر اسباني هاجر الى امريكا عام ١٩٣٦ .
٢٨ ـ الاندلس : هو الاقليم الجنوبي من اسبانيا .
٢٩ ـ كالديرون de la Barca : كاتب اسباني معروف (١٦٠٠ ـ ١٦٨١) .
٣٠ ـ رامون غوميث دي لا سيرنا : كاتب اسباني (١٨٨٨ ـ ١٩٦٣) .

والضحك ، الافكار والدخان . ان (رامون غومث دي لاسيرنا) هو في رأيي احد عظماء كتّاب لغتنا ، وعبقريته لها من العظمة الملونة المتنوعة مـــا لـ (كيبيدو) و(بيكاسو) (٣١) . ان كل صفحة من صفحات (رامون غوميث دي لا سيرنا) تتمعن مثل ابن مقرض في ما هو فيزيائي وفيما هو ما ورائي، في الحقيقة وفي الطيف ، وما يعرفه وما كتبه عن اسبانيا لم يقله احـــد سواه . لقد كان مجمع عالم سرّي ، قد غير نحو اللغة بيديـــه الذاتيتين الاصيلتين ، بعد ان ضمخ اللغة بآثار انامله التي لا احد يجرؤ بعد علـى محوهـــا .

لقد رأيت السيد (انطونيو ماتشادو) عدة مرات وهو جالس في مقهاه ببدلته السوداء كبدلة كاتب عدل ، صامتا جدا ورصينا جدا ، عذبـــا متجهما كشجرة عتيقة في اسبانيا . كان يقول عنه الهمزة اللمزة (خوان رامون خيمينيث) ، الطفل الشيطاني القديم للشعر ؛ ان السيد (انطونيو) يغدو دائما وهو مليء بالرماد ، وانه ما كان يحمل في جيوبه الا اعقـــاب سجاير .

كان (خوان رامون خيمينيث) وهو شاعر ذو لمعان كبير ، هو الذي تكلف بإخباري عن الحسد (٣٢) الاسباني الخرافي مجسدا فيه . لم يكن هـــذا الشاعر العظيم بحاجة ان يحسد احدا من الناس او يغبطه في نعمة نظرا لان ابداعه الشعري كان بريقا كبيرا بدأ مع غموض القرن العشرين ، كان يعيش مثل ناسك مزيف ، يجرح وهو في مخبئه كل من يظن انه يغطيه بظلاله او يقلل من شأنه وشهرته .

كان الشعراء الشبان ــ (غارثيا لوركـــا) ، (البرتي) ، (خورخـــــه غيين) (٣٣)، (بيدرو ساليناس)(٣٤)، مطاردين مضطهَدين من قبل هذا (خوان

---

٣١ ــ بيكاسو Picasso, Pablo : الرسام الاسباني الخالد (١٨٨١ ــ ١٩٧٣) .

٣٢ ــ الحسد : هو من عيوب الاسبان ، وقد تكلم في ذلك كثير من كتّابهم ، وبخاصة (اونا مونو) .

٣٢ ــ خورخه غيين : شاعر اسباني ، ولد عام ١٨٩٢ ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكـور .

٣٤ ــ بيدرو ساليناس : شاعر اسباني هاجر الى امريكا بعد الحرب الاهلية ومات هناك .

رامون) الشيطان الملتحي الذي كان كل يوم يرسل سهمه وسمه ضد هذا او ذاك من الشعراء . كان يكتب اسبوعيا ضدي في تعليقات ملتوية حلزونيـــة ينشرها كل يوم احد في صحيفة (الـ سول) El Sol (٣٥) .
لكنني آثرت أن احيا وأن أدعه يحيا ، فما رددت عليه بشيء البتة . لم أحب ــ ولا اجيب ــ على التهجمات الادبية .

وصل ذات يوم الى بيتي الشاعر (مانويل التولاغيره) الذي كان يمتلك مطبعة وكان عنده ميل لان يكون طابعا فيها هو بنفسه وحكى لي انه ينوي اصدار مجلة شعرية بديعة تمثل احسن ما في اسبانيا من شعر وأفضله .

ــ ليس ثمة الا شخص واحد يمكن له أن يدير هذه المجلة ــ قال لي ــ وهذا الشخص هو انت .

انا كنت مخترعا ملحميا لمجلات سرعان ما تركتها او تركتني . فـــي عـــام ١٩٢٥ اسست مجلـــة دعوتها « حصـــان ذو رحـــال » .
كان ذاك الزمن هو الزمن الذي كنا نكتب فيه بـلا علامات وقف ولا فواصل ولا تنقيط . في ذلك الزمن كان (هوميرتو دياث كاسانوفا) يستعمـــل «سويتر» بعنق سلحفاة ، جراة كبيرة بالنسبة لشاعـــر في تلك الفترة ، شعره كان جميلا ناصعا وسيبقى هكذا جميلا ناصعا الى الابد ، (روساميل ديـل بايه) كان يرتدي ثوبـــا اسود وبشكل اســـود من القبعـــة حتـى الحذاء كما كـــان فرضا على الشعـــراء اذ ّاك ، أذكر هذيـــن الزميلين بصفتهما مشاركين فعّالين . أعرف اني انسى آخرين . لكن عَدْو حصاننا ذاك هز الفترة والعصر هزّا .

ــ اجل ، يا (مانوليتو) (٣٦) ! اني اقبل بإدارة المجلة .

كان (مانويل التولاغيره) طابعا مجيدا ، يداه كانتا تغنيان صناديـــق الحروف بخصائص فياضة رائعة . (مانوليتو) كان يشرّف الشعر بشعره وبأيديه اللانكيتين العاملتين . لقد ترجم وطبع في جمال فريد «أدونيس» لـ (شيلي) (٣٧) ، مرثاة لـ (جون كيتس) (٣٨) ، طبع ايضا «حكاية خينيل»

---

٣٥ ــ السول : معناها ، الشمس .
٣٦ ــ مانوليتو Manolito : هو تصغير تحبب لمن يسمى Manolo .
٣٧ ــ شيلي : الشاعر الانجليزي المعروف (١٧٩٢ ــ ١٨٩٦) .
٣٨ ــ جون كيتس : الشاعر الانجليزي المعروف (١٧٩٥ ــ ١٨٢١) .

(La Fabula del Cenil ل (بيدرو اسبينوسا Pedro Espinosa)(٣٩)
كم من بريق كانت تودّع مقاطع القصيدة المذهبة المطلية بالميناء في تلك المطبعة ذات الطراز الواحد ، الجليلة التي كانت تبرز الكلمات منصهرة من جديد في البوتقة .

اخرجت من مجلتي «حصان اخضر» خمسة أعداد متقنة في جمال لا يشك فيه ، كان يعجبني ان أرى (مانوليتو) وهو دائم الضحك مفعم الابتسامة وهو يصفّ الحروف ، يرتبها وهو من بعد يدفع بالقدم الآلة الصغيرة الورقية. احيانا كان يحمل نسخ الطبعة في عربة طفلته (بالوما)(٤٠). كان المارة يطرونه ويثنون عليه معتقدين ان في العربة الطفلة الصغيرة :

ـ يا للأب الجدير بالتقدير والاعتبار ! كيف يعبر وسط حركة المرور الشيطانية بهذه المخلوقة حانيا على ابنته حادبا !

لقد كانت المخلوقة هي الشعر الذي يمضي في رحلة على ظهر «حصانه الاخضر» . نشرت المجلة أول قصيدة جديدة لـ (ميغيل ايرنانديث) وطبعا ، قصائد (فيديريكو) و(ثيرنودا) و(اليكساندره) و(غيين) (الطيّب : الاسباني) (٤١) . كان (خوان رامون خيمينيث) المريض باختلال عصابي لاذع ، يستمر في توجيه النبال الاحادية (كل يوم احد) .

العنوان لم يعجب (رفائيل البرتي) :

لماذا يجب ان يكون الحصان اخضر ؟ «حصان احمر» ، يجب ان تسمى المجلة .

---

٣٩ ـ بيدرو اسبينوسا : شاعر اسباني (١٥٧٨ ـ ١٦٥٠) .

٤٠ ـ بالوما : معناها ، حمامة ، وهي الان صديقة لي وزميلة في جامعة مدريد وفي جمعية الادب المقارن التي أسست حديثا .

٤١ ـ (الطيّب : الاسباني) : القوسان من المؤلف ، وهو هنا يميز (خورخه غيين) عن الشاعر الكوبي (نيكولاس غيلين Nicolas Cuillen) الذي لم تكن علاقته به حسنة.

لم اغير لون الحصان ، لكن (رفائيل) وانا ابدا ما تخاصمنا ، لهـــذا السبب ولا لاي سبب آخر ، ثمة في العالم اماكن للاحصنة جميعها وثمة شعراء من الوان قوس القزح كلها .

لقد مكث العدد السادس من «حصان اخضر» في شارع «بيرياتو» دون تصفيف ولا تخييط ولا ترتيب . كان هذا العدد مخصصا ل (خوليو ايريرا اي ريسّيغ Julio Herrera y Reissig) ‹٤٢› . وكان قد كتب هذه النصوص تكريما له وتعظيما الشعراء الاسبان ، فقبعت هناك هـــذه النصوص بجمالها دون ان تحبل ولا ان تلد . كانت المجلة ستظهر الى النور يوم التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، لكن في ذلك اليوم امتلأ الشارع بارودا ودخانا . جنرال غير معروف يدعى (فرانثيسكو فرانكو) ‹٤٣› قـــد تمرد على الحكم الجمهوري في محميته بأفريقيا .

الجريمة حدثت في غرناطة

وانا اكتب هذه السطور الآن ، تحتفل اسبانيا الرسمية باعوام كثيرة – جدا – من التمرد والعصيان. يستعرض القائد وهو يرتـــدي الملابس الذهبية والزرقاء ، محاطا بالحرس المغربي (٤٤) وعلى جانبيه سفير الولايات المتحدة وسفير انجلترا وآخرون كثيرون ، في هذه اللحظة بشوارع مدريد، القوات المسلحة ؛ قوات مسلحة مؤلفة في اغلبيتها من شبان فتيان مـــا عرفوا تلك الحرب ولا شهدوها .

---

٤٢ – خوليو ايريرا اي ريسيغ : شاعر من الاورغواي (١٨٧٥ – ١٩١٠) .

٤٣ – فرانثيسكو فرانكو : كان رئيسا للدولة الاسبانية ولد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٥ .

٤٤ – المغربي Moro : هي كلمة اطلقها الرومان على سكان شمال افريقيا ، وهي تطلق الآن على العرب جميعا ، ومن المعروف ان فرقة من الجنود المغاربة قد ساعدت (فرانكو) اثناء الحرب الاهلية ، ثم اتخذ منهم حرسه الخاص حتى عام ١٩٥٨ حين نشب النزاع بين اسبانيا والمغرب على «افني» .

اما انا فلقد عرفتها ؛ مليونا من الضحايا الاسبان ! مليونا من المنفيين الاسبان !. كان يبدو لي ان هذه الشوكة الدامية لن تمحى ابدا من ضمير الانسانية . لكن هؤلاء الفنيان الذين يسيرون الآن في العرض العسكري امام الحرس المغربي قد يجهلون حقيقة ذاك التاريخ الفظيع .

كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ . كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى (بوبني ديغلانه) متعهدا في السيرك الكبير «بريثه دي مدريد» . صرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الالعاب «الرياضية» فاقنعني ان اذهب الى السيرك وان اصطحب (غارثيا لوركا) معي لنتاكد من اصالة هذا الاستعراض الجميل . اقنعت (لوركا) واتفقنا ان نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة . كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات «ساكن الكهوف المبرقع» و«المارد الحبشي» و«انسان الغاب الشرير » .

تخلف (فيديريكو) عن الموعد . كان قد راح ليلقى حتفه . لم اره من بعد هذا ابدا . موعده كان مع مرده وسفاحين آخرين . هكذا بدات حرب اسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدات بالنسبة لي باختفاء شاعر .

واي شاعر ! ابدا لم ار شاعرا مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية ، القلب المجنح والشلال الشفاف . لقد كان (فيديريكو غارثيا لوركا) العبقري المسرف في وحيه وإلهامه ، بؤرة الفرح التي تشع كالكوكب بسعادة الحياة. كان نابغة وفكيها ، كونيا وريفيا ، موسيقيا فذا ، ممثلا رائعا ، فزعا ومعتقدا بالخرافات ، لامعا ونبيلا ، كان خلاصة اعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجا عربيا ــ اندلسيا ينير ويفوح مثل ايكة ياسمين على مسرح اسبانيا، كان كل هذا ، يا ويلتي لقد اختفى ذلك المسرح فاواه واه .

لقد كان يفتنني (غارثيا لوركا) بقدرته العظيمة على الاستعارات والمجازات وكان يهمني ان اقرا كل ما كان يكتبه وهو كان يطلب مني ان اقرا له آخر ما كتبته من قصائد ؛ وحين اكون في منتصف القراءة يقاطعني صارخا : «لا تستمر . لا تستمر ، اذ انني اتاثر بك» .

لقد كان (لوركا) في المسرح وفي السكون ، وسط الجمهرة وفي الانزواء ، يضاف الجمال ويزيد الروعة . ابدا ما رايت مثله انموذجا لهذا السحر العظيم في يديه ، قط ما كان لي اخ اكثر منه بهجة . كان يضحك ، يغني ، يموسق ، ينغم ، يقفز ، يبدع ، يخترع ، يطلق شررا. يا له من مسَكين ، فلقد كانت له هبات العالم كلها وكما كان صائغ ذهب، خلية نحل من الشعر العظيم ، كان يسرف في نبوغه ، يستنفد قريحته .

ـ اصغ ـ كان يقول لي ، وقد اخذني من ذراعي ـ أفترى هذه النافذة ؟ أفلا تجدها «شورباتيلية» chorpatélico ؟.

ـ وماذا تعني كلمة «شورباتيلية» ؟

ـ وانا كذلك لست ادري ، لكن علينا ان نميز بين ما هو «شورباتيلي» وبين ما ليس هو «شورباتيليا» وبدون هذا يكون المرء ضائعا . انظر الى هذا الكلب ، يا له من «شورباتيلي» !.

او انه كان يحكي لي انه ذات مرة دُعي الى مدرسة للاطفال الصغار في غرناطة كانت تحتفل بإحياء ذكرى «الكيخوتة» (٤٥) ، وحين وصل الى قاعة الاحتفال ، غنى الاطفال جميعهم تحت ادارة المديرة :

دائما دائما سيحتفل
من الأبد الى الاجل
بهذا الكتاب المفسر المتين
من لدن (ف. رودريغيث مارين) (٤٦) .

القيت ذات مرة محاضرة عن (غارثيا لوركا) ، وذلك بعد عدة سنوات من موته ، فسألني احد الحاضرين :

---

٤٥ ـ الكيخوته Quijote : هو كتاب (ثيرفانتيس Cervantes) الخالد .

٤٦ ـ ف. رودريغيث مارين : هو كاتب وعلاّمة اسباني (١٨٥٥ ـ ١٩٤٣) . وحرف الروي في الاصل على النحو التالي : ا.ب. ا.ب.

ـ لماذا تقول في قصيدة «نشيد الى (فيديريكو)» انه من اجله «تدهن المشافي باللون الازرق» (٤٧) ؟.

ـ انظر ، ايها الرفيق ـ أجبته ـ ، ان توجيه مثل هذه الاسئلة الى شاعر هو كمن يسأل النساء عن أعمارهن .

ليس الشعر بمادة ساكنة (استاتيكية) بل هو تيار متدفق الى حد انه احيانا يفلت من يدي خالق هذا الشعر ذاته . ان مادة الشعر الخام هي مصنوعة من عناصر هي هي وفي الوقت نفسه ليست اياها ، من اشياء موجودة وغير موجودة . على كل حال سأحاول ان أجيبك في صراحة وصدق : ان اللون الازرق بالنسبة لي هو اكثر الالوان جمالا . ان للون الازرق انحناءة الفضاء الانساني، مثل القبة السماوية، نحو الحرية والفرح. ان حضور (فيديريكو) ، سحره الشخصي ، كانا يفرضان جوا من البهجة حوله . يريد ان يقول بيت شعري هذا انه حتى المشافي ، حتى حزن المشافي ، يمكن لها ان تستحيل بتأثير من رقيته وفتنته ، بغتة ، الى ابنية جميلة زرقاء .

لقد كان لفيديريكو ادراك مسبق بموته . حين عاد ذات مرة من جولة مسرحية قام بها ، ناداني كي يقص عليّ حادثة غريبة جدا . كان قد وصل مع فناني فرقته « لا برّاكا » (٤٨) الى قرية نائية جدا في «قشتالة» ، فنزلوا في جوار القرية وهناك خيموا . ما استطاع (فيديريكو) ان ينام تلك الليلة وقد اضناه المسير وكان مرهقا مشغول البال بالرحلة وهموم الفرقة ومشاكل السفر . حين تفتّق الفجر قليلا نهض من فراشه وخرج كي يقوم بجولة وحده عبر الحقول المترامية هناك ، كان ثمة برد لاذع كحد السكين من هذا البرد الذي تُعدّه «قشتالة» للمسافر والعابر والدخيل . كان الضباب ينطلق سحائب سحائب بيضاء تحيل كل شيء الى مداه الشبحي الرهيب .

---

٤٧ ـ هذه القصيدة تشغل الصفحات (٧٧ ـ ٨٣) من كتابنا ، بابلو نيرودا ، مختارات شعرية ، منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٤ .

٤٨ ـ لابرّاكا : مستاهد ، الكوخ .

ما كان ثمة الا حاجز كبير من حديد متاكسد ، تماثيل مهشمة ، أعمدة مكسرة فلاقا فلاقا بين اوراق الاشجار اليباس الهشة الموشوشة. توقف عند باب نطاق عتيق ، كان المدخل الى مزرعة فسيحة لدارة اقطاعية . كان الخلاء والخواء والوقت والبرد تجعل الوحشة اكثر تغلغلا واشد وهرة . شعر (فيديريكو) على حين غرة انه جزع هلع فزع مشدوه بما سيطلع من ذاك الشروق ، مشدود الى شيء غامض لا بد ان يحدث ، أن يقع في ذاك القفر . هناك جلس على تاج عمود ساقط .

جاء خروف حوليّ صغير ليقضم أطراف الاعشاب بين الاطلال والخرائب . كان ظهوره ظهور ملاك صغير من ضباب يؤنس الوحشة ، يسمر عشبا عند انشقاق عمود الصبح ، كان وقوعه وقوع زهرة حنان فوق وحدة الربع اليتيم ، فشعر الشاعر ان هذا السامر يؤنسه ويصحبه .

فجاة واذ بقطيع من الخنازير يجتاح الحظيرة . اقتربت اربع او خمس بهائم داكنة اللون ، خنازير شبه متوحشة ذات جوع جموح واظلاف صلدة.

(فيديريكو) حضر اذ ذاك مشهدا مفزعا مرعبا ، فلقد انقضت الخنازير على الخروف تعمل فيه أنيابها فقطعته اربا اربا والتقمته والشاعر يرتعد خوفا ، يرفضّ منه صليده .

هذا المشهد الدموي الوحشي جعل (فيديريكو) يأمر فرقة مسرحه المتجول ان تواصل المسير توّا وان تقلع راحلة عن ذاك المكان .

كان يقص عليّ (فيديريكو) هذه الحكاية الرهيبة وهو ما يزال ينتفض رعبا ، وذلك قبل ثلاثة اشهر من الحرب الاهلية . انا ادركت من بعد في وضوح جلي او غير جلي ان هذه الحادثة ما كانت الا عرضا مسبقا لتمثيلية مصرعه ، ارهاصا لمأساته التي لا تصدّق .

ان (فيديريكو غارثيا لوركا) لم يعدم رميا بالرصاص ، بل اغتيل . بديهيا ما كان يخطر على بال احد انهم سيقتلونه ذات يوم ، ما كان احد يفكر في ذلك . كان هو من بين الشعراء الاسبان الاكثر محبوبا الاكثر

معشوقا الاكثر شبها بطفل لما له من بهجة رائعة . من كان يمكن له ان يظن ان ثمة فوق هذه الارض ، وبخاصة فوق ارضه ، مردة مسوخا قادرة على اقتراف جريمة غير مفسرة متل هذه !.

ان حدوث تلك الجريمة بالنسبة لي كانت اكثر حوادث ذلك الصراع الطويل الما . لقد كانت اسبانيا دائما مسرحا لمصارعين مجالدين ، ارضا ذات دماء كثيرة . ان ساحة مصارعة الثيران بقربانها واناقتها القاسية تعيد وقد وشّيَت وزخرفت بفرقة تمثيل متجولة ، ذلك الصراع القديـــم بين النور والظل .

ان (فراي لويس دي ليون) (٤٩) تسجنه محاكم التفتيش ، (كيبيدو) يموت في زنزانته ، (كولمبوس) (٥٠) يمشي والسلاسل في قدميه ، وكان المشهد الاكبر هو مستودع العظم في «الاسكوريال» (٥١) El Escorial كما هو عليه الآن «النصب التذكاري للشهداء» (٥٢) ، والصليب يعلو فوق مليون من الاموات (٥٣) وفوق ذكريات مظلمة لا حصر لها .

كتابي عن اسبانيا

لقد مر الزمن . بدأنا نخسر الحرب . لقد صاحب الشعراء الشعب

---

٤٩ – فراي لويس دي ليون : شاعر وكاتب اسباني ولد في مدينة «ليون» León (١٥٢٧ – ١٥٩١) .

٥٠ – كولمبوس Colon Cristobal : مكتشف امريكا (١٤٥١ – ١٥٠٦) .

٥١ – الاسكوريال : هو دير في بلدة بهذا الاسم تقع على بعد اربعين كيلومترا مـــن مدريد ، وفيه مكتبة مشهورة .

٥٢ – النصب التذكاري للشهداء : أقيم هذا النصب تخليدا لشهداء الحرب الاهلية، وهو قريب من «الاسكوريال» .

٥٣ – يقتبس (نيرودا) هذا من بيت شعر للوركا ، وقد اقتبسه كذلك الشاعر المصري (عبد الرحمن الابنودي) في قصيدة يهديها الى (الوركا) فقمنا بترجمتها الى الاسبانيـــة ونشرناها في العدد الثاني من مجلة Mundo Arabe في بحث عن الادب المصري ما بين حرب حزيران ٦٧ وتشرين اول ٧٣ . وفوق النصب التذكاري هذا صليب كبير كذلك.

الاسباني في نضاله . (فيديريكو) كان قد اغتيل في غرناطة ، (ميغيل ايرنانديث) تحوّل من راعي عنز الى مناضل فعلي، كان ينشد أشعاره وهو في الزي العسكري في الخط الاول من المعركة النارية ، (مانويل التولاغيره) استمر في مطابعه . نصب مطبعة في حماة المعركة بالجبهة الشرقية ، فرب «خيرونا» في دير قديم . هناك طبع في شكل فريد من نوعه كتابي «اسبانيا في القلب» . اظن ان كتبا قليلة في تاريخ الكتب الغريب، كانت لها مثل ما كان لهذا الديوان من مخاض عجيب ومن مصير غريب .

فلقد تعلم الجنود في الجبهة صف حروف المطبعة ، لكن كان ينقصهم الورق . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . لقد كان خليطا غريبا ما صنعوه ، بين القنابل المتساقطة ، في أجيج المعركة . كانوا يقذفون بكل شيء الى الطاحونة من راية للعدو الى عباءة مدماه لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد غير المتآلفة فيما بينها ومع قلة خبرة الايدي الصانعة فقد خرج الورق بديعا جدا . ان ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة لهذا الكتاب تدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ذات الصناعة السرية . رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في «واشنطون» بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض اكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما ان طبع ديواني وجلّد حتى اخذت تتسارع هزيمة الجمهورية. لقد امتلأت الدروب التي تؤدي الى خارج اسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين . لقد كان هذا النزوح اشد الحوادث ايلاما في تاريخ اسبانيا .

مع هذه الحشود الراحلة الى المنفى كان الجنود الذين نجوا من فرقة الجبهة الشرقية يمضون مهزومين، وكان من بينهم (مانويل التولاغيره) وكذلك الجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا «اسبانيا في القلب» . ان كتابي هذا كان مفخرة هؤلاء الرجال الذين طبعوا شعري في تحدّ للموت . عرفت ان كثيرين منهم آثروا شحن الاكياس بالنسخ المطبوعة على شحنها بأغذيتهم وملابسهم . والاكياس على اكتافهم شرعوا بالمسيرة الطويلة باتجاه فرنسا .

لقد هوجم هذا الطابور الهائل من الهاربين الى المنفى بالقنابل التي كانت تساقطها الطائرات مئات من المرات . وهناك وراء الحدود ، في

فرنسا ، لاقى من نجا من هؤلاء الاسبان معاملة سيئة في المنفى . لقد قدمت النسخ الاخيرة من هذا الكتاب أضاحي في احدى المجامر وهكذا فان هذا الديوان المتوهج ولد ومات في وطيس المعركة .

لقد بحث (ميغيل ايرنانديث) عن ملجأ في السفارة التشيلية التي كانت خلال الحرب قد آوت عددا هائلا لا يقل عن اربعة آلاف من انصار (فرانكو) لكن السفير في ذلك الوقت وهو (كارلوس مورلا لينش) رفض ان يأوي الشاعر الكبير في سفارته ، مع انه كان يزعم انه صديق حميم له . بعد ايام قليلة اعتقل (ميغيل) وسُجن، ثم مات بالسل في زنزانته بعد ثلاث سنين من الاسر اذ ان العندليب لم يطق أصفاده وما قدر على تحمل وطأة أسره .

كان عملي القنصلي قد انتهى اذ ان الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبي بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

الحرب وباريس

وصلنا الى باريس . استأجرت بمشاركة (رافائيل البرتي) وزوجته (ماريا تيريسا ليون) شقة في حي «كواي دي لـ هورلوغ» وهو حي هادىء ورائع . كنت ارى قبالي «البونت نوف» وتمثال (هنري الرابع) وصيادي الاسماك الذين كانوا منتشرين على ضفتي نهر «السين» . خلف بيتنا كانت ساحة «دوفين» الكثيرة العروق تفوح برائحة كرائحة اوراق الشجر والمطاعم . . هناك كان يسكن الكاتب الفرنسي (اليجو كاربينتير)(٥٤) ، وهو واحد من اكثر الرجال الذين عرفتهم حبا بالحياد فلم يكن يجرؤ على ابداء الرأي حول اي شأن من الشؤون ، ولا حتى حول النازيين الذين كانوا يُغيرون على باريس مثل الذئاب الجائعة .

من على شرفتي ، من جانبها الايمن ، كنت المح ، منحنيا قليلا الى خارج

---

٥٤ ــ اليجو كاربينتور : ولد في كوبا عام ١٩٠٤ .

الشرفة ، أبراج «كونسيرجير» الكبيرة ، كانت ساعتها الكبيرة بالنسبة لي هي حد الحي الاخير .

لقد حزت لحسن الحظ على صداقة اثنين من اعظم ادباء فرنسا فكانا لي صديقين حميمين خلال سنين عديدة الا وهما (بول إيلـــوار) (٥٥) و(اراغون) (٥٦) . لقد كانا وما زالا كلاسيكيين غريبين في الملاحة والظرافة ذوي اصالة حيوية تضعهما الموضع الاكثر رنينا في غابة فرنسا . وهما في الوقت نفسه مساهمان حقيقيان راسخان في الاخلاق التاريخية . ثمــة قليلون من الاشخاص مختلفون متباينون فيما بينهم كتباين هذين الاثنين واختلافهما. لقد تمتعت باللذة الشعرية في اضاعة الوقت كثيرا من الأحايين مع (بول ايلوار) . ان يُجب الشعراء على الروائز فانهم سيطلقــون السر ويبوحون به ، ليس هناك اجمل ولا اروع من اضاعة الوقت عبثا . وكل واحد له اسلوبه الخاص به لممارسة هذا الميل القديم . لم اكن احس مــع (بول) لا بالليل ولا بالنهار كيف يمضيان وينقضيان وأبدا ما عرفت ان كان لما كنا نتحدث به اهمية ام ليس له من اهمية البتة .. (اراغون) هو آلــة اليكترونية من الذكاء ، من المعرفة ، من العبقرية اللوذعية ، من السرعــة البلاغية والفصاحة وسرعة الخاطر . من بيت (ايلوار) كنت دائما أخرج وأنا ابتسم دون ان أعرف مما ابتسم، بينما بعد قضاء بضعة ساعات مع (اراغون) كنت أخرج منهكا لأن هذا الابليس كان يجبرني على التفكير . لقد كان هذان الاثنان صديقين من خلص اصدقائي وكنت مشدودا اليهما جدا ، ولعل ما كان يعجبني فيهما اكثر مــن الخصال الحميــدة ، هو عظمتهمـــا المتنافرة المتناقضة .

نانكي كونارد Nancy Cunard

قررنا ، أنا و(نانكي كونارد) ، اصدار نشرة شعرية عنونتها انا «شعراء

---

٥٥ – بول ايلوار : الشاعر الفرنسي المعروف (١٨٩٥ – ١٩٥٢) .

٥٦ – اراغون Louis : شاعر المقاومة الفرنسية والروائي المعروف ولد عام ١٨٩٧.

العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .

كان لـ (نانكي) مطبعة صغيرة في دارها الريفية بالريف الفرنسي . لست اذكر الآن اسم هذه الناحية ، لكن كانت بعيدة عن باريس . حين وصلنا الى دارها كان الوقت ليلا وكان في السماء قمر منير . كان الثلج والقمر يرتجفان مثل ستارة تحيط بالمزرعة . انا ، متحمسا ، خرجت للتنزه. حين اردت الرجوع كان ندف الثلج يدوّم فوق راسي في عناد واصرار ولذلك أضعت دربي ومشيت نصف ساعة اخبط خبط عشواء في بياض الليل .

كان ل(نانكي) تجربة في الطبع والطباعة ، عندما كانت صديقة (اراغون) نشرت ترجمة قصيدة Hunting of The Snark وكانت قد ترجمتها هي بالاشتراك مع (اراغون) . في الحقيقة ، هذه القصيدة لـ (لويس كارول)(٥٧) هي غير قابلة للترجمة واعتقد اننا لا يمكن لنا ان نجد عملا شبيها من فسيفساء مجنون الا في أعمال (غونغورا) .

بدأت أهيء انماطا من الحروف واظن انه ليس هناك صاف حروف أسوأ مني على الاطلاق . بما اني كنت أضع انماط حرف (p) على العكس فانها كانت تستحيل الى حرف (d) بسبب غبائي المطبعي. في بيت شعر ظهرت مرتين كلمة Parpados (٥٨) فأصبحت مرتين مكررتين كلمة Dardapos (٥٩) . لقد عاقبتني على ذلك (نانكي) فقد كانت تناديني خلال عده سنين ، دائما على هذا النحو dardapos وكانت تبدأ رسائلها اليّ من لندن بعبارة My dear dardapo . لكن النشرة خرجت لائقة جدا واستطعنا ان نطبع ستة او سبعة اعداد . بالاضافة الى الشعراء الملتزمين مثل (غونثاليث تونيون) او (البرتي) او بعض الشعراء الفرنسيين ، فاننا نشرنا قصائد ملتهبة حماسة وعاطفة لـ (و. هـ. اودين W. H. Auden) (٦٠) ، و(سبيندير) الخ . هؤلاء

---

٥٧ – لويس كارول : هو عالم بالرياضيات وكاتب قصصي انجليزي (١٨٣٢ – ١٨٩٨) .

٥٨ – معناها : جفون .

٥٩ – كلمة لا معنى لها .

٦٠ – أودين : مؤلف مسرحي وشاعر انجليزي ولد عام ١٩٠٧ .

السادة الانجليز لن يعرفوا ابدا ما عانته اصابعي الكسلى وهي تصف حروف أشعارهم .

من حين الى حين كان يصل من انجلترا شعراء اصدقاء لـ (نانكي) وكل واحد منهم كان يضع زهرة بيضاء في العروة وكان هؤلاء كذلك يكتبون قصائد ضد (فرانكو) .

ابدا ما وجد في التاريخ الفكري الثقافي مادة خصبة للشعر والشعراء كما توفرت هذه المادة في الحرب الاسبانية . ان الدم الاسباني كان بمثابة مغناطيس جعل الشعر يهتز خلال فترة عظيمة ولمدة طويلة .

لست ادري ان كانت تلك النشرة قد لاقت نجاحا ام لم تلق لانه في تلك الحقبة انتهت بشكل سيء الحرب الاسبانية لتبدأ بشكل سيء حرب عالمية جديدة ، هذه الاخيرة على الرغم من ضخامتها، على الرغم من قساوتها التي لا عد لها ولا حصر ، على الرغم من بطولاتها المسفوكة المسفوحة ، لم تستطع ابدا ان تأسر قلب الشعر الجماعي كما أسرته الحرب الاهلية الاسبانية .

كان عليّ أن اعود من اوروبا الى بلدي ، (نانكي) كذلك سافرت الى تشيلي يصحبها مصارع ثيران ترك في «سانتياغو» الثيران و(نانكي كونارد) لكي يفتح محلا لبيع النقانق والسجق والمحاشي الاخرى . لكن صديقتي العزيزة جدا لا تقبل الهزيمة لانها من النوع الرفيع جدا فاتخذت لها في تشيلي عشيقا : شاعرا صعلوكا ، متشردا قذر الهندام سيء المظهر ، تشيليا من اصل «باسكوي» . لم يكن ينقصه النبوغ بل حرم من الاسنان. أضف الى هذا وذاك ان هذا العاشق المفضل الجديد كان سكّيرا عربيدا ، وكان يبخشش هذه الامرأة الارستوقراطية الانجليزية بصفعات ليلية معادة مكررة مما كان يجبرها على الظهور في المجتمع بنظارة غامقة الحدقتين كبيرة الحجم .

في الحقيقة كانت هي شخصية من الشخصيات «الكيخوتية» المزمنة الشجاعة المثيرة للشجون وهي كانت اكثر من عرفت منهم غرابة . وهي الوريثة الوحيدة لـ (كونارد لينه) وابنة السيدة قامت

بفضيحة اهتزت لها لندن وذلك في عام ١٩٣٠ ، فقد هربت مع رجـل اسود ، كان مو'يسقياً (صيغة تحقير) في اول عصبة «جاز» استوردهـا فندق Savoy حين وجدت Lady Cunard السرير خاليا من ابنتها ورسالة منها تخبرها فيها ، مفتخرة مزدهية ، بمصيرها الاسود ، توجهت هذه السيدة النبيلة الى محاميها وقررت حرمانها من الوراثة . هكذا ، اذن من عرفتها انا ، متشردة عبر العالم كانت محرومة من ارث العظمـة البريطانية . كان يحضر مجالس السمر التي كانت تقيمها والدة (نانكي) ، (جورج مور) (٦١) ، (كان يشاع بانه هو الوالد الحقيقي لـ (نانكي) و(السير توماس بيشام) (٦٢) والشاب (الدوس هوكسلي) (٦٣) وامـير «غاليس» الذي اصبح من بعد دوق «ويندسور» (٦٤) .

(نانكي كونارد) اعادت الصفعة صفعتين ، ففي شهر كانون الاول الذي حرمتها فيه أمها من الوراثة ، تلقت الارستوقراطية الانجليزية جميعهـا كهدية في عيد الميلاد كتيبًا ذا غلاف احمر معنونا على النحو التالي : (Negro man and white Lady Ship) لم أر اكثر من هذا الكتيب تقريعا، يبلغ احيانا وبالة (سويفت Swift) (٦٥) .

كانت حججها في الدفاع عن السود تنزل كضربات هراوة على راس Lady Cunard وعلى المجتمع الانجليزي . اذكر انها كانت تقول لهم، واورد من الذاكرة لان كلماتها وعباراتها كانت اكثر بلاغة :

«اذا حضرتك ، ايتها السيدة البيضاء ، او بالاحرى جماعتك، خطفتهم قبيلة اكثر قدرة وقوة منهم ثم ضربتهم وقيدتهم بالاصفاد ، ثم نقلتهـم

---

٦١ – جورج مور : روائي ايرلاندي (١٨٥٢ – ١٩٣٣) .

٦٢ – السير توماس بيشام : ضابط أيقاع فرقة موسيقية ، انجليزي (١٨٧٩ – ١٩٦١).

٦٣ – الدوس هوكسلي : كاتب انجليزي (١٨٩٤ – ١٩٦٣) .

٦٤ – دوق ويندسور : كان ملكا لانجلترا باسم (ادوارد الثامـن) تنازل عـن العرش عام ١٩٣٦ .

٦٥ – سويفت (جو ناثان Jonathan) : كاتب انجليزي (١٦٦٧ – ١٧٤٥) .

بعيدا عن انجلترا كي يباعوا في سوق النخاسة ، معروضين كنماذج رخيصة للوفاء الانساني ، مجبرين على الاعمال الشاقة تحت لدع السياط، وبتغذية لا تكاد تسد الرمق ، فماذا سيبقى من ابناء جنسك ؟ لقد عاني السود من هذا ومن غيره من التمنيف والقساوة . ففقدوا بعد قرون عديدة من المعاناة والعذاب افضل الرياضيين واقواهم ، وكذلك فقد خلقوا موسيقى اكثر عالمية من غيرها . افكنتم تستطيعون ايها البيض ان تخرجوا منتصرين من مثل هذا الجور الكثير ؟ اذن ، من هم اكبر قيمة ومن هم أجدر ؟ »

وهكذا في ثلاثين صفحة .

لم تستطع (نانكي) ان تعود لتقيم في انجلترا ومنذ هذه اللحظة احتضنت قضية الجنس الاسود اللاحق المضطهد . لقد ذهبت الى «اديس ابابا» خلال غزو الحبشة . من بعد وصلت الى الولايات المتحدة كي تتضامن وتدعم الفتيان السود من «سكوتسبورو» الذين اتهموا بفضائح لم يرتكبوها. لقد ادانت العدالة العنصرية في امريكا الشمالية هؤلاء الفتيان السود وطردت الشرطة الديموقراطية في الولايات المتحدة (نانكي كونارد) خارج الحدود .

في عام ١٩٦٩ ماتت صديقتي (نانكي كونارد) في باريس . في ازمة احتضارها نزلت شبه عارية في مصعد (اسانسور) الفندق ، وهناك خرّت واغلقت للابد عينيها السماويتين الجميلتين .

حين ماتت كانت تزن خمسة وثلاثين كيلوغراما ، ما كانت الا هيكلا عظميا ، كان جسدها قد استهلك ونفد في معارك خاضتها ضد الظلم في العالم . ما كان ثوابها الا حياة كانت تغدو في كل يوم اكثر وحدة ووحشة والا ميتة مهجورة مخذولة .

مؤتمر في مدريد

كانت الحرب الاهلية في اسبانيا تمضي من سيء الى اسوا ، لكن

روح المقاومة لدى الشعب الاسباني كانت قد عدت العالم قاطبة بصمودها وثباتها . كانت تحارب في اسبانيا فرق المتطوعين الأمميين . أنا رأيتهم يأتون الى مدريد عام ١٩٣٦ موحدي الصفوف . كانوا مجموعة كبيرة من اجناس وأعمار واشكال وألوان مختلفة .

نحن في باريس عام ١٩٣٧ ، والامر الرئيسي كان هو الاعداد لمؤتمر ضد الفاشية يحضره الكتاب من انحاء العالم قاطبة . مؤتمر ينعقد في مدريد . آنذاك بدأتُ بمعرفة (اراغون) معرفة عميقة . اول ما فاجأني منه كانت قدرته العجيبة على العمل والتنظيم ، يملي الرسائل جميعها ، يصححها ، يذكرها عن ظهر قلب ، لا تفر منه صغيرة ولا كبيرة ، يقضي ساعات متواصلة عاكفا على العمل في مكتبنا الصغير ، ثم ، كما هو معروف عنه ، يكتب كتبا ضخمة في النثر وأما شعره فهو احسن ما كتب في اللغة الفرنسية . لقد رأيته ينقح تجارب ترجمة كتب قام بترجمتها عن الروسية والانجليزية، ورأيته يعيد صياغة بعض التعابير على الورق نفسه ، وورق اللازم المطبوعة ثم يدفع بها ثانية الى المطبعة . انه ، في حقيقة الامر ، لرجل عجيب وقد انتبهت الى عظمته منذ ذلك الحين .

كنت قد نُحيت عن عملي القنصلي وهذا معناه اني بقيت بلا سينتيم واحد . فعملتُ بأجرة قدرها اربعمائة فرنك فرنسي قديم في جمعية الدفاع عن الثقافة التي كان يديرها (اراغون) . كان لزوجتي (ديليا ديل كارّيل Delia del carril) في ذلك الحين ، ولسنين طويلة، شهرة بأنها غنية ، مالكة ، مخولة ، لكن ما هو اكيد انها كانت اكثر فقرا مني . كنا نعيش في فندق صغير مشبوه حيث كان الطابق الاول منه مخصصا للأزواج العابرين العرضيين ، يدخلون مثنى ويخرجون مثنى بعد ساعة من الزمن . لقد كنا لا نأكل الا القليل الزهيد وان اكلنا فأكل سيء وذلك خلال بضعة اشهر . لكن مؤتمر الكتّاب المعادين للفاشيستية كان واقعا وحقيقة . كانت تصل من الجهات جميعها جوابات قيّمة جريئة . وصل جواب ايجابي من (ييتس Yeats) (٦٦) ، شاعر وطني من

٦٦ ـ ييتس (وليم بطلر Williams Butler) : شاعر ايرلاندي (١٨٦٥-١٩٣٩).

ايرلاندا . جواب آخر من (سيلما لاغيرلوف Selma Lagerlof) (٦٧) ، كاتبة سويدية كبيرة . لقد كان هذان الكاتبان كبيرين في السن فما كانا يستطيعان السفر الى مدينة محاصّرة مقنبلة كما كانت عليه مدريد اذ ذاك ، لكنهما كانا متضامنين في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

لقد اعتبرت نفسي دوما شخصية ذات اهمية ضئيلة ، وبخاصة فيما يتعلق بالقضايا العملية والمهام العالية ، لذلك فقد بقيت مشدوها ، بفم مفتوح ، حين وصلني امر مصرفي جاء من الحكومة الاسبانية بمبلغ كبير من المال لتغطية مصاريف المؤتمر ، بما فيها ثمن تذاكر سفر المؤتمرين والمندوبين القادمين من أقطار اخرى ، وفعلا فقد بدأ الكتّاب يفدون بالعشرات الى باريس .

لقد حرت ، ماذا أستطيع أن أعمل بهذا المبلغ من المال ؟ آثرت ان احوله الى المنظمة التي كانت تعدّ لهذا المؤتمر .

ــ حتى اني ما رأيت هذا المبلغ من المال ، ولو قبضته لما كنت قادرا على التصرف به ــ قلت ذلك لـ (رفائيل البرتي) الذي كان يمر بباريس في تلك الايام .

ــ انت غبي جدا ــ اجابني (رافائيل) ــ تخسر منصبك القنصلي في سبيل اسبانيا ، وتمشي باحذية مفتقة ولا تخصص لنفسك من هذا المبلغ بضعة آلاف من الفرنكات لمصاريفك الضرورية لقاء عملك .

نظرت الى حذائي فرأيت انه فعلا كان مفتوقا ، فأهداني (البرتي) زوجا من الاحذية الجديدة .

خلال بضع ساعات سننطلق باتجاه مدريد مع بقية المندوبين جميعهم . وجدنا انفسنا، انا وزوجتي (ديليا) و(امبارو غونثاليث تونيون) .

---

٦٧ ــ سيلما لاغيرلوف : كاتبة سويدية (١٨٥٨ ــ ١٩٤٠) .

Amparo Conzalez tunon اننا مثقلون برسائل الكتّاب التي كانت تصلنا من أطراف المعمورة بأسرها ، كانت تأشيرات الخروج من لدن السلطـــات الفرنسية تسبب لنا مشاكل كثيرة . عمليا سيطرنا على مكتب الشرطـــة المسؤول عن اعطاء التأشيرات في باريس حيث كانت تمتد هناك هـــــذه اللوازم الضرورية التي كانت تسمى بشكل تهكمي Recipisson احيانا كنا نحن بانفسنا نطبع على جوازات السفر بهذه الآله الفرنسيه الرفيعـة المدعوة Tampon (•)

بين نارويجيين وايطاليين وارجنتينيين ، وصل من المكسيك الشاعر (اوكتابيو باث) (٦٨) بعد أن قام بألف مغامرة سفرية هنا وهناك . لقد كنت اشعر بالافتخار لاني أحضرته للمشاركة في المؤتمر . كان قد نشر ديوانـا واحدا ، كنت قد استلمته قبل شهرين من مجيئه ، فبدا لي انه يحتوي على نواة حقيقية من الشعر . لم يكن يعرفه في ذلك الوقت احد غيري .

جاء ليراني صديقي القديم (ثيسار باييخو) بوجه مكفهر ، كان غاضبا لان زوجته ما أعطيت بطاقة سفر وكانت هذه الزوجة ثقيلة لا يتحملها احد. حصلتُ بسرعة على بطاقة سفر لها فأخذ البطاقة (باييخو) وخرج شاحب الوجـــه كما جـــاء . كان يجري له شيء تأخرت بضعة شهور فـــي اكتشافه .

«أم الخروف» (٦٩) كانت ما يلي : كان قد وصل الى باريس لحضور المؤتمر ابن بلدي ومواطني (بيثينته هويدوبرو) (٧٠) . كنا ، أنا و(هويدوبرو) متعاديين متخاصمين لا يحيّي احدنا الآخر فيما كان هو صديقا حميمـــا لـ (باييخو) واستغل هذه الايام في باريس كي يملأ رأس صاحبـي الساذج بمفتريات عني . ثم توضح كل شيء بعد حديث صاحب أليم جرى بيني وبين (باييخو) .

---

٦٨ ــ اوكتابيو باث : شاعر مكسيكي ولد عام ١٩١٤ .

٦٩ ــ ام الخروف : تعبير اسباني بمعنى مفتاح السر .

٧٠ ــ بيثينته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣ ــ ١٩٤٨) .

لم يكن قد خرج من قبل قطار مكتظ بالكتاب من محطات باريس كما كان عليه ذلك القطار الذي أقلنا الى مدريد. عبر ممرات القطار كنا نتعارف او نحل" التعارف وننتهي الى خصام . ذهب بعضهم الى النوم ، آخرون كانوا يدخنون تباعا بشكل لا ينتهي . لقد كانت اسبانيا بالنسبة للكثيرين منهم لغزا وكانت وحي تلك الفترة من التاريخ .

لقد تنحى (باييخو) و(هويدوبرو) ناحية من القطار . توقف (اندريه مالرو) (٧١) لحظة للحديث معي في تشنجات وجهه ومشمعه على كتفه . كان هذه المرة يسافر وحده اذ انني قبل كنت أراه دائما مع الطيار (كورتون ـ موغلينيير) الذي كان المنفذ الرئيسي لمغامراته عبر سماوات اسبانيا : مدن ضائعة يكتشفها ويغير عليها بطائراته او يزود الجمهورية بالطائرات .

أذكر ان القطار توقف لزمن طويل في الحدود . يبدو ان (هويدوبرو) اضاع حقيبته . بما ان الناس جميعهم كانوا مشغولين او منشغلين بسبب تأخر القطار فما كان احد منهم ليهتم به وبحقيبته . فجاء هذا الشاعر التشيلي بأسوأ اللحظات يبحث عن حقيبته وتوجه نحو رئيس الحملة (مالرو) الذي كان عصبيا بطبعه وكان قد وصل الى الحد الاقصى من الارهاق بسبب كومة المشاكل الملقاة على عاتقه ، ربما لم يكن يعرف (هويدوبرو) من قبل لا اسما ولا شكلا ، وحين اقترب منه وهو على الرصيف لاخباره بفقدان حقيبته ، فقد (مالرو) ما تبقى له من الصبر وضاق ذرعا به فصاح ـ هذا ما سمعته ـ . «حتام تزعج حضرتك الناس كلهم ؟ اذهب» je vous emmerde (٧٢) .

شاهدت صدفة هذا الحادث الذي أذل" غرور الشاعر التشيلي وزهوه. كنت افضل لو اني كنت على بعد الف كيلومتر من هناك في تلك اللحظة ، لكن الحياة غريبة الأطوار تأتي بالمفارقات والصدف العجيبة . لقد كنت انا

---

٧١ ـ اندريه مالرو : شاعر وسياسي فرنسي ولد عام ١٩٠١ .

٧٢ ـ الكلام بالفرنسية : معناه «كل خرا» .

الشخص الوحيد الذي كان يكرهه ويمقته (هويدوبرو) ممن كانوا يسافرون في القطار وكان من نصيبي انا ، وثالثة الاثافي انني تشيلي مثله ، ان أكون الشاهد الوحيد على الاهانة التي لحقته في تلك الحادثة .

حين تابع القطار السفر وقد حل الليل وبدانا نتدحـــرج على ارض اسبانيا ، فكرت في (هويدوبرو) ، في حقيبته ، وباللحظة الحرجة التي عانى منها ، عند ذلك التفت الى بعض الكتاب الشبان من جمهوريـــات منتصف امريكا الذين وفدوا الى غرفتي في القطار وقلت لهم :

ــ رجاء ، اذهبوا لتروا كذلك (هويدوبرو) فقد يكون وحيدا حزينـا خائبا . ذهبوا ليعودوا بعد عشرين دقيقة وهم فكهون يستهزئون منه اذ انه قال لهم : «لا تكلموني عن الحقيبة الضائعة ، فليس لهذا أهمية ، بل ما هو خطير جدا انه بينما جامعات «تشيكاغو» و«برلين» و«كوبنهاغين» و«براغ» تمنحني القابا تشريفية، اجد ان جامعات بلادكم الصغيرة القليلة الاهمية هي الوحيدة التي تصر على تجاهلي وحتى انها لم تدعني لالقاء محاضرات حول مذهب الخلق الابداعي» .

اخيرا وصلنا الى مدريد ، فيما كان المؤتمرون الزوار يتلقون الترحاب ويوزعون على الفنادق ، اردت ان ارى من جديد داري التي كنت قـــد تركتها مغلقة منذ حوالي عام ، كتبي واشيائي ، فقد تركت فيها كــــل حاجاتي . وكانت هذه الدار عبارة عن شقة في بناية مسماة «دار الزهور» عند مدخل المدينة الجامعية . كانت الفرق المتقدمة من قوات (فرانكو) تتاخم هذه المنطقة وكانت تتقدم احيانا فتستولي عليها الى درجـــة ان المنازل الكائنة هناك غيرت عدة مرات اصحابها ما بين الجمهوريين والفرانكويين .

توصــــل (ميغيل ايرنانديث) وكـــان يرتدي زي المحاربين المتطوعين (ميليشيا) ويتنكب بندقيته ، الى الحصول على عربة لشحن كتبي وما كان يهمني اخذه من اثاث بيتي .

صعدنا الى الطابق الخامس وفتحنا في شغف باب الشقة . كانت طلقات الرشاشات قد كسرت النوافذ وخرقت أجزاء من الحيطان ، والكتب

كانت قد انهارت من على الرفوف ، وكان من المستحيل ان نرشد بين الانقاض الى ما كنا نريد حمله . على كل حال بحثت عن بعض الاغراض في تخبط . والغريب في الامر ان الاثواب والملابس والحاجات التافهة أو غير المفيدة كانت قد اختفت ، فقد اختطفها الجنود الغزاة او المدافعون . فيما كانت الحلل والقدور وآلة الخياطة والصحون والاواني غارقة هناك في الفوضى ولكنها ناجية بنفسها سليمة ، لم يبق اثر لبدلتي القنصلية الرسمية ولا أقنعتي «البولونيزية» ولا سكاكيني الشرقية .

ـ ان الحرب لهي كثيرة الاهواء غريبة الاطوار كالاحلام ، يا (ميغيل) .

وجد (ميغيل) هناك بين الاوراق المبعثرة على الارض بعض النسخ الاصلية من مؤلفاتي . ان تلك الفوضى كانت بابا نهائيا يغلق في حياتي . قلت لـ (ميغيل) :

ـ لا أريد ان آخذ شيئا .
ـ لا شيء ؟ ، ولو كان كتابا ؟
ـ ولو كان كتابا ـ أجبته .
وعدنا بالعربة فارغة .

(الاقنعة والحرب)

... منزلي أمسى بين حجري الرحى .... من هناك يتقدم المغاربة والايطاليون .... من هنا يتقدم أو يتقهقر او يصمد المدافعون عن مدريد... المدفعية بقنابلها اخترقت الجدران.... النوافذ تهشمت دقاقا فتاتا ... عثرت على بقايا الرصاص بين كتبي الطريحة الارض .... لكن اقنعتي ، أين أقنعتي ؟ ، لقد ولّت .... أقنعتي التي التقطها في «سيام» في «بالي» في «سوماطرا» ، في ارخبيل «الملايو» ، في «باندونغ» ... مذهّبة ، رمادية اللون ، بلون الطماطم ، بحواجب فضية ، زرقاء ، جهنمية، متجهمة ، مقطبة . أقنعتي كانت الذكرى الوحيدة لذلك الشرق الاول الذي وصلت اليه متوحدا فاستقبلني بمسكه : أريج الشاي ، رائحة الروث ، شميم الافيون ، فوح العرق ، شذى الياسمين ، عبير النعناع ، عطر

ألفاكهة العفنة في الشارع .... ان تلك الاقنعة لهي ذكرى الرقصات النقية جدا ، ذكرى التجليات امام المعابد .... انها لقطرات خشبية ملونة بالاساطير ، لبقايا معتقدات مزدهرة ترسم في الهواء أحلاما ، عادات ، شياطين ، غرائب لم تعرفها من قبل طبيعتي الامريكية .... وإذن ... ربما ان المحاربين وضعوها على وجوههم واطلوا من نوافذ منزلي كي يرعبوا بها المغاربة (٧٣) ، بين طلقة وطلقة ... كثير منها غدا مزقا أربا مدماة ، هناك عند النوافذ... بعضها تدحرج من طابقي السابع(٧٤) وقد اقتلعته طلقة من الطلقات ... هناك قبالتها تمركزت قوات (فرانكو) المتقدمة ... نجاهها كانت تزعق شرذمة المرتزقة الأميين ... من بيتي ثلاثون قناع لآلهة من آسيا شرعت بالرقصة الاخيرة ، رقصة المنية .... كانت لحظة هدنة ... كانت المواقع قد تبدلت .... جلست أنظر الى النفايات ، الى لطخات الدم في الحصيرة ... ثم سرحت بنظري من خلال النوافذ الجديدة ، اي من خلال الفجوات التي احدثها الرشاش ، نحو البعد ، نحو المدى ، الى ما وراء المدينة الجامعية ، نحو السهول ، نحو القلاع القديمة .... بدت لي فارغة ، اسبانيا .... بدا لي ان أواخر ضيوفي قد رحلوا الى الابد .... بأقنعة او بلا اقنعة ، بين الطلقات والاناشيد الحماسية ، بين الفرح المجنون ، بين الدفاع غير المصدق ... بين المنية او الحياة ، ذاك كان قد انتهى بالنسبة لي .... لقد كان السكون الكبير غب الوليمة ... بعد الحفلة الاخيرة ... بتشكل من الاشكال ، مع الاقنعة التي رحلت ، مع الاقنعة التي سقطت ، مع الجنود الذين ما دعوتهم ابدا الى بيتي ، رحلت عني كذلك اسبانيا ....

---

٧٣ ـ كان على شاعر عظيم مثل (نيرودا) ان يميز بين فرقة من المرتزقة وبين شعب بكامله ، وكان عليه الا يتمادى في هذه الكراهية تجاه المغاربة .

٧٤ ـ كان من قبل قد ذكر انه الخامس ولعله هنا يقول السابع على سبيل المبالغة والمجاز .



الفصل السادس

خرجت ابحث عن شهداء

اخترت طريقا

مع اني استلمت هوية الانتساب في وقت متأخر بتشيلي ، حين انخرطت رسميا في الحزب ، فاني أعتقد اني حددت نفسي أمام نفسي شيوعيا خلال الحرب الاهلية في اسبانيا . أن اشياء كثيرة ساهمت في قناعتي العميقة .

كان زميلي المتناقض ، الشاعر «النيتشي» (١) (ليون فيليب Léon Filipe) (٢) رجلا رائعا حقا . أحسن ما فيه من جاذبية كان حسه

١ ـ النيتشي : نسبة الى (نيتشه) الفيلسوف الالماني المشهور .

٢ ـ ليون فيليب : شاعر اسباني مات في المكسيك (١٨٨٤ ـ ١٩٦٨) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

الفوضوي (٣) بالعصيان وبالتمرد التهكمي . ففي أوج الحرب الاهلية تبنّى بسهولة المذهب الفوضويذا الجاذبية الذيكان يتمثل في «اتحاد الفوضويين الايبيريين» (٤) . كان يخفّ دوما الى الجبهات الفوضوية حيث يعـــرض أفكاره وينشد قصائده المعادية للدين . كانت هذه القصائد تعكس عقيدة تدعو الى الغاء السلطة بشكل غامض ، وتعادي الكنيسة ورجالها بتحريض وكفر وإلحاد . كلماته كانت تأسر المجموعات الفوضوية التي كان يتضاعف عدد افرادها بشكل هائل يوما بعد يوم في مدريد بينما سكان المدنة كانوا ينطلقون الى جبهة المعركة التي كانت تقترب اكثر فاكثر منها . كــــان الفوضويون قد دهنوا الحافلات والسيارات نصفها احمر والنصف الآخر أصفر . كانوا يبهرجون بلبد شعرهم ولحاهم ، واطواقهم واساورهم من الرصاصات ، مهرجان اسبانيا المحتضر . لقد رايت العديد منهـــم وهم ينتعلون أحذية رمزية نصفها من جلد أحمر والنصف الآخر من جلد أسود، ولا بد ان صنعها قد كلف الاسكافية جهدا جهيدا . ولا يظنن احد انهـــم كانوا عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة غير قادرة على الدفاع اذ ان كل واحد منهم كان يحمل سكاكينا ، مسدسات ضخمة ، بنادق سريعة الطلقـات وبنادق خفيفة الخ . كانوا يتربعون عند مداخل ابواب الابنية الرئيسية ، فرقا فرقا ، بعضهم كان يدخن ، الآخر يبصق ، وهم يستعرضون بنادقهم ويهددون بأسلحتهم . كان همهم الرئيســـــي هو قبض ايرادات مـــن المستأجرين الفزعين او بالاحرى جعل هؤلاء الناس يتركـــون لهم بمحض ارادتهم حليهم ، خواتمهم وساعاتهم .

كان (ليون فيليبه) يعود من احدى محاضراته الفوضوية وقد حـــل الليل حين التقينا في مقهى يقع بزاوية العمارة التي كنت اسكن فيها . كان الشاعر يرتدي بردة اسبانية تليق به في لحيته الناصرية (٥) . حين خرجنا

---

٣ ـ الفوضوي : نسبة الى المذهب الفوضوي وليس الى الفوضى .

٤ ـ اتحاد الفوضويين الايبيريين Federacion Anarquista Ibérica ويعـــرف بحروفه الاولى

٥ ـ الناصرية : نسبة الى مدينة الناصرة بفلسطين اي انها تشبه لحية المسيـــح الناصري .

من المقهى لمس بأحد هدّاب بردته الرومانطيكية الانيقة احد رفاقه الحساسين . لا اعرف فيما اذا كانت الوجاهة ومظهر النبيل العريق الذي كان يبدو على (ليون فيليبه) هما ما ازعج ذاك «البطل» من الطليعة المناضلة، لكن ما هو اكيد اننا اُعتقلنا على بعد بضعة خطوات من مكان ذلك الحادث، من لدن مجموعة من الفوضويين يتراسهم ذاك الذي اهين عند مدخل المقهى . ارادوا التحقق من أوراقنا وبعد ان القوا عليها نظرة قادوا الشاعر «الليوني» (٦) وهو محاط من جانبيه برجلين مسلحين .

بينما كانوا يأخذونه الى ساحة الرمي القريبة من داري والتي كانت فرقعتها الليلية لا تدعني أنام وذلك في مناسبات عديدة ، رأيت اثنين من المليشيا المسلحة وهما يعودان من الجبهة ، شرحت لهما الامر وعرّفتهما من هو (ليون فيليبه) وانبأتهما بالخطر الذي ينتظره ، فاستطعت بفضلهما أن اعتق صديقي .

ان هذا الجو من البلبلة العقائدية ومن التهديم الرخيص، جعلني أفكر كثيرا . لقد عرفت مآثر رجل فوضوي نمساوي عجوز حسير البصر وبلبدة طويلة شقراء تخصص في القيام بـ «تنزّهات» وكوّن فرقة أسماها «شروق» لانها كانت تفعل ما تفعل عند شروق الشمس .

ــ الم تشعر حضرتك مرة بألم في الرأس ؟ كان يسأل الضحية .

ــ بلى ، طبعا ، بعض المرات .

ــ اذن سأعطيك مسكنا للآلام ــ كان يقول لهذه الضحية ذلك الفوضوي النمساوي ، فيصوب المسدس الى جبين الضحية ويطلق النار .

فيما كانت هذه العصابات تتكاثر في ليل مدريد الاعشى ، كان الشيوعيون هم القوة الوحيدة المنظمة التي خلقت جيشا لمجابهة الالمان

---

٦ ــ الليوني : نسبة الى مدنية الشاعر Léon وهي مدينة بشمال اسبانيا ، ومعنى الاسم : أسد .

والايطاليين والمغاربة ورجال الكتائب (٧) «الفلانج» (Falangistas) وكانـوا في الوقت نفسه القوة المعنوية التي تنمي المقاومة والنضال ضد الفاشية .

ببساطة : كان عليّ ان اختار طريقا . وهذا ما فعلته انا في تلكم الايام ولم اندم ابدا على قرار اتخذته بين دياجير تلك الفترة المأساوية واملها .

(رافائيل البرتي)

ان الشعر لهو دوما فعل سلم . ان الشاعر يولد من السلام كما يولد الخبز من الدقيق .

ان المنتعلين ، والحربيين ، والذئاب ، يبحثون عن الشاعر ، لحرقه ، لقتله ، لعضّه . عربيد يجيد الضرب بالسيف ترك (بوشكين) (٨) جريحـا جرح موت بين اشجار غابة مظلمة . احصنة عدت محمومة فوق جثـة (بيتوفي) (٩) ، مصارعا ضد الحرب مات (بايـرون) (١٠) في اليونان ، الفاشيون الاسبان بدأوا الحرب في اسبانيا باغتيال أحسن شعرائها .

ان (رفائيل البرتي) يمكن ان ندعوه **الناجي من الموت** . الف ميتة كانت قد أعدّت له ، واحدة في غرناطة كذلك ، ميتة اخرى كانت تنتظره فـي «باداخوث» (١١) ، كانوا يبحثون عنه في «اشبيلية» المفعمة بالشمس او

---

٧ ـ الكتائب **Falange** : هو حزب اسسه **(خوسه انطونيو بريمو دي ريبيرا)** (١٩٠٣ ـ ١٩٣٦) .

٨ ـ بوشكين **Aleksandr** : الشاعر والروائي الروسي الشهير جدا (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) .

٩ ـ بيتوفي **Sandor** : شاعر من هونغاريا (١٨٢٢ ـ ١٨٤٩) .

١٠ ـ بايرون : شاعر انجليزي معروف (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) .

١١ ـ باداخوث : هي مدينة تقع في جنوب غرب مدريد ، كان العرب يدعونها **بطليوس**.

في وطنه الصغير «كاديث» (١٢) او في «بورتو دي سانتا ماريـــا» (١٣) ، يبحثون عنه في كل مكان لطعنه بالخناجر ، كي يقتلوا فيه الشعر ، مرة اخــرى .

لكن الشعر لم يمت ، ان للشعر لارواح القطة السبع . قد يزعجونه، قد يجرجرونه ، قد ينفونه ، قد يحبسونه ، قد يفرغون فيه اربع طلقات، لكن الشعر يخرج من هذه الحوادث العرضية بوجه نقي وبابتسامة من أرز.

لقد عرفت (البرتي) في شوارع مدريد بقميص ازرق وربطة عنــــق ملونة ، عرفته مناضلا في صفوف الشعب حين لم يكن هناك شعراء كثر يؤدون هذه المهمة الصعبة ويقومون بهذا المصير الخطير . لم تكن قد قرعت الاجراس (١٤) في اسبانيا ولم يكن قد دق ناقوس الخطر بعد ، لكنه كان يعرف ما يمكن ان يأتي به الغد . انه لرجل من الجنوب ، ولد ازاء البحر المدوي ، قرب خوابي النبيذ الاصفر (١٥) كالزبرجد . لقد جبل قلبه من نار الاعناب من هدير الموج . لقد كان شاعرا منذ قلامة اظفاره مع انه ما كان يدري بهذه الموهبة المختزنة آنذاك (١٦) ، ثم عرف هو ، ثم عرفته أسبانيا، ثم عرفه العالم كل العالم شاعرا كبيرا .

ان (رفائيل البرتي) يعني بالنسبة لنا نحن الذين كان لنا الحظ فـــي التكلم بالاسبانية وفي معرفة هذه اللغة القشتالية ، بريق الشعر في هذه

---

١٢ ــ كاديث : هي مدينة اسسها الفينيقيون على الساحل الجنوبي من اسبانيا وكان العرب يسمونها قادش .

١٣ ــ بورتو دي سانتا ماريا: هي قرية على الساحل قرب «قادش» حيث ولد (البرتي).

١٤ ــ اشارة الى رواية (همنغواي) المشهورة ، لمن تقرع الاجراس ؟

١٥ ــ تشتهر «قادش» وضواحيها بهذا النوع من النبيذ المسمى «اخيريث» باسم البلدة التي كان العرب يدعونها . شريش ، ولهذا فان هذا النبيذ يعرف عالميا ، وبخاصة في انجلترا باسم «شريش» (Cherry)

١٦ ــ اشارة الى ان (البرتي) بدأ رساما الى ان شرع في كتابة الشعر فربح الجائزة القومية للآداب عام ١٩٢٥ عن ديوانه « بحار في البر » .

اللغة . ليس هو بشاعر فطري مطبوع فحسب ، بل هو كذلك عالم بالصيغ الشعرية . ان لشعره ، كما الوردة الحمراء المزدهرة في الشتاء بأعجوبة ، ندفة ثلج من (غونغورا) جذرا من (خورخه مانريكه) (١٧) ، ثويجا من (غارثيلاسو) (١٨) ، شذى متشحا بالحداد من (غوستافو أدولفو بيكر) (١٩) اي انه في كأسه الشفافة ، تنصهر أغاني اسبانيا الجوهرية .

لقد أضاءت هذه الوردة الحمراء في اسبانيا درب من حاولوا منع الفاشية والوقوف في وجهها . ان العالم كله ليعرف هذا التاريخ البطولي المأساوي . لم يكن (البرتي) يكتب القصائد الملحمية فحسب ، بل كان ينشدها في الثكنات وفي الجبهات ، وهو الذي ابتدع حرب العصابات الشعرية ، اخترع الحرب الشعرية ضد الحرب ، خلق الاغاني التي راشت ورفرفت تحت قصف المدافع ، ثم راحت من بعد تحلّق في كل سماء وفوق كل ارض .

ان هذا الشاعر ذا النسب العريق النقي الاصيل علّم العالم كيف يكون الشعر نفعا عاما وخدمة اجتماعية في لحظة حاسمة حرجة من تاريخ العالم . وهو في هذا يشبه (ماياكوفيسكي Maiakovski) . ان هذا الانتفاع الشعبي بالشعر يعتمد على القوة ، على الحنان ، على الفرح ، على الجوهر الحقيقي . ان الشعر من غير هذه المزية يرن ولكنه لا يغنّي .

نازيون في تشيلي

لقد عدت مرة اخرى في الدرجة الثالثة بالباخرة الى تشيلي . مع انه ليس لنا في امريكا اللاتينية ظاهرة ان يغدو كتّاب بارزون مثل (ثيلينه)

---

١٧ – خورخه مانريكه : شاعر اسباني (١٤٤٠ – ١٤٩٧) .

١٨ – غارثيلاسو : شاعر اسباني (١٥٠١ – ١٥٣٦) .

١٩ – غوستافو ادولفو بيكر : شاعر اسباني رومانطيكي (١٨٣٦ – ١٨٧٠) .

Céline) (٢٠) ، (دريو لا روشيل) ، (عزرا باوند) خائنين ، في خدمة الفاشية ، فقد كان لدينا تيار قوي منتعش بشكل طبيعي او اصطناعي بالتيار الهتلري . ففي الجهات جميعها كانت تتألف مجموعات صغيرة تقف لترفع الذراع بالتحية الفاشية ، متنكرة بأنها حرس وطني . ولم يكن الامر مقتصرا على هذه المجموعات الصغيرة فحسب ، بل ان الطبقة الحاكمة الاقطاعية في هذه القارة كانت تتعاطف (وما زالت) مع كل من يعمل ضد الشيوعية ، سواء أكان المانيا او من اليسار المتطرف في صفوف (كريوبيا) ، أضف الى هذا ، ان مجموعات كبيرة من سلالات المانية الاصل كانت تستوطن مناطق معينة في تشيلي والبرازيل والمكسيك وتشكل فيها الاكثرية من السكان . ولقد أُسرت هذه الفئات جميعها وحلبت بطلوع (هتلر) النيزكي وحكايا العظمة الالمانية الخرافية الالفية وعودتها الى الدنيا.

في تلكم الايام من المجد المدوّي والنصر الصاخب للهتلرية ، كان عليّ ان اعبر اكثر من مرة شارعا في قرية او مدينة بجنوب تشيلي تحت غابات حقيقية من رايات ذات صلبان معقوفة . في احدى المناسبات ، باحدى القرى الصغيرة الجنوبية ، رأيتني مضطرا لاستعمال الهاتف الوحيد في ذلك المكان فكان عليّ أن أحني رأسي على غير ارادتي اجلالا للفوهرر ، اذ ان صاحب ذلك المحل الالماني كان قد «تعبقر» فوضع آلة الهاتف في هيئة تجبر المرء على أن يبقى في حالة استعداد وذراعه مرفوعة نحو الاعلى باتجاه صورة لهتلر كانت هناك معلقة .

لقد كنت مديرا لمجلة «اورورا دي تشيلي» (٢١) : المدفعية الادبية قاطبة (لم يكن لدينا من مدفعية غير هذه المدفعية) اخذت تشن طلقاتها ضد النازيين الذين كانوا يستولون على البلدان بلدا اثر بلد فيبتلعون ما كانوا يكتسحون . في تلك الاوقات أهدى السفير الهتلري بتشيلي كتبا مما يدعى بالثقافة الالمانية الحديثة ، الى المكتبة الوطنية ، فأجبنا على هذا بتوجيه

---

٢٠ ـ ثيلينه Louis Ferdinand : طبيب وكاتب فرنسي (١٨٩٤ ـ ١٩٦١) .

٢١ ـ اورورا دي تشيلي : معناها ، **فجر تشيلي** .

نداء الى قرائنا نطلب منهم ان يرسلوا لنا الكتب الحقيقية الالمانية لالمانيا الحقيقية التي كان (هتلر) قد منع تداولها بين الناس ، فكان هذا تجربة عظيمة ، اذ اننا استلمنا اسفاطا كثيرة محزومة ومرتبة بشكل صحيح جيد لم تكن تحتوي الا على نجاسات واقذار . تلقيت انا تهديدات بأني لا بد مقتول ، استلمنا كذلك مجموعات كاملة من صحيفة «ستورنير» وكانت صحيفة مختصة بوصف العهارة والبغاء ، سادية وضد السامية ، كان برأس تحريرها (جوليوس ستريشار) (٢٢) الذي أعدم من بعد في «نوريمبورغ» فلاقى قصاصه المستحق . لكن ، شيئا فشيئا ، وعلى حذر، بدأت تصلنا منشورات باللغة الالمانية منها كتب (هينريش هاينه) (٢٣) و(توماس مان) (٢٤) و(أنا سيغيرس) و(أرنولد زويغ) (٢٤) . حين حزنا على خمسمائة مجلد من الكتب توجهنا الى المكتبة الوطنية لنودعها هناك .

يا للمفاجاة ! كانت الابواب قد اغلقت في وجهنا باقفال متينة .

اذ ذاك نظمنا مسيرة وتسللنا الى مدرج الجامعة هناك ونحن نحمل صور الاب (نيومير) (٢٥) و (كارل فون اوسيتيسكي) (٢٧) ، ولست ادري بأية مناسبة كان يجري احتفال برعاية السيد (ميغيل كروتشافا توكورنال) وزير الشؤون الخارجية حينذاك . وضعنا الكتب واللوحة في سدة الرئاسة حيث كان الوزير ، وربحنا المعركة اذ ان الكتب قد قبلت منا وظلت هناك .

---

٢٢ - جوليوس ستريشار : سياسي الماني (١٨٨٥ - ١٩٤٦) .

٢٣ - هينريش هاينه : شاعر الماني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) .

٢٤ - توماس مان : روائي الماني (١٨٧٥ - ١٩٥٥) .

٢٥ - ارنولد زيغ : كاتب الماني يهودي ، ولد عام ١٨٨٧ .

٢٦ - نيومير Martin : هو عالم باللاهوت وراهب بروتستانتي الماني ولد عام ١٨٩٢ .

٢٧ - كارل فون اوسيتسكي : كاتب الماني وداعية للسلم (١٨٨٩ - ١٩٣٨) .

ايسلا نيغرا (٢٨) Isla Negra

فكرت في أن انصرف الى عملي باخلاص اكثر وقوة اشد . لقد كان تماسي باسبانيا قد عززني وانضجني فلقد حان ان تنتهي ساعات شعري المرّة وآن لي ان ابدأ شيئا جديدا ، وكانت الذاتية والكآبة اللتان صبغتا قصائد ديواني «عشرون قصيدة حب» والحالة الاليمة المؤثرة التي طبعت «مقام في الارض» تقترب من نهايتها . بدا لي اني عثرت على عرق معدن دفين ، ليس تحت الصخور في باطن الارض ، بل تحت اوراق الكتب . افي مكنة الشعر أن يخدم أشباهنا من بني البشر ؟ أفيستطيع ان يصاحب الانسان في صراعه ونضاله ؟ لقـــد كنت افرطت في المسير في درب اللامعقول ، وفي مجال ما هو سلبي ، فكان لا بد لي من أن أوقف نفسي عن هذا وذاك وأن ابحث عن طريق ما هو انساني ، مبتعـــدا عن الادب المعاصر ولكن بجذور عميقة تمتد الى تطلعات الكائن البشري .

لقد شرعت بالعمل في كتابي «نشيد عام» .

ولهذا فاني كنت أحتاج الى مكان للعمل ، وجدت بيتا حجريا يواجه المحيط ، في موضع غير معروف ، يدعى «ايسلا نيغرا» . كان صاحب هذا البيت قبطانا اسبانيا ، اشتراكيا قديما اسمه (ايلاديو سوبرينو) ، كان هذا السيد يبنيه ليسكن فيه وعائلته لكنه شاء أن يبيعه لي ، فكيف ابتعته ؟ عرضت مشروع كتابي «نشيد عام» على دار النشر «ايرثيا» التـــي كانت تنشر مؤلفاتي لكنها رفضت ذلك . فاستطعت بمعاونة ناشرين آخريـــن دفعوا مقدما ، ومباشرة الى صاحب البيت ، ان أشتري في عام ١٩٣٩ بيتا للعمل في «جزيرة سوداء» .

ان فكرة قصيدة رئيسية تجمع الاحداث التاريخية والشروط الجغرافية والحياة وصراعات شعوبنا ، كانت تلح وتبدو على انها عمل عاجل لا بد لي

---

٤٨ — ايسلانيغرا : معناها ، جزيرة سوداء ، وهي قرية صغيرة على الساحل بتشيلي، كان للشاعر هناك منزل فيها .

من تأديته . فسمحت «جزيرة سوداء» بما لها من شاطىء بكر وحركة المحيط الصاخبة ، أن انصرف في شغف وعاطفة لتشييد هذا النشيد الجديد .

احضر لي إسبانا

غير ان الحياة أخرجتني من هناك تواً .

كانت تصل الى تشيلي أخبار الهجرة الاسبانية المرعبة ؛ كان قد عبر الحدود الافرنسية اكثر من خمسمائة الف رجل وامراة ، من المحاربين والمدنيين . فحشدتهم حكومة (ليون بلوم) (٢٩) الفرنسية أسيرة القوى الرجعية ، في معسكرات ووزعتهم على حصون وسجون وأبعدتهم الى المناطق الفرنسية المحاذية للصحراء الاسبانية (٣٠) .

كانت حكومة تشيلي قد تبدلت اذ ان أرواح الشعب الاسباني وطدت القوى الشعبية التشيلية فكان لنا حكومة تقدمية .

قررت حكومة تشيلي ، حكومة الجبهة الشعبية ، هذه ارسالي الى فرنسا للقيام بمهمة من أنبل المهمات التي نفذتها في حياتي الا وهي مهمة اخراج عدد كبير من الاسبان المنفيين هناك في سجون فرنسا ومعتقلاتها وترحيلهم الى وطني تشيلي .. وهكذا سيستطيع شعري أن ينتشر مثل نور متوقد يجيء من امريكا اللاتينية بين هؤلاء الرجال المكومين الذين عانوا ما لم يطقه احد غيرهم من جلد وألم وبطولة ، هكذا شعري سينصهر في المساعدة المادية التي تقدمها امريكا اللاتينية حين تأوي الاسبان وتساعدهم وبذلك تقوم بإيفاء دين قديم علينا لهم .

---

٤٩ ـ ليون بلوم : سياسي فرنسي (١٨٧٢ ـ ١٩٥٠) .

٥٠ ـ الصحراء : هكذا في الاصل Sahara ، وهي ما ندعوه بالساقية الحمراء، جنوب المغرب . والمناطق الفرنسية هي أقطار المغرب العربي المستقلة .

خرجت من خلوتي وعزلتي وانا غير قادر على الحركة ، مجصص الساق بعد اجراء عملية فيها ــ هكذا كانت عليه شروطي الفيزيولوجية في تلك اللحظة ــ فقدمت نفسي الى السيد رئيس الجمهورية ، (بيدرو اغـــيره ثيردا) الذي استقبلني في مودة ومحبة .

ــ اجل ، احضر لي آلافا من الاسبان ، فنحن لدينا متسع من العمل للجميـــع ، احضر لي صياديـــــن ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، اكستريمادويين (٣١) .

بعد ايام قليلة وانا ما زلت مجصص الساق ، خرجت أبحث عن اسبان في فرنسا من اجل تشيلي . كانت لي مهمة محددة ، كنت قنصلا مكلفـا بالهجرة الاسبانية الى تشيلي . هذا ما كان ينص عليه قرار التعيين فذهبت وانا مفتخر بلقبي هذا الى السفارة التشيلية بباريس .

لم تكن الحكومة والوضع السياسي فيوطني منسجمين؛ فمثلا، السفارة في باريس ما تغير فيها موظف واحد فظلت على حالها ، وقد كان يغضب رجالها من الديبلوماسيين المصمغين فيها الانيقين الرشيقين ، مجـــرد الاحتمال بأن استطيع ان ارسل ببعض الاسبان الى تشيلي . وضعوني في مكتب قرب المطبخ بالسفارة . ضيقوني الى درجة انهم منعوا عليّ استعمال اوراق الكتابة الموجودة في السفارة . اخذ يفد الى ابواب السفارة حشد غير المرغوب بهم من الاسبان : من محاربين جرحى ، قضاة ، محامين ، كتاب واطباء كانوا قد فقدوا مشافيهم ، عمال من الاختصاصات جميعها .

بما انهم كانوا يشقئون طريقا في معاكسة الريح ؛ هو وجوه الموظفين المقيتة ، كي يصلوا الى مكتبي ، وبما ان مكتبي كان في الطابق الرابع من البناية فان هؤلاء الموظفين فكروا بشيء شيطاني ، الا وهو ايقاف المصعد وتعطيله . كان الكثير من الاسبان جرحى جاؤوا من معسكرات الاعتقال في افريقيا فكان يحزّ في نفسي أن اراهم يصعدون الدرج في مشقة وعناء

---

٣١ ــ اكستريمادويين : نسبة الى منطقة في جنوب غرب اسبانيا .

حتى طابقي الرابع ، بينما الموظفون الشرسون كانوا يتسلئون بهذه الصعوبات ويستهزئون بي .

شخصية شيطانية

كي تزيد حياتي تعقيدا اخبرتني حكومة الجبهة الشعبية لتشيلـــي بوصول قائم بالاعمال ، ففرحت كثيرا جدا نظرا لان رئيسا جديدا فـــي السفارة قد يلغي العراقيل التي كان الديبلوماسيون في السفارة قد اسرفوا فيوضعها امام حركة الهجرة الاسبانية. هبط من محطة Saint - Lazare شاب هزيل يضع نظارة بلا اطار Pince nez كانت تجعله يبدو وكأنه فأر عجوز ، ورّاق يفحص كل شيء في تجارته ، كان يبلغ من العمر حوالي اربع وعشرين سنة او خمس وعشرين ، له صوت أنثوي رفيع حاد جدا ، فقال لي في صوته هذا المتقطع انه سيعترف بي رئيسا له وانه ما جاء الا لمساعدتي وسيعمل تحت امرتي مساعدا في هذا العمل العظيم من ارسال «مهزومي الحرب الامجاد الاكارم» الى تشيلي . وعلى الرغم من فرحـــي بالحصول على مساعد جديد فان هذه الشخصية ما استراحت في روحي وما ارتحت لها ، ولا راقت في عيني ، وعلى الرغم من التملق والمبالغـــة اللذين كان يفرط فيهما فقد بدا لي اني رأيت شيئا مزيفا في شخصيته اللطيفة . عرفت فيما بعد انه مع انتصار الجبهة الشعبية لتشيلي ووصولها الى الحكم ، غيّر على حين غرة موقعه من «فارس كولمبوس» وهي منظمة يسوعية الى عضو في الشبيبة الشيوعية، فسرّت هذه الشبيبة في أوج عهـــد الانخراط فيها بمواهبه الفكريـــة وفرحت بعضوية السيـــد (أريبانو مارينـــن) الذي كان يكتب مسرحيات هزليـــة ومقـالات ، وكان محاضرا لامعا ، باختصار ، كـان يعرف كل شيء ، كما بدا لهم .

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الاندلاع ، وكانت باريس تتوقع كل ليلة الغارات الالمانية وكانت في كل دار تعليمات نظرية وعملية كي يلجأ الاهالي في حالة غارة من الغارات الى الملاجيء والمخابيء . كنت اروح كل ليلة الى بيت صغير في Villiers - sur - Seine مقابل النهر كي أعود كل صباح مكدرا الى السفارة .

توصل (أريبانو مارين) هذا الحديث الوصول ، في بضعة ايام قلائل ، الى أن تكون له أهمية ما حصلت عليها انا ابدا . كنت قد قدمته الـــى (نيغرين) (٣٢) الى (الباريث ديل بايو) والى بعض قادة الاحزاب الاسبانية . بعد مضي اسبوع فقط كان هذا الموظف الجديد يخاطبهم ب «انت» (٣٣) . كان يدخل او يخرج من مكاتب زعماء اسبان. ما كنت أعرفهم انا بنفسي ، وكانت محادثاته الطويلة معهم ، بالنسبة لي ، سرا . من حين الى حين كان ينادني كي يريني قطعة الماس او زمردة كان قد اشتراها لأمه او يحكي لي عن شقراء ذات دله وغنج كانت تجبره على انفاق مبالغ كثيرة جدا في الملاهي والحانات الباريسية . أصبح (اريبانو مارين) هذا صديقا سريع الود لـ (اراغون) وبخاصة لـ (السا Elsa) اللذين الجأناهما في السفارة لحمايتهما من حركة القمع التي اخذت تلاحق الشيوعيين ، فكان يتحفهما بملاطفات وهدايا صغيرة ، لا بد ان طبيعة هذا التشخص قد الهمت (السا تريولي Elsa Triolet) اذ انها تتكلم عنه في واحدة او اثنتين من رواياتها .

كان عليّ ان انتقل الى «بروكسل» كي احلّ هناك مشكلة ماساويـــة للمهاجرين ، حين كنت اخرج من الفندق المتواضع جدا حيث كنت أسكن، وجدت نفسي على بعد فم الجرة (٣٤) من مساعدي اللامع الانيق (اريبانو مارين) فأخذني في أحضانه وهو يرحب ويهلل ثم دعاني الى الاكل فـــي اليوم نفسه .

اجتمعنا على مائدة هناك في فندقه ، وهو اكثر الفنادق غلاء فـــي «بروكسل» . كان قد امر بأن توضع فوق المائدة اصص زهور ، طلب طبعا «كافيار» و«شمبانيا» . كنت انا خلال الاكل محافظا على الصمت المنشغل

---

٣٢ ـ نيغرين Juan : سياسي وطبيب اسباني (١٨٨٧ ـ ١٩٥٦) .

٣٣ ـ انت : ضمير المخاطب يستعمل بين الاقارب والاصدقاء بينما الاخرون يخاطبون usted ويقابلها بالعربية «حضرتك» .

٣٤ ـ الجرّة : هكذا في الاصل jarra ، والتعبير هنا اسباني يقابله بالعربية، قاب قوسين او ادنى .

المهموم فيما كنت اسمع خطط مضيفي اللذيذة ومشاريعه الشيقة واسفاره القريبة للراحة والاستجمام ، وكان يحكي لي عن مجوهراته وتحفه ، كنت كأني استمع الى غني حرب جديد ولكن مع بعض علائم الخبـــل والعته والجنون ، وكان في حدة نظراته وفي تأكيداته الحازمة الجازمة يسبب لي نوعا من الدوار فقررت ان اقطع بما هو صحي (٣٥) وأن اكلمه بصراحة عن مشاغلي وضيق وقتي فطلبت منه ان نتناول القهوة في غرفته لان عندي ما أبوح به اليه .

عند منحدر الدرج الكبير ، بينما كنا نصعـــد لنتحادث على حدة ، اقترب منه رجلان ما كنت اعرفهما من قبل فقال لهما بالاسبانية ان ينتظراه حتى ينزل بعد دقائق قليلة .

ما ان ولجت الى غرفته حتى تركت جانبا القهوة وبدات بالقول المعنف الطاغي :

ـ يبدو لي ـ قلت له ـ انك تسير في طريق وخم قذر ، انك تحولت الى معتوه بالمال . قد تكون ما زلت صغيرا جدا كي تفهم ما اقوله لك ، ان واجباتنا السياسية هي جدية جدا فمصير آلاف المهاجرين في ايدينا ، ولا يمكن ان نلعب بهذا المصير ، انا لا اريد ان اعرف شيئا عن شؤونك وقضاياك ، لكنني اريد ان احذّرك ، ثمة اناس يقولون بعد ان يقضوا حياة تعيســة بائسة انه «لا احد قدّم اليهم النصيحة الجميلة وانه لا احد حذّرهم من مغبة ما كانوا يفعلون» ولكن هذا لا ينطبق عليك فهانذا احذرك مما تفعل والعاقبة عليك وهذا ما اقوله ، ليس الا ، والآن فاني سانصرف .

نظرت اليه حين مددت يدي لأودّعه فرايت الدموع تنحدر من عينيه الى فمه ، فشعرت بشيء من الندم ، ألم اذهب بعيدا في تقريعي وتعنيفي؟ اقتربت منه وربتّ على كتفه :

ـ لا تبك .

---

٣٥ ـ بما هو صحي : تعبير اسباني ، يقابله بالعربية ، بالتي هي احسن .

ـ اني لابكي من غضب ـ أجابني .

ابتعدت دون ان اقول له كلمة اخرى ثم عدت الى باريس ولم أره بعد البتة . حين نزلت رايت هناك عند الدرج الرجلين المجهولين ينتظران ثم رايتهما يصعدان بسرعة الى غرفته .

ان خاتمة هذه الحكاية جرت بعد زمن طويل في المكسيك ، حيث كنت انا هناك قنصلا لتشيلي آنذاك . ذات يوم كنت مدعوا الى الغداء في بيت لاجئين اسبان يقيمون في المكسيك ، وكان من بينهم اثنان تذكراني .

ـ من اين تعرفاني ؟ ـ سألتهما .

ـ نحن من كنا في «بروكسل» وصعدنا للتكلم مع زميلك (اريانـــو مارين) حين رأيناك تهبط من غرفته .

قصا عليّ فصلا غريبا للغاية . كانا قد وجداه في غرفتـــه مغتسلا بالدموع ، متأثرا بأزمة عصبية وقال لهما وهو في نشيج ونحيب : « لقد عانيت الآن قبل قليل ، أمرا ما عانيت مثله ابدا في حياتي كلها ، فلقد خرج (نيرودا) من هنا وهو على نية أن يخبر عنكما الـ «جيستابو» (٣٦) في انكما شيوعيان خطيران من اسبانيا ، فلم استطع اقناعه بالعدول عن هذا الامر الذي ازمع عليه ولا قدرت ان اجعله ينتظر بضعة ساعات ريثما تستطيعان الهرب ، فليس لكما الا دقائق معدودات كي تفرا بجلديكما ، واتركا عندي حقائبكما فسأحفظها ثم أوصلها لكما حيث تكونان او تقيمان» .

ـ يا له من قدم ، أبله ـ قلت لهما ـ على كل حال من حسن حظكما انكما استطعتما ان تفلتا من الالمان .

ـ لكن الحقائب كانت تحتوي على تسعين الف دولار ، وهي ملـــك

---

٣٦ ـ الجستابو Gestapo : الشرطة العسكرية الالمانية .

النقابات الاسبانية فلم نستطع ان نستعيد هذا المبلغ لنعيده الى العمال ولم نعد نرى المال ولا الحقائب .

من بعد عرفت ان هذه الشخصية الشيطانية قد قامت بجولة ممتعة طويلة في بلدان الشرق الادنى منمتعا بصحبة حبيبته الباريسية . علـــى فكرة تبين كذلك ان تلك الشقراء المتدللة المتطلبة ما هي الا طالب اشقر من جامعة السوربون .

ثم بعد مضي زمن قليل نشر في الصحف انسحابه من الحزب الشيوعي قائلا : «ان اختلافات عقائدية عميقة تجبرني على اتخاذ هذا القرار» .

جنرال وشاعر

ان كل رجل وصل من الهزيمة او من الأسر كان رواية ذات فصول ، ذات نحيب ، ذات ضحك ، ذات شعور بالوحدة ، ذات غرام . بعض هذه الروايات والحكايات كان يذهلني ويأسرني .

لقد عرفت جنرالا في الطيران ، طويل القامة ، زاهدا في الدنيا ، رجل كلية عسكرية وخبرة ودراية ، له من الاوسمة ما له ، ومن الالقاب احسنها . هناك كان يسير عبر شوارع باريس ، ظلا «دونكيخوتيا» للارض الاسبانية ، عجوزا منتصبا كحور قشتالة .

حين استطاع الجيش الفرانكي [٣٧] شطر المنطقة الجمهورية الـــى قسمين كان على هذا الجنرال (هيريرا) ان يعيش في الظلام المطبق المطلق ، ان يفتش خطوط الدفاع ، ان يعطي الاوامر في هذه الجبهة او تلك ، في هذا القسم او ذاك وهو في طائرته يحلق في الليالي المعتمة ، وفي الدياجير المظلمة فوق اراضي جيش العدو . من حين الى حين طلقة فرانكية كانت

---

٣٧ ــ الفرانكي : نسبة الى (فرانكو) رئيس الدولة الاسبانية .

تمر فتكاد تلمس مركبته ، ولكن هذا الجنرال لكثرة ما كان عليه ان يتجول ويحلّق ، كان يملّ ويسأم فتعلّم كي يستطيع أن يقرأ في العتمة ، طريقة «برايل» Braille . حين اتقن كتابة العميان كان دائما يسافر لتأدية مهماته الخطيرة وهو يقرأ بالاصابع ، بينما تحته كانت تتوهج النيران وآلام الحرب الاهلية الاسبانية . لقد حكى لي هذا الجنرال انه استطاع ان يقرأ خلال جولاته الليلية كتاب «الكونت مونت كريستو» وانه حين اخذ بقراءة «الثلاثة المسلحون بالبنادق» قوطعت قراءته بالهزيمة تم اضطر الى الالتجاء الى فرنسا .

أذكر حكاية أخرى ذات تأثير كبير في نفس كل انسان يسمعها ، وهي قصة الشاعر الاندلسي (بيدرو غارفياس). استقر به المنفى في قلعة للورد ب «اسكوتلانديا» . كان هذا الحصن منعزلا وحيدا بعيدا فكان (غارفياس) لطبيعته الاندلسية القلقة الانيسة يروح كل يوم الى حانة هناك في المنطقة ويجلس في صمت وسكون، اذ انه لم يكن يتكلم الانجليزية بل انه يكاد لا يتكلم الاسبانية اللهم الا لغة اندلسية غجرية ما كنت انا افهمها ، يشرب كؤوس بيرته في كآبة ووحدة . لفت هذا الزبون الاخرس الابكم نظر صاحب الحانة . ذات ليلة وقد غادر الحانة السمّار والسكارى، التفت اليه صاحب الحانة ورجاه أن يظل عنده ليستمرا في مقارعة كؤوس الخمر حتى مطلع الفجر ، قرب نار المدفأة المتوقدة التي تقذف الشرر فتبوح بما لا يستطيعان البوح به .

لقد اصبحت هذه الدعوة طقسا وعادة . ففي كل ليلة يستقبله صاحب الحانة الوحيد مثله ، فلا امرأة تأويه ولا أسرة تشغله او تسليه . شيئا فشيئا اخذت تنفك عقد من لسانيهما فكان (غارفياس) يحكي له قصص الحرب الاسبانية كلها عن طريق صيحات وإيماءات ولعنات وتأوهات اندلسية جدا . كان صاحب الحانة يصغي اليه في سكون مهيب دون أن يفهم ، طبعا ، ولا كلمة واحدة مما يقول مسامره .

لقد بدأ الاسكوتلاندي من جانبه ، يقص على الشاعر حكاية فشله في حياته ـ هذا ما كان يخيل للشاعر ـ حكاية هرب زوجته التي هجرته : مآثر ابنائه الذين كانت صورهم بالازياء العسكرية تزين الجدران حول المدخنة ، كل هذا طبعا قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه ، أقول قد ...

لأن (غارفياس) كذلك ما فهم ولا كلمة واحدة مما كان يقوله الآخر وذلك خلال الشهور الطويلة التي استغرقتها هذه الاحاديث الشيقة الغريبة .

غير ان صداقة هذين الرجلين الوحيدين المهجورين اللذين كانا يتحدثان في ود وعاطفة ، كل عن همومه وشؤونه بلغته التي لا يفهمها الآخر ، راحت تزداد وتنمو وتتعمق كل ليلة حتى الشروق واصبحت صداقتهما ضرورية لكل منهما .

حين كان على (غارفياس) ان يرحل مضطرا الى المكسيك ، تودّعا شاربين ، متحدثين ، متعانقين ، باكيين ، حزينين . ان ما كان يحزّ في نفسيهما هو انهما سيعودان من جديد ، كل الى عزلته ووحدته .

ــ (بيدرو) ــ قلت له مرات كثيرة ــ ماذا تظن انه كان يقص عليك ؟

ــ (بابلو) ، الحقيقة انني ما فهمت منه كلمة ، لكن حين كنت أنصت اليه كان لديّ الشعور الاكيد اني افهم كل ما يقول ، وحين كنت اتكلم انا، كنت متأكدا كذلك انه كان يفهم كل ما اقول ، وهذا هو المهم .

ال «وينيبيغ» Winipeg

لقد سلمني موظفو السفارة صباح ذات يوم برقية طويلة وهم يبتسمون ، فبدا لي غريبا انهم يبتسمون لي اذ انهم ما كانوا يردون لي تحية ولا يبادروني بتحية ، فكيف هذا ؟ لا بد ان الرسالة تحتوي على شيء بعث في نفوسهم الغبطة والفرح .

فضتها وإذ بها برقية من تشيلي ، موقعة من لدن السيد الرئيس (بيدرو اغيره ثيردا) ، اي الشخص نفسه الذي كنت قد استلمت منه التعليمات القاطعة الحاسمة لترحيل الاسبان المنفيين من فرنسا الى تشيلي.

قرات في ذهول ودهشة ان السيد (بيدرو) رئيسنا الطيّب ، علم هذا

الصباح اني اقوم بمحاولة لادخال المهاجرين الاسبان الى تشيلي ففوجيء وهو يطلب مني ان انفي هذا الخبر الغريب في اسرع وقت .

استغربت من امر هذه البرقية التي أرسلها لي السيد الرئيس ، لقد كان عملي في التنظيم والاختيار والتسفير عملا شاقا وكنت اقوم به وحدي . لحسن حظي ان الحكومة الاسبانية التي تأسست في المهجر ادركت اهمية المهمة التي ألقيت على عاتقي ، لكن مع ذلك فان مصاعب جمة كانت تنشأ كل يوم ، مصاعب غير متوقعة تعرقل اعمالي واشغالي . اثناء ذلك كان يتهيأ من معسكرات فرنسا او افريقيا آلاف اللاجئين كي يرحلوا الى تشيلي .

كانت الحكومة الجمهورية في المهجر قد استأجرت باخرة «وينيبيغ» لترحيل اللاجئين ، وهذه الباخرة ضاعفت من قدرتها عن طريق بعض التحويلات التي اجريت في آلاتها ، وكانت تنتظر راسية برصيف «ترومبيلوب» ، وهو ميناء صغير قرب «بوردس» .

ما العمل ؟ ان ذلك العمل المأساوي المكثف المضاعف ، اذ اننا كنا على حافة الحرب العالمية الثانية ، كان بالنسبة لي قمة وجودي ومحك قدرتي، ان رمز يديّ المدودتين نحو أولئك المقاتلين الشجعان المطاردين، كان يعني بالنسبة لهم الانقاذ من الفناء وكان دليلا على ان وطني تشيلي هو وطن مناضل كريم يحضن المناضلين الكرماء . لقد خابت آمالي وفشلت أحلامي حين استلمت برقية الرئيس .

قررت استشارة (نيغرين) في هذا الامر . فلقد كنت محظوظا بتعرّفي وصداقتي بالرئيس الاسباني (خوان نيغرين) وبالوزير (الباريث ديل بايو) وبآخرين من المسؤولين الاسبان الجمهوريين . كان (نيغرين) اكثرهم اهمية. لقد بدت لي دوما السياسة الاسبانية انها سياسة محصورة ليس لها آفاق واسعة ، كأنها سياسة تخطط على مستوى محافظة او ناحية وليس على مستوى قطر او عالم .

كان (نيغرين) عالميا او على الاقل كان اوروبيا . أتم دراساته في

«ليبزيغ» . كانت له قيمة اكاديمية وكان يحافظ في باريس بجدارة وكرامة على هذا الظل اللامادي الذي يكون عادة لحكومات المهجر .

تحدثنا ، رويت له قصة البرقية الرئاسية الغريبة التي جعلتني فعلا ابدو وكأني دجّال ، محتال ، ثرثار ، مهذار ، يقدم لشعب من المنفيين ملجأ لا يوجد . وقلت له ان الحلول الممكنة هي ثلاثة لا رابع لها ، الاول مستنكر فظيع كريه وهو ان اعلن ببساطة اني الغيت موضوع هجرة الاسبان الى تشيلي ، الثاني ، ماساوي وهو ان أعلن علنيا عدم موافقتي وانهاء مهمتي ثم اطلق رصاصة في صدغي ، الثالث غير مناسب وهو أن املأ الباخرة بالمهاجرين وأن اذهب معهم وننطلق من غير اذن او سماح نحو «بالبارائيسو» لنرى ماذا سيحدث .

ارتمى (نيغرين) نحو الخلف في مقعده وسحب من سيجاره الكبير ما سحب ، ثم ابتسم في كآبة وأجابني :

ـ ألا تستطيع استعمال الهاتف ؟

كانت الاتصالات الهاتفية بين اوروبا وأمريكا في تلك الايام على غاية من الصعوبة والتعقيد الى درجة لا تطاق ، اذ لا بد من انتظار ساعات وساعات ومع ذلك فقد اتصلت بتشيلي فاستطعت ان اسمع في ضجيج كبير يبعث على صمم الآذان ، صوت وزير الخارجية النائي البعيد ، من خلال محادثة متقطعة كان يجب ان تعاد عشرين مرة ، دون أن نعرف أن كان يفهم بعضنا الآخر ، ونحن من حين الى حين نصرخ صراخا هائلا ، او نسمع الجواب يأتينا كأنه صخب محيط هائج ، اعتقدت اني جعلت الوزير (اورتيغا) يفهم أني لن أمتثل لتناقض كلام الرئيس واعتقد اني فهمت منه انه يطلب مني أن أنتظر حتى اليوم التالي .

فقضيت ، كما هو منطقي ، ليلة مزعجة في فندقي الصغير بباريس . في مساء اليوم التالي عرفت ان الوزير قدّم في ذلك الصباح استقالته ، فهو كذلك لم يكن ليقبل بتجريدي من الصلاحيات التي خوّلها اليّ الرئيس ، فارتعدت الحكومة واستعاد رئيسنا الطيّب الذي كان قد شوّش وبلبل

نتيجة ضغوط مارسها بعضهم عليه ، فاستلمت برقية جديدة تشير ان استمر بعملية التهجير .

اخيرا شحنا المهاجرين في باخرة «وينيبيغ» ؛ على ذلك الرصيف اجتمع الزوج بزوجته ، الاب بابنه ، بعد ان كانوا مفترقين لزمن طويل ، وكان بعضهم يأتي من طرف في اوروبا او افريقيا وبعضهم يأتي من الطرف الآخر . حين يصل قطار كان الناس المنتظرون يخفون لرؤية ذويهم واصحابهم ، يعرف بعضهم بعضا بين الدموع والصراخ والركض والازدحام ، وكان القادمون يخرجون رؤوسهم من نوافذ القطار ويشرئبون لعلهم يستعجلون رؤية من فقدوه من اهلهم وأقربائهم ، كانت هذه الرؤوس تبدو كأنها عناقيد انسانية ، ثم تلاقوا وصعدوا معا الى الباخرة فرحين باكين . منهم الصيادون ومنهم الفلاحون ومنهم العمال ومنهم المثقفون ، كانوا عينة اسبانية من القوة والبطولة والعمل . ان شعري في نضاله قد استطاع ان يحصل لهم على وطن فكنت بهذا مفتخرا وشعرت بالاعتزاز .

اشتريت صحيفة . كنت أسير عبر شارع Varenes - Sur - Seine كنت امر قرب القلعة القديمة التي تعلو فوق أطلالها المحمرة بالنباتات المتسلقة على جدرانها أبراج صغيرة من الصخر الاسود . ها هي القلعة التي كان فيها (رونسارد) (٣٨) وشعراء «لا بلياد» يجتمعون في الزمن القديم . لقد كان لهذه القطعة في نفسي مكانة حجر ومرمر ، سحر بيت شعر ذي احدى عشرة نبرة (٣٩) ، مسطر بأحرف ذهبية عريقة . فتحت الصحيفة ، ذلك اليوم كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت ، هذا ما كانت تقوله في احرف كبيرة وبمداد اسود قذر تلك الصحيفة التي سقطت من يدي في تلك القرية القديمة الضائعة .

كان العالم كل العالم يتوقعها ، فهتلر كان يبتلع الاراضي والبلدان ، وكان السياسيون الانجليز والفرنسيون يتراكضون مع مظلاتهم لكي يهبوه

---

٣٨ – رونسارد (بيير دي Pierre de) : شاعر فرنسي (١٥٢٤ – ١٥٨٥) .

٣٩ – هو بحر من بحور الشعر في اللغات اللاتينية .

مدنا وممالك وبشرا .

لقد كان يملأ الضمائر دخان من التشويش والبلبلة . كنت ارى من نافذة غرفتي بباريس مباشرة «لوس انفاليدوس» فارى أوائل فرق المحاربين وهي تخرج ، والفتيان الذين ابدا ما عرفوا للزي العسكري لونا من قبل وما عرفوا قط ان يرتدوا هذا الزي العسكري وهم ينطلقون كي يدخلوا فـــي مخطم الموت الكبير .

لقد كان انطلاقهم حزينا والحزن كان بيّنا في سيماههم . لقد كانت هذه الحرب حربا خاسرة من قبل ان تبدأ ، وحزنهم كان شيئا لا يحدد. كانت القوى الشوفينية المتعصبة تجري في الشوارع تطارد المفكريـــن التقدميين . لم يكن العدو متمثلا بالنسبة لهم في اتباع (هتلر) ، فـــي مجموعة «لافال» ، بل في زهرة الفكر الفرنسي . لقد حمينا في السفارة التي كانت قد تغيرت كثيرا الشاعر الكبير (لويس اراغون) فقضى فيها اربعة ايام عاكفا على الكتابة ليل نهار فيما الشراذم كانت تنتظره للقضاء عليه . هناك في سفارة تشيلي انهى روايته «مسافرو لا امبريال» Ios Viajeros de la imperial وفي اليوم الخامس توجـــه وقد ارتدى الزي العسكري الى الجبهة ، كانت حربه الثانية ضد الالمان .

لقد تعودت في تلك الايام الشفقية على هذا الارتياب الاوروبي الذي لا يعاني ثورات مستمرة او زلازل ، بل يحتفظ بسم الحرب القاتل وهو يملأ الهواء والخبز .

خوفا من الغارات كانت العاصمة الكبيرة تنطفىء ليلا ، وهذه العتمة، عتمة سبعة ملايين نسمة معا ، هذه الدياجير الكثيفة الثقيلة التي كان لا بد من السير في ظلها بمدينة النور ، ظلت ملتصقة في ذاكرتي .

... في نهاية هذه المرحلة ، كما لو ان هذا السفر الطويل كان غير مجد ، أعود فأجد نفسي وحيدا في هذه الاراضي الحديثة الاكتشاف ... مثلما في مخاض الولادة ، كما في البدء المنذر للرعب الميتافيزيقي حيث نبعت أوائل أشعاري ، كما في شفق جديد قد هيجته وأثارته قدرتـــي

الابداعية ، ادخل في احتضار ، اغلغل في حشرجة ، الج في الوحدة الثانية ، فالى اين المسير ؟.... والى اين العود ؟... الى اين التوجه؟... أأسكت أم انبض ؟... انظر الى ضواحي الوضوح وأطراف العتمة فلا أجد الا الفراغ نفسه ... هذا الفراغ الذي صنعته يداي في عناية قدرية وحيطة مشؤومة ....

بيد ان ما هو اكثر قربا ... ما هو اكثر جوهريا ... ما هو اكثر حدّة ... ما هو اكثر سعة وامتدادا وعمقا ... ما كان ليتجلى لي حتى هذه اللحظة ... كنت فكرت في العوالم كلها لكنني ابدا ما فكرت في الانسان ... كنت قد استنبطت قلب الانسان في قساوة واحتضار ... غير اني ما فكرت في البشر ... كنت ارى مدنا ولكنها مدن فارغة خاوية .... كنت ارى معامل ومصانع في مشاهد مأساوية بيد اني ما كنت ارى العذاب والعناء والشقاء تحت اسطحة المنازل ، فوق الشوارع ، في المحطات ، في المدن في الارياف ....

حين انطلقت الرصاصات الاولى فاخترقت قيثارة اسبانيا وانبثقت منها بدل الالحان فوّارات دم ، توقف شعري مثل شبح في وسط شوارع الكآبة الانسانية ... وأخذ يتسرب اليه تيار من الجذور والدماء ... منذ ذلك الحين اتحد دربي بدرب الآخرين ... ورأيت اني قد عبرت من جنوب الوحدة نحو شمالها فكان الشعب ... الشعب الذي اراد شعري المتواضع ان يكون له سيفا ومنديلا ... كي يجفف العرق عن آلامه الكبيرة ، كي يعطيه سلاحا في معركة الخبز ....

اذّاك يتسع المدى ، يغدو كبيرا عميقا ابديا سرمديا .... ها نحن نقف فوق الارض ... نريد ان نحوز على كل ما هو موجود ... نمتلكه الى الابد ... لا نبحث عن اللغز فنحن اللغز ... ان شعري يبدأ كي يصبح جزءا ماديا من جو فضائي ابدي ... من جو ، هو في الوقت نفسه ما تحت البحري وما تحت الارضي ... ان شعري يشرع كي يلج عبر دهاليز ما هو نباتي رائع ... ان شعري يتهيأ كي يتحادث واشباحا شمسية في وضح النهار .... ان شعري يستعد كيما يسبر ، يستنبط غور المعدن الخبيء في سر الارض .... ان شعري يعد العدة كي يحدد العلاقات المنسية بين الخريف والانسان .... ان الجو ليعتم احيانا ولكن وشيكا ما ينجلي

ببريق مشحون بتألق ورعب .... بناء جديد بعيد عن الكلمات المستعملة المستهلكة يبرز في سطح الهواء ... قارة جديدة من اكثر مواد شعري اكتنانا وسرية تشمخ عبر الفضاء.... لقد قضيت في تعمير هذه الاراضي، في تصنيف هذا الملكوت ، في لمس ضفافه الطلسم ، في اخماد عواصفه وتهدئة ازباده ، في التجواب عبر حيواناته ، في التسيار عبر جغرافيته الطولانية ، سنين غامضة ، متوحدة ، قصيئة ...

الفصل السابع

المكسيك المزهر الشائك

لقد ارسلتني حكومتي الى المكسيك . وصلت في عام ١٩٤٠ وانا مليء بهذا الكدر القاتل الناتج عن آلام كثيرة وفوضى اليمة كي استنشق النسيم والحياة في هضبة «أناهواك» التي نعتها (الفونسو ريس Alfonso Reyes) (١) بأنها اكثر منطقة ، شفافية في العالم .

لقد غمرني المكسيك المزهر الشائك ، الجاف العاصف ، العنيف الرسم واللون ، العنيف البشرة والخلق ، بتمائمه وبأنواره المباغتة .

لقد جبت المكسيك خلال سنين وسنين من سوق الى سوق ، لان المكسيك هو في الاسواق ، ليس هو بالاغاني ذات الحروف الحلقية التي نسمعها في الافلام السينمائية ، وليس هو بالتفاهة المزيفة لشارب

---

١ ـ الفونسو ريس : كاتب وروائي مكسيكي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٩) .

ومسدس ، ان هو الا ارض المناديل ذات اللون القرمزي وذات اللون الفيروزي البراق . ان هو الا ارض الأواني والجرار والفاكهة المنفلقة تحت سرب من الحشرات هنا وهناك . ان هو الا حقل صبار ذو مداد ازرق فولاذي وذو تاج من الاشواك الصفراء .

ان كل هذا لتمنحه اكثر الاسواق جمالا في العالم ، وتريك ثمة في اسواق المكسيك ، الفواكه والصوف ، البن والانوال ، قدرة انامل المكسيك الخصبة الخالدة المدهشة .

لقد تجولت عبر المكسيك ، ركضت على مدى شواطئه ، شواطئه العالية الجرف ، المتقدة ببريق سرمدي فوسفوري . لقد انحدرت من «توبولوبامبو» في «سينالوا» . عبر هذه الاسماء نصف الكروية ، اسماء خرّيفة تركها الآلهة هناك تراثا في يدي المكسيك ومضوا عنها حين بدا الرجال الذين هم اقل قساوة من الآلهة ، يأمرون فيها ويسودون عليها . لقد مشيت عبر مقاطع هذه الاسماء ، هذه المقاطع المؤلفة من اللغز والرونق، عبر هذه الاصوات الفجرية الصبحية . فهذه الناحية باسم «سونورا» وتلك باسم «يوكاتان» ، اما «أناهواك» فهي تشمخ كأنها مجمرة باردة حيث تصل اليها الاشذاء البليلة من « ناياريت » حتى « ميشواكان » حيث يُدرك أريج دخان الجزيرة الصغيرة «خانيتثيو» ، وعطر الذرة الذي يصعد عبر « خاليسكو » وعبير الكبريت لبركان « باريكوتين » الجديد وقد امتزج بعبق رطب من أسماك بحيرة « باتثكوارو » . ان المكسيك لهو آخر الاقطار السحرية ، انه لسحري في قدمه وتاريخه، انه لسحري في موسيقاه وتضاريسه . لقد شعرت وانا اطرق دربي عبر هذه الصخور المسوّطة (٢) بالدم المستديم ، المتصالبة بخيط عريض من الدم والطحلب ، اني هائل واني عريق واني لجدير بهذه المسيرة بين هذه الابداعات الكثيرة العريقة . ثمة وديان وعرة مسدودة بجدران هائلة صخرية ، من حين الى حين تلال مرتفعة متشققة كما لو بسكين ، غابات استوائية عملاقة ، اطلالات متوهجة من خشب ومن افاع ، من عصافير ومن

---

٢ ـ المسوّطة : مشتقة من الكلمة العربية السوط Azote .

اساطير . لقد وجدت في تلك الاراضي الشاسعة المعمورة حتى أطرافها الاخيرة بصراع الانسان في الزمن ، وجدت في أبعادها ومداها الكبير اننا نحن ، تشيلي والمكسيك ، قطرا امريكا المتقاطران . ابدا ما حركتني العبارة الدبلوماسية المصطلح عليها والتي تجعل سفير اليابان يجد في اشجار كرز تشيلي ، والانجليزي يجد في ضباب شواطئنا ، والارجنتيني او الالماني يجدان في ثلج بلادنا المحدق الكثيف ، شبها بما لهم في بلدانهم ، او بما في بلدان العالم جميعها .

انه ليسرني التنوع الارضي ولمتطيب لي الفاكهة الارضية المتميزة في اصنافها كلها . اني لا أنقص شيئا من قدر المكسيك ، هذا البلد الحبيب ان قرنته في الاشياء البعيدة ببلدنا المحيطي الغلالي بل اني ابين خصائصه وارفع من ميزاته كي تتباهى قارتنا الامريكية بكل عباءاتها ، بمرتفعاتها واعماقها قاطبة . وليس ثمة في امريكا وربما في الكرة الارضية بلد اكثر عمقا انسانيا كما هو المكسيك واناس المكسيك . انك لترى من خلال ارشاداته المضيئة ومن خلال اخطائه الكبيرة ، السلسلة نفسها من الكرم السخي جدا ، من الحيوية العميقة المتدفقة جدا ، من التاريخ الفريد في نوعه جدا ، من الخصوبة المعطاء الدائمة ابدا .

لقد انحرف بنا المسير ذات يوم عبر القرى صيّادة الاسماك ، حيث الشبكة تغدو جد شفافة صافية فتبدو فراشة كبيرة تعود الى المياه كي تحوز على الحراشف الفضية التي تنقصها ، عبر مراكز هذه القرى ذات المناجم التي ما ان يستخرج منها المعدن حتى يغدو شبيكة صلبة وسبيكة متينة في هندسة براقة جدا ، عبر الطرق حيث تشاد الاديرة الكاثوليكية الكثيفة الشائكة كشجر الصبار الهائلة ، عبر الاسواق حيث البقول معروضة مثل زهرة ، وحيث غنى الالوان والاذواق يصل الى درجة الاحتدام والنوبة، الى ان اجتزنا مدينة المكسيك لنصل الى «يوكاتان» ، وهي مهد نشأ من أقدم جنس في العالم أعني شعب «ماياب» **Mayab** الوثني ، ان الارض هناك لتهتز بما لها من تاريخ وما بها من بذور . لمّا تزل تنمو هناك ازاء شجر الصبار النشيط الحيوي ، الاطلال المليئة بالذكاء والأضاحي والتضحيات .

حيث تتقاطع الطرق الاخيرة ، وصلنا الى الارض المديدة الفسيحة

حيث ترك اولئك المكسيكيون القدماء تاريخهم الموشّى مخبأ تحت اشجار الغابة . هناك نعثر على نوع جديد من الماء ، انها لاغرب مياه في هـــذا الكوكب ، ليست كمياه البحر ، ليست كمياه النهر ، ليست كمياه الجدول، ليست كمياه الغدير ، ليست بالمياه المعروفة ، ليس ثمة في «يوكاتان» من ماء الا تحت اعماق الارض تنشق فجاة عن بئر واسعة بكر ثم تعود فتنشق عن بئر اخرى على حين غرة ، انحدارات هذه الآبار مليئة بالنباتـــات الصغيرة المدارية . انك لترى من خلال هذه الاعشاب في الاعماق مياهـــا عميقة خضراء فلكية . لقد وجدت قبائل «المايا» هذه الشقوق الارضيـــة المسماة «بينوته» (٣) Cenote فالتهوها وعبدوها بطقوسهم الغريبة. كما في الاديان جميعها قدّس البتر ، في المبدأ ، الحاجة والخصوبة ، كذلك في هذه الارض . فلقد هزمت المياه الخبيئة الارض اليباب الجفاف فكانت الارض تتصدع حسية منها فتنبثق المياه كي يفرح البشر .

عند ذلك . فوق الآبار المقدسة ، عبر آلاف السنين ضاعفت الاديان البدائية والاديان الغازية الوارده من سر الماء اللغز . لقـــد ألقت مئات العرائس العذراوات المزينات بالزهر والذهب بعد احتفالات عرائسية على صفاف الآبار . بانفسهن ونفسهن الى اعماق هذه المياه الجارية التي لا سبر غورها . فكانت تطفو على السطح الزهور والتيجان والحلي ؛ لكـــن العرائس مكثن في حماة الطين القصيّ مشدودات الـــى الماء بسلاسلهن الذهبيه (٤) .

لقد انقذ جزء ضئيل جدا من هذه الجواهر بعد آلاف السنين فوضعت في واجهات متاحف المكسيك وامريكا الشمالية . بيد اني حين تغلغلت في هذه الانحاء الخالية الوحيدة لم ابحث عن الذهب بل عن صراخ الصبايـــا الغارقات . لقد خيل اليّ اني كنت اسمع في نعيب الغربان والخفافيش الغرب، حشرجة العرائس الجشاء واني المح في طيرانها السريع الـــذي

---

٣ ــ ثينوته : هي بئر عميقة واسعة .

٤ ــ من المعروف ان حضارة المكسيك هي حضاره قديمه جدا ، وما زال التشابه الموجود بينها وبين الحضارة المصرية موضع بحث الدارسين وعلماء التاريخ القديم .

تعبر به العظمة المعتمة للماء السحيق السواعد الصفراء لتلـــك الصبايـا الغريقات .

لقد شاهدت ذات مرة حمامة تجثم فوق التمثال الذي يطيل ذراعـــه الحجرية البيضاء ويمدها فوق الماء والهواء الخالدين ، لست ادري اي نسر كان يلاحقها ، كانت هي غريبة في تلك الاصقاع حيث لا طير الا القبّرة ذات الصوت الابكم ، واليمامة ذات الريش الرائع وال «كوليبري» (٥) الفيروزجي والطيور الجارحة الكواسر ، كانت هذه الطيور جميعها تجتاح الغابة بحثا عن اكلها وسعيا وراء بهجتها وطربها. حطت الحمامة فوق راحة يد التمثال، بيضاء مثل قطرة ثلج فوق الاحجار الاستوائية المصنـــوع منها التمثال . نظرت اليها مستعبرا اذ انها جاءت من عالم آخر ، من عالم متناسق ودّي، اتت من سارية «فيثاغورية» (٦) او من نقطة في البحر الابيض المتوسط. لقد توقفت عند حافة الدياجير ، عند حاشية المنايا . فاحتقرت سكوني وهي لا تدري انني كذلك انتمي الى هذا العالم البدائي ، الامريكي الدامي، القديم العريق فطارت امام عيني الى ان ضاعت في السماء .

الرسامون المكسيكيون

كان الرسم مسيطرا على الحياة الفكرية في المكسيك ، الرسامـــون المكسيكيون يغطون العاصمة بتاريخ وجغرافيا ، بغارات مدنية ، بمجادلات حديدية . على قمة من قمم الرسم اذ ّاك كان يتربع (خوسه كليمينتـــــه اوروثكو) (٧) ، وهو رجل عملاق اقطع اليد ، نحيل الجسم هزيله ، نوع من (غويا Coya) (٨) في وطنه الطيفي . لقد تحدثت معه مرات كثيرة،

---

٥ ـ كوليبري Colibri : هو عصفور امريكي صغير ، ذو منقار طويل ضعيف .

٦ ـ فيثاغورية : نسبة الى (فيثاغورس Pitagoras) الفيلسوف وعالم الهندسة اليوناني المشهور .

٧ ـ خوسه كليمينته اوروثكو : رسام مكسيكي (١٨٨٣ ـ ١٩٤٩) .

٨ ـ غويا Francisco de : رسام اسباني مشهور (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) .

كان شخصه يبدو خاليا من العنف الذي يظهر في أعماله الفنية . كانت له نعومة صانع الفخار الذي اضاع يوما يده في المخرطة وبيده الاخرى يشعر انه لا بد يخلق عوالم لا تنتهي . ان فلاّحاته المرميات بالرصاص ، وجنوده وصناع اللحام وحوذيّيه وكل ناؤوس رسمه بصلبان رهيبة ، ان هذا كله لهو اكثر ما في رسومنا الامريكية جدارة بالخلود وسيظل يدل على قساوتنا وعنفنا .

كان (ديغو ريبيرا) (٩) قد عمل كثيرا في تلكم الاعوام وكان يتخاصم مع الناس جميعهم ؛ ذاك ان الرسام العملاق هذا كان ينتمي الى عالم الخرافة ، حين كنت اراه كنت أستغرب من أن ليس له ذيول ذات حراشف او اقدام بحوافر .

كان دائما خلاقا ومبتدعا ، فلقد نشر قبل الحرب العالمية الاولى في باريس (ايليا ايهرينبورغ) (١٠) كتابا حول مآثر (ريبيرا) وتزييفاته (١١) عنونه : «حياة (خوليو خورنيتو **Julio Jurenito**) **وسلوكه**» .

بعد مضي ثلاثين سنة كان (ديبعو ريبيرا) لما يزل معلما كبيرا في الرسم والخرافة ، فقد كان ينصح بأكل اللحم البشري كحمية صحية نافعة وكان يعطي وصفات عن كيفية طهي نماذج بشرية من الاعمار جميعها ؛ مرات اخرى كان يصرّ على تنظير العلاقات السحاقية وفلسفتها وكان يدعم رايه هذا قائلا بأن العلاقة السحاقية هي العلاقة الاخلاقية الوحيدة بناء على ما دلت عليه اقدم الآثار التاريخية التي عثر عليها في حفريات أشرف هو بنفسه عليها .

احايين كان يحدثني خلال ساعات طويلة وهو يحرك عينيه الهنديتين

---

٩ ـ ديبعو ريبيرا : رسام مكسيكي (١٨١٦ ـ ١٩٥٧) .

١٠ ـ ايليا ايهرينبورغ Crigorievich : كاتب روسي يهودي (١٨٩١ ـ ١٩٦٧) .

١١ ـ تزييفاته : هنا بمعنى لوحاته التي يقلد فيها لوحات آخرين او ينقلها طبق الاصل.

مقطبتي الجبين ويبوح لي بأصله اليهودي ... احيانا اخرى وقد نسي الحديث السابق يحلف ويقسم لي انه هو والد الجنرال (رومل) «١٢» ، ثعلب الصحراء ، ويطلب مني ان يظل هذا سرا بيننا لان افتضاحه يمكن ان يؤدي الى نتائج عالمية خطيرة جدا .

لقد كان لحن صوته المقنع الرائع ، اسلوبه الهادىء في اعطاء التفاصّيل والوصف البذيء واكاذيبه المفاجئة تجعل منه مهذارا ثرثارا ، رائعا عذبا، ولا احد مما عرفه واستمع الى تخريفاته يستطيع ان ينسى عذوبة حديثه وان كان سفالة .

كان في تلك الفترة (دافيد الفارو سيكيروس) سجينا ، فقد كان احد الاشخاص قد اركبه في غزوة مسلحة على دار (تروتسكي) (١٣) . فعرفته انا وهو في السجن ، لكن ، في الحقيقة ، خارج السجن اذ اننا كنا نخرج مع رئيس السجن ، العميد (بيريث رولفو) كي نتناول بضعة من كؤوس الخمر في مكان خفي وكنا نعود في ساعة متأخرة من الليل ، فأودع (دافيد) رابتا على كتفه من خلف الاسلاك حيث يبقى سجينا الى اليوم التالي وهكذا ...

اثناء واحدة من هذه السهرات بينما كنا نعود من الشارع الى السجن تعرفت على اخيه ، وهو شخص غريب جدا يدعى (خيسوس سيكيروس)، قد تكون كلمة «مدار» أقرب في وصفه من كلمة «منافق» ، كان يتسلل من الجدران دون ضجة او حركة على الاطلاق وإذ به خلفك او بجانبك ، لا يتكلم الا قليلا وان تكلم فبوشوشة لا تكاد تسمع . كان يحمل في محفظة صغيرة كل ما يمكن ان يحشر فيها ؛ من ذلك اربعون او خمسون مسدسا ، كذلك في خفوت وسكون وصمت . ذات مرة دون انتباه مني فتحت المحفظة هذه

---

١٢ ـ رومل Rommel, Ervin : هو المارشال الالماني المعروف بثعلب الصحراء، الذي كان يقود القوات الالمانية في معارك الصحراء الليبية .

١٣ ـ تروتسكي Trotski Lev : السياسي والمفكر الروسي المعروف (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) .

فاكتشفت مندهشا دار الرسالة هذه بمقابض سوداء ، لؤلؤية وفضية .

لقد كان هذا كله في سبيل لا شيء ، اذ ان (خيسوس) ، كان مسالما جدا بقدر ما كان اخوه (داود) متشاغبا . وكان ل (خيسوس) ايضا مواهب فنية كأخيه فقد كان ممثلا كبيرا يجيد نوعا من التمثيل الصامت ؛ دون تحريك الجسد او اليدين ؛ دون بث اي صوت ، لا يتحرك فيه الا وجهه الذي يبدل ملامحه اراديا فيعبر عما هو حي كأن له براقع متلاحقة متبدلة ، عن الخوف ، عن الكآبة ، عن الفرح ، عن الحنان . كان هذا الوجه الشاحب لهذا الشبح يصحبه في متاهاته الحيوية كلما طلع او برز او قفز من حين الى حين وهو محمل بمسدسات ما استعملها البتة .

كان هؤلاء الرسامون البركانيون يجذبون اليهم الرأي العام كله ، فقد كانوا احيانا يقومون بمناقشات حادة عنيفة . ذات مرة بعد ان أستنفذت الحجج أخرج كل من (دييغو ريبيرا) و(سيكيروس) مسدسيه الكبيرين واطلقا النار تقريبا في الوقت نفسه ، لكن . على أجنحة الملائكة المصنوعة من الجص المعلقة في سقف المسرح حين بدأت ريش الجص الكبيرة تتساقط فوق رؤوس المتفرجين ، خرج هؤلاء من المسرح مهرولين فزعين ، وانتهت المناقشة برائحة قوية من البارود وبقاعة فارغة .

لم يكن (روفينو تامايو Rufino Tomayo) (١٤) يعيش اذ آك في المكسيك بل في نيويورك . ومن هناك تنتشر رسوماته ولوحاته المتأججة المعقدة التي تمثل المكسيك كما تمثلها فواكه أسواقه وانسجته .

ليس هناك من تشابه بين رسم (دييغو ريبيرا) ورسم (دافيد الفارو سيكيروس) اذ ان (دييغو) هو كلاسيكي ذو خطوط مستقيمة . وهو بهذا الاسلوب المستقيم المنعطف كأنه نوع من علم الخط التاريخي ، راح يربط تاريخ المكسيك بعضه ببعض ويجلو في أعماله برونق وزخرفة ناتئة عادات المكسيك ومآسي تاريخه ، فيما (سيكيروس) هو انفجار مزاج بركاني يؤلف بين فنية مدهشة وأبحاث طويلة .

---

١٤ ـ روفينو تامايو : رسام مكسيكي ولد عام ١٩٠٠ .

بين الخروج كل ليلة من السجـــن وبين أحاديث حول الاحتمالات الممكنة ، دبّرنا ، أنا و(سيكيروس) نفسه موضوع هربه وحريته ، فطبعت له على جواز سفره تأشيرة دخول الى تشيلي وتوجه نحو وطني تصحبه زوجته (انجيليكا اريناليس) .

كانت حكومة المكسيك قد بنت مدرسة في مدينة «شيان» بتشيلي ، ثم تهدمت هذه المدرسة بالزلازل ، وفي هذه المدرسة رســـم (سيكيروس) جدارية فائقة ممتازة . لقد كافأتني الحكومة التشيلية علـى هذه الخدمة التي قدمتها للثقافة الوطنية بتوقيفي عن عملي لمدة شهرين .

(نابليون اوبيكو Napoléon Ubico)

لقد قررت زيارة غواتيمالا . فتوجهت اليها بسيارة عبرت بنا برزخ « تيوانتيبيـــك » ، وهي منطقـــة ذهبية فـــي المكسيـــك ، بنسائها المرتديات ازياء فراشات وبرائحة في الهواء كرائحة الشهد . من بعـــد ولجنا غابة « تشياباس » الكبيرة . كنـــا نوقف السيـــارة ليلا منذهلين بالحفيف والضجيج وبرقيات الغابة التي تبثها في جلبـــة وصخب . فتجيبها الجداجد بأزيز عنيف ، أزيز كوكبي سيّار لا يصدق.

كان المكسيك الغريب يمد ظله الاخضر فوق ابنية قديمة عتيقة ، فوق رسومات سحيقة ، فوق جواهر وحلي ، فوق نصب تذكارية ، فوق رؤوس هائلة لحيوانات حجرية ، كل هذا كان يجثم في الغابة ، في الوجـــود المكسيكي الالفي الخرافي . بعد اجتياز الحدود ، هناك في اعلى امريكـــا الوسطى ، بهتتني درب «غواتيمالا» الضيق بخطوطه ونباتاته العملاقـــة وبحيراته الهادئة السطوح كأنها عيون منسيّة لآلهة معتوهة ، ثم بدت غابات الارز والانهار العريضة البدائية التي تطل منها قطعان الحماة والحجر كأنها بشر أحياء يسبحون هناك .

لقد قضيت اسبوعا مع (ميغيل انخيل استورياس)[١٥] الذي ما كان

١٥ — ميغيل انخيل استورياس : روائي من «غواتيمالا» فاز بجائزة نوبل للاداب قبل (نيرودا) ، (١٨٩٩ — ١٩٧٤) .

قد عُرف بعد برواياته المنتصرة الرائعة ، فأدركنا منذ ان تعارفنا اننا ولدنا شقيقين متحابين فما افترقنا يوما واحدا طيلة هذا الاسبوع اذ اننا كنا نخطط في الليل لزيارات خاطفة نقوم بها الى مثانٍ نائية من سلاسل الجبال الملفعة بالضباب او الى موانيء اسنوائية لـ United Fruit .

لم يكن للعواتيماليين الحق في الكلام اذ لم يكن يجرؤ احد منهم أن يتكلم في السياسة امام الآخر فلقد كانت الحيطان تسمع وتبلغ بما تسمع. كنا احيانا نوقف العربة في اعلى الهضبة . وهناك ، بعد التأكد الدقيق من انه ليس ثمة من احد خلف شجرة او وراء صخرة كنا نحلل الوضع ونتكلم عن الحالة في حديث يطول جدا .

كان زعيم «غواتيمالا» آنذاك رجلا يُدعى (اوبيكو) ، يتربع على سدة الزعامة منذ سنين طويلة ، وكان بدينا ثخينا ، ذا نظرة باردة ، قاسيا جبارا في اخلاص وتفان لجبروته وطغيانه ، هو يملي القانون وهو الآمر الناهي وليس لاحد ان يتحرك او ينطق في غواتيمالا الا بامرته وبإذنه على ان يكون هذا في صريح العبارة والاشارة من لدن سيادته . تعرّفت على احد مساعديه وهو الآن صديق لي . كان هذا ثوريا جدا اذ تجرأ ذات يوم فناقش الزعيم في امر صغير جدا : فما كان من الزعيم الا ان قيده هناك وربطه الى عامود في مكتبه بالقصر الرئاسي وجلده بلا رحمة عقابا له على وقاحته وثوريته .

طلب مني الشعراء الشبان ان انشد عليهم بعضا من قصائدي . فارسلوا برقية الى (اوبيكو) طالبين منه السماح بذلك . فامتلأ المكان باصدقائي جميعهم وبطلبة شبان ، فقرأت متشرفا بعضا من قصائدي لانه بدا لي انها قد تفسح شيئا من نافذة ذلك السجن الكبير . جلس رئيس الشرطة في مكان بارز في اول صف جلسة تفتيش وتحرٍّ وانذار . من بعد عرفت ان اربع بنادق سريعة الطلقات كانت قد ركزت هناك ووُجّهت نحوي ونحو الجمهور . كانت ستنطلق فيما اذا غادر رئيس الشرطة مقعده وقاطع قراءة الشعر .

لكن ما جرى شيء يستدعي ذلك فقد ظل رئيس الشرطة في مقعده يستمع الى اشعاري حتى النهاية .

ثم رغبوا بتقديمي الى الديكتاتور ، كان رجلا متورّما بهوس جنون نابليوني ، وكان يدع خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه ويقف في تصنع وقفة (بونابرت) . قالوا لي ان رفض هذه اللفتة الكريمة هو امر خطير جدا، لكنني آثرت الا اسلم عليه فعدت مسرعا إلى المكسيك .

مختارات من المسدسات

لقد كان المكسيك في ذلك الوقت اكثر مسدسيا منه استعمالا لهذه المسدسات في القتل . كان فيه نوع من العبادة نحو المسدس ، نوع من الوثنية . وكان حاملو المسدسات يخرجون كي يلمعوا بمسدساتهم مزهوين مفتخرين . وكان المرشحون الى النيابة والصحف يبدأون حملات «نزع المسدسات» دائما ، ولكنهم يدركون انه أسهل على رجل مكسيكي نزع سنه من نزع سلاحه الناري الحبيب الى قلبه جدا .

اقام لي ذات مرة الشعراء حفلة تكريم في نزهة على ظهر سفينة قد زُيّنت بالزهور والاضواء ببحيرة « اكسيوشيميلكو » اجتمع ما يقرب من عشرين شاعرا متجولا فأبحرت معهم بين المياه والزهور عبر القنوات والوعور في ذاك المصب المخصص للتنزهات الزهرية منذ عهد «الاستيكيين» (١٦) . كان الزورق الكبير يختال في زينة من الزهور على كل جانب وفي اشكال ودمى والوان زاهية . ان ايادي المكسيكيين لهي مثل ايدي الصينيين غير قادرة على صنع اي شيء قبيح ، سواء أكان من الحجر او الفضة او الطين او القرنفل .

لقد أصرّ عليّ احد اولئك الشعراء خلال العبور، بعد تجرّع العديد من اقداح «تيكيلا» (١٧) كي ينوع في التكريم ويمنح الحفل شيئا جديدا ، ان اطلق الى الفضاء بعيارات نارية من مسدسه الجميل الذي كان له في

---

١٦ ـ الاستيكيون : هم سكان المكسيك القدماء .

١٧ ـ تيكيلا : نوع من الخمر يشبه «الجن» .

مقبضه ترصيعات من ذهب ومن فضة . واذ بالزميل الاقرب الينا يخرج من حزامه مسدسه وينحي جانبا مسدس القدم الاول ؛ وهـو في حماسة بالغة ، ثم يدعوني ان اطلق من مسدسه ما شئت من العيارات النارية . في هذا الشغب والهياج هبّ الشعراء الرواة الآخرون ، كل بدافع بإصرار عن مسدسه فتحلّقوا حولي وحوّموا فوق راسي ؛ يريد كل منهم ان اختار مسدسه وليس مسدس الآخر ، ذلك السرادق من المسدسات الذي كان يتصالب امام انفي او يمر تحت ابطى كان يصبح اكثر تهديـداً وخطرا على حياتي في كل مرة ، الى ان خطر لي ان آخذ قبعة مكسيكية اصيلة كبيرة فالتقط المسدسات كلها في مستقر هذه القبعة ، فطلبت من طابور الشعراء المتحلق باسم الشعر والسلام ان يدعوا لي مسدساتهم في هذه القبعة فأطاعوا جميعا وبهذا الشكل استطعت ان اصادر لهم مسدساتهم لعدة ايام واحتفظت بها في داري . أعتقد اني الشاعر الوحيد الذي على شرفه قد قدّمت له مختارات من المسدسات .

لماذا نيرودا

كان قد اجتمع في المكسيك ملح العالم . كتاب كثيرون من اقطار العالم جميعها التجأوا الى الحرية المكسيكية فيما كانت الحرب في اوروبا تمتد وتطول وقوات هتلر تحقق الانتصارات واحدا اثر آخـر بعد ان اكتسحت فرنسا وايطاليا . هناك في المكسيك كان يقيم (انا سيجيرس) والمهرج التشيكوسلوفاكي (اغون ايروين كيش) الذي توفـي فيما بعد ، وآخرون كثيرون . ان (كيش) هذا ترك بعض الكتب الساحرة الأخّاذة وكنت انا أعجب كثيرا بعبقريته الفذة وبتمارينه الطفولية وبمعرفتـه بالشعوذة والتهريج . كان ما ان يدخل الى بيتي حتى يخرج بيضة من اذنه او يبتلع على جرعات سبع قطع من النقود ، كان هذا الكاتب الكبير المسكين المنفي في أمس الحاجة اليها . كنا قد تعارفنا في اسبانيا ، وبما انه كان يعلن دائما عن حب الاستطلاع الملحّ عليه في معرفة لاي سبب أسمي نفسي (نيرودا) دون ان اكون قد ولدت وارثا هذا اللقب ، فكنت اقول له مازحا :

ـ يا (كيش) العظيم ، انك انت مكتشف سر العقيد (ريدل) ـ قصة

مشهورة في التجسس جرت في النمسا عام ١٩١٤ ــ لكنـــك ابدا لن تستطيع ان تعرف سر اسمي (نيرودا) .

وهكذا كان ، لقد مات فيما بعد في «براغ» وسط تكريمات منحها اليه وطنه المحرر ، غير انه ما استطاع ذلك الباحث المحترف ان يعرف لماذا (نيرودا) يدعى (نيرودا) .

لقد كان الجواب سهلا جدا وهو لا يتضمن ما يبعث على الروعة او الدهشة ومع ذلك فقد كنت لا أبوح به ابيه في حيطة مني وتحفظ . حين كان لي من العمر اربع عشرة سنة كان والدي يضطهد نشاطي الادبي فـي امعان وتعنت ، اذ لم يكن يرضيه ان يكون له ولد شاعر . كي اخفي أوائل اشعاري فقد بحثت لي عن لقب اتبنّاه لانشر به هذه الاشعار وبهذا يعمّه والدي عن تبيان جلية الامر فعثرت في احدى المجلات على هذا الاسم التشيكي دون ان أدري انه اسم كاتب كبير يجلّه شعب بكامله وانه مؤلف «بالادا» (١٨) وكاتب «رومانثيه» (١٩) جميلة جدا ، وان له نصبا تذكاريا منتصبا في حي «مالا سترانا» ببراغ . ما ان وصلت ، بعد سنين كثيرة ، الى تشيكوسلوفاكيا ، حتى هرعت فوضعت زهرة عند أقدام تمثالـــه الملتحـــي .

اليوم السابق على «بيرل هاربور»

كان يتردد الى بيتي ، من الاسبان ، (وينثيلاسو روثيس) و(كونستانثيا دي لا مورا) وهي جمهورية ، قريبة (دوق ماورا) ، وكتابهـــا inplace of Splendor كـــان Bestseller في الولايات المتحدة ، و(ليـــون

---

١٨ ــ بالادا Palada : هي قصيدة عاطفية روائية ذات ابيات متوازيـــة متناسقة نشأت في شمال اوروبا .

١٩ ــ رومانثه Romance : هي قصيدة غنائية ذات قافية واحدة تعاد فـي البيت الثاني .

فيليبه)، و(خوان ريخانو) (٢٠)، وموريتو بيثا(و(هيرّيرا بيتيره) (٢١) وهؤلاء جميعهم شعراء ، و(ميغيل بريبتو) و(رودريغيث لونا) وهما رسامان . ومن الايطاليين (فيتوريو فيدالي) ، وهو شهير لانه كان هو المقدم (كارلوس) في الطابور الخامس ، و(ماريو مونتاغنانا) وهما منفيان ايطاليـــان ، مليئان بالذكريات والحكايـــا المدهشة والثقافة الدائمة الحركة . وهنـــاك كـان ايضا (جـــاك سوستيل) و (جيلبيرت ميديونـــي) ، وكان يتكاثر الملتجئون طوعا او على مضض وإكراه من جمهوريات امريكا الوسطى؛ غواتيماليون ؛ سالفادوريون ، هوندوريون . كان هؤلاء جميعـــا يملأون المكسيك ويصبغونه باهمية أممية ، وكانت داري ، وهي عبارة عن منزل قديم في حي « سان انحيل » تخفق كما لو كانت قلب العالم .

مع (سوسيل) هذا الذي كان آنذاك اشتراكيا من اليسار الفرنســي والذي بعد سنين أزعج كثيرا الجنرال (ديغول) حين كان هو رئيسا سياسيا للانقلابيين المتمردين في الجزائر ؛ وقع لي شيء اجدنـــي مضطرا ان ارويه هنا .

كان عام ١٩٤١ قد تقدم ، والنازيون كانوا يحاصرون مدينة «لينينغراد» ويتوغلون في اراض سوفييتية إخرى . كان الثعالب ، العسكريـــون اليابانيون الملتزمون بمحور برلين ــ روما ــ طوكيو ، يخشون ان يخسروا حصتهم من غنيمة الحرب التي كانت تربحها المانيا . كانت تدور عبر العالم شائعات كثيرة تشير الى ان ساعة الصفر التي فيها تنطلـــق من الشرق الاقصى القوة الهائلة اليابانية آتية لا ريب . فيما كانت بعثة سلام يابانية تؤدي تحية التملق للحكومة الامريكية في واشنطون لم يكن ثمة مجال للشك

---

٢٠ ــ خوان ريخانو : شاعر اسباني ولد عام ١٩٠٢ ولجأ الى المكسيك عام ١٩٣٦ ، مثل زميله الشاعر (ليون فيليبه) وآخرين كثيرين . توفي عام ١٩٧٥ .

٢١ ــ هيريرا بيتيره José : شاعر وروائي اسباني ولد عام ١٩١٠ ولجأ الى فرنسا عام ١٩٣٦ ، ثم الى المكسيك ، ثم الى السويد .

في ان اليابانيين سيشنون هجوما مفاجئا عما قريب اذ ان «الحرب الخاطفة المباغتة» كانت النموذج الدامي لتلك الفترة .

عليّ أن أوضح قبل كل شيء كيما تفهم حكايتي التي سارويها اثر هذا التوضيح ، أن خطا يابانيا قديما من البواخر كان يربط اليابان بتشيلي . لقد سافرت انا اكثر من مرة في هذه السفن وكنت اعرف خط مسيرها ، كانت تتوقف في موانئنا ويهبط منها بحاراتها المختصون بشراء الحديد القديم والتقاط الصور ، ثم تحاذي هذه البواخر الشاطيء التشيلي كله، فشاطيء « البيرو » و « الاكوادور » وتستمر حتى ميناء « مانثانيو » المكسيكي ، كي توجه قيدومها نحو « يوكوهاما » مجتازة المحيط الهادي . حسنا اذن ، ذات يوم وأنا ما زلت بعد قنصلا عاما لتشيلي في المكسيك ، قدم الى القنصلية سبعة من اليابانيين فطلبوا مني في الحاح واستعجال ان اعطيهم اشارات دخول الى تشيلي ، وقد جاء هؤلاء من الشريط الساحلي لامريكا الشمالية ، من «سان فرانسيسكو» ، من «لوس انجليس» ومن موانيء أخرى ، كانت وجوههم تنمّ عن بعض القلق والاضطراب ، وكانوا انيقي اللباس مزودين بوثائق وجوازات سفر ، وعليهم ملامح مهندسين او صناعيين منفذين .

لقد سألتهم ، طبعا ، لماذا يريدون الذهاب الى تشيلي في اول طائرة تقلع مع انهم حديثو الوصول الى المكسيك ، أجابوني بأنهم يرغبون اللحاق بباخرة يابانية راسية في ميناء « توكوبيا » بتشيلي ، وهو ميناء لتصدير ملح البارود الناتج من شمال تشيلي . أجبتهم على ما قالوه بأنهم ليسوا بحاجة الى السفر الى تشيلي ، وهي في الطرف الآخر من القارة الامريكية ، نظرا لان هذه البواخر اليابانية نفسها ، عادة ، ترسو في ميناء «مانثانيو» المكسيكي ، حيث يستطيعون ان يصلوا مشيا على الاقدام وفي وقت قريب جدا .

نظر بعضهم الى بعض وابتسموا مضطربين ، تكلموا فيما بينهم بلغتهم ثم تشاوروا وسكرتير السفارة الذي كان برافقهم .

هذا السكرتير كان صريحا معي فقال :

ـ انظر ، ايها الزميل ، ان ما جرى هو ان هذه الباخرة قد غيرت طريقها ولن ترسو بعد في ميناء «مانثانيو». وإذن ، على هؤلاء السادة الاختصاصيين المتميزين ان يذهبوا الى الميناء التشيلي كي يلحقوا بالباخرة.

لقد مر في ذهني بسرعة اني امام شيء مهم جدا ، فطلبت منهم جوازات سفرهم ، ومعلومات عن عملهم في الولايات المتحدة وقلت لهم تو"ا ان يعودوا في اليوم التالي .

لم يكونوا موافقين فقد كانوا يحتاجون الى تأشيرات الدخول حالا وكانوا على استعداد لدفع اي ثمن في سبيل الحصول عليها .
بما ان ما كنت احاوله انا هو كسب الوقت، فقد قلت لهم انه ليس من صلاحياتي اعطاء تأشيرات دخول الا بعد استشارة ، واننا سنتكلم عن هذا في اليوم التالي .

ظللت وحيدا بعد ان انصرفوا .

شيئا فشيئا بدأ يتوضح في ذهني اللغز ، لماذا هذا الهرب العاجل من الولايات المتحدة وهذا الاستعجال في الحصول على التأشيرات ؟ افتغير الباخرة اليابانية اتجاهها لاول مرة منذ ثلاثين سنة ؟ فماذا يعني كل هذا؟ لا بد ان الامر يتعلق في انهم مجموعة من الجواسيس اليابانيين المهمين جدا وانهم بعد تأدية مهمة مستعجلة في الولايات المتحدة هربوا منها ، وهم الآن على عجل نظرا لانهم يعرفون ان امرا خطيرا لا بد واقع في الحال وان هذا الامر ما هو الا مشاركة اليابان في الحرب .

هذه النتيجة التي توصلت اليها جعلتني في حالة عصبية بالغة ، ماذا استطيع ان افعل ؟

لم اكن اعرف من ممثلي الامم الحليفة للمكسيك لا انجليزا ولا امريكيين شماليين ، ما كنت على اتصال وثيق الا بأولئك الذين عينوا ممثلين رسميين للجنرال ديغول وهم على علاقة وطيدة بالحكومة المكسيكية .

اتصلت بهم في سرعة ، شرحت لهم الوضع ، وها هي في حوزتنا اسماء هؤلاء اليابانيين وأوراقهم فان قرر الفرنسيون التدخل في هذا الشأن فاننا سنلقي القبض عليهم ، هذه حجتي التي أبديتها اليهم متحمسا. ثم اثر ملاحظة الجمود وعدم الاهتمام بما قلته وابديته قلت يائسا من هؤلاء الممثلين الديغوليين :

ـ ايها الديبلوماسيون الشبان ، اكشفوا سر هؤلاء العملاء اليابانيين تكسبوا الفخر والمجد ، من ناحيتي فاني لن أمنحهم تأشيرات الدخول ، لكن على حضراتكم ان تسرعوا في اتخاذ قراركم حول هذا الشأن .

دام هذا الشد والمد (٢٢) اكثر من يومين ، لم يهتم (سوستيل) بالموضوع اطلاقا ، لم يشأ ان يعمل شيئا، وأنا ، كقنصل بسيط لتشيلي ، ما كنت لاستطيع ان افعل اكثر مما فعلت . تجاه رفضي اعطاءهم تأشيرات الدخول اضطر اليابانيون ان يحصلوا في سرعة على جوازات سفر ديبلوماسية وتوجهوا الى السفارة التشيلية فحصلوا منها على هذه التأشيرات فوصلوا في الوقت المناسب الى «توكابيا» حيث ركبوا في باخرتهم المقصودة .
بعد اسبوع استيقظ العالم على خبر الاغارة على ميناء «بيرل هاربور».

أنا «ال مالاكولوغو»

لقد نشر في صحيفة بتشيلي ، منذ عدة سنين ، انه حين وصل صديقي المخلص الاستاذ المشهور (جوليان هوكسلي Julian Huxley) (٢٣) الى «سانتياغو» ، سأل عني في المطار .

ـ أفتسأل عن الشاعر (نيرودا) ؟ ـ أجابه الصحفيون .

---

٢٢ ـ الشد والمد : تعبير اسباني ، واضح المعنى .

٢٣ ـ جوليان هوكسلي : عالم بالاحياء وكاتب انجليزي ولد عام ١٨٨٧ .

ــ كلا ، انا لا اعرف اي شاعر باسم (نيرودا) ، بل اني اريد التكلم مع «ال مالاكولوغو» (نيرودا) . ان هذه الكلمة الاغريقية «مالاكولوغو» تعني : «**اختصاصي في الرخويات**» .

لقد منحتني هذه الحكاية التي كان يستهدف منها ازعاجي . لـــذة عارمة . ولم يكن (هوكسلي) ليقصد منها ازعاجي لاننا كنا صديقين منذ سنين كثيرة ، على فكرة هو انسان ظريف جدا وهو اكثر اصالة وحيوية من اخيه الشهير (الدوس) .

لقد كنت في المكسيك اذهب الى الشواطىء واغرق نفسي في مياهها الشفافة الدافئة لالتقط اصدافا ومحارا بحرية رائعة جميلة ، من بعد ، في كوبا وفي اماكن اخرى كنت افعل الشيء نفسه فراح كنزي البحــري يتضخم عن طريق هذا الصيد وعن طريـــق المقايضة والشراء والهدايـــا والسرقات (ليس ثمة من جامع شيء ، شريف البتة). الى ان ملأ غرفا كثيرة في منزلي .

كنت أملك اكثر الاصناف غرابة من بحار تشيلي ، الفيليبين ، اليابان، البلطيق ، جعدات من القطب الجنوبي ، حلزونات ملونة من بحر كوبا ، قوقعات رسامات لابسات أحمر وزعفرانيا (٢٤) ، ازرق (٢٥) وبنفسجيـــا كأنهن راقصات بحر الكريبي ، الحق اقول ان النوع الوحيد الذي كـــان ينقصني هو حلزونة أرضية من ماتـــــو غروسئو Mato Crosso بالبرازيل ، رأيتها مرة فلم استطع شراءها وما قدرت على السفر الى الغابة كي التقطها من هناك ، كانت خضراء كلها في جمال زمردة شابة فتية .

لقد بالغت في هذا المذهب الحلزوني حتى اني قمت بزيارة بحار نائية قصيّة ، كذلك اصدقائي بدأوا في البحث عن حلزونات في « تحلـــزة » معديـــة .

---

٢٤ ــ زعفران : هكذا في الاصل Azaferan . عن العربية

٢٥ ــ ازرق azul : الكلمة ماخوذة من الكلمة العربيةذات الاصل الفارسي لازورد.

اما بالنسبة للتي كانت تنتمي اليّ فقد جاوزت الخمسة عشر الفا ، كانت تملأ الرفوف كلها وكانت تتساقط من على الموائد والكراسي. وكتب علم الحلزونات او «مالاكولوخيا» ، فلتسم بما تسمى ، ملأت مكتبتي كذلك . ذات يوم أمسكتها جميعها ووضعتها في صناديق كبيرة ثم حملتها الى جامعة تشيلي ، فكانت اولى هباتي الى الروح الأم Alma Mater وكانت مجموعتي هذه ذات شهرة واسعة فاستلمتها جامعتي ، هذه المؤسسة الجيدة ، في تشكرات وخطابات ثم دفنتها في قبو ، ابدا من بعد ما رئيت ولا شوهدت .

«اراوكانيا» (Araucania)

حينما كنت بعيدا ، متميزا في جزر الارخبيل البعيد ، كان البحر يوشوش والعالم الصامت كان مفعما باشياء تحكي عن وحدتي وعزلتي ، لكن الحروب الباردة والساخنة لوثت الخدمة القنصلية وجعلت من كل قنصل تمثالا متحركا وصنما من غير شخصية لا يستطيع ان يقرر اي شيء، وكان عمله يدنو كثيرا بشكل مشبوه من عمل الشرطة .

كانت الوزارة تفرض عليّ ان اتحرى الاصول العرقية للناس : افريقيين ، آسيويين ، يهودا ، ولا احد من هذه المجموعات الانسانية كان يستطيع الدخول الى وطني .

كانت الحماقة تبلغ مدى بعيدا الى درجة اني كنت أغدو انا ضحية لها ، فحين أسسْتُ ، دون اي قرش من خزانة الدولة التشيلية ، مجلة متقنة عنونتها «اراوكانيا» ووضعت على الغلاف صورة امراة اراوكانية جميلة تضحك بكل أسنانها ، كان هذا كافيا لكي تلفت وزارة الخارجية نظري في لهجة شديدة لانها اعتبرت المجلة استخفافا وعصيانا ، علما بأن رئيس الجمهورية السيد (بيدرو اغيره ثيردا) له وجه نبيل لطيف تبدو في سحناته مواد خلاسيتنا وهجنتنا كلها .

انه ليُعرف ان قبائل «اراوكانو» قد ابيدت عن بكرة ابيها ، ثم في النهاية تنوسيت بعد ان هُزمت لان التاريخ لا يكتبه الا الغالبون او الذين

يجنون ثمرة الانتصار . بيد انه ليس فوق هذه الارض الا أجناس قليلة تفوق في جدارتها الجنس «الأراوكاني» .

وسيأتي اليوم الذي نرى فيه جامعات اراوكانية وكتبا مطبوعة باللغة الاراوكانية ، وعند ذلك سنعرف ما فقدناه من صفاء ونقاء وطاقة بركانية.

ان الادعاءات «العرقية» الباطلة عند بعض أمم امريكا الجنوبية التي هي نفسها نتاج تصالبات واختلاطات خلاسية هجينة لهي طرحة (٢٦) من نوع استعماري. يريدون نصب سقالة حيث بضعة وجهاء بيض موسو سون متشككون او «مستبيضون» يقدمون انفسهن في المجتمع وهم يومئون الى انفسهم امام الآريين الانقياء او السواح السفسطائيين . لحسن الحظ هذا اصبح من مخلفات الماضي وها هي الامم المتحدة مليئة بمندوبين سود ومنغوليين (صفر) ، اي ان نبات الاجناس الانسانية يعرض ، بنسغ الذكاء الذي يصعد ، ألوان اوراقه كلها .

لقد انتهى بي الامر ان ضقت ذرعا وذات يوم تخليت الى الابد عن منصبي : وظيفة القنصل العام .

سحر و سرّ

اضف الى هذا ، اني ادركت ان العالم المكسيكي المقموع المردوع ، العنيف القومي، الملتف بكياسته التي يرجع عهدها الى ما قبل (كولومبوس)، سيمضي كما كان بدون حضوري ولا شهادتي .

حين قررت العودة الى بلدي كنت أفهم الحياة المكسيكية أقل مما كنت افهمها حين وصلت الى المكسيك .

---

٢٦ ـ طرحة : هكذا في الاصل Tara ، وهي تعني ما يطرح من الوزن الكامل مثل وزن الوعاء او السفط او الشاحنة . عن العربية

كانت الفنون والآداب تنتج في دوائر متنافسة ، لكن الويل لمن يأتي من الخارج فيميل الى جانب ضد آخر او يكون مع فئة ضد اخرى، فان هؤلاء وأولئك سينقضون عليه ويسحقونه .

عندما هيأت نفسي للسفر ، اقاموا لي مظاهرة هائلة ؛ حفلـــة عشاء حضرها ما يقرب من ثلاثة آلاف مدعو ، دون عد المئات من الذين ما وجدوا مكانا فارغا . عدة رؤساء جمهورية ارسلوا يعبرون عن مباركتهم .

بيد ان المكسيك هو حجر المحك لامريكا كلها ، وليس عبثا انه قـــد نقشت هناك ساعة التوقيت الشمسي لامريكا القديمة ، الدائرة المركزية للبث ، للمعرفة وللسر .

ان كل ما كان يمكن ان يجري ، جرى . لقد كانت الصحيفة الوحيدة للمعارضة تمولها الحكومة ، كانت الديموقراطية الاكثر ديكتاتورية مـــن الديكتاتورية نفسها تحكم هناك .

اني اذكر حادثة مأساوية اثرت في نفسي بشكل رهيب ، كان ثمة اضراب في معمل استغرق زمنا طويلا دون ان يعثر على اي حل لانهائه ، ودون أن يلمح في الجو ضوء يشير الى انتهائه ، فاجتمعت نساء المضربين واتفقن على زيارة رئيس الجمهورية كي يشرحن له الموقف ، ربما كن يردن ان يعبرن له عن قلقهن وبؤسهن . طبعا ما كن ليحملن اسلحة مطلقا . اشترين باقة من الورود كي يقدمنها الى ولي الامر او الى زوجته ، كن على وشك الولوج الى القصر حين أوقفهن الحرس الجمهوري فمنع عليهـــن الاستمرار لأن السيد الرئيس ما كان ينوي استقبالهن ، وأمرن بأن يتوجهن الى الوزارة المعنية وان عليهن أن يخلين المكان حالا ، فهذا امر قاطع عاجل.

النساء بيّن قصدهن وشرحن موضوعهن وقلن انهن لن يتسببن في اي ازعاج مهما كان ، وانهن لا يردن الا اعطاء هذه الزهور الى السيـــد الرئيس او الى حرمه المصون، والطلب منه ان يعمل على حل الاضراب في اسرع وقت ممكن ، اذ انهن لا يجدن ما يؤوين به اولادهن ولا ما يســد الرمق ، وانه من الصعب جدا ان يستمر الوضع على هذه الحالة ، فرفض رئيس الحرس ان يحمل اية رسالة او اي خبر الى السيد الرئيس، فاصرت

النساء من جانبهن على البقاء هناك الى ان يلبّى طلبهن .

آنذاك سمعت طلقات انطلقت من حرس القصر، واذ بسبع من النساء يسقطن مضرجات بدمائهن ميتات ، بالاضافة الى جريحات اخريات .

في اليوم التالي اقيمت الجنائز السبع ، كنت أظن ان موكبا هائلا سيرافق نعوش تلك النساء الشهيدات غير ان اشخاصا قلائل مشوا في الجنازة الموحدة . بلى ، تكلم الزعيم النقابي الكبير وكان هذا ثوريا معروفا، كان خطابه على المقبرة لا يقدح فيه لما له من أسلوب بلاغي رنّان طنّان ، قراته بكامله في اليوم التالي وقد نشرته الصحف ، فلم يكن يحتوي على سطر واحد من الاحتجاج ، لم تكن فيه كلمة واحدة من الغضب ولا حرف يطالب بمحاكمة المسؤولين عن هذه الفعلة الشنعاء . بعد مضي اسبوعين على هذه المجزرة ما كان احد يتكلم عن الحادثة . ابدا ما قرات من بعد ان احدا يشير الى هذه الحادثة او يذكرها .

كان رئيس الجمهورية امبراطورا «اثتيكيا» ، لا يمكن ان يَمس في شيء فهو اكثر رفعة من العائلة البريطانية المالكة بالف مرة . ما من صحيفة ، سواء في مزح او جد ، كانت تجرؤ على انتقاد هذا الموظف السامي ، والا فانها تتلقى حالا ضربة مميتة قاضية .

ان ما هو جذّاب خلاّب ، يلف مآسي المكسيك الى درجة ان المرء يعيش مذهولا امام التورية ، تورية تبتعد اكثر فاكثر عن النبض الجوهري، عن الهيكل الدامي . ان الفلاسفة أصبحوا نقّادا في علم الجمال ، ارتموا على البحوث الفنية الوجودية الزهيدة التي تبدو ازاء البركان مشينة معيبة . ان السلوك المدني لمتقطع وصعب . ان القهر ، الاخضاع ، الاذلال، يأخذ مجاري عديدة تترسب مياهها حول العرش .

لكن كل ما هو سحري ينشأ ويعاد نشوؤه دوما في المكسيك . من بركان بدأ يولد من جديد فلاّحا في حقله الفقير بينما هو يبذر فاصوليا ، الى البحث المستمر عن رفات (كورتيس Cortés) الذي حسب ما يقال ، يستريح في المكسيك مع الخوذة الذهبية التي تغطي جمجمة الفاتح،

الى المتابعة الشديدة التي ليست اقل من الاخرى في البحث عن بقايا الامبراطور الاثتيكي : (كوانثيموك Cuanthemoc) ، التي ضاعت منذ اربعة قرون والتي قد تظهر هنا او هناك على حين غرة ، اذ ان هنودا سرّيين لا يَرون يحفظونها ويصونونها ، كي تعود للنشوء مرة اخرى في الليل الطلسم .

ان المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي. ما من شيء سوى الموت يقدر على ان يطوي اجنحته فوق قلبي : قلب جندي غاف .



الفصل الثامن

الوطن في دياجير

«ماكتشو بيكتشو» (١)

لقد اسرعت وزارة الخارجية فوافقت على استقالتي من عملي .

ان انتحاري الديبلوماسي منحني الفرح الاكبر : فرح انني استطيع العودة الى تشيلي . اني لاعتقد في أن الانسان يجب ان يعيش في وطنه ومن ان اجتثاث المرء من جذوره ، واستئصال البشر من تربتها ، لهما خيبة تعكر وضوح الروح واحباطا يفسد جلاء النفس. انا لا أستطيع العيش

---

١ ـ ماكتشو بيكتشو : هي بلدة قديمة ، ترتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر ، مبنية من حجر غرانيتي ابيض قرب اخدود Urubamba في سلسلة جبال «الانديس»، اكتشفها عالم الآثار الانجليزي Hiran Bingham عام ١٩١١ ، وفي اعلى قمة من قمم هذه المدينة تسمو الصخرة المقدسة التي توحد الشمس بالمدينة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الا في ارضي نفسها ، انا لا استطيع الحياة دون ان أضع قدميّ ويديّ وسمعي في تربة وطني ، انا لا استطيع التنفس دون ان أحس بدوران مياهها وظلالها ، انا لا استطيع النمو دون ان أشعر بجذوري وهي تبحث في الحماة عن الذات الأم ، عن الجوهر الاصل .

لكن قبل بلوغي تشيلي قمت باكتشاف آخر أضاف تطورا جديـــدا الى تطور شعري .

لقد توقفت في «البيرو» وصعدت حتى أطلال «ماكتشو بيكتشو» ، امتطينـــا احصنة حتى استطعنا السمو الى اعالي هذه المرتفعات ، اذ ذاك لم يكن ثمة طريق معبّدة للسيارات . لقد رأيت من على ذراها الابنيـــة الحجرية القديمة التي تحيط بالقمم العالية جدا لسلسلة جبال «الانديس» الخضراء . كانت تنحدر من القلعة المتآكلة المنقضمة بفعل الحت على مضي القرون والدهور ، سيول ووديان . كانت تصعد من نهر «ويلكامايـــو» Wilcamayo كتل من ضباب ابيض تعمم هذه الذرى . لقد شعرت بضآلتي في مركز تلك السرّة الحجرية ، سرّة عالم غير مأهول بالسكان ، عالم فخور منيف شاهق ، كنت انتمي اليه بشكل من الاشكال . لقد شعرت ان يديّ كانتا قد عملتا هناك في احدى المراحل التاريخية السحيقة . كانتا تحفران اخاديد ، تملسان الصخور .

أحسست أنني تشيليّ ، بيرويّ ، امريكي . عثرت في تلك المرتفعات الوعرة ، بين تلك الاطلال المتناثرة المجيدة ، على عقيدة ايمان كي يستمر غنائي ونشيدي .

هناك ولدت قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» (٢) .

---

٢ ـ مرتفعات ماكتشو بيكتشو : لقد ترجمنا هذه القصيدة ـ الملحمة ولكنا لمـا ننشرها بعد .

سهوب ملح البارود

لقد وصلت من جديد في نهاية عام ١٩٤٣ الى « سانتياغو » ، فنزلت في منزلي الذي استطعت تملكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبي لما قد يجيء به المستقبل · في هذا المكان ذي الاشجار الكبيرة السامقة جمعت كتبي وبدأت مرة اخرى الحياة الصعبة ·

لقد بحثت من جديد عن جمال وطني ، جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء في بلدي ، عن اعمال زملائي ، عن ذكاء بني وطني ·

لم يكن البلد قد تغير او تبدل · ارياف وضيع غافية ، فقر مريع في المناطق المنجمية ، والناس المتأنقون يملأون ناديهم : نادي

لقد سبب لي قراري الذي اتخذته اضطهادا وملاحقة ودقائق نجمية · (٣)

واي شاعر يندم ؟

ان الصحفي (كورثيو مالابارت) (٤) الذي اجرى معي مقابلة بعد سنوات مضت على ما سأرويه الآن ، قال في مقالة ، مصيبا : « لست شيوعيا ، لكنني لو كنت شاعرا تشيليا لاصبحت شيوعيا ، كما فعل (بابلو نيرودا) · يجب على المرء هنا في تشيلي ان يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء » ·

لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائبا في مجلس الشيوخ في ٤ آذار من عام ١٩٤٥ · اني ساظل افتخر مدى حياتي

---

٣ ـ دقائق نجمية : التعبير هنا يشبه ما نقوله بالعربية « رؤية نجوم الظهر » من شدة العذاب والاضطهاد ·

٤ ـ كورثيو مالابارت : صحفي وكاتب ايطالي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٧) ·

بان الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في اقصى منطقة بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم النحاس وملح البارود ٠

انه لصعب وعسير جدا المسير عبر هذه السهوب ٠ فالسماء لا تمطر في هذه المناطق خلال نصف قرن او يزيد ، والصحراء منحت عمال المناجم سيماء صلبة وملامح متجهمة ، فهم رجال ذوو وجوه ملوحة بالشمس محروقة ، ان تعبيرات نفوسهم عن الوحدة والعزلة والهجران تختزن في عيونهم ذات الحدة الغامقة والشدة المعتمة ٠ كان علي ان اصعد من الصحراء الى سلسلة الجبال ، ان ادخل في كل بيت فقير ، ان اعرف الاعمال اللاانسانية التي يتعرضون لها ، ان اشعر انني مستأمن على آمال الانسان المنعزل المضطهد المغمور ، ان كل هذا ليس بمسؤولية سهلة

وعادية ٠ غير ان شعري استطاع ان يفتح طريقا للاتصال فاستطعت ان امشي وان اجري وان استقبل على اني اخ وفي من لدن مواطني الذين يعيشون في ظروف صعبة وحياة قاسية صلبة ٠

لست ادري ، ان كان في باريس او في براغ ، حين راودني شك ضعيف حول موسوعية المعلومات لدى اصدقائي الحاضرين معي هناك ، تقريبا كلهم كانوا كتابا والطلبة كانوا قلة فيهم ٠

ـ نحن نتكلم كثيرا عن تشيلي ـ قلت لهم ـ واني على يقين بانكم تجاملونني نظرا لانني تشيلي ، لكن ، افتعرفون شيئا عن بلدي البعيد النائي ؟ مثلا ، في اية وسيلة من وسائل النقل نتحرك ؟ اعلى فيل ، افي سيارة ، ابقطار ، اعلى متن طائرة ، اعلى دراجة ، ام على ظهر جمل ام في مزلقة جليد ؟

اجاب اكثرهم في جدية وقناعة : على ظهر فيل ٠

ليس في تشيلي لا فيلة ولا جمال ٠ لكنني ادرك انه لامر مبهم ومحير ان بلدا يولد في القطب الجنوبي الجليدي لينتهي في السهوب السبخة المالحة والصحاري حيث لا مطر منذ نصف قرن على الاقل ٠ كان علي ان اجتاز هذه الصحاري واجوب بها خلال سنين عديدة لانني كنت نائبا اختاره سكان تلك الفيافي العزلاء ، لانني كنت ممثلا لشغيلة لا حصر لهم

يكدّون في ملح البارود والنحاس ، هؤلاء ما استعملوا يوما ربطة عنق قط .

التوغل في تلك السهوب ومواجهة تلك الرمال هو كالدخول في القمر ، ان هذا النوع من الكرة الخالية والكوكب الفارغ يختزن الثروة الكبرى في وطني ، لكن لا بد من استنباطها من باطن الارض الجافة القاسية وهذه الارض ليست مزودة بما يغري للعيش فيها ، ان نقل الماء اليها يكلف جهودا جيدة ناهيك عن حفظ نبتة تزهو ولو كانت زهرة متواضعة ، او عن متتابعا وثماني سنوات من الالحاح وسبع ضحايا ٠

انا أنتمي الى الطرف الآخر من الجمهورية التشيلية ، فقد ولدت في اراض خضراء ذات اشجار غابية فكانت لي طفولة ذات مطر وثلج . ان اضطراري لمجابهة تلك الصحراء القمرية كان يعني انقلابا في وجودي كذلك ان تمثيل أولئك الرجال في مجلس الشيوخ ، وتمثيل اراضيهم الهائلة المنعزلة كان مشروعا صعبا وعملا شاقا . ان الارض العارية بلا حشيشة واحدة ، ولا قطرة ماء تائهة ، لهي سر شديد ولغز نفور . فيما تحت الغابات ، ازاء الانهار ، كل شيء يكلم الانسان ، الصحراء هي على العكس من هذا لا تخاطب احدا وانا ما كنت لافهم لغتها ، اي ، صمتها .

خلال سنين طويلة ركزت مؤسسات ملح البارود سيطرة حقيقية : اقطاعيات او ممالك في تلك السهوب ولقد اغلق الانجليز ، الالمان ، وتشكيلة الغزاة المحتلين كلهم على هذه الاراضي المنتجة لملح البارود واقطعوها لانفسهم وأعطوها اسم مكاتب . هناك صكوا عملة خاصة بهم فرضوها على العمال ، ومنعوا اي اجتماع قد يعقدونه وحرموا الاحزاب ومنعوا الصحافة الشعبية . لم يكن من السهل الدخول الى تلك المناطق الا بسماح خاص لا يتوصل اليه الا القلة المختارة .

كنت ذات مساء اتحدث الى عمال مرآب في مكاتب ملح البارود التابعة (ماريا الينا) . كانت ارضية هذا المرآب دائما موحلة بالماء والزيت والسوائل ، فكنت والقادة النقابيين الذين اصطحبوني ندوس على الواح ثخينة تعزلنا عن الارض الموحلة .

ان هذه الالواح الثخينة ـ قالوا لي ـ كلفتنا خمسة عشر اضرابا

متتابعا وثماني سنوات من الالحاح وسبع ضحايا .

بالنسبة للضحايا السبع فقد قصوا عليّ انه في احد الاضرابات هذه، اخذت شرطة الشركة سبعة من قادة العمال ، كان الحراس يمتطون الخيل فيما العمال وهم مربوطون الى الخيول بحبال يتابعونهم على الأقدام عبر الاراضي الرملية النائية ثم افرغوا فيهم ما شاءوا من العيارات النارية . ظلت اجسادهم ممددة تحت اشعة الشمس المتوهجة اللاهبة وبرد الصحراء القارص الى ان عثر عليهم رفاقهم فدفنوهم .

من قبل كانت الاشياء اسوأ كثيرا ، مثلا ، في عام ١٩٠٦ ب «ايكيكه» نزل المضربون الى المدينة من مكاتب ملح البارود جميعها ، كي يقدموا مطاليبهم مباشرة الى الحكومة ، فاجتمع آلاف الرجال المنهكين بما قاسوه من المسير الطويل للاستراحة في ساحة تجاه مدرسة هناك ، كانوا ينوون ان يتوجهوا في صباح اليوم التالي ليروا حاكم المنطقة فيعرضوا عليه مطاليبهم ، لكنهم ما استطاعوا ان ينفذوا ما عزموا عليه ، فلقد قدمت في فجر ذلك اليوم قوات عسكرية يقودها عقيد فأحاطت بالساحة وبدأت باطلاق النار والتقتيل دون اي انذار او تحذير فسقط صريعا في تلك المجزرة اكثر من ستة آلاف رجل .

في عام ١٩٤٥ كانت الامور تجري في صورة احسن ، لكن ، احيانا ، كان يبدو لي ، أن زمن الابادة الجماعية يعود من جديد . ذات مرة مُنعت من التوجه الى العمال في محل النقابة ، فدعوتهم انا الى خارج ذلك السور، وفي وسط الصحراء بدأت أشرح لهم الوضع وابين لهم الوسائل الممكنة للخروج من هذه الحالة التي هم عليها ، كنا ما يقرب من مائتي شخص واذ بي أسمع ضجة آليات تقترب ، على بعد اربعة أمتار او خمسة مني وقفت دبابة عسكرية ثم فتحت فوهتها وأطلت فوهة رشاش منها قد صوّب نحو رأسي، ثم أطل قرب الرشاش ضابط متأنق جدا لكنه جادّ جدا ، اقتصر على توجيه نظره اليّ بينما كنت اتابع خطابي ، وهذا كان كل شيء .

ان الثقة التي وضعها في الشيوعيين اولئك العمال الكثيرون ، وهم أمّيون في غالبيتهم ، كانت قد ولدت مع (لويس ايميليو ريكابرّين) الذي بدأ نضاله في هذه المنطقة اليباب . من عامل محرض بسيط ، من فوضوي

قديم ، تحوّل الى حضور شبحي هائل في كل مكان ، فلقد ملأ البلـــد بالنقابات والاتحادات واستطاع ان ينشر اكثر من خمسة عشر صحيفـــة مهمتها الدفاع عن هذه المنظمات الجديدة التي خلقها ، وكل هذا بـــلا اي سنتيم . كان المال يخرج من الضمير الجديد الذي كان العمال قد تبنّوه وتكفّلوا به .

لقد رايت في بعض الاماكن مطابع (ريكابرّين) التي خدمت قضيـــة العمال في بطولة وجراة ، وظلت تعمل في سبيل هذه القضية اكثر مـــن اربعين سنة ، بعض هذه الآلات حطمها رجال الشرطة ثم أُصلحت من بعد في دقة واعتناء ، وكان تلمح فيها الندوب الهائلة تحت اللحام الفرامـــي الودّي الذي جعلها تتحرك من جديد .

لقد تعودتُ في تلك الجولات الكثيرة التي كنت اقوم بها عبر السهوب أن انزل في اكثر ابيوت فقرا ، في بيوت صغيرة ، او أكواخ او اخصاص يقطنها رجال الصحراء . كان ينتظرني دوما عند مداخل المناجم مجموعة من العمال وهم يحملون رايات صغيرة للترحيب بي ، من بعد كانوا يدلونني على المكان الذي سأبيت فيه . ثم يتوافد عليّ في غرفتي خلال اليوم كله نساء ورجال يعرضون عليّ شكاويهم العمالية ونزاعاتهم المحلية او العائلية. هذه الشكاوي كان لها احيانا طابع قد يراه من هو غريب ، مضحكا هزليا؛ مثلا نقص الشاي قد يؤدي بهم الى شن اضراب ذي نتائج خطيرة . اهو من الضروريات الملحة كما هو الامر عليه في لندن ، في هذه المنطقة البائسة الفقيرة ؟ لكن ، ما هو اكيد ان الشعب التشيلي لا يمكن له ان يعيش دون تناول الشاي عدة مرات في اليوم ، كان العمال الحفاة الذين يسألونني عن سبب فقدان هذا الشيء الغريب ، هذا المشروع الكريه الطعم ، لكنـــه ضروري لا غنى عنه ، يقدمون لي حجة عذر قائلين :

ـ اننا ، ان لم نتناوله ، نشعر بوجع شديد في الراس .

لقد كان لاولئك العمال المسجونين خلف جدران الصمت ، فوق الارض المتوحدة وتحت السماء المتوحدة ، حب الاستطلاع السياسي الحيوي ، كانوا يريدون ان يعرفوا ماذا يجري في يوغوسلافيا او في الصين ، كانوا يهتمون بالتغييرات والتحويلات والمصاعب في البلدان الاشتراكية ، وبنتائج

الاضرابات العمالية الكبيرة في ايطاليا ، وبشائعات الحروب وظهور الثوار في اكثر الاماكن بعدا عن تشيلي .

كنت استمع دوما خلال الاجتماعات التي تنعقد هنا وهناك الى مطلب ملح متكرر الا وهو ان اقرا عليهم بعضا من قصائدي ، وكثيرا من المرات يطلبون هذه القصائد باسمائها . طبعا ما فهمت ابدا او عرفت فيما اذا كانوا جميعا يفهمون او لا يفهمون ، يدركون او لا يدركون القليل او الكثير من ابيات قصائدي التي انشدها ، فلقد كان هذا صعب التحديد في ذلك الجو من الاطراق والسكون المطلق ، من الاحترام المقدس الذي كانوا ينصتون فيه الى هذا الانشاد . لكن ما هي اهمية هذا ؟ فانا ، وانا واحد من اكثر الاغبياء شهرة ، ما استطعت ابدا ان افهم ابياتا ليست بالقليلة من شعر (هولديرلين) (٥) ومن شعر (مالارميه) (٦) . مع العلم انني قرات هذه الابيات بالاحترام المقدس نفسه .

اما الطعام ، فانه حين يراد له ان يتخذ ملامح ولايمة كبرى ، يعدو قدرا كبيرة من دجاجة او طير غريب يصطادونه من السهوب . وما كان يوضع في الصحون كان بالنسبة لي صعبا ، لا استطيع ان اغرز فيه سني ، وكثيرا ما كان ارانب يقال بانها مطهية . كانت الظروف تجبر على صنع طبق مفضل من هذا الحيوان الصغير الذي ولد كي يموت في المخابر .

والاسرّة التي خصصت لي ، دائما كانت ذات طراز واحد . ففي البيوت التي لا حصر لها حيث كنت انام ، كان هناك اسرّة لها خاصتان اثنتان ومميزتان لا تجدهما الا في الاديرة . اولاهما شراشف بيضاء مثل الثلج متيبّسة بفعل قوة النشا ، قادرة على ان تقف وحدهـا قائمة . والثانية يبوسة في السرير شبيهة بيبوسة ارض الصحراء غير الرملية . هناك لا يعرفون ما يسمى بالفراش بل هو الواح بقدر ما هي ملساء بقدر ما هي قاسية لا ترحم .

---

٥ ــ هولديرلين Friedrich : شاعر الماني ١٧٧٠ ــ ١٨٤٣ .

٦ ــ مالارميه Stephane : شاعر وناقد فرنسي ١٨٤٢ ــ ١٨٩٨ .

ومع هذا فان كل شيء هناك كان يغفو قرير العين ، فبلا اي جهد كنت ادخل لأشارك في النوم ذلك الفيلق الغفير من زملائي ورفاقي . كان النهر دائما جافا ومتوهجا كأنه جمرة من نار ، فيما الليل في الصحراء كان يمد رطوبته تحت قبة ذات نجوم متقنة الصنع .

لقد جرى شعري وحياتي جريان نهر امريكي ، مثل تيار من مياه تشيلي ، فشعري وحياتي ولدا من عمق الجبال السري بالجنوب وتوجها بلا توقف نحو مخرج بحري في حركة تياراتهما . لم يرفض شعري اي شيء مما استطاع جرفه معه في مجراه ، لقد قبل الهوى ، وحضن السر ففتح له طريقا بين قلوب الشعب .

لقد كان لي ان اكافح وان اكابد ، ان احب وان إغني ، ان انتصر وان انهزم ، ان اتذوق طعم الخبز وان اذوق طعم الدم ، فماذا يريد الشعب بعد ؟ ان النقيضين من دمع ومن قبل ، من وحدة ومن شعب ، يعيشان في شعري ، يعملان في شعري ، لاني عشت من اجل شعري ، وشعري دعمني في صراعاتي . وان كنت قد حزت على جوائز كثيرة ، جوائز تفلت هاربة مثل فراشات ذات طلع هارب ، فاني قد نلت الجائزة الكبرى ، جائزة يحتقرها الكثيرون ، ولكنها في واقع الامر مستعصية على الكثيرين . لقد غدوت بكد دروس قاسية من جمالية ومن بحث ، عبر متاهات الكلمة المكتوبة ، شاعرا شعبيا ، بلى فهذه هي جائزتي ، ليست الكتب ولا القصائد المترجمة او التاليف التي تصف او تشرح او تحنط كلماتي . ان جائزتي لهي هذه اللحظة القصيرة في حياتي حين ، في عمق فحم « لوتا »
وسط وهج الشمس بتلك الارض المحترقة ، من حفرة ملح البارود صعد انسان كما لو كان يصعد من جهنم ، في وجه مشوه بسبب العمل الرهيب ، في عينين محمرتين بسبب الغبار القاتل ، فمد لي يده المتصلبة ، هذه اليد التي تدل عليها خارطة تلك السهول في قساوتها وتقطيبها . فقال لي في عينين تبرقان : « اني لاعرفك منذ زمن طويل ، يا اخي » . ان هذا هو اكليل الغار لشعري ، هذا المثقب في السهوب الرهيبة حيث يخرج عامل قالت له الريح والليل والنجوم بتشيلي مرات عديدة : « انك لست وحدك ، ثمة شاعر يفكر في آلامك » .

لقد انتسبت الى الحزب الشيوعي بتشيلي في ١٥ تموز من عام ١٩٤٥ .

(غونثاليث بيديلا Conzalez Videla)

كانت المرارات التي انا ورفاقي كنا نمثلها ، لا تصل الى المجلس الا في صعوبة جمة ٠ تلك القاعة المريحة البرلمانية كانت مثل سرير وثير لا تنعكس عليه جلبة الجماهير غير المرتاحة ولا تجد لها صدى في مجلس الشيوخ ٠ وزملائي في العصبة المضادة كانوا اكاديميين خبراء في فن الخطابة الوطنية الرنانة ، وتحت هذا الستار الحريري المزيف كانوا يبسطون ويسهبون في كلامهم ، فكنت اشعر بالاختناق ٠

فجأة تجدد الامل ، اذ ان احد المرشحين الى الرئاسة وهو (غونثاليث بيديلا) اقسم ان يعمل في سبيل العدالة ، فجلبت له بلاغته الفعالة سمعة حسنة ، وانا كنت قد عينت رئيسا للدعاية في حملته الانتخابية فحملت الى انحاء ارض تشيلي كلها هذه البشرى الجديدة عن مرشحنا هذا ٠

فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة من الاصوات رئيسا للجمهورية ٠

لكن رؤساء الجمهورية في قارتنا الامريكية « الكريوية » كانوا يعانون من مسخ وتغير في الخلق والخليقة مرات كثيرة ، في حالة هذا الذي اروي حكايته الآن ، فانه غير من اصدقائه في سرعة واستبدل بهم آخرين واقحم اسرته في الطبقة الارستوقراطية ، وشيئا فشيئا اصبح ديماغوجيا عينا شهيرا ٠

الحقيقة هي ان (غونثاليث بيديلا) لا يدخل في اطار الديكتاتوريين النموذجيين التقليديين في امريكا الجنوبية ، اذ ان في (ملغاريجو) (٧) ديكتاتور بوليفيا ، وفي الجنرال (غوميث) ديكتاتور فينزويلا ، اعراقا ارضية وطبقات معدنية يمكن معرفتها ، ولهما اشارة تنمي ببعض العظمة ، ويبدو عليهما كانهما يتحركان بدافع قوى مدمرة ،

---

٧ ــ ميلغاريخو Mariano: عقيد قام بانقلاب عسكري في بوليفيا وحكمها ديكتاتوريا (١٨١٨ ــ ١٨٧١)

ولكن هذا لا ينفي عنهما انهما سفاحان ، غير انهما كانا قائدين جابها المعارك والنيران .

بينما (غونثاليث بيديلا) كان ، على العكس من ذلك ، نتاج الطبـــخ السياسي ، تافها متماديا في غيه ضعيفا يحاول ان تبدو عليه ملامح القوة والجبروت .

في حديقة حيوانات امريكا ، كان الديكتاتوريون هم العظائيـــات العملاقة ، بقايا اقطاعية هائلة في اراض ما زالت كما كانت قبل التاريخ. ان يهوذا تشيلي ما كان الا تلميذا في الطغيان وفي درجات العظائيـــات ومراتبها لا يمكن له ان يتعدى كونه ضبا ساما (٨) ، بيد انه فعل ما فيه الكفاية من أذى لتشيلي ، فهو على الاقل اعاد تاريخ البلد الى الوراء . كان التشيليون في عهده المبارك ينظر بعضهم الى بعض في خجل دون ان يفهموا كيف جرى ذلك وكيف يجري هذا الامر المخجل .

كان هذا الرجل من دعاة الاعتدالية ، بهلوان مجلس . توصل الى ان تموضع في يسارية مشهدية . في «ملهاة الاكاذيب» هذه كان بطلا مكارا خبيثا . في هذا لا احد يجادل . في بلد حيث السياسيون فيه ، عموما ، جادّون جدا او هكذا يبدون ، ارتاح الناس لظهور التفاهة والسخافـــة والطيش والخفة والبطلان ، ولكن حين ، راقص «الـ كونغا» هذا **خرج من الأم** (٩) ، كان الوقت متأخرا جـــدا : كانت السجـــون مليئة بالمعتقلين السياسيين الى درجة انه أنشئت معتقلات مثل معتقـــل «بيساغوا» . وتركزت الدولة البوليسية ، اذ ذاك ، كتجديد قومي في وضع البلاد . فلم يكن ثمة سبيل غير الجلد والصبر والصراع بشكل سرّي للعودة الـــى الحشمة والجدّية .

ان الكثيرين من اصدقاء (غونثاليث بيديلا) الذين رافقوه حتى النهاية في نشاطاته الانتخابية قد سيقوا الى السجون في سلسلة الجبال العالية

---

٨ — ضب سام : هو الضب الابرص السام الذي يقال له **الوزغ** .

٩ — خرج من الأم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، **فاض عن الحد** .

او في الصحراء بسبب انشقاقهم عن مسخه ومخالفتهم لتغيره وتبدّله .

فالحقيقة هي ان الطبقة العالية المورّطة بقدراتها الاقتصادية ، ابتلعت مرة اخرى حكومة امتنا كما جرى ذلك عدة مرات من قبل ، لكن في هذه الحالة ، كان الهضم عسيرا غير مريح فمرت تشيلي في حالة مرضية كانت تتراوح بين الغشية والحشرجة .

لقد تحوّل رئيس الجمهورية الذي اخترناه بأصواتنا ، تحت حماية ورعاية الولايات المتحدة ، الى وطواط مطاط خسيس دنيء حقير سافل لئيم رذيل بخس تافه شرس عنيف دموي . انه لأكيد ان تأنيب ضميره له لم يكن يدعه ينام ولذلك فقد نصب ، قرب القصر الجمهوري ، مواخير للغلمان وللبغايا خاصة به ، زودها بسجاجيد ومرايا للملذاته . لقد كان لهذا التعيس عقلية تافهة بيد انها ملتوية ، ففي الليلة نفسها التي بدأ فيها القمع واضطهاد الشيوعية والشيوعيين ، دعا اثنين او ثلاثة من القادة العمال الى العشاء معه ، بعد انتهاء الوليمة نزل معهم من على درج القصر الجمهوري ، ثم أخرج من عينيه بعض الدموع فعانقهم وقال لهم : «اني ابكي لاني قد امرت بسجنكم ، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم ، ولست أدري فيما اذا سيشاهد بعضنا بعضا بعد هذه اللحظة» .

«الجسد الموزّع»

لقد كانت خطاباتي عنيفة دوما وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائما بالناس الذين يأتون ليسمعوني . لكن ، بعد مضي وقت قليل على انتخابي وعضويتي وخطبي ، طلب من المجلس طردي فطرّدت منه ووجّه الامر الى الشرطة باعتقالي .

بيد اننا ، نحن الشعراء ، نملأ بين جواهرنا الاصيلة ، ذاتا مصنوعة في معظمها من نار ودخان .

كان الدخان قد خصّص للكتابة . ان العلاقة التاريخية لكل ما كان

يجري لي اقتربت بشكل ماساوي من المواضيع الامريكية القديمة . في ذاك العام من الخطر والاختباء انهيت اكثر كتبي اهمية الا وهو «النشيد العام».

كنت ابدّل دارا بدار في كل يوم تقريبا . في الجهات جميعها كانت الابواب تنفتح كي تحميني . كان ثمة دائما اناس لا اعرفهم يعبرون عن رغبتهم في ايوائي لعدة ايام . كانوا يرجون مني ان ابقى عندهم ملتجئا ولو لبضعة اسابيع ولو لبضعة ساعات . فعبرت قرى ، حقولا ، موانىء، مدنا، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ، مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، اطباء ، بحّارة .

ثمة موضوع قديم في الشعر الفولكلوري يعاد ويكرر في اقطارنا جميعها وهو موضوع «الجسد الموزع» . يفترض المغني الشعبي ان قدميه في جهة وان كِليتيه في جهة اخرى فيصف اعضاء جسده كلها التي تركها مبددة مبعثرة عبر الارياف والمدن . وهذا ما كنت اشعر به انا في تلكم الايام .

من بين الاماكن المؤثرة التي حوتني وضمتني ، اذكر بيتا ذا غرفتين ، ضائعا بين التلال الفقيرة في «بالبارائيسو» .

فلقد خُصّص لي فيه جزء من غرفة ور'كَينا من نافذة كنت منه اراقب الحياة في الميناء . من هذه المطلة (١٠) الحقيرة كان نظري يحيط بقسم من الشارع . كنت ارى في الليالي مسير الناس المزدحم . كان ربضا (١١) فقيرا وكان ذاك الشارع ، على بعد مائة متر من نافذتي ، يحتكر الاضاءة كلها له في ذلك الحي المعتم ، وتملأه حوانيت صغيرة وخذاريف ولعب اطفال .

قابعا في ركني كان لي حب للاستطلاع لا حد له ، احيانا لم اكن

---

١٠ ـ المطلة : في الاصل atalaya وهي الكلمة العربية **الطلائع** ومن معانيها باللغة الاسبانية ما عرّبناه في النص .

١١ ـ ربض : هكذا في الاصل arrabal وهو الحي الشعبي خارج المدينه ، وثورة الربض التي قام بها اهل قرطبة على الخليفة مشهورة معروفة .

اتوصل الى حل المشاكل ، مثلا ، لماذا كان الناس الذين يمرون ، سواء منهم المتسكعون او المستعجلون يتوقفون دائما في المكان نفسه ؟ ما هي هذه السلع السحرية التي كانت تعرض في هذه الواجهة ؟ اسر بكاملها كانت تتوقف لمدة طويلة واطفالها على الاكتاف. ما كنت ابلغ ان ارى وجوه التجلي والوجد التي كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون الى تلك الواجهة الساحرة ، لكنني كنت اتخيلها وافترضها .

بعد مضي ستة اشهر عرفت ان ذاك المكان كان واجهة حانوت بسيط لبيع الاحذية . سجّل اذن ان الحذاء هو اكثر ما يهم الانسان . اقسمت ان ادرس هذا الموضوع ، ان ابحث فيه وان اعبر عنه ، لكن ما كان لـــي الوقت كي انفذ هذا العزم او الوعد الذي املته ظروف غريبـــة . غير أن الاحذية ليست قليلة في شعري . انها تمشي على اكعابها في كثير مـــن مقاطع قصائدي دون ان اكون قد عزمت على ان اغدو شاعرا حذائيا .

كانت تصل الى هذا البيت زيارات تطول احاديثها ، جيران يمكثون هناك ساعات وساعات ، زوار ثقلاء نرثارون لا يدرون انه على بعد قليل منهم ، مفصولا عنهم بحاجز من ورق صحف قديمة ، ثمة شاعر مطارد من قبل من لست أدري من محترفي الصيد الانساني .

السبت مساء وكذلك صبيحة كل يوم احد كان ياتي الى البيت خطيب احدى فتيات العائلة التي تستضيفني ، وكان ممـــن لا يجب ان يخبروا بوجودي . كان هذا الشاب عاملا ، يستودع لديه قلب الفتاة ، لكن ، آه ، ما كان اهل الفتاة يثقون به بعد . كنت اراه من كوّة النافذة وهو ينزل من على درّاجته التي كان عليها يوزع البيض في ذلك الحي الشعبي الواسع المديد كله ، بعد قليل أسمعه وهو يدخل مترنما الى البيت . كان عدوّ هدوئي وطمانينتي ، اقول انه عدو لانه كان يصرّ على ان يبقى هناك يغازل الفتاة على بعد قليل من السانتيمترات من راسي . هي كانت تدعوه الى ممارسة الحب الافلاطوني في احدى الحدائق او في السينما، ولكنه كان يقاوم بشكل بطولي ويصر على ممارسة الحب الطبيعي في البيت، وانا كنت العن هامسا بين اسناني عناد موزع البيض المنزلي .

كان بقية افراد الاسرة يعرفون سر اختبائي عندهم : الأم الارملة ،

الفتاتان الرائعتان والابنان البحّاران . كان هذان الشابان يفرغان الموز في رصيف الميناء واحيانا كانا يعودان الى البيت غاضبين لانما من باخرة كلفتهما بتفريغ شحنتها من الموز . عن طريقهما عرفت ان مركبا قديما قد تفكك قطعة قطعة في الميناء . فوجهت انا من ركني السري العمليات فانتزعا من قيدوم المركب التمثال الجميل وتركاه مخبأ في قبو بالميناء . ما استطعت ان ارى هذا التمثال الا بعد مضي عدة سنين بعد ان انتهى فراري ونفيي. ان المرأة الخشبية الجميلة ذات الوجه الاغريقي مثل بقية وجوه التماثيل في المراكب القديمة ، تنظر اليّ الآن في جمالها الكئيب الحزين فيما اكتب هذه المذكرات ازاء البحر (١٢) .

كانت الخطة هي ان اركب حفية الباخرة المشحونة بالموز في غرفة احد هذين الشابين وان أهبط منها حين تصل الى ميناء «غواياكيل» ، طالعا من بين عناقيد الموز . شرح لي الشاب البحّار انه يجب عليّ ان اظهر فجاة على ظهر السفينة، تحت القسم المغطى منها، حين ترسو في الميناء الاكوادوري، وانا البس رداء انيقا وادخن سيجارا نقيا ، ابدا ما استطعت ان ادخن هذا النوع من التبغ . فقررت العائلة بعد ان تبين ان الاقلاع قد اقترب ، ان تفصل لي البدلة المناسبة ــ انيقة ومخملية ــ ، لهذا الغرض اخذت لي المقاييس بشكل جيد دقيق .

في ضرب اثنين بثلاثة (١٣) كانت بدلتي جاهزة . ابدا ما سررت بمثل سروري حين استلمتها . ان فكرة «المودا» هذه التي كانت عند نساء البيت متأثرة بفيلم شهير في ذلك الوقت وهو فيلم : ذهب مع الريح . الشابان من جهتهما كان يعتبران ان الطراز الذي كانا يريدان ان تكون البدلة عليه هو قدوة في الاناقة التقطاه من رقصات «هارلم» ومن حانات الرقص في البحر الكاريبي . ان السترة ، متصالبة ومحزمة ، كانت تصل حتى ركبتيّ ، والسروال كان يشد على رسغيّ .

---

١٢ ـ لقد كتب (نيرودا) عن هذه الفتاة الخشبية قصيدة بعنوان تمثال على قيدوم السفينة ، ترجمناها ونشرناها في صحيفة الجمهورية العراقية عدد ٢٠٤٩ بتاريخ ١٩ـ٦ـ١٩٧٤ ضمن مجموعة من القصائد تحت عنوان «سبع قصائد لبابلو نيرودا» .

١٣ ـ في ضرب اثنين بثلاثة : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي في رفة عين .

احتفظت بهذا الزي الجدير بالرسم والوصف ، المصنوع بأيدي أناس طيبي النية جدا ، ولم تسنح لي مناسبة كي البس هذه البدلة . ابدا ما خرجت من مخبأي في الباخره ولا نزلت مطلقا مع الموز بـ «غواياكيل» ، لابسا مثل (كلارك غيبل) (١٤) مزيف . لقد اخترت ، على العكس ، طريق البر . انطلقت نحو الجنوب الاقصى لتشيلي الذي هو الجنوب الاقصى لامريكا وعزمت على اجتياز سلسلة الجبال .

طريق في الغابة

كان الامين العام لحزبي في ذلك الوقت هو (ريكاردو فونسيكا) ، وهو رجل حازم جدا ، دائم الابتسامة ، جنوبي مثلي ، من الطقس البارد والمناخ الرطب بـ «كاراهويه» . ان (فونسيكا) اعتنى بحماي اللاشرعية ، بمخابئي، بغاراتي السرية ، بطبع منشوراتي وكتبي الهجائية ، لكنه اعتنى اكثر ما اعتنى ، في حيطة وحذر ، بسر عناويني . لقد كان رئيسي هذا الشاب اللامع الامين العام للحزب الشيوعي (ريكاردو فونسيكا) هو الوحيد الذي كان يعرف على وجه الدقة خلال سنه ونصف مخابئي وتحركاتي . اين كنت انام كل ليلة وأين كنت آكل كل يوم . لكن توعك صحته كان يضني وينضي ذلك اللهيب الاخضر الذي كان يطل من عينيه ، ويطفيء ويخمد تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهه ، وذات يوم رحل عنا الى الابد ذلك الرفيق الطيب .

لقد اختير في أجواء اللاشرعية قائدا اعلى ، رجل فظ غليظ القلب ، كان حمالا في «بالباراثيسو» يدعى (غالو غونثاليث) ، كان رجلا معقّدا في هيئة خادعة وفي حزم قاتل . يجب عليّ هنا ان اقول انه ، في حزبنا ، لم توجد عبادة الشخص ، لكن الحزب الشيوعي لتشيلي هو منظمة قديمة مرت بمراحل من الضعف العقائدي ، بيد انه دائما كانت تسود روح الضمير

---

١٤ ـ كلارك غيبل Clark Gable : الممثل الامريكي المعروف (١٩٠١ ـ ١٩٦٠) ، «بطل» فيلم ذهب مع الريح .

التشيلي ، وعي شعب صنع كل شيء بأيديه ، ففي حياتنا القومية كان لنا قادة قلائل جدا وهذا انعكس ايضا على حزبنا .

غير ان هذه السياسة الهرمية للفترة الستالينية ، انتجت كذلك في تشيلي جوا مخلخلا محميا باللاشرعية التي فرضت علينا .

لم يكن (غالو غونثاليث) ليستطيع الاتصال بمجموع الحزب . كانت المطاردة تتفاقم وتشتد وكان لنا في السجون آلاف المعتقلين وكذلك فقد حشد جمع كبير منا في معتقل خاص بساحل «بيساغوا» **Pisagua** الخالي الصحراوي .

لقد كان (غالو غونثاليث) يقوم وسط حياة لا شرعية، بفعاليات ثورية كثيفة مهمة ، لكن عدم اتصال القيادة بالهيكل العام للحزب كان يبرز في وضوح . لقد كان رجلا عظيما حقا ، نوعا من العالم الشعبي والعارف بكل شيء ، مناضلا جريئا شجاعا .

اليه كانت تصل خطط هربي الجديد ، وهذه المرة طبقت هذه الخطط بدقة متناهية ، وكانت ترى هذه الخطط ان انتقل الى مكان يبعد الف كيلومتر عن العاصمة وأن أعبر من بعد سلسلة الجبال على ظهر جواد ، وسينتظرني الرفاق الارجنتينيون في جهة محددة عند الحدود .

خرجنا بعد ان حل الليل في سيارة كانت لنا رحمة وحماية . فلقد قادني صديقي الدكتور (راؤول بولنيس) الذي كان في ذلك الوقت طبيبا للشرطة الآلية ، بسيارته حتى ضواحي «سانتياغو» وهناك اصبحت في عهدة منظمة الحزب التي أعدت لي سيارة اخرى صالحة للسفر الشاق الطويل ، وكان في انتظاري بها رفيق قديم في الحزب هو السائق (ايسكوبار) .

مضينا ليل نهار عبر الطرق . كنت انا خلال النهار ، كي ازيد في دعم اللحية والنظارة اللتين كانتا تخفيان ملامحي ، التف بأغطية مخفية ، بخاصة حين نعبر القرى والمدن او نتوقف في محطات البنزين .

مررت ب «تيموكو» في الظهيرة . لم انوقف في اي مكان ، لا احد رآني فعرفني . للصدفة والزهر (١٥) البسيط ، كانت مدينتي القديمة «تيموكو» هي سبيلي للخروج والهرب . عبرنا الجسر وضاحية «بادره لاس كاساس»، توقفنا بعيدا عن المدينة ، لآكل شيء ، جالسين فوق صخرة هناك . عبر المنحدر كان يجري نهر نحو مصبه وكانت مياهه تصطخب . كانت طفولتي تودعني . لقد نموت ونشأت في هذه المدبنه ، وشعري ولد هنا بين التلة والنهر ، هنا كنت التقط صوت المطر ، هنا كنت أتضمخ بالغابات ، هنا كنت انتشي بالخشب . وهأنذا ، في طريقي نحو الحرية ، انزل لحظة قرب «تيموكو» فاسمع صوت الماء الذي علمني الغناء .

ثم تابعنا السفر . ما كان لنا من لحظة فلق الا مرة واحدة فقط . فلقد امرنا ضابط كان واقفا وسط الطريق في صوت حاسم ان نقف ، فحبست انفاسي ولكن تبين انه ليس بهجوم كاسح بل ان الضابط طلب منا ان نأخذه معنا في السيارة الى مكان يبعد مائة كيلومتر عن ذاك الموضع ، جلس قرب السائق ، رفيقي (ايسكوبار) ، فتحدث في لطافة معه ، وأنا تصنّعت النوم كي لا يكلمني ، لأن صوتي ، صوت شاعر ، كانت تعرفه حتى حجـــارة تشيلـــي .

ثم وصلنا دون اي خطب من خطوب الدهر ، الى نقطة النهاية . كانت هذه النقطة هي عبارة عن عزبة مليئة بالاخشاب ، ظاهريا غير مأهولة ، الماء كان يلمسها من الجهات الاربع ، اولا كان لا بد من عبور البحيرة الواسعة «رانكو» الى مكان بين الاحراج والاشجار العملاقة السامقة ، من هناك كان لا بد من امتطاء حصان يمر عبر ممر ضيق خلال فترة من الزمن الى ان نعـــود فنركب زورقا لنجتـــاز مياه بحيرة « مايهويـــه » . كانت دار صاحب العمل لا تكاد تبين ، وهي مختبئة في سفح سلسلة الجبال الهائلة، تحت اغصان الاشجار الضخمة ، بين دوي الطبيعة العميق . انه لقـــول معروف بأن تشيلي هي آخر ركن في العالم . ذلك المكان المبطن بالغابـــة البكر ، المحاط بالثلج ، المطوق بمياه البحيرات ، هو في الحقيقة آخر ركن مسكون في المعمورة .

---

١٥ ــ الزهر : هكذا في الاصل Azar بمعنى الحظ والبخت . عن العربية

كانت غرف المنزل حيث انزلوني مجهزة بما يجب في تلك المنطقة ، بمدفاة من صفر وحديد مليئة بحطب بري حديث القطع ، يتاجج ليل نهار . كان مطر الجنوب الرهيب يلطم بلا هوادة ، النوافذ ، كما لو كان يلتمس الدخول الى البيت ، يسيطر على الغابة الظليلة ، على البحيرات ، على البراكين ، على الليل ، ويثور غاضبا لأن أولئك الحرس من البشر كان لهم دستور آخر ولم يخضعوا لجبرونه وانتصاره .

انا كنت أعرف قليلا جدا ذلك الصديق الذي كان ينتظرني هناك وهو (خورخه بييت) ، سائق طائرة قديم ، مزيج من رجل عملي ومن رائد ، كان يحتذي جزمة ويلبس سترة سميكة قصيرة ، كان له طبع آمر فطري ولهجة قائد عسكري ، يتناسبان مع ذلك الجو ، مع ان الفرق الوحيدة المصطفة هناك كانت الاشجار .

صاحبة الدار كانت امراة هشة نواحة ، محاصرة بمرض العصاب . كانت تعتبر الوحدة الثقيلة في تلك المنطقة ، المطر الخالد ، البرد ، مسبئة لشخصيتها الكريمة ، كانت تتباكى طيلة النهار كله وقسما كبيرا من الليل، لكن كل شيء كان يسير لديها سيرا حسنا وكانت تستخرج مواد الغابة والماء.

كان (بييت) يقود هذه المؤسسة الخشبية ، وهذه المؤسسة كانت تقتصر على صنع رواقد للسكك الحديدية ، تصدر لاستعمالها في السويد والدانيمارك . خلال النهار كانت تصر صريرا حادا ، المناشر التي تقطع الجذوع الكبيرة ، اولا كان يسمع التقوض العميق للشجرة التي كانت تسقط وتهوي ، كل خمس او عشر دقائق كانت تهتز الارض مثل زلزال غامض حين يرضها انهيار شجر الارز والبطم والسرو والعفص والميس ، أعمال جسيمة هائلة للطبيعة ، أشجار مغروسة هناك من قبل الريح منذ الف سنة ، تشكو الآن من فعل المنشار الذي يلوي جسمها ويطرحه ارضا، صوت المنشار المعدني يصر عاليا مثل نغم الكمان البري الهمجي الذي يتلو قرع الطبول حين تهوي الاشجار على الارض . كل هذا كان يشكل جوا من التوتر الاسطوري ، من الشدة السرية ، من الرعب الكوني . الغابة كانت تموت ، وأنا كنت اسمع متألما أنينها كما لو ان اكثر الاصوات قدما ترن وهي تترنح ، الرنة الاخيرة ، الآهة التي ابدا لن تعاد .

كان صاحب هذه الغابة كلها هو رجل من «سانتياغو» لا أعرفه . كان يعلن عن زيارته الى غابته في أواخر الصيف فكان الناس الذين يعملون عنده يخشون هـــذه الزيارة ويهابونها ، وهو يدعـــى (بيبه رودريغيث) . اخبرونــــي انه اصبح راسماليـــا حديثا ، وانـه صاحب مناسج ومعامـــل اخرى . وانه رجل صناعي مهم ، وانه ماهـــر وكهربائـي الحركة . ولزيادة المعلومات أضيف بأنه كان رجعيا من جفن الكرم (١٦) وهو عضو دائم في اكثر الاحزاب يمينية بشيلي . بما اني كنت عابرا في مملكته دون علمه ، فان هذه الميزات التي يتمتع بها كانت عناصر انجاده بالنسبة لي في هذه الآونة فلا احد كان يستطيع ان يأتي الى مملكته للبحث عني . فلقد كان المسؤولون المدنيون ورجال الشرطة دائما تحت امره هذا الرجل العظيم الذي كنت اتمتع بضيافته وحمايته ، دون ان يدري وكان مـــن المستحيل ان ينعرقل بي وانا بمملكته .

كان انطلاقي من جديد على وشك الابتداء ، اذ ان التاوج في سلسلة الجبال كانت على وشك الابتداء كذلك ، ولا يمكـــن اللعب مع جبـــال «الانديس» . كان الطريق يتدارسه يوميا اصدقائي . ان كلمة طريق هي من نافل القول ففي الحقيقة والواقع كان الامر هو اكتشاف درب محته منذ زمن الثلوج . لقد اصبح الانتظار مقلقا بالنسبة لي . فرفاقي من الجانب الارجنتيني لا بد وانهم قد انطلقوا للبحث عني .

حين كان كل شيء قد أعدّ ، وكنا على وشك الاقلاع جاء القبطان العام والرائد الاعظم للاخشاب ليخبرني بان شيئا جديدا قد طرأ ، قال هذا وعلائم التأثر بادية على سيماء وجهه ، فقد اعلن «البطرون» الاعلى عـــن زيارته وانه سيصل بعد يومين .

بقيت حائرا ، لم تكن الاستعدادات قد جهزت تماما في ذلك الوقت ، وما هو اكثر خطورة بالنسبة لوضعي ، بعد ذلك العمل الطويل من الاختفاء

---

١٦ ــ من جفن الكرم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي الشعبي من ام المنفود بمعنى اصيل .

والتنقل ، كان ان هذا «البطرون» سيعرف انــي كنت ملتجئا في اراضيه الخاصة وهو صديق حميم للاحقي ومطاردي (غونثاليث بيديلا) وهو يعرف ان السيد الرئيس قد وضع ثمنا لراسي ، ما العمل ؟

كان (بيبت) منذ اللحظة الاولى يرتئي ان نكلم (رودريفيث) صاحب المكان ، وجها لوجه .

اني اعرفه جيدا — قال لي — هو رجل في معنى الكلمة ولن يبوح عنك ولن يفشي بسرك .

كنت غير موافق فان تعليمات الحزب كانت ان اختفي في سرية كاملة، و(بيبت) كان يحاول نسف هذه التعليمات ، وهذا ما قلته له ، تناقشنا في حدة وصخب واثناء النقاش السياسي قررنا ان اذهب لاسكن في بيت شيــــخ قبيلة « مابوتشة » ، كــان هذا البيت عبارة عــن كــوخ مغروز في طرف الغابة نفسها .

انتقلت الى الكوخ فأصبح وضعي هناك مزعزعا جدا الى درجة اني اخيرا ، بعد التفكير والتقدير ، قبلت ان اقابل (بيبه رودريفيث) صاحب المؤسسة والمناشير ، والغابات . عينا نقطة محايدة للقائنا ، بين منزلــه وكوخ شيخ القبيلة . حين خيم المساء رأيت سيارة «جيب» تقترب ، ثم نزل منها مع صديقي (بيبت) رجل كهل «شبوبي» ذو شعر أشيب ووجه حازم . اول ما قاله لي انه منذ هذه اللحظة يتولى هو مسؤولية حراستي وحفظي . في مثل هذه الظروف ، لا احد يجرؤ على محاولة الاعتـــداء على أمني .

تكلمنا من غير ود كبير ، لكن الرجل شيئا فشيئا راح يكسب ودي فاستلطفته ودعوته الى بيت الشيخ لان البرد كان هناك شديدا جدا ، كي نتابع حديثنا ، فقبل وتابعنا الحديث . وبأمر منه ظهرت زجاجة شمبانيا وأخرى من ويسكي ، وثلج يبرد ويرطب ذلك كله .

حين بدانا بالكأس الرابعة من الويسكي كنا نتناقش بأصوات عالية

مرتفعة . لقد كان هذا الرجل استبداديا في قناعاته واعتقاداته ، يقول اشياء هامة ، وكان عالما بكل شيء ، لكن غطرسته كانت تجعلني غضوبا نزقا . كلانا كان يضرب ضربات شديدة فوق طاولة الشيخ الى ان انهينا في سلام تلك الزجاجة .

لقد استمرت صداقتنا لزمن طويل . من بين مزايـــاه وفضائله ، صراحة غير منكرة من انسان متعود على ان تكون له المقلاة في مقبـــض يده (١٧) . لكن كذلك كان يتقن قراءة شعري قراءة رائعة حقا بنبرة صوت رجولية وذكية الى درجة ان اشعاري هذه كانت تبدو لي وكأنها تولد من جديـــد .

عاد (رودريغيث) الى العاصمة ، الى مؤسسانه واعماله . كانت لــــه لطافـــة اخيرة ، فقد نادى أتباعه المتحلقين حولي وامرهم بصوتـــــه ذي النبرة الآمـــرة :

اذا كان للسيد (ليفاريته) من هذا اليوم الى اسبوع اي مانع يعرقل مسيره الى الارجنتين عبر ممر المهربين ، فانه يجب عليكم ان تشقوا طريقا آخر يصل الى الحدود ، اوقفوا اعمال الاخشاب كلها لتعملوا جميعا في شق هذه الطريق . هذه هي اوامري .

(ليفاريته) كان اسمي في تلك اللحظة .

ان (بيبه رودريغيث) ذاك الرجل الاقطاعي المسيطر ، مات بعد سنتين من لقائنا ، في حالة فقر مدقع ، بعد ان عوقب على تهريب خطير قام به ، فقضى شهورا كثيرة في السجن ، لا بد ان السجن كان معاناة لا توصف بالنسبة لطبع غطريس وطبيعة آمرة .

ابدا ما عرفت من بعد على وجه الدقة ان كان مذنبا ام بريئا من التهمة

---

١٧ ــ المقلاة في مقبض يده : تعبير اسبانـــي يشبه التعبير العربـــي ، في مقبضه مقاليد الامور .

التي وجّهت اليه ، لكني عرفت ان طبقة الاقلية الحاكمة في بلادنا ، التي كانت تأرق متمنية دعوة من (رودريغيث) ، هجرته ما ان رأته يستنطق ويتهدم .

فيما يتعلق بي ، فاني ما زلت الى جانبه ، دون ان يمحي من ذاكرتي. لقد كان (بيبه رودريغيث) بالنسبة لي امبراطورا صغيرا امر بفتح طريق طولها ستون كيلومترا عبر الغابة البكر كي يبلغ شاعر حريته .

جبال الانديس

ان لجبال الانديس دروبا غير معروفة ، يستعملها منذ زمن قديم المهربون العدّاءون الصعبون الى درجة ان الدرك لا يشغلون انفسهم بتعقبهم وملاحقتهم . ان انهارا كثيرة ومهاوي سحيقة تتكفل بمنع العابر والسالك ان يسلك .

كان صاحبي (خورخه بييت) هو رئيس تلك الحملة الجبلية ، لقد انضاف الى حامية ظهورنا المؤلفة من خمسة رجال من الفرسان ورعاة البقر . صديقي القديم (فيكتور بيانشي) الذي كان جاء الى هذه المواضع بصفته مساحا للاراضي ، كي يحل النزاعات القائمة هناك حول تقسيم الارض . لم يعرفني اذ انني كنت في لحية نامية جدا بعد سنة ونصف من الحياة المتخفية . ما ان عرف خطتي لاجتياز الغابة حتى أبدى استعداده لمساعدتي وقدم لنا خدمات لا تثمن لكونه مكتشفا مدربا خبيرا . ولقد كان من قبل قد صعد قمة « اكوانكاغوا » في حملة مأساوية كان هو الوحيد الذي نجا منها سالما .

كنا نسير في صف منتظم ، محميين بجلالة الفجر . منذ زمن طويل، اي منذ طفولتي ، لم اكن قد امتطيت صهوة جواد ، لكن هنا كنا نمشي خطوة خطوة بطيئين متمهلين . ان الغابة الانديسية الجنوبية لا يسكنها الا اشجار ضخمة سامقة تتباعد الواحدة عن الاخرى . انها لاشجار عملاقة من الارز والبطم والعفص والصنوبر . اشجار الميس تدهش بضخامتها ،

توقفت لاقيس واحدة فكانت في قطر حصان . من الاعلى لا ترى السماء. من تحت الاوراق قد سقطت خلال قرون عديدة فشكلت طبقة من الدبال كانت تغرق فيها حوافر المطايا. في مسيرة صامتة كنا نجتاز تلكالكاتدرائية من الطبيعة البرية .

بما ان دربنا كان مخفيا ومحرما ، فقد كنا نقبل باقل الصوى ارشادا واضعف العلامات توجيها . لم يكن ثمة من آثار ولم تكن هناك من دروب، ومع اصحابي الاربعة على ظهور الخيل كنا نبحث ، مشكلين كتيبة من الفرسان ــ ونحن نزيل العراقيل ، متجنبين الاشجار القديرة ، متخطين الانهار المستحيلة ، متسلقين الصخور الهائلة ، غارقين في الثلوج المدمرة ، عن اتجاه لحريتي ــ بالاحرى كنا نخمن تخمينا ــ . ان الذين كانوا يصطحبونني كانوا يعرفون التوجه ، الامكانية بين اوراق الشجر الكبيرة واغصانها المشتبكة المعقدة ، لكن كي يكونوا على يقين فانهم كانوا يعلّمون هنا وهناك فوق لحي الشجر بسكاكين حادة تترك آثارا تدلهم حين يعودون بعد ان يتركوني وحيدا مع مصيري .

احيانا كنا نتبع اثرا ضعيفا جدا صنعه ــ ربما ــ مهربون او مجرمون هاربون، وكنا نجهل فيما اذا كان الكثير منهم قد قضوا نحبهم على حين غرة حين فاجأتهم أيدي الشتاء الجليدية القارسة وعواصف الثلج الرهيبة التي حين تفرغ شحنتها فوق جبال الانديس تلف العابر وتغرقه تحت سبعة طوابق من البياض .

على كل جانب من جانبي ذلك الاثر من الدرب رايت ، في تلك الوحشة البرية ، شيئا كانه بناء انساني . كأن اجزاء من اغصان مكومة تحملت عدة فصول شتائية ، قربانا نباتيا قدمه مئات العابرين ، جثوات عالية من خشب ، شواهد لتذكر من سقطوا هنا صرعى ، من لم يستطيعوا المضي، فمكثوا تحت الثلوج الى الابد . كذلك قطع اصحابي بالمدى والسكاكين الاغصانالتي كانتتلامس رؤوسنا وتهبط الينا منأشجار البلوط التيكانت اوراقها الاخيرة تخفق قبل اكتساح زوابع الشتاء . وانا كذلك كنت اترك على كل جثوة ذكرى ، بطاقة بريدية من خشب ، غصنا مقطوعا من الغابة كي أزين قبور العابرين الهالكين هناك والذين ما عرفتهم ابدا .

كان علينا ان نجتاز نهرا . ان هذه المنحدرات الصغيرة المولودة في قمم جبال الانديس كانت تتعجل ، تفرغ شحنة سريعة جدا سرعان ما نصبح شلالات تحطم الاراضي ، تفتت الصخور بفعل من طاقتها وسرعتها اللتين جلبتهما من تلك المرتفعات الشهيرة : لكن هذه المرة وجدنا غديرا ، مرآة كبيرة من المياه ، مخاضة نهر . الخيول خاضت في المياه الى اعناقها وسبحت حتى الضفة الاخرى . وجوادي كذلك تابع مسير رفاقه ففرق في المياه كله تقريبا فبدات انا اترنح واهتز من غير سند ولا مدعم ، قدماي شدتا على الانساق بينما الجواد كان يكافح كي يحتفظ براسه في الهواء الطلق . هكذا عبرنا ، وما ان وصلنا الى الضفة الاخرى حتى سألني رعاة البقر والفلاحون الذين كانوا يرافقوننا في شيء من الابتسام ولعله استخفاف :

ــ هل خفت كثيرا ؟

ــ كثيرا جدا ، ظننت انه قد حانت ساعتي الاخيرة ــ قلت .

ــ كنا نسير خلفك والآصرة في اليد ــ اجابوني .

ــ في هذا المكان نفسه ــ اضاف احدهم ــ سقط والدي فجرفه التيار . ما كان ليحدث الشيء نفسه لحضرتك ، فقد احتطنا لذلك فوضعنا الآصرة في اليد حتى ننقذك ان سقطت .

تابعنا المسير الى ان دخلنا في نفق طبيعي ، ربما كان قد شقه هناك في الصخور الصلبة الصلدة نهر ضائع غزير او هزة ارضية قامت هناك في الاعالي بهذا العمل ، بهذه القناة الكهفية من حجر محفور ، من غرانيت . فما ان تسربنا في هذا النفق بضعة خطوات حتى اخذت المطايا تتزحلق ، تحاول ان تثبت في المنحنيات الحجرية الملساء رجلها ، فتكبو ، تنفجر الشرار حين تصطك حوافرها بالصخر : اكثر من مرة رأيتني ممددا فوق الصخور بعد ان هويت من على صهوة مطيتي التي كانت تدمي من انفها واقدامها ، لكننا مضينا مصرين فوق ذلك الدرب الصعب المديد الرائع .

كان شيء ينتظرنا في وسط تلك الغابة الوحشية . على حين غرة ،

مثل رؤيا فريدة ، وصلنا الى مرج براق قابع في حضن الجبال : ماء زلال، مرج مخضوضر ، ازهار غابية ، خرير انهار ، السماء من فوق ، نور سمح كريم لا يفصله عنا اية ورقة او اي غصن او اية شجرة .

هناك نزلنا كأننا ننزل وسط دائرة سحريةضيوفا على حياض مقدسة. واكثر قداسة كان ذلك الاحتفال الذي شاركت فيه . فلقد نزل البقارة من على ظهور مطاياهم . وسط المرج كانت هناك جمجمة ثور وضعت في موضع بارز كما في قداس . اقترب اصحابي في سكون وصمت ، واحدا اثر الآخر ، كي يضعوا بعض النقود وبعض الاغذية في فجوات الجمجمة العظيمة . شاركتهم في هذا القربان المقدم الى الف «اوليس» تائه هارب ، لعل هؤلاء العابرين النائهين يجدون الخبز والملح في مدارات هذا الثور الميت ، حين يمرون به ذات يوم .

لكننا لم نقتصر على تقديم القربان في هذا الاحتفال والقداس ، بل ان اصدقائي الريفيين خلعوا عنهم قبعاتهم وشرعوا في رقصة غريبة ، يقفزون على رجل واحدة فقط حول تلك الجمجمة المهجورة ، وهم يدوسون فوق الاثر الدائري الذي خلفته هناك رقصات كثيرة اداها كل من عبر من قبل. حينذاك ادركت وان كان ادراكا غير واضح دقيق ، ان ثمة اتصالا بين مجهول ومجهول ، ان ثمة مطلبا وتلبية ، ان ثمة سؤالا وجوابا في تلك المناطق الاكثر وحشة ، الاكثر انعزالا بهذا العالم .

لقد وصلنا ليلا الى حلاقيم الجبال الاخيرة فاصبحنا على وشك ان نعبر الحدود التي ستبعدني لسنين طويلة عن موطني . رأينا فجاة ضوءاً مشتعلا كان علامة أكيدة على ان هناك بيتا انسانيا ، وحين اقتربنا وجدنا ابنية مقوضة واقبية غير منسقة ، بدت لنا فارغة خاوية . ولجنا فرأينا ، على ضوء النار ، جذوعا كبيرة تتاجج في وسط القبو ، اجساد اشجار هائلة كانت هناك تتوهج ليل نهار ، تطلق عبر تشققات السقف دخانا ينكاسل يطوف وسط الدياجير كأنه حجاب ازرق عميق . شاهدنا كتلا من الجبن كوّمها هناك الذين خثروه وروّبوه في تلك المرتفعات . وكان قرب النار يرقد بعض الرجال كأنهم اكياس ممددة . ميزنا في السكون نغم أوتار قيثارة، ولحن كلمات اغنية تولد بين الجمر والعتمة فجلت لنا اول صوت

انساني عثرنا عليه في طريقنا الموحشة . كانت اغنية حب وحنين ، أسفا على الحبيب النائي وحنينا الى ذلك الربيع البعيد ، ونداء اليما موجها الى تلك المدن التي قدمنا منها ، ولوعة تريد احتضان مدى الحياة اللانهائي ، لم يكونوا ليعرفوا شيئا عنا ، لم يكونوا ليعلموا شيئا عن الهارب القادم ، ما كانوا يعرفون شيئا عن شعري ، ما كانوا قد سمعوا يوما باسمي . او لعلهم يعرفونه ، افتراهم يعرفونني ؟ تحلقنا حول النار وغنينا وأكلنا ، ثم توجهنا وسط العتمة نحو غرف بدائية جدا . كان يمر عبر هذه الغرف تيار من ماء معدني حار فغرقنا فيه وغطسنا ، جدول من الحرارة ينطلق من الجبال ليستقبلنا في كنفه .

كنا نبربط في الماء متمتعين ، نغتسل ونزيل عنا اوضار المسيرة المرهقة ، فشعرنا اننا في غضارة ونضارة واننا ولدنا من جديد في هذا التعميد . حين بزغت الشمس في اليوم التالي انطلقنا لنجتاز المسافة الاخيرة التي كانت ستبعد بي عن كسوف وطني وخسوفه ، كنا نتهادى على ظهور مطايانا ، نغني ونشدو ونحن ممتلئون بهواء جديد ، مفعمون بانفاس تدفعنا نحو درب العالم الفسيح الذي ينتظرنا . عندما اردنا (اذكر هذا جيدا) ان نعطي الى الرجال الجبليين بضعة قطع من نقود مكافأة لهم على ما قدموه لنا من اغان واغذية ومياه معدنية وسقف وفراش ، اي ، على هذا اللقاء غير المتوقع ، على هذا الكنف الذي آوانا ، على هذا الود الذي شملنا وحضننا ، رفضوا عطاءنا رفضا باتا دون ان يقولوا اي شيء ولا ان يبدوا اية حركة جسدية بل اكتفوا بالنظر الينا عاتبين ، لقد قاموا بواجبهم نحونا ولا شيء اكثر . ان في «لا شيء اكثر» ، في عبارة «لا شيء اكثر» الصامتة كان يكمن كل شيء ، ربما انهم رأوا انفسهم فينا ، ربما عثروا على أحلامهم ذاتها متجلية في أحلامنا . من يدري ؟.

«سان مارتين» San Martin بجبال الانديس

خص مهجور بيّن لنا الحدود بما كتب عليه . هاانذا اغدو حرا طليقا. كتبت على حائط الكوخ : «الى اللقاء ، يا وطني ، أرحل وأنت معي» .

في قرية «سان مارتين» بجبال الانديس كان يجب ان يكون بانتظارنا صديق تشيلي . ان هذه القرية الصغيرة جدا في سلسلة الجبال الارجنتينية لم يكن فيها ما يتيه او يجعل المرء يضيع ، ولذلك فقد اعطوني علامة وحيدة للاستدلال على صديقي هذا وهي ما يلي :

ـ اذهب الى احسن فندق في القرية وهناك سيأتي للبحث عنـــك (بيدريتو راميريث) .

لكن الاشياء الانسانية معرضة للخطأ دائما ففي «سان مارتين» لم يكن هناك فندق واحد فقط بل كان اثنان وكلاهما من النوع الجيد . فأيهمـا اختار؟ آثرنا اغلاهما وهو يقع في اطراف القرية ورفضنا الفندق الاول الذي رايناه امام ساحة القرية الجميلة .

لقد حصل ان الفندق الذي اخترناه كان من درجة رفيعة جدا الى درجة انهم ما ارادوا ان يقبلوا بنزولنا فيه . لقد لاحظوا في ازدراء آثار عدة ايام من السفر على ظهور الخيل ، اكياسا على اكتافنا ، وجوهنا الملتحيـة المغبرة ، كان منظرنا يخيف كل من في الفندق من عمال ونزلاء .

وكان هذا المنظر يخيف اكثر ما يخيف صاحب الفندق الذي كان يضيف فيه انجليزا نبلاء قادمين من «اسكوتلانديا» ليصطادوا سمك «السلمون» في الارجنتين . نحن لم يكن علينا ملامح نبلاء ولا مظاهر سادة . فاعطانا مدير الفندق «الهيهات» متأسفا ومحتجا بحركات مسرحية في ان الغرفة الاخيرة قد حجزت منذ عشر دقائق . اثناء ذلك اطل من الباب سيد انيق عليه سيماء رجل عسكري ، تصطحبه امرأة شقراء كأنها ممثلة سينمائية ، فصرخ بصوت رنّان :

ـ قف ! التشيليون لا يمكن طردهم من اي مكان ، هنا سيبقون .

وبقينا. كان راعينا هذا يشبه كثيرا الجنرال (بيرون) (١٨) وسيدته التي

---

١٨ ـ بيرون Juan Domingo : هو الزعيم الارجنتيني المعروف (١٨٩٥ ـ ١٩٧٤) .

تصحبه تشبه هي الاخرى (ايفيتا) (١٩) الى درجة انا ظننا انهما هما ، لكن من بعد ، بعد ان اغتسلنا ولبسنا وجلسنا على المائدة نحتسي في غير لذة زجاجة شمبانيا كنا نشك في انها شمبانيا ، عرفنا ان الرجل هذا هو قائد الشرطة المحلية وان الشقراء هي ممثلة من «بونوس ايريس» جاءت لتزوره.

كنا نزعم اننا تجار اخشاب تشيليون جئنا لنعقد صفقات تجارية مربحة . كان العميد قائد الشرطة يدعوني «الانسان الجبل» . اكتشف (فيكتور بيانتشي) الذي كان ما يزال يرافقني لما يكنه لي من صداقة ولما يكنه من حب للمغامرة ، قيثارة هناك في الفندق ، وباغانيه التشيلية السافلة البذيئة كان يخلب ويفتن ارجنتينيين وأرجنتينيات . لكن مضت ثلاثة ايام ولم يكن يأتي (بيدريتو راميريث) للبحث عني . لم يكن يرافقني الحظ في الامور جميعها ، ما كان على جسدي من قميص نظيف ولم يكن معي ما اشتري به قمصانا جديدة . ان تاجر أخشاب جيد ، كان يقول (فيكتور بيانتشي) يجب أن يكون له على الاقل قمصان جيدة نظيفة .

اثناء ذلك قدم لنا قائد الشرطة غداء في المجلس البلدي . لقد توطدت صداقته بنا فاعترف لنا انه على الرغم من شبهه الجسدي بالجنرال (بيرون) فانه هو ضد البيرونية . كنا نقضي ساعات طويلة ونحن نتناقش فيمن عنده رئيس أسوأ من الآخر ، انا ام هو ، هل هي تشيلي ام هي الارجنتين .

فجأة بلا سابق انذار او اعذار واذ ب (بيدريتو راميريث) يلج ذات صباح غرفتي في الفندق .

ـ يا تعيس ، ـ صرخت به ـ لماذا تأخرت كثيرا ؟

لقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، لقد كان هو ينتظر مطمئنا هادئا في الفندق الآخر الذي يقع بساحة القرية .

بعد عشر دقائق تدحرجنا عبر السهول اللامتناهية وبقينا نتدحرج ليل

---

١٩ ـ ايفيتا : هو تصغير (ايفا Eva) وكانت زوجة لبيرون ، (١٩١٩ ـ ١٩٥٢) .

نهار . من حين الى حين كان الارجنتينيون الذين يصحبوني يوقفـــون السيارة كي يحتسوا «ماته» (٢٠) Mate ثم نستمر في عبور تلك الرتابة اللامتناهية .

في باريس وبجواز سفر

كان همي الاكبر ، طبعا ، في «بونوس ايريس» هو ان احصل على هوية جديدة ، ان الاوراق المزيفة التي افادتني كثيرا كي اعبر الحـــدود الارجنتينية لن تصلح بعد فيما اذا حاولت السفر عبر القارات والتجول في اوروبا . كيف الحصول على اوراق اخرى ؟ كانت اثناء ذلك تبحث عني في جد واجتهاد الشرطة الارجنتينية التي استنفرتها الحكومة التشيلية لهذا الغـــرض .

تذكرت في هذه الحالة من الياس والقنوط والضغط والمطاردة شيئا كان ينام في ذاكرتي . لا بد ان الروائي (ميجيل انخيل استورياس) وهـــو صديقي منذ ايامي في بلده ، هو الآن في بونوس ايريس يؤدي مهمـــة ديبلوماسية في سفارة بلده «غواتيمالا» . لقد كان لنا شبه فيزيولوجـــي غريب غامض . في اتفاق مشترك بيننا سمينا انفسنا « شومبيبـــه » Chompipe وهي كلمة هندية يشار بها الى الديكة في غواتيمالا وفي جزء من المكسيك . انفان طويلان ، يسر في الوجه وفي الجسد ، يوحدنا شبه عام بعالم الدجاج المغذى .

جاء ليراني في مخبأي .

ـ يا صاحبي «شومبيبه» ـ قلت له ـ ، اعرني جوازك ، امنحنـــي متعة ان اصل الى اوروبا وقد غدوت (ميغيل انخيل استورياس) .

---

٢٠ ـ ماته : هو شاي من «بارغواي» يشربه الامريكيون الجنوبيون والمغتربون العرب الذين يعودون الى اوطانهم من امريكا اللاتينية .

يجب عليّ أن اقول هنا ان (استورياس) كان دوما ليبراليا ، بعيدا جدا عن السياسة الحزبية ، غير انه ما تردد لحظة ، اذ انني ، بعد ايام قليلة كنت اعبر ، بين «يا سيد (استورياس) تفضل من هنـــا» ، وبين «يا سيـــد (استورياس) تفضل من هناك» النهر العريض الذي يفصل الارجنتين عـــن الاورغواي فدخلت الى «مونتيفيديو» ثم عبرت المطارات وتجاوزت مخافر شرطة المراقبة الى ان وصلت اخيرا الى باريس تحت ستار «روائي غواتيمالي عظيم » .

لكن في فرنسا عادت قضية هويتي لتصبح معضلة . ان جواز سفري القشيب لن يقاوم الفحص الذي لا يرحم حين ينقدونه في **La Sureté** لقد كان عليّ ان اترك كوني (ميغيل انخيل استورياس) وأن اغدو من جديد (بابلو نيرودا) ، لكن كيف يتأتى هذا لي و(بابلو نيرودا) لم يصل الى فرنسا، بل ان الذي وصل كان (ميغيل انخيل استورياس) ..

لقد اخبرني مستشاري بأن عليّ ان آوي الى نزل «جورج الخامس».

ـــ هناك ، بين جبابرة العالم ، لن يطلب احد منك اوراقك ـــ قالوا لي.

فنزلت هناك لبضعة ايام ، دون ان انزعج كثيرا من ملابسي الجبلية التي ما كانت لتتلاءم مع ذاك العالم من الاغنياء والانيقين . عند ذلك طلع (بيكاسو) الذي بقدر ما هو عبقري كبير بقدر ما هو انسان طيب جدا . كان سعيدا كما الطفل لانه كان قد القى اول خطاب في حياته ، كان موضوع الخطاب يدور حول شعري ، حول مطاردتي وملاحقتي ، حول غيابـــي واختفائي . وها هو العبقري اللامع في الرسم الحديث ينشغل الآن في ود اخوي وعطف ابوي بحل معضلتي في جزئياتها الاكثر دناوة وحقارة . كان نتكلم مع السلطات المسؤولة ، كان يتصل هاتفيا بنصف الناس كي يعملوا على مساعدتي في الخروج من هذه الورطة . لست ادري كم من اللوحات الرائعة الخالدة ترك رسمها من اجلي ، لقد كنت أشعر بالذنب وأتأسف جدا اني جعلته يضيع الكثير من وقته المقدس .

في تلكم الايام كان ينعقد في باريس مؤتمر للسلام العالمي . ظهرت في

قاعة المؤتمر باللحظة الاخيرة كي القي قصيدة من قصائدي ، كان المندوبون يصفقون لي ويعانقونني فقد كان الكثير منهم يظنون اني كنت قد مت وما كانوا يعتقدون باني قادر على الاستهزاء بمطاردة الشرطة التشيلية الغاضبة.

في اليوم التالي وصل الى الفندق الذي اقيم فيه السيد (الديريت) وهو صحفي كبير يعمل في وكالة الانباء الفرنسية ، فقال لي :

ـ حين علمت حكومة تشيلي عن طريق الصحافـــة انك في باريس ، اعلنت ان الخبر عار من الصحة وانه كذب وبهتان وان الذي حضر المؤتمر هو شبه لك وليس اياك فانت توجد في تشيلي وان رجال الشرطة يتقصّون اثرك وان مسألة اعتقالك لن تتعدى ساعات قلائل ، فماذا تجيب علـــى هذه المزاعم ؟

تذكرت انه في احدى المناقشات التي دارت حول موضوع (شيكسبير) ان كان هو من كتب اعماله الخالدة ام لا ، وهي مناقشة انبيقية (٢١) وعبثية عقيمة ، اشترك (مارك توين) (٢٢) فأدلى برأيه : «في الحقيقة لم يكن (وليم شيكسبير) هو من كتَب هذه المؤلفات ، بل رجل انجليزي آخر ولد فـــي اليوم نفسه والساعة ذاتها ومات ايضا في التاريخ نفسه ولكي تـــزداد المطابقات بينهما كان كذلك بسمى (وليم شيكسبير) .

أجب انت ـ قلت للصحفي ـ في اني لست (بابلو نيرودا) بل انا تشيليّ آخر ، يكتب شعرا يصارع في سبيل الحرية اسمه كذلك (بابلو نيرودا) .

ان قضية تجهيز اوراقي ما كان بالامر السهل فلقد كان (اراغـــون) و(بول الوار) يساعدانني كذلك في الحصول على اسمي . اثناء ذلك عليّ ان اعيش في وضع شبه سري . من بين البيوت التي آوتني فيها ، كانت

---

٢١ ـ انبيقية : ماخوذة من الكلمة العربية **الانبيق** Alambique ، وهي هنا بمعنى شحيحة المردود .

٢٢ ـ مارك توين : روائي من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) .

دار السيدة (فرانكويس جيروكس) . ابدا لن انسى هذه السيدة الاصيلة الذكيـــة . كانت هذه الدار تقع فـي «بالس رويال» (القصر الملكـــي) قـــرب « كوليت » . تبنت هـــذه السيدة المحترمـــة ابنـــا فيتناميا ، فلقد كان الجيش الفرنسي قد تكفل في فترة من الفترات بالعمل الذي وقع من بعد على عاتق الامريكيين الشماليين : قتل الابرياء في اراضي فيتنام البعيدة . عند ذلك تبنت هي الطفل .

اذكر انه في هذه الدار كان هناك لوحة لبيكاسو من أجمل اللوحات التي رأيتها في حياتي ، وهي لوحة ذات أبعاد كبيرة ، سابقة على الفترة التكعيبية ، تمثل ستارتين من قطيفة حمراء تتدليان ، تنغلقـــان بين بين كمصراعي نافذة ، تلمسان مائدة ، المائدة عليها اربعة أرغفة من الخبـــز الفرنسي الطويل تتصالب في تناسق ، بدت لي هذه اللوحة انها جديرة بالانحناء لها اجلالا واحتراما . كانت الارغفة الكبيرة الطويلة كأنها الطيـــف المركزي لـ «الايقونات» (٢٣) او مثـــل لوحة القديس (ماوريثيـــو) تلك اللوحة الرائعة التي رسمها (الـ غريكو El Greco) والتي توجد في دير «الاسكوريال» . لقد سميت لوحة (بيكاســـو) هذه باسم علم وهو: **صعود القديس الخبز .**

في احد هذه الايام جاء (بيكاسو) نفسه لزيارتي في مخباي ، فاخذته ليرى لوحته التي رسمها منذ اعوام كثيرة وكان قد نسيها ، فراح يدقق في اللوحة بجدية تامة ، غارقا في هذا الانتباه الفائق والكئيب بعض الكآبة الذي قلما يبديه ، ظل اكثر من عشر دقائق في صمت وسكون ، يقترب خطوة ثم يبتعد أخرى عن عمله الرائع هذا .

ـ كل مرة تعجبني اكثر ـ قلت له حين انهى تامله ـ سوف اقترح على متحف بلدي تشيلي ان يشتريها فالسيدة (جيروكيس) على استعداد لتبيعها لنا .

---

٢٣ ـ الايقونات : هي الرسوم والالواح البيزنطية القديمة الموجودة في الكنائس .

ادار (بيكاسو) من جديد راسه نحو اللوحة ، ثم سمّر عينيه في ذاك الخبز الرائع وأجاب بتعليق واحد فقط :

ــ ليست سيئة .

عثرت على بيت للايجار بدا لي غريبا . كان يقع في شارع «بيير ميل» في الـArrondissement الثاني ، اي ، حيث أضاع ابليس عباءته(٢٤) . كان حيا عماليا ولطبقة متوسطة فقيرة جدا . كان يجب السفر ساعات طويلة تحت الارض بـ «المترو» كي يصل المرء الى هذه المحلة . ان الذي اعجبني في هذه الدار هو انها تبدو مثل قفص . كان لها ثلاثة طوابق ، دهاليز ، غرف صغيرة ، كانت قفص طيور لا يوصف .

لقد خصصت الطابق الاول الذي كان اكثر اتساعا من اخويه ، وكانت فيه مدفاة نشارة، للمكتبة، وجعلت فيه قاعة للحفلات المحتملة والزيارات الطارئة . في الطابقين الاعليين ، تمركز اصدقاء لي ، جاؤوا جميعا من تشيلي ، فهناك نزل الرسامان : (خوسه بينتوريلّي) و(نيميسيو انتونيث) وآخرون لم أعد أذكرهم الآن .

لقد زارني في تلكم الايام ثلاثة من كبار الادباء في الاتحاد السوفييتي: الشاعر (نيكولاي تيخونوف) الكاتب المسرحي (اليكساندر كورنيتشوك) (الذي كان في الوقت نفسه محافظ «اوكرانيا») والكاتب الروائي (كونسطانطين سيمونوف) . ابدا ما كنت قد قابلتهم من قبل ، فعانقوني كما لو كانوا اخوة عادوا بعد غياب طويل ليجدوا اخا لهم ، واعطاني كل واحد منهم بالاضافة للمعانقة قبلا رنانة ، من هذه القبل «السلافية» التي يتبادلها الرجال فيما بينهم والتي تعني صداقة كبيرة واحتراما ، والتي كلفتني جهدا جهيدا أن أتعود عليها . بعد مضي السنين ، حين فهمت طبيعة هذه القبل الاخوية الرجولية ، كانت لي مناسبة بأن ابدأ حكاية من حكاياتي بهذه الكلمات :

---

٢٤ ــ حيث اضاع ابليس عباءته : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، **حيث اضاع القرد ابنه .**

ــ ان اول رجل قبلني كان هو فنصل تشيكوسلوفاكيا

حكومة تشيلي لم تكن تحبني ، لم تكن تحبني لا داخـــل تشيلي ولا خارجها كذلك . كانت تسبقني الى كل جهة امر بها ، رسائل ومكالمـــات هاتفية تحض الحكومات على معاداتي وطردي .

علمت انه في قصر «فرساي» كان ثمة تقرير عني جاء فيه تقريبا ما يلي : ان (نيرودا) وزوجته (ديليا ديل كارمن) يقومان برحلات متكررة الى اسبانيا حيث يوصلان ويأتيان بتعليمات من السوفييت وإليهم وان مرجعهما في هذه التعليمات هو الكاتب الروسي (ايليا ايهرينبورغ) الذي يقوم (نيرودا) معه برحلات سرية ايضا من حين الى حين ، ولكي تكون هذه الاتصالات بين (نيرودا) و(ايهرينبورغ) اكثر سرية فان (نيرودا) استأجر شقة في العمارة نفسها حيث يسكن الكاتب السوفييتي» .

لقد تبع هذه الاقاويل سلسلة من النخريصات والهراءات . لقـــد اعطاني (جان ريتشارد بلوش) رسالة الى صديق له كان رئيسا مهما فـــي وزارة الخارجية . شرحت لهذا الموظف العالي كيف انهم يسعون جهدهم كي يعملوا على طردي من فرنسا مختلقين أكاذيب وادعاءات كثيرة . قلت له اني في لهفة للتعرف على (ايهرينبورغ) ، لكن ، لسوء حظي ، حتى هذا اليوم ، (ايهرينبورغ) ما خصني بهذا الشرف العظيم . نظر الي هذا الموظف الكبير في أسى وأسف ووعدني بأنهم سيقومون بتحر دقيق حول هذه المسألـــة لكنهم ، ما قاموا ابدا بشيء من هذا القبيل وبقيت الاتهامات الباطلة واقفة على أقدامها .

عند ذلك قررت ان أقدم نفسي الى (ايهرينبورغ) ، كنت أعلم انه كان يتردد دائما الى «لا كوبول» حيث يتغذى على الطريقة الروسية ، اي ، عند المساء .

ــ أنا الشاعر (بابلو نيرودا) ، من تشيلي ــ قلت له ــ بناء على قول الشرطة نحن صديقان حميمان . ان رجال الامن ومخبريهم يؤكدون في اننا نعيش في بناء واحد، وبما انهم سيطردونني بسببك من فرنسا فاني أحببت على الاقل ان اعرفك عن قرب وأن أصافح يدك .

اني لا اظن ان (ايهرينبورغ) كان يعبر عن علامات مفاجأة ازاء اية ظاهرة تحدث في العالم ، غير انه ، استغرب واندهش لما قلته ، فرأيت نظرة ذهول تشبه الخدر تخرج من بين حاجبيه المزبئرين ، من حيث عقيصة شعره الغاضبة الشائبة .

ـ انا كذلك كنت أود التعرف عليك ، يا (نيرودا) ـ قال لي ـ ان شعرك يعجبني جدا . والآن ، كل ، كل هذه الـ «شاوكروت» (Choucrote) المصنوعة على طريقة منطقة الـ «سائيا» .

منذ تلك اللحظة اصبحنا صديقين حميمين . يبدو لي انه في ذلك اليوم بدأ بترجمة ديواني «اسبانيا في القلب» . يجب عليّ أن أعترف ان الشرطة الفرنسية ، دون ان تقصد ذلك طبعا ، قد منحتني اكثر الصداقات محبة في حياتي وزودتني كذلك بأحسن مترجم لي الى اللغة الروسية .

جاء ذات يوم ليراني السيد (جوليس سوبيرفييه) (٢٥) . كنت قد حصلت على جواز سفر تشيلي باسمي وكانت مدة صلاحيته لما تنته بعد . كان هذا الشاعر القديم الكبير النبيل قلّما يخرج الى الشارع آنذاك فتأثرت وتفاجأت بزيارته .

ـ انقل اليك خبرا مهما . ان صهري ، زوج ابنتي ، (بيرتاوكس) ، يريد ان يراك ، لست أدري بم يتعلق الامر .

ان (بيرتاوكس) هذا كان مدير الامن العام . وصلنا الى دائرته : الشاعر العجوز وأنا ، جلسنا مقابله ، امام الطاولة . أبدا ما رأيت طاولة تحتوي على هواتف اكثر من طاولة هذا المدير . كم عددها ؟ أعتقد انه لا يقل عن عشرين هاتفا . كان وجهه الذكي الخبيث ينظر اليّ من بين تلك الغابة الهاتفية . انا

---

٢٥ ـ جوليس سوبيرفييه : كاتب وشاعر من اوروغواي . اخذ الجنسية الفرنسية (١٨٨٤ ـ ١٩٦٠) .

كنت افكر في انه لا بد ان تكون في هذا المكان الرفيع جدا ، خيوط الحياة الباريسيـــة تحت الارضية كلها . تذكـــــرت (فانتوماس Fantomas و«الكوميسيير» (مايغريت) (٢٦) .

كان هذا المدير قد قرأ كتبي وكانت له معرفة غير متوقعة بشعري .

ـ لقد استلمت طلبا من سفير تشيلي بأن أسحب منك جواز سفرك . ان السيد السفير يقول بأن حضرتك تستعمل جواز سفر ديبلوماسيا ، وهذا ليس شرعيا . أفصحيح ما يقول ؟

ـ ان جوازي ليس ديبلوماسيا ـ اجبته ـ . انه جواز رسمـــــي بسيط ، انا عضو في مجلس الشيوخ ببلدي ، وبهذه الصفة فان لي الحق بامتلاك هذه الوثيقة . على كل حال ، فها هو هنا وتستطيع حضرتك ان تدقق فيه ، شريطة الا تسحبه مني فهو ملكي ، خاص بي .

ـ اهو صالح حتى الآن ؟ من جدده ؟ سالني السيد (بيرتاوكس) آخذا جواز سفري .

ـ هو صالح طبعا ـ قلت له ، ـ اما بالنسبة لمن جدده لي ، فاني لا استطيع ان ابوح باسمه ، فان بحث فان حكومة التشيلي ستعزله مــــن منصبــه .

فحص رئيس الشرطة في دقة جوازي ، ثم استعمل واحدا من هواتفه الكثيرة وامر ان يوصلوه بسفير تشيلي .

المحادثة الهاتفية جرت في حضوري .

ـ كلا ، ايها السيد السفير ، لا أستطيع أن افعل هذا فان جواز سفره

---

٢٦ ـ مايغريت : شخصية في الروايات البوليسية التي كتبها (سيمينون Simenon).

شرعي قانوني وما زال صالحا ، اني لا أعرف من جدده له ، أكرر القول في انه سيكون غير صحيح اما اخذنا منه اوراقه . لا استطيع ، يا سعـــادة السفير ، اني لآسف جدا .

كان يستشف من هذه المحادثة اصرار السفير وكذلك كان واضحـــا غضب خفيف من جهة (بيرتاوكس) في النهاية وضع الهاتف وقال لي :

ـ يبدو انه عدو لدود لك . لكن حضرتك تستطيع البقاء في فرنسا ما شئت من الزمن .

خرجت مع (سوبرفييه) الشاعر العجوز ما كان يستطيع ان يفهم كيف يجري هذا الامر ، وانا من جهتي ، كنت أحس بشعـــور انتحار ممزوج بشعور آخر من الاشمئزاز والاستنكار . لقد كان ذاك السفير الذي يناكدني، ذاك المتواطيء مع مطاردي في تشيلي هو (جواكين فيرنانديث) ذاته ، من كان يفتخر ويتباهى بأنه صديق لي ولم يكن بضيع فرصة الا وتملقني ، والذي في صباح ذلك اليوم نفسه ارسل لي تحية مع سفير غواتيمالا .

جـذور

ان (ايهرينبورغ) الذي كان يقرأ ويترجم شعري ، كان يلومني : انك تكرر كلمة «جذر» كثيرا في شعرك ، لماذا هذه الجذور الكثيرة في شعرك ؟

ان هذا لحقيقة . لقد غلغلت اراضي الحدود جذورها في شعري فلم تستطع ابدا أن تخرج منه بعد . ان حياتي لهي حج طويل المدى يطوف حول العالم دائما ، ودائما يعود الى الغابة الجنوبية لبلادي ، الى الغابة الضائعة.

هناك الاشجار الكبيرة هوت طريحة الثرى بما لها من سبعمائة سنة من حياة مديدة قديرة ، أحيانا أخرى اقتلع جذورها زلزال ارضي او حرقها الثلج أو هدمها الحريق . لقد أحسست بالاشجار السامقة وهي تسقط في عمق الغابة : البلوط الذي يخر في نوح مصيبة صماء كما لو انه قرع بيده

الضخمة على أبواب الارض طالبا جدثا .

بيد ان الجذور تظل في العراء، معرضة للدهر العدو، للرطوبة الطاغية، لحزازات الصخور واشنياتها ، للتلف المتتابع الناخر القارض .

لا شيء اجمل من هذه الايدي المبسوطة الكبيرة ، الجريحة المحروقة التي تحكي لنا حين نعبر دربا في الغابة عن سر الشجرة الدفين ، عن لغز الاوراق ، عن طلسم الاغصان ، عن أحجية العضلات العميقة لهذه الطاقة النباتية ، انها لترينا وهي في وضع مأساوي وحالة مهلوبة مزبئرة ، جمالا جديدا : انها اعمال العمق في فن النحت : انها مؤلفات انموذجية سرية للطبيعة الخالقة :

ذات مرة ، فيما كنت اسير مع (رافائيل البرتي) بين الشلالات والاحراج والغابات قرب «اوسورنو» ، لفت (رافائيل) نظري الى ان كل غصن هو مختلف عن الآخر وان الاوراق تتنافس في تغيير الاسلوب اللانهائي .

ـ انها لتبدو وكأنها اختيرت من لدن عالم نبات لتزين حديقة رائعة ـ كان يقول لي .

بعد سنين في روما ، تذكر (رافائيل) تلك النزهة وحن الى ثروة غاباتنا الطبيعية .

هكذا كان ... وهيهات أن يعود ... اني لأذكر في كآبة ، خطاي في عهد الطفولة وزمن الشباب ، بين « بوروا » و « كاراهويه » او نحو « تولتين » في تجليات الشاطىء . كم من اكتشاف كان لي ! رشاقة اشجار القرفة وشذاها غب المطر ، الاشنة التي تندلى لحاها الشتوية من وجوه الغابة التي لا حصر لها .

لقد كنت انبش الاوراق الساقطة محاولا أن أعثر على بريق بعض مغمدات الاجنحة : القوارب المذهبة التي ارتدت صباغ عباد الشمس الازرق كي ترقص رقصة «باليت» صغيرة تحت الجذور .

فيما بعد ، حين كنت اعبر على جواد سلسلة الجبـــال نحو الجانب الارجنتيني ، تحت عقود الاشجار السامقة الخضراء برز عائق : جذر احدى هذه الاشجار ، اكثر علوا من مطايانا ، كان يسد علينا الدرب ، فما كان الا ان اعملنا فيه الفاس وبباس شديد حتى قدرنا على اختراقه . ان تلـــك الجذور لهي كاتدرائيات مقوضة راسا على عقب : كانت العظمة الجليـــة تفرض علينا هيبتها وجبروتها .

الفصل التاسع

بداية منفى ونهايته

في الاتحاد السوفييتي

في عام ١٩٤٩ ، حديث الخروج من المنفى ، دعيت لاول مرة الى الاتحاد السوفييتي ، بمناسبة احياء ذكرى (بوشكين) المئوية . وصلت مع الشفق الى موعدي ، مع درّة «البلطيق» الباردة الى لينينغراد القديمة الجديدة ، النبيلة البطلة . ان لمدينة (بطرس) الاكبر و(لينين) «ملاكا» كما لباريس . لها ملاك رمادي : شوارع بلون الفولاذ ، قصور من حجارة رصاصية ، بحر من فولاذ أخضر . كانت اكثر المتاحف روعة في العالم ، كنوز القياصرة ، ازياؤهم ، جواهرهم الباهرة ، ملابسهم للاحتفالات ، اسلحتهم ، أوانيهم ، كلها امام ناظري . والذكريات الجديدة الخالدة : الطراد «اورورا» (١) Aurora الذي مدافعه وأفكار لينين هدّت أسوار

---

١ ــ اورورا : كلمة اسبانية تعني الصبح او الفجر .

الماضي وفتحت ابواب التاريخ .

لقد بادرت الى موعد مع شاعر مات منذ ١٠٠ سنة (اليكساندر بوشكين) مؤلف أساطير خالدة كثيرة ومبدع روايات . ان امير الشعراء الشعبيين هذا يملأ قلب الاتحاد السوفييتي العظيم . بمناسبة ذكراه المئوية رمم الروس حجرا حجرا وقطعة قطعة قصر القياصرة . كان كل سور قد رفع كما كان قبل ، ناشئا من الانقاض المسحوقة بفعل من المدفعية النازية . لقد استخدمت التصميمات القديمة للقصر ، وثائق تلك الفترة التي بني فيها اول مرة ، كي يشيدوا من جديد النوافذ الزجاجية الملونة البراقة ، الاطناف المطرزة ، تيجان العواميد المزهرة ، على شرف شاعر رائع من عهد آخر ، تكريما له وتخليدا .

ان اول ما اثّر بي في الاتحاد السوفييتي كان شعوره بالامتداد ، انزواؤه الفضائي فهو يمتد عرضا لا طولا ، حركة اشجار الـ «بتولا» في المروج ، الغابات النقية الهائلة بشكل اعجوبي ، الانهار الكبيرة ، الاحصنة المختالة فوق حقول القمح .

لقد عشقت في اول نظرة الارض السوفييتية وادركت انها لا تلقي درسا أخلاقيا على أركان الوجود الانساني كله وتعلم الانسانية كيفية تسوية الامكانات والتقدم النامي في الانتاج والتوزيع فحسب، بل كذلك ادركت انه من تلك القارة السهوبية ذات النقاوة الطبيعية الغنية ، كان سينتج طيران كبير . ان الانسانية قاطبة تعرف انه هناك تصنع الحقيقة العملاقة ، وان في العالم ثمة توترا مذهلا ينتظر ما سيحدث . بعضهم ينتظر في فزع وبعضهم ينتظر أمعة ، وبعضهم يؤمن انه لا بد أن يقع ما يتوقع وانا كنت أتوقع انه سيحدث طيران عظيم عبر المدى والفضاء .

كنت أجدني وسط غابة من الفلاحين ، لابسين أزياء قديمة مهرجانية، ينصتون الى قصائد (بوشكين) . كان كل ذلك يخفق : البشر ، أوراق الاشجار ، المدى حيث القمح الجديد يبدأ الحياة . كانت الطبيعة تبدو وكأنها تشكل وحدة منتصرة وانسانها الجديد . كان لا بد أن يبرز ذات مرة ، من قصائد (بوشكين) في غابة (ميشايسلويسكي) الانسان الذي

سيطير نحو كواكب أخرى .

فيما الفلاحون يشهدون مهرجان التكريم هذا واذ بديمة سكوب تفرغ شحنها واذ بصاعقة تصعق بالقرب منا فتحرق رجلا وشجرة كانت تأويه وتظلله . فبدا لي هذا كله انه داخل اطار الطبيعة العاصفي . اضف الى هذا ان ذلك الشعر المصاحب بالمطر كان منذ زمن في كتبي وكان ذا علاقة وثيقة بي .

ان البلد السوفييتي يتغير بشكل دائم مستمر ، تبنى مدن وقنوات هائلة ، حتى الجغرافيا تتبدل . لكن في اول زيارة لي انطبعت في نفسي ثابتة راسخة نواحي التشابه التي كانت تلصقني بهم ، كذلك كل ما كان يبدو لي فيهم غريبا عن روحي بعيدا عن نفسي ، كل ما كان يصعب عليّ فهمه او التقاطه .

ان الكتاب في موسكو يعيشون دوما في احتدام جدال مستمر . لقد علمت هناك ، قبل ان يكتشف ذلك الغربيون محبو الفضائح ، بكثير ، ان (باسترناك) (٢) كان الشاعر السوفييتي الاول ، في قرن واحد و(ماياكوفيسكي) . ان (ماياكوفيسكي) هو الشاعر الجماهيري ذو الصوت الرعدي والمظهر البرونزي والقلب العظيم النبيل الذي استطاع ان يطوع اللغة ويواجه اكثر القضايا صعوبة في الشعر السياسي واكثر مشاكله البيانية تعقيدا ، بينما (باسترناك) هو شاعر شفقي كبير ، شاعر الذاتية الميتافيزيقية ، وهو سياسيا شاعر رجعي متواضع ، ما استطاع ان يرى في تحول وطنه وتغييره أبعد مما كان يرى سادن كنيسة مثقف . على كل حال فاني استمعت الى اكثر النقاد صرامة في انتقاده بسبب جموده السياسي وهم ينشدون قصائده عن ظهر قلب كثيرا من الاحايين .

ان وجود اعتقادية Dogmatismo سوفييتية في الفنون خلال مراحل طويلة لأمر لا يمكن انكاره . بيد انه يجب ان يقال كذلك ان هذه «الاعتقادية»

---

٢ ـ باسترناك (بوريس) : شاعر وكاتب روسي (١٨٩٠ ـ ١٩٦٠) .

اعتبرت دائما عيبا كوفح وجها لوجه . ان عبادة الشخصية ادت ، عن طريق المقالات النقدية التي كان يكتبها (زدانوف Zdhanov) ، وهو «اعتقادي» لامع، الى تصلب خطير في مجرى الثقافة السوفييتية وتطورها. لكن كانت هناك اجابات كثيره من الجهات جميعها على هذه المقالات ، وانه لأمر معروف ان الحياة هي اقوى واعند من الفروض والاوامر والقواعد . ان الثورة لهي الحياة وان الفروض تبحث دائما عن نعشها وقبرها .

ما زال (ايهرينبورغ) على كبره فى العمر المهيج الاكبر لكل ما هو حقيقي وجوهري وحي في الثقافة السوفييتية . لقد زرت مرات كثيرة صديقي الطيب الودود في شقته بشارع (غوركي) ، شقته المكوكبة بلوحات (بيكاسو) ، او في عزبته (Dacha) قرب موسكو . لقد كان له هوس بالنباتات فهو دائما في حديقته ينزع النباتات الطفيلية ويجني ثمار كل ما ينمو حوله .

فيما بعد انشات صداقة متينة مع الشاعر (كيرسانوف) الذي ترجم الى الروسية شعري ترجمة تبعث على الاعجاب حقا . ان (كيرسانوف) . مثل السوفييت جميعا ، وطني متوهج . ان لشعره ومضا منفجرا . جرسا تمنحه اللغة الروسية الجميلة التي يقذف بها الى الهواء بريشته فتنبعث تفجرات وشلالات .

كنت على الدوام ازور في موسكو او في الريف شاعرا كبيرا آخر الا وهو الشاعر التركي (ناظم حكمت) ، وهو كاتب خرافي اسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجننه خلال ١٨ سنة .

لقد اتهم (ناظم) بانه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فادانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف انهم جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ومن بعد أدخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو اكثر من نصف متر فشعر اخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يقزز ويرتعد . عند ذلك فكر : لا بد ان الجلادين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون ان يروني أتداعى ، يريدون ان يروني

تعيسا بائسا . فانبعثت قواه في انفة وعنجهية وبدأ يغني ، أولا في صوت خفيض من بعد في صوت اكثر علوا ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرته، غنّى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، اناشيد شعبه النضالية . غنى كل ما كان يعرفه من غناء . وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : «يا اخي ، انك بهذا قد أجبت عنا جميعا . فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا ان نبدأ الغناء » .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان (ناظم) يراهم وهم يأتون الى السجون جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التنباك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم حصة وحيدة وجراية يتيمة . اخذوا ينظرون الى مرعى الباحة في السجن بذهول ، من بعد بانتباه وتركيز ، من بعد بشراهة ونهم . ذات يوم التقطوا اقذاء الحشائش والاعشاب وقربوها من أفواههم ثم راحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الايدي فيبتلعونها الى أن انتهوا الى أن يرعوا بأربعة ارجل كما الدواب .

لقد عاش (ناظم) ، الذي كان عدوا لدودا للاعتفادية ، سنين طويلة منفيا في الاتحاد السوفييتي . ان حبه لهذه الارض التي حضنته لتمثل في هذه الجملة التي قالها : «انا أؤمن بمستقبل الشعر ، أؤمن لانني احيا في بلد يشكل الشعر فيه اكثر مقتضيات الروح لزوما وضرورة» . في هذه الكلمات نوس أسرار كثيرة لا تدرك من على بعد . ان الانسان السوفييتي، والابواب منفتحة على المكتبات كلها والقاعات جميعها والمسارح قاطبة ، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي . ليس من مجال لنسيانه حين يتناقش حول مصير العمل الادبي . فمن ناحية ، يجب على الصيغ الجديدة ، اي التجديد الضروري لكل ما يوجد ، ان تتجاوز القوالب الادبية الجاهزة وان تعمل على تحطيمها . ومن ناحية أخرى كيف يمكن للادب ان لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة ؟ كيف يمكن له أن يبتعد عن المواضيع الاساسية ، الانتصارات ، المنازعات ، المشاكل الانسانية ، عن خصب وحركة وتناسل شعب كبير يواجه تغييرا شاملا للنظام السياسى الاقتصادي الاجتماعي الذي

كان سائدا في بلده ؟ كيف يمكن له ان لا يتضامن مع هذا الشعب الذي يهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون يعكرون صفو الاجواء الانسانية كلها ؟ افتستطيع الآداب والفنون أن تتخذ موقفا مستقلا استقلالا هوائيا هشا ازاء احداث جوهرية ومجربات اساسية ؟

ان السماء لبيضاء . في الرابعة مساء تغدو سوداء . منذ هذه الساعة يغلق الليل المدينة .

ان موسكو لهي مدينة شتوية . هي مدينة الشتاء الجميلة . لقد تمركز الثلج فوق سطوح المنازل المتكررة المترامية بشكل لا نهائي . تلتمع الشوارع النظيفة ابدا . ان الهواء لهو بلور قاس شفاف . لون فولاذي ناعم ، زغب ثلجي يحوم ، ذهاب المارة وايابهم كما لو انهم لا يحسون للبرد طعما ولا لذعا ، كل هذا يجعلنا نحلم في ان موسكو ما هي الا قصر للشتاء كبير ذو زخارف شبحية وحية ، خارقة ومدهشة .

ثلاثون درجة تحت الصفر في موسكو هذه التي هي مثل نجمة من نار ومن ثلج ، مثل قلب متوهج مشتعل ، قلب يكمن وسط صدر الارض .

هانذا انظر عبر النافذة ، ثمة حراس في الشوارع ، فماذا يجري ؟ لقد توقف حتى الثلج عن الحركة عن الهطول . انهم يدفنون (فيسهينسكي **Vishinski**) العظيم ، تنفتح الشوارع في جلالة ووقار كي يمر موكبه. يسود سكون عميق ، خفوت في قلب الشتاء احتراما لهذا المحارب الكبير. ان نار (فيسهينسكي) تؤوب الى اس الوطن السوفييتي .

ما زال الجنود الذين حيوا بأسلحتهم الموكب حين مر في اماكنهم ثابتين في تشكيلات ثلاثية ، من حين الى حين يقوم احدهم برقصة صغيرة، رافعا يديه القفازيتين ومحذيا بجزمته الطويلة لحظة . ثم يرجع متصلبا راسخا ثابتا .

لقد روى لي صديق اسباني انه خلال الحرب العظمى في اشد الايام بردا وصقيعا ، اثر غارة جوية داهمة كان المسكوويون يثرون وهم ياكلون

المثلجات في الشوارع ، «آنذاك ادركت انهم لا بد رابحو الحرب — كان يقول لي صديقي — ، حين رأيتهم يأكلون المثلجات في هدوء وطمأنينة نفس وسط حرب رهيبة وبرد شديد» .

لقد تزركشت اشجار الحدائق بيضاء من ثلج . لا شيء يقرن بهذه الاوراق المتبلورة في الحدائق بشتاء موسكو ، ان الشمس تجعلها اكثر شفافية ، تقتلع منها لهبا ابيض دون أن تذوّب اية قطرة من قامتها الزهرية من قوامها الثلجي . انه لكون مشجر يدعك ترى من خلال ربيعه الثلجي ابراج «الكريملين» العتيقة القديمة ، السهام الرشيقة الهيفاء الالفية ، قباب كنيسة «القديس باسيل» المذهبة .

اني لارى ، بعد ان عبرت ضواحي موسكو باتجاه مدينة اخرى ، دروبا عريضة بيضاء ، ان هي الا الانهار المتجمدة. في مجاري هذه الانهار الجليدية يطلع من حين الى حين كما ذبابة في خوان ابيض باهر ، طيف صياد مطرق الراس . يقف الصياد وسط السماط السبسب المدبد الجليد ، يختار نقطة ، يثقب الجليد حتى يدع التيار الدفين مرئيا جليا ، في هذه اللحظة نفسها لا يمكن له الصيد اذ ان الاسماك المباغتة هربت مذعورة من ضجيج المثاقب الحديدية التي عملت في الجليد ثقبا وتنقيبا ، حينذاك يبعثر الصياد بعضا من طعم هنا وبعضا من طعم هناك كي يجذب الاسماك الفارّة ثم يرمي بصنارته ويترقب ، ينتظر ساعات وساعات في ذاك البرد الابليسي اللعين .

ان عمل الكتّاب ، في رأيي ، له شبه كبير بعمل أولئك الصيادين في القطب الشمالي . على الكاتب أن يبحث عن النهر فان وجده متجمدا فانه يضطر ان يثقب الجليد . عليه أن يجلد ويصبر ، ان يتحمل الطقس المعادي والنقد المضاد ، ان يتحدى التفاهة ، ان يبحث عن التيار العميق ، ان يرمي بالصنارة الصالحه الصائبة ، ليُخرج بعد جهد جهيد وصبر شديد سمكة صغيرة . بيد انه لا بد له من ان يرجع الكرة ويعود للصيد من جديد ، ضد البرد ، ضد الصقيع ، ضد الماء ، ضد النقد ، وهكذا دواليك حتى يُخرج في كل مرة صيدا أكبر واعظم .

دعيت لحضور مؤتمر للكتاب ، كان يجلس هناك في سدة الرئاسة

صيادو الاسماك العظماء. كتاب الاتحاد السوفييتي الكبار (فاديف) بابتسامته البيضاء وشعره الفضي . (فيدين) بوجهه النحيل الحاد كوجه صياد انجليزي . (ابهرنبورغ) بنواصي شعره المضطربه وببدلته التي وان كان قد دشنها حديثا تعطي انطباعا بانه كان ينام وهو يرتديها . و(تيخونوف) .

كان كذلك ممثلين في الرئاسة بوجوههم المنغولية ، الناطقون باسم آداب اكثر الجمهوريات السوفييتية بعدا ، ممثلو شعوب ما كنت أدري انا حتى بأسمائها . شعوب ما كانت لها الابجدية من قبل .

الهند المزارة من جديد

كان عليّ في عام ١٩٥٠ أن أسافر الى الهند على غير توقع او انتظار . اقد استدعاني الى باريس (جوليوت كوري Joliot Curie) (٢) كي يكلفني بمهمة الا وهي السفر الى «دلهي الجديدة» للاتصال هناك بأناس من مختلف الآراء والاتجاهات السياسية والبحث هناك عن امكانيات تدعيم الحركه الهندية من اجل السلام العالمي . كان (جوليوت كوري) هو الرئيس الدولي لانصار السلام . تحدثنا في اسهاب . كان يقلقه ان السلم في الهند ليس له الوزن الذي يجب ان يكون عليه . غير انه كان للهند سمعة حسنة في انها دولة مسالمة من الطراز الاول . وكان لرئيس وزرائها نفسه ؛ (الباانديت نهرو) ، الشهرة في انه زعيم السلام ان قضية السلام لهي قديمة عميقة بالنسبة لتلك الامة .

اعطاني (جوليوت كوري) رسالتين : واحدة منهما لعالم بحاثة مسالم في «بومباي» والاخرى لرئيس الوزراء (نهرو) على ان أسلمها له يدا ليد . لقد استغربت انه اختارني على التعيين للقيام بسفر مرهق طويل وبعمل سهل جدا ، كما كان يبدو . ربما انه اعتمد على حبي الذي ما خمد ابدا نحو ذاك البلد حيث قضيت بضعة سنين اثناء شبابي او لعله استند الى اني

---

٣ ـ جوليوت كوري Fréderic : فيزيائي ـ كيميائي (١٩٠٠ ـ ١٩٥٨) .

حزت في هذه السنة نفسها على جائزة السلام بقصيدتي «فليستيقظ الحطّاب» ، ميزة منحت كذلك الى (بابلو بيكاسو) و (ناظم حكمت) .

ركبت الطائرة متوجها الى «بومباي» . بعد ثلاثين سنة كنت اعود الى الهند من جديد ، والهند الآن ليست مستعمرة تكافح في سبيل تحررها وانعتاقها بل هي جمهورية (٤) ذات سيادة : حلم (غاندي) الذي حضرت مؤتمراته الاولى عام ١٩٢٨ . لم يعد من اصدقائي الطلبة الثوريين اذاك الذين أودعوني في ثقة واخوة حكاياهم الكفاحية البطولية اي فرد حي ، هذا ما كنت افكر فيه حين وصلت .

ما أن نزلت من الطائرة حتى توجهت الى الجمارك وفي نيتي ان اتوجه الى اي فندق مهما كان ، كي أسلم الرسالة الى العالم الفيزيائي (رامان)(٥) وأواصل سفري من بعد الى دلهي الجديدة . لم أكن احسب حساب الضيافة والاقامة عند هذا العالم . لكن حقائبي ما كانت لتخرج من سورها اذ ان مجموعة ممن كنت احسبهم رجال جمارك ، كانوا يفتشون حقائبي تفتيشا دقيقا وبحثا متطايرا وفي عدسة مكبرة : لقد شاهدت في حياتي تحريات وتفتيشات عديدة لكنني ابدا ما شاهدت كما هذه المرة : لم يكن عفشي بالكثير النامي : حقيبة صغيرة تحتوي على ملابسي ومحفظة تتضمن لوازمي التشخصية . راحت سراويلي وملابسي الداخلية وأحذيتي تعلو في الهواء ترقبها خمسة أزواج من العيون ، كانت الجيوب والفزازات والدروز تنقب تنقيبا دقيقا مجهريا . كي لا تتسخ ملابسي بأحذيتي فقد كنت في مطار روما قد طويت هذه الاحذية بصحيفة متجعدة عثرت عليها في غرفة فندقي هناك واظن انها « الاوبسيرفاتور رومانو » . ففرشوا هذه الصحيفة فوق طاولة وأخذوا ينظرون اليها بالنور الكاشف ثم طووها في اعتناء كما لو انها وثيقة سرية ثم وضعوها قرب اوراقي ووثائقي الاخرى . كذلك فانهم درسوا وفحصوا احذيتي من الداخل ومن الخارج كأنها نماذج فريدة من الحفريات الهائلة .

---

٤ ــ من المعروف ان الهند هي دولة تابعة للكومنولث البريطاني .

٥ ــ رامان Chandrasekhara Venkata : عالم فيزيائي هندي ولد عام ١٨٨٨ .

لفد دام هذا البحث الخرافي زهاء ساعتين . لقد صنعوا من اوراقي (جواز سفر ، مفكرة عناوين ، الرسالة التي كان عليّ أن أسلمها الى رئيس الحكومة ، صحيفة «الاوبسير فاتور رومانو») ربطة مطولة ختموها بشكل احتفالي بالشمع الاحمر امام ناظري ، بعد ذلك قالوا لي اني استطيع التوجه الى الفندق .

بذلت جهدا تشيليا كي لا افقد صبري، ثم انذرتهم بأنهم لن يقبلوني في اي من الفنادق ان لم اكن مزودا بوثيقة تثبت هويتي، وأن موضوع زيارتي الى الهند هو اعطاء الوزير الاول الرسالة التي لن استطيع اعطاءها له لانهم خطفوها مني وبقيت معهم .

ـ نحن سنتكلم مع الفندق كي يقبلوك فيه ، اما بالنسبة للاوراق فاننا سنعيدها اليك في اللحظة المناسبة .

هذا هو البلد الذي شكل كفاحه من اجل الاستقلال جزءا من مصيري وشبابي . قلت في نفسي . اغلقت حقيبتي وفي الوقت نفسه أغلقت فمي. كان فكري ، في داخلي ، يشكل كلمة واحده لا غير : خرا .

التقيت في الفندق مع الاستاذ (بابرا) فحكيت له محنتي . كان هو رجلا هنديا ذا مزاج طيب . لم يول الامر الاهمية اللازمة فلقد كان متسامحا مع بلده ومتساهلا اذ انه اعتبر الهند في مرحلة التشكل والتكون فيما كنت انا على العكس، فلقد رايت في تلك الفوضى شيئا سيئا جدا ، شيئا ما كنت انتظره من امة مستقلة جديدة تجري لي هذا الاستقبال الفاضح المخزي .

كان صديق (جوليوت كوري) الذي كنت أحضر له رسالة التقديم ، هو مدير الدراسات الفيزيائية ــ الذرية في الهند ، فدعاني لزيارة مراكزه النووية هذه واضاف قائلا بأننا مدعوان الى الغداء في اليوم نفسه على مائدة أخت رئيس الوزراء . هكذا كان حظي وهكذا كانت حياتي كلها دوما: بيد يلطمونني على أضلاعي وبيد أخرى يقدمون لي باقة ورود كي أغفر الحيف.

ان معهد الابحاث النووية كان واحدا من هذه الاماكن النظيفة الواضحة

المشعة التي فيها ترى رجالا ونساء وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة شفافة ، يحومون ويطوفون كالماء الجاري ، يعبرون دهاليز وممرات ، يتفادون التماس بأدوات والواح كبيرة وأوان وأوعية كثيرة . مع اني لم أفهم الا القليل من تلك الشروح العلمية فان تلك الزيارة افادتني كأنها حمّام من مطر كان ينظفني ويغسل عني أوضار تلك البقع التي لطخني بها رجال الشرطة وتنكيداتهم وإزعاجاتهم وتفتيشاتهم . أذكر في غير وضوح انني رأيت من بين الاشياء الاخرى نوعا من الزئبق ادهشني . لا شيء أروع من هذا المعدن الذي يعرض طاقته كأنها حياة حية . لقد سرني دائما بحركته وتحركه : قدرته على التحول السائلي الكروي السحري .

لقد نسيت اسم اخت (نهرو) التي تغدينا معها ذلك اليوم . حين رأيتها زال عني المزاج السيء . كانت امراة ذات جمال وحسن عظيمين ، متزينة، منبرجة كأنها ممثلة غريبة النوع ، كان رداؤها Sari يبرق في الوان زاهية ، وكان الذهب والدر والجوهر تزودها بزخارف تزيد من جمالها ، لقد أعجبتني كثيرا . لقد كان ، فعلا ، شيئا مناقضا أن تراها وهي تأكل بيديها ، ان ترى اناملها الطويلة المحلاة بالزينة وهي تغرز في الارز ومرق Curry . قلت لها اني سأذهب الى دلهي الجديدة كي ارى اخاها واقابل انصار السلام العالمي . أجابتني انه ، في رأيها ، سكان الهند جميعا يجب عليهم ان ينخرطوا في هذه الحركة العالمية .

في المساء سلمني رجال الشرطة السفط وأوراقي . لقد كان أولئك المنافقون من رجال الشرطة قد كسروا الخوانم الشمعية التي هم بأنفسهم وضعوها حين صفّتوا وثائقي في حضوري . بالتأكيد انهم صوروا كل شيء حتى وصول حسابات محل تنظيف الثياب التي كنت أحملها في جيبي . مع مضي الوقت عرفت انهم استجوبوا جميع الاشخاص التي كانت عناوينهم تبدو في مفكرتي ، ومن بين هؤلاء الاشخاص ارملة (ريكاردو غويرالديس) (٦) التي هي أخت زوجتي في ذلك الوقت . كانت هذه السيدة امراة متصوفة سطحية ليس لها من هوى ولا هوس الا

---

٦ ــ ريكاردو غويرالديس : روائي ارجنتيني (١٨٨٦ ــ ١٩٢٧) .

الفلسفات الآسيوية ، وكانت تعيش في ضيعة نائية جدا في الهند ، ومع ذلك فقد ازعجوها نظرا لان اسمها كان من جملة الاسماء التي أحملها في مفكرتي .

في دلهي الجديدة رأيت سبعا من الشخصيات بالعاصمة الهندية ، في يوم وصولي نفسه ، حيث كنت اجلس في حديقة تحت ظلال تحميني من وهج النار السماوية . كانوا كتابا ، فلاسفة ، كهنة هندوسا او بوذيين ، من اناس الهند ، هؤلاء البسطاء جدا الى درجة تبعث على التقدير والتقديس ، غير مزودين بأي تبجح مصطنع ولا زهو مزيف . ارتأوا بالاجماع ان بشكل انصار السلام حركة واحدة تنصهر مع الروح القديمة لهذا البلد العريق بتقاليده الحية من حب للخير وتفاهم مشترك . اضافوا في حكمة انهم يرون انه من الضروري أن تصلح العيوب ، عيوب الميل نحو جانب دون آخر او سيطرة قسم على آخر : ليس على احد او فئة ان يدعي الحركه لنفسه سواء أكان من الشيوعيين او البوذيين او البورجوازيين . ان مساهمة الاتجاهات كلها كان هو المحور الرئيسي وعقدة الامر . كنت على اتفاق معهم .

جاء ليراني سفير تشيلي في دلهي الجديدة وهو صديق قديم لي ، كاتب وطبيب يدعى الدكتور (خوان مارين) (٧) وحين وصل كنت انا اتغدى. بعد كثير من اللف والدوران والمواربة في الكلام قال لي انه كان قد قابل رئيس الشرطة . فاخبره رئيس الشرطة الهندي في هذا الطابع الجدي الذي يتكيفه الرجال المسؤولون حين يتوجهون لمخاطبة الديبلوماسيين اننشاطاتي تزعج حكومة الهند وتقلقها وانه ليتني أهجر الهند عما قريب . فأجبت السفير ان نشاطاتي قد اقتصرت على مقابلة سبعة من الاشخاص الشهيرين المعروفين في حديقة الفندق ، أفكارهم معروفة لدى الجميع ، كنت افترض انا . اما بالنسبة لي ، قلت له ، فاني حين اسلم رسالة (جوليوت كوري) الى رئيس الوزراء ، لن ارغب من بعد أن استمر في بلد يعاملني على الرغم من وقوفي المجرب الى جانب قضاياه بهذه الوقاحة وقلة الكياسة دون اي مبرر او داع .

---

٧ – خوان مارين : روائي ومؤرخ تشيلي (١٩٠٠ – ١٩٦٣) .

لقد كان سفيري ، مع انه كان واحدا من مؤسسي الحزب الاشتراكي بتشيلي ، خامدا هامدا . قد يكون بسبب تراكم السنين عليه وبسبب تراكم الامتيازات الديبلوماسية لم يبد اي احتجاج على الاهانة التي لحقت به وبي من جراء هذا السلوك الغبي من لدن الحكومة الهندية ، وانا لم اطلب منه اي دعم او تضامن معي بل ودّعته بالتي هي احسن ، فمضى هو مرتاحا من الحمل الثقيل الذي كان يعني بالنسبة له وجودي في الهنـــد وانا مضيت يائسا الى الابد من حساسيته ومن صداقته .

كان (نهرو) قد حدد لي موعدا في صباح اليوم التالي بمقر الحكومة في مكتبه . وقف ومد لي يده دون اية ابتسامة من ترحيب وتكريم . ان مقر الحكومة هذا قد وصف كثيرا فلا حاجة بي للكلام عنه . نظرت الـيّ عينان داكنتان باردتان من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدموني اليه والى ابيه في اجتماع حاشد من اجل استقلال الهند . فذكرته بهذا الاجتماع واللقاء فلم تنفير ملامحه ابدا . على كل ما كنت اقوله كان يجيب في مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف او حرفين وهو يرقبني بنظرتـــه الباردة الجامدة الثابتة .

ناولته من بعد رسالة صديقه (جوليوت كوري) فقال لي بأنه يشعر نحو هذا العالم الفرنسي شعور التقدير والاحترام ، ثم قرأ الرسالة في رصانة. كان حديثه في الرسالة عني ويطلب منه مساعدتي في مهمتي . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد في ظرفها ونظر اليّ دون ان يقول لي شيئا . فكرت لتوّي ان حضوري يسبب له اشمئزازا لا يقاوم ، كذلك مر في ذهني ان هذا الرجل ذا اللون الاصفر الشاحب لا بد انه يمر في لحظة فيسيولوجية سيئة او سياسية مزعجة او نفسية مضايقة . كان في سلوكه بعض من الأنفة والتشامخ ، شيء من التكبر والعجرفة ، زهو شخص متعود على ان يكون آمرا ناهيا دون ان يكون له شيء من هيبة القائد . تذكرت ان اباه (البانديت موتيلال زيمندار) ، سليل جنس قديم من السادة ، كان امين خزانة (غاندي) وانه ساهم ليس بمعرفته السياسية فحسب بل كذلـــك بثروته الكبيرة في حزب المؤتمر الهندي . فكرت في انه ربما يكون هـــذا الرجل قد عاد ليصير بشكل مهلهل (زيماندارا) وانه لهذا السبب يرمقني في احتقار ولا مبالاة كما لو كان ينظر الى فلاح حاف عار .

ـ ماذا عليّ ان اقول للاستاذ (جوليوت كوري) حين اعود الى باريس؟

ـ سأجيب على رسالته ـ قال في جفاف .

احتفظت بالسكون والصمت خلال بضعة دقائق بدت لي دهرا . كان ظهر لي ان (نهرو) ليست عنده اية رغبة في ان يقول لي شيئا ، لكن ما كنت ابدي اي تململ او عدم صبر كما لو اني كنت استطيع البقاء هناك جالسا الى الابد بدون اي غرض ولا هدف ، يملؤني شعور بأن اضيع وقت رجل عظيم جدا ومهم جدا .

اعتبرت انه لا بد لي من ان اقول له بضع كلمات عن مهمتي . ان الحرب الباردة تهدد بان تصير ساخنة بين لحظة وأخرى . ان هاوية جديدة قد تبتلع الانسانية . كلمته عن خطر الاسلحة الذرية الرهيبة وعن اهمية ان يتكتل جميع الذين يريدون تجنب الحرب الذرية او اكثريتهم على الاقل .

كما لو انه ما سمع مني شيئا ، استمر في تأمله واطراقه الفكري الروحي . بعد انتهاء بضع دقائق تفوه قائلا :

ـ ان ما يحصل هو ان كتلة واخرى تتراشقان بحجج السلام .

ـ بالنسبة لي ـ اجبته ـ ان الذين يتكلمون عن السلام او يريدون المشاركة في السلم جميعا يستطيعون ان ينتموا الى الكتلة نفسها الى الحركة نفسها ، فنحن لا نريد اقصاء احد عن حركتنا ما عدا أنصار الحرب ودعاة الانتقام .

استغرق الصمت طويلا فأدركت ان الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدي مودعا فصافحني في سكون . حين كنت اتوجه نحو الباب سألني في شيء من الود :

ماذا استطيع أن اعمل في سبيل حضرتك ؟ الا استطيع ان اقدم لحضرتك شيئا ؟

أنا عادة بليد الاجابة غير سريع الخاطر ، غير مجهز بالخبث والمكر ، لكن للمرة الوحيدة في حياتي استفدت من تلك الفرصة السانحة :

ـ بلى ، طبعا ، لقد نسيت ، على الرغم من اني قد جئت سابقا الى الهند فاني لم تسنح لي فرصة زيارة «تاج محل» القريب جدا من دلهي الجديدة . كان من الممكن أن تكون هذه هي الفرصة المناسبة لزيارة هذا المشهد التذكاري الرائع لو لم تخبرني الشرطة اني لا استطيع مغادرة المدينة وان عليّ ان اعود الى اوروبا في اسرع وقت ممكن، ولهذا فاني سأرحل غدا.
كنت فرحا بأني رشقته بالسهم (٨) . حييته في خفة وغادرت مكتبه.

في قاعة الاستقبال بالفندق كان المدير ينتظرني .

ـ عندي رسالة لحضرتك ، رسالة شفهية ، لقد اتصلت بي الحكومة هاتفيا لتخبرني انحضرتك تستطيع زيارة «تاجمحل» حين يطيب لحضرتك.

ـ اعد حسابي ـ اجبته ـ اني لآسف لعدم قدرتي على القيام بهذه الزيارة ، فاني سأتوجه الآن حالا الى المطار كي آخذ اول طائرة تقلني الى باريس .

بعد خمس سنين على هذا كلفت ان اكون عضوا في لجنة الجوائز التي كل سنة تمنح جائزة لينين للسلام في موسكو وهذه اللجنة هي محكمة أمميةأشكل انا جزءا منها. حين حانت لحظة تقديم اسماء المرشحين لذلك العام ، قذف مندوب الهند باسم رئيس الوزراء (نهرو) .

أنا ابتسمت ابتسامة لم يفهمها احد من الاعضاء الآخرين وصوّتّ ايجابيا . بتلك الجائزة الاممية نصّب (نهرو) واحدا من أبطال السلام في العالم .

---

٨ ـ رشقته بالسهم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، **كلت له الصاع صاعين**وان كان التعبير العربي في الاصل يعني الخير والمودة .

زيارتي الاولى للصين

لقد زرت الصين مرتين بعد الثورة ، الاولى عام ١٩٥١ ، حين شاركت في مهمة حمل جائزة لينين للسلام الى السيدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سون يات سين Sun Yat Sen) (٩) .

لقد منحت هي هذه الدالية الذهبية بناء على اقتراح (كوو موخو) (١٠) نائب رئيس الصين وكاتب شهير . كان (كوو مو خو) كذلك نائب رئيس لجنة الجوائز مثلما كان كذلك (اراغون) . الى هذه اللجنة كان بنتمي : (اتّا سيفيرس) ، السينمائي (آليكساندروس) (١١) و (ايهرينبورغ) وأنا ، وآخرون لا أذكر الان أسماءهم . كان ثمة حلف سري مؤلف من (اراغون) و(ايهرينبورغ) ومني ، عن طريق هذا الحلف توصلنا الى ان تمنح اللجنة الجائزة في أعوام اخرى الى (بيكاسو) ، الى (بيرتولد بريخت) (١٢) الى (رافائيل البرتي) . لم يكن الامر سهلا ، على فكرة .

خرجنا بالقطار المتجه نحو الصين العابر «سيبيريا» . لقد كان حشر نفسي في هذا القطار الاسطوري مثل الدخول في باخرة تبحر عبر الارض في المدى السحري الغريب . لقد كان كل شيء اصفر فيما حولي . على كل جانب من كوّتي في القطار ، فرسخا اثر فرسخ . كان الخريف السيبيري يسود ويسيطر ولا شيء يُرى غير اشجار «البتولا» الفضية ذات الاوراق الصفراء . ثم بدا المرج المديد ، صحراء جليدية او غابات الصنوبريات Taiga ومن حين الى حين نقترب من محطات المدن الجديدة . كنا نهبط ، (ايهرينبورغ) وأنا ، كي نتنشط بعد التخدير القطاري . كان الفلاحون ينتظرون القطار في المحطات ومعهم حزم وطرود وحقائب مكومة في قاعات الانتظار .

---

٩ — سون يات سين : سياسي صيني (١٨٦٦ — ١٩٢٥) .

١٠ — كوو مو حو : كاتب صيني ولد عام ١٨٩٥ .

١١ — اليكساندروف : مخرج سينمائي روسي ولد عام ١٩٠٣ .

١٢ — بريحت : مؤلف مسرحي وشاعر الماني معروف (١٨٩٨ — ١٩٥٦) .

لم يكن لدينا من الوقت الا القليل نستفيد منه كي نقوم ببعض الخطوات عبر هذه القرى. كانت جميعها سواء وفي كل قرية كان ثمة تمثال لستالين، من اسمنت، . احيانا كان التمثال مدهونا بالفضة واحيانا أخرى بالذهب . من عشرات التماثيل التي شاهدناها والتي كانت رتيبة سواء ، لست ادري ايها كان اقبح وابشع اهي الفضيحة ام الذهبية · حين نعود الى القطار الذي ابحر بنا لمدة اسبوع كان (ايهرينبورغ) يسليني بحديثه الظريف المرتاب، ولو انه كان وطنيا وسوفييتيا . كان (ايهرينبورغ) يحدثنى في ازدراء وتهكم عن كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة .

كان (ايهرينبورغ) قد وصل الى برلين مع الجيش الاحمر . كان هو ، بلا شك ، المع المراسلين الحربيين على الاطلاق . كان الجنود الحمر يحبون هذا الرجل الغريب الاطوار اللامركزي . لقد اراني في موسكو قبل السفر بقليل هديتين كان أولئك الجنود قد اهدوهما اليه بعد ان استخرجوهما من بين الاطلال الالمانية . ان احدى هاتين الهديتين هي بندقية صنعها صانعو اسلحة بلجيكيون لنابوليون بونابرت والاخرى هي عبارة عن مجلدين صغيرين من أعمال (رونسارد) قد طبعا في فرنسا عام ١٦٥٠ . كان هذان المجلدان الصغيران مشيّطين وملوثين بالمطر والدم .

تنازل (ايهرينبورغ) عن بندقيته الى المتاحف الفرنسية ، ماذا اصنع بها ؟ كان يقول لي وهو يداعب ماسورة هذه البندقية النابوليونية الجميلة الجيدة الصنع وقندقها المصقول اللامع . اما بالنسبة لمجلّدي (رونسارد) فقد احتفظ بهما لنفسه في غيرة وحيطة .

كان (ايهرينبورغ) متفرنسا متحمسا . أنشدني في القطار قصيدة من قصائده السرية ، كانت قصيدة قصيرة يتغني فيها بفرنسا كما لو كان يغازل امرأة يهيم بها .

اقول ان القصيدة سرية لانها كانت الفترة التي فيها بدات بروسيا تشن الاتهامات ضد «الكونية» Cosmopolitismo . كانت الصحف تنشر وشايات معممة ضد الكونيين . فقد كان 'الفن الحديث كله يبدو لهذه الصحف انه كوني . كان هذا الكاتب او ذاك الرسام يسقط ضحية هذا الاتهام وبمحى اسمه كليا . وهكذا كان على قصيدة (ايهرينبورغ) المتفرنسة

ان نحمي حنانها كما زهرة سرية .

ان الكثير مما كان يطلعني عليه (ايهرينبورغ) كان يختفي من بعد الى الابد في ليل (ستالين) المعتم المظلم اختفاءات كنت انا أرجع اسبابها الى طبعه المتمرد المتناقض .

كان (ايهرينبورغ) بالنسبة لي بوفرة شَعره غير المنتظمة وبتقطيب جبينه العميق وبأسنانه المتسممة بالتبغ ، وبعينيه الرماديتين الباردتين ، هو الارتيابي القديم ، الخائب الكبير . انا كنت افتح عيني ، حديثا ، على الثورة العظيمة ولم يكن في متسع لجزئيات مشؤومة . كنت اخالف قليلا الذوق العام السائد اذاك والمتمثل في تلك التماثيل المدهونة بالذهب او الفضة . لقد اثبت الزمن اني لست على صواب وحق ، لكنني اعتقد انه لا احد ولا حتى (ايهرينبورغ) كان يدرك عمق المأساة وفداحة المصيبة الى ان انعقد المؤتمر العشرون فكشف لنا جميعا عن ذلك كله .

كان يظهر لي ان القطار يسير في بطء كثير عبر المدى الاصفر ، يوما بعد يوم ، شجرة «ال بتولا» اثر شجرة «ال بتولا» . هكذا كنا نقترب عبر «سيبيريا» من جبال «اورال» .

كنا ذات يوم نتغدى في عربة المطعم حين لفت نظري جندي كان يشغل مائدة وحده ، كان ثملا جدا وهو شاب اشقر كثير الابتسام . كان يطلب في كل لحظة من النادل ان يأتي له ببيض نيء ، ثم يكسر هذا البيض وفي سرور (١٣) كبير واضح يفرغ كل بيضة في طبق ثم يطلب زوجا آخر من البيض ، وفي كل مرة كان يحس انه اكثر سعادة ، يستدل على هذا من ابتسامته الطروب ومن عينيه الزرقاوين الفرحتين فرح طفل صغير . لا بد انه قد قضى وقتا كثيرا وهو يكسر ويصب ويطلب ثم يكسر ويصب ويطلب لان زلال البيض اخذ يتدفق ويفيض بشكل خطير من أطباقه ويسقط على أرضية العربة .

---

١٣ ــ سرور : في الاصل البروز Alborozo وهي كلمة عربية من معانيها في الاسبانية الطرب والفرح والسرور .

ـ Tovarich ـ كان ينادي الجندي في حماسة على النادل ليطلب منه بيضات جديدة كي يضاعف من كنزه وثروته البيضية .

وأنا كنت أراقب في حماسة كذلك هذا المشهد السريالي البريء جدا، المباغت جدا في اطار تلك الوحشة السيبيرية المحيطية .

الى أن نادى النادل المستنفر على شرطي عسكري . نظر الشرطي المسلح تماما من علوه اذ كان طويلا جدا ، في حزم وجدية الى الجندي فلم يعره هذا اي انتباه بل استمر في عمله يكسر البيض ويهشمه .

افترضت انا ان السلطة سوف تخرجه في عنف من حلمه المسرف المبذر ، لكنني دهشت حين رأيت الشرطي الهرقلي يجلس قربه ويمر يده في حنان عبر التسعر الاشقر ويكلمه في نصف صوت ، مبتسما له ومحاولا اقناعه الى أن جعله يقوم فجأة في نعومة ورشاقة من مقعده وقاده من ذراعه كأنه اخ كبير له ، الى مخرج العربة نحو المحطة نحو شوارع القرية .

فكرت في مرارة ماذا كان يقع لو أن سكيرا مسكينا هنديا جعل يكسر البيض في قطار اكوادوري .

خلال تلك الايام السيبيرية كان يسمع في الاضاحي والاماسي عزف (ايهرينبورغ) في قوة على معازف آلته الكاتبة . هناك انهى رواية «الموجة الاولى» وهي الاخيرة قبل روايته الاخرى «ذوبان الجليد» . من جهتي كنت لا أكتب الا على فترات متقطعة بعض قصائد من ديواني «أشعار القبطان» وهي قصائد غزل بـ (ماتيلده Matilde) سأنشره من بعد في «نابولي» غفلا من التوقيع .

تركنا القطار في «ايركوتز» . قبل أن نأخذ الطائرة الى «مونغوليا» ، ذهبنا للقيام بنزهة عبر البحيرة ، بحيرة «بايكال» التسهيرة ، في أطراف «سيبيريا» التي كانت تعني في العهد القيصري باب الحرية . نحو هذه البحيرة كانت تتجه افكار المسجونين والهاربين وأحلامهم . كانت الطريق الوحيدة الممكنة للفرار والهرب . «بايكال ، بايكال» ما زالت حتى الآن

ترددها الاصوات الروسية الفخمة وهي تغني الاناشيد القديمة .

لقد دعانا معهد ابحاث البحيرات الى الغداء . فكتشف لنا العلماء عن اسرارهم العلمية . ابدا ما استطعنا تحديد عمق تلك البحيرة التي هي ابنة جبال «اورال» وعينها . من على بعد الفي متر عمقا تستخرج أسماك غريبة عجيبة . اسماك عمياء . نستخرج من هاوينها المعتمة الليليـــة . ما ان سمعت هذا حتى اخذتني الشهية وتمكنت من اقناع العلماء البحاثين من ان يحضروا لي الى مائدتي زوجا من تلك الاسماك العجيبة . اني لواحد مـن الاشخاص القلائل في العالم . الذين استطاعوا ان يأكلوا اسماكا قعريـة عميقة مروية بـ «فودكا» سيبيرية جيده .

من هناك طرنا الى مونغوليا . ما زلت احتفظ بذكرى ضبابية لتلـك الاراضي القمرية حيث يعيش السكان هناك في خيام بدوية بينما شرعوا في خلق أوائل مصانعهم وانشاء اوائل جامعاتهـم . حول «اولان باتـــور» تنفتـــح ارض يبـــاب مـــدورة لا نهائيـــة شبيهـة بصحـــراء «اتاكاما» في وطني . لا يمخرها الا قوافل الجمال التي تجعل وحشتهـــا ووحدتها اكثر قدما . بالمناسبة تذوقت في طاسات (١٤) فضية مصنوعة في شكل مذهل وبسكي المنغوليين . ان كل قرية تصنع كحولها (١٥) ممـا تستطيع . ان هذا الذي ذقته كان من حليب نافة متخثر منخمر . ما زلت حتى الآن كلما ذكرته بقشعر بدني . لكن . كم هو رائع اني كنت في «اولان باتور» ، انا من يعيش في الاسماء الجميلة ، انا احيا في هذه الاسماء كما لو كنت احيا في منازل الاحلام. لقد عشت متمتعا متلذذا بكل مقطع من اسم «سينغابور» من اسم «سمرقند» . اني أريد حين اموت ان يدفنوني في اسم . في اسم رنان جيد الاختيار ، كي تغني مقاطعه فوق عظامي ، قرب البحـــر .

ان الشعب الصيني هو من اكثر الشعوب ابتساما في العالم . عبـــر الاستعمار الذي لا يرحم ، عبر الثورات ، عبر المجاعـات ، عبر المجازر ،

١٤ ـ طاسات : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٥ ـ كحول : هكذا في الاصل Alcohol . عن العربية

يبتسم ، يعرف ان يبتسم في المآسي اكثر من اي شعب آخر . ان ابتسامة الاطفال الصينيين لهي أجمل حصاد أرز تفرطه هذه الجمهرة الغفيرة من الخلق . غير ان ثمة نوعين من الابتسامات الصينية . ثمة نوع من الابتسامة الطبيعية تضيء الوجوه بلون قمحي ، هي ابتسامة الفلاحين وابتسامة الشعب العديد . النوع الثاني هي ابتسامة «انزع وضع» (١٦) ، تتثاءب ، تلدسق ثم تمحق تحت الانف ، انها ابتسامة الموظفين .

لقد كلفنا جهدا ان نميز بين هذين النوعين حين وصلنا ، انا و(ايهرينبورغ) الى مطار بكين لاول مرة . لقد رافقتنا الابتسامات الحقيقية خلال الايام الاولى ، كانت ابتسامات زملائنا الكتاب الصينيين ، روائيين وشعراء ، استقبلونا احسن استقبال في كرم ضيافة وجود نفس . هكذا تعرفنا على (تينغ لينغ) وهو روائي ، حائز على جائزة (ستالين) ، ورئيس اتحاد الكتاب . على (ماو دونغ) ، على (ايمي سياو) ، على (اي شينغ) الرائع وهو شيوعي قديم وأمير الشعراء الصينيين . هم كانوا يتكلمون الفرنسية او الانجليزية . لقد دفنتهم الثورة الثقافية جميعا بعد سنوات قلائل . لكن في ذلك الحين ، حين وصلنا ، كانوا شخصيات الادب الصيني الاوائل .

في اليوم التالي ، بعد منح جائزة (لينين) التي كانت تدعى بجائزة (ستالين)، أكلنا في السفارة السوفييتية . لقد كان حاضرا في هذه الوليمة، بالاضافة الى السيدة التي منحناها الجائزة ، (شو اين لاي) والمارشال العجوز (شو تيه) (١٧) وآخرون قلائل . كان السفير بطلا من أبطال «ستالينغراد» وهو عسكري سوفييتي أصيل كان يغني ويشرب الانخاب بشكل متكرر سريع . لقد جلست انا قرب (سونغ سين لينغ) كانت امرأة وقورة جدا وما زالت بعد جميلة . لقد كانت الشخصية الانثوية الاكثر احتراما في تلك الفترة .

كل واحد منا كان له تحت تصرفه زجاجة صغيرة مليئة بالفودكا . كانت

---

١٦ ـ انزع وضع : تعبير اسباني بمعنى النفاق والزيف .

١٧ ـ شو تيه : سياسي وعسكري صيني ولد عام ١٨٨٦ .

gambé تنفجر في فيض ووفرة . ان النخب الصيني يجبرك على ان تشرب الكأس كلها حتى السلافة دون ان تدع فيها قطرة واحدة . كان المارشال العجوز (شو تيه) ، مقابلي ، يملأ قدحه مرارا وتكرارا وبابتسامته الفلاحية الكبيرة كان يحثني على نخب جديد في كل لحظة . فى نهاية الاكل انتهزت لحظة شرود فكر هذا الاستراتيجي القديم كي أذوق جرعة من زجاجته الفودكية . لقد تأكدت شكوكي حين عرفت ان المارشال كان يتناول ماء نقيا خلال الاكل فيما انا كنت اتجرع كميات كبيرة من السائل الناري .

حين حانت ساعه تقديم القهوة ، اخرجت جارتي في المائدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سن يات سين) المرأة الرائعة التي جئنا كي نقلدها الوسام ، من علبة الدخان سيجارا . من بعد ، في ابتسامة ضئيلة جدا قدمت لي آخر . «لا ، انا لا ادخن ، شكرا جزيلا» قلت لها . وحين مدحت لها علبة سجايرها ، اجابتني : «اني احتفظ بهذه العلبة لانها ذكرى ثمينة جدا في حياتي» . لقد كانت هذه العلبة شيئا مذهلا باهرا ، كانت مصنوعة من ذهب خالص نقي ، مرصعة بالجواهر والالماس والبواقيت والدر . بعد ان امعنت النظر في العلبة واضفت مدائح جديدة اعدتها الى صاحبتها .

لقد نسيت هي فيما بعد انى ارجعت العلبة اليها فحين وقفنا لندع المائدة اتجهت نحوي في شيء من التوتر قائلة :

ــ علبة سجائري Please (١٨) .

انا ما كنت اشك قطعا في اني اعدت العلبة اليها . لكن . على كل حال، بحثت عنها فوق المائدة ثم تحت المائدة دون ان اعثر عليها . لقد تلاشت ابتسامة ارملة (سن يات سين) واضمحلت وما كان فى وجهها الا عينان سوداوان تخترقني كما شعاعان لا يرحمان . لم يكن ليُعثر على تلك الحاجة المقدسة في اية جهة من الجهات وبدأت انا اشعر اني مسؤول عن ضياع هذا الشيء الثمين المقدس ، لقد كانت تلك الاشعة السوداء تقنعني في اني

---

١٨ ــ Please : كلمة انجليزية ، معناها ، من فضلك .

انا لص الجواهر المرصعة .

لحسن حظي في الدقيقة الاخيرة من الاحتضار لمحت العلبة التي عادت للظهور في يديها . لقد عثرت عليها في محفظتها ، ببساطة وبشكل طبيعي. فاستعادت هي ابتسامتها ، لكنني لم اعد ابتسم خلال عدة سنين طويلة . اني لافكر الآن مهموما في انه ربما ان الثورة الثقافية قد تركتها بشكل نهائي من غير علبة سجائرها الذهبية الثمينة .

كان الصينيون في ذلك الفصل من السنة يلبسون اللون الازرق ، بدلة ميكانيكي كانت تغطي كل واحد منهم سواء الرجال والنساء ، وكان هذا اللون يعطيهم مظهرا سماويا متوحدا جماعيا . لم تكن هذه الاردية اسمالا كما لم يكن عندهم سيارات . بل انها لجماهير غفيرة تملأ كل شيء وتطفو في كل ناحية وتبرز في كل زاوية .

لقد كنا هناك في العام الثاني للثورة الصينية . بشكل اكيد كان هناك قلة في المواد ومصاعب في اماكن مختلفة ، لكن هذا كله ما كان يتشاهد اثناء التجوال في مدينة بكين . ان ما كان يشغل بالنا بشكل خاص : بال (ايهرينبورغ) وبالي هو هذه الجزئيات الصغيرة ، بعض تشنجات النظام . حين اردنا ان نشتري زوجا من الجرابات او المناديل تحولت المسألة الى مشكلة دولة . كان الزملاء الصينيون يتناقشون فيما بينهم . بعد مداولات عصبية انطلقنا من الفندق في كروان [19] على رأس القافلة كانت تهدر سيارتنا ، من بعد سيارة الحرس ، فسيارة الشرطة ثم سيارة المترجمين. انطلق فوج السيارات في عجلة وسرعة ففتح طريقا وسط الجمهرة المزدحمة من الناس البسطاء . كنا نمر مثل هيار جليدي عبر القناة الضيقة التي يدعها الناس حرة . حين وصلنا الى المخزن نزل من السيارات اصدقاؤنا الصينيون فطردوا من المحل المشترين جميعهم وأوقفوا حركة السير وشكلوا بأجسادهم حاجزا وبسواعدهم ساباطا انسانيا عبرناه : (ايهرينبورغ) وأنا، مطأطئي الرأسين كي نخرج منه بعد خمسة عشر دقيقة كذلك مطأطئي الرأسين وفي أيدينا صفت صغير وتصميم على الا نشتري من بعد زوجا من

---

١٩ ـ كروان : هكذا في الاصل Caravana عن العربية ، من اصل فارسي .

الجرابات البتة .

كانت هذه الاشياء تجعل (ابهربنبورغ) غاضبا حانقا . فتصور كيف كان في المطعم الذي سأروي قصته الآن . كانوا يقدمون الينا في مطعم الفندق أسوأ الطعام الانجليزي ، اطعمة خلفتهــا في الصين الانظمـة الاستعمارية . انا نظرا لاني معجب كبير بالطهي الصيني ، قلت لمترجمي الشاب باني احترق رغبة للتمتع بفن الطهي البكيني التسهير . اجابني بانه سيطلب الاستشارة حول هذا الامر .

اجهل فيما اذا استشار ام لا لكن ما هو اكيد اننا ظللنا نمضغ ونعلك لحم البقر المشوي التافه في الفندق . عدت فكلمته عن الموضوع ، فصمت مطرقا مفكرا ثم قال :

ان الزملاء قد اجتمعوا عدة مرات لدراسة هذه الحالة ، والمشكلة على وشك ان تحل .

في اليوم التالي اقترب منا عضو مهم في لجنة الاستقبال . بعد ان علق في وجهه ابتسامة بشكل صحيح ، سألنا ان كنا فعلا راغبين في ان نأكل طعاما صينيا فقال له (ايهرينبورغ) في حزم ان اجل وأنا اضفت اني منذ ايام صباي وأنا اسمع عن اكلهم التسهي الفنى واني منذ ذلك الحين وانا متشوق لتذوق متعة بكبن الشهيرة جدا .

ــ ان الموضوع لصعب ــ قال الزميل الصينى وهو فى حالة انشغال وقلــق .

سكون ، حركة راس ، ثم اوجز قائلا :

ــ انه لشبه مستحيل .
(ايهرينبورغ) ابتسم ابتسامته المعهودة المرة ، ابتسامة مستهزىء متشكك بصر على شكوكه . انا ، على العكس ، غضبت ــ ايها الزميل ــ قلت له ــ اعمل المعروف بتجهيز اوراقي كي اعود الى باريس حالا . ان لم استطع ان آكل الطعام الصيني في الصين فاني سآكله في الحي اللاتينى بباريس .

فهو هناك ليس بمشكلة .

ان احتجاجي العنيف لاقى نجاحا . بعد اربع ساعات وصلنا ونحن مقادان من لدن حاشيتنا العديدة الى مطعم مشهور يعد منذ خمسمائة سنة طبق البط المصنوع بصمغ اللك ، طبقا صغيرا لكنه جدير بالذكر والذكرى .

كان المطعم الذي يفتح ليلا نهارا لا يبعد اكثر من ثلاثمائة متر عن مطعم فندقنا .

«اشعار القبطان»

من اتجاه الى اتجاه في هذه التجوالات ، تجوالات منفي ، وصلت الى بلد ما كنت أعرفه فتعلمت ان أحبه حبا شديدا : ايطاليا . لقد بدا لي في هذا البلد كل شيء رائعا وبخاصة البساطة الايطالية : الزيت ، الخبز ، الخمر الطبيعي . حتى تلك الشرطة .... تلك الشرطة التي ما ازعجتني ابدا ولا عاملتني معاملة سيئة قط ، لكنها طاردتني مطاردة لا تتعب ولا تمل، شرطة وجدتها في الجهات جميعها ، حتى في الاحلام وفي الحساء .

لقد دعاني كتاب ايطاليا لقراءة اشعاري فقرأتها في نية حسنة في كل مكان ، في الجامعات ، في المسارح ، في موانىء «جنوا» ، في فلورنسا ، في قصر «لا لانا» ، في «تورين» ، في البندقية .

كنت أقرأ في متعة لا نهائية امام قاعات مكتظة بالناس . احدهم كان يجلس قربي على المنصة ليعيد من بعد ، انشاد اشعاري مقطعا مقطعا ، في لغة ايطالية سامية ، فكان يعجبني سماع ابياتي في هذا البريق الذي تضفيه عليها اللغة الايطالية الرائعة . لكن ما كان هذا ليعجب الشرطة الايطالية كما كان يعجبني . في القشتالية ، جواز مرور ، بينما في الايطالية كإن ثمة نقاط ومسائل شرف . ان مدائح السلام وهي كلمة محرمة عند « الغربيين » ، والافدح من هذا ان اتجاه شعري نحو تمجيد النضال الشعبي ، كان يؤدي الى نتائج خطيرة .

كانت مجالس البلديات قد ربحتها في الانتخابات الاحزاب الشعبية

ولهذا فانهم استقبلوني في هذه المجالس الفخمة الفاخرة ضيف شرفعليها. كثيرا من المرات كانوا يعينونني عين المدينة : فانا مواطن شرفي في ميلان، في فلورنسيا ، في جانوا . قبل انشادي او بعده كان المستشارون يضعون لي اوسمتهم . كان يجتمع في القاعه مواطنون اعيان وارسنوقراطيـــون واساقفة . كانوا يشربون نخبي كؤوس شمبانيا ، وكنت أشكرهم على هذا باسم وطني البعيد النائي . كنت اهبط درجات القصور الفخمة لمجالس البلديات بين العناق والتقبيل . في الشارع كانت الشرطة تنتظرني فلا تتركني لحظة لا في الشمس ولا في الظل [٢٠] .

اما ما حدث في البندقية فقد كان سينمائيا . القيت قصائدي في القاعة كما هي عادتي في ايطاليا . عينت مرة اخرى مواطن شرف . لكن الشرطة كانت تريد ان اذهب من المدينة حيث ولد ونعذب (ديسديمونا) . لقد ربض رجال الشرطة ليلا نهارا على ابواب الفندق .

جاء صديقي القديم (فيتوريو فيدالي) «الرائد كارلوس» من «تريستا» ليسمع اشعاري . وصاحبني كذلك في المتعة الخالدة بالتجوال عبر القنوات فكنا نرى ونحن في الجندول القصور الرمادية الساحرة . اما بالنسبة للشرطة فانها حاصرتني اكثر مما كانت تحاصرني من قبل . فلقد كان رجال الشرطة يمشون مباشرة خلفنا ، على بعد مترين . حينذاك قررت ان اهرب كما فعل (كازانوفا) من هذه المدينة التي كانت تريد ان تضيق عليّ الخناق . خرجنا منطلقين جريا ، انا و(فيتوريو فيدالي) والكاتب الكوستاريكي (خواكين غوتييريث) الذي كان هناك صدفة . وعلى اثرنا انطلق الشرطيان . في سرعة توصلنا الى ان نركب في الجندول الآلي الوحيد بالبندقية ، جندول رئيس البلدية [٢١] الشيوعي . لقد خدّد جندول السلطات البلدية مياه القناة ومخر مسرعا فيما السلطات الاخرى كانت تجري كما الايائل السمر بحثا عن زورق آخر الى ان عثرت

---

٢٠ ــ لا في الشمس ولا في الظل : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، **لا في الحر ولا في القر** .

٢١ ــ رئيس البلدية : في الاصل Alcalde وهي الكلمة العربية **القاضي** ، وكان **القاضي** في الاندلس يقوم بمهام رئيس البلدية كذلك .

عليه . كان الزورق الذي ركباه واحدا من هذه القوارب الرومانطيكية الكثيرة ذات المجداف المدهونة باللون الاسود وذاتالزخارف الذهبية التييستعملها العشاق في البندقية . كان زورقهم يطاردنا من على بعد وبدون أمل كما بطة تلاحق دخسا بحريا .

في نابولي هذه المطاردات اُستعجل بها وكانت على نحو آخر . وصل رجال الشرطة الى الفندق حيث كنت ابيت في وقت ليس هو بالمبكر اذ انه في نابولي لا احد يعمل مبكرا ولا حتى رجال الشرطة . احتجوا بخطأ في جواز السفر ورجوني ا نارافقهم الى مدبرية الشرطة . هنالك قدموا لي قهوة «ايكسبريس» وأخبروني بأني يجب ان أغادر الاراضي الايطالية في اليوم نفسه .

لم يفدني بشيء حبي لايطاليا .

ــ ان الامر لا بد ان يكون خطأ ــ قلت لهم .

ــ لا شيء من هذا القبيل ، انا لنأسف كثيرا ، لكن عليك أن تغادر البلد حالا .

ثم بشكل غير مباشر وبطريقة زائغة اخبروني ان سفارة تشيلي هي التي طلبت طردي من ايطاليا .

كان القطار سيخرج في المساء . كان اصدقائي قد خفوا قبلي الـــى محطة القطار لتوديعي . قبل . زهور . هتافات . (باولو ريكيشي) ، آل (اليكاتا) . آخرون كثيرون . Arivederci : مع السلامة ، مع السلامة .

لقد اسرف رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني في رحلتي القطارية المتجهة الى روما في اللطف والكياسة . لقد رفعوا لي حقائبي ووضعوها كما يجب واشتروا لي صحيفة L'Unité وصحيفـة El Paise Sera ولا بأي شكل صحيفة من الصحف اليمينية . كانوا يطلبون مني ان اعطيهم صورا لهم ولاقربائهم . ابدا ما شاهدت في حياتي شرطة اكثر رقة ولطافة من الشرطة الايطالية :

ـ انا لنتأسف لهذا الامر كثيرا يا صاحب السعادة فنحن ارباب عائلات فقيرة وعلينا ان نطيع الاوامر ، انه لشيء مقرف ....

في محطة روما ، حيث كان عليّ ان اغيّر القطار لأواصل سفري نحو الحدود ، لمحت من نافذة القطار جمهره غفيره من الناس . سمعت هتافات. لاحظت حركات غامضة وعنيفة . حزم كبيرة من الزهور كانت تسير نحو القطار مرفوعة فوق نهر من الرؤوس .

ـ بابلو ! بابلو !

حين نزلت من القطار وأنا محروس في انافة ، صرت حالا وسط وطيس معركة هائلة . فلقد اختطفني من ايدي رجال الشرطة كتاب وكاتبات ، صحفيون ، نواب ، حوالي الف من الاشخاص الهاجمين . رجال الشرطة من جهتهم تقدموا في عملية معاكسة واسترجعوني من أذرع اصدقائي . لقد ميزت في تلك اللحظات المأساوية بعض الوجوه الشهيرة : (البرتو مورافيا) وزوجته : (ايلسا مورانتي) روائية مثله ، الرسام المشهور (ريناتو غوتوسو) . شعراء آخرين ، رسامين آخرين .. كان المؤلف المعروف (كارلو ليفي) مؤلف « المسيح توقف في ايبولي» يناولني باقة من الزهور ، لكن الزهور كانت تتساقط متبعثرة على الارض ، كانت تطير قبعات ومظلات ، كانت ترن صفعات ولكمات ولكزات كانها الانفجارات . كان رجال الشرطة ينالون من هذا كله النصيب الاكبر والقسم الاسوأ وشن اصدقائي حملة معاكسة واستردوني . اثناء المناوشة والاشتباك استطعت ان ارى وجه الحلوة (ايلسا مورانتي) وهي تضرب بقبعتها الحريرية على رأس احد رجال الشرطة . ثم اخذت تمر العربات التي تأخذ وتجلب الحقائب في محطة القطار واذ بواحد من هؤلاء الحمّالين ذوي المرسات الغلبطة Facchino يهوي بهراوته ضربا على ظهور القوة البوليسية. لقد كان هذا تعبيرا عن تضامن الشعب الرومي (٢٢) معي . لقد احتدم النزاع وصارت المعركة عويصة شائكة الى درجة ان رجال الشرطة قالوا لي على حدة :

٢٢ ـ الرومي : نسبه الى روما .

ـ تكلم مع اصدقائك . قل لهم بأن يهدأوا .....

كانت جمهرة الناس تهتف :

ـ نيرودا يبقى في روما . نيرودا لن يغادر ايطاليا . فليبق الشاعر ، فليبق التشيلي ، فليرحل النمساوي . («النمساوي» هو (دي غاسبري) رئيس وزراء ايطاليا) .

بعد نصف ساعة من الحرب السجال والهجومات المضادة وصل امر سام من السلطات العليا بالسماح لي في البقاء بايطاليا، فعانقني اصدقائي وقبلوني فابتعدت عن تلك المحطة وأنا أدوس في اسى تلك الزهور المتناثرة ضحايا المعركة .

لقد اصبحت أصبوحة اليوم التالي في دار احد النواب ، المتمتع بالحصانة البرلمانية ، حيث اخذني اليه الرسام (ريناتو غوتوسو) الذي لم يثق بالكلمة الحكومية . هناك وصلتني برقية من جزيرة «كابري» بعثها المؤرخ الشهير العظيم (ايروين ثيريو) الذي لم اكن اعرفه شخصيا . كان يعبر في هذه البرقية عن انه شعر بالاهانة ازاء هذا العمل الشائن والاستخفاف بالتقاليد الايطالية وثقافة ايطاليا وانتهى قائلا بأنه يقدم لي «فيلا» بكابري نفسها كي أقضي فيها ما شئت من الوقت لعله بذلك يزيل شيئا مما لحقني من حيف في بلده .

لقد كان كل شيء يبدو وكأنه حلم من الاحلام . وحين وصلت الى كابري في صحبة (ماتيلده اورونيا) صار الاحساس اللاواقعي بالاحلام اكبر وأعظم .

وصلنا ليلا وفي فصل الشتاء الى هذه الجزيرة البديعة . في الظل كان الشاطىء يمتد ابيض عاليا ، غريبا صامتا ، ماذا سيجري ؟ ماذا سيجري لنا ؟ كانت تنتظرنا هناك عربة خيل . صعّدت العربة وصعّدت عبر الشوارع الليلية الخلاء ، بيوت بيضاء خرساء ، ازقة ضيقة شاقولية. اخيرا توقف الحوذي ، أنزل حقائبنا ووضعها في تلك «الفيلا» ، كذلك بيضاء وعلى ما يبدو خاوية فارغة

حين ولجنا الدار رأينا النيران وهي تتوهج في المدفأة الكبيرة . على ضوء الشمعدانات المضاءة رأينا هناك رجلا طويلا ابيض الشعر واللحية والبدلة . كان هذا هو السيد (ايروين ثيريو) صاحب نصف جزيرة كابري، وهو مؤرخ وعالم في التاريخ الطبيعي . كان وسط اللهب شامخا كأنه طيف (تايتا) إله الحكايا الطفولية .

كان له ما يقرب من تسعين سنة من العمر وكان اكثر الرجال شهرة في الجزيرة .

ـ ان هذه الدار دارك وتستطيع ان تكون هنا مطمئنا مرتاحا .

غاب عدة ايام لم يكن يزورنا ذوقا وأدبا وكياسة ، بل كان يرسل لنا رسائل صغيرة مختزلة جدا فيها نصائح وزهره او ورقة من حديقة داره . لقد مثل لنا (ايروبن نيريو) قلب ايطاليا الفسيح العميق الكريم النبيل .

من بعد تعرفت على مؤلفاته ، على كتبه التي هي اكثر صحة من كتب (اليكس مونثي) (٢٣) ولو انها اقل شهرة . كان العجوز النبيل (ثيريو) يعيد في مزاح ودعابة :

ـ ان عمل الإله النموذجي هو ساحة جزيرة «كابري» .

لقد كنا : انا و(ماتيلده) ، ننطوي على حبنا . كنا نقوم بجولات عبر «اناكابري» للجزيرة الصغيرة المجزأة الى الف بستان وبستان ، بريق طبيعي كتب عنه الكثير وفعلا هو بريق طاغ غريب . بين الصخور ، حيث تسوط الشمس والريح ، عبر الارض الجافة ، تنفجر نباتات وتنبثق زهور صغيرة، تنمو متناسقة في اطار تاليف موسيقي حدائقي . ان لجزيرة «كابري» العميقة هذه التي يطوف بها المرء بعد حج طويل وبعد ان تسقط عن ملابسه اشارة سائح ، جزيرة «كابري» الشهيرة بصخورها ودواليها الصغيرة وبأناسها المتواضعين الاصيلين العاملين ، لسحرا أخاذا . ها هو المرء ينصهر

---

٢٣ ـ اليكس مونثي : كاتب وطبيب سويدي (١٨٥٧ ـ ١٩٤٩) .

فيذات واحدة والاشياء والناس. ها هو المرء يعرفه الحوذيون والصيادون. ها هو المرء يشكل جزءا من «كابري» الخفية الفقيرة . ها هو المرء يعرف اين النبيذ الجيد الرخيص وأين يشتري الزيتونات التي يأكل مثلها اهالـــي « كابــري » .

انه لمحتمل أن خلف أسوار القصور المليئة بالندمـــاء تدور الشرور والكأس والطاس والخلاعة والقمار ، الاشياء الروائية التي تقرأ في الكتب، لكنني شاركت في حياة سعيدة في عزلة كاملة او بين اكثر الناس بساطة في العالم . انه لزمن لا ينسى . كنت أنظم في كل صباح وفي المساء كانت (ماتيلده) تنسخ على الآلة الكاتبة ما اكتبه من قصائد . لاول مرة كنا نحيا معا في دار واحدة . لقد نما حبنا وزاد في ذلك المكان ذي الجمال المدهش المسكر . لم نعد نستطيع ان نفترق ابدا .

هناك انهيت كتاب حب . كتاب مفعم بالعاطفة والالم ، طبع فيما بعد بنابولي في شكل مغفل التوقيع : «أشعار القبطان» .

والآن سأروي لكم حكاية هذا الكتاب . هو من بين كتبي اكثرها بعثا للمجادلة والمناقشة فيه وحوله . لقد بقي زمنا طويلا سرا لا تسبر له ابوّة ولا نسب ، ظل زمنا طويلا وهو لا يحمل اسمي على غلافه كما لو اني كنت اتبرأ منه او ان الكتاب نفسه ما كان ليعرف من هو أبوه الذي خلّفه . كما ان هناك ابناء غير شرعيين طبيعيين ، ابناء الحب الطبيعي ، كذلك كان كتابي هذا ابنا طبيعيا لا شرعيا .

ان القصائد التي يتضمنها هذا الكتاب نظمت هنا او هناك ، على مدى منفاي في اوروبا . ثم نشرت بشكل مغفل في نابولي عام ١٩٥٢ . ان حبي لـ (ماتيلده) ، حنيني الى تشيلي ، عواطفي ومشاعري تملأ صفحات هـــذا الكتاب الذي حافظ على نفسه دون اسم صاحبه في طبعات كثيرة .

لطبعته الاولى ، حصل الرسام (باولو ريكثي) على ورق جدير بالاعجاب وعلى نماذج حروف قديمة للطباعة وعلى نقوش اخذها عن كؤوس مـــن «بومباي» . لقد أعد (باولو) كذلك في حماسة اخوية قائمة المشتركين ، ولم يطل الوقت حتى ظهر المجلد الاول الجميل ولم يطبع منه حينذاك اكثر

من خمسين نسخة . فاحتفلنا لهذه المناسبة احتفالا استغرق كثيرا من الوقت ، اعددنا مائدة مزهرة عليها Frutti di mare واحتسينا نبيذا شفافا كالماء ، الابن الوحيد لدوالي «كابري» . يصحبنا فرح الاصدقاء الذين احبوا حبنا .

لقد عزا بعض النقاد المرتابين الى اسباب سياسية ظهور هذا الكتاب بلا توقيع . «الحزب قد عارض ، الحزب لم يقر قصائد هذا الكتاب» قالوا ان حزبي لا يعارض ابدا اي تعبير عن الجمال .

الحقيقة الوحيدة هي انني ما شئت ، خلال زمن طويل ، ان تجرح هذه القصائد شعور (ديليا ديل كار̃يل) زوجتي التي كنت انفصل عنها . لقد كانت (ديليا) ، وهي عابرة ناعمة جدا في حياتي ، خيطا من فولاذ وحرير ربط يدي خلال الاعوام الرنانة الصاخبة ، وخلال ثمانية عشر سنة كانت لي الرفيقة المثالية . كان هذا الكتاب ذو الهوى الجارف المتأجج سيهوي كما الحجر المقذوف على بنائها الطري الهش̃ . لقد كانت هذه وليست أخرى هي الاسباب العميقة ، الشخصية ، المحترمة لاغفالي ذكر اسمي على الكتاب الغفل .

ثم شب الكتاب ولو انه بلا اسم ولقب وغدا رجلا ، رجلا طبيعيا وقيما . لقد شق له دربا في الحياة فكان علي̃ في نهاية الامر أن اعترف به أبنا . ها هو الآن يمضي عبر الطرقات ، اي ، عبر المكاتب والمكتبات ، ها هو ديوان «أشعار القبطان» يحيا موقعا عليه بتوقيع القبطان الحقيقي .

نهاية المنفى

لقد اقترب منفاي من نهايته عام ١٩٥٢ . وصلنا عبر سويسرا الى «كان» Cannes كي نركب باخرة ايطالية تقلنا الى « مونتيبيديو » هذه المرة ما كنا نريد ان نرى احدا في فرنسا . ما اخبرت بمرورنا الا (أليس غاسكار) ، مترجمتي وصديقتي لزمن طويل . غير انه كانت تنتظرنا في «كان» حوادث غير متوقعة .

لقد التقيت في الشارع ، قرب شركة السفريات البحرية ، ب (بول الوار) وبزوجته (دومينيك) ، كانا قد علما بوصولي فانتظراني عند بـــاب الشركة كي يدعواني للغداء الذي سيحضره (بيكاسو) . من بعد التقينـــا بالرسام التشيلي (بيميسيو انتونيث) وزوجته (اينيس فيفيروا) اللذيـــن دُعيا كذلك .

كانت هذه هي المرة الاخيرة التي رأيت فيها (بول إلوار) . اني لأذكره وهو تحت اشعة شمس «كان» ببدلته الزرقاء التي تبدو وكأنها بيجاما . لن انسى ابدا وجهه الملوح المتورد ، عينيه الزرقاوين ، ابتسامته الفتية دائما تحت الضوء الافريقي في شوارع «كان» المتلألئة . لقد جاء (إلوار) مـــن « سينت ــ ترويث » كـــي يودعنـــي ، أحضر (بيكاســـو) واعدّ الغداء . كانت الحفلة مسلحة .

حادث غبي غير متوقع خرب، لي اليوم كله . لم يكن في جواز سفـــر (ماتيلده) تأشيرة دخول الى الاورغواي . فكان لا بد من اللجوء الى قنصلية هذا البلد . اصطحبتها في سيارة تكسي وانتظرت عند باب القنصلية . ابتسمت (ماتيلده) متفائلة حين خرج القنصل لاستقبالها . كان يبدو انه شاب طيب . كان يدندن بأنغام Madame Butterfly ويرتدي ما هوَ ليس بقنصلي : قميصا داخليا وسروالا قصيرا Short هـــي ما كانت لتنصور انه خلال مجرى الحديث سيتحـــول هـــذا ألنموذج El Tipo الى مزعج رخيص تافه حقير . لقد اراد بمظهره مظهـــر Pinkerton ان يقبض أجرة ساعات اضافية فوضع امامها انواع العراقيل كلها. فاحتفظ بنا في سباق (٢٤) طيلة الصباح كله . كان طعـــم Bouillabaise خلال الغداء مثل طعم المرارة في فمي . عدة ساعات كلف (ماتيلده) الحصول على التأشيرة . كان Pinkerton هذا يضعَ لها في كل لحظة قيـــودا وعراقيل : أن تتصور ، أن تغير الدولارات فهو لا يقبض الا فرنكات ، ان تدفع تكاليف المكالمة الهاتفية مع مدينة «بوردو» . ارتفعت التعريفة (٢٥) الى اكثر من مائة وعشرين دولارا ثمن تأشيرة عبور كان من المفروض ان تمنح

---

٢٤ ـ في سباق : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، الحبل على الغارب .

٢٥ ـ التعريفة : هكذا في الاصل la Tarifa . عن العربية

مجانا . لقد بلغ بي التفكير الى اني كنت أخشى ان تفقد (ماتيلده) الباخرة وفي هذه الحالة انا كذلك لن اركب الباخرة . لزمن طويل اعتبرت ذلك اليوم اكثر الايام مرارة في حياتي .

علم وصف المحيطات المختلفة

اني لعاشق البحر . منذ سنين عديدة وانا أجمع معارف لا تفيدني كثيرا لاني أبحر فوق الارض .

هاأنذا أعود الى تشيلي ، الى بلدي المحيطي وتقترب سفينتي من سواحل افريقيا . لقد عبرت أعمدة «هرقل» القديمة (٢٦) ، اليوم هي مدرعة هذه الاعمدة ، في خدمة الامبريالية قبل الاخيرة .

انظر الى البحر نظرة مجردة عن المنفعة ، نظرة عالم المحيطات النقي الطاهر الذي يعرف السطح والعمق ، بلا لذة ادبية ، بل بتذوق المكتشف، بمذاق العالم الدارس .

لقد أعجبتني دوما القصص البحرية وعندي شبكة منها في رفوف داري . اكثر كتاب اعود اليه للمراجعة هو كتاب لـ (وليم بيبب) (٢٧) او بحث يصف الحلازين البحرية في بحر الشمال .

ان ما يهمني هي مجموعة الاحياء البحرية ، هذا الماء الغذائي الهبائي الكهربائي الذي يصبغ البحار بلون برق بنفسجي . هكذا توصلت الى معرفة ان الحيتان تتغذى من هذا النماء البحري المتكاثر الذي لا حصر له . ان نباتات صغيرة جدا ونقاعيات وهمية تعمر قارتنا الراعشة الراجفة . الحيتان تفتح أشداقها الهائلة فيما تنزاح وتتزحزح ، رافعة السنتها حتى الحلق

---

٢٦ ـ اعمدة هرقل القديمة : هي اعمدة قرب مضيق جبل طارق الذي يحتله الامبرياليون البريطانيون .

٢٧ ـ وليم بيبب : هو عالم الطبيعة ، الامريكي الشمالي (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢) .

الاعلى كي تملأها هذه المياه الحية ذات الاحشاء وتغذيها . هكذا يغتـــذي الحوت الاخضر الزاهر Bahiametas Claucas الذي يمخر باتجاه جنـــوب المحيط الهادي نحو الجزر الساخنة الدافئة ، قبالة نوافذ داري فـــي «ايسلا نيغرا» .

من هناك يعبر كذلك الدرب سمك «البربيس» المهاجر ، او الحوت ذو الاسنان ، وهو اكثر الحيتان المطاردة «تشيلية» . لقد زخرف البحـــارة التشيليون عالم البحر الفولكلوري بهذا النوع من الحيتان . فقد نقشـــوا بالسكين في أسنانها قلوبا وسهاما ، انصاب حب صغيرة ، صورا طفولية لزوارقهـــم الشراعية ولخطيباتهم . لكن حوتنـــا الاخضر الزاهـــر الـــذي يمخر ، باتجاه الجنـــوب ، يعبر المضيـــق وراس « اورنوس » El Cabo de Hornos وبحر الشمال واوبئته ، ليس في بساطة كي يفرك حنك سمك «البربيس» المهدّد بل لكي يسلب منه كنزه الشحمي واكثر من هذا كي يخطف منه كيسه العنبري (٢٨) الرمادي الذي يخبئه هذا الحيوان الضخم في جبله الجوفي وما من حيوان غيره له مثل هذا الكيس الغنـــي .

هانذا آتي الآن من جهة أخرى . لقد خلفت ورائي آخر معبد أزرق في البحر الابيض المتوسط ، كهوف جزيرة «كابري» وضواحيها البحريـــة وتحت البحرية حيث كانت عرائس البحر يخرجن كي يسرحن شعرهـــن الازرق فوق الصخور ، لان حركة البحر كانت قد صبغت وضمخت ضفائر شعرهن المجنونة .

لقد استطعت ان أشاهد في مماهة «نابولي» الذرات الكهربائية للاجهزة العضوية الربيعية ، صعود وهبوط السملاة المصنوعة من دخـــان وفضة ، تهتز تتماوج في رقصها العذب الجليل ، مكتنفة من الداخل بالحـــزام الكهربائي الوحيد الذي ما وضعته حتى الآن اية سيدة من سيدات الاعماق البحرية الآ"ها .

---

٢٨ ـ منبر : هكذا في الاصل Ambar ■ عن العربية

منذ سنين كثيرة ، في «ماداس» بالهند المتجهمة لشبابي ، زرت مماهة رائعة . ما زلت حتى الآن اذكر تلك الاسماك الصقيلة البراقة ، الاسماك البنية السامّة ، مجموعات الاسماك المرتدية حرائق واقواس قزح ، واكثر من هذا وذاك ، الاخطبوطات الجدية الرزينة جدا ، المعدنيـــة كأنها آلات حاسبة ، بعيون لا حصر لها ، بأطراف وارجل لا عد لها ، برياح شديدة ، بمعارف كثيرة .

من ذاك الاخطبوط الكبير الذي عرفناه جميعا لاول مرة في كتاب «عمال البحر» لـ (فيكتور هوغو) (٢٩) ان (فيكتور هوغو هو كذلك أخطبوط الشعر الضخم المتعدد النغمات) ، من ذاك النوع ما استطعت ان ارى غير قطعة ذراع في متحف التاريخ الطبيعي بـ «كوبنهاغين» . هذا ، أجل ، كان «كراكين» القديم ، رعب البحار القديمة ، كان يمسك بشراع فيطويه طيا ويمزقه اربا يرفعه فوقه ، يخترقه ويشربكه . قطعة الذراع التي رايتها انا محفوظـــة بالكحول في المتحف كانت تشير الى ان طول ذاك الاخطبوط كان يتعـــدى ثلاثين مترا .

لكن الحيوان الذي كنت ابحث عنه في اصرار واستمرار هو اثر كركدن البحر او بالاحرى جسده . نظرا لان اصدقائي كانوا لا يعرفون هذا الكركدن البحري وحيد القرن الهائل في بحار الشمال ، صرت أشعر اني مخـــزن وحيد للكركدن ، اني انا نفسي كركدن بحري .

هل يوجد الكركدن ؟

هل من الممكن ان حيوانا بحريا مسالما يحمل في جبينه حربة من العاج بطول اربعة او خمسة امتار مخددة مثلومة على مدى طولها ، على نمط حربة النبي سليمان ، منتهية بثقب ، يمر دون ان ينتبه اليه ملايين البشر ، ولا أن يعرفوا حتى اسطورته ولا حتى اسمه الرائع ؟

عن اسمهُ استطيع القول ـ Narval او Narwhal (٣٠) انه ابدع

---

٢٩ ـ فيكتور هوغو Victor Hugo : الكاتب الفرنسي المعروف (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥).
٣٠ ـ كلمتان من اصل سويدي .

اسم من اسماء حيوانات أعماق البحار ، اسم كأس بحرية تتغنى ، اسم صيصة زجاجية .

لماذا اذن لا احد يعرف اسمه ؟

لماذا ليس هناك آل «نارفال» ، دار جميلة باسم «نارفال» وأكثر من هذا ، لماذا ما من احد يدعى «نارفال راميريث» او «نارفالا كارفاخال» ؟

ليس ثمة من هذا شيء . ان وحيد القرن البحري يظل في سره ، في تياراته ذات الظلال عابرة البحار ، في سيفه العاجي الطويل الغارق في لجة المحيط المجهول .

لقد كان صيد وحيدي القرن في العصر الوسيط رياضة صوفية وجمالية . لقد بقي وحيد القرن الارضي الى الابد باهرا ساحرا ، في السجاجيد ، تحيط به السيدات المرمريات الرخاميات ذوات الأبهة والشعر المسترسل وتكلله في جلالته الطيور المزغردة الصداحة كلها .

اما بالنسبة لوحيد القرن البحري فان السلاطين في العصور الوسيطة كانوا يتهادون قطعة من جسمه الرائع البديع ، من هذه القطعة كانوا يكشطون غبارا وفتاتا يحلونها في سوائل خاصة يشربونها فتمنحهم حلم الانسان الخالد الا وهو الصحة والشباب والقوة .

بينما كنت شاردا ذات مرة في الدانيمارك ، دخلت الى حانوت قديم يبيع تحف التاريخ الطبيعي ، هذه السلع المجهولة في قارتنا الامريكية والتي هي بالنسبة لي تحتوي على سحر الارض كله . هناك اكتشفت وهي مهملة في زوايا الحانوت ، ثلاثة او اربعة قرون من الكركدن البحري ، اكبر هذه القرون كان يقيس تقريبا خمسة أمتار . فتناولتها وبقيت المسها وأداعبها خلال فترة من الوقت .

كان صاحب الحانوت العجوز يراني وأنا اشهر هذه الحربة العاجية وأقوم بطعنات وهمية ، ضد طواحين البحر غير المرئية . من بعد كنت اتركها، كل واحد أضعه في زاويته . ما استطعت ان اشتري الا قرنا صغيرا

لكركدن حديث الولادة من هذه التي تخرج احيانا لتسبر سطح الميـــاه الشمالية الجليدية بمقدمة فرنها البريء .

وضعته في حقيبتي ، لكن في نزل صغير بسويسرا ، امام بحــيرة «ليمان» احتجت ان أرى ذلك الكنز السحري لوحيد القرن البحري وان المسه فأخرجته من حقيبتي .

الآن لا أجده .

هل تركته في نزل «فيسيناث» او انه تدحرج في آخر لحظة تحت السرير ؟ ام انه عاد في شكل سحري لبلي الى الدائرة القطبية ؟

هاأنذا انظر الى الامواج الصغيرة ليوم جديد في المحيط الاطلسي .

تدع الباخرة على كل ضلع من قيدومها مزقا بيضاء ، زرقاء ، كبريتية من مياه ، من ازباد ، من مهاو مهتزة .

انها أبواب المحيط ترتجف ، تضطرب .

من فوق القيدوم تطير الاسماك الصغيرة الصاروخية الفضية الشفافة.

هاأنذا أعود من منفاي .

أنظر الى المياه مستغرقا متأملا . ابحر فوقها نحو مياه اخرى : امواج وطني المعصوصفة .

سماء يوم طويل تغطي المحيط كله .

سيحل الليل عما قريب ومع ظله ساخبيء مرة اخرى قصر اللغــز الاخضر الكبير .

الفصل العاشر

إبحار مع إياب

خروف في داري

لقد جاء قريب لي كان نائبا في البرلمان ليقضي بضعة ايام في داري ب «ايسلا نيجرا» بعد ا نفاز في انتخابات برلمانية جديدة . هكذا تبــدأ حكاية الخروف .

فما ان درى بذلك اكثر منتخبيه حماسة حتى خفوا للاحتفال بــه وتكريمه . في أمسية اول يوم من ايام هذه الاحتفالات اتوا بخروف وشووه على طريقة ارياف تشيلي ، بصلاء في الهواء الطلق وسفود يسلك في جوف هذا الحيوان من أوله الى آخره ، ولهذا فان هذه الطريقة من الشيّ تدعى «الشيّ على السفّود» ، ويشربون عادة فيما هم يسلخون منــه فيأكلون كثيرا من النبيذ ويعزفون على القيثارة النواحة الصداحة .

وكان لديهم خروف آخر ينتظر مصير اخيه ، ابقوه الى امسية اليوم التالي ، فقيدوه قرب نافذتي . طيلة الليل كان يئن ويبكي ، يثغو ويشكو من وحدته . كان يمزق قلبي سماع صيحاته وانّاته فقررت ان انهض وان أخطفه واسرقه .

وضعته في سيارة وأخذته معي الى داري في «سانتياغو» التي تبعد عن «ايسلا نيفرا» مائة وخمسين كيلومترا ، فهناك لن تطاله السكاكين . ما أن اطلقت سراحه حتى راح يقضم في نهم شديد أفضل اعشاب حديقة داري . استهوته زهور الخزامى فحصدها ولم يبق منها شيئا حيا . لم يجرؤ على تذوق الورود لاسباب شوكية لكنه انقض على زهور الخيري (١) والزنابق فالتهمها في لذة غريبة . لم يكن بد من ان اربطه مرة اخرى واقيده ، فجعل يثغو محاولا ان يؤثر بي ويثير شجوني كيما أرقّ له كما فعلت من قبل فبقيت حائرا لا أدري ما أفعل .

الآن سوف ترتبط قصة (خوانيتو) بحكاية الخروف . حصل انه في ذلك الوقت قام الفلاحون في جنوب تشيلي باضراب عنيف استطاع الاقطاعيون الذين ما كانوا يدفعون اكثر من عشرين «سنتيما» في اليوم لكل فلاح يعمل عندهم ، أن ينهوه بواسطة القمع والضرب والحبس والاضطهاد.

شعر شاب فلاح شارك في الاضراب بخوف شديد جعله يقفز الى قطار كان يسير مسرعا . هذا الفتى الشاب يدعى (خوانيتو) ، وكان كاثوليكيا مؤمنا وما كان يعرف عن امور العالم شيئا . حين مر جابي القطار ليفتش تذاكر السفر ووصل اليه اجابه الفتى بأنه ليس لديه اية تذكرة وانه متجه الى العاصمة وانه كان يظن ان القطارات هي كي يركب فيها من شاء السفر من الناس ، مجانا . حاول الجابي انزال الفتى من القطار لكن المسافرين بالدرجة الثالثة ـ اناس من الشعب ، كرماء دائما ـ قاموا فيما بينهم بحملة جمع للنقود ودفعوا ثمن تذكرة الفتى .

---

١ ـ الخيري : هكذا في الاصل Aleli وتكتب كذلك Alheli ، وهذه الكلمة يستعملها (فيديريكو غارثيا لوركا) كثيرا ، وقد أعددنا كتابا عن الموضوع العربي والكلمات العربية عند (لوركا) .

مشى (خوانيتو) عبر شوارع العاصمة وساحاتها وتحت ابطه حزمة من الملابس اتى بها من قريته . بما انه لم يكن يعرف احدا من سكان العاصمة، فهو لم يشا ان يكلم من الناس احدا . فقد كان يسمع وهو في قريته ان سكان العاصمة هم لصوص في اكثريتهم فكان يخشى ان ينزعوا عنه قميصه وأن يخطفوا منه نعليه المصنوعين من القنّب واللذين كان يحملهما تحت ابطه وقد لفهما بجريدة عثر عليها في ناصية احد الشوارع . كان الفتى يشرد خلال النهار في الشوارع الاليفة المكتظة بالناس الذين هم على عجل، يسيرون دوما يتعرقلون به او يدفعونه فلا يدري اين يسير ، ويستغربون لهـــذا Caspar Hauser (٢) الذي هوى من كوكب آخر . اما في الليل فانه كان يبحث ايضا عن اكثر الاحياء احياء ، شوارع الحانات والكهوف الليلية ، فكان حضوره هناك يبعث على الاستغراب والاستهجان . فمن هو هذا الراعي الشاحب الوجه التائه بين السكارى والآثمين . لم يكن له سنتيم واحـــد يشتري به ما يسد رمقه ، صبّر وكابد الى ان هوى ذات يوم فاقد الوعي من جوع ومن حسرة .

احاط بالفتى الملقى على رصيف الشارع حشد كبير من محبي الاستطلاع ثم حملوه وادخلوه الى مطعم صغير قريب من هناك وتركوه كما كان مطروحا ملقيا . «انه القلب» قال بعضهم ، «بل هو اغماء كبدي» قال آخر ، اقترب صاحب المطعم منه ونظر اليه فقال : «انه الجوع» . ما ان اكل بضعة لقمات حتى استعادت تلك الجثة انفاسها واستردت الحياة . استخدمه صاحب المطعم عنده في غسل الصحون والاواني وكان يودّه ويحبه . وكان لهذا الود اسباب اذ ان الفتى كان يبتسم دائما وهو يغسل جبالا من الاطباق والملاعق. كانْ يشعر ان الامور تجري على ما يرام فهو الآن ياكل اكثر مما كان وهو في قريته .

لقد شاءت الصدف ان يجتمع في داري الراعي والخروف معا .

طاب للراعي ذات يوم ان يتعرف على المدينة فقادته خطاه الى ما هو

---

٢ ــ غاسبر هاوسير : هو امير «بادن» Baden الذي سجن منذ ان ولد حتى عام ١٨٢٨ (١٨١٢ ــ ١٨٣٣) .

ابعد من جبال الصحون والاواني تلك فاجتاز في لهفة شارعا ثم عبر في شوق ساحة فشارعا فساحة وكان كل ما يراه يفننه ويخلب لبه ، وحين اراد العودة الى مطعمه لم يعد يعرف من اين يتجه ، لم يكن قد سجل عنوانه لانه لا يعرف الكتابة فبحث عبثا عن ذاكالباب الذي حضنه وأكرمه وأطعمه فما استطاع ان يجد اليه سبيلا .

قال له احد المارة وقد رق لحاله وحزن لحيرته ان عليه ان يتوجه الى الشاعر (بابلو نيرودا) . لست ادري لماذا اوحى اليه بهذه الفكرة . قد يكون لأن الناس في تشيلي عندهم ميل غريب بأن يكلفوني بكل ما يخطر على بالهم من افكار وكذلك ان يحملوني مسؤولية كل ما يقع من مصائب . انها لعادة قومية عجيبة .

وصل ذات يوم الفتى والحيوان الاسير في داري . لم يكن صعبا عليّ ان اقوم بخطوة اخرى فاتكفل بهذا الراعي بعد ان تحملت مسقة التكفل بالخروف غير الضروري . كلفت الفتى بعمل الا وهو الاعتناء بالحيوان المجترّ كي لا يقضم ازهاري كلها، بل ان يرعى من حين الى حين لينسبع نهمه كلأ الحديقة ويدع لي فيها شيئا من الزهور والورود .

لقد **تفاهم** الراعي والخروف تفاهما كاملا، فوضع الفتى لخروفه منذ اليوم الاول للامان والضمان حبيلا في عنقه كان يقوده به من مكان الى آخر. كان الخروف يأكل بلا هوادة والراعي لا يقصر هو الآخر في هذا التشأن ، وكلاهما يسرح عبر الدار كلها حتى في غرف النوم . لقد كان بينهما تكامل تام توصلا اليه بواسطة رحم الأم الارض وحبل سرّتها الذي يؤاخهيما وهو ما يخول الانسان ان يكون له سلطة اصيلة حقيقية على الحيوان . هكذا انقضت شهور كثيرة . كلاهما اثرى كنوزه اللحمية ، بخاصة ، المجترّ الذي لم يكن ليفدر ان يرعى كثيرا ، متنقلا من مكان الى آخر ، بسبب ما كان له من الإلية وما اصبح له من السمنة . كان يلج احيانا في رصانة الى غرفتي، ينظر اليّ في غير اكتراث ثم يخرج بعد ان يترك لي على الارض مسبحة صغيرة من خرز داكن اللون غامق .

انتهى كل شيء حين شعر الفتى الفلاح بحنين الى قريته فقال لي انه سيعود الى اراضيه النائية . كان قراره هذا قد اتخذه في آخر لحظة لان

عليه ان يفي بنذر الى مريم العذراء بقرينه . ما كان يستطيع ان ياخذ اخاه الخروف معه فتودعا في حنان . ركب الفتى الراعي القطار ، ولكن هذه المرة بتذكرة كان يحملها في يده متباهيا . لقد كان ذاك انرحيل متــــيرا للشجون وللدموع .

لم يدع في حديقتي خروفا بل مشكلة خطيرة او بالاحرى سمينة . ما العمل مع هذا المجنز؟ من سيعتني به الآن ؟. لقد كانت لي مشاغل سياسية كثيرة . كانت داري مخبلة اثر الملاحقات التي جلبها لــي شعري المكافح . اخذ الخروف من جديد يثغو ويرسل أناته الشاكية الاليمة .

اغمضت عيني وقلت لأختي ان تأخذه . آه واواه هــــذه المره كنت متأكدا من انه لن ينجو من السفود .

من آب عام ١٩٥٢ الى نيسان عام ١٩٥٧

ان الاعوام التي انفضت بين آب عام ١٩٥٢ ونيسان عام ١٩٥٧ لــن نرسم بشكل مفصل في مذكراتي لاني قضيت معظم هذا الوقت فيتشيلي، ولم تقع لي اشياء غريبة ولم أقم بمغامرات يمكن لها ، ان رويتها ، أن تسلي قرائي . غير اني اجد انه من الضروري سرد بعض الاحداث الهامة التـــي جرت في هذه الفترة المذكورة . لقد نشرت كتابــــي «الاعناب والريح» . اشتغلت في همة واصرار على تهيئة «أناشيد بدائية» و«أناشيد بدائيـــة جديدة» و«كتاب الاناشيد الثالث» . نظمت مؤتمرا قاريا للثقافة انعقد في «سانتياغو» وحضره أدباء وكتاب مشهورون جاءوا من امريكا كلها . احتفلت كذلك في «سانتياغو» بعيد ميلادي الخمسين بحضور كتاب مهمين قدموا مـــن العالم جميعــــه : من الصين جاء (اي شينـــغ) و (ايمــــي سياو) ، من الاتحاد السوفييتي طار قادما اليه (ايليا ايهرينبورغ) ، ومــن تشيكوسلوفاكيــا (دريــدا) و (كوتفاليـــك) ، مـــن بين الامريكيين اللاتينيين جـــاء (ميغيل انخيل استورياس) و (اوليبيريو خيروندو) و(نوراه لانجه) و(البيو روميرو) و(ماريا روسا اوليبــــر) و(راوول لارا) . وآخرون كثيرون . اهديت الى مكتبة تشيلي مكتبتي الخاصة ومنافـــع اخرى . قمت برحلة الى الاتحاد السوفييتي لاشارك بصفتي عضوا فـــي

اللجنة المحلفة التي تمنح جائزة لينين للسلام ، التي انا نفسي كنت قـــد حصلت عليها في هذه الفترة حين كانت لما تزل تسمى جائـــزة ستالين . انفصلت نهائيا عن زوجتي (ديليا ديل كاريل) . بنيت دارا سميتهـــــا «لا تشاسكونا» انتقلت اليها كي أعيش و(ماتيلده اوروتيا) فيها . اسست مجلة «صحيفة تشيلي» واخرجت منها بضعة أعداد . ساهمت في الحملات الانتخابية وفي نشاطات اخرى قام بها الحزب الشيوعي بتشيلي . نشرت دار النشر «لوسادا» ، في بونوس ايريس ، اعمالي الكاملة في ورق كورق الكتاب المقدس .

سجين في «بونوس ايريس»

بعد انتهاء هذه الفترة من الزمن دعيت لحضور مؤتمر السلام الذي كان سيعقد في «كولومبو» بجزيرة سيلان ، التي عشت فيها منذ زمن بعيد . كان ذلك في نيسان ١٩٥٧ .

ليس الالتقاء بالشرطة السرية امرا خطيرا ، لكن اذا كانت هذه الشرطة هي البوليس الارجنتيني السري فان اللقاء يأخذ طابعا آخر ، طابعا لا يخلو من الدعابة ولكنه ذو نتائج مباغتة غير متوقعة . بعد ان وصلت من تشيلي الى الارجنتين وفي نيتي مواصلة السفر الى الاقطار النائية القصية ، ذهبت الى السرير وأنا مرهق جدا وما ان اخذ النوم يسري في أعصابي التعبة حتى اقتحم رجال الشرطة الدار حيث كنت انام واخذوا يفتشونها تفتيشا دقيقا بطيئا ، نزعوا الكتب والمجلات ، خلعوا خزائن الملابس ، حشروا انفسهم في الملابس الداخلية . كانوا قد اخذوا الصديق الارجنتيني الذي اضافني في بيته ، عندما اكتشفوني في الغرفة التي كنت انام فيها وهي غرفة خافية في عمق الدار .

ـ من هذا السيد ؟ سألوا .

ـ اسمي (بابلو نيرودا) ـ اجبت .

ـ أهو مريض ؟ ـ استقصوا زوجتي .

ـ أجل ، انه لمريض وتعب جدا من السفر ، لقد وصلنا صبيحة هذا اليوم وسنأخذ غدا طائرة تقلنا الى اوروبا .

ـ حسنا جدا ، حسنا جدا ـ قالوا ثم خرجوا من الغرفة .

بعد ساعة من الزمن عادوا من جديد ومعهم سيارة اسعاف . احتججت (ماتيلده) لكن هذا لم يغير شيئا من الامور . فقد كانت لديهم تعليمـــات مشددة بان يأخذوا جسدي ، تعبا او طازجا ، سليما او مريضا ، حيا او ميتـا .

كانت السماء تمطر تلك الليلة ، قطرات سميكة عنيفة كانت تتلقط من سماء «بونوس ايريس» المثقلة بالغيوم الكثيفة . كنت اشعر اني في بلبله وتشويش وفي هذيان وتخدير . كان الجنرال بيرون قد سقط من الحكم والجنرال («ارامبورو) (٣) باسم الديموقراطية أطاح بالاستبداد والطغيان . غير اني غدوت سجينا دون ان ادري كيف ولِم ومتى والى اين ، دون ان اعرف اذا كان السبب لهذا او لذاك او لذلك ، ألغير سبب ام للاسبـــاب جميعها ، وأنا مريض هالك او شبه هالك . لقد اصبح سريـــــر سيارة الاسعاف الذي انزلوني به وأنا محاط بأربعة من رجال الشرطة متكلـــة عويصة اثناء نزول الدرج ، صعود الدرج ، العبور بين الممرات ، الصعود بالمصاعد ، الهبوط بالمهابط . كان رجال النقالة يتزحلقون ويعانون كثيرا ولكي تزيد (ماتيلده) من معاناتهم فانها قالت لهم بأني ازن مائة كيلوغرام . وفي الحقيقة كنت ازن هذا الوزن بالمعطف والبطانيات التي كانت تغطيني من اخمص قدمي حتى راسي . لقد كنت التمع مثل جرم ، مثل بركـــان «اوسورنو». فوق تلك المحفة التي خصتني بها الديموقراطية الارجنتينية. كنت أفكر ، وهذا كان يخفف عني اوجاع التهاب الوريد ، ان من كان يحمل النقالة ليس هم أولئك الفقراء المساكين الذين كانوا يجهدون ويتصببـــون عرقا تحت ثقلي ووزني ، بل هو الجنرال (ارامبورو) بذاته .

فاستقبلت من لدن الروتين الحبسي والتصنيف السجني والتفتيش

---

٣ ـ ارامبورو Pedro Eugenio : عسكري وسياسي ارجنتيني (١٩٠٥ ـ ١٩٧٠) .

المعتقلي فاستولوا على حاجاتي الشخصية جميعها ، ولم يدعوني احتفظ بالرواية البوليسية التبيعة التي كنت احملها معي لاقراها فلا أمل داخل هذا السجن الرهيب . لكن الحقيقة هي انه ما كان لدي وقت للملل . كانت تفتح الطاقات الحديدية ثم تغلق . كانت الحمالة تعبر الدهاليز والبوابات الحديدية ، تحفها اكثر فاكثر عمقا وشدة انغام الاقفال وأزيز الاغــــلاق الفولاذية . فجاه وجدتني وسط حشد كبير من السجناء الذين اتــــي بهم الى السجن هذه الليلة نفسها ، كان عددهم يربو على الالفين . لـــم استطع الاتصال بأحد منهم وما كان يقدر منهم احد على الاقتراب مني . لكن ما نفصتني اليد التي كانت تتسلل من تحت البطانيات كي تصافحني، ولا الجندي الذي يترك بندقيه جانبا كي أوقع له على ورقة يخفيها في جيب سروالــه .

من بعد وضعوني فوق ، في زنزانة بعيدة جدا لها طاقة عالية جدا . كنت أرغب ان استريح أن أنام ، أن أنام أن أنام . لم استطـــع ذلك لان الفجر قد بزغ والسجناء الارجنتينيون شرعوا بالقيام بضجيج يصم الآذان وبجلبة مدوية صخابة كما لو انهم كانوا يشاهدون مباراة بين «ريفـــير» River و«بوكا» Boca .

بعد بضع ساعات تحرك تضامن الكتاب والاصدقـــاء في الارجنتين وتشيلي وفي بلدان اخرى عديدة ، مما اضطرهم الى اخلاء سبيلي مـــن الزنزانة فأخذوني الى المستوصف واعادوا لي هناك حوائجي الشخصية التي كانوا سلبوها مني واعتقوني . كنت على وشك مغادرة السجن حين اقترب مني احد حراسي ووضع في يدي ورقة ، كان عليها قصيدة مكتوبة يهديها الي ، ابيات بدائية مليئة بالاخطاء ومفعمة بالبراءة الشعبية . اعتقد ان شعراء قلائل في العالم اهدي اليهم ما أهدي الي وتلقوا تكريما شعريا من قبل الشخص الذي كانت مهمته هي الحراسة القاسية الشديدة كما تلقيت من حارسي الشاعر .

شعر وشرطة

ذات يوم قالت لنا الخادمة : «ايتها السيدة ، يا سيد (بابلو) ، انـــا

حامل» . ثم وضعت طفلا . ابدا ما استطعنا ان نعرف منها من هو والد هذا الطفل . بالنسبة للخادمة ما كان يهمها والده في شيء وكل ما كان يهمها هو ان نقبل ، انا و(مانيلده) ، أن نكون عر"ابين لهذا الوليد . لكن هذا لم يكن ممكنا . ما استطعنا ذلك . ان اقرب كنيسة الينا هي في «ال تابو» El Tabo ، وهي ضيعة صغيرة سعيده نقف فيها عاده لنضع للسيارة بنزينا . تفنفذ القس كالمنفذ قائلا : «أفعر"اب شيوعي لا ، ابدا ، (نيرودا) لن يدخل هذا الباب ولو حمل في ذراعيه ابنك الصغير» . عادت الفتاة الى مكنستها واشغالها في الدار ، مطاطئة الراس ، غير قادرة على فهم السبب الذي ادى بهذا القس الى الرفض .

في وقت آخر رايت السيد (استيريو) وهو يعاني ويتالم . كان هذا السيد مصلح ساعات قديم وهو أحسن ضابط للساعات في «بالبارائيسو» كلها ، كان يصلح ساعات البحرية العسكرية في اتقان ودقة . كانت زوجته تنازع ، رفيقة عمره التي صاحبته خمسين سنة في هـــذه الحياة كانت تموت فتألمت له ولها ، وقلت : يجب علي" ان اكتب شيئا عنهـــا ، شيئا يواسيها قليلا في محنتها الكبيره ، شيئا يقرأه لزوجته المحتضرة لعلهـــا تسترد بعض انفاسها . هكذا فكرت . لست أدري ان كنت على صواب في ذلك ام لم اكن ، فكتبت القصيدة وعبرت فيها عن اعجابي وعاطفتي نحـــو الفنان وفنه ، ووصفت فيها حياته النقية بين «تيك تاك» الساعات العتيقة. اخذت هذه القصيدة (سارتنا فيال) لنشرها في الصحيفة ، كانت هـــذه الصحيفة تسمى «لا اونيون» (٤) la union يديرها رجل يدعـــى (باسكال) . السيد (باسكال) هذا هو كاهن . لم يتأ نشر القصيدة . لن ننشر هذه القصيدة مطلقا فمؤلفها(نيرودا) هو شيوعى مطرود من الكنيسة. لم يشأ . ماتت السيدة ، رفيقة السيد (استيريو) القديمة والكاهن أصر فلم تنشر القصيدة .

اني أريد ان احيا في عالم بلا محرومين ولا مطرودين . لن احرم احدا. لن اقول غدا لهذا الكاهن : «لن تستطيع تعميد احد لأنك ضد الشيوعية». اني لأرغب ان اعيش في عالم نكون فيه البشر بشرا ، دون اية القاب ولا

---

٤ ـ لا اونيون : معناها ، **الاتحاد** .

نعوت الا كون المرء انسانا ، من غير ان يلصق في راسه شيء : لا اعلانا ولا قاعدة ولا كلمة . اريد ان يكون في مكنة من يشاء ، الدخول الى الكنائس كلها ، الى المطابع جميعها . اريد الا ينتظروا احدا عند بوابة دار البلدية كي يعتقلوه او يطردوه بعد اليوم . اريد ان يدخل الجميع الى دار البلدية او يخرجوا منها مبتسمين فرحين . لا اريد لأحد ان يهرب في جندول . لا أريد لأحد ان يطارَد بدراجات نارية . اريد للاغلبية القصوى ، للاغلبيـــة الوحيدة ، للناس كلهم ان يستطيعوا الكلام ، القراءة، الاستماع، الازدهار. لم افهم ابدا الصراع الا على انه الصراع في سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط الشدة الا كي تنتهي الشدة الى الابد . لقد اتخذت لي طريقا لانني اعتقد ان هذه الطريق ستؤدي بنا جميعا الى هذه المحبة الدائمة . انـــي أناضل في سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامنتهية . من بين هـــذه اللقاءات بين الشعر والشرطة ، من بين هذه الحوادث العرضية التي جرت لي وحوادث أخرى لن أرويها تجنبا للتكرار وحوادث ما جرت لي ولكـــن لآخرين ما استطاعوا ان يرووها لنا ، خرجت وأنا أؤمن ايمانا مطلقا بالمصير الانساني ، وعندي القناعة التامة بأننا نقترب من عهد الحنان الكبير العظيم. اني لأكتب وأنا ادري ان فوق رؤوسنا جميعا يحوم خطر القنبلة الدريـــة الساحقة الماحقة التي لن تبقي ولن تذر في الارض شيئا ولا احدا . ولكن هذا لن يبدل من املي ورجائي . اننا لنعرف انه في هذه اللحظة الحرجة . في هذا الخفق والرعشة من الاحتضار ، لا بد ان يدخل النور الى العيون الساهمة . سنتفاهم جميعا . سنتقدم معا . وهذا الامل هو قطعي اكيد.

«سيلان» القاها من جديد

لقد أعادتني من جديد الى «كولومبو» قضية دولية الا وهي الصراع ضد الموت الذري . عبرنا الاتحاد السوفييتي باتجـــاه الهند على متـــن طائرة Tu 104 كانت هذه الطائرة النفاثة الرائعة قد انطلقت كي تقل وفدنا الكبير . ما توقفنا الا في «طاشقند» قرب «سمرقند» على مرحلتين طارت بنا كي تضعنا في قلب الهند . كنا نطير على ارتفاع ١٠٫٠٠٠ مترا . كي نستطيع ان نجتاز جبال «هملايا» فان هذا الطير الهائل حلّق على ارتفاع ١٥٫٠٠٠ مترا . من الاعلى كنا نلمح منظرا طبيعيا خلابا كان يبدو وكأنه لا يتحرك مع تحرك طائرتنا السريعة . ها هي الحواجز الاولى تبدو من تحتنا،

تظهر منحدرات سلسلة جبال «الهملايا» الزرقاء والبيضاء . هناك لا بد انه يمشي انسان الثلوج المهيب في وحدته الرهيبة . من بعد ، على يسارنا ، تتميز هضبة جبل «ايفيريست» بين اكاليل الثلوج وتيجانهـــا . الشمس تشرق فوق ذاك المنظر الغريب ، نورها يحز ويجز جوانب الصخـــور المسننة ، قدرة السكون الثلجي المسيطرة السائدة .

اتذكر جبال «الانديس» الامريكية التي اجتزتها عدة مرات . هنا لا تسود تلك الفوضى ، ذاك الغضب الهائل ، تلك الصحراء الوبائية الموجودة في سلسلة جبالنا . تبدو لي هذه الجبال الآسيوية اكثر كلاسيكية ، اكثر تنظيما ، اكثر اتساعا وامتدادا . قممها الثلجية تنقش أديرة ، تحفر معابد هندية او صينية في المدى الفسيح اللانهائي . ان وحدتها لهي اكثر عرضا واتساعا . ظلالها لا ترتفع اسوارا من حجارة رهيبة بل تمتد حدائق غريبة عجيبة زرقاء في دير كبير هائل .

اقول لنفسي بانني الآن استنشق انقى هواء في العالم وانني انظر الى اعلى مرتفعات الارض من اعلى مرتفع . انه لاحساس فريد تمتزج فيـــه السرعة والثلوج والوضوح والافتخار .

نطير نحو سيلان . الآن قد هبطنا الى ارتفاع قليل ، فوق اراضي الهند الساخنة الحارة . لقد تركنا الطائرة السوفييتية في دلهي الجديدة كي ناخذ طائرة هندية ، اجنحتها تئز وتهتز بين سحب سوداء عنيفة . افكاري وسط التأرجح هي الآن في الجزيرة المزدهرة التي كنت اعيش فيها وليس لي من العمر الا اثنان وعشرون عاما . لقد عشت في سيلان وجودا متوحدا منعزلا ، وكتبت هناك اكثر اشعاري مرارة وانا محاط بطبيعـــة الفردوس المتنوعة الخلابة .

اعود بعد انقضاء زمن طويل على تلك الايام ، ايام صباي وشبابي ، الى هذا الاجتماع المؤثر من اجل السلام ، الذي دعت اليه حكومة سيلان . لقد لاحظت وجود المئات من الرهبان البوذيين جماعات جماعات ، ببرودهم ذات اللون الزعفراني ، وهم غارقون بالتأمل الذي يميز تلامذة (بوذا) وأتباعه. حين يناضل هؤلاء الكهنة ضد الحرب والدمار والموت فانهم بهذا يؤكدون

من جديد مبادىء السلام ومشاعر الوئام التي دعا اليها قديما الامير (سيدرائا غاوتاما) المدعو كذلك (بوذا). كم هي بعيدة ـ افكر ـ عن الاضطلاع بهذه المهمة وسلوك هذا النهج ، الكنيسة في اقطارنا الامريكية ، انها كنيسة من نوع اسباني ، رسمية وداعية الى الحرب ، كم هو منعش ومشجع ان يرى المسيحيون الحقيقيون كهنتهم الكاتوليك وهم من على منابرهم يحاربون أفدح الجرائم واكثرها خطورة واشدها ارهابا الا وهي جريمة الموت الذري الذي يغتال ملايين من الابرياء ويترك الى الابد لطخانه البيولوجية في سلالات الانسانية وذرياتها .

لقد مضيت متخبطا عبر الأزقة باحثا عن الدار التي كنت اعيش فيها بضاحية «فيلا وانا» . فجهدت كثيرا حتى عثرت عليها . كانت الاشجار قد نمت ووجه الشارع قد تغير .

كانت الغرفة القديمة حيث كتبت أشعاري الاليمة ستهدم نظرا لان جدرانها كانت متآكلة متداعية فقد آذت رطوبة المدار هذه الحيطان التي كانت تنتظرني واقفة كي تودعني في هذه اللحظة الاخيرة من حياتها .

ما التقيت باحد من اصدقائي القدامى . غير ان الجزيرة عادت لترن في قلبي بلحنها القاطع لأوتار القلب ، بوميضها المديد . البحر ما زال يغني غناءه القديم نفسه تحت سعف النخيل ، ضد ارصفة الميناء . عدت لأجول عبر طريق الغابة ، عدت لأرى الفيلة ذات الخطو الجليل وهي تملأ الدروب، عدت لاشعر بعبق العطور الفواحة ، بوشوشة النمو وحفيف الحياة في الغابة . لقد وصلت الى صخرة « سيخيريا » حيث شاد هناك ملك مجنون حصنا له . لقد بجلت كما أكرمت من قبل ، تماثيل بوذا الهائلة العديدة التي يمضي الرجال تحت ظلالها وكأنهم حشرات صغيرة .

ابتعدت من جديد وانا متأكد اني بعد هذه المرة لن اعود ابدا الى هذه الجزيرة .

زيارة ثانية للصين

لقد طرنا من «كولومبو» بعد انتهاء مؤتمر السلام هذا عبر اجواء الهند،

وكـــان معنا (خورخـــه امادو) (٥) وزوجتـــه (ثيليـــا) . ان الطائرات الهندية كانت تقلع دوما وهي غاصة بمسافرين معممين ومليئة بالاقفاط والسلل ومزدحمة بالاشكال والالوان . كان يبدو مستحيلا حشر هذا العدد الكثير من الناس في مثل هذه الطائرة التي أقلتنا . حشد ينزل في اول مطار وحشد يصعد . كان علينا ان نواصل السفر الى ما هو أبعد من «مدراس» الى «كلكوتا» . كانت الطائـرة تتمايل تحت العواصـف الاسنوائية . كان النهار الليلي الذي هو اكثر ظلمة من الليل يطوينا فجاة ثم يهجرنا تاركا مكانه لسماء باهرة ساطعة . ثم تعود الطائرة تتمايل وترتعد وترتجف ، على حين غرة تنفجر الصواعق والبروق فتضيء السماء وتجلو العتمة لماما . كنت انظر الى وجه (خورخه امادو) وهو يمر من اللون الابيض الى الاصفر ومن الاصفر الى الاخضر وكان هو يرى في وجهي تحول الالوان ذاته الناتج عن الخوف الذي كان يخنق أنفاسنا ويبدل الواننا. بدات الطائرة بالامطار ، كانت المياه تتسرب ، تترشح من ثقوب في سقفها كثقوب السماء، تتساقط قطرات ثخينة تذكرني ببيتي في «تيموكو» اثناء فصل الشتاء ، لكن هذه القطرات لم تكن تستهويني على ارتفاع ١٠،٠٠٠ مترا . لكن ما كان يستهويني هو ان راهبا كان يجلس خلفنا فتح مظلة احتمى تحتها من المطر واخذ يقرأ في جدية شرقية نصوص كتابه المحتوي على كنوز المعرفة القديمة.

لقد وصلنا بلا حوادث الى «رانغون» في «بيرمانيا» . لقد اكتملت في هذه الايام ثلاثون سنة على مقامي في الارض ، على اقامتي في «بيرمانيا» حيث كتبت هناك اشعاري الاليمة وأنا اذاك غير معروف البتة . في عام ١٩٢٧ حين كان لي من العمر ٢٣ سنة نزلت في «رانغون» هذه نفسها . لقد كانت «برمانيا» حينذاك ارضا تهذي من الحر ، ارضا لا تنفذ اليهـا اللغات ، ارضا ساخنة ساحرة . لقد كان المستعمرون الانجليز يستغلونها استغلالا بشعا ويخنقون أنفاسها ، غير ان العاصمة كانت نظيفة ومضيئة ، كانت الشوارع تلتمع بالحياة وواجهات المحلات كانت تتباهى بمغرياتهـا الاستعمارية .

اما الآن فهذه المدينة تبدو نصف فارغة ، واجهات المحلات غير مزودة

---

٥ ـ خورخه أمادو : روائي برازيلي ولد عام ١٩١٢ .

بأي شيء مما يغري ويجذب الانظار، الشوارع فيها مليئة بالاوساخ والاقذار المتراكمة . ان صراع الشعوب من اجل استقلالها ليس بالامر السهل لا بد، بعد قعقعة السلاح وتفجر الارواح وانتصاب الرايات وتحقيق التحرير ، من أن تشق هذه الشعوب طريقها عبر العواصف والمصاعب . انا لا اعرف حتى الآن تاريخ «بيرمانيا» المستقلة الحبيسة قرب نهرها القدير، نهر «ايرّاودهي» وفي سفوح معابدها الذهبية ، لكنني استطيع ان الح – ابعد من القمامة في الشارع ومن الحزن المتموج – المآسي كلها التي تهز الجمهوريات الجديدة . انه كما لو كان الماضي ما يزال يستمر في اضطهاد هذه الجمهوريات الفتية .

لم اجد اي ظل لـ (خوسيه بليس) ، بطلة قصيدتي «تانغو الارمل» . لا احد استطاع ان يدلني شيئا عنها ، عن حياتها او موتها . حتى الحي الذي كنا نعيش فيه معا لم يعد له من وجود .

لقد طرنا الآن من «بيرمانيا» عابرين سلاسل الجبال التي تفصلها عن الصين . انه لمنظر متجهم عابس ، ذو سكون رعوي . لقد حلقت الطائرة من «ماندالاي» فوق حقول الارز ، فوق المعابد المفرطة في الزخرفة ؛ فوق ملايين من اشجار النخيل ، فوق الحرب الاخوية بين البيرمانيين وتغلغلت في الهدوء الصارم المحاذي لمناظر الصين الطبيعية .

كان ينتظرنا في «كون مينغ» وهي اول مدينة صينية بعد الحدود ، صديقي القديم ، الشاعر (اي تشينغ) . لقد كانت تقاسيم وجهه العريض الاسمر ونظرات عينيه الكبيرتين المليئتين بالطيبة والشيطنة المتيقظة، مرة اخرى ، تقدمة فرح لسفر طويل ان (اي تشينغ) و(هو تشي مينغ) كانا شاعرين من جفن الكرمة الشرقية القديمة ، متشكلين بين القساوة الاستعمارية في الشرق ووجود صعب في باريس . ان هذين الشاعرين ذوي الصوت العذب الطبيعي ، وقد خرجا من السجون ، تحولا خارج بلدهما الى طالبين فقيرين بعملان في المطاعم . لقد حافظا على ثقتهما بالثورة . وعادا في الوقت المناسب وهما ناعمان جدا في الشعر وصلبان جدا في السياسة ، الى بلدهما لكي يؤديا مهماتهما المصيرية .

اشجار الحدائق في « كون مينغ » كانت قد اجريت لها عملية

جراحية جمالية . كانت جميعها تأخذ اشكالا غير طبيعية واحيانا كانت تلمح وتلاحظ ندوب مبنورة قد غطيت بصلصال وطين او غصون ملتوية لم تزل مضمدة مثل ذراع جريح . اخذونا لنرى البستاني ، العبقري العظيم الذي كان يسيطر على تلك الحديقة الغريبة . رأينا اشجار التنوب الغليظة العتيقة وهي لما تنم بعد اكثر من ثلاثين سانتيمترا وكذلك رأينا اشجار برتقال ، أقزاما تغطيها برتقالات ضئيلة كأنها حبات ارز مذهبة .

كذلك ذهبنا لزيارة غابة أحجار باسلة ، كانت كل صخرة تتطاول كأنها مسلة من حجر واحد او تستشيط كأنها موجة من بحر جلمود . عرفنا ان هذا الذوق بالاحجار العجيبة هو ارث قديم منذ قرون سحيقة . لقد زينت هذه الصخور الكبيرة العديدة ذات المظهر المبهم اللغز ساحات المدن القديمة، حين كان الحكام في الزمن القديم يريدون ان يقدموا احسن هداياهم الى الامبراطور فانهم كانوا يرسلون اليه واحدة من هذه الصخور الضخمة ، وكان وصولها يتأخر سنوات عديدة ، كان يدفعها عشرات من العبيد خلال آلاف الكيلومترات حتى تصل الى بكين .

ان الصين بالنسبة لي ، ليست لغزا ، على العكس اني اراها ، حتى داخل حدة الاندفاع الثوري الرائع ، بلدا قد بني منذ آلاف السنين وما زال يبنى ويشاد على الدوام . اني اراها معبدا هائلا من بنيانه القديم يدخل ويخرج البشر والاساطير ، المحاربون والفلاحون والآلهة . لا شيء عفويـــا يوجد فيها ، ولا حتى الابتسامة . عبثا يبحث المرء في الجهات كلها عـــن اشياء الفن الشعبي البدائي الصغير غير المتقن، عن هذا الفن المصنوع بأخطاء في التصميم الذي يلمس احيانا حدود المعجزة . ان الدمـــى الصينية ، والاعمال الفخارية والخزفية والاحجار المرصعة والاخشـــاب المزخرفة ، جميعها تكرر نماذج الفية . ان كل شيء له طابع اتقان معاد .

لقد كانت مفاجأتي الكبرى حين عثرت في سوق ضيعة صغيرة على اقفاص صغيرة للزيزان مصنوعة من خيزران رقيق . كانت رائعة لانها في دقتها البنائية كانت مبنية غرفة فوق اخرى ، وكل غرفة بزيزها الحبيس الاسير ، تشكل قلاعا في ارتفاع متر ، تقريبا . لقد بدا لي وانا انظر الى الاعشاش التي كانت تقيد الزيزان والى اللون الاخضر الطري في عيـــدان الخيزران ان اليد الشعبية كانت تطل منبعثة من الاقفاص ، البراءة التي

تستطيع ان تصنع الأعاجيب . حين راى الفلاحون دهشتي واعجابي بهذه الاقفاص لم يشأوا ان يبيعوني واحدا منها بل اهدوني قلعة صداحة ، اكبر قفص واجمله. بهذا الشكل رافقني غناء الزيزان القداسي خلال عدة اسابيع عبر اعماق الاراضي الصينية . لا اذكر اني تلقيت هدية مثل هذه الهدية البرية الجديرة بالذكرى الا في طفولتي .

شرعنا السفر في باخرة تقل الف مسافر عبر نهر «يونـغ تسه» انهـم فلاحون ، عمال ، صيادون ، جمهـرة مليئة بالنشـاط والحيوية . لقد جلنا خلال عدة ايام ، باتجاه «نان كينغ» في هذا النهـر العريض جدا ، المليء بالقوارب والاشغال ، الذي تعبره وتمخـره آلاف الحيوات ذوات الاحلام والهموم . ان هذا النهر لهو الشارع الرئيسي في الصين . لقد كان نهر «يانغ» العريض الهادىء يغدو احيانا نحيلا ضيقا فلا تكاد الباخرة تعبر حلاقيمه الجبارة الا بصعوبات قاسية على كل جانب من جانبيه تبدو الجدران الحجرية العالية السامقة وكانها تتلامس في الاعالي حيث تلمح من حين الى حين غمامة سوداء في السماء ، رسمتها رسمـا انموذجيا ايد شرقية باقلام رصاص ، او ترى غرفة انسانية صغيرة بين ندوب الاحجار .

ليس في الارض الا مناظر قليلة لها مثل هذا الجمال الرهيب . ربما نستطيع مقارنتها بفجاج القوقاس العنيفة او بقنواتنا الجليلة المنعزلة فـي مضيق «ماغايانيس» .

بعد خمس سنوات على زيارتي الاولى للصين الاحظ الآن تغييرا ملحوظا يتأكد كلما توغلت في هذا البلد من جديد .

في البداية ملاحظتي كانت متوشة . ماذا الاحظ الآن ؟ ما هـي التغييرات الطارئة على الشوارع وعلى الناس ؟ آه ، اني لافتقد اللـون الازرق . منذ خمس سنين زرت في هذا الفصل نفسه شوارع الصين ، كانت دائما غاصة خافقة بالحيوات البشرية . لكن اذاك كان الناس كلهم يمضون وهم مرتدون ملابس زرقاء بروليتارية، نوعا من القماش او النسيج العمالي الرقيق . كانت هذه هي ملابس الرجال والنساء والاطفال . لقد كان يلذ لي هذه البساطة في البدل ، في تدرجاتها المختلفة من الزرقة .

لقد كان بديعا ان ارى حينداك هذه التموجات الزرقاوية العديدة وهي تعبر شوارع وطرقا .

الآن هذا قد تبدل ، فماذا جرى ؟

ببساطة ، الصناعة النسيجية في هذه السنوات الخمس نمت كثيرا الى درجة انه اصبح ممكنا ان يلبس الناس ما شاؤوا من الوان وانواع ، مخططة او منقطة ، اصبح ممكنا الباس الملايين من الصينيين بكل اصناف الحرير والسماح لهم ان يستعملوا منها الوانا عديدة واقمشة احسن وأفضل مما كانوا يستعملون من قبل .

ان الشوارع الآن هي أفواس قزح من ذوق الصين الدقيق النقي . ان الجنس الصيني لا يعرف ان يصنع شيئا قبيحا . هـــذا البلد مزهـــر ومزدهر حتى الصندل الاكثر بدائية يبدو فيه وكانه زهرة من قش .

لقد انتبهت وأنا ابحر عبر نهر «يانغ تسه» الى وفاء الرسوم الصينية القديمة . هناك ، في اعلى الفجاج ، شجرة ارز ملتفة مثل معبد صيني صغير ، جلبت الى ذهني حالا الصور التخيلية القديمة . ثمة اماكن قليلة في العالم ، حقيقية جدا ، خيالية جدا ، مفاجئة جدا ، مباغتة جدا ، مثل هذه الفجاج التي يخترقها هذا النهر العظيم ، فجاج ترتفع الى علو غير معقول ، فجاج تريك في كل صدع او شق في هذه الصخرة او تلك الاثر النفساني القديم لهذا الشعب المدهش العريق : خمسة أمتار او ستة من بقول حديثة الغرس، او معبد صغير ذو خمسة سطوح او ستة للتفرج والتأمل . يبدو لنا هناك بعيدا اننا نـــرى في اعلى الصخور القرعـــاء الصلعاء ، العباءات البيضاء او دخان الاساطير ، وان هي الا الغيوم وطيران عصافير رسمه عدة مرات اكثر رسامي الصور المصغرة الملونة قدما ومعرفة على وجه الارض قاطبة . ان شعرا عميقا ينطلق من هذه الطبيعة الجليلة العظيمة ، شعرا موجزا مختزلا عاريا كطيران طير او البريق الفضي لماء يطفو شبه ساكن بين الاسوار الحجرية .

بيد ان ما هو فائق بشكل لا نهائي في هذا المنظر الطبيعي هو رؤية الانسان وهو يعمل في مستقيمات قائمة الزوايا ، صغيرة ، في أشكال

قمرية خضراء بين الصخور . على ارتفاع هائل في قمم الاسوار الشاقولية، حيث يوجد منحنى يحتفظ بقليل من التركة الصالحة للزراعة ، ثمة هناك رجل صيني يزرع ويفرس . ان الارض الأم الصينية هي واسعة وفسيحة. لكنها قاسية وصعبة . لقد ربت الانسان وأعطته شكلا وحولته الى آلة عمل ، لا تتعب ، آلة ذكية وعنيدة . ان هذا التركيب المؤلف من ارض فسيحة ومن جهد انساني خارق ومن الغاء متدرج لكل انواع الظلم والقهر سيجعل الصين الجميلة المديدة العميقة الانسانية تزدهر وتتقدم .

لقد بدا لي (خورخه امادو) خلال عبور نهر «يانغ تسه» كله انه كان عصبيا كئيبا . كانت تزعجه جوانب من الحياة لا حصر لها في الباخرة وكذلك كانت تزعج (ثيليا) زوجته . لكن (ثيليا) لها طبع هادىء يسمح لها ان تمر بالنار دون ان تحترق .

واحد من هذه الاسباب التي كانت تزعجه هو اننا اصبحنا على غير ارادتنا ذوي امتياز وتمييز في هذا المركب . لقد كنا نشعر في غرفنا الخاصة ومطعمنا الخاص بنا شعورا سيئا وسط مئات الصينيين الذين كانوا يتكومون في جهات المركب كله . كان الروائي ينظر الي بعينين ساخرتين ولا يترك فرصة الا وعلق عليها بتعليقاته اللطيفة القاسية .

الحقيقة هي ان كشف الحقائق المتعلقة بالفترة الستالينية قد عطل احد النوابض في أعماق (خورخه امادو) . نحن صديقان قديمان ، تقاسمنا اعوام المنفى معا ، دوما كنا نمتزج في قناعة وأمل مشتركين . لكنني اعتقد انني كنت متمذهبا بأقل مقدار من تشيعه وتمذهبه فلقد كانت طبيعتي الخاصة نفسها وطبعي ذاته يجعلانني اكثر ميلا للتفاهم مع الآخرين فيما (خورخه) كان على العكس من ذلك صارما دائما . لقد قضى معلمه (لويس كارلوس بريستيس) خمس عشرة سنة من حياته ، سجينا . انها لاشياء لا يمكن ان تنسى ، بل تجعل الروح صلبة صلدة . انا كنت ابرر امام نفسي تشيع (خورخه) دون ان أشاطره هذا التعصب والتحزب .

ان تقرير المؤتمر العشرين كان اضطراب أمواج دفعنا نحن الثوريين كلنا ، نحو مواقع جديدة ونتائج حديثة ، بعضنا شعر وكأنه يولد من جديد اثر تلك الكآبة الناجمة عن كشف الحقائق القاسية ، يولد من جديد نظيفا

من الدياجير والرعب ، مستعدا لمواصلة الدرب والحقيقة تسطع في يده .

(خورخه) ، على العكس ، يبدو انه بدأ ، هناك على حافة تلك الباخرة، بين الفجاج الهائلة لنهر «يونغ تسه» ، مرحلة مختلفة في حياته . منذ ذلك الحين صار اكثر هدوءاً، غدا اكثر اعتدالا في أفعاله وفي أقواله . انا لا أعتقد انه فقد ايمانه الثوري بل انه غرق اكثر من قبل في مؤلفاته ونـزع عنها الطابع السياسي المباشر الذي كانت تتميز به بشكل مفرط طاغ . كما لو انه اطلق الابيفورية التي فيه فاندفع يكتب احسن كتبه مبتدئا برواية «غابرييله ، مسمار وقرنفلة» وهي رواية انموذجية ، تفيض بالحسية والبهجة ، بالشهوانية والفرح .

لقد كان الشاعر (اي تشينغ) هو رئيس الوفد المرافق الذي كان يقودنا ويدلنا . كل ليلة كنا نتعشى : (خورخه امادو) و(ثيليا) و(ماتيلده) و(اي تسينغ) وأنا ، في غرفة منفصلة . كانت المائدة تتغطى ببقول خضراء ومذهبة ، بأسماك حامضة ــ حلوة ، بأوز ، بديكة ، بفراريج مطبوخة بطريقة غريبة ، دائما لذيذة . بعد عدة ايام اصبحت تلك الاكلة الرائعة تغص في حلوقنا ولو انها كانت من قبل تسري فيها بسرعة وكانت تطيب لنا. وجدنا فرصة كي نتحرر ولو لمرة واحدة من تلك الاطعمة الطيبة اللذيذة لكن مبادرتنا وجدت طريقا صعبة ، راحت تتلوى هذه الطريق اكثر فاكثر مثل غصن من تلك الاشجار المضايقة المعذبة .

حصل ان عيد ميلادي كان يصادف وقوعه في تلك الايام . (ماتيلده) و(ثيليا) وضعتا مخططا كي يكرماني بأكلة غريبة تغير من رتابة طعامنا ، كان الامر هو القيام بتكريم متواضع : اعداد فروج مشوي على طريقتنا مع سلطة من طماطم وبصل على الطريقة التشيلية . المرأتان صنعتا من هذه المفاجاة سرا كبيرا . توجهتا بكل ثقة الى اخينا الطيب الشاعر (اي تشينغ)، فاجابهما الشاعر وهو قلق قليلا ، انه لا بد له من الاجتماع بالاعضاء الآخرين في اللجنة للتداول حول هذا الامر .

كان الجواب مفاجئا . ان البلاد كلها تمر في موجة من التقشف ، و(ماو تسي تونغ) تخلى عن احتفاله بعيد ميلاده حتى يساهم مع شعبه في التقشف والتوفير فكيف يمكن ان يحتفل بعيد ميلادي تجاه هذه الاجراءات

الصارمة من التقشف ؟ (ثيليا) و(ماتيلده) ردتا على هذه الحجة بأن الأمر هو مناقض. كليا فنحن نريد ان نستبدل فروجا واحدا مشويا على الفرن ولكن بأسلوب تشيلي ، بكل ما في هذه المائدة من اكل لذيذ متنوع (كان على المائدة فراريج وأسماك وديكة لم تلمس بعد) . أجاب (اي تشينغ) بعد اجتماعه الى اللجنة غير المرئية التي كانت تقود التقشف ، في اليوم التالي بأنه ليس ثمة من فرن على ظهر الباخرة التي كنا نبحر بها. (ثيليا) و(ماتيلده) اللتان كانتا قد تكلمتا مع الطاهي ، أجابتا (اي تشينغ) بانهم مخطئون وان فرنا رائعا كان يسخن في انتظار فروجنا المحتمل . أغمض (اي تشينغ) عينيه بين بين وأضاع نظرته في تيار نهر «يانغ تسه» .

كان لنا في يوم ١٢ تموز ، تاريخ عيد ميلادي ، على المائدة فروجنا المتسوي ، جائزة ذهبية من ذلك النزاع والمداولة . زوج من الطماطم مع بصل حار حاد كانت تلتمع في صينيتنا الصغيرة . وهناك من على بعد كانت تمتد المائدة الكبيرة المزخرفة مثل بقية الايام بأطباق براقة وقصعات لماعة مليئة باكل صيني طيب .

انا كنت قد مررت عام ١٩٢٨ ب «هونغ كونغ» وب «شانغهاي» . تلك كانت صينا مستعمَرة بشكل حديدي ، فردوسا للمقامرين ولمدخني الافيون ، للمترددين على المواخير وبيوت الدعارة ، للصوص الليل للدوقات الروسيات المزيفات ، لقراصنة البحار والاراضي . مقابل المؤسسات المصرفية الكبيرة في تلك المدن الكبيرة كان ثمة ثماني او تسع مدرعات رمادية تكشف عن عدم الطمأنينة والخوف ، عن اغتصاب الاستعمار وتعبه ، عن احتضار عالم بدأ يفوح برائحة الموت . رايات بلدان كثيرة ، تمثل قناصل لؤماء ، كانت تتلألأ فوق بواخر قرصنة تابعة لجناة مجرمين، صينيين او ملايويين . كانت المواخير تابعة لشركات عالمية . انا قد رويت في مكان آخر من هذه المذكرات كيف أغار عليّ اللصوص ذات ليلة وتركوني بلا ثياب ، بلا نقود ، بلا وثائق شخصية ، مهجورا في احد الشوارع الصينية .

لقد عادت هذه الذكريات الى رأسي حين وصلت الى الصين الثورة . هذه الصين اصبحت بلدا جديدا ، مدهشا في نظافته الاخلاقية . ان العيوب ، والمشاكل الصغيرة والاختلافات الضئيلة وكثيرا مما احكيه الآن عن

صنين الثورة ، ما هي الا ظروف عابرة ليست بذات اهمية . ان انطباعي العام السائد هو اني لاحظت ان ثمة تغييرا ظافرا وتحويلا جذريا في الارض الفسيحة ذات أقدم ثقافة في العالم . ففي كل جهة كان يشرع بتجارب لا حصر لها وباختبارات هامة . كان النظام الاقطاعي قد دحر تماما والزراعة بدأت في نهج ومنهج جديدين . كان الجو النفسي المعنوي شفافا كما بعد مرور زوبعة عاصفة .

ان ما أقصاني عن سنن التطور الصيني لم يكن (ماو تسي تونغ) بل الماوسوتونغية اي الماوستالينية ، تكرار عبادة زعيم اشتراكي . من يستطيع ان ينفي عن (ماو) كونه شخصية سياسية ومنظما عظيما ومحررا كبيرا لشعبه ؟ كيف أقدر انا ان أفلت من سحر هالته الملحمية ، من بساطته الشعرية ، من تواضعه الكئيب ، من اصالته العريقة ؟

لكن ، خلال زيارتي، رايت كيف ان المئات من الفلاحين الفقراء العائدين من اعمالهم كانوا يختشعون قبل ان يدعوا عدتهم ، وهم يحيون صورة بطل «يونان» Yunan المحارب المتواضع الذي تحول الآن الى إله . انا رأيت كيف ان المئات من المخلوقات كانوا يهزون في ايديهم الكتاب الاحمر ، اكسيرا عالميا للفوز في «البينغ ـ بونغ» ، لشفاء التهاب الزائدة الدودية ، لحل المشاكل السياسية . لقد كان التملق يطفو على كل فم وفي كل يوم ، يتدفق من كل صحيفة ومن كل مجلة ، من كل دفتر ومن كل كتاب ، من كل تقويم ومن كل مسرح ، من كل تمثال ومن كل رسم .

كنت قد ساهمت بمقداري في عبادة الشخصية ، في حالة (ستالين) . لكن في تلك الاوقات كان (ستالين) يبدو لنا على انه المنتصر القاهر لجيوش (هتلر) ، على انه المنقذ للانسانية العالمية . لقد كان انتكاس شخصيته مجرى مبهما ، ما زال حتى الآن لغزا بالنسبة للكثيرين منا .

والآن هنا ، في وضح النور ، في المدى الارضي والسماوي الرحب للصين الجديدة ، يراد من جديد امام ناظري ، ان تستبدل اسطورة تحتكر الضمير الثوري ، تقتصر على قبضة يد واحدة خلق عالم سيكون للجميع . لم يكن سهلا بالنسبة لي ان ابتلع للمرة الثانية هذا القرص .

في «تشونغ كينغ» اخذني اصدقائي الصينيون الى جسر المدينة . لقد عشقت الجسور طيلة حياتي كلها . لقد اوحى لي والدي ، وهو عامل في السكك الحديدية ، ان اكنّ لها احتراما كبيرا . لم يكن يدعوها ابدا بالجسور . كان هذا النعت سيدنسها وينتهك حرمتها . بل كان يدعوها بالاعمال الفنية ، نعتا ما كان ليطلقه على الرسوم واللوحات وأعمال النحت بله على قصائدي ، طبعا . كان هذا النعت مقتصرا على الجسور فقط . لقد اخذني معه عدة مرات كي نشاهد جسر « مايكو » الرائع ، بجنوب تشيلي . حتى الآن كنت اظن انه اجمل جسر في العالم ، وهو متمدد بين سندس الجبال وخضرتها الجنوبية ، عاليا ، نحيلا ، نقيا ، مثل كمان من فولاذ بأوتاره المشدودة المهيأه لعزف الرياح عليها ، رياح «كويبوييي» Collipulli . ان الجسر الهائل الذي يعبر نهر «يانغتسه» هو شيء آخر . انه اعظم عمل قامت به الهندسة الصينية بمشاركة المهندسين السوفييت . وهو ، بالاضافة الى هذا نهاية صراع دام قرونا . لقد كانت مدينة «تشونغ كينغ» يفصلها هذا النهر الى قسمين منذ قرون وكان عدم الاتصال هذا بين شقيها يعني تأخرا وبطئا وعزلة .

ان حماسة اصدقائي الصينيين الذين كانوا يرونني الجسر هي اكثر مما كانت تستطيع ان تتحمله ساقاي وقدماي . كان هؤلاء الاصدقاء يجعلونني اصعد أبراجا ، أهبط مهاوي كي ارى المياه التي تنساب هناك منذ آلاف السنين والتي تقطعها اليوم هذه القضبان الحديدية المؤلفة من كيلومترات عديدة ، عبر هذه السكك الحديدية ستمر القطارات ، هذه الارصفة ستكون لسائقي الدراجات ، هذا النهج الهائل سيكون مخصصا للمشاة . أحس باختناق من هذه العظمة الكثيرة .

يأخذنا (اي تشينغ) ، ليلا ، الى الاكل في مطعم قديم ، مأوى اكثر الاطعمة تقليدية . مطر من ازهار الكرز ، قوس قزح من سلطة خيزران ، بيض له من العمر مائة سنة ، شفاه فتية شابة من اسماك قرشية . ان هذه الاطعمة الصينية هي مستحيلة ان توصف في تعقيدها وتنوعها الغريب ، في اختراعها الشاذ ، في قوالبها غير المعقولة . زودنا (اي تشينغ) بمعارف عنها ، وقال ان القواعد العليا الثلاث التي يجب ان تتوفر في اية أكلة جيدة هي : اولا ، الطعم ، ثانيا ، الرائحة ، ثالثا ، اللون ، هذه الجوانب الثلاثة يجب ان تحترم دائما وأن يصر عليها دوما ، الطعم

يجب أن يكون لذيذا ، الرائحة يجب ان تكون ممتعة ، اللون يجب ان يكون منعشا ومتناغما ومتسقا . «في هذا المطعم حيث سنأكل ـ قال (ايتشينغ) ستتوفر ميزة اخرى : النغم» . يضاف الى الطبق (٦) المصنوع من الخزف الصيني المحاط بـ «المنجار» ، في آخر لحظة ، شلال صغير من طوابير «الجمبري» التي تصب في صفيحة معدنية تسخن على الجمر واللهب كي ينتج لحن ناي ، مقطع موسيقي يكرر دائما ويعاد .

في بكين استقبلنا (تيين لينغ) التي كانت تترأس لجنة الكتاب التي خصصت كي ترافقنا اثناء زيارتنا للصين . كذلك كان موجودا اثناء هذا الاستقبال صديقنا القديم الشاعر (امي سياو) وزوجته الالمانية المصورة . كل شيء كان لطيفا وضاحكا ومبتسما . تنزهنا في زورق بين عرائس البحيرة الاصطناعية الهائلة التي بنيت لتسلية آخر امبراطورة . زرنا مصانع ، دور نشر ، متاحف ، معابد . اكلنا في أصغر مطعم في العالم (صغير جدا الى درجة انه لا يحتوي الا على مائدة واحدة) تتردد اليه سلالة الاسرة الامبراطورية . كنا نحن الامريكيين الجنوبيين الاربعة نجتمع في مقر الكتاب الصينيين كي نشرب وندخن ونضحك كما لو كنا في اي جزء من قارتنا الامريكية . انا كنت كل يوم اعطي الجريدة الى مترجمنا الشاب المسمى (لي Li) وكنت اشير بإصبعي الى عواميد الصحيفة المكتوبة بحروف صينية واقول له :

ـ ترجم لي .

كان يشرع بعمله في لغة اسبانية تعلمها حديثا ، ويقرأ لي المقال الافتتاحي عن الزراعة ، المآثر السباحية (ماو تسي تونغ) ، الابحاث الماوماركسية ، الاخبار العسكرية التي كانت تبعث في نفسي الملل ما ان يبدأ بترجمتها .

ـ Stop ـ كنت اقول له . اقرا لي من هذا العمود فهو افضل .

---

٦ ـ الطبق : Fuente : ومن معاني هذه الكلمة باللغة الاسبانية كذلك ، النبع، نشير لهذا لان (نيرودا) يستغل المعنى الثاني للحديث عن الطبق .

هكذا فوجئت ذات يوم حين عثرت على دمل في المكان حيث وضعت اصبعي . كانت الصحيفة تتحدث عن دعوى سياسية يتهم فيها اصدقائي الذين كنت اراهم كل يوم والذين كانوا يشكلون قسما من الوفد المرافق لنا. مع ان القضية تبدو انها مثارة منذ وقت طويل فهم ابدا ما كانوا قالوا لنا اية كلمة حول هذا الشأن ولا تفوهوا مطلقا بأنهم تحت الاستجواب والاستنطاق وان خطرا ينهددهم وان تهديدا ينخر في مصائرهم .

لقد تغيرت الفترة ، والزهور انفلقت . حين هذه الزهور انفتحت بأمر من (ماو تسي تونغ) ، ظهرت قصاصات من ورق ــ في المصانع والمراتب ، في الجامعات والمكاتب ، في المزارع والحقول ــ كانت تعلن عن ظلم وتشكو من جرم وتفضح أفعالا يرتكبها الرؤساء البيروقراطيون .

هكذا كما من قبل كانت قد توقفت بأمر سام الحرب ضد الذباب وضد العصافير الدورية ، حين تبين ان تصفيتها سيجلب نتائج غير متوقعة ، كذلك الآن انتهت بتشكل حازم مرحلة تفتح البراعم . لقد وصل من اعلى، أمر . اكتشاف اليمينيين . وفي الحال بدأ الصينيون في كل منظمة ، في كل معمل ، في كل منزل ، الاعتراف الذاتي عن نزعة يمينية او جعل الآخرين يعترفون بهذه النزعة اليمينية كي يُقضى عليها نهائيا .

صديقتي الروائية (تينغ لينغ) اتهمت بأنها اقامت علاقات غرامية مع جندي من أتباع (تشيانغ كاي تشيك) (٧) . لقد كانت هذه التهمة حقيقة، ولكن حدثت هذه العلاقات قبل الحركة الثورية العظيمة . وفي سبيل الثورة هي رفضت عشيقها ذاك ، ومن « يينان » Yenan (٨) حملت وليدها ومضت لتشارك في المسيرة الكبرى في تلك السنوات البطولية . ولكن هذا لم يُقيِّم لها بشيء ، فقد طردت من منصبها كرئيسة لاتحاد الكتاب وحكم عليها أن تقدم الطعام اجيرة في مطعم اتحاد الكتاب نفسه الذي كانت قد ترأسته خلال عدة سنين . لكنها كانت تؤدي عملها في هذا المطعم في انفة

---

٧ ــ تشاينغ كاي تشيك : هو ديكتاتور فورموزا المعروف ولد عام ١٨٨٦ .

٨ ــ يينان : لسنا ندري ان كانت هذه المدينة هي نفسها التي كان الشاعر (نيرودا) قد اشار اليها من قبل ولكنه كتبها هكذا : Yunan ، وقد يكون الامر خطأ مطبعيا .

وكرامة ثم ارسلت من بعد للعمل في مطبخ مشاعة فلاحية في مكان ناء .
كان هذا آخر ما عرفته عن هذه الكاتبة التيوعية الكبيرة التي كانت التخصية الاولى في الادب الصيني .

لست أدري ماذا حل ب (امي سياو) ، اما بالنسبة ل (اي تشينغ) الشاعر الذي كان يرافقنا في كل ناحية وركن ، فان مصيره كان حزينا جدا ، فقد ارسلوه في اول الامر الى صحراء «غوبي» ثم سمح له بالكتابة على الا يوقع ما يكتبه باسمه الحقيقي الشهير داخل وخارج الصين ، وهكذا حكم عليه بالانتحار الادبي .

كان (جورج امادو) قد انطلق نحو البرازيل ، من قبل ، اما انا فاني سأرحل في وقت لاحق وفي فمي طعم من المرارة ما زلت أشعر به حتى الآن .

قرود «سوخومي»

لقد عدت الى الاتحاد السوفييتي فدعوني هناك الى رحلةنحو الجنوب. حين هبطت من الطائرة بعد ان عبرت اراضي شاسعة ، كنت قد خلفت ورائي السهوب والقفار ، الهضاب والتلال ، الطرق والمعابر ، القرى السوفييتية والمدن العظيمة . لقد وصلت الى الجبال القوقازية المهيبة العامرة بأشجار التنثوب وبالحيوانات الغابية . لقد تزين البحر الاسود ببدلة زرقاء كي يستقبلنا ويجثو تحت أقدامنا ، كان عبق عنيف من البرتقال المزهر يأتي الينا من كل جهة .

نحن الآن في «سوخومي» ، عاصمة «افغاسيا» Afgasia ، وهي جمهورية سوفييتية صغيرة ، هذه هي «لا كولشيدا» Colchida الاسطورية . انها منطقة الجلود الذهبية التي جاء اليها (خاسون) (٩)

٩ ـ خاسون : بطل من ابطال الاساطير اليونانية .

ستة قرون قبل ولادة المسيح ليسرق ويسلب . انها وطن «القلقاس»
الاغريقيين Los dioseuros . في وقت لاحق سأرى في المتحف
نقشا من مرمر هلّيني استخرج حديثا من البحر الاسود . على ضفاف هذا
البحر احتفلت الآلهة اليونان بأسرارهم والغازهم . اليوم قد استبدل بالسر
واللغز الحياة البسيطة العاملة ، حياة الشعب السوفييتي . ليسوا هم
بأناس «لينينغراد» . ان لهذه الارض الشمسية ، القمحية ، العنبية ، لحنا
آخر ، لها نبرة صوت من البحر الابيض المتوسط . هؤلاء الرجال لهم
طريقة اخرى في المشي والسير ، ان لهاته النساء عيونا وايدي من ايطاليا
او من اليونان .

اعيش بضعة ايام في بيت الروائي (سيمونوف) في بستان داره
اشجاره الجميلة . اعرفها واذكرها ، فكلما ذكر لي اسم شجرة كنت أجيبه
كما فلاح متعصب لأرضه :

ـ من هذه ، يوجد في تشيلي، من هذه الاخرى ثمة في وطننا الكثير،
وكذلك من تلك الاخرى . فينظر اليّ (سيمونوف) في ابتسامة مستهزئة ،
فأقول له :

ـ انه ليحزنني جدا انك لن تستطيع ان ترى العريشة في داري
بـ «سانتياغو» ولا اشجار الحور المذهبة بالخريف التشيلي فليس هناك من
ذهب مثل ذهبه . لو ترى في طريق « ميليبيلا » كيف يضع
الفلاحون عرانيس الذرة الذهبية فوق اسطحة المنازل . لو ترى اشجار
الكرز المزهرة في فصل الربيع . لو تتنسم شذى « البولدو » (١٠) .
لو تغرق رجليك وساقيك في مياه «ايسلا نيغرا» النقية الباردة . لكن
الاقطار والبلدان ، يا عزيزي (سيمونوف) ، ترفع حواجز فيما بينها ، تلعب
لعبة الاعداء فيما بينها ، تتقاذف النيران في حروب باردة فنصبح نحن
معشر البشر منعزلين متباعدين . نقترب من السماء بصواريخ سريعة ولا
نقرب أيدينا من أيدينا في اخوّة انسانية .

---

١٠ ـ البولدو : نوع من الشجر ، ذو أوراق خضراء وزهور دائمة لها عطر فوّاح .

ـ ربما تتغير الاشياء ـ يقول لي (سيمونوف) مبتسما ويقذف بحصوة بيضاء الى الآلهة الغرقى في البحر الاسود .

ان مفخرة «سوموخي» هي في مجموعتها من القرود . لقد ربّى هناك معهد طب تجريبي ، مستغلا الطقس تحت الاستوائي ، اصناف القرود الموجودة في العالم جميعها . فلندخل . سنرى في أقفاص واسعة قرودا متحركة كهربائية وقرودا ساكنة استاتيكية ، بعضها كبير وبعضها صغير ، بعضها اجرد وبعضها أشعر ، بعضها ذو عينين انعكاسيتين وبعضها ذو عينين مثيرتين للشرر ، ايضا بعضها مطرق مسكين وبعضها طاغ مستبد . بعضها رمادي اللون وبعضها ابيض ، بعضها ذو است ولية بثلاثة ألوان وبعضها كبير السن متقشف وبعضها متعدد الزوجات اناني الطبع لا يسمح لزوجة ان تتغذى دون اذنه ، لا يمنحها هذا الاذن الا بعد ان يبتلع في وقار وسكينة اكله الخاص به .

ان اكثر المخابر تقدما في علم الاحياء هو في هذا المعهد، وان افضل البحوث تجري في هذا المعهد تدرس بأجهزة القرود الجهاز العصبي ، الوراثة ، ويقام ببحوث دقيقة حول سر الحياة وامكانية اطالة الاعمار .

تلفت نظرنا قردة صغيرة لها طفلان . واحد منهما يتبعها باستمرار والآخر تحمله بذراعيها في حنان انساني . يحكي لنا المدير ان القرد الصغير الذي ترضعه كثيرا ليس بإبنها وانما هو لقيط تبنته . كانت هي على وشك ان نفست بوليدها حين ماتت قردة اخرى بعد ان خلّفت قردا فتبنت هذه القردة الأم لتوها اليتيم ، منذ ذلك الحين انصرفت بحنانها الامومي وعطفها الانثوي نحو هذا الابن المتبنى اكثر مما انصرفت نحو ابنها الحقيقي . فكّر العلماء ان هذا الميل الامومي الشديد سيجعلها تتبنى ابناء آخرين لقطاء لا يمتون اليها بصلة لكنها رفضتهم جميعا واحدا اثر الآخر ، لان سلوكها لم يكن يخضع ببساطة الى قوة حيوية بل الى ضمير قد شعر حين ماتت رفيقتها بتضامن امومي .

« ارمينيا »

الآن نطير نحو ارض مجد أسطورية . نحن في «ارمينيا» . هناك ،

نحو الجنوب ، تتراس تاريخ «ارمينيا» القمة الثلجية لجبال «ارارات» حيث رست سفينة نوح حسب ما جاء في الكتاب المقدس، كي يعاد تعمير الارض. لقد كان عملا صعبا لان «ارمينيا» هي ارض وعرة وبركانية. لقد زرع الارمن هذه الارض في تضحية لا يمكن وصفها ورفعوا حضارتها الى اعلى قمة في العهود القديمة . لقد اعطى المجتمع الاشتراكي الى هذه الامة النبيلة المعذبة تطورا وازدهارا فائقين . فلقد ذبح الغزاة الاتراك على مدى قرون عديدة الارمن واستعبدوهم . كل حجر في الهضاب ، كل بلاطة في المنازل ، صبغ وصبغت بالدم الارمني . لقد كان البعث الاشتراكي لهذا البلد اعجوبة، وردّا عظيما على اقوال المتخرصين حول امبريالية سوفييتية. لقد زرت في «ارمينيا» معامل نسيج تشغل ٥٠٠٠ عاملا ، مشاريع هائلة في الري وتوليد الطاقة ، مصانع اخرى كثيرة وقديرة . لقد تجولت من طرف الى آخر في المدن في الارياف في المراعي فلم أر الا ارمنا ، رجالا ونساء ، ارمنا . وجدت روسيا واحدا ، كان مهندسا ، فريدا في عينيه الزرقاوين بين آلاف العيون السود لأولئك المواطنين السمر . كان ذاك الروسي يدير مركزا كهرمائيا في بحيرة « سيفان » . ان سطح البحيرة هو كبير جدا ومياهها تتسرب من مجرى واحد للنهر فالمياه القيّمة تتبخر دون ان تستطيع ارمينيا العطشى ان تستفيد من هبات هذه المياه. فلكي تقهر عملية التبخير سده ويكسب منها الوقت قبل ان تقلّل من حجم المياه ، فلقد وسّع مجرى النهر وبهذا تتدفق المياه ويقل حجم البحيرة شبه الراكدة وفي الوقت نفسه ستخلق بمياه النهر الجديدة ثمانية مراكز كهرمائية ، صناعات جديدة ، مرائب للالومينيوم ، طاقة كهربائية للاضاءة ، ما يكفي من المياه لارواء الارض كلها في هذا البلد . ابدا لن انسى زيارتي لذاك المصنع الكهرمائي المطل على البحيرة التي تنعكس في مياهها النقية جدا زرقة سماء ارمينيا التي لا تنسى . حين سألني الصحفيون عن انطباعاتي حول كنائس ارمينيا وأديرتها القديمة ، اجبتهم مبالغا :

— ان اكثر كنيسة اعجبتني هي المركز الكهرمائي ، ذاك المعبد المطل على البحيرة .

لقد شاهدت في ارمينيا اشياء كثيرة . اعتقد ان مدينة «ايريفان» Erevan هي من أجمل مدن العالم ، انها لمبنية من حجر بركاني ، وهي

متناسقة كأنها الوردة الموردة . ان زيارتي للمركز الفلكـــــي ب «بيناكان» هـــى زيادة لا ننسى ، هناك رأيت لاول مـــرة كتابة النجــــوم . كانت اجهزه دقيقة جدا تلتقط اشعاعات الكواكب المرتعشـــة وتروح تكتب خفق النجم في الفضاء كأنه برقية كهربائية تأتي من السماء . لقد لاحظت في تلك الخطوط البيانية ان لكل نجم نوعا من الخط والحـــرف مختلفا ، ساحرا ومرتجفا ، مع انه غير مفهوم بالنسبة لعينيّ : عيني شاعر أرضي.

توجهت مباشرة ، فـــى حديقة الحيوانات ب «ايريفان» نحـــو قفص «الكندور» ، لكن ابن بلدي لم يعرفني . كان هناك في ركن قفصه ، أصلع، بهاتين العينين غير المباليتين ، عيني «كاندور» بلا آمال ولا رغبات ، عيني عصفور كبير يحن الى سلسلة جبالنا . نظرت اليه في حزن لانني سوف اعود انا الى وطني وسيبقى هو سجينا في هذا القفص .

ان مغامرتي مع «ال تابير» El Tapir كانت مختلفة. كان التابير يملك حديقة الحيوانات في «ايريفان» ــ قليلة هي حدائق الحيوانات التي لها مثل هذا الحيوان ــ ان «التابير» من «الامازون» وهو حيوان بجسد نور ووجه عظيم الأنف وعينين صغيرتين . يجب الاعتراف في ان «التابير» يشبهني كثيرا، ان هذا ليس بسر .

كان «تابير» مدينة «ايريفان» يغفو في حظيرته قرب البحيره الصغيرة. حين رآني رشقني بنظرة ذكاء لعلنا كنا قد تلاقينا ذات يوم في البرازيـــل فذكرني . سألني المدير ان كنت ارغب في ان أراه وهو يسبح فأجبته بأنني كنت أرحل عبر العالم وليس لي من قصد الا ان ارى «تابـــير» يسبح . ففتحوا له بويبا فخرج منه وهو ينظر اليّ نظرة سعادة وغبطة وانقذف الى الماء ساخرا كالحصان البحري ، مثل خيلان (١١) أشعر . كان يعلو رافعا جسده كله من الماء ثم يغطس مسببا تموجا عاصفيا . كان ينهض نشوان من الفرح ، كان يرنخر وينخر ومن بعد يواصل في سرعـــة كبيرة ألعابـــه البهلوانية غير المعقولة .

---

١١ ــ خيلان : حيوان خرافي نصفه رجل ونصفه سمك ، وهو السّاس البحري .

ـ ابدا ما رأيناه فرحا جزلا كما هو عليـــه الآن ـ قال لي مديـــر حديقة الحيوانات .

في الظهر ، عند الغداء الذي قدمته لي جمعية الكتاب ، رويت لهم في خطابي لاسداء التشكر على حفاوتهم بي مآثر الـ «تابير» الامازوني وحدثتهم عن هوسي بالحيوانات واني لا ادع زيارة اية حديقة من حدائق الحيوانات.

في الخطاب الجوابي ، رئيس الكتاب الارمن قال :

ـ لم يكن (نيرودا) بحاجة كي يذهب لزيارة حديقة الخيوانات في بلدنا، فلقد كان يكفيه المجيء الى جمعية الكتاب كي يجد الاصناف والانواع كلها هنا مجتمعة ، فنحن هنا لدينا اسود ، نمور ، ثعالب ، عجول بحريـــة وكذلك نسور ، أفاع ، جمال ، ببّغاوات .

النبيذ والحرب

لقد توقفت في موسكو بطريق عودتي . ان هذه المدينة ليست هـــي العاصمة العظيمة للاشتراكية فحسب ، ليست هي مقر الاحلام المتحققــة فقط ، بل هي بالنسبة لي كذلك منزل اكثر اصدقائي محبة الى نفسي . ان موسكو لهي ، بالنسبة لي ، مهرجان واحتفال . ما ان اصل اليها ، عادة ، حتى اخرج وحيدا عبر الشوارع ، فرحا بالتنفس فيها ، مصفّرا لحن «كويكا» (١٢) . انظر الى وجوه الروس ، الى عيون الروسيـــات وخصلات شعرهن ، الى المثلجات التي تباع في زوايا الطرقات، الى الزهور الورقية الشعبية ، الى واجهات المحلات بحثا عن اشياء جديدة ، عن اشياء صغيرة تجعل الحياة كبيرة .

ذات مرة ذهبت ، كعادتي ، لأزور (ايهرينبورغ) . فأراني هذا الصديق

---

١٢ ـ كويكا : يقال له كذلك «تاماويكا» ، وهو نوع من الرقص التشيلي .

الطيب اول ما اراني زجاجة «ماء الحياة» (١٢) نرويجية Aequavite على سطح هذه الزجاجة رسمت سفينة شراعية كبيره في مكان آخر كتب تاريخ انطلاق الباخرة وتاريخ عودتها . انطلقت معها كذلك هذه الزجاجة حتى «استراليا» ثم عادت معها الى موطنها «اسكانديناڤيا» .

جعلنا نتحدث عن النبيذ . تذكرت تلك الفترة من شبابي حين كان نبيذنا الذي ورثناه أبا عن جد ، يسافر الى الخارج ، بناء على دعوة لكونه ممتازا فاخرا . لقد كان النبيذ اذاك غاليا جدا بالنسبة لنا نحن الذين كنا نستعمل ملابس السكك الحديدية وكنا نعيش حياه بوهيمية عاصفة .

لقد كنت أهتم دائما في كل بلد أحل به ، بسنن النبيذ ومسالكه، منذ ان يولد من «أرجل الشعب» الى أن يتدورق في بلور أخضر او زجاج ذي وجوه . لقد طاب لي في «جليقيا» تناول نبيذ «ريبيرو» (١٤) الذي يشرب في طاسات ويدع على الفخار علامات دموية كثيفة متخثرة . اني لأذكر اني شربت في «هنغاريا» نبيذا مكثفا معتقا يدعى «دم الثور» ، حين ينطح يجعل أوتار الفجر ترتعد وترتجف الحانا وأنغاما .

لقد كان لاجدادي كروم عنب . أن قرية «برّال» (١٥) ، حيث ولدت ، هي مهد سلافة حريفه . لقد تعلمت من ابي ومن أعمامي : (دون (١٦) خوسه انخيل) و(دون خويل) ، و(دون اوسيباس) و(دون اموس) ، ان أميز النبيذ المعتق من المصفى . لقد كلفني جهدا أن أجعلهم يميلون نحو النبيذ غير المكرر الذي يرشح في الزق وينصب من قلب أصيل سخي غير محصن . كما في الاشياء جميعها كلفني جهدا ان أعود الى ما هو بدائي ، الى منبع القوه والنشاط ، بعد ان تمرست على مجاوزة حاسة الذوق بعد ان تذوقت

---

١٢ ـ ماء الحياة : هو نوع من الخمر يشبه **العرق** .

١٤ ـ ريبيرو : هي كلمة من **اللغة** الجليقية تطلق على هذا النوع من النبيذ الشائع جدا في «جليقيا» وهي منطقة تقع في الشمال الغربي من اسبانيا .

١٥ ـ برّال : معناها عريشة او دالية ، وقد كنا ذكرنا ذلك .

١٦ ـ دون : ان هذه الكلمة تعني **السيد** باللغة الاسبانية .

الطعم الشكلي التقليدي . ان الشيء نفسه يجري للفن : ان المرء يستيقظ على «افروديت» لـ (براكسطليس Praxiteles) ويظل يحيا مع تماثيل «اونيانيا» البرية الهمجية .

لقد تذوقت بباريس في بيت رفيع نبيذا رفيعا . كان النبيذ هو «موتون ــ روتشيلد» Mouton - Rothschild ذا جسد معصوم ، ذا شذى لا يمكن التعبير عن روعته ، ذا تماس كامل . البيت كان بيت (اراغون) و (ايلسا تربولي) .

لقد تلقيت هذه الزجاجات لتوّي وسأفنحها لك الآن ــ قال لي (اراغون) .

وروى لي الحكاية .

كانت الجيوش الالمانية تتقدم داخل الاراضي الفرنسية . وصل (لويس اراغون) وهو الشاعر الضابط واكثر جنود فرنسا ذكاء ، الى موقع متقدم. كان هو آمر فصيل من الممرضين . فأعطاهم الامر بالتقدم الى ما هو أبعد من هذا الموقع المتقدم ، الى بناء يقع على بعد ثلاثمائة متر منه . فأوقفه رائد ذلك الموقع الفرنسي . وكان هذا الرائد هو (الكنت الفونس دي روتشيلد) ، اصغر من (اراغون) وهو ذو دماء حارة مثل دماء (اراغون) .

ــ انك لن تستطيع ان تمر من هنا ــ قال له ــ فالنيران الالمانية ستطلق حالا .

ــ ان أوامري هي ان يتقدم فصيلي حتى ذلك البناء ــ رد (اراغون) في حزم وجزم .

ــ ان أوامري هي ان لا تتقدم وأن تظل هنا ــ اجاب الرائد .

اني متأكد ، لاني اعرف (اراغون) جيدا ، انه في ذلك النقاش خرجت منه شرارة اثر شرارة كما القنابل ، اجابة كأنها السيوف . لكن هذا النزاع لم يدم اكثر من عشر دقائق اذ سقطت ، على حين غرة ، امام عينيّ

(روتشيلد) المفتوحتين وأمام ناظر (اراغون) كذلك ، قنبلة من مدفع هاون الماني فوق ذاك البناء القريب منهما فأحالته الى دخان وانقاض ورماد في هنيهة .

هكذا أنقذ التساعر الاول لفرنسا بفضل عناد (روتشيلد) واصراره .

منذ ذلك الحين ، في تاريخ تلك الحادثة الحولي نفسه يتلقى (اراغون) كل سنة بضعة Bonnes Bouteilles من «موتون ــ روتشيلد» ، من كروم «الكونت» الذي كان رائده في الحرب العالمية الاخيرة .

الآن انا في موسكو ، في دار (ايليا ايهرينبورغ) . لقد كان هذا المحارب الكبير بالادب ، العدو الخطير للنازية الى درجة انه وحده يساوي فرقة بأربعين الف رجل ، كذلك ابيقوريا صافيا . ابدا ما استطعت ان اعرف ان كان هو يعرف عن (ستندال) (١٧) أم عن (فواغراس) كان يتذوق أشعار (جورج مانريك) في لذة كثيرة بقدر ما كان لا يتذوق (بومثري ــ غرينو) . ان اكثر حبه حيوية وحياة كانت فرنسا بكاملها ، روح وجسد فرنسا اللذيذة الشدية .

الموضوع هو انه ، بعد الحرب ، ترددت اشاعة في موسكو بأنه ستعرض للبيع بعض زجاجات النبيذ الفرنسي . كان الجيش الاحمر اثناء زحفه نحو « برلين » قد استولى على معقل ــ فبو ، مليء بدعاية (غوبلز) (١٨) غير الصحية وزجاجات نبيذ كان هذا قد سلبها من خوابي فرنسا العذبة . ارسلت اوراق الدعاية وزجاجات النبيذ الى ثكنات الجيش الغالب فلم يجد الجيش الاحمر الذي بحث في الاوراق واحتفظ بالوثائق ما يفعل بالنسبة لهذه الزجاجات .

كانت الزجاجات المصنوعة من بلور مجيد تتباهى في عناوين خاصة

---

١٧ ــ ساندال : روائي فرنسي (١٧٨٣ ــ ١٨٤٢) .
١٨ ــ غوبلز Joseph Paul : سياسي الماني (١٨٩٧ ــ ١٩٤٥) .

سواريخ ميلادها . تنحدر جميعها من اصول رفيعة نبيلة ومن مواسم قطاف شهيرة معروفة . كانت زجاجات النبيذ Romané و Beaume و chateau - neuf - du Pape تحاذي زجاجات Pouilly التقـــــراء وزجاجات Vourray العنبرية وزجاجات chambertin المخملية . كانت المجموعة بأسرهـــــا مدعومة بأرقام تسلسلية تبين تواريخ قطاف أعنابها الرفيعة جدا .

لقد وزعت العقلية الاشتراكية النازعة الى المساواة في كل شيء على الحوانيت أمجاد المعاصر الفرنسيه السامية هذه بسعر النبيذ الروســـي نفسه . وفرض على ذلك قيدا وحيدا ألا وهو ان كل متستر لا يستطيع الحصول الا على عدد محدد ومختصر من هذه الزجاجات . انها لعظيمـة مقاصد الاشتراكية ، بيد اننا نحن الشعراء على نمط سواء في انحاء الدنيا كلها . كل واحد من زملائي في الادب ارسل أقاربه ، جيرانه ، معارفه ، كي يشتروا له بسعر مخفض جدا زجاجات نبيذ ذات محتد سام وصنف عال . فانتهب من السوق في يوم واحد فقط .

لقد وصلت الى دار (ايهرينبورغ) كمية لن أبوح بها . بهذه المناسبة وجدتني في صحبة عدو النازية اللدود ، نتحدث معا عن النبيذ ونشرب جزءا من قبو (غوبلز) ، نخب الشعر وعلى شرف الانتصار .

القصور المستردّة

لم يدعني الاشراف الى بيوتاتهم الكبيرة يوما ، البتة ، والحقيقة هي انني لم يكن لي من حب الاستطلاع الا القليل النادر ، دائما . ان الرياضة القومية في تشيلي هي المزايدة . انك لترى اناسا كثيرين يخفون في زحمة وازدحام الى المزادات الاسبوعية التي تميز بلدي . كل مزاد له حظيرتـــه الخاصة به وكل حظيرة دار لها مصيرها . حين تصل اللحظة المناسبة تبدأ بالمزايدة على احسن مزايد الحواجز الحديدية التي ما تركتني مرة اتخطاها، لم تتركني ولا ركب العامة التي أشكل جزءا منها ، ومع هذه الحواجـــز الحديدية التي تحيط بالحظائر تغير اصحابها ومالكيها المقاعد والكراسى ، تماثيل المسيح المدماة ، صور الفترة الحالية ، الصحون ، الملاعق ، الملاحف التي تحتها تناسلت حيوات كسلى كثيرة . انه ليعجب الانسان التشيلي ان

يدخل ، أن يلمس ، أن يجس ، أن ينظر ، أن يساوم ويفاصل . قليلون هم الذين يشترون في آخر الامر . من بعد يهد بناء كل حظيرة فيزايد على كل قطعه من قطع البناء . فيأخذ المشترون معهم العيون ، اي النوافذ ، الامعاء ، اي السلالم والاقدام هي أرضيات البناء الخشبية ، واخيرا فانهم يتقاسمون كل شيء حتى اشجار النخيل المغروسة .

في اوروبا ، على العكس من هذا فان الدور يحافظ عليها ولا تباع كما في تشيلي . انك لستطيع ان ترى ، احيانا ، صورة لكل «دوق» ولكل «دوقة» ، معلقة هناك على الجدران ، صورا رسمها رسام محظوظ لاصحاب هذه المنازل وسيداتها وهن عاريات فكانت متعة لنا نحن الذين نتمعن الآن في هذه الرسوم وفي هذه الانحناءات التي بها . اننا لنستطيع ان نلمح ايضا الاسرار ، الجرائم ، الشعر المستعار ، هذه السجلات المحيرة التي هي الجدران ذات الزرابي والسجاجيد التي امنصت احاديث كثيرة مختصة بمقصورة المستقبل الاليكترونية .

لقد دعيت لزيارة «رومانيا» فلبيت الدعوة مسرعا واسرعت الى الموعد. اخذني الكتاب للاستجمام الى دارهم الريفية الجماعية وسط الغابات الجميلة . لقد كان منزل الكتّاب الرومانيين من قبل قصرا لـ (كارول Carol) ذلك الطائش الذي اصبحت غرامياته فوق الطبيعية مهيزلة عالية . ان القصر الآن بأثاثه الجديد وحمّاماته المرمرية قد وضع تحت خدمة الفكر والشعر برومانيا . لقد نمت نوما مريحا جيدا في سرير جلالة الملكة ، وفي اليوم التالي ذهبنا لنزور قصورا اخرى اصبحت متاحف او منازل استجمام او مواضع لقضاء الاجازات . كان يصحبني من الشعراء (جيبيليانو) و (بينويك) و (رادو باورللانو) . في الصباح الاخضر ، تحت عمق اشجار التنوب بالحدائق الملكية القديمة ، كنا نغني في افراط ، كنا نضحك في صخب ، كنا ننشد أشعارا بكل اللغات . ان الشعراء الرومانيين بتاريخهم الطويل من الآلام والاوجاع خلال الانظمة الملكية ــ الفاشية ، هم اكثر الشعراء قيمة وفي الوقت ذاته اكثرنا فرحا. لقد كان أولئك المنشدون الرواة الرومانيون جدا كما عصافير بلادهم الاحراجية ، الحازمون في قوميتهم الجازمون في ثوريتهم ، المغرمون بالحياة غراما ثملا ، اكتشافا بالنسبة لي . في اماكن قليلة استطعت ان افوز بأخوة كثر في وقت قصير كما في «رومانيا» .

رويت للشعراء الرومانيين كي اسرهم وأبعث في نفوسهم فرحا كبيرا ان زيارتي السابقة لقصر نبيل كانت هي زيارتي لقصر «ليريا» بمدريد في عز الحرب الاهلية . فيما كان العدو يمضي منصرفا الى عمله المقدس بتقتيل الاسبان ، يشاركه في هذا الطليان والمغاربة والصلبان المعقوفة ، احتل رجال «الميليشيا» ذاك القصر الذي كنت اراه مرارا وتكرارا لدى عبوري بشارع «ارغوايبس» في عامي ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ . كنت من حافلة الركاب التي تعلني اوجه نظره الاحترام، ليست نظرة طاعة لهؤلاء «الدوقيين»الجدد من آل (البا) الذين ما كانوا ليقدروا على اخضاعي وأنا امريكي اجنبي شبه همجي ، بل كنت مسحورا مأخوذا بهذه الجلالة التي لا يملك مثلها الا الخيول وشواهد القبور ونواويسها الصامتة البيضاء .

حين اندلعت الحرب الاهلية ظل (دوق ، البا) هذا مقيما في انجلترا ، لان لقبه في الحقيقة هو (بيرويك) . بقي هناك مع احسن لوحاته ومع اكنز كنوزه . متذكرا هذا الهرب «الدوقي» قلت لزملائي الرومانيين انه في الصين ، بعد التحرير ، هرب آخر سليل من سلالة (كونفوشيوس) الذي اغتنى بمعبد الفيلسوف المرحوم وبعظام قبره ، الى «فيرموزا» مزودا بلوحات وشراشف وأوان ، وعظام كثيرة كذلك . لا بد انه جيد التموضع هناك نظرا لانه يقبض ثمن بطاقات الدخول ليرى الناس رفات جده المغفور له .

من اسبانيا كانت تخرج في تلكم الايام ، نحو بقية انحاء العالم اخبار رهيبة مرعبة : «قصر (دوق البا) التاريخي يسطو عليه الحمر» ، مشاهد آثمة من التخريب والتهديم . «فلننقذ هذه التحفة التاريخية» .

لقد ذهبت لأرى القصر الذي كنت استطيع ان ادخل اليه بعد ان احتله رجال «الميليشيا» . كان الناهبون المفترضون عند الباب واقفين في ملابسهم العمالية الزرقاء وبنادقهم في ايديهم . كانت تتساقط أوائل القنابل فوق مدريد من طائرات الجيش الالماني . طلبت من رجال «المليشيا» ان يتركوني ادخل الى القصر . دققوا في اوراقي الثبوتية تدقيقا دقيقا وفحصا متمعنا . كنت على وشك ان ابدأ بأوائل خطاي داخل القاعات الثرية، الغنية حين منعوني من ذلك لاني ارتكبت خطأ فادحا : لم اكن قد نظفت حذائي في الممسحة الموجودة عند البوابة . في الواقع ان مداسات القاعات

وأرضياتها كانت تلمع كالمرايا . نظفت الحذاء ودخلت . كانت المستطيلات الفارغة في الجدران تعني لوحات غائبة . كان رجال الميليشيا يعرفون ذلك كله . لقد قصوا عليّ كيف ان «الدوق» كان قد اخذ هذه اللوحات التي صرفه في «لندن» منذ سنين كثيرة ووضعها هناك في صندوق محكم . ان الشيء المهم الوحيد في القاعة الكبيرة كان هو تذكارات صيد ؛ رؤوس ذات قرون ، لا حصر لها وخراطيم وحوش مختلفة . ما كان يلفت النظر اكثر من غيره هو دب ابيض كبير واقف على قدميه وسط الغرفة ورافع ذراعيه القطبيتين المفتوحتين وله وجه ضاحك يفتر عن اسنانه كلها ، وكان هذا الدب هو المفضل لدى رجال «الميليشيا» اذ انهم ينفضونه بعرشاة كل يوم ويستحجونه .

طبعا لقد اهتممت بغرف النوم حيث كان ينام الكثيرون من آل (البا) مع كوابيس تسببها الاشباح «الفلامنكية» التي تأتي في الليالي لتدغدغ لهم ارجلهم . الأرجل لم تعد هناك موجودة لكن ، اجل ، اجل ، اكبر مجموعة من الاحذية رأيتها في حياتي . ان هذا الدوق الاخير لم يزد شيئا في مجموعة لوحات القصر غير ان مجموعة احذيته كانت شيئا مفاجئا، شيئا لا يحصى لكثرته . رفوف طويلة ذات زجاج كانت تصل حتى السقف ، فيها تحفظ آلاف الاحذية . كان ثمة ، كما في المكتبات ، سلالم خاصة ، وربما انها تستعمل كي تأخذ هذه الاحذية من كعابها . نظرت في حيطة وتمعن اليها. كان ثمة مئات الازواج من الجزم البديعة لركوب الخيل ، بعضها اصفر وبعضها اسود . كذلك كان هناك من هذه الاحذية ذات الكعوب العالية، ذات الاقمشة المخملية والازرار الصدفية . كان هناك كميات هائلة من الاحذية الكبيرة ، من النعال ، من الاخفاف ، كل واحد منها وقالبه في داخله ، وهذا ما كان يجعلها تبدو وكأن لها سيقانا واقداما نابتة صلبة تحت تصرفها وطوع امرها . فان فتحت الواجهة لهذه الاحذية فانها ستركض جميعها الى «لندن» وراء «الدوق» ! يمكن للمرء ان يستعرض هذه الاحذية ذات الكعوب العالية المصطفة على طول ثلاث غرف او اربع ، استعراضا بنظره ، بنظره فقط لان رجال «الميليشيا» وقد تنكبوا البنادق لن يسمحوا له ولا حتى لذبابة ان تلمس هذه الاحذية . «الثقافة» كان المدّعون يقولون : «التاريخ» كان المتخرصون يزعمون . لقد كنت انا أفكر بالفتيان الفقراء المنتعلين نعالا من قتب الموقفين زحف الفاشية في قمم «سوموسيرا» (١٩) الرهيبة ،

المدفونة في الثلج والوحل .

كان قرب سرير «الدوق» لوحة ذات اطر ذهبية جذبتني بحروفها القوطية . عجبا ، فكرت ، لا بد ان شجرة اسرة (البا) قد رسمت هنا وخطت ، لقد كنت على خطأ فلقد كانت قصيدة « ايف » ل (روديارد كيبيلينغ) (٢٠) هذا الشعر المبتذل المنافق ، رائد مجلة «ريدير ديجيست» الذي مستواه الفكري لا يزيد علوا في رأيي عن مستوى احذية (الدوق البا)، مع اذن الامبراطورية البريطانية .

ان حمّام «الدوقة» سيكون منيرا للغاية ومهيجا جدا ، كنت أفكر انا ، لا بد انه سيثير بي اشياء كثيرة . بخاصة تلك العذراء المتكئة الموجودة في متحف « الباردو » (٢١) التي وضع لها (غويا) الحلمتين الواحدة بعيدة جدا عن الاخرى ، الى درجة ان المرء يفكر كيف قاس الرسام الثوري البعد مضيفا قبلة على قبلة الى ان ترك لها عقدا غير مرئي من نهد الى نهد . لكن الغلط استمر فأخطات مرة اخرى في توقعاتي . لقد اخطأت في الدب ، في موضع الاحذية ذات الكعوب العالية ، في «الاوبيريت» الاسبانية ، في الـ «ايف» واخيرا بدلا من حمّام إلهة وجدت مرحاضا مدورا ذا أبهة مزيفة بنصف برميل تحت مستوى الارض ، ببجع مصنوعة من الهيصم ، متأنقة ، حاملات قناديل متحذلقة متكلفة متصنعة هزلية ، في النهاية ، قاعة حمّام للجارية كأنه حمّام في فيلم امريكي شمالي .

كنت على وشك الانسحاب في عدم رضا كئيب حين خفّف عني اذ ان رجال «المليشيا» دعوني الى الغداء . هبطت معهم الى المطابخ . كان قد استمر هنا اكثر من اربعين او خمسين من الطهام والخدم والبستانيين الذين كانوا يعملون عند «الدوق» ، يعيشون ويطبخون لهم ولرجال «المليشيا» الذين كانوا يحرسون القصر . اعتبروا زيارتي مشرفة لهم . بعد

---

١٩ ــ سوموسييرا : هي سلسلة جبال قريبة من مدريد .

٢٠ ــ روديارد كيبيلينغ : روائي وشاعر انجليزي (١٨٦٥ ــ ١٩٣٦) .

٢١ ــ الـ باردو : هو متحف مدريد الشهير .

بضعة همسات وبعد الذهاب والاياب وتوقيع وصول لا بد منها اخرجـــوا زجاجة مغبرة واذ بها من نوع **lachrima christi** لها من العمر مائة سنة، فما تركوني اشرب منها الا بضعة جرعات ، كان نبيذا لاعجا حارا مركبا من عسل ونار ، وفي الوقت نفسه عنيفا شديدا ، لا يدرك باللمس . لن انسى بسهولة دموع «الدوق» التي انسكبت في الاقداح .

بعد اسبوع اغارت طائرتان المانيتان والقتا اربع قنابل محرقة فوق قصر «ليريا» . لقد شاهدت وانا على شرفة بيتي طيران العصفورين العرّافين ، تألقا ملونا جعلني ادرك لتوّي اني اشاهد لحظات القصر الاخيرة .

لقد مررت ذاك المساء نفسه بالاطلال الدخانية ــ اقول هذا للكتاب الرومانيين منهيا حكايتي ــ .

هناك علمت بشيء مؤثر جدا ــ أضعت من بعـــد ــ اذ ان رجـــال «المليشيا» النبلاءَ انصرفوا تحت النار التي كانت تنزل من السماء ، وبين الانفجارات التي كانت تهز الارض ووسط الحرائق التي كانت تزداد وتنمو، لانقاذ ما يمكن انقاذه فما استطاعوا ان ينقذوا الا الدب الابيض، وكادوا ان يهلكوا في محاولتهم هذه اذ ان الدعامات كانت تنهدّ وكل شيء كان يشتعل، وكان هذا الحيوان المحنط الهائل يصر ويعاند كي لا يمر من بين النوافذ او الابواب . لقد رأيته من جديد ولآخر مرة بذراعيه المنفتحتين وبلونه الابيض ميتا من الضحك فوق عشب حديقة القصر .

عهد عابري الفضاء

موسكو من جديد . في صبيحة يوم ٧ من تشرين الثانـــي حضرت استعراض الشعب لرياضييه ، للفتوة السوفييتية المضيئة . لقد كـــان الشبان يسيرون ثابتين أكيدين فوق السـاحة الحمراء . كانت تتأملهم عينان حادتان لرجل مات منذ سنوات طويلة ، انه لمؤسس هذا الامن ، لمؤسس هذا الفرح وهذه القوة : (فلاديمير ايليش اوليانوف) (٢٢) المعروف بشكل خالد بلينين .

---

٢٢ ــ فلاديمير ايليش اوليانوف : هو (لينين) بطل الثورة البروليتارية في الاتحـــاد السوفييتي (١٨٧٠ ــ ١٩٢٤) .

لقد عُرضت هذه المرة اسلحة قليلة ، ولكن لاول مرة شوهدت الصواريخ عابرة القارات ، الهائلة . تقريبا كنت استطيع ان المس باليد تلك السجائر العظيمة النقية ذات المظهر الدمث ، القادرة على حمل التدمير النووي الى أبعد نقطة في الكرة الارضية .

لقد منحوا في ذلك اليوم نفسه اوسمة للروسيَّين اللذين عادا من السماء . لقد كنت انا اشعر اني قريب جدا من اجنحتهما . ان مهنة الشاعر هي ، في قسمها الاكبر ، الطيران كما العصافير . لقد جاءتني الرغبة عبر شوارع موسكو ، عند ضفاف البحر الاسود ، بين الفجاج الجبلية بالقوقاس السوفييتي ، في ان انظم ديوانا عن عصافير تشيلي . لقد كان شاعر «نيموكو» بشكل واع منصرفا الى «التعصفر» ، الى الكتابة عن ارضه النائية الفصية ، عن البلبل والعندليب ، عن القبرة والدوري ، عن «الكندور» والكناري ، بينما كان عصفوران بشريان ، عابرا فضاء سوفييتيان ينطلقان، يحلقان في الفضاء ويدهشان العالم أجمع . لقد حبسنا جميعا انفاسنا ونحن نشعر فوق رؤوسنا بهما ، وننظر بعيوننا الى الطيران الكوني الثنائي.

ذلك اليوم كانوا يمنحونهما اوسمة . وكان بالقرب منهما ، وجميعهم أرضيون بشكل كامل ، عائلاتهما ، أقاربهما ، اصلهما ، جنسهما ، جذرهما الشعبي . كان للرجال الشيب شوارب فلاحين كبيرة غزيرة وكانت النساء العجائز يغطين رؤوسهن بمناديل الارياف الاصيلة . لقد كان رائدا الفضاء هذان مثلنا سواء بسواء ، فنحن جميعا أرواح من الحقل ، من الضيعة ، من المصنع ، من المكتب . لقد استقبلهما في الساحة الحمراء ، باسم الامة السوفييتية (نيكينا خروتشوف) (٢٣) . من بعد رأيناهما في قاعة القديس (جورجوس) فقدموني الى (غورمان تيتوف) (٢٤) رائد الفضاء رقم اثنين ، وهو شاب لطيف له عينان مضيئتان . فسألته ، فجأة:

— قل لي ، ايها الرائد ، حين كنت تبحر عبر الكون وتنظر نحو كوكبنا،

---

٢٣ — نيكينا خروتشوف Nikita Jruschov : هو الزعيم السياسي السوفييتي (١٨٩٤ — ١٩٧٣) .

٢٤ — غورمان تيتوف : رائد الفضاء السوفييتي ولد عام ١٩٣٥ .

افكنت تلمح تشيلي ؟ كان ذلك كما لو اني قلت له : «انك لتدرك أن ما هو مهم في رحلتك كان هو رؤية «تشيلي» من عل» .

لم يبتسم كما كنت أتوقع بل فكر بضعة ثوان ثم قال :

ـ اني لأذكر اني رايت سلسلة جبال صفراء بأمريكا الجنوبية وكنت الاحظ انها عالية جدا ، ربما انها كانت تشيلي .

طبعا كانت تشيلي ، ايها الرفيق .

لقد تركت موسكو في الوقت الذي اكتملت فيه اربعون سنة على نشوء الثورة الاشتراكية ، وأخذت القطار المتجه الى «فينلانديا» . حين كنت أعبر المدينة باتجاه المحطة كانت تصعد صواريخ نارية كبيرة مضيئة ، فوسفورية ، زرقاء ، حمراء ، بنفسجية ، خضراء ، صفراء ، برتقالية ، وتحلّق عاليا جدا كأنها شحنات فرح تفرغ ، علامات صداقة تنطلق نحو الشعوب قاطبة من تلك الليلة المجيدة .

اشتريت في «فينلانديا» ناب كركدن بحري ومضينا في سفرنا . اخذنا الباخرة التي ستعيدنا الى امريكا . كذلك امريكا ووطني يمضيان مع الحياة ومع الزمن . عندما مررنا ب «فينزويلا» في طريقنا الى «بالبارائيسو» ارسل الطاغية (بيريث خيمينيث) (٢٥) ، الطفل المدلل لدائرة الدولة بالولايات المتحدة ، نغل (تروجيللو) (٢٦) و (سوموثا) (٢٧) بضعة جنود كما لو كانوا يركبون الى الحرب . في مهمة منعنا من النزول الى «فينزويلا» ، ليس منع الركاب جميعهم بل منع رفيقة حياتي ومنعي من النزول من الباخرة . لكن ، ما ان وصلنا الى «بالبارائيسو» حتى كانت الحرية قد طردت الطاغية الفينزويلي ، فهرول المرزبان العظيم نحو «ميامي»

---

٢٥ ـ بيريث خيمينيث Marcos : جنرال فينزويلي ولد عام ١٩١٤ .

٢٦ ـ تروخيللو Rafael Léonidas : جنرال دومينيكاني (١٨٩١ ـ ١٩٦١) .

٢٧ ـ سوموثا Anastasio «Tachi» : جنرال نيكاراغوي (١٨٩٦ ـ ١٩٥٦) .

مثل ارنب مروبص . ان العالم يسير بسرعة منذ طيران «سبوتنيك» . من كان يقول ان اول شخص سيقرع باب غرفتي في الباخرة بميناء «بالبارائيسو» كي يرحب بمجيئنا ، هو الروائي (سيمونوف) الذي كنت تركته يسبح في البحر الاسود ؟.

الفصل الحادي عشر

الشعر حرفة

قدرة الشعر

لقد كان ميزة من ميزات فترتنا ــ بين الحروب والثورات والحركات الاجتماعية الكبرى ــ انماء خصوبة الشعر حتى حدود ليست بمشتبهة . لقد كان على الانسان الاجتماعي ان يواجه الشعر بشكل جارح او مجروح، سواء أكان في وحدته منعزلا وسواء أكان مشاركا في جماهير الاجتماعات العامة المحتشدة .

ابدا ما فكرت من قبل ، حين كتبت أوائل كتبي المفعمة بالحـــزن والوحدة ، اني مع مضي السنين سأجدني أنشد شعري في ساحـــات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة . لقد جبت وجلت في انحاء تشيلي كلها أنثر شعري بين أناس شعبي .

سأروي الآن ما جرى لي في «الغوطة المركزية» التي هي اكبر سوق واكثرها شعبية وشهرة في تشيلي . مع شروق الشمس يصل اليهـــا الشاحنات والعربات والسيارات التي تجلب البقول والفواكه والاطعمة على اختلاف انواعها واصنافها من المزارع التي تحيط بالعاصمة اللاعقة الملتهمة الشرهة . يتكاثر الحمّالة ــ وهم حشد كبير ، حفاة عراة ، ذوو أجـــور قليلة زهيدة ــ في المقاهي الصغيرة والمخابيء الليلية المجاورة لاحيـــاء « الغوطـــة » .

ذات يوم جاء بضعة رجال في سيارة يبحثون عني فدخلت الى السيارة دون ان أعرف الى اين ولماذا انا امضي معهم في هذه السيارة . كنت أحمل معي في جيبي نسخة من ديواني «اسبانيا في القلب» . ثم شرحوا لي في السيارة اني مدعو لكي القي محاضرة في نقابة حمّالي «الغوطة» .

حين دخلت الى تلك القاعة غير المرتبة شعرت ببرد «ليل» (خوسيـــه اسونثيـــون سيلفا) (١) » ، ليس بسبب فصـــل الشتاء المتقـــدم فـــي زمهريره وأمطـــاره فحسب بـــل كذلك بسبب ذلـــك الجو في تلك القاعة ، الذي جعلني مندهشا مرتعدا . كان يجلس علـــى صناديق خشبية او مقاعد ليست بمقاعد، اكثر من خمسين رجلا ، بعضهم يضع على خاصرته كيسا مربوطا على شكل مريول وبعضهم يغطي جســـده بقميص مرقع عتيق وبعضهم الآخر يتحدى برد شهر تموز (٢) ببدنه العاري . انا جلست خلف طاولة صغيرة تفصلني عن ذاك الجمهور الغريب العجيب . كانوا جميعا ينظرون اليّ بعيون فحمية ساكنة ، عيون شعب بلدي .

تذكرت (لافيرت) العجوز . كان (لافيرت) ينعت هؤلاء المتفرجين الثابتي الجنان الذين لا يحركون اية عضلة من عضلات وجوههم ، وينظرون نظرات ثابتة جريئة ، بنعت كان يجعلني اضحك كثيرا . ذات مرة قال لي حينما كنا في سهول ملح البارود : «انظر الى هذين المسلمين المستندين الى عامود

---

١ ــ خوسه اسونثيون سيلفا : شاعر كولومبي (١٨٦٥ ــ ١٨٩٦) .

٢ ــ تموز : هو شهر بارد من اشهر الشتاء في امريكا الجنوبية، حيث الفصول هناك مغايرة لفصولنا المعهودة .

هناك في آخر القاعة ، اللذين ينظران الينا ، لا ينقصهما الا البرنس (٣) كي يبدوا وكأنهما من مؤمني الصحراء الرابطي الجأش والجنان» .

ما العمل مع هذا الجمهور ؟ عم يمكن لي ان أحدثهم ؟ ما هي اشياء حياتي التي في مكنتها ان تثير اهتمامهم ؟ دون ان استطيع ان أقرر شيئا ، وقد أخفيت رغباتي بالخروج من هناك مهرولا ، اخذت الكتاب الذي كنت أحمله معي وقلت لهم :

لقد كنت في اسبانيا منذ زمن قريب . هناك كان ثمة صراع كبير وطلقات رصاص كثيرة ، اسمعوا ما قلته حول ذلك الموضوع .

يجب عليّ هنا أن أشرح ان كتابي «اسبانيا في القلب» لم يبد لي قط على انه كتاب سهل الفهم . له طموح الى الوضوح لكنه مغموس في زحمة تلك الآلام الكبيرة المتعددة .

ما هو اكيد اني فكرت ان اقرأ بضعة ابيات ثم اودعهم . لكن الاشياء لم تجر هكذا . عندما شرعت اقرأ قصيدة اثر قصيدة ، مدفوعا بإحساسي ان هناك سكونا عميقا يسود وان كلماتي تتساقط فيه كما لو كان ماء عميقا وان عيونا تعلوها حواجب داكنة كثيفة الشّعر تتابع في اهتمام بالغ شِعري ، أدركت ان كتابي قد بلغ غايته وحقق غرضه فمضيت اقرأ واقرأ ، متأثرا انا نفسي بنغم شعري ، مهتزا بالعلاقة المغناطيسية بين أشعاري وبين تلك الارواح المهجورة .

لقد استغرقت قراءتي اكثر من ساعة . حين كنت على وشك الانسحاب نهض واحد من أولئك الرجال ممن يحملون الكيس المعقود حول الخصر وقال :

ــ أريد ان أقدم لك الشكر باسم الجميع ــ قال ذلك في صوت عال ــ

---

٣ ــ البرنس : هكذا في الاصل Albornoz عن العربية

وكذلك أريد ان اقول لك اننا لم ننفعل من قبل كما انفعلنا ونحن نصغي الى أشعارك .

حين انتهى من كلمته هذه انفجر في نحيب وطفق آخرون عديـــدون يبكون . خرجت الى الشارع بين نظرات بليلة ومصافحات بأيد خشنـــة غليظـــة .

هل يستطيع شاعر ان يكون هو نفسه بعد ان يمر بهذه التجارب من الورد والنار ؟

عندمـــا اريد ان اتذكر (تينا مودوتي) فانـــي أبذل جهـــدا كبيرا كما لو اني التقط قبضة ضباب . كانت هشة ذكراها ، غير مرئية . افعرفتها أم لم أعرفها ؟.

كانت لما تزل جميلة : وجه بيضوي شاحب متاطر بجناحين سوداوين من شعر ملموم، وعينان مخمليتان واسعتان تنظران من خلال السنين. لقد طبع (دييغو ريبيرا) صورتها ، قوامها ووجهها ، على جدارية من لوحاته ، مكللة بتويجات نباتية ومزارق من ذرة .

لقد كانت هذه المراة مناضلة ثورية ايطالية ، فنانة كبيرة في فـــن التصوير ، وصلت الى الاتحاد السوفييتي منذ زمن بغرض تصوير الجماهير والنصب التذكارية . لكنها ، هناك وقد احيطت بأنغام الخلق الاشتراكـــي المبهرة ، رمت بآلة التصوير الى نهر «موسكوفا» واقسمت ان تكرس حياتها كلها لتأديـــة اكثر مهام الحزب الشيوعي تواضعا . حين كانت تؤدي هذه المهام او قسما منها عرفتها انا في المكسيك وشعرت انها تموت تلك الليلة.

وقع هذا عام ١٩٤١ . كان زوجها هو (فيتوريو فيدالي) الرائد المشهور باسم (كارلوس) في الطابور الخامس . ماتت (تينا مودوتي) بسكتة قلبية في التاكسي الذي كان يقلها الى بيتها . هي كانت تعرف ان قلبها ما كان يسير سيرا حسنا لكنها لم تبح بهذا الامر الى احد حتى لا يضنوا عليهـــا بالعمل الثوري الذي كانت تؤديه ، فقد كانت مستعدة لتنفيذ ما لا ينفذه احد غيرها : مسح المكاتب وتنظيفها ، الذهاب مشيا على الأقدام الى أبعد

المناطق واكثرها شعبية ، قضاء الليالي في سهر وهي تكتب على الآلــة الكاتبة ، الرسائل والتقارير او وهي تترجم مقالات . وفي الحرب الاهلية الاسبانية كانت ممرضة لجرحى مناضلي الجمهورية الاسبانية .

لقد وقعت لها حادثة مأساوية في حياتها حين كانت رفيقة الزعيـم الكبير الشاب (خوليو انطونيو ميبا) الذي كان لاجئا حينذاك في المكسيك. لقد ارسل الطاغية (جيراردو ماتشادو) (٤) من «لا هافانا» عصبة من حاملي المسدسات المجرمين كي يقتلوا هذا الزعيم الثوري. كانا يخرجان ذات مساء من السينما ، «تينا» واضعة ذراعها بذراع «ميبا» ، حين اطلقت عليهما عيارات نارية ، فسقط هو صريعا وتدحرجت هي معه على الارض ملطخة بدمـاء صاحبها فيما كان المقتالون المجرمون يهربون وهم محميون بشكل جيد . والطامة الكبرى هي ان رجال الامن هؤلاء الذين حموا المجرمين حاولوا اتهام (تينا مودوتي) زاعمين انها هي القاتلة .

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على ذلك الحادث استنفرت في صمت قوي (تينا مودوتي) . حاولت السلطات المكسيكية ان تكرر تلك الفضيحة التي ارتكبتها حين ارادت هذه السلطات اتهام (تينا) بموت (ميبا) ، مدّعية ان موتها يتعلق بفضيحة . اثناء ذلك (كارلوس) وانا كنا نكشف عن تلـك الجثة الصغيرة . ان رؤية معاناة رجل قوي جدا وشجاع جدا ليس بالمنظر اللطيف . لقد كان ذلك الاسد يدمى حين يتلقى في جراحه سم الفضيحة القارض التي كان يراد بها تلطيخ (تينا مودوتي) مرة اخرى وهي ميتة . كان الرائد (كارلوس) يزمجر ويزأر بعينيه المحمرتين ، (تينا) اصبحت من شمع في تابوتها الصغير ، تابوت لاجئة وانا كنت ساكتا غير قادر على عمل شيء تجاه ذلك الكرب الانساني المجتمع في تلك الغرفة .

كان الصحفيون يملأون صفحات كاملة من سلسلة قصص قذرة. كانوا يسمونها «امرأة موسكو الغامضة» . بعضهم كان يضيف «ماتت لانها كانت تعرف اكثر مما يجب» . متأثرا بآلام (كارلوس) الغاضب ، اتخذت قرارا .

---

٤ ــ خيراردو ماتشادو : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١ ــ ١٩٣٩) .

كتبت قصيدة متحدية ، ضد أولئك الذين كانوا يهينون ميتتنا النبيلة . ارسلتها الى الصحف كافة دون أدنى امل بأن ينشروها . ها لقد حدثت الاعجوبة . فلقد ظهرت في اليوم التالي على الصفحات الاولى بدلا من الفضائح المزورة المزيفة ، قصيدتي الساخطة الغاضبة .

كانت القصيدة معنونة على الشكل التالي « (تينا مودوتي) قد ماتت » قرأنها ذلك الصباح ، في مقبرة «المكسيك» (٥) حين اودعنا التراب جسدها حيث ترقد هناك الى الابد تحت حجر غرانيتي مكسيكي . فوق شاهد هذا الحجر نقشت قصيدتي .

ابدا لم تعد تلك الصحافة تكتب سطرا واحدا ضد (تينا مودوتي) .

كان ذلك في «لوتا» منذ سنوات عديدة . لقد خف الى اجتماع سياسي اكثر من عشرة آلاف عامل من عمال المناجم . ان منطقة الفحم هي منطقة متزعزعة مهتزة لما فيها من فقر دام اكثر من قرن . فجاء منها الى ساحة «لوتا» عمال كثيرون غصت بهم الساحة . تكلم الخطباء السياسيون كثيرا . كانت تطفو في الهواء الحار لمنتصف النهار رائحة كرائحة الفحم وملح البحر . قريبا من هناك كان المحيط ، تمتد تحت مياهه على مدى اكثر من عشرة كيلومترات الانفاق المعتمة التي كان أولئك الرجال يستخرجون منها الفحم .

ها هم الآن يصغون في عز الشمس . المنصة عالية جدا ومنها ألحظ ذلك البحر من خلال قبعات العمال السوداء وخوذهم . كان دوري في الكلام هو الاخير . حين اعلن عن اسمي وعن عنوان قصيدتي «نشيد حب جديد الى «ستالينغراد» » ، حدث شيء خارق ، مهرجان لن استطيع ان انساه ابدا .

ان الجماهير الغفيرة ، حين سمعت اسمي وعنوان قصيدتي انكشفت في هدوء . انكشفت لانه ، بعد تلك اللهجة الحاسمة والجمل السياسية

---

٥ ـ المكسيك : هو اسم عاصمة المكسيك كذلك .

الحازمة سيتكلم شعري : الشعر . انا رايت من على تلك المنصة العالية حركة القبعات الهائلة : عشرة آلاف يد كانت تنزل في ايقاع واحد ، في تموج لا يوصف ، في حركة بحر ساكن ، في زبد اسود ذي وقار صامت واحترام خاشع .

اذ ذاك قصيدتي نمت واكتسبت نبرتها النضالية التحريرية المطلقة .

هذا الشيء الآخر جرى لي في اعوامي الفتية . حينذاك كنت شاعرا طلابيا ارتدي بردة غامقة اللون ، شاعرا لا يتغذى بما فيه الكفاية كشعراء تلك الفترة جميعهم . كنت قد انتهيت من نشر ديواني «شفقيات» ، وكنت ازن أقل من ريشة سوداء .

دخلت مع اصدقائي الى ملهى ذي ميتة سيئة (٦) . كان زمن «التانغو» وعهد العربدة الدنيئة . فجأة توقف الرقص وتهشم «التانغو» كما كأس انفجرت على حائط .

كان في مركز الحف حيث كان الناس يرقصون ، وغدان شهيران يتشاتمان ويتهامزان ويتلامزان . حين يتقدم احدهم كي يصفع الآخر ، يتقهقر الثاني وترتد مع تقهقره جمهرة محبي الموسيقى الذين كانوا يتمترسون خلف الطاولات . كان هذا كله يبدو وكأنه رقصة بدائية وحشية في ساحة وسط الغابة البكر .

دون ان افكر مليا اقتربت منهما وانتهرتهما وانا ما انا عليه من ضعف جسدي وهزال عضلي :

ايها العربيدان الرعديدان ، ايها الحقيران التافهان ، ايها الخسيسان البخسان ، ايها الفرخان المشاغبان ، اتركا الناس وشأنهم في راحة وهدوء فهم ما جاؤوا الى هنا لمشاهدة هذه المهزلة بل للرقص والمتعة .

---

٦ ـ ميتة سيئة : تعبير اسباني بمعنى ، سيء او بمعنى ، سمعة سيئة .

نظر احدهم الى الآخر مندهشيّن متفاجئين كما لو لم يكن اكيدا مـا كانا اليه ينصتان . توجه أقصرهما الذي كان ، قبل ان يغدو وغدا ، ملاكما معروفا ، نحوي يريد ان يقضي عليّ ويغتالني ، وكان على وشك ان يزيلني من الوجود لو لم تظهر على حين غرة قبضة اصابت هدفهـا فدحرجت «الغوريلا» على الارض ، لقد كانت قبضة خصمه الذي قرر اخيرا ضربه والخلاص منه .

حين اخرجوا البطل المهزوم كما لو كان كيسا ، بدات الايدي من الطاولات المنتشرة هناك تمد لنا الزجاجات والراقصات اخذن يبتسمن لنا متحمسات فرحات، والعملاق الذي جاءت منه ضربة اراد المشاركة ظانا انه يستحق التكريم بعد ان برّأ نفسه بضرب خصمه ، لكنني شتمته وردعته بشكل صارم :

ــ انسحب من هنا فلأنت من العينة السافلة ذاتها .

انتهت لحظاتي من المجد بعد قليل، اذ اننا لمحنا حين كنا نمر عبر مخرج ضيق نوعا من جبل له حزام من نمر يسد باب المخرج . لقد كان الملاكم الآخر من طغمة الاوباش الاوغاد ، كان الغالب الذي ضربته بكلماتي وطردته يقطع علينا الممر في حراسة انتقامية .

كنت أنتظرك ــ قال لي .

بضربة خفيفة نحاني نحو باب هناك فيما كان اصدقائي يعدون هاربين على غير هدى . بقيت مهجورا مخذولا وحيدا امام جلادي . نظرت نظرة سريعة علني أعثر على ما يمكن ان التقطه فأدافع عن نفسي به فلم يكن هناك من شيء . قطع المرمر الثقيلة التي تغطي الطاولات ، الكراسي الحديدية مستحيلة الرفع فلا اصيص زهر ولا زجاجة ولا عكاز بائسة منسية .

فلنتكلم ــ قال الرجل .

ادركت ان اي جهد ابذله في الحوار سيكون عديم الجدوى، وفكرت في ان هذا الوحش يريد روزي قبل التهامي كما النمر مع الأيل الوليد ، وفهمت

أن دفاعي الوحيد هو الا انمّ عن الخوف الذي كنت أشعر به . اعدت اليه الضربة التي اعطانيها لكنني لم استطع زحزحته ولا ميليمترا واحدا فقد كان جدارا صخريا صلدا .

فجأة حنى رأسه نحو الخلف وغيرت عيناه : عينا سبع ، من تعابيرهما.

ـ هل حضرتك الشاعر (بابلو نيرودا) ؟

ـ اجل انا (بابلو نيرودا) .

اخفض رأسه واستمر قائلا :

ـ يا لي من حقير ! انا امام الشاعر الذي اعجب به جدا وهو من قال لي في وجهي اني حقير دنيء .

ومضى يتأسف ورأسه بين يديه كلتيهما :

ـ اني قواد سافل والآخر الذي ضربته هو مهرب كوكائين ، نحن أسفل السفلاء لكن ثمة في حياتي شيء نقي طاهر الا وهو خطيبتي ، حبي لخطيبتي . انظر اليها يا سيد (بابليتو) (٧) ، انظر الى صورتها ، سأقول لها ان صورتها لمستها يداك وهذا سيسرها ويبهجها .

ناولني صورة فتاة مبتسمة .

ـ هي تحبني بسببك ، يا سيد (بابليتو) ، بسبب أشعارك التي حفظناها عن ظهر قلب .

ثم انطلق ينشد :

ـ «في أحشائك ، جانيا جنين حزين مثلي ينظر اليّ» ....

---

٧ ـ بابليتو : هو تصغير تحبب لمن يسمى (بابلو) .

في هذه اللحظة فتح الباب بدفعة واحدة واذ بأصدقائي يعودون وقد جاؤوا بمعدات واسلحة . رأيت الرؤوس تتزاحم عند الباب مندهشة ذاهلة .

خرجت في بطء . ظل الرجل هناك وحيدا ، دون أن يغير من موضعه وحالته ، واستمر يقول منشدا :

«فدى لهذه الحياة التي تضطرم في شرايينه سأفني يدي» .

لقد هزمه الشعر .

لقد هوت طائرة الطيار (بويرس) التي ارسلت في مهمة تجسسية فوق الاراضي السوفييتية ، من علو لا يصدق . صاروخان رائعان ادركاها فأسقطاها من غيومها . اسرع الصحفيون الى المكان الجبلي الذي انطلقت منه القذيفتان .

كان المدفعيان شابين صغيرين ، منعزلين في ذاك العالم الهائل المليء بشجر التنوب والثلوج والانهار . كانا يأكلان تفاحا او يلعبان الشطرنج او يعزفان على «الاكورديون» او يقرآن كتبا ويحرسان . هما كانا قد صوبا نحو السماء دفاعا عن السماء الفسيحة ، سماء الوطن الروسي .

فانهال الصحفيون عليهما بالاسئلة العديدة .

ـ ماذا تأكلان ؟ من هم آباؤكما ؟ هل يعجبكما الرقص ؟ ما هي الكتب التي تقرآنها ؟

اجاب واحد من هذين الشابين المدفعيين على السؤال الاخير بأنهما كانا يقرآن أشعارا وانه من بين شعرائهما المفضلين الشاعر الكلاسيكي (بوشكين) والشاعر التشيلي (نيرودا) .

احسستُ بفرح غامر حين عرفت ذلك . لقد كان ذاك الصاروخ الذي صعد وحلق واسقط ، من عل الى اسفل سافلين ، يحمل ذرة من شعري المتوقد .

(الشعـر)

.... كم من عمل فني .... لم يعد العالم ليسع هذه الاعمـــال لكثرتها ... لا بد من تعليقها خارج الغرف ... كم من كتاب ... كم من كتيب ... من يستطيع ان يقرأها جميعها ؟... لو انها صالحة للأكل... لو اننا نقدر في موجة شهية عارمة ان نجعلها سلطة فنفرمها ونتبلها .. لم نعد نستطيع ان نطيق منها اكثر ... لقد ضقنا ذرعا بها ... لقد اختنق العالم فـــي دوامة الكتب ... (ريفيردي) (٨) قـــال لي : « لقـــد اعلمت دائرة البريد بأن لا ترسل لي ما يصلها باسمي من كتب . لم اعد أستطيع فضها . لم يعد عندي مكان لها . لقد تسلقت الجدران فخشيت من كارثة ان تنهال فوق رأسي » ... انكم جميعـــا تعرفون (اليوت) (٩) ... قبل ان يكون رساما ، قبل ان يصبح مخرجا مسرحيا ، قبل ان يغدو كاتب مقالات في النقد . كان يقرأ اشعاري ... فكنت اشعر بالغبطة ... لا احد كان يفهم شعري كما يفهمه (اليوت) ... الى أن بدأ ذات يوم ينشدنـــي اشعاره وأنا ، بشكل أناني انطلقت مستنكرا : «لا تقرأ لي اشعارك ، لا تقرأ لي أشعارك» ... ثم حبست نفسي في الحمّام ، لكن (إليوت) ، من خلف الباب ، طفق ينشد أشعاره على مسمع مني ... فشعرت بحزن شديد... الشاعر الاسكوتلاندي (فريزر) الذي كان حاضرا آنذاك نهرني : «لماذا تعامل (اليوت) هذه المعاملة السيئة» ؟... فأجبته : اني لا أريد ان أخسر احسن قرائي فلقد ربيته حتى عرف كل شيء عن شعري حتى تغضناته وتجاعيده.. ان له لنبوغا كثيرا ... يستطيع ان يرسم اللوحات ... يقـدر ان يكتب المقالات ... بيد اني أريد ان احافظ على هذا القارىء ، أن أحتفظ به ، أن أرويه كما أروي نبتة نادرة . انك لتفهمني وتتفهمني يا (فريزر) ... الان الحقيقة ، ان استمر هذا الوضع كما هو عليه ، هي أن الشعراء سينشرون

---

٨ ــ ريفيردي : شاعر فرنسي ولد عام ١٨٨٩ .

٩ ــ اليوت : شاعر وناقد امريكي شمالي (١٨٨٨ ــ ١٩٦٥) .

شعرهم كي يقرأه الشعراء الآخرون ، ليس الا .... كل واحد منا سيخرج معدنه ، قصيدته ويدسها في جيب الآخر او يضعها في طبقـــه .... (كيبيدو) ترك قصيدة من قصائده تحت منشفة الملك فوق مائدته ... هذا، نعم ، كان يستحق الهم والمغامرة ... فاما ان نضع الشعر في ساحة تحت أوج التسمس... او ان الكتب تستهلك وتتفتت وتتلف في اصابع الجماهير الانسانية ... لكن هذا النتر من شاعر الى شاعر لا يغريني ، لا يستهويني، لا يشوقني بل يحدوني الى ان انتبذ مكانا قصيا وسط الطبيعة ، قــرب الصخر والموج ، نائيا بنفسي عن دور النتر وعن الورق المطبوع ... لقد فقد التسعر صلته بالقارىء البعيد ... فعليه ان يستردها ... عليه ان يجوس الدياجير حتى يلتقي بقلب الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين قد يحتاجون في ساعة شفقية او في ليلة ذات نجوم الى بيت شعر واحد على الاقل ... ان هذه الزيارة المباغتـــة تعادل كل ما مشيناه ، كل ما قرأناه ، كل ما تعلمناه ... لا بد لنا من أن نضيع بين من لا نعرفهم كي يقطفوا عما قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الاوراق المتساقطة منذ الف سنة وحتى الآن في الغابـة ذاتها ... فيتناولوا في حنان هذا الشيء الذي صنعناه نحن ... حينذاك سنكون شعراء حقيقيين ... وفي هذا التسيء الذي نصنعه ليقطفه الآخرون سيحيا الشعر ...

انا أحيا مع اللغة

انا ولدت عام ١٩٠٤ . في عام ١٩٢١ نشرت لي قصيدة في كتيّب . في عام ١٩٢٣ طبع لي اول ديوان وهو «شفقيات» . وهاأنذا أكتب هــذه المذكرات في عام ١٩٧٣ . لقد مضت خمسون سنة على تلك اللحظة المثيرة التي يشعر فيها الشاعر بأوائل ابتهالات المخلوق الوليد المطبــوع ، حيا ، مهتزا ، راغبا في ان يلفت الانظار اليه كأي وليد آخر .

ليس في مكنة المرء ان يعيش طيلة حياته كلها بلغة واحدة وهو يمطها طولانيا ، يسبرها عمقا ، ينبتس شعرها ، يقلب امعاءها ، دون أن تتشكل هذه المعايشة وهذه الالفة جزءاً من تركيبها العضوي. وهذا ما حصل لي مع اللغة الاسبانية . ان للغة الكلام أبعادا أخرى بينما لغة الكتابة تتخذ طولا

غير متوقع . ان استعمال اللغة كرداء ، او كبترة في الجسم ، بأكمامه ، برقعه ، بترشحاته ، بلطخاته من الدم او من العرق يكشف عن الكاتب . هذا هو الاسلوب . انا وجدت فنرتي التي عشت فيها ، مشوشة مضطربة بثورات الثقافة الفرنسية . لقد جذبتني هذه الثورات دوما لكنها ما كانت لتتلاءم مع جسدي كرداء له . لقد تكفل (هويدوبرو) وهو شاعر تشيلي ، بالنماذج الفرنسية الرائجة التي طوّعها لتتلاءم وطريقته في الوجـــود والتعبير ، بشكل يستحق التقدير والاعجاب . احيانا بدا لي وكأنه يتجاوز نماذجه ويتفوق عليها . شيء مثل هذا جرى ، في درجة أعلى ، لـ (روبين داريو) حين اقتحم الشعر «الهيسباني» (١٠) . بيد ان (روبين داريو) كان فيلا عظيما صخابا هشم زجاج نوافذ فترة كاملة من فنرات اللغة الاسبانية كي يتسرب الى محيطها هواء العالم كله . فدخل وتسرّب .

ان اللغة تفصل ، احيانا ، بين الاسبان والامريكان وبخاصة عقيـــدة اللغة ، فهي تنقسم الى قسمين . ان جمال (غونغورا) الجماد لا يناسب أدمادنا وآمادنا ، وليس ثمة من شعر اسباني وان كان آخر ما كُتب الا وله هذه العادة السيئة بالاقتباس عن الثروة «الغونغولية» . ان شريحتنـــا الامريكية لهي من حجر مغبر ، من حمم مطحونة ، من صلصال ودم . اننا لا نعرف ان نثمن الزجاج بقرعه على الحجر ، فنحن نروز الشيء بقرعه في الفـــراغ حتى يرن فنعرف قيمته . ان قطرة واحـــدة من نبيذ (مارتين فييرو) أو من شهـــــد (غابرييلا ميسترال) تجعـــل المثمنين يقفـون في مكانهم مندهشين كانهم ينظرون الى اصص زهور نادرة .

لقد اصبحت اللغة الاسبانية مذهبة بعـــد (ثيرفانتيس) (١١) . اناقة وتهذيبا ، فقـــدت القوة الهمجية التي جلبتهـــا مـــن (غونثالو

---

١٠ ـ الهيسباني : نقتـــرح هذه الكلمة للدلالـــة على ما هو مكتوب باللغـــة الاسبانية مقابل «اسباني» (Espouno) الذي يقتصر على ما هو من اسبانيا دون ان يشمل امريكا اللاتينية .

١١ ـ ثيرفانتس : الكاتب الاسبانـــي المعـــروف مؤلـــف دون كيخوتـــه (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) .

دي بيرثيو) (١٢) ومـــن (ارثيبريستـــه) (١٣) ، فقـــدت نزعة الاخصاب التي كانت ما تزال تتوهج في (كيبيدو) . لقد جرى الشيء نفسه فـــي انجلترا ، في فرنسا ، فـــي ايطاليا . ان افراط (تشوسر) (١٤) و(رابيلايس) (١٥) قد خصـــي وشظف . ان «البيترار كيـــة» (١٦) التثمينية جعلت الزمرّد والماس والجوهر تلتمع لكن نبع العظمة بدأ ينضب.

لقد كان لهذا الينبوع السالف علاقة بالانسان في كلّيتـــه ، مداه ، غزارته ، فيضه .

على الاقل هذه كانت مشكلتي مع اني لم أطرحها على نفسي بهـــذه الحدود . ان كان لشعري من معنى ، فهو هذا النزوع الفضائي اللامحدود الذي لا يقنع داخل غرفة مسدودة . لقد كان عليّ ان اتجاوز حدودي غير اني ما صممت حدودا داخل اطار بقافة بعيدة . لقد كان عليّ ان اكون انا إياي ، مجتهدا ان امتد (١٧) مثل اراضي موطني ،مسقط رأسي . لقد ساعدني في هذا السبيل شاعر آخر من القارة نفسهـــا الا وهو (والت وايتمان) (١٨) ، زميلي ، من «مانهاتان» .

يجب على النقاد ان يتعذبوا

ان «اغاني مالدورور» تشكل في العمق قصة متسلسلة كبيرة . لكن

---

١٢ ــ غونثالو دي بيرثيو : شاعر اسباني (١١٨٥ ــ ١٢٦٤) .

١٣ ــ ارثيبريسته : شاعر اسباني مات عام ١٣٥٠ .

١٤ ــ تشوسر : شاعر انجليزي (١٣٤٠ ــ ١٤٠٠) .

١٥ ــ رابيلايس : كاتب فرنسي (١٤٩٤ ــ ١٥٥٣) .

١٦ ــ البتراركية : نسبة الى الشاعر (بترارك ، فرانثيسكو Pétrarca, Francisco ايطالي (١٣٠٦ ــ ١٣٧٤) .

١٧ ــ من المعروف ان تشيلي هي ارض طويلة رفيعة ممتدة ، عرضها قليل جدا كما يبدو من الخارطة .

١٨ ــ والته وايتمان : شاعر امريكي شمالي (١٨١٩ ــ ١٨٩٢) .

يجب الا ينسى ان (ايسيدور دوكاس) اخذ اسمه المنتحل عن رواية لكاتب القصص المتسلسلـــــة (اوجبن سو) (١٩) وهي رواية لوتريامـــــون المكتوبة فـــي « شاتيناي » عـــام ١٨٧٣ . لكـــن (لوتريامونت) ، نعرف ذلك ، مضى ابعد من (لوتريامونت) ، راح الى ما هو اعمق فقد اراد ان يكون جهنميا . وراح الى ما هو أعلى فقد اراد ان يكون ملاكا لعينا . ان (مالدورور) ، في عظمة النعاسة ، يحتفل بـ «زواج الجنة بجهنم» . أن الغضب والقصائد الحماسية الغنائية والاحتضار تتشكل الامواج الجارفة في البلاغة «الدوكاسية» . (مالدورور) : مالدولور (٢٠) .

لقد خطط (لوتريامونت) لمرحلة جديـــدة ، انكر وجهه المكفهر فكتب مقدمة لشعر متفائل لم يسطع انجازه وخلفه فقد اخذت المنية هذا الشاعر الاورغوايي في باريس. غير ان هذا التغيير الموعود في شعره، هذه الحركة نحو الطيبة والصلاح ، اللذين ما امهلته المنية كي يقوم بهما ، قد أثارا من النقد الكثير ...فهو يمجّد في آلامه لكنه يُدان في عبوره الى الفرح . يجب على الشاعر ان يتعذب ويعاني ، عليه أن يحيا بائسا ، لا بد له من ان يظل يكتب الاغنية اليائسة (٢١) . هذا كان راي شريحة اجتماعية ، راي طبقة . لقد أطاع وخضع لهذه الصيغة «التساهدية» (٢٢) الكثيرون ممن رزحوا تحت العذاب الذي فرضته قوانين ليست مكتوبة لكنها ليست أقل من المكتوبة شاهدية . أن هذه المراسيم غير المرئية تعاقب الشاعر بالكوخ ، بالحـــذاء المفتوق ، بالمستشفى ، بالتسول . وهكذا الناس كلهم يصبحـــون فرحين ويمضون في حفلاتهم بقليل من الدموع .

---

١٩ ـ اوجين سو : شاعر فرنسي (١٨٠٤ ـ ١٨٥٧) .

٢٠ ـ مالدولور : كلمة تعني **الالم السيء** . لاحظ التشابه اللفظي بين اسم بطل الرواية Maldoror وبين هذه الكلمة Maldolor .

٢١ ـ الاغنية اليائسة : اشارة الى قصيدة لنيرودا نفسه . ترجمناهـــا في كتابنا ، **نيرودا ، مختارات شعرية** ص ٥٤ ـ ٥٨ .

٢٣ ـ الشاهدية : نسبة الى شاهد القبر الحجري ، ومن معاني هذه الكلمة فـــي الاسبانية (La pidaril : الناقد او المثمن او حكاك الاحجار الثمينة ، ويستغل (نيرودا) هنا هذه المعاني كلها .

لقد تغيرت الاشياء لان العالم قد تغير . ونحن الشعراء تراسنا، فجأة، تمرد الفرح . ان الكانب التعيس والكاتب المصلوب يشكلان جزءاً من طقوس السعادة في غروب الرأسمالية . لقد صُرف اتجاه الذوق العام ، في مهارة ، الى تضخيم المصيبة وجعلها خميرة في الخلق الفني العظيم . لقد اعتبر السلوك السيء والوجع وصفتين جيدتين في العمل الشعري . لم يُعط في نهاية القرن، (هولديرلين) المجنون بالقمر والبائس، و(رامبو) (٢٣) التائه المتمرد، و(جيرارد دي نيرفال)(٢٤) الذي شنق نفسه في عامود كهرباء عند زقاق بائس ، حدة الجمال واحتدامه فحسب بل كذلك درب الآلام . فصار المذهب هو ان هذا الدرب من الاشواك يجب ان يكون الشرط اللازم لكل نتاج روحي .

لقد كان (ديلان توماس) هو الاخير في السنكسار (٢٥) الموجّه .

ان ما هو غريب عجيب ان هذه الافكار البورجوازية العتيقة الفظة ما زالت سارية المفعول في بعض الانفس ، انفس لا تجس نبض العالم في انفه حيث يجب ان يُجس لان انف العالم يشتم المستقبل .

ثمة نقاد يشبهون القرع، اغصانهم الدالة وتطعيماتهم، تبحث عن آخر نفَس لآخر تقليعة خوفا من ان تضيع منها لكنما جذورهم وشروشهم ما تزال مطمورة بالماضي .

نحن الشعراء لنا الحق في ان نكون سعداء ، على اساس ان نكون متحدين بشكل حديدي مع شعوبنا وان نصارع من اجل سعادتها .

«ان (بابلو) هو واحد من بضعة رجال قلائل سعداء ، ممن عرفتهم في حياتي» يقول (ايليا ايهرينبورغ) في احد كتبه . و(بابلو) هذا هو انا و(ايهرينبورغ) لا يخطيء البتة .

---

٢٣ ـ رامبو : الشاعر الفرنسي المشهور (١٨٥٤ ـ ١٨٩١) .

٢٤ ـ جيرارد دي نيرفال : كاتب فرنسي (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) .

٢٥ ـ السنكسار : اخبار الشهداء والقديسين .

لهذا لا أستغرب أن ينشغل كاتبو مقالات اسبوعية مشهورون أمجاد بوضعي المادي مع ان «الشخصوية» يجب الا تكون موضوع النقد . انـي لافهم ان رفاهيتي المفروضة تغيظ الكثيرين لكن الامر هو اني سعيد مـن الداخل . لديّ ضمير مطمئن وعقل غير مطمئن .

اني لاهيب بالنقاد الذين يحسدون الشعراء ان كان لهم مستوى من الحياة أفضل ، أن يفتخروا بأن الدواوين الشعرية تطبع وتبـاع وتؤدي مهمتها بإيجاد عمل للنقاد ، أن يبتهجوا في أن حقوق المؤلف تدفع له وأن بعض المؤلفين ، على الاقل ، يستطيع ان يعيش من عمله المقدس . يجب على الناقد ان يفتخر بهذا كله لا ان يطلق الشّعر على الحساء (٢٦) .

لهذا ، حين قرأت منذ وقت قريب العبارات التي خصنـي بها ناقد شاب ، لامع «واكليروسي» كنائسي ، بدا لي ما كتبه سخفا ، وليس لان هذا الناقد فذ لامع بدا لي ما كتبه أقل سخفا وخطأ مما لو كان غير فذ لامع .

بناء على ما يزعمه ان شعري يشعر بالسعادة ولذلك فهو يصف لي العذاب . وفق هذه النظرية ان التهاب الزائدة الدودية سينتج نثرا ممتازا وان التهاب الصفاق سينتج أناشيد رفيعة .

انا امضي أعمل بالمواد التي املك والتي هي انا . اني التهم كل شيء: المشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الاحداث ، المعارك . لو استطيع لأكلت الارض كلها ولشربت البحر جميعه .

أبيات قصيرة وطويلة

لاني شاعر فعال نشيط فقد حاربت تأملاتي الذاتية . لذلك فان العراك بين ما هو واقعي وبين ما هو ذاتي، قد انحسم امره داخل وجودي نفسه. دون ان أزعم اني بهذا انصح احدا من الناس ، اقول ان تجاربي تستطيع

---

٢٦ ـ اطلاق الشّعر على الحساء . تعبير اسباني بمعنى تدنيس النقاوة وتعكير الجو الصافي .

ان تساعد وتفيد . لنر النتائج لاول وهلة .

انه لمن الطبيعي ان يخضع شعري لحكم النقد الرفيع وان يتعرض لهوى الانتقاد الحقير ، سواء بسواء .ان هذا يدخل في اللعبة . ليس لي حول هذه الناحية من النقاش صوت ، لكن لي رأي لاجل النقد الجوهري ان رأيي هو شعري بأسره المتمثل في كتبي ، لاجل الانتقاد المعادي لي ايضا حق ابداء الرأي وهذا الرأي كذلك مكوّن من ابداعي الذاتي الدائم .

ان ظهر ما اقوله على انه زهو وغرور فأنتم على حق وهو كذلك فعلا . ان غروري هو زهو الصانع الذي مارس حرفته خلال سنوات كثيرة في حب لا يمحي .

لكنني راض من شيء واحد الا وهو انني بشكل او بآخر ، جعلت الناس ، على الاقل في وطني ، يحترمون حرفة الشعر ، مهنة الشعر .

حين بدات بنظم الشعر ، كان الشعراء على نوعين اثنين ، شعراء سادة كبار يكسبون احترام الناس بأموالهم التي تساعدهم على اقتناء اهميتهم الشرعية او اللاشرعية ، والاسرة الثانية من الشعراء هي أسرة المحترفين المتشردين وهم مجانين سحرة ، ساهرون متروبصون ، عمالقة لكنهم معذبون . يبقى كذلك ، حتى لا انساهم ، وضع أولئك المربوطين الى طاولات الدوائر العامة كما يربط المحكوم عليه بالليمان الى السفينة بسلاسله . لقد كانت أحلامهم ، دوما ، تخنقها جبال من الاوراق المختومة ومخاوف رهيبة تجاه السلطة والعار .

لقد قذفت بنفسي الى الحياة وانا اكثر عريا من آدم لكنني كنت مصمما على المحافظة على طهارة شعري . لم يكن هذا الموقف غير المزحزح نافعا لي فقط بل كذلك اهدف منه ان يدع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، ان كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون امام شعري القيّم وما يوقظه فيهم من معان انسانية ، واما الذين هم أشرار فانهم بدأوا يتخوفون مني .

وهكذا احترم الناس **الشعر** المكتوب بالحرف الكبير ، ليس الشعر فحسب بل كذلك الشعراء كل الشعراء .

اني لواع بهذه الخدمة التي قدمتها الى المجتمع ولن ادع ان يسلبني هذا الفضل احد من الناس لانه يطيب لي أن احمل هذا الفضل وساما على صدري دائما . ان غير ذلك من الامور قابل للنقاش اما هذا الذي أرويه الآن فانه تاريخ حاسم وحقيقة مسلمة .

ان اعداء الشاعر العنيدين سيشهرون حججا لم تعد تفيد في شيء ، لقد سمتوني في صباي : الميت جوعا ، والآن ها هم يعادونني ويحاولون تنكيد عيشي بجعل الناس يظنون اني مثر ، املك ثروة هائلة ، انه ليعجبني ان املك هذه الثروة ان كنت لا املكها كي انكد عيشهم وازيدهم غيظا بالاضافة الى الاشياء الاخرى التي املكها وتبعث في نفوسهم الغيظ والحسد .

آخرون يقيسون سطور أشعاري ليثبتوا اني اقسم هذه الابيات الى اقسام صغيرة او اطيلها كثيرا . ليس لهذا من قيمة او اهمية . من هو الذي ينظم الاشعار ويجعلها قصيرة او طويلة ، نحيلة او ثخينة ، صفراء او حمراء ؟ انه الشاعر الذي يقرر ذلك ، يحدد ذلك بنفسه ودمه ، بمعرفته وجهله لان هذا كله يدخل في خبز الشعر .

ان كان الشاعر غير واقعي فانه لميت ، لكن ، ان كان الشاعر واقعيا فقط فانه كذلك لميت . ان كان الشاعر وهميا فقط فانه لن يفهم الا من لدن حبيبته ومن نفسه ، وهذا محزن للغاية وان كان الشاعر عقلانيا فقط فانه سيفهم من قبل الجميع وحتى من قبل الحمير وهذا كذلك محزن جدا. ليس ثمةمن ارقام وصيغ مكتوبة على الالواح بالنسبة لهذه المعادلات، وليس ثمة من عناصر ومواد قدرها الله او قررها الشيطان ، بل ان هاتين الشخصيتين المهمتين تتصارعان داخل الشعر وفي هذه المعركة قد يغلب هذا او قد يغلب ذاك لكن الشعر لن يهزم البتة .

انه لمن الواضح ان حرفة الشاعر اصبحت مغشوشة نوعا ما . يخرج شعراء مبتدئون كثيرون وشواعر مبتدئات كثيرات الى درجة انا سنبدو عما

قريب جميعا شعراء وسيختفي القراء . سيكون علينا ان نذهب للبحث عن القراء في رحلات تجتاز الرمال على ظهور الجمال او تحلق في السماء بسفن فضائية .

ان الشعر لهو النزعة العميقة في الانسان ، فمن الشعر خرجت الطقوس الدينية ، والمزامير وكذلك محتوى الاديان . لقد فسر الشاعر مظاهر الطبيعة وتجرأ عليها وتقلب في العهود الاولى كاهنا كي يصون دعوته ، ومن هنا فان الشاعر ، في العصر الحديث ، كي يدافع عن شعره، يرتدي الزي الذي تخلعه عليه الجماهير والشوارع . ان الشاعر المدني اليوم لا يزال هو أقدم كاهن وريث الكهنوتية السحيقة في القدم . لقد تحالف من قبل مع الدياجير وعليه الآن ان يشرح النور .

الأصالة

انا لا اعتقد بالاصالة . انها لصنم آخر ، مخلوق في عصرنا ذي الانهيار السريع المسبب للدوار . اني لاعتقد بالشخصية من خلال اية لغة ، اي شكل ، اي معنى للخلق الفني . لكن الاصالة الهاذية الهتراء هي اختراع حديث وغش انتخابي . ثمة من يريد ان يُختار **الشاعر الاول** في بلده ، في لغته ، في العالم بأسره . عند ذلك يجري بحثا عن ناخبين ، يلعن كل من يظن ان لديه احتمالا في ان ينافسه على الفوز بهذا الصولجان ، وبهذا الشكل يتحول الشعر الى مهزلة .

غير انه من الضروري الاحتفاظ بالاتجاه الداخلي ، المحافظة على النمو الذي تساهم به الطبيعة والثقافة والحياة الاجتماعية لتطوير ميزات الشاعر ومميزاته .

لقد كتب ، في الازمنة القديمة ، اكثر الشعراء نبلا وأكثرهم صرامة ، مثل (اوفيديو) Ovidio ، مثلا ، قصائدهم مع هذا التنبيه : «تقليد لـ (هوراثيو Horacio) (٢٧)» ، «تقليد لـ (اوفيديو) (٢٨) ، «تقليد

---

٢٧ ـ هوراثيو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

٢٨ ـ اوفيديو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

لـ (لوكرايثيو Lucrecio)» (٢٩) .

من جهتي ، اني لأحافظ على لحني الخاص بي الذي راح يتوطد بفضل طبيعته الذاتية مثلما تنمو الاشياء الحية كلها . لا مندوحة في ان العواطف تشكل جزءا اساسيا في أوائل دواويني ، فآه للتساعـــر الذي لا يجيب بغنائه على نداءات قلبه الناعمة او الغاضبة ! بيد انني ، بعد اربعين سنة من التجربة ، اعتقد ان التاليف الشعري يستطيع التوصل الى سيطرة على العواطف اكثر جذرية واساسية . اني لأؤمن بالارتجالية الموجهة او العفوية المسيرة او التلقائية المقننة . لاجل هذا فلا بد من ان تكون ثمة أرصدة يجب ان توضع تحت تصرف الشاعر دوما ، فلنقل انه يجب ان يحملها معه في جيبه ، لاية طارئة قد تحدث . اول ما يجب ان يزود به الشاعر هـــو رصيده من الاشكال والمضامين ، من الكلمات ، من الاوزان ، من الالحان، من الصور ، ومن هذه الاشياء التي تمر ازاء المرء كما النحل . يجب ان تصاد توا وان توضع في الجيب . انا جد كسول في هذا المعنى ، لكنني ادري انني بهذا اعطي نصيحة طيبة للشعراء الآخرين . لقد كـــان لدى (ماياكوفيسكي) كرّاس صغير يلجأ اليه بلا هوادة او تريث. ثمة ايضا مخزون العواطف . فكيف تحفظ هذه ؟ تحفظ بوعيها حين تحدث . من بعد ، امام القرطاس ، سنتذكر هذا الوعي في حيوية اكثر من حيوية العاطفة نفسها.

في قسم كبير من تآليفي اردت ان أبرهن على ان الشاعر يستطيع ان يكتب حول ما يشار له به ، حول كل ما هو ضرورة للمجموعة الانسانية . ان اكثر المؤلفات العظيمة فى القدم قد كتبت بناء على مطالب ضيقة خاصة. ان كتاب «جورجيكاس» هو دعاية للزراعة الرومانية يستطيع الشاعر ان يكتب للجامعة او النقابة ، للمنظمات وجمعيات الحرف . ابدا لم يفقـــد الحرية بهذا . ان الوحي السحري وان اتصال الشاعر باللـــه ان هما الا اختلاقين مغرضين وابتكارين ذوي مصلحة . في اكثر لحظـــات الابداع غيبوبة قد يكون النتاج ، جزئيا ، بعيدا عن صاحبه ، متأثرا بقراءاتـــه وبضغوط خارجية عنه .

---

٢٩ ــ لوكريثيو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

هانذا اقطع هذه الاعتبارات والاحكام التي هي نظرية لاتذكر الحياة الادبية التي خضتها في أعوامي الفتية . كان ثمة ، اذ"اك ، رسامون وكتّاب يتهيجون هياجا أصم . كان ثمة ، حينذاك ، غنائية خريفية في الرسم وفي الشعر . كل واحد كان يحاول ان يكون اكثر فوضويا ، اكثر انفلاشا. كانت الحياة الاجتماعية التشيلية تتحرك بشكل عميق . (اليساندري) كان يلقي خطبا تستهدف قلب النظام . في سهول ملح البارود اخذ العمال ينظمون انفسهم فخلقوا اكثر الحركات الشعبية اهمية في القارة الامريكية. لقد كانت تلك الفترة ايام صراع مقدس . ايام (جان غاندولفو) و(كارلوس بيكونيا) . لقد التحقت انا بحركة العقيدة الفوضوية الطلابية . كان كتابي المفضل هو «سانشا يفوليف» Sancha Yegulev ل (أندريف) . كان الآخرون يقرأون الروايات الاباحية ل (ارزيبفاشيف Arzivachev) وكانوا ينسبون اليه استنتاجات عقائدية كما يقع اليوم بالنسبة للاباحية الوجودية. كان المثقفون يلتجئون الى النوادي الليلية فكان النبيذ المعتق يجعل البؤس يلتمع التماع الذهب حتى مطلع الفجر في اليوم التالي . (جان ايغانيا Juan Egana) ، شاعر موهوب جدا ، كان قد أفلس حتى القبر (٣٠) فيحكي عنه انه ورث أموالا كثيرة أنفقها على الكأس والطاس فوق طاولة في حانة مهجورة . كان السمّار ينامون نهارا ويخرجون ليلا للبحث عن نبيذ فيحتسون دنانا بأسرها . غير ان هذا الشعاع القمري لشعر (خوان ايغانيا) هو ارتعاش غير معروف في «غابتنا الغنائية» وهذا هو العنوان الرومانطيكي لكتاب المختارات الكبير الذي ألفه (مولينا نونييث) و(و. سيغورا كاسترو O. Segura Castro) ، وهو كتاب واسع محيط مليء بالعظمة والجود، وهو **الحصيلة الشعرية** لفترة مضطربة مرتبكة ، متميزة بفراغات هائلة وببريق نقي جدا . ان اكثر شخصية بهرتني هي شخصية ديكتاتور الادب الفتي الحديث ، لم يعد يذكره احد ، كان يسمى (اليرو اويارثون) ، لقد كان (بودليريا) ضامرا ، كأنه من عصر الانحطاط لكنه مليء بالمزايا الفريدة ، كأنه (باربا ـ جاكوب) بالنسبة لتشيلي . كان يتكلم بصوت أجش في قامته الطويلة . لقد اخترع هذه الطريقة الهيروغليفية الغامضة فعرض القضايا والمشاكل الفنية الجمالية ، وهو عرض فريد من نوعه في عالمنا الادبي .

---

٣٠ ـ افلس حتى القبر : تعبير اسباني ، **حتى الضنك** .

كان يرفع صوته ويبدو جبينه كأنه قبة صفراء في معبد الذكاء . كان يقول مثلا : «ما هو دائر في الدائرة» ، «ما هو «ديونيسي» في (ديونيسوس Dionysos)» ، «ما هو معمه في المعمهات» . لكن (أليرو اويارثون) لم يكن غبيا ، بل كان يلخص في ذاته ما هو فردوسي وما هو جهنمي في الثقافة . لقد كان كونيا : فبسبب حبه للتنظير ، قتل جوهره الاصيل . يقولون انه كي يكسب في مراهنة كتب قصيدته الوحيدة وأنا لا أفهم لماذا لا ترد هذه القصيدة الرائعة في كتب المختارات الشعرية التشيلية كلها .

زجاجات وتماثيل

هو ذا عيد ميلاد يقترب . كل عيد ميلاد يمر ، يقربنا من عام ٢٠٠٠ . من اجل هذه البهجة المقبلة من اجل سلام الغد ، من اجل العدالة الكونية العالمية صارعنا وانشدنا نحن شعراء هذا الزمن .

لقد طلب مني ، في ٢٤ كانون الاول من عام ١٩٣٠ ، (سوقراط اغييره)، ذاك الرجل الناعم الفاخر الممتاز الذي كان رئيسي في قنصلية تنشيلي ب «بونوس ايرس» ، ان اجعل من نفسي القديس (نيقولا) او رجل الفصح العجوز بداره . لقد صنعت اشياء كثيرة سيئة في حياتي ، لكن ما من شيء صنعته كان أسوأ من هذا «رجل الفصح العجوز». لقد كانت تتساقط مني شواربي القطنية واخطأت كثيرا في توزيع الالعاب . وكيف يمكن لي ان اخفي صوتي وقد جعلته طبيعة الجنوب التشيلي اغن اخن ، انفيا ، غير قابل للخطأ في معرفته ، منذ نعومة اظفاري ؟ لجأت الى خديعة : خاطبت الاطفال باللغة الانجليزية ، لكن الاطفال كانوا يغرزون بي عدة أزواج من عيون سوداء وزرقاء ويبدون ارتيابا وشكا وعدم ثقة لا تليق بهم هم على خلق عظيم وتربية صالحة .

من كان سيقول ان ثمة من بين أولئك الاطفال ، طفلة ستصبح من احسن صديقاتي المفضلات ومن احسن من كتبوا سيرتي وترجموا لي ، اعني بها الكاتبة الشهيرة (مارغاريتا اغيره) .

لقد جمعت في بيتي ألعابا صغيرة ودمى كبيرة ، لن أستطيع العيش

بدونها . ان الطفل الذي لا يلعب ليس بطفل ، لكن الرجل الذي لا يلعب فانه يفقد للابد الطفل الذي كان يعيش في داخله والذي سيحتاج اليـــه دوما. لقد شيدت بيتي كذلك مثل لعبة العب بها من الصباح الى الليل .

انها لعبي الخاصة بي ، لقد جمعتها طيلة حياتي كلها بهدف علمي الا وهو ان اتسلى بها وحدي . ساصفها من اجل الاطفال : الاطفال الصغار واطفال الاعمار كلها .

عندي سفينة شراعية داخل زجاجة . لكي اقول الحقيقة ان عنـدي اكثر من واحدة . انها لاسطول حقيقي لها اسماؤها المكتوبة ، قضبانها ، قلاعها ، قياديمها ، مراسيها ، مخاطيفها ، بعضها جاء من بعيد ، من بحار اخرى صغيرة . واحدة منها ، وهي من اجمل السفن ، ارسلوها لي من اسبانيا كدفع لحقوق المؤلف عن كتاب من كتب اناشيدي . في الاعلى ، على السارية الكبيرة ترفرف رايتنا التشيلية بنجمتها الوحيدة الصغيرة . لكن ، البواخر الاخرى ، تقريبا كلها ، هي من صنع السيـــد (كارلوس هويئاندير) والسيد (هوياندير) هو بحّار عجوز ، اعاد انتاج الكثير مـــن السفن الجليلة الشهيرة التي كانت تجيء من «هامبورغ» او من «سالم» أو من الشاطىء البريتاني لشحن ملح البارود او لصيد الحيتان من بحـــار الجنوب .

حين أهبط الطريق الطويل لتشيلي كي اجد في «كورونيل» البحّار العجوز بين رائحة الفحم والمطر الغزير بهذه المدينة الجنوبية فاني فـــي الحقيقة ألج الى الترسانة حيث يوجد أصغر مرآب لبناء السفن في العالم. في القاعة ، في غرفة الطعام ، في المطبخ ، في الحديقة كانت تتراكم وتنتظم المواد التي ستحتسر داخل الزجاجات الشفافة الواضحة التي قد أ فرغ منها «البيسكو» (٣١) . يلمس السيد (كارلوس) بصفيره السحـــري قياديم ، اشرعة ، صواري ، فيستحيل كل ما يمر بين يديه حتى اصغر دخان فـــي المرفأ الى خلق وابداع ، الى سفينة زجاجية جديدة ، نضرة مشعة ، مهيأة للبحر الوهمي . تبرز في مجموعتي في كبرياء وغطرسة ، من بين السفن

---

٣١ ــ البيسكو : نوع من الخمر يشبه العرق .

الاخرى التي اشتريتها في «امبيرس» او «مارسيليا» ، السفن التي خرجت من يدّي ملاّح «كورونيل» المتواضعتين . فهو لم يمنح هذه السفن الحياة بحسب بل اضاءها بمعرفته ، ملصقا عليها اعلانا يحكي الاسم والرقم ومآثر كل نموذج يقلده ، الاسفار التي قامت بها كل سفينة الاهوال التي لاقتها ، الحمولات التي وزعتها حين كانت تمخر ضد الريح مرتعشة عبر المحيط الهادي بأشرعتها التي لن نراها من بعد ابدا .

انا عندي سفن زجاجية قديرة وعظيمه وشهيرة جدا مثل سفينة «بوتوسي» الرائعة وسفينة «بروسيا» الهائلة التي انطلقت من «هامبورغ» وغرقت في قناة «المانش» عام ١٩١٠ . ان المعلم (هوياندير) قد خصني فصنع لي كذلك نموذجين من سفينة «ماريا ثيليسته» (٣٢) التي منذ عام ١٨٨٢ تحولت الى نجمة ، في سر من الاسرار .

لست مستعدا لكتشف السر الملاّحي الذي يحيا في شفوف هذه السفن الزجاجية . وهو يتعلق بمعرفة كيف دخلت هذه السفن الصغيرة في زجاجاتها الهشّة جدا . انا ، بصفني خادعا محترفا ، بغرض التزوير ، وصفت بشكل دقيق في نشيد ، العمل المسهب الضئيل في هذه البنى الغريبة العجيبة ورويت كيف ندخل وتخرج من الزجاجات البحرية . لكن السر ظل قائما .

ان افضل لعبي لهي تماثيل القياديم المقنّعة . كبقية اشيائي الكثيرة فان هذه التماثيل المقنّعة قد عولجت في الصحف وفي المجلات ، قد نوقشت في رفق او في حقد في رضا او في سخط ، الذين يحكمون لها في رفق ورضا يضحكون ويقولون :

يا له من مخبول معتوه ، ما الذي ادى به الى هوس جمع هذه الاشياء !

والذين يحكمون عليها في حقد وسخط يرون الاشياء بشكل آخر .

---

٣٢ ـ ماريا ثيليسته : معناها ، مريم السماوية .

واحد منهم ، متمرمر بسبب مجموعاتي وبسبب الراية الزرقاء ذات السمكة البيضاء التي انا أرفعها فوق داري بـ «ايسلا نيغرا» قال :

ـ اني لا انصب راية خاصة وليس عندي تماثيل قياديم .

كان المسكين يبكي بكاء صبي يحسد الصبيان الآخرين على الخذروف الذي يلعبون به ، فيما كانت تمائيلي البحرية تبتسم مفتونة زاهية ، تضحك من الحسد الذي تبعثه فيهم جميعا .

في الحقيقة كان يجب ان يقال دوما ، دفعا للالتباس ، تماثيل قياديم . انها لاشكال نصفية ، انها لنصب بحرية ، انها لصور للمحيط الضائع . حين بنى الانسان اشرعنه احب ان يسمو بقياديم سفنه في معنى أجلّ وأرفع . فوضع منذ القدم في اشرعته اشكال طيور ، عصافير طوطمية ، حيوانات خرافية ، نقوشا في الخشب . من بعد ، في القرن التاسع عشر نحتت البواخر الحيتانية الضخمة اشكالا ذات صفات رمزية : إلاهات نصف عاريات او سيدات يمثلن العهد الجمهوري بقبعات فشيبة جمهورية .

انا عندي تماثيل قياديم مذكرة ومؤنثة . أصغر واحدة من المؤنثات وأبدعها تسمى «ماريا ثيليسته» وقد حاول (سالفادور اييندده Salvador Allende) (٣٣) ان يخطفها مني عدة مرات ، وهي كانت تنتمي الى سفينة فرنسية ذات حجم صغير ولعلها لم تبحر الا في مياه نهر «السين»، وهي منحوتة من شجر بلوط ، ذات لون غامق اذ انها بعد مضي السنين ، وبعد العديد من الابحار اصبحت سمراء الى الابد . انها لصبية صغيرة تبدو وكأنها تطير لدى اشارة من الريح في ملابسها الجميلة من أزياء الامبراطورية الثانية . تنظر عيناها ، من فوق غمازات خديها ، الى الافق البعيد ، وهاتان العينان ، وان بدا هذا غريبا ، تبكيان خلال فصل الشتاء في كل سنة . لا احد يستطيع ان يفسر هذه الدموع الفصلية . ربما ان الخشب المصنوعة منه له صمغ يتضمخ بالرطوبة . لكن ما هو اكيد ان

---

٣٣ ـ سالفادور (اييندده) هو رئيس جمهورية تشيلي ، انتخب رئيسا عام ١٩٧٠ وقتل عام ١٩٧٣ على اثر الانقلاب العسكري اليميني .

هاتين العينين الفرنسيتين تبكيان في الشتاء فانا ارى كل سنة في هذا الفصل الدموع الرائعة وهي تتصبب من وجه «ماريا ثيليستة» الصغير .

قد يستيقظ شعور ديني في الانسان تجاه الصور والتماثيل ، اكانت هذه مسيحية ام وثنية فالامر سواء . واحدة اخرى من تماثيلي الانثوية مكثت خلال بضعة أعوام في المكان الذي يناسبها الا وهو مقابل البحر ، في وضعية مائلة منحدرة كما لو انها كانت تمخر في الباخـــرة . غير ان (ماتيلده) وأنا اكتشفنا ذات مساء بعض السيدات المتدينات التقيات فـــي «ايسلا نيغرا» وقد قفزن من على حاجز الدار كما يعتاد ان يفعل الصحفيون الذين يريدون اجراء مقابلة معي ، رأيناهن وهن راكعات امام تمثال القيدوم المضاء بكثير من الشموع التي كنا قد أشعلناها لهذا التمثال الانثوي . لعل دينا جديدا قد ولد . لكن مع ان التمثال كان في موضع عال ويبدو طويلا جليلا مثل (غابرييلا ميسترال) فقد كان علينا ان نبعث اليأس في نفـوس المؤمنات كي لايمكثن هناك عابدات في براءة ووقار ، صورة امرأة بحرية كانت قد ابحرت عبر اكثر البحار خطيئة فـــي كوكبنا المذنب مقتـــرف الخطايا دائما .

منذ ذلك الحين نحيتها من الحديقة وها هي الآن قربي عند المدخنة .

كتب وقواقع

ان هاوي الكتب الفقير له مناسبات لا نهاية لها للمعانـــاة والعذاب . فالكتب لا تفر من بين يديه ، بل تعبر امامه عبر الهواء في طيران عصفور ، في طيران أسعار غالية .

غير انه بعد تنقيب كثير وبحث عسير تبرز الدرّة .

اذكر دهشة بائع الكتب (غارثيا ريكو Garcia Rico) بمدريد في عام ١٩٣٤ حين اقترحت عليه ان اشتري منه طبعة قديمة من ديـــــوان (غونغورا) الذي كان ثمنه ١٠٠ «بيسيته» فقط ، بأقساط شهرية قدرها ٢٠ «بيسيتة» كل شهر . لقد كان ثمن هذا الديوان مبلغا زهيدا غير اني ما

كنت امتلكه فدفعت له في الموعد المحدد على مدى ستة اشهر (٣٤) . لقد كانت هذه الطبعة هي طبعة (فوبينيس) . هذا الناشر الفلامنكي طبع بحروف رائعة لا يمكن مقارنتها بغيرها نظرا لجودتها وجمالها ، في القرن الثامن عشر، اعمال المعلمين الاسبان الفطاحل من العصر الذهبي (٣٥) .

لا يعجبنـــي أن أقرأ لـ (كيبيـــدو) الا في تلك الطبعـــات حيث الـ «سونيوس» (٣٦) تبرز في خط دعاعي مثل بـوارج حديديـة · مـن بعد الفت غابة دكاكين الوراقين في ضواحي المدينة الوعرة حيث تباع كتب «اليد الثانية» (٣٧) وتمرنت على اروقة المكتبات الضخمة التي تشبه اروقة الكاتدرائيـات في فرنسا وانجلترا . لقد كانت يداي تخرجان بعد اللمس والبحث مغبرتين ، لكن من حين الى حين كنت احصل على كنز ، او على الاقل ، على الفرح بافتخاري في انه كنز .

لقد ساعدتني الجوائز الادبية التي دفعت لي عداً ونقدا على اقتناء بعض النسخ بأثمان شاذة فأصبحت مكتبتي معتبرة ، كانت كتب الشعـر القديمة تبرز فيها وضاحة براقة وكذلك فان شغفي بالتاريخ الطبيعي ملأها بكتب ضخمة من علم النبات في كل صنف ولون ومن علم الطيور ومن علم الحشرات ومن علم الاسماك . لقد وجدت كتب رحلات وأسفار ساحرة ، طبعات لكتاب «دون كيخوته» لا تصدق ، مطبوعة من قبل (ايبارا Ibarra كتيبات لـ (دانتي Dante) (٣٨) في طباعة رائعة ، حتى اني عثرت على كتاب لـ (موليير Moliere) (٣٩) كان قد طبع في نسخ قليلة جـــدا (Adusnm Delphine) لابن ملك فرنسا .

---

٣٤ ــ يبدو انه حين اشترى الديوان لم يدفع شيئا ولذلك يقول على مدى ستة اشهر وليس خمسة اشهر .

٣٥ ــ هو القرن السادس عشر الميلادي .

٣٦ ــ السونيتوس : هي قصائد تشبه الارجاز العربية .

٣٧ ــ اليد الثانية : تعبير اسباني بمعنى للمرة الثانية .

٣٨ ــ دانتي Alishieri : الاديب الايطالي المعروف مؤلـف الكوميديا الالهيـــة ، (١٢٦٥ ــ ١٣٢١) .

٣٩ ــ موليير : الاديب الفرنسي الشهير (١٦٢٢ ــ ١٦٧٣) .

لكن ، في الواقع ، ان احسن ما جمعت في حياتي كانت هي قواقعي. لقد منحتني متعة بنيتها المدهشة : لنقاوة القمرية : نقاوة «بورسيلان» غريب ساحر بالاضافة الى العديد من الاشكال الملساء ، الغوطية ، الفخمة.

ان آلاف الابواب الصغيرة البحرية قد انفتحت امام معرفتي منذ ذلك اليوم الذي اهداني فيه عالم الرخويات الكوبي السيد (كارلوس دي لا توريه) احسن نماذج مجموعته . منذ ذلك الوقت وأنا ، حيث اسافر ، اجوب البحار السبعة بحثا عنها . لكن عليّ ان اعترف أن بحر باريس ، بين موجة وموجة ، هو من كشف لي قواقع اكثر . كانت باريس قد نقلت أصداف المحيطات كلها الى دكاكينها لبيع تحف التاريخ الطبيعي ، الى «أسواقها البراغيثية» .

لقد كان أسهل من ادخال الايدي في صخور «بيراكروث» (Veracruz) او «كاليفورنيا» السفلى ، العثور ، تحت غلاف المدينة ، بين زجاج مكسر واحذية قديمة ، على الطيف الشائق لحلزونة «الزيتونة المحاكة» او مفاجئة حلزونة الرمح المصنوع من المرو الذي يتطاول ويتطاول ، كبيت شعر من الماء ، في (La Rosellaria Fusus) لا احد يستطيع ان ينزع مني الانبهار والزهو بأني قد استخرجت من البحر (el Espondylus) الوردي وهو محارة مرصعة بأشواك مرجانية . وقدرت ان أشاهد (el Espondylus) الابيض وهو مفتوح بين بين ، وهو مصنوع من قضبان وأشواك ثلجية بيضاء تبدو كالنوازل الكلسية المترسبة في مغارة «غونغورية» .

بعض هذه الانتصارات كانت تاريخية . أذكر انه في متحف بكين فتحوا الصندوق الاكثر تقديسا ، المليء برخويات البحر الصيني وأهدوني نموذجا من النموذجين الاثنين الوحيدين من صنف (Thatcheria Mirabilis) استطعت ان أكنز هذا العمل الفني الخارق الذي به اهدى المحيط الى الصين أسلوب المعابد والهياكل الذي عم وشاع الى الآن في تلك الاصقاع.

لقد استغرقت ثلاثين سنة وأنا أجمع كتبا كثيرة . كانت رفوفي تحتوي على كتب طبعت قبل زمن بعيد ومجلدات كانت تهزني ، كتب لـ (كيبيدو) و (ثيرفانتس) و(غونغورا) في طبعاتها الاصلية الاولية ، كذلك على كتب لـ (لافورغه Luforque) لـ (رامبو) لـ (لوتريامون) . كانت هذه الصفحات

تبدو لي وكأنها ما زالت تحتفظ بلمس هؤلاء الشعراء الاحباء. لقد أهداني (بول ايلوار) بمناسبة عيد ميلادي في باريس الرسالتين اللتين كتبهما (ايسابيل رامبو) الى أمه في المستشفى بمرسيليا حيث بترت لهذا المتشرد التائه ساقه . لقد كانت هاتان الرسالتان كنزين يطمع بهما : المكتبة الوطنية في باريس وجامعو الكتب الشرهون في «شيكاغو» .

لقد جبت العوالم كلها الى درجة ان مكتبتي نمت في افراط وجاوزت شروط المكتبة الخاصة . ذات يوم أهديت مجموعة القواقع التي قضيت عشرين سنة وأنا اجمعها وتلك المجلدات التي بلغ عددها الخمسة آلاف التي اخترتها في حب عظيم من اقطار العالم كله ، الى جامعة تشيلي فاستقبل مدير الجامعة هذه الهبة بالجمل الطنانة والكلمات الجميلة .

اي انسان متبلور شفاف سيفكر في البهجة التي عمت تشيلي اثر هديتي هذه ، لكن ثمة أناس ضد المتبلورين وغير متبلورين . لقد كتب ناقد رسمي مقالات غاضبة يحتج فيها بحدة وشدة على سلوكي هذا . متى سيقطع دابر الشيوعية الدولية ؟ كان يصرخ . سيد آخر القى في البرلمان خطابا ملتهبا ضد الجامعة لانها قبلت هداياي الرائعة ، القابلة للمهد منها وغير القابلة (٤٠) وهدد بقطع الاعانات التي تتلقاها الجامعة الوطنية . بين كاتب المقالات ونائب البرلمانات شن آخرون موجة من الصقيع فوق عالم تشيلي الصغير فكان مدير الجامعة يروح ويغدو عبر كواليس البرلمان شاحب الوجه مرتعدا ، ثم فصل وعزل .

لقد انقضت عشرون سنة على ذلك التاريخ وما من احد عاد فرأى كتبي أو قواقعي يبدو انها رجعت الى دكاكين الوراقين والى المحيطات .

زجاج مهشم

منذ ثلاثة ايام عدت لادخل بعد غياب طويل الى داري في «بالبارائيسو»

---

٤٠ ـ تعبير اسباني بمعنى الصالح والطالح .

فرأيت شقوقا تجرح الحيطان والزجاج قد أصبح شظايا مهشمة تشكل سجادة اليمة فوق الارض في الغرف جميعها . كانت الساعات التي هوت على الارض تشير الى ساعة حدوث الزلزال . كم من الاشياء الجميلة تكنسها الآن (ماتيلده) بمكنسة ! كم من الاغراض الغريبة التي حولتها الهزة الارضية الى قمامة ونفاية !.

يجب علينا تنظيف الدار وترتيب الحاجات والبدء من جديد . انه ليكلف جهدا العثور على الورق في وسط الفوضى وانه لصعب من بعد ، ايجاد الافكار .

كانت آخر اعمالي هي ترجمة «روميو وجولييت» وقصيدة غزل طويلة في أوزان قديمة ، لكنها ظلت غير منتهية .

هيا ، ايتها القصيدة الغزلية انهضي من بين الزجاج المهشم فلقد حانت ساعة الغناء .

ساعديني ، ايتها القصيدة الغزلية ، على اعادة الصفاء ، على الغناء فوق الالم .

انها لحقيقة ان العالم لا يتطهر من الحرب ، لا يغسل من الدم ، لا يسلم من الكراهية . انها لحقيقة .

بيد انها كذلك ، في حد سواء ، لحقيقة اننا نقترب من الجلاء : ان العنيفين ينعكسون في مرآة العالم ، ووجههم ليس جميلا حتى في نظرهم انفسهم .

وما زلت اعتقد في امكانية الحب . لديّ يقين بأن التفاهم بين البشر سيتم على الرغم من الآلام ومن الدم ومن الزجاج المهشم .

(ماتيلده اوروتيا) ، زوجتي

ان زوجتي لهي قروية مثلي انا . ولدت في بلدة بالجنوب تدعى

تسبيان» وهذه البلدة شهيرة ، من الناحية السعيدة ، بأوانيها الفخارية الريفية ، ومن الناحية التعيسة ، بزلازلها الرهيبة .

قد قلت كل ما أريد ان اقوله لها في ديواني «مائة أرجوزة حب» (Cien sonétos de amor) (٤١) .

ربما تستطيع هذه الاشعار ان تدل عما تعنيه هي بالنسبة لي . لقد جمعتنا الحياة والارض .

مع ان هذا لا يهم احدا غيرنا فاني اقول ، نحن سعيدان جدا . نقسم وقتنا المشترك الى جلسات طويلة في شاطيء تشيلي المنعزل الوحيد . ليس في الصيف لان الشريط الساحلي الذي تعيد تجفيفه الشمس طيلة الصيف يعلن عن نفسه اصفر أجرد صحراويا . بلى في الشتاء حين يرتدي هذا الشريط في تزهير غريب مع الامطار والبرد ، الاخضر والاصفر ، الازرق والارجواني . بعض الاحيان نصعد من المحيط البري الوحيد الى المدينة العصبية ، الى العاصمة «سانتياغو» التي فيها نعاني معا من وجود الآخرين المعقد .

(ماتيلده) تغنّي في صوت قدير اغانيّ وقصائدي .

اني لأهدي اليها كل ما اكتب وكل ما املك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة راضية .

الآن ألمحها وهي تدفن حذاءها في طين الحديقة ومن بعد تدفن يديها الصغيرتين في عمق النبتة .

لقد جلبت لي من الارض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها، الزهور جميعها ، ثمار السعادة الشذية جمعاء .

---

٤١ ـ لقد ترجمنا الكثير من هذه «الاراجيز» في كتابنا «بابلو نيرودا: مختارات شعرية».

مخترع نجوم

رجل كان ينام في غرفته بفندق بباريس ، بما انه كان سهيرا كبيرا فلا تندهشوا ان قلت لكم انه كان يظل نائما الى ما بعد منتصف النهار .

لقد اضطر ان يستيقظ ذات يوم وكانت الساعة قد جاوزت الثانيةعشر فقد انهار الجدار الشمالي على حين غرة ثم انهار الحائط المواجه ، لم يكن الامر بغارة جوية . كان يدخل عبر الفجوات الحديثة الحفر عمال ذوو شوارب كبيرة والحمالة بأيديهم فينتهرون النؤوم :

(Eh, léve, bourgois) تناول كاسا معنا .

انفتحت زجاجات الشمبانيا ، دخل رئيس البلدية بشريط ذي ثلاثة الوان على صدره . صدح بوق بنغمات «المارسيليز» . ما هو السبب الذي أدى الى هذه الاعمال الغريبة ؟ حصل انه هناك تحت ارض غرفة ذلك الحالم وقعت نقطة الاتصال بين طرفي السكة الحديدية تحت الارضية في باريس ، التي كانت في تلك الفترة بمرحلة الانشاء .

منذ تلك اللحظة التي روى لي ذلك الرجل هذه الحكاية قررت ان اكون صديقه او بالاحرى مريده او تلميذه ، بما انه كانت تقع له اشياء غريبة جدة فما كنت اريد ان تفوتني واحدة منها ولذلك فقد رافقته في التجول عبر بلدان كثيرة . (فيديريكو غارتيا لوركا) اتخذ موقفا شبيها بموقفي ، فقد كان أسير وهم واعتقاد بمثل هذه الظواهر والغرائب . (فيديريكو) وأنا كنا جالسين ذات يوم في «مبيرة» (محل بيرة) «كورّيوس» (٤٢) مقابل «ثيبيليس» (٤٣) المدريدية فاقتحم مجلسنا نؤوم باريس ، مع انه في مظهره كان متباهيا وخرائطيا فقد وصل متفككا متخلعا . لقد وقع له مرة اخرى ما هو فائق الوصف ، فقد كان في مخبئه المتواضع جدا ، وأحب ان ينظم اوراقه الموسيقية ، لقد نسيت ان اقول ان صاحبنا هذا كان مؤلفا

---

٤٢ — كوريوس : هو مبنى البريد والبرق في مدريد .

٤٣ — ثيبيليس : هي ساحة بمدريد مقابل مبنى البريد ، في وسطها تمثال لهذه الالهة.

موسيقيا ساحرا . فماذا جرى ؟

ــ توقفت سيارة عند باب فندقي . سمعت كيف كانت الاقدام تصعد الدرجات ، كيف كانت الخطوات تدخل الى الحجرة المجاورة لحجرتي . من بعد بدأ المستأجر الجديد بالشخير ، في البداية كان شخيره وشوشة ثم ارتجّ الجو بدأت الحيطان والخزائن تهتز وتتحرك تحت الدفع المتناغم لذاك المتسخّر العظيم .

لا بد انه ، بلا شك ، حيوان متوحش . حين انطلقت الشخيرات في شلال عارم لم يكن عند صاحبنا ادنى شك في انه الجبلي (٤٤) الأقرن . لقد كانت قعقعته في بلدان اخرى قد هزت كنائس كبيرة ، سدت الطرق وأهاجت البحار . فما الذي سيجري مع هذا الخطر الفلكي ، مع هذا الحيوان الضخم الكريه الذي يهدد سلام اوروبا ؟

كل يوم كان يروي لنا صروفا وخطوبا رهيبة عن هذا الخنزير البري الاقرن وكنا نحن جميعا ، انا و(فيديريكو) و(رافائيل البرتي) والنحّات (البرتو) و(فولخينثو ديّات باستور) و(ميغيل ايرنانديث) ننصت اليه متشوقين ونودعه ونحن نرغب في المزيد .

الى ان جاء ذات يوم بضحكته الكروية العتيدة وقال لنا :

ــ لقد انحلت المشكلة الرهيبة. لقد قبل (el Graaf Zeppelin) الالماني ان يشحن الجبلي الأقرن وسيسقطه في الغابة البرازيلية ، وهناك الاشجار الكبيرة ستغذيه ولن يكون ثمة خطر في ان يشرب «الامازون» في وردة واحدة . وهو هناك سيظل يرج الارض بشخيره الرهيب .

كان (فيديريكو) يصغي اليه منفجرا من الضحك بعينيه المطبقتين من حدّة التأثير . ثم اخذ صاحبنا يروي علينا انه ذهب ذات مرة ليرسل برقية فأقنعه عامل البرق بألا يرسل ابدا اية برقية بل رسالة لان الناس

---

٤٤ ــ الجبلي : هكذا في الاصل el jabali ، وهو الخنزير البري . عن العربية

تخاف كثيرا حين تستلم البرقيات المجنحة السريعة وحتى ان بعضهم مات بالسكتة القلبية قبل ان يفضّ البرقية التي استلمها . وحكى لنا كذلك انه حضر ذات يوم كمتفرج محب للاستطلاع مزادا على الخيول «ذات الدماء النقية» في لندن فرفع يده كي يحيي صديقا له شاهده هناك فما كان من الضارب بالمطرقة الا ان هوى بمطرقته معلنا وتوقف المزاد عند صاحبنا وباعه بعشرة آلاف ليرة استرلينية فرسا كان (آغا خان) قد نافسه عليها فوصل بمزايدته حتى تسعة آلاف وخمسمائة .

ـ كان عليّ ان احمل الفرس الى فندقي وان اعيدها في اليوم التالي ـ انهى كلامه .

الآن الراوية لا يستطيع ان يروي لنا حكاية الجبلي الاقرن ولا اية قصة اخرى فلقد توفي هنا في تشيلي . هذا التشيلي المداري ، الموسيقي من مصراع الى مصراع «٤٥» ، المسرف في حكايا لا مثيل لها ، كان اسمه في حياته (اكاريو كوتابوس Acario Cotapas) . لقد كان عليّ ان اتكلم عند دفن هذا الانسان غير القابل للدفن ، فقلت فقط : «اليوم نهب الى الظلال كاننا مشرقا كان يهبنا نجمة كل يوم» .

(ايلوار) الرائع

لقد مات رفيقي (بول ايلوار) منذ زمن قريب . لقد كان جد كامل ، جد محكم ، جد رائع فكلفني الما وجهدا ان اعتاد على فقدانه وأن أتعود على اختفائه . كان نورمانديا ازرق ورديا ، ذا بنية قوية ونسيج رقيق ، ان الحرب العالمية الاولى تركته بيدين مرتجفتين دائما . لكن (ايلوار) اعطاني في كل لحظة فكرة اللون السماوي ، فكرة الماء العميق الهادىء ، فكرة عذوبة تعرف قوتها . من شعره النقي جدا ، الشفاف جدا مثل قطرات مطـــر ربيعي على الزجاج كان يمكن ان يبدو (بول ايلوار) انسانـــا لا سياسيا ،

---

٤٥ ـ من مصراع الى مصراع : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، من اعلى راسه حتى اخمص قدمه .

شاعرا ضد السياسة ولكنه لم يكن هكذا فقد كان يشعر بانه ملتصق التصاقا قويا بالشعب الفرنسي ، بآراء شعبه وبنضاله .

كان (بول ايلوار) حازما ، نوعا من برج فرنسي بهذا الجلاء العاطفي الذي ليس هو سواء والغباء العاطفي ، السائد العام .

لاول مرة ، في المكسيك ، حيث سافرنا معا ، رأيته على حافة هاوية مظلمة ، هو الذي دوما كان يترك مكانا مريحا للحزن ، مكانا يواظب عليه بقدر ما كان يواظب على اكتساب المعرفة .

لقد كان مرهقا متضايقا . انا كنت قد اقنعت وجرجرت هذا الفرنسي القطب الى هذه الاراضي النائية وهناك في اليوم نفسه الذي دفنا (خوسه كليمينته اوروثكو) هويت انا ايضا بالتهاب الوريد ، وهو مرض خطير احتفظ بي مربوطا الى سريري خلال اربعة اشهر بكاملها . فشعر (بول ايلوار) انه وحيد كئيب ، مهجور كما لو كان رائدا مكتشفا اعمى قد ترك وحده . لم يكن يعرف احدا ، لم تكن تفتح له الابواب . شعر كأنه أرمل بلا حب ولا رفيق فكان يقول لي : «اننا نحتاج الى رفقة كي نرى الحياة ، نحتاج الى احد يشاركنا جوانب الحياة كلها . ان وحدتي لأمر محال ولجريمة .» .

ناديت اصدقائي فاجبرناه على الخروج ، غصبا عنه اخذوه كي يتجول في دروب المكسيك ، وفي منعطف درب عثر على حبه الاخير : (دومينيكه).

انه لمن الصعوبة ان أكتب حول (بول ايلوار) . فسأظل اراه يحيا بجانبي ، تشتعل في عينيه أعماق الزرقة الكهربائية التي تنظر نظرة واسعة عريضة بعيدة .

لقد خرج من الارض الفرنسية وأكاليل الغار والجذور تحوك مواريثه الشذية . لقد كانت قامته الطويلة مصنوعة من ماء وحجر ، وعلى هذه القامة كانت تتسلق نباتات قديمة تحمل زهرا وبريقا ، أعشاشا وأغاني شفافة .

شفافية ، هذه هي الكلمة ، شعره زجاج من حجر ، ماء توقف في مجراه المغني .

لقد وضع شاعر الحب الفلكي ، شعلة الظهر النقية ، في ايام فرنسا العصيبة ، وسط وطنه ، قلبه ومنه خرجت النار الحاسمة للمعارك .

هكذا وصل بشكل طبيعي الى صفوف الحزب الشيوعي . ان كونه شيوعيا كان يعني بالنسبة له التأكيد بشعره وبحياته على قيم الانسان والانسانية .

يجب الا يعتقد بأن (ايلوار) كان اقل سياسيا منه شاعرا . لقد ادهشتني دائما بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة. لقد حللنا معا اشياء كثيرة ، بشرا وقضايا في عصرنا ، فأفادني جلاؤه دوما.

لم يضع في السريالية اللاعقلية المحالة لانه لم يكن مقلدا بل كان خالقا مبدعا . وبما انه كان هكذا فقد افرغ فوق جثة السريالية طلقات من جلاء وذكاء .

لقد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي واني أفتقد حنانه الذي كان جزءا من خبزي ، كفاف يومي . لا احد يستطيع ان يعطيني ما حمله معه لان اخوّته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا ، يا اخي ، اني لانحني فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا تعطياني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما غرسته انت في هذه الارض .

(بيير ريفيردي)

ابدا لن ادعو شعر (بيير ريفيردي) بالساحر ، لان هذه الكلمة ، شائعة عامة في فترة ، هي كقبعة مهرّج في مهرجان : ولا اية حمامة برية تخرج من جوفه كي تشرع بالطيران .

لقد كان (ريفيردي) شاعرا حسيا ماديا يذكر الاشياء بأسمائها ويلمس اشياء لا عد لها من الارض والسماء . كان يعدد كل ما هو جلي وبراق في العالم .

لقد كان شعره مثل عرق من معدن المرو ، عميقا ، براقا ، ليس ينفذ. احيانا يضيء في قساوة بلمعان معدن اسود وقد اقتلع في صعوبة من باطن الارض الكثيف وأحيانا يطير فجأة في شرارته الفوسفورية المتألقة او يختفي في نفق منجمه ، بعيدا عن الوضوح ولكنه يظل مشدودا الى حقيقته الذاتية مرتبطا بها . ربما ان هذه الحقيقة ، هذا التلاحم بين جسد شعره وبين الطبيعة ، هذه الطمانينة «الريفيردية» ، هذه الاصالة الثابتة الراسخة غير المتزعزعة او المتذبذبة قد عجلت له النسيان فقد راح الآخرون شيئا فشيئا يعتبرونه مثل حقيقة مسلمة ، ظاهرة طبيعية : دارا، نهرا ، شارعا معروفا، شيئا لن يغير ابدا من مظهره ولا من موضعه .

الآن قد غيّر من موضعه ، الآن سكون عظيم اكبر من سكونه الفخور الشريف قد أخذه اليه ، فنرى انه لم يعد موجودا وان هذا البريق الذي لا يعوض قد اختفى ، قد دفن في ارض وفي سماء .

اقول انا ان اسمه مثل ملاك منبعث ، سيحطم ذات يوم ابواب النسيان غير العادلة .

سنراه ، بلا ابواق ، وهو مكلل بهالة النور المنبعث من سكون شعره العظيم الحي الرنان ، في يوم الحكم النهائي ، فـــي يوم **الميعاد الجوهري** فيبهرنا بخلود اثره البسيط .

(جيرزي بوريزجا Jerzy Borezjha)

لم يعد ينتظرني في بولونيا (جيرزي بوريزجا) . لقد احتفظ القـدر لهذا المهاجر القديم بحقه في ان يرى وطنه وقد استرجع واسترد . حين دخل اليه جنديا مقاتلا، بعد سنوات كثيرة من الغياب عنه كانت «فرصوفيا» عبارة عن كومة من الانقاض المطحونة ، لم يكن فيها شوارع ولا أشجار .

لم يكن من احد فيها ينتظره . لقد عمل (بوريزجا) وهو ظاهرة ديناميكية حيوية ، مع شعبه . من راسه خرجت خطط هائلة ،٠فبادرة رائعة : **دار الكلمة المطبوعة** . لقد بنيت الدار طابقا فوق طابق على مراحل ، وصلت المطابع الرحوية من احسن المطابع في العالم . وهناك تطبع الآن آلاف وآلاف من الكتب والمجلات . لقد كان (بوريزجا) محولا دنيويا للرغبات الى اعمال، لا يتعب ولا يهدأ . لقد نفذت مشاريعه الجريئة في بولونيا الجديدة ذات الحيوية الخارقة ، بكاملها كما تبنى القلاع في الاحلام .

لم اكن اعرفه . ذهبت لأتعرف عليه في الحقل حيث كان يقضي العطلة ، بشمال بولونيا في المنطقة ذات البحيرات «الماشورية» حيث كان ينتظرني .

حين هبطت من السيارة رأيت رجلا ارفل عديم الرشاقة ، سيء الهندام ، لم يحلق ذقنه منذ ايام كثيرة ، يرتدي سروالا قصيرا (شورت) ذا لون صعب التحديد . ناداني حالا في طاقة محتدمة بلغة اسبانية تعلمها من الكتب : «يا (بابلو) ، اخلولقت مرهقا ، لا مندوحة في ان تأخذ قسطك من الاستجمام» (٤٦) . لم يدعني في حقيقة الامر ان آخذ «ولا اي قسط من الاستجمام» . كان حديثه مسهبا مطنبا ، متنوعا متنقلا ، مفاجئا مباغتا ، في نداءات وتساؤلات وتعجبات متداخلات . كان يحكي لي في الوقت نفسه عن سبع خطط مختلفة مختلطة مع تحليلات لكتب تضيف تفسيرات جديدة لوقائع تاريخية او لأمور الحياة . «كان البطل الحقيقي هو (سانشو بانثا Sancho Panza) (٤٧) وليس (دون كيخوته) ، يا (بابلو) » . بالنسبة له كان (سانشو) هو صوت الواقعية الشعبية ، القطب الحقيقي لعالمه ولزمنه» «حين يحكم (سانشو) فان حكمه سيكون جيدا لان الشعب هو من يحكم عند ذلك» .

---

٤٦ ــ نحاول ان ننقل الى العربية أسلوبه الفصيح الذي تعلمه من الكتب القديمة .

٤٧ ــ سانشو بانثا : هو مرافق (دون كيخوته) في رائعة (ثيرفانتيس) الخالدة ، وهو يشبه شيبوب في قصة عنتر بن شداد الشعبية ، وقد كان (دون كيخوته) قد وعد مرافقه بإعطائه حكم مقاطعة ان انتصر على الاعداء ، انظر كتابنا، **دون كيخوته في القرن العشرين.**

كان يسحبني من السرير في وقت مبكر ويصيح بي دوما : «لا بد لك من ان تأخذ قسطك من الراحة والاستجمام» فيأخذني عبر غابات شجر التنوب والارز كي يريني هناك معبدا لطائفة دينية هاجرت الى هذا المكان من روسيا منذ قرن من الزمن وظلت تحافظ على طقوسها كلها فكانت الراهبات يستقبلنه كأنه بركة تحل عليهن فقد كان (بوريزجا) كله لياقة وكياسة واحتراما تجاه الراهبات المتدينات .

لقد كان رقيق العواطف فعالا نشيطا . تلك السنون كانت رهيبة ، زمن الاحتلال النازي . ذات مرة اراني المسدس الذي أعدم به مجرم حرب ، بعد محاكمة تحقيقية عامة .

كانوا قد عثروا مع هذا المجرم النازي على مفكرة سجل فيها بشكل دقيق جرائمه كلها . عجّز واطفال خنقهم بيديه ، صبايا هتك أعراضهن . ففاجأوه في الضيعة نفسها حيث كان يقوم بهذه الاعمال الوحشية والقوا القبض عليه . ثم اصطف الشهود يدلون بشهاداتهم حول هذه الاعمال ، وقرئت مفكرته التي تدينه ادانة واضحة فاضحة. لم يجب هذا المجرم المتحدي الا بجملة واحدة : «سأعيد فعل ذلك ان استطعت ان ابدأ من جديد» . لقد امسكت انا بهذه المفكرة بيدي وكذلك بالمسدس الذي انهى حياة ذلك المجرم القاسي العنيد .

في البحيرات الموشورية ، المتزايدة حتى اللانهاية ، تصطاد ثعابين المياه . كنا ننطلق في ساعة مبكرة من الصباح الى الصيد فنرى هذه الثعابين خفّاقة بليلة كأحزمة سوداء .

لقد ألفت تلك المياه بصياديها ومناظرها الطبيعية الخلابة . كان صديقي من الصباح حتى الليل ، يجعلني أصعد وأهبط ، أجري وأجدف، أتعرف على الناس والاشجار . كل ذلك على صيحة ان : هنا لا بد لك من ان تتناول قسطا من الراحة والاستجمام ، ليس من مكان مثل هذا من اجل الاستجمام » .

حين انطلقت من البحيرات الموشورية ، اهداني ثعبانا بحريا نفاثا ، اطول ثعبان بحري رأيته في حياتي .

هذا العكاز الغريب العجيب عقّد حياتي ، انا كنت اريد ان التهمه لاني لست من انصار الثعابين النفاثة وهذا الثعبان يجيء من بحيرته مسقط رأسه بشكل مباشر من غير مخازن ولا وسطاء ولا باعة فهو طيب بلا شك . لكن في هذه الايام لم تكن الثعابين البحرية لتنقصني في كل وجبة اتناولها بفندقي ولم تسنح لي الفرصة بأن احضر ثعباني وأقليه لآكله ، لا في الليل ولا في النهار . فبدأ الثعبان يشكل لي وسوسة مزعجة متسلطة على عقلي.

في الليل كنت أخرجه الى شرفة الغرفة كي يتناول الهواء الطازج . احيانا وأنا في مجرى احاديث مهمة كنت اتذكر بأن ثعباني لم يزل في الخلاء تحت السماء وبعز الشمس وقد جاوز النهار الظهيرة عند ذلك افقد كل اهتمام بموضوع الحديث وأركض كي أضعه في مكان بارد من غرفتي، داخل الخزانة ، مثلا .

في النهاية عثرت على هاو مغرم فأهديته هذا الثعبان المائي النفاث بل اطول ثعبان واطرى ثعبان واحسن الثعابين النفاثة التي شاهدتها في حياتي ، طبعا ندمت على ذلك وانبني ضميري كثيرا .

الآن ، (بوريزجا) العظيم ، الـ (كيخوته) النحيل الديناميكي النشيط ، المعجب بـ (سانشو) على انه (كيخوته) آخر ، الحساس العالم العارف ، يستجم لاول مرة ، يستجم في الدياجير التي أحبها كثيرا . في مستقره المريح يبدع عالما أعطاه هو تفجره الحيوي ، ناره التي لا تتعب ولا تخمد .

(سومليو جورجي Somlyo Georgy)

اني لأحب في هنغاريا تشابك الحياة والشعر ، التاريخ والشعر ، الزمن والشعر . في اماكن اخرى يناقش هذا الموضوع في براءة اكثر او اقل . في هنغاريا كل شاعر هو ملتزم قبل ان يولد. ان (اتيلا جوزيف) و(ادي اندريه) و(غيولا الّيس) لهم نتاج طبيعي للذبذبة كبيرة متراوحة بين الواجب والموسيقى ، بين الوطن والظل ، بين الحب والالم .

ان (سومليو جورجي) لهو شاعر رايته ينمو في ثقة وقدرة منذ عشرين

سنة . انه لشاعر ذو لحن ناعم متصاعد كما الكمان ، شاعر يهتم بحياته وبالحيوات الاخرى ، شاعر هنغاري حتى العظم ، هنغاري في استعداده السخي للمشاركة في واقع شعبه وأحلامه . انه لشاعر الحب الاكثر تصميما والعمل الاكثر توهجا واشتعالا ، يحفظ في عالميته الطابع المتميز للشعر العظيم في وطنه .

انه لشاعر شاب ناضج ، جدير بانتباه عصرنا . ان شعره لشعر هادىء ، شفاف ، مسكر مثل نبيذ الرمال الذهبية .

(كواسيمودو Quasimodo) (٤٨)

ان ارض ايطاليا تحفظ اصوات شعرائها القدماء في أحشائها النقية جدا . حين اطأ رحاب الارياف ، حين أجتاز الحدائق حيث تترقرق المياه وتتلألأ ، حين أعبر رمال محيطها الازرق الصغير ، يبدو لي وكأني اطأ جواهر جوهرية ، مضامين الماسية ، أكوابا زجاجية خافية سرية ، البريق كل البريق الذي حفظته القرون . لقد اعطت ايطاليا الى شعر اوروبا ، شكلا ، صوتا ، نغما ، رشاقة ، ظرافة ، احتداما فأخرجته من شكله الاولي العديم الشكل ، من بدائيته غير المهذبة المرتدية برذعة ودرعا . لقد حول نور ايطاليا اسمال الرواة وصلابة الاناشيد البطولية الحماسية الى نهر غزير واف من الالماس المصقول المثقف المرصع .

لقد كان مدهشا لعيوننا ، عيون شعراء حديثي الوصول الى المعرفة ، قادمين من اقطار حيث المختارات الشعرية تبدأ بشعراء عام ١٨٨٠ ، أن ترى في المختارات الشعرية الايطالية تاريخ ١٢٣٠ ونيف او ١٣١٠ أو ١٤٥٠ وبين هذه التواريخ قصائد «الترثيتو» (٤٩) الباهرة : الزينة المثيرة ، العمق والترصيع في أعمال (اليجيّري Alishieri) ، (كافالكانتي)(٥٠) (بيتراركا)،

---

٤٨ ـ كواسيمودو Salvatore : شاعر ايطالي (١٩١٠ ـ ١٩٦٧) .

٤٩ ـ الـ ترثيتو el terceto : وزن من أوزان الشعر يشبه بحر المديد العربي .

٥٠ ـ كافالكانتي Guido : شاعر وفيلسوف ايطالي (١٢٦٩ ـ ١٣٠٠) .

(بوليزيانو) (٥١) .

ان هذه الاسماء وهؤلاء الرجال قد اعاروا نورا «فلورنسيا» الى كاتبنا العذب القدير (غارثيلاسو دي لا بيغا) ، الى الحليم اللطيف (بوسكـان Boscán) (٥٢) ، وأضاءوا لـ (غونغورا) وصبغوا بنشابتهم الظليلة كآبة (كيبيدو) وصاغوا «سونيتوس» (وليـم شكسبير) في انجلترا وأشعلوا مضامين فرنسا وبذلك ازهرت ورود (رونسارد) و(دو بيلاّي) .

هكذا اذن : الولادة في اراضي ايطاليا هي مهمة صعبة ، بالنسبـة لشاعر ، مشروع ذو نجوم يتضمن ان يأخذ الشاعر على عاتقه القبة الزرقاء ذات المواريث المشرقة المتالقة .

اني لاعرف منذ سنوات (سالفاتوري كواسيمودو) واستطيع القول بأن شعره يمثل ضميرا قد يبدو لنا طيفا شبحيا بسبب شحنته الثقيلـة المتوهجة . ان (كواسيمودو) هو اوروبي مزود بعلم اكيد في المعرفة ، في التوازن ، في اسلحة الذكاء كلها . غير ان موقعه كإيطالي مركزي كممثل حالي لكلاسيكية غير متواصلة لم يجعله محاربا سجينا داخل حصنه . ان (كواسيمودو) هو رجل عالمي بامتياز لا يقسم العالم تقسيما حربيا الى شرق وغرب بل يعتبر ان الواجب المعاصر المطلق هو محو الحدود بين الثقافـة واقرار الشعر والحقيقة والحرية والسلم والفرح على ان هذه الاشياء كلها هي هبات لا تقبل القسمة والتقسيم .

في (كواسيمودو) تتحد الالوان والالحان لعالم هادىء بشكل كئيب . لكن حزنه لا يعني ريبة (ليوباردي) (٥٣) المهزومة بل انزواء الارض الخصبي في المساء ، هذا الورع الذي يتخذه المساء حين تحمي العطور والالحـان والالوان والاجراس عمل اكثر البذور عمقا في الارض . اني لاعشق اللغة القطاف في هذا الشاعر العظيم ، وكلاسيكيته ورومانطيكيته واعجب خاصة.

---

٥١ ـ بوليزيانو Angelo : شاعر ايطالي (١٤٥٤ ـ ١٤٩٤) .

٥٢ ـ بوسكان Juan : شاعر اسباني (١٤٩٢ ـ ١٥٤٢) .

٥٣ ـ ليوباردي Giacomo : كاتب ايطالي (١٧٩٨ ـ ١٨٣٧) .

بما فيه من تضميخ خاص لاستمرارية الجمال ، كذلك بقدرته على تحويل ذلك كله في لغة ذات شعر حقيقي مهزّ مؤثر .

اني لارفع عبر المدى وفوق البحر والبعد تاجا شذيا مصنوعا من اوراق «اراوكانيا» وادعه يطير في الهواء كي تحمله الرياح والحياة لتضعه فوق جبين (سالفاتوري كواسيمودو) . ليس هو بتاج الغار «الايولوني» الذي رأيناه مرات كثيرة في صور (فرانثيسكو بيترازكا) بل هو تاج من غاباتنا غير المرتادة ، من اوراق ليس لها حتى الآن من اسماء ، مضمخة بالندى في اسحار جنوبية .

(بايبخو Vallejoz) (٥٤) يحيا من جديد

رجلا آخر كان (بايبخو) . ابدا لن انسى رأسه الكبير الاصفر ، الشبيه بالرؤوس التي نراها في الشبابيك القديمة ب «بيرو» . لقد كان (بايبخو) جديا ونقيا . مات في باريس . مات من هواء باريس القذر ، من النهر القذر حيث اخرجوا أمواتا كثيرين . لقد مات (بايبخو) من جوع ومن اختناق . لو كنا احضرناه الى موطنه «بيرو» ، لو كنا جعلناه يستنشق هواء وارضا بيروية فلربما كان لا يزال حيا حتى الآن يغني وينشد . لقد كتبت في فترتين مختلفتين قصيدتين عن صديقي الحميم ، عن رفيقي المخلص . أعتقد اني وصفت فيهما سيرة صداقتنا الموزعة . القصيدة الاولى هي «نشيد الى (ثيسر بايبخو)» وهي تظهر في الجزء الاول من «أناشيد بدائية » .

في الاوقات الاخيرة ، في هذه الحرب الصغيرة حرب الادب ، الحرب القائمة بين جنود صغار ذوي اسنان مفترسة اخذوا يقذفون ب (بايبخو) بظل (ثيسر بايبخو) بغياب (ثيسر بايبخو) بشعر (ثيسر بايبخو) ضدي وضد شعري . هذا يمكن ان يقع في الجهات كلها . ان الامر هو جرح من عملوا كثيرا واهانتهم . يقولون : «هذا ليس بجيد ، (بايبخو) بلى كان جيدا . لو

---

٥٤ ـ بايبخو Cesar : شاعر مشهور من البيرو (١٨٦٣ ـ ١٩٣٨) .

ان (نيرودا) كان ميتا لقذفوا به ضد (بابيخو) الحي» .

القصيدة الثانية عنوانها هو حرف واحد فقط الا وهو حرف (V) (٥٥) وهي تظهر في ديوان «شاذ» . (Estravagario) (*)

للبحث عما هو غير محدد ، عن الدليل او الخيط الذي يربط الانسان بأثره ، اتكلم عمن كان لهم علاقة ما او كثير من العلاقة بي . لقد عشنا الحياة معا وهاأنذا الآن أحياهم من جديد . ليس لي بد من ان أسبر غور ما يسمى بالسر الشعري وانا سأسميه بالوضوح الشعري . لا بد ان تكون ثمة علاقة بين الايدي والاثر ، بين عيون الانسان ، أحشائه ، دمائه وبين عمله . لكن ليست لي نظرية . انا لست أسير ومذهبي تحت ذراعي كي اتركه يسقط فوق راس احد من الناس . مثل البشر كلهم انا ارى كل شيء واضحا يوم الاثنين ، وارى كل شيء غامضا يوم الثلاثاء واعتقد ان هذا العام هو واضح ـ غامض . الاعوام القادمة ستكون بلون ازرق .

(غابرييلا ميسترال)

لقد قلت سابقا اني عرفت (غابرييلا ميسترال) في قريتي ، في «تيموكو» . لقد نزحت هي عن هذه القرية الى الابد من بعد . (غابرييلا) كانت اذ ذاك في منتصف حياتها الشاقة المجتهدة وكانت ، خارجيا ، ديرية، كأنها رئيسة على راهبات مستقيمات .

في تلكم الايام كتبت هي قصائد «الابن» مصنوعة في نثر نقي مطرز مكوكب لان نثرها كان في معظم الاحيان اكثر شعرها تأثيرا . بما انها في قصائد «الابن» تصف الوهن والطلق والمخاض والنمو فان شيئا مشوشا قد وشوش به في «تيموكو» ، شيئا مبهما غير محدد ، شيئا بذيئا بشكل بريء، ربما كان تعليقا فظا جرح كونها عزباء ، تلفظ به هؤلاء الناس العاملون

---

٥٥ ـ (V) . هو اول حرف من اسم (بابيخو) ، ونحب هنا ان نلفت انظار القارىء العربي الى ان هذا الحرف ينطق باللغة الاسبانية كما ينطق حرف (B) .

بالسكة الحديدية او بالاخشاب الذين اعرفهم جيدا فهم اناس أجلاف عاصفيون ولكن صريحون يسمون الخبز خبزا والنبيذ نبيذا .

شعرت (غابريلا) انها مهانة وماتت وهي تشعر انها مهانة .

بعد سنوات ، في الطبعة الاولى لكتابها العظيم ، وضعت ملاحظة بلا فائدة ضد ما كان قد قيل وهمس به حول شخصها في تلك الجبال بآخر العالم .

في مناسبة انتصارها التاريخي بجائزة «نوبل» التي توجت بها كان عليها ان تمر اثناء سفرها بمحطة «تيموكو» . كانت المدارس تنتظرها كل يوم ، والطالبات كنّ يصلن الى المحطة مضمخات بالمطر مختلجات بزهور «كوبيهويه» . ان «الـ كوبيهويه» (el copihue) هي الزهرة الكوكبية ، التويج الجميل البري من «لا اراوكانيا» . لقد كان انتظارهن عديم الجدوى اذ ان (غابريلا ميسترال) رتبت الامر كي تمر من هناك ليلا فقد بحثت عن قطار ليلي معقد كي لا تستلم زهور «كوبيهويه» من «تيموكو» .

حسنا هل هذا يسيء الى (غابريلا) ؟ هذا يعني ببساطة ان الجراح كانت تدوم في مشاعر نفسها وانها لم ترقأ في سهولة . ان هذا يكشف ان في روح هذه المؤلفة ذات الشعر العظيم جدا ثمة صراعا كما في روح اي انسان ، صراعا بين الحب والحقد بين المحبة والكراهية .

لقد كانت دوما تبتسم لي ابتسامة مفتوحة ابتسامة رفيقة طيبة ، ابتسامة طحينية في وجهها ذي الخبز الاسمر .

لكن ، ما هي احسن المضامين في فرن اعمالها ؟ ما هو السر المقوم لشعرها الاليم دوما ؟

انا لن اروح استقصي عن ذلك ، وبالتأكيد لن اتوصل الى معرفته ، وان عرفته لن أبوح به .

في شهر ايلول (٥٦) هذا يزهر اللفت البري فالحقل سجادة صفـراء مرتعشة . هنا في الساحل تعصف الريح الجنوبية في غضب رائع منــذ اربعة ايام . الليل مليء بحركتها الصاخبة الرنانة . المحيط هو في الوقت نفسه زجاج اخضر مفتوح وبياض هائل .

فتصلين انت يا (غابرييلا) ايتها الابنة الحبيبة لزهور اللفت البري هذه، لهذه الحجارة ، لهذه الريح الهائلة فنستقبلك جميعنا في فرح . لن ينسى احد اغانيك للاشواك ، للثلوج في تشيلي . انك لتشيلية . تنتمين الـى الشعب . لن ينسى احد أبياتك عن أقدام اطفالنا الحفاة . لم ينس احد «كلمتك اللعينة» (٥٧) . انك لنصيرة للسلم مؤثرة . لهذه الاسباب ولغيرها احببناك ونحبك .

تصلين انت يا (غابرييلا) الى زهور اللفت البري والى أشواك تشيلي. انك لتستحقين ان أرحب بك الترحاب الحقيقي ، المزهر المخشوشن بمـا يناسب عظمتك ويتلاءم وصداقتنا التي لا تنهار . ان ابواب ايلول الحجرية الربيعية تنفتح لك . لا شيء احب الى قلبي من رؤية ابتسامتك العريضة وهي تدخل الى الارض المقدسة التي يجعلها شعب تشيلي تزهر وتزدهر وتغني .

انه ليخصني ان اشاركك الجوهر ، والحقيقة التي بفضل صوتنـا وافعالنا ستصبح محترمة . فليطمئن قلبك الرائع وليكافح وليغن وليبدع في وحدانية الوطن المحيطية «الانديسية» .

اني لاقبل جبينك النبيل وأجلّ شعرك الرحب .

(بيثينته هويدوبرو)

لقد لاحقني الشاعر الكبير (بيثينته هويدوبرو) الذي تبنى دائمـا

---

٥٦ ـ ايلول : هو بداية فصل الربيع في امريكا اللاتينية .

٥٧ ـ كلمتك اللعينة : هي قصيدة لهذه الشاعرة العظيمة بعنوان «كلمة لعينة» .

الدسيسة الخبيثة تجاه الاشياء كلها بدسائسه العديدة ، فكان يرسل رسائل بلا توقيع يتهمني فيها بالانتحال والاقتباس . ان (هويدوبرو) لمثل صف طويل من المتمادين في غيّهم ، المصرّين على ضلالهم . ان هذا الشكل من الدفاع عن النفس في حياة تلك الفترة المضطربة التي لا تمنح الكاتب اي دور ، كان صفة عامة صبغت الاعوام السابقة على الحرب العالمية الاولى ان الوضعية المركزة على الذات انعكست في امريكا كصدى لتبجحات (دانونثيو) (٥٨) في اوروبا . هذا الكاتب الايطالي ، المسرف الكبير ، المنتهك لسنن البورجوازية الصغيرة تركفي امريكا صوى بركانية من «المهدية»(٥٩). وكان اكثر اتباعه فخفخة وثورية هو (بارغاس بيلا) (٦٠) .

انه لمن الصعوبة جدا ان أذم (هويدوبرو) فقد شرفني طيلة حياته كلها بحرب مدادية تستحق المشاهدة . لقد تقلد لقب «إله الشعر» ولم يجد عدلا اني ، وأنا شاب اصغر منه بكثير ، أشكل جزءا من «وادي عبقر» (٦١) الذي هو إلهه . ابدا ما استطعت ان اعرف على وجه الدقة ماذا كان يدور في «وادي عبقر» هذا . كان اناس (هويدوبرو) يبتدعون ، «يتسريلون» (٦٢) ، يلتهمون آخر ورقة طبعت في باريس . انا كنت أقل شأنا منهم ، قرويا لا يمكن صياغته من جديد ، ارضيا ، شبه متوحش .

لم يكن (هويدوبرو) ليقنع بأنه شاعر موهوب جدا كما كان فعلا بل كان يريد كذلك ان يكون «سوبرمان» ، كان ثمة شيء جميل طفولي في شيطنته. لو انه ظل حيا حتى هذه الايام لكان تطوع في اول رحلة الى القمر . أتخيله وهو يبرهن للعلماء ان جمجمته هي الوحيدة فوق هذه الارض المؤهلة طبيعيا بسبب ما لها من شكل ومن مرونة للتلاؤم مع الصواريخ الكونية والمراكب الفضائية .

---

٥٨ ـ دانونثيو Gabriel : كاتب وسياسي ايطالي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٨) .

٥٩ ـ المهدية : في الاصل (Mesianismo) الاعتقاد بمجيء مخلّص من السماء .

٦٠ ـ بارغاس بيلا : كاتب وديبلوماسي من كولومبيا (١٨٦٠ ـ ١٩٣٣) .

٦١ ـ وادي عبقر : في الاصل (Olimpo) ، وهو جبل الشعر وموضع الجنة في ديانة اليونان القديمة .

٦٢ ـ يتسريلون : يتمذهبون بالسريالية .

بعض النوادر قد تحدده . مثلا ، حين عاد الى تشيلي بعد الحـــرب العالمية الاخيرة وقد غدا عجوزا يقترب من نهايته اخذ يرى الناس كلهم هاتفا صدئا ، وكان يقول :

ـ لقد اختطفته شخصيا من (هتلر) فقد كان هذا الهاتف هو المفضل لدى «الفوهرر» .

ذات مرة أروه عملا نحتيا اكاديميا سيئا فقال :

ـ يا للفظاعة ! انه لاسوأ من اعمال (ميغيل انجيل) .

يستحق الذكر ايضا الكلام عن مغامرة رائعة كان هو بطلها بباريس في عام ١٩١٩ . فقد نشر (هويدوبرو) كتيبا معنونا ب (Finis Britanniu) فيه كان يتوقع انهيار الامبراطورية البريطانية العاجل . بما انه لا احد علم بتنبؤه هذا فقد اختار الشاعر ان يختفي عن الانظار . فاهتمت الصحافة بأمر اختفائه : «ديبلوماسي تشيلي بشكل غامض مختطف» بعد بضعة ايام ظهر مسطحا عند باب داره .

(Boy - Scouts) انجليز اختطفوني ـ صرح الى الشرطة ـ وربطوني الى عامود في مكان تحت الارض وأجبروني على ان اهتف الف مرة : «تحيا الامبراطورية البريطانية» .

ثم عاد الى الاغماء . لكن رجال الشرطة فحصوا سفيطا كان يحمله تحت إبطه فوجدوا فيه بيجاما جديدة كان (هويدوبرو) نفسه قد اشتراها قبل ثلاثة ايام من محل جيد في باريس . فكشف كل شيء . لكـــــن (هويدوبرو) خسر صديقا وهو الرسام (جان غريس Juan Gris) (٦٣) الذي كان قد اعتقد بدون ريب في امر الاختطاف وعانى عذابات اليمـــة بسبب المداهمة الامبريالية واعتدائها على الشاعر التشيلي . فلم يغفر له ابدا تلك الاكذوبة .

---

٦٣ ـ خوان غريس : رسام اسباني (١٨٨٧ ـ ١٩٢٧) .

ان (هويدوبرو) لشاعر من زجاج . يلمع اثره الشعري من كل الجهات، ولاثره بهجة باهرة ان فــي شعره كله بريقا اوروبيا يبلوره هو ويصوغه في صنعة لطيفة ذكية .

ان اكثر ما يفاجؤني في أثره عدة مرات هو شفافيته . ان هذا الشاعر الاديب الذي تابع واتبع النماذج التي كانت سائدة فــي فترة معقــدة منشابكة ، والذي صمم على الا يصغي لجلال الطبيعة ووقارها ، يجعــل الغناء المائي الدافق ابدا ينساب من خلال شعره وحفيف الهواء والاوراق والانسانية العظيمة تسيطر تماما على قصائده الاخيرة وما قبل الاخيرة .

ان في (هويدوبرو) ، انطلاقا من زخارف شعره المتفرنس الرائعة حتى قوى أبياته الاساسية المتينة ، صراعا بين الصنعة والنار ، بين التملص والمعاناة . هذا الصراع يشكل مشهدا ، يجري في نور مطلق وفي وعــي مطلق ، تقريبا ، بوضوح باهر .

ليس من شك في اننا عشنا بعيدين عن اثره الشعري متوهمين اننا في غنى عنه وفي اكتفاء . اننا لنتفق على ان ألد اعداء (بيثينته هويدوبرو) كان هو (بيثينته هويدوبرو) نفسه . لقد اسدل الموت ستارا على حياته الفانية ولكنه رفع ستارا آخر فكشف الى الابد عن نوعيته الباهرة . لقد اقترحت ان يقام له نصب تذكاري قرب نصب (روبين داريو) . لكن حكوماتنا مقترة في اقامة تماثيل للمبدعين الخلاقين بقدر ما هي مبذرة في اقامة تماثيل بلا معنى ولا مغزى .

اننا لا نستطيع ان نفكر في (هويدوبرو) كبطل سياسي على الرغم من غاراته السريعة على الساحة الثورية . لقد كانت له تجاه الافكار والمبادىء متناقضات طفل مدلل . غير ان هذا عفى عليه الزمن وصار امرا قديما حمله العجاج وسنكون نحن متناقضين ان نصبنا أنفسنا لنغرز فيه الخلال (٦٤) في مخاطرة اتلاف اجنحته والفتّ من عضده . انه لاحرى بنا ان نقول ان قصائده في ثورة تشرين وفي موت (لينين) لهي مساهمة اساسية جوهرية

---

٦٤ ــ الخلال : هكذا في الاصل Alfleres وهي الابر والدبابيس . عن العربية

قدمها (هويدوبرو) الى اليقظة الانسانية .

لقد مات (هويدوبرو) في عام ١٩٤٨ بـ « قرطاجنة» (٦٥) قرب «ايسلا نيغرا» ولكنه قبل ان يموت كتب قصائد من اكثر القصائد التي قرأتها في حياتي جدية وتأثيرا في النفس . قبيل موته زارني في داري بـ «ايسلا نيغرا» في رفقة (غونثالو لوسادا) وهو ناشر وصديق حميم لي. (هويدوبرو) وانا تكلمنا في مودة شاعرين ، تشيليين ، صديقين .

اعداء ادباء

اني لافترض ان النزاعات بين الكتاب في قدر كبير او صغير قد وجدت وستظل توجد في مناطق العالم كلها .

يكثر بين أدباء القارة الامريكية المنتحرون العظام . في روسيا الثورية احدق الحاسدون بـ (ماياكوفيسكي) الى ان اطلق على نفسه النار .

ان الاحقاد الصغيرة تستشري وتستشيط في امريكا اللاتينية . يصل الحسد احيانا الى ان يكون حرفة . يقال بأن شعور الحسد هذا ورثناه عن اسبانيا الاستعمارية المنقرضة . الحقيقة هي اننا نجد في (كيبيدو) وفي (لوبه) (٦٦) وفي (غونغورا) بشكل مألوف، الجراح التي سببها بعض لبعض. ان القرن الذهبي على الرغم من بريقه الفكري الادبي الرائع كان فترة تعيسة بالجوع الذي يطوف حول القصور يغني وينشد .

في السنوات الاخيرة اخذت الرواية مساحة جديدة في اقطارنا . ان اسماء(غارثيا ماركث (Garcia Marquez) (٦٧) ، (جان رولف (Juan Rulf)

---

٦٥ ــ قرطاجنة : هي بلدة في تشيلي وليست قرطاجنة الاسبانية ولا قرطاج التونسية.
٦٦ ــ لوبه (de Vega) : كاتب اسباني معروف (١٥٦٥ ــ ١٦٣٦) .
٦٧ ــ غارثيا ماركث (Gabriel) : روائي من كولومبيا ولد عام ١٩٢٨ .

(بارغاس يوسا (Vergas Llosa)) ، (ساباتو (Sabato))(٦٩)، (كورتاثار Cortazar) ، (كارلوس فوينتيس) (٧٠) ، التشيلي (دونوســو Donaso) ، اخذت تسمع وتقرأ في كل جهة . لقد عمّدوا انفسهم باسم (Boom) . وانه لاليف ان تسمع من يقول بأنهم يؤلفون مجموعة مطنطنة متبجحة .

لقد عرفتهم كلهم تقريبا فوجدتهم بشكل ملحوظ أصحاء كرماء . اني لاتفهم ـ كل يوم في وضوح اكثر ـ ان بعضهم اضطر الى مغادرة وطنــه بحثا عن طمأنينة اكبر تساعده في عمله ، بعيدا عن سياسة الضغينة والاحنة والحسد المتكاثر المستشري . ان اسباب هجرتهم الاختيارية لا تدحض ولا تنقض : لقد راحت كتبهم تصير جوهرية ، اكثر فأكثر ، في حقيقة بلداننا واحلامها .

كنت اتردد في ان اتكلم عن تجاربي الشخصية مع هذا الحســـد المتطرف . لم اكن ارغب في ان ابدو على اني أناني لا هم لي الا الحديث عن نفسي دوما والانشغال بذاتي دائما . لكن لحسن حظي كان من نصيبــي حساد ملحون مصرون طريفون جدا الى درجة اني وجدت مفيدا الشروع بالقــول .

انه لمن المحتمل ان هذه الاشباح المطاردة المزعجة اغضبتني ذات مرة، بيد ان الحقيقة هي انهم كانوا يؤدون بشكل غير ارادي واجبا دعائيا غريبا كما لو انهم اتّفوا مؤسسة تعمل على ان يصبح اسمي يرن في كل مكان .

لقد ترك موت احد هؤلاء الخصوم الاشباح ، موتا مأساويا ، نوعا من الفراغ فــي حياتي . كــان يشن الحرب خلال سنين عديدة على كل مــا

---

٦٨ ـ حوان رولف : روائي مكسيكي ولد عام ١٩١٨ .

٦٩ ـ ساباتو (Ernasto) : روائي ارجنتيني ولد عام ١٩١١ .

٧٠ ـ كارلوس فوينتيس : روائي مكسيكي ولد عام ١٩٢٨ .

كنت أفعله وأقوله ، الى حد اني أفتقدها بعد ان فقدتها .

ان اربعين سنة من المطاردة الادبية لهو امر رائع حقا . اني لاشعر بشيء من الابتهاج حين ابعث هذه المعركة الوحيدة الطرف التي كانت معركة انسان ضد ظله ذاته ، من رقادها . هي وحيدة الطرف لانني لم اشارك فيها البتة .

لقد نشر خمسا وعشرين مجلة مدير غير قابل للتغيير (كان هو نفسه مديرا لهذه المجلات دوما) واختصت هذه المجلات بمحاولة تهديمي ادبيا فكانت تنسب لي كل نوع من انواع الجرائم ، الخيانات ، الذبول الشعري، الشح الابداعي ، الشذوذ الجنسي ، الانحراف الخطير . كذلك كانت تظهر منشورات ضدي توزع في مثابرة وإلحاح ، وريبورتاجات لا تخلو من الفكاهة واخيرا ظهر مجلد ضخم معنون «انا ونيرودا» (٧١) وهو كتاب سمين بدين ينطوي على شتائم مقذعة .

كان خصمي هذا شاعرا تشيليا اكبر مني عمرا ، متعصبا ، متطرفا ، استبداديا ، اكثر ايماء في حركاته منه فعالا وأصيلا . ان هذا النوع من الكتّاب الموهوبين انانية شرسة يتكاثر عددهم في بلدان امريكا وهم يتبنون أشكالا كثيرة من الفظاظة والاكتفاء الذاتي والتركيز على الذات ، لكن نسبهم «الدانونزيا» هو ، بشكل مأساوي ، حقيقي .

كنا نحن الشعراء الجياع المرتدين أسمالا رثة نطوّف عبر مجالاتنا الفقيرة في الاسحار غير الرحيمة بين تقيؤ السكارى . كان الادب في هذه الاجواء البائسة ينتج بشكل غريب شاذ نماذج معربدة ، أشباحا من الصعلوكية الباقية على قيد الحياة . ان العدمية ، استهتارا «نيتشويا» مزيفا ، كانت تدفع بالكثير من جماعتنا الى التخفي تحت اقنعة اجرامية . ليس بالقليل من عوج سبيل حياته نحو الجريمة أو التدمير الذاتي .

---

٧١ ــ أنا ونيرودا : العنوان هو تقليد وتلميح لكتاب «انا وحماري» للاديب الشاعر الاسباني (خوان رامون خيمينيث) .

ان خصمي الخرافي الاسطوري نشأ من هذا المشهد . اول الامر حاول ان يغريني ويغويني ، ان يدخلني في لعبته وقواعدها . فلم يكن هذا لتقبله ريفيتي البورجوازية الصغيرة . لم اكن اجرؤ وما كان يعجبني ان احيا في الاحتيال والغش . بطلنا هذا على العكس كان خبيرا في استخراج العصير من الفرص السانحة (٧٢) . كان يعيش في عالم مهزلة مستمرة حيث يحتال على نفسه ويغش ذاته مخترعا له شخصية مهدّدة كانت تفيده كحرفة وكحماية .

لقد حان الوقت كي نسمي هذه الشخصية المسرحية ، انه (بيريكو دي بالوديس Perico de Palothes) . كان رجلا قويا اشعر بحاول ان يؤثر ببلاغته وبمظهره . في احدى المناسبات ، حين لم يكن لي من العمر سوى ثماني عشرة سنة او تسع عشرة ، اقترح عليّ ان نصدر مجلة ادبية . كانت المجلة ستحتوي فقط على قسمين ، في قسم سيؤكد هو نثرا وشعرا وبحثا ولحنا على اني شاعر عبقري قدير وفي القسم الآخر اثبت انا على مدى الجهات الاربع انه هو ذو الذكاء المطلق والموهبة غير المحدودة وبهذا كل شيء يسلك وينتظم .

مع اني كنت فتيا صغيرا فقد بدا لي ذلك المشروع مفرطا مبالغا . غير اني بذلت جهدا كبيرا ضد نفسي كي انصرف عنه نظرا لاغرائه . هو كان ناشرا للمجلات عجيبا غريبا . لقد كانت مدهشة حقا قدرته على نبش ارصدة كي يحافظ على اصدار منشوراته الهجائية الخالدة .

في المحافظات المنعزلة ذات الامطار والعواصف كان يضع خطة عمل دقيقة . كان يصنع قائمة طويلة بأسماء الاطباء والمحامين واطباء الاسنان والمهندسين الزراعيين والاساتذة والمهندسين والمدراء والموظفين الكبار الخ. كان بطلنا هذا يأتي اليهم وهو مكلل بهالة كبيرة من منشوراته الضخمة ومجلاته الكثيرة وأعماله الكاملة وكتبه الملحمية والغنائية ، على انه رسول الثقافة الكونية . كل ذلك كان يقدمه بشكل جاد صارم الى هؤلاء الرجال المغمورين الذين يزورهم في بيوتهم ومن بعد يتفضل فيتنازل بقبول بضعة

---

٧٢ ـ استخراج العصير من الفرص السانحة : تعبير اسباني وهو واضح المعنى .

«اسكودو» (٧٣) منهم . أمام كلامه الفصيح البليغ كانت الضحية تتضاءل الى حجم ذبابة . بشكل عام كان (دي بالوذيس) يخرج من بيت ضحيته وفي جيبه مبلغ من «الـ سكودو» تاركا الذبابة منصرفة للتحويم فوق عظمة الثقافة العالمية .

احيانا اخرى كان (بيريثيو دي بالوذيس) يقدم نفسه على انه خبير في الدعاية الزراعية ويقترح على الفلاحين الجنوبيين البريثين ان يقوموا بنشر أبحاث فاخرة جدا عن أملاكهم مع صورهم وصور أبقارهم . لقد كان منظرا يستحق المشاهدة حين يصل وهو يرتدي سروال ممتطي الخيول وينتعل جزمة مثل جزم رجال الاطفاء ويلتف بسترة رائعة كان اتى بها من مصدر غريب . بين اغراءات وتهديدات زائفة بكتابات مضادة كان زلمتنا يخرج ببعض الشيكات من أراضي هؤلاء الملاك الذين هم بخلاء ولكنهم واقعيون اذ انهم كانوا يناولونه بعض الاوراق النقدية كي يتخلصوا منه .

ان الميزة السامية العليا في (بيريثو دي بالوذيس) : وهو فيلسوف «نيتشوي» وحاك «فونوغرافي» لا شفاء له ، لهي عربدته الفكرية ومشاغبته الفيزيولوجية . لقد كان يمارس «المنفخة» في الحياة الادبية بتشيلي . كان له خلال سنين كثيرة شرذمة من الفقراء المساكين يطبلون له ويزمرون . لكن الحياة معتادة على ان «تنفس» بلا رحمة هؤلاء المنتفخين العرضيين من المخلوقات البشرية .

ان النهاية المأساوية لخصمي النزق هذا ـ انتحر وهو عجوز ـ جعلتني اتردد كثيرا قبل ان اكتب عنه هذه الذكريات . لقد فعلت هذا اخيرا ، خاضعا لامر أملته عليّ الفترة واجبرني عليه المكان . ان سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الاقطار الناطقة باللغة الاسبانية ، تنخر آثار الكاتب في جسد لجوج . ان الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة المهدّمة هي عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير به .

لقد كانت المطاردة الادبية ـ السياسية المتسلسلة التي اطلقها ضدي

---

٧٣ ـ اسكودو : اسم العملة المتداولة .

وضد اعمالي الشعرية رجل من «اوروغواي» مشبوه ذو لقب جليقي ، شيء هكذا مثل (ريبيرو Ribero) ، معتوهة جدا وملحاحة جدا على حد سواء . ان هذا الزلمة ينشر منذ عدة سنين بالاسبانية وبالفرنسية كتبا هجائية ينهشني فيها ويفطعني اربا اربا . ان ما يدهش هو ان مآثره ضد «النيرودية» لا تطفي على ورق الطباعة التي ينفق عليها هو بنفسه ، فحسب بل كذلك يقوم بتمويل سفريات باهظة تهدف الى تدميري بلا رحمة .

لقد رحل هذا البطل متحملا مشقة السفر حتى وصل الى مقر جامعة «اوكسفورد» اذ انه علم انهم هناك سيمنحونني لقب دكتور فخري . وصل هذا الشعرور الشويعر المتشاعر الى ذاك المكان وهو مزود بمجموعة من سهام الاتهامات الخيالية ومستعد لتقويضي ادبيا . لقد قص عليّ السادة اساتذة الجامعة في فكاهة ، الاتهامات التي وجهها ضدي حين كنت لما أزل ارتدي الجبة القرمزية اللون الرسمية بعد ان استلمت الامتياز الفخري ، اثناء ما كنا نحتسي النبيذ الطقوسي .

كان اكثر محالا واشد تطاولا سفر هذا الاوروغوابي الى «استوكهولم» عام ١٩٦٣ . فقد كان ينساع بأني سأحصل في تلك المناسبة على جائزة «نوبل» . حسنا اذن هذا الزلمة أجرى مؤتمرات صحفية ، تكلم بالاذاعة كي يؤكد على اني كنت واحدا ممن اغتالوا (تروتسكي) . وكان يحاول بهذه المناورة ان يحرمني من جائزة نوبل .

لقد ثبت بعد مضي الزمن ان الرجل كان سيء الحظ دوما فقد فقد سواء في «اوكسفورد» وسواء في «استوكهولم» بشكل حزين ، ماله وجهده .

نقد ونقد ذاتي

لا يمكن انكار اني حظيت بنقاد جيدين . لا اقصد الولائم والمآدب الادبية التي اقيمت لي ولا أعني الشتائم التي اثرتها بشكل غير ارادي .

أعني أناسا آخرين . من بين الكتب التي ألفت عن شعري ، بعد ان

استثني ما كتبه شبان هواة متحمسون ، أخص بالذكر واضع في المكان الاول الافضل ما الّفهالكاتب السوفييتي (ليفاوسبوفات (Lev Ospovat) فلقد توصل هذا الشاب الى اتقان اللغة الاسبانية فراى شعري بشيء اكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظورا مطابقا من نور عالمه الشمالي .

لقد نشر (امير رودريفيث مونيغال Emir Rodriguez Monegal) (٧٤) وهو ناقد من الطراز الاول ، كتابا حول اعمالي الشعرية وعنونه «الرحالة المستقر» . يلاحظ من النظرة البسيطة ان هذا الدكتور ليس بغبي فقد انتبه في سرعة الى اني أحب أن أسافر دون ان أتحرك من بيتي ، دون ان اخرج من بلدي ، دون ان أبتعد عن نفسي . (في نسخـــة عندي من ذاك الكتاب الرائع عن الادب البوليسي المعنون بـ «الحجر القمري» ثمة صورة تعجبني جدا تمثل فارسا انجليزيا قديما متشحا بحلته او بـ (Macfrlàn) او بزيّه الرسمي او ، مهما كان ، جالسا فرب المدفاة ، وكتاب في يده ، وغليون في اليد الاخرى ، وكلبان نائمان عند قدميه . هكذا يطيب لي ان امكث دوما ، امام النار ، ازاء البحر ، بين كلبين ، قارئا الكتب التي كلفني جمعها جهدا جهيدا ، مدخنا غلاييني) .

ان كتاب (امادو الونسو) (٧٥) ــ «شعر (بابلو نيرودا) واسلوبه» ــ هو صالح للكثيرين . مهم جدا تنقيبه الشغوف الكلف في الظلال بحثا عـــن المستويات بين الكلمات والواقع المنزلق اللزج . اضف الى هذا ، ان دراسة (الونسو) تكشف عن اول اهتمام جدي في لغتنا بأثر شاعر معاصر . وهذا يشرفني كثيرا جدا .

لقد استعان بي لدراسة شعري وتوضيحه وتحليله نقاد كثيرون مـــن بينهم (امادو الونسو) نفسه الذي كان يحدق بي بأسئلته الكثيرة ويمضي بي الى جدار الوضوح حيث كنت اذ ذاك لا أستطيع مجاراته .

---

٧٤ ــ امير رودريغيث مونيغال : كاتب معاصر من الاورغواي .

٧٥ ــ امادو ألونسو : هو باحث لغوي اسباني ، هاجر الى الارجنتين (١٨٩٦ ــ ١٩٥٢) .

يظن بعضهم اني شاعر سريالي وبعضهم الآخر يعتقد اني شاعر واقعي وهناك من لا يؤمن في اني شاعر . وانا ارى ان لديهم جميعا قليلا من الحق وقليلا من الباطل .

ان ديوان «مقام في الارض» نظم او على الاقل شرع بنظمه قبل ازدهار السريالية ، كما ان ديوان « محاولة الانسان اللامحدود » كتب كذلك قبل السريالية ، بيد انه يجب الا يوثق في امر التأريخ هذا . ان هواء العالم ينقل ذرات الشعر سواء أكان هذا الشعر خفيفا مثل الطلع او ثقيلا مثل الرصاص ، فتسقط هذه البذور في الاتلام او فوق الرؤوس وتمنح الاشياء جو ربيع او جو معركة ، وتنتج ازهارا او قذائف على حد سواء .

اما بالنسبة للواقعية فيجب عليّ ان اقول ، اقول : «يجب» لانه لا يناسبني ان اقول انا ما سأقوله ، اني امقت الواقعية حين يتعلق الامر بالشعر . واكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر ان يكون فوق الواقعية او تحت الواقعية لكن يمكن له ان يكون ضد الواقعية . وهذا الامر الاخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، اي بالشعر .

يروق لي الكتاب ، مادة العمل الشعري الكثيفة ، غابة الادب ، يروق لي كل شيء ، حتى كعاب الكتاب تروق لي ، لكن لا تستهويني عناوين المدارس . اريد كتبا بلا مدارس وبدون وضع علامات مثل الحياة .

يعجبني «البطل الايجابي» في (والت ويتمان) (٧٦) وفي (ماياكوفيسكي)، اي فيمن وجدوه بدون وصفة طبية فتمثّلوه ليس بلا معاناة ، وجسّدوه في الفة حياتنا الجسدية وجعلوه يشاركنا الخبز والحلم .

ان على المجتمع الاشتراكي ان يقضي على ميثيولوجيا فترة مستعجلة كانت فيها اللافتات تساوي اكثر من السلع وفيها اهملت المضامين . لكن

---

٧٦ ـ والت ويتمان : شاعر مشهور من الولايات المتحدة الامريكية (١٨١٩ ـ ١٨٩٢) .

الحاجة الماسة ، هي ان يكتب الكتّاب كتبا جيدة . كما يعجبني «البطل الايجابي» الذي عثر عليه في متاريس الحروب الاهلية المضطربة كل من الامريكي الشمالي (وايتمان) والسوفييتي (ماياكوفيسكي) فان قلبي يسع كذلك البطل المتشح بثياب الحدود عند (لوتريامونت) والفارس المتحسر لدى (لافورجيه) والجندي السلبي في (شارل بودلير) (٧٧) . حذار من فصل نصفي تفاحة الخلق بعضا عن بعض لانه ان فعلنا ذلك ، ربما نقسم القلب فلقتين وندع الوجود . حذار ، يجب ان نطلب من الشاعر ان يتخذ له مكانا في الشارع وفي المعركة كما في النور وفي الظل .

ربما ان واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله . ان شرف الشعر كان الخروج الى الشارع كان المشاركه في هذا العراك وفي ذاك . لم يرتعد الشاعر حين قالوا له انك لعاص فالشعر هو العصيان . لم يشعر الشاعر بالاهانة حين دعوه بالمتمرد فالحياة تتخطى البنى والصيغ واذ بسنن جديدة للروح . ان البذرة تقفز من كل جهة ، كل الافكار هي غريبة ، نحن ننتظر في كل يوم تغييرات هائلة ، نحيا في حماسة تحوّل النظام الانساني : ان الربيع لهو ثائر .

اعطيت انا كل ما ملكت ، لقد قذفت بشعري الى الرمل ، ونزفت مع شعري دوما ، معانيا الاحتضارات وممجدا المآثر التي كان من حظي اني شاهدتها وعشتها . بسبب او آخر لم يفهمني الآخرون وليس هذا بسيء من النواحي جميعها .

لقد قال ناقد اكوادوري انه ليس في كتابي «الاعناب والريح» اكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي . لقد قرأ هذا الناقد الاكوادوري بلا محبة ديواني هذا لانه كتاب سياسي كما ان نقادا آخرين سياسيين اكثر من اللازم مقتوا ديواني «مقام في الارض» لانهم اعتبروه كتابا باطنيا قاتما داجيا . ان (جان مارينيو) (٧٨) الفذ الشهير جدا ادانه في زمن آخر باسم

---

٧٧ — شارل بودلير : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ — ١٨٦٧) .

٧٨ — حوان مارينيو : شاعر وكاتب كوبي ولد عام ١٨٩٨ .

المبادىء . اني ارى ان كلا من الطرفين يرتكب خطأ فادحا ناشئا عن نفس المنطلقات .

أنا كذلك تكلمت ذات مرة ضد «مقام الارض» لكني فعلت ذلك وانـا أفكر ، ليس في الشعر ، بل في الجو المتشائم الذي يخلقه كتابي هـذا ويتنفس فيه . لا أستطيع ان انسى مطلقا انه منذ سنوات قليلة انتحر شاب من «سانتياغو» على جذع شجرة وترك كتابي مفتوحا على القصيدة المعنونة «يعني ظلالا» .

أعتقد ان لكتاب «مقام في الارض» وهو كتاب اساسي وظليل معتم في اثري الشعري ، ولكتاب «الاعناب والريح» وهو كتاب ذو رحاب فسيحة ونور كثير ، حقا في ان يوجدا في ناحية ما من اعمالي الشعرية وانا في هذا القول لا أتناقض .

الحقيقة هي ان في نفسي بعضا من الميل الى كتاب «الاعناب والريح» ربما لانه اكثر كتبي عدم تفهم من لدن الآخرين ، او لانه عبر صفحاته شرعت انا بالمسير في العالم . أن له لغبار دروب وماء انهار ، فيه أحياء ومخلوقات، ان فيه مجالات ومحيطات اماكن أخرى ما كنت اعرفها فراحت تنكشف لي لكثرة ما جبت وجلت . انه لواحد من احب الكتب الى نفسي ، أكرر واعيد .

من بين كتبي كلها ديوان «شاذ» ليس هو اكثرها غناء بل هو اكثرها واحسنها وثبا . أن أبياته الوثابة تقفز متجاوزة الوجاهة والوقار والاحترام، والحماية المشتركة ، والسنن والواجبات ، كي ترعى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو اكثر كتبي الفة في نفسي . بسبب بلوغه يتوصل الى نباهة واهمية داخل شعري . على طريقتي الخاصة في الذوق والتذوق هو كتاب خطير عسير له طعم ملحي كطعم الحقيقة .

في «أناشيد بدائية» افترضت لنفسي ركيزة اصيلة ، مولدة . احببت اعادة وصف اشياء كثيرة غنيت وقيلت واعيدت مرارا وتكرارا . كانت نقطة انطلاقتي المتعمدة يجب ان تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمص القلم ، انشاء وظيفة مدرسية اجبارية عن الشمس ، او عن السبورة ، او عن الساعة ، او عن الاسرة الانسانية . ولا موضوع كان يمكن ان يبقى خارج

دائرتي ، كان عليّ ان المس كل شيء وانا سائر او وانا طائر ، مخضعا تعبيري للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .

لاني شبّهت بعض الحجارة ببضعة بطّات صغيرات ، استهجن ذلك ناقد اورغوايي فقد كان هو قد أصدر مرسوما ينص على ان البطات وكذلك بقية الحيوانات الصغيرة ليست بمادة شعرية . حتى هذا الحد من الهزل وعدم الجدية وصل الهراء الادبي . يريدون اجبار المبدعين على عدم معالجة شيء الا المواضيع السامية الرفيعة . لكنهم يخطئون . اننا نحن معشر الشعراء سنصنع شعرا حتى من اكثر الاشياء احتقارا من لدن معلمي الذوق الجيد .

البورجوازية تطلب شعرا يبتعد اكثر فأكثر عن الواقع . ان الشاعر الذي يعرف ان يسمي الخبز خبزا والنبيذ نبيذا لهو خطير بالنسبة للرأسمالية المحتضرة المحشرجة . ان ما يناسب الرأسمالية هو ان يعتقد الشاعر في انه «إله صغير» ، كما لو ان (بيثينته هويدوبرو) كان قد قال ذلك . ان هذا الاعتقاد او هذا السلوك لا يزعج الطبقات الحاكمة . فهكذا يمكث الشاعر في برجه العاجي متأثرا بعزلته الربانية فلا يحتاج الى ان يرتشي او ان يسحق . هو نفسه قد رشا نفسه حين حكم على نفسه بالنفي الى السماء فيما الارض تمضي وترتجّ في طريقها وفي بريقها .

ان بين شعوبنا الامريكية لملايين من الأميين ، يحافظ على اللاثقافة كظرف موروث وكإمتياز من الاقطاعية . نستطيع القول ، امام عطالة سبعين مليون من الأميين في بلادنا ، ان قراءنا لما يولدوا بعد . يجب علينا ان نعجل بهذا المخاض حتى يولد من يقرأ لنا ويقرأ للشعراء جميعا . لا بد من شق رحم امريكا كي نخرج منه النور المجيد .

ان نقاد الكتب بشكل مألوف يعملون على ارضاء أفكار الرؤساء الاقطاعيين . مثلا ، في عام ١٩٦١ ، ظهرت لي ثلاثة دواوين : «اغنية مفخرة»، و«أحجار تشيلي»، و«أناشيد شعائرية»، فلم يذكر نقاد بلدي ولا حتى عناوينها في مجرى العام كله .

حين نشرت لاول مرة قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» كذلك لم يجرؤ احد من النقاد على ذكر هذه القصيدة في تشيلي . ذهب ناشر هذه القصيدة الى مكاتب اضخم صحيفة في الصحف التشيلية وهي صحيفة «ال ماركوريو» (٧٩) ، تصدر منذ حوالي قرن ونصف من الزمن وكان معه وصل مدفوع للاعلان عن ظهور هذا الكتاب فقبلوا ان ينشروا هذا الاعلان شريطة ان يحذف اسمي .

ـ لكن ، اذا كان (نيرودا) هو المؤلف .... ـ احتج الناشر (نيبرا) .

ـ لا يهم .

فكان على كتاب « مرتفعات ماكتشو بيكتشو » ان يظهر في الاعلان كما لو كان مؤلفه غفلا مجهولا . فماذا تفيد هذه الصحيفة مائة وخمسون سنة من العمر ؟ فهي في هذا الزمن كله لم تتعلم احترام الحقيقة ولا الوقائع ولا الشعر .

احيانا لا تخضع الاهواء السلبية ضدي ببساطة الى انعكاس صراع الطبقات الملتهب بل الى اسباب اخرى . على الرغم من اني اعمل منذ اربعين سنة متواصلة واني منحت عدة جوائز ادبية وأن كتبي نشرت في اغرب اللغات فانه لا يمر بي يوم دون ان اتلقى صفيعة او صفعة من الحسد المحدق بي ، هذه هي حال داري . لقد اشتريت منذ عدة سنوات هذه الدار في «ايسلا نيغرا» بمكان خال قفر حين لم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا كهرباء . ثم حسنتها ورفعتها على دفعات كتب . احضرت تماثيل خشبية حبيبة الى نفسي ، تماثيل قياديم لسفن عتيقة فوجدت في داري هذه مراحا ومستراحا بعد اسفار مرهقة طويلة .

لكن ثمة كثيرين من الناس لا يبيحون لشاعر ان يتوصل كثمرة لأثره الادبي المنشور في كل جهة من العالم الى حيازة الكرامة المادية التي يستحقها الكتاب كلهم والموسيقيون جميعهم والرسامون قاطبة . ان الكتبة

---

٧٩ ـ ماركوريو : هو عطارد وهو إله التجارة عند اليونان .

الرجعيين المنبوذين لقدمهم ، الذين يطلبون في كل لحظة تكريمات الـــى (غوتـــه Goethe) (٨٠) يأبون ان يكون لشعراء اليوم حق في الحياة . ان امتلاكي سيارة يخرجهم من مفصلة الباب (٨١) . ففي رأيهم السيارة يجب ان تكون مقتصرة على التجار ، على المضاربين ، على القيمين على المواخير ، على المرابين ، على الغشاشين .

كي أزيد من حنقهم وغضبهم اهديت داري في «ايسلا نيغرا» الـــى الشعب وهناك ذات مرة ستعقد اجتماعات نقابية وستقضـــــي اجازات استراحة واستجمام لعمال المناجم والفلاحين .

حينذاك سيثأر لشعري .

عام آخر يبدأ

يسألني صحفي :

ـ كيف ترى حضرتك العالم في هذا العام الذي يبدأ ؟

اجيبـــه :

ـ في هذه اللحظة بالضبط ، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من صباح يوم الخامس من شهر كانون الثاني ارى العالم بأسره ورديا وأزرق.

ليس في هذا القول اية مقتضيات ادبية او سياسية او ذاتية . هذا يعني أن دوحا كبيرة كثيفة من أزهار وردية أراها من نافذتي وان هناك على المدى المحيط الهادي والسماء ينصهران في عناق ازرق .

لكنني ادرك ، ونحن جميعا نعرف ذلك ، ان ألوانا اخرى توجد فـــي

---

٨٠ ـ غوته : الكاتب الالماني المشهور (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) .

٨١ ـ الخروج من مفصلة الباب: تعبير اسباني بمعنى الخروج عن الطور وفقدان الاتزان.

مراى العالم . من يستطيع ان ينسى لون الدماء الكثيرة المهراقة بلا جدوى كل يوم في الفيتنام ؟ من يستطيع ان ينسى لون القرى المحروقة بالنابالم ؟

أجيب على سؤال آخر وجئهه اليّ الصحفي . كما فعلت في السنوات الاخرى فاني سأنشر كتابا جديدا في هذه الثلاثمائة وخمسة وستين يوما. انا متأكد من ذلك . اني اداعب الكتاب ، ازعجه ، اكتبه كل يوم .

ــ ماذا تعالج فيه ؟

ماذا استطيع ان أجيب ؟ نعالج دوما في كتبي الموضوع نفسه ، دائما اكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي اصدقائي ان ليس ما اقدمه لهم في هذه المرة الجديدة في هذه السنة الجديدة الا اشعاري ، الاشعار الجديدة ، الاشعار نفسها .

لقد اتى لنا العام المنصرم بانتصارات الى الارضيين جميعنا: انتصارات في الفضاء ومداراته . لقد احببنا نحن البشر جميعا ان نطير في ذلك العام المنصرم . لقد سافرنا جميعا في احلام فضائية . ان ارتياد العلاء العظيم يخصنا جميعا سواء أكان امريكيين شماليين ام سوفييتيين من تمنطقوا باول هالة قمرية واكلوا اولى الاعناب القمرية .

يجب ان يكون من نصيبنا نحن الشعراء الحصة الكبرى من الهبات المكتشفة . ان الكوكب الشاحب ، من (خوليو فيرنه) (٨٢) الذي « مكنك » الحلم الفضائي القديم في كتاب ، الى (جوليس لافورغويه) و (هاينريش هايني) و (خوسه اسونثيون سيلفا) ، دون نسيان (بودلير) الذي اكتشف رقيته المؤذية ، قد بحثنا فيه نحن الشعراء وغنيناه وشهرناه قبل اي انسان .

تمر السنون . المرء يستهلك ، يزدهر ، يعاني ويتمتع . السنون تجلب للمرء الحياة وتأخذ منه الحياة . تصير التوديعات اكثر مألوفة ،

---

٨٢ ــ خوليو فيرنه : روائي فرنسي (١٨٢٨ ــ ١٩٠٥) .

يدخل الاصدقاء السجون او يخرجون منها ، يروحـــــون الى اوروبا او يعودون منها ، او ببساطة يموتون .

ان الذين يمضون حين يكون المرء بعيدا جدا عن المكان حيث يموتون ، يبدو انهم يموتون أقل ، يستمرون يحيون داخل المرء نفسه كما كانوا . ان شاعرا يُحيي اصدقاءه ليميل الى القيام بمختارات شعرية حدادية فـي عمله الشعري . انا توقفت عن اتمام هذه المختارات خوفا من رتوب الالم الانساني تجاه الموت . اذ ان المرء لا يحب ان يصبح فهرسا للمتوفين ولو ان هؤلاء كانوا اكثر الناس حبا الى قلبه . حين كتبت في «سيلان» عام١٩٣١ «غياب (خواكين)» اثر موت صديقي وزميلي الشاعر (خواكين ثيفوينتيس سيبولفيدا) وحين في وقت لاحق نظمت «(البرتـــو روخاس خيمينيث) يأتـــي وهو يطير » فـــي « برشلونـــة » عــــام ١٩٣١ ظننت أن لا احد سيموت لي من بعد . مات لي كثيرون . هنا ، قريبا ، في التلال الارجنتينية عند « قرطبة» (٨٣) يرقد مدفونا احسن أصدقائي الارجنتينيين وهو (رودولفو اراوس الفارو) الذي ترك ارملة ابنة بلدنا (مارغاريتا اغيره).

في هذا العام المنصرم ، حملت الريح قامة (ايليا ايهرينبورغ) المهشة ، وهو صديق حبيب جدا، ومدافع صنديد عن الحقيقة وماحق جبار للكذب. في موسكو نفسها وفي هذا العام المنصرم نفسه دفنوا الشاعر (اوفادي سافيش) الذي كان قد ترجم شعر (غابرييلا ميسترال) وشعري الـــى الروسية ليس بدقة وجمال فحسب بل بحب مشع كذلك . ريح المنيـــة اخذت مني أخويّ الشاعرين (ناظم حكمت) و(سيمون كيرسانوف) وآخرين كثيريـــن .

---

٨٣ ـ قرطبة : نلفت انظار القارئ العربي الى ان اسماء المدن الاندلسية قد انتشرت في امريكا اللاتينية واطلقت على مدن وقرى هنالك كما يظهر الان من اسم قرطبة وكما ظهر من قبل من اسم قرطاجنة .

لقد كان فجيعـــة مرة اغتيال (تشـــي غيفارا) (٨٤) رسميـــا في «بوليفيا» الحزينة جدا . ان نعيه طاف في العالم مثـــل قشعريـــرة مقدسة : ملايين المرائي حاولت ان تصنع «جوقة» كي تمجد وجـــوده البطولي المأساوي . لقد انهدرت عبر الدنيا أشعار ما كانت دوما علـــى مستوى هذا الالم . تلقيت برقيـــة من «كوبا» من عقيد اديب يطلب مني مرتيتي التي لم أكتبها حتى الآن . أفكر ان مثل هذا الرثاء يجب ان يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الاليمة . سأتروى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي .

انه ليهزني ان اكون انا الشاعر الوحيد الذي ذكره (تشي غيفارا) ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته . اذكر ان (ال تشي) حكى لي ذات مرة ، امـــام الرقيب (ريتامار) كيف كـــان يقـــرأ مرات كثيرة كتابـــي « النشيد العـــام » على أوائـــل ملتحـــي « سيرّا مايستـــرا » (٨٥) المتواضعين الامجـــاد . ينقـــل فـــي يومياته ، بجلاء هاجس، بيت شعر من قصيدتي «نشيد الى (بوليفار)» (٨٦) «جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدام ....»

جائزة « نوبل »

ان لجائزة «نوبل» التي حزت عليها لقصة طويلة . خلال سنوات كثيرة رن اسمي كمرشح لهذه الجائزة دون ان يتبلور هذا الرنين في شيء .

في عام ١٩٦٣ كانت المسألة جدية جدا . اذاعت محطات البث مرارا

---

٨٤ ــ تشي غيفارا : هـــو طبيب ارجنتينـــي ساهم فـــي الثورة الكوبية ثـــم ساهم في الثورات بأمريكا اللاتينية ، ويعتبر بطلا من أبطال التحرر والتقدم في عصرنا هذا (١٩٢٨ ــ ١٩٦٩) .

٨٥ ــ سيرا مايسترا : هي سلسلة جبال في كوبا منها انطلقت الثورة الكوبية .

٨٦ ــ بوليفار : هو زعيم التحرر والاستقلال في امريكا اللاتينية (١٧٨٣ ــ ١٨٣٠) .

وتكرارا ان اسمي يناقش فيه بشكل حاسم في «استوكهولم» واني اكثر المرشحين احتمالا في الفوز بهذه الجائزة . عند ذلك انا و(ماتيلدا) وضعنا قيد التنفيذ الخطة رقم ٣ في الدفاع المنزلي . علقنا قفلا كبيرا في البوابة الكبيرة لدارنا بـ «ايسلا نيغرا» وتموّنا بمواد غذائية وبنبيذ احمر قان . اضفت بضعة روايات بوليسية لـ (سيمنون) (٨٧) على هذه الاحتياطات الاعتزالية الانزوائية .

وصل الصحفيون مبكرين فأبقيناهم على بعد يكظمون الغيظ اذ انهم لم يستطيعوا النفوذ عبر البوابة المزودة بقفل برونزي بقدر ما هو جميل هو قدير متين . كانوا يدورون من وراء الجدار الخارجي ويطوفون كنمور غاضبة . ماذا كانوا يحسبون ويظنون ؟ ماذا كنت استطيع ان اقول عن مناقشة لا يشارك فيها الا اكاديميون سويديون في الطرف الآخر من العالم ؟ بيد ان الصحفيين ما كانوا يخفون نياتهم على استنباط الماء من عود يابس (٨٨) .

كان الربيع قد تأخر مجيئه الى شاطيء المحيط الهادي الجنوبي . لقد افادتني تلك الايام المنعزلة في ان اتآلف والربيع البحري الذي وان كان جاء متأخرا ، قد تزين لاجل الاحتفال بمهرجانه الموحش المتفرد . لا تسقط خلال الصيف اية قطرة من المطر فالارض طينية جافة صخرية مسننة ، لا يلحظ اى قذي اخضر . خلال الشتاء تطلق ريح البحر غضبا ، ملحا ، زبد أمواج هائلة ، واذاك الطبيعة تبرز مكفهرة فريسة لتلك القوى الرهيبة .

يبدأ الربيع بعمل اصفر كبير ، كل شيء يتغطى بازهار مذهبة صغيرة لا عد لها ولا حصر . ان هذا التناسل الصغير القدير يكسو السفوح، يحدق بالصخور ، يزحف نحو البحر ويطلع وسط دروبنا اليومية كما لو انه يريد ان يتحدانا ، ان يبرهن لنا على انه موجود حي . لقد تحملت هذه الازهار حياة لا مرئية خلال زمن كثير جدا ، لقد أفحمها رفض الارض اليباب

---

٨٧ — سيمنون : روائي بلجيكي ولد عام ١٩٠٣ .

٨٨ — استنباط الماء من عود يابس : تعبير اسباني بمعنى محاولة المستحيل .

المكدر المدمر الى حد انها الآن لا نقنع بشيء وبدو لها كل شيء قليلا لاجل خصوبتها الصفراء .

من بعد تذبل وتخمد الازهار الشاحبة الصغيرة فكل شيء يتغطى بتزهبر بنفسجي فاقع . لقد عبر قلب الربيع من الاصفر الى الازرق ومن بعد الى الاحمر . فكيف استعاضت بعضها ببعض ؛ تويجات الانوار الصغيرة غير المحدودة وغير المعروفة ؟ كانت الريح تهز لونا وفي اليوم التالي لونا آخر كما لو ان الربيع كان يبدل فسطاطه بين التلال والروابي المتوحدة وكما لو ان الجمهوريات المختلفة كانت تتباهى براياتها الغازية .

في هذه الفترة نزهر أشجار الـ «كاكتو» (٨٩) في الساحل . بعيدا عن هذه المنطقة ، في سفوح سلسلة الجبال «الانديسية» تشمخ اشجار الـ «كاكتو» عملاقة ، ذات اخاديد واشواك ، مثل طوابير معادية . بينما ، اشجار الـ «كوكتو» في الساحل ، على العكس ، هي صغيره ومدورة . رأيتها وهي تتوج ، كل واحدة منها ، بعشرين برعما قرمزيا كما لو ان يدا كانت قد تركت هناك دية متوهجة من قطرات دماء. من بعد تفتقت البراعم. ان المرء ليلمح مواجه الازباد البيضاء العظيمة المنبعثة من المحيط آلافا من اشجار الـ «كاكتو» المتفدة بأزهارها المنطلقة السائدة .

ان السيزال العنيق في داري اخرج من عمق احتمائه ومن حشاشة قلبه نوره الجريء المنتحر . هذه الشتلة الزرقاء الصفراء، الغليظة العملاقة استغرقت في نموها اكثر من عشر سنين عند باب داري الى ان صارت اطول مني . والآن تزهر كي تموت . لقد نما نبثوت أخضر قدير ، سما الى ارتفاع سبعة أمتار ثم اوقفت نموّه تشكيلة أزهار جافة لا يكسوها الا القليل من الهباء الذهبي . من بعد أوراق السيزال الامريكي تخرّ فتموت.

واذ ، مقابل الزهرة الكبيرة التى تموت ، زهرة ضخمة تولد . لا احد

---

٨٩ ـ الـ كاكتو : نوع من نبات الصبار .

سيعرف هذه الزهرة خارج وطني ، لا توجد هذه الزهرة الا في هـــذه الاصقاع « الانطارطية » (٩٠) « تشاتشوال » (٩١) ان هـــذه الشتلـة السلفيـــــة قد عبدهـــا « ال أراوكانـــــوس » . لـــم يعــد «ال أراوكانو» القديم يوجد الآن . ان الدم والموت والدهر ومن ثم أناشيد (الونسو دي ايرتبـــا) (٩٢) الملحميـــــة ختمت التاريخ التليـــد القديـــم لقبيلة مــن صلصال (٩٣) استيقظت على حين غـــرة من نومهـــا الجيولوجي كـــي تدافع عن وطنها المكتسح المغـــزو . حين ارى طلوع أزهار هذه القبيلة مره اخرى ، فوق قرون من أموات داكنين ، فوق طبقات من فناء دام ، اعتقد ان ماضي الارض يزهر ضد وجودنا ، ضد ما نحن عليه الآن . ان الارض وليس الا الارض ، تستمر كائنة حية ابدية محتفظة بالماهية والذات .

لكن نسيت أن أصفها .

انها «بروميلاثيا» (٩٤) ذات اوراق منشارية . تقتحم الدروب مثـل حريق أخضر ، تكوّم في خزانة الاسلحة سيوفها الزمرجدية الغريبة . لكن، فجأة ، زهرة هائلة واحدة وحيدة ، عنقود يولد لها من خصرهـــا ، وردة خضراء هائلة بارتفاع قامة الانسان الكهل . ان هذه الزهرة المنقطعة النظير المؤلفة من جمهرة براعم ، المتجمعة في كاتدرائية خضراء واحدة ، المتوجة بالطلع الذهبي تلتمع على نور البحر . انها الزهرة الخضراء الهائلة الوحيده التي رأيتها تغدو نصبا تذكاريا للموجة .

ان الفلاحين والصيادين في بلدي قد نسوا منذ زمن بعيد اسمـــاء النباتات الصغيرة ، الازهار الصغيرة ، فلم يعد لها الان من اسم . لقــد

---

٩٠ ـ الانطارطية Antartica : نسبة الى القطب الجنوبي .

٩١ ـ معناها : منخس تشيليّ .

٩٢ ـ الونسو دى ارثيا : شــاعر اسباني ١٥٣٣ ـ ١٥٩٤) ، كــنــا قــد عرّفنا به من قبل .

٩٣ ـ لاحظ التشابه الصوتي بين لقب المؤلف (Ercilla) وكلمة صلصـــال (Arcilla) فالجناس من خصائص (نيرودا) .

٩٤ ـ بروميلاثيا : هي نوع من النبات والاسم مأخوذ من اسم عالم نبات سويدي من القرن الثامن عشر وهو (Bromel) .

راحوا ينسون هذه الاسماء شيئا فشيئا وراحت الازهار تفقد كرامتهـــا بشكل بطيء . غدت الازهار غامضة مهملة كما الاحجار التي تجرفها الانهار من اعالي الثلوج «الانديسية» حتى السواحل غير المعروفة . لقد ظـــل الفلاحون والصيادون وعمال المناجم والمهربون ، عاكفين على وعورة حياتهم، على ديمومة الموت والانبعاث في واجباتهم وهزائمهم . انه لغامض ان نكون المرء بطلا في اراض لما تكتشف بعد . الحقيقة هي انه ليس يلتمع فـــي ذوانهم، في غنائهم، الا الدماء المجهولة الاصول، والازهار التيلا احد يعرف اسماءها .

من بين هذه الازهار ثمة واحدة اكتسحت داري كل داري . انهـــا زهرة زرقاء ذات قد طويل صقيل مزهو صامد . في كئيسها تتبختـــر الزهيرات المتكاثرة المتعددة الالوان من نيلوفر فاتح الى كحلي غامق . لست أدري ان كان في مكنة البشر كلهم ان يحظوا بتأمل هذه الزرقة الساميـــة الرفيعة . أم ان هذه المتعة ستقتصر على بعضهم ؟ أفستمكث هذه الزرقة محجوبة غير مرئية ، عن عيون اناس آخرين حرمهم إله أزرق من هذا التأمل المزرورق ؟ أم ان الامر لايعدو ان يكون غير فرحي الذاتي المتغذي فـــي الوحدة ، المتحول الى زهو ، المفتخر في انه عثر على هذه الزرقة ، هذه الموجة الزرقاء ، هذه النجمة الزرقاء ، في هذا الربيع المهجور ؟

اخيرا سأتكلم عن نباتات الـ «دوكاس» . لست أدري ان كانت توجد في جهات اخرى هذه النباتات المتكاثرة ملايين وملايين ، التي تغرز في الرمال أصابعها المثلثية الشكل . لقد ملأ الربيع هـــذه الايادي الخضراء بخواتم غير مألوفة ذات لون غريب . ان الـ «دوكاس» تحمل اسما أغريقيا:

ان روعة «ايسلا نيغرا» في هذه الايام المتأخرة من الربيع لهـــي هذه الـ (aizoaceae) التي تنسكب مثل اجتياح بحري ، مثل فوحـــان مغارة البحر الخضراء ، مثل عصير العناقيد الارجوانية الذي خزنه فـــي حانته ، «نبتون» Neptuno (٩٥) النائي البعيد .

---

٩٥ ــ نبتون : هو إله الماء عند اليونان ، وهو كذلك الكوكب نبتون الذي اكتشف في منتصف القرن التاسع عشر .

فى هذه اللحظة بالضبط تعلن لنا الاذاعة ان شاعرا يونانيا جيدا قد حصل على جائزة نوبل الشهيرة . فهاجر الصحفيون . اخيرا استطعنا ، انا و(ماتيلدا) ، أن نظل هادئين بعد ان تخلصنا من الصحفيين . سحبنا في وقار قفل البوابة الكبيرة كي يدخل الناس كل الناس كما كانوا يدخلون من قبل دون ان يقرعوا على باب داري ودون ان يعلنوا عن انفسهم كما الربيع.

في المساء جاء ليراني السفير السويدي وزوجته . كانا يحضران معهما سلة زجاجات (delicatessen) كي نحتفل بجائزة نوبل التي كانا يعتقدان اعتقادا اكيدا انها ستكون من نصيبي . لم نقعد حزانى بل تناولنا جرعة نخب «سيفيريس» الشاعر اليوناني الذي فاز بالجائزة . لدى التوديع اخذني السفير جانبا وقال لي :

ـ بالتاكيد رجال الصحافة سيأتون ليقابلوني ولست ادري شيئا في هذا الشأن . أتستطيع حضرتك ان تقول لى من هو (سيفيريس) ؟

اجبته في صراحة وصدق : انا كذلك لست ادري شيئا عنه .

الحقيقة هي ان كل كاتب على سطح هذا الكوكب المدعو «الارض» يريد ان يحصل ذات مرة على جائزة نوبل حتى أولئك الذين لا يفصحون بذلك وحتى هؤلاء الذين يرفضون الجائزة .

في امريكا اللاتينية ، بشكل خاص ، للاقطار مرشحوها ، يخططون لحملاتهم ويرسمون استراتيجيتهم . امريكا اللاتينية هذه خسرت الجائزة لبعض هؤلاء الكتاب الذين كانوا يستحقونها . هذا هو حال (رومولو غاييغوس) (٩٦) ؛ أثره الادبي عظيم ولائق . لكن «فينزويلا» هي بلد النفط ، اي ، بلد المال ولهذا السبب وفي هذا السبيل قد صَمَّمَ على ان تربح الجائزة «فنزويلا» في اسم (رومولو غاييغوس) . ولذلك عينت «فينزويلا» سفيرا لها في «السويد» ، هدفه

---

٩٦ ـ رامولو غاييغوس : روائي فنزويلي (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) .

الاعلى حدّد بالحصول على الجائزة . فكان هذا السفير يسرف في الولائم والدعوات ، ينشر مؤلفات الاكادبميين السويديين في اللغة الاسبانيـــة بمطابع خاصة تابعة لسفارته في «استوكهولم» ذاتها . لا بد ان هذا كله بدا للاكاديميين المتحفظين الحساسين مفرطا زائدا عن حده . ابدا ما كان يعرف (رومولو غاييغس) بفعالية سفير بلده الطافحة الزائدة عن اللزوم ، وقد يكون هذا هو السبب الذي ادى الى حرمانه من استـــلام هذا اللقب الادبي الذي يستحقه فعلا .

في باريس حكوا لي في مناسبة ما قصة حزينة ، محاطة بمزاح قاس. كان الامر يتعلق هذه المرة بـ (بول فاليري) (٩٧) كان يشاع اسمه على انه المرشح الاكثر احتمالا في الفوز بجائزة «نوبل» لذاك العام ، وكانت تردد ذلك الاذاعات والصحافة في فرنسا كلها . في صباح اليوم نفسه الذي كانت فيه هيئة المحلفين تتداول بـ «استوكهولم» خرج (فاليري) مبكرا جدا من داره الريفية مصاحبا بعكازه وبكلبه ، بحثا عن اخماد الحالة العصبية التي سببها له هذا الخبر المثير .

عاد من جولته في منتصف النهار ، في ساعة الغداء . فما ان فتح الباب حتى بادر الى سؤال السكريتيرة :

ـ هل من مكالمة هاتفية ؟

ـ اجل ، ايها السيد ، لقد اتصلوا بك من «استوكهولم» منــذ عشر دقائــق .

ـ اية بشرى زفوها اليك ؟ قال وقد أفصح عن تأثره .

ـ لقد كان صوت صحفية سويدية تريد ان تعرف رأيك في حركـــة التحرير النسوية .

---

٩٧ ـ بول فاليري : شاعر واديب وناقد فرنسي معروف (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) .

كان (فاليري) نفسه يشسر الى هذه الفكاهـــة في شيء من التهكم . والحقيقة هي انه شاعر جد كبير وجد عظيم وكاتب متقن جدا ومع ذلك نهر ابدا ما فاز بهذه الجائزة الشهيرة .

لكن ، فيما يخصني فيجب على الآخرين ان يعترفوا لي بأني كنت دوما محترسا محتاطا جدا . كنت قد قرأت في كتاب لعلامة تشيلي اراد اطراء (غابريلا ميسترال) ، الرسائل العديدة التي وجهتها مواطنتي المتقشفه الى اماكن كثيره دون ان يفقدها ذلك تقشفها وزهدها ، ولكنها كانت تدفعهـا رغباتها في التقرب من الجائزة . هذا جعلني اصبح كتوما اكثر . منذ ان علمت بأن اسمي يتردد (لست ادري كم من مره تردد ذكر اسمي من قبل) على اني مرشح ، قررت الا اعود الى السويد ، وهو بلد طالما جذبني منذ ان كنت صبيا حين جعلنا من انفسنا ، انا و(توماس لاغو) ، تلميذين حقيقيين لراع بروتستانتي سكير مطرود من الكنيسة اسمه (غوستا بيرلينغ) .

زد على هذا اني كنت قد سئمت من ان اذكر كل سنة دون ان تذهب الامور الى ابعد من الذكر ، وكان يبدو لي مغيظا ان ارى اسمي في المباريات السنوية كما لو اني جواد سباق . من جهة اخرى كان المتسللون ، أدباء او جماهير ، يشعرون بالاهانة بسبب لا مبالاة الاكاديمية السويدية بي . كان هذا وضعا يتاخم ما يضحك بشكل خطير .

اخيرا ، الناس كلهم يعرفون ذلك . منحوني جائزة «نوبل» . كنت انا في باريس ، عام ١٩٧١ ، حديث الوصول لتأدية مهامي سفيرا لتشيلي . حين بدأ اسمي بالظهور في الصحف مره اخرى . انا و(ماتيلدا) قطبنـــا الجبين لقد فقدت بشرتنا الاحساس بعد ان نعودنا على الفتل . ذات ليلة من تشرين الاول من تلك السنة دخل (خورخه ايدواردس) وهو كاتب كان مستشارا في السفارة بباريس ، الى غرفة الطعام في منزلي . اقترح ، على الرغم من تقشره الذي يميزه ، عليّ قبول رهان بسيـــط جدا . ان منحوني جائزة «نوبل» هذا العام فان عليّ ان ادفع ثمن وجبة في احسن مطعم بباريس له ولزوجته وان لم يمنحوني فسيدفع هو ثمن وجبة لــي ولزوجتي .

قلت له : موافق . سنأكل بشكل رائع على حسابك .

جزء من سر (خورخه ادواردس) ومن رهانه المغامر بدأ ينكشف فـي اليوم التالي . عرفت ان صديقة له كانت قــد اتصلت به هاتفيا مــن «استوكهولم» وكانت هذه الصديقة كاتبة وصحفيــة . قالت له ان الاحتمالات كلها تشير الى ان (بابلو نيرودا) سيفوز بجائزة «نوبل» هذه المرة.

بدأ الصحفيون يتصلون من على بعد كبير . من «بونوس ايريس» ، من «المكسيك» وبخاصة من «اسبانيا» . في هذا البلد الاخير كانوا يعتبرون الامر مقضيا . طبعا رفضت ان ادلي بتصريحات لكن شكوكي بدأت تطل من جديـد .

تلك الليلة جاء ليراني (ارتور لونديكيفيست) وهو، صديقي الوحيد من الكتاب السويديين . كان (لونديكيفيست) أكاديميا منذ ثلاث سنوات او اربع . وصل من بلده الى باريس في طريقه الى جنوب فرنسا . بعد الاكل قصصت عليه ما لديّ من صعوبات كي ارد على المخابرات الدولية التي يقوم بها الصحفيون الذين ينسبون لي الجائزة .

قلت له : اريد ان اطلب منك شيئا ، يا (ارتور) . في حالة ان كان هذا حقيقة ، فانه يهمني جدا ان اعرف ذلك قبل ان ينشر في الصحافة. اريد ان اخبر به ، اول ما اخبر ، (سلفادور ايينده) الذي شاركت معه في صراعات كثيرة فانه سيفرح كثيرا ان كان هو اول من يتلقى هذه البشرى.

الاكاديمي الشاعر (لونديكيفيست) نظر اليّ بعينين سويدينين وقال في جدية قصوى :

ــ اني لا استطيع ان اقول لك شيئا . ان كان ثمة شيء من هــذا القبيل فانه سيعلمك به برقيا ملك السويد او سفير السويد في باريس .

هذا كان يجري يوم ١٩ او ٢٠ من تشرين الاول . في صباح يوم ٢١ بدأت قاعات السفارة تمتليء بالصحفيين . كان العاملون في التلفزيــون السويدي ، الالماني ، الفرنسي وتلفزة أقطار امريكا اللاتينية يبدون تململا وعدم صبر يهدد بأن يستحيل الى تمرد ضد صمتــي الذي لم يكن الا لافتقادي اية معلومات أمدهم بها . في الساعة الحادية عشرة والنصـف

انصل بى هاتفيا السفير السويدي يطلب مني ان استقبله في السفارة ، دون ان يخبرني عما يتعلق الامر ، وهذا لم يعمل على اخماد الحالات المتهيجة لان المقابلة كانت ستجري بعد ساعتين . كانت الهواتف تواصل رنينها بشكل هيسنيري .

في هذه اللحظة اطلقت اذاعة في باريس اشعاعا (فلاش) ، خبر آخر دقيقة ، معلنة ان جائزة « نوبل » لعام ١٩٧١ قد منحت اليّ . نزلت تـوّا لمجابهة تجمهر الاوساط الاعلامية الصخّاب . لحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة صديقان قديمان لي وهما (جان مارثيناك) و (اراغون) . (مارثيناك) ، شاعر كبير وأخ لي في فرنسا ، كان يطلق هتافات فرح . (اراغون) من جهته كان يبدو اكثر فرحا مني بالخبر . كلاهما ساعدني في هذه اللحظة الحرجة على مصارعة الصحفيين .

انا كنت اذ"اك وقد اجريت لي عملية جراحية ، هزيلا ، ففير الدم ، امشي الهوبنا ، قليل الرغبة بالنحرك . وكان قد وصل ليتعشى معي تلك الليلة كثير من الاصدقاء (ماتا) من ايطاليا ، (غارثيا ماركيث) من برشلونة ، (سيكيروس) من المكسيك، (ميغيل أوتيرو سيلفا) من «كراكاس» ، (أورتورو كاماتشو راميريث) من باريس نفسها ، (كورتاثار) من مخبئه ، (كارلوس فاسايو) وهو تشيليّ ، سافر من روما الى باريس كي يصحبني الى «استوكهولم» .

البرقيات (التي حتى الآن ما استطعت قراءتها كلها ولا الاجابة عليها) تكومت في جبال صغيرة . من بين الرسائل العديدة وصلت رسالة غريبة عجيبة وبشكل ما مهددة . أرسلها من هولاندا رجل بدين ومن الجنس الاسود ، حسب ما كان يتبين من قصاصة جريدة ارفقها مع الرسالة . «أمثل ــ كان يقول ، تقريبا ، في الرسالة ــ الحركة المعادية للاستعمار في «جيورجيتون» ، «غوايانا الهولاندية» . لقد طلبت الحصول على بطاقة كي اتمكن من حضور الاحتفال الذي سيجري في «استوكهولم» بمناسبة تسليمك جائزة «نوبل» . فأخبروني في السفارة السويدية انه لا بد لي من لبس بدلة رسمية Frac وأنا أبدا لن اضع بدلة مستعملة مستأجرة لما

في هذا من اهانة لامريكي حر مثلي . ولهذا فاني أعلمك بأني بالمال الزهيد الذي يمكن لي ان اجمعه سأسافر الى «استوكهولم» كي أعقد مؤتمرات صحفية لافضح فيها الطبيعة الامبريالية وغير الشعبية لمثل هذه الاحتفالات. فليحتفل هكذا بتكريم اكثر الشعراء العالميين عداء للامبريالية وأكثرهم شعبيـة » .

في شهر تشرين الثاني سافرت و(مانيلده) الى «استوكهولم» . لقد صاحبني في سفرنا بعض الاصدقاء القدماء . فأنزلونا في «الفندق الكبير» الباهر . كنا نرى من هنالك المدينة الجميلة الباردة والقصر الملكي مقابل نوافذنا . في الفندق نفسه حل كذلك المتوجون الآخرون لذلك العام ، في الفيزياء والكيمياء والطب الخ . شخصيات مختلفة ، بعضهم مهذارون شكليون سطحيون . وآخرون بسطاء أجلاف كأنهم عمال ميكانيكيون حديثو الخروج من مراتبهم بالصدفة . لم يكن الالماني (ويلي براندت) (٩٨) ينزل في الفندق نفسه بل كان يستلم جائزة «نوبل» للسلام في «النرويج» . تأسفت لذلك كثيرا لانه كان من بين أولئك الفائزين بالجائزة جميعهم اكثر واحد يهمني معرفته والتحدث اليه . لم استطع ان ألمحه من بعد الا وسط الاستقبالات بعيدا احدنا عن الآخر كثيرا يفرق بيننا ثلاثة او اربعة اشخاص على الاقل .

كان ضروريا لاجل الاحتفال اجراء تجربة سابقة . لقد جعلتنا المراسم السويديـة نخرج للتمثيل في المكان نفسه حيث سيجري الاحتفال . كان مضحكا حقا رؤية اناس جديين جدا وهم يقفزون من أسرّتهم ويخرجون من الفندق مهرولين في ساعة مبكرة ليصلوا في الوقت المحدد بالضبط الى مبنى فارغ ، ثم يصعدون الدرج دون ان يخطئوا ثم يمضون على اليسار وعلى اليمين في ترتيب صارم تم كان علينا ان نجلس في المنصة كل على مقعده المخصص له ليستلم جائزته في اليوم التالي . كل هذا ونحن نواجه اجهزة التلفزة في قاعات فارغة هائلة تبرز فيها كراسي الملك والعائلة المالكة الفارغة الخاوية في شكل كئيب كذلك . ابدا مـا

---

٩٨ — ويلي براندت : السياسي الالماني المعروف الذي كان رئيسا للحكومة في المانيا الغربيـة .

ا ستطعت ان اعرف ولا ان أفسر لاي هوس كان التلفزيون السويدي يصور ذلك التمرين المسرحي الذي يقوم به ممثلون ثقيلون جدا ، بليدون جدا .

لقد توافق يوم تسليم جائزه «نوبل» مع عبد المديسة «لوئيثا» . ايقظتني بعض الاصوات التي كانت تغني بشكل عذب في ممرات الفندق . من بعد ، الصبايا الشقراوات الاسكندينافيات ، المتوجـــات بزهور . والمضاءات بشموع مشتعلة ، اقتحمن غرفتي وكنّ يحضرن لي الفطـــور وكذلك يحضرن ، كهدية ، لوحة طويلة جميلة تمثل البحر .

في وقت لاحق حصل حادث حرّك شرطه استوكهولم» واثارها . في مكتب الاستقبال بالفندق اعطوني رسالة . فتحتها واذ هي موقعة من ذاك الرجل نفسه عدو الاستعمار ، الراكب راسه ، المطلق زمامه ، العضـــو الفعال في حركة «جيورجيتون» ، «غوابانا الهولانديه» . لقد وصلت حديثا الى «استوكهولم» » ، كان يقول في رسالته . كان قد فشل في تصميمه على عقد مؤتمر صحفي ، لكنه بما انه رجل فضية ثورية وفعل نوري فانه قد اتخذ اجراءاته . انه لمحال ان يستلم (بابلو نيرودا) ساعر المسحوقين والمتواضعين جائزة «نوبل» وهو يرتدي بدلة رسمية . وبالتالي فقـــد اشترى مقصا أخضر سيقطع لي به علانية وامام الناس «خرف البدلـــه الرسمية المتدلية وابة خرق متدلية اخرى» . «لهذا فاني أؤدي واجبي بأن احذّرك من مغبة هذا . حين ترى رجلا ملونا ينهض من آخر القاعة فانه عليك ان تفترض ما سيجري لك بعد هنيهة» .

ناولت الرسالة الغريبة الى الشاب الديبلوماسي ، ممثل المراســـم السويدية الذي كان يصحبني في تحركاتي جميعها . قلت له مبتسما اني كنت قد تلقيت في باريس رسالة اخرى من هذا المجنون نفسه وانه في رايي يجب الا نهتم بهذا الامر كثيرا ولكن الشاب السويدي لم يكن علـــى اتفاق معي في هذا الشان .

ـ في هذه الفترة من المماحكات يمكن ان تحدث اكثر الاشياء غرابة. ان واجبي هو ان اعلم شرطة «استوكهولم» بهذا الامر ـ قال لي وانطلق بسرعة لاداء ما كان يعتبره واجبا عليه .

يجب ان اشير الى ان من بين مرافقيّ الى «استوكهولم» كان الفينزويلي (ميغيل اوتيرو سيلفا) وهو كاتب كبير وشاعر ظريف ، وهو بالنسبة لي ليس ضميرا امريكيا فحسب بل زميل لا يقارن . كان الاحتفال على وشك الابتداء حين رويت خلال الاكل الجدية التي كان السويديون قد أبدوها تجاه مسألة الرسالة المحتجة . (اوتيرو سيلفا) الذي كان يتغدى معنا ضرب كفا على جبينه وصرخ :

ـ لكن، هذه الرسالة كتبتها انا بيدي وفي خطي لكي اتناول شَعر(٩٩) (بابلو) . ماذا سنفعل الآن مع رجال الشرطة الذين يبحثون عن فاعل لا يوجد ؟

ـ ستقاد الى السجن جزاء لك على نكتتك الثقيلة الهمجية نكتة « البحر الكاريبي » ، ستتلقى العقاب الذي يستحقه رجل «جيورجيتون» ـ قلت له .

في هذه اللحظة جلس معنا حول المائدة الشاب السويدي ، مرافقي الذي كان يعود بعد ان أعلم الجهات المختصة . قلنا له ما جرى :

ـ ان الامر لا يعدو ان يكون غير مزاح سيء المزاج والفاعل ها هو يتغدى معنا ، الآن .

عاد للخروج مستعجلا عجولا . لكن رجال الشرطة كانوا قد زاروا فنادق «استوكهولم» كلها بحثا عن أسود «جيورجيتون» او اسود اية ارض اخرى شبيهة .

واتخذوا احتياطاتهم اذ انني و(ماتيلده) كذلك ، حين دخلنا الى الحفلة وحين خرجنا من رقص الاحتفال لاحظنا انه كان يبادر الى الاهتمام بنا بدلا من الحجاب العاديين اربعة او خمسة من الشبان الاقوياء الاشداء،

---

٩٩ ـ تناول الشَعر : تعبير اسباني بمعنى المزاح وهو يشبه التعبير العربي الضحك على الذقون .

حراس ظهر ، شقر ، متهيئون لاية محاولة من ضربة بالمقص .

كان للاحتفال المراسيمي بتسلم جائزة «نوبل» جمهور حافل . هادىء ومتدرب على النظام اذ انه ما كان يصفق الا في الوقت المناسب وفـــي كياسة وادب . كان العاهل العجوز يصافح كل واحد منا ، يعطي كل واحد منا الديبلوم ، الوسام ، التشيك . كنّا نعود الى اماكننا في المنصة واحدا اثر آخر ، وكانت هذه المنصة مليئة بالزهور والمقاعد المشغولة ، وليس كما كانت من قبل هزيلة قذرة ، حين كنا نجري التمرين والمناورة . يقال (او هذا ما فالوه لـ (ماتيلده) كي يجعلوها تتأثر كثيرا) ان الملك بقي معي وقتا اكثر مما بقي مع المكللين الآخرين الحائزين على الجائزة ؛ وانه شد على يدي خلال وقت أطول ، وانه عاملني بلطافة ظاهرة بادية على محياه . ربما كانت هذه اللطافة تذكار تلك التى كان الملوك في العهد القديم يبدونهـــا للرواة . على كل حال ولا اي ملك آخر مد لي يده لوقت قصير او طويل.

لقد كان لذاك الاحتفال البروتوكولي الصارم الوقار المناسب . قــد يحيا هذا الوقار الجاري في المناسبات المهمة الى الابد فى العالم . يبدو ان الانسان بحاجة اليه . غير اني وجدت شبها لطيفا بين ذاك الاستعراض الذي قام به الفائزون الشهيرون وبين توزيع الجوائز المدرسية في مدينة صغيرة بمحافظة نائية .

تشيلي الصغيرة

كنت أجيء انا من «بورتو ابانيث» . مندهشا بالبحيرة الكبيرة «جينرال كاريرا » مندهشا من هذه المياه المعدنية التي هي ذي اللون الفيروزجي. في «كوبا» أو ببحيرتنا «بيتروهوبه». ثم فغزة نهر «ابيانيث» الهمجية، وهو نهر عظيم رهيب. كنت أجيء ايضا كئيبا مكروبا بسبب فقر شعوب المنطقة وعدم الاتصال فيما بينها، مع انهم يجاورون الطاقات الكهربائية الهائلة فهم غير مزودين بالكهرباء . مع انهم يعيشون بين قطعان الاغنام الصوفية التي لا حصر لها

فهم لا يرتدون الا اسمالا فقيرة ممزقة . الى ان وصلت الى « تشيلـــي الصفيره » .

هناك كان التسفق الكبير ينتظرني وهو يغلق النهار . كانت الريح المؤبده تمزق الفيوم «الكوارتزية» (١٠٠) . أنهار من نور ازرق كانت تحجز دمة كبيرة كانت الريح تحافظ عليها في عطالة بين الارض والسماء .

مرابع مواش ، مزارع كانت تصارع تحت ضغط الريح اللولبية . كانت ترتفع الارض حول هذه المرابع والمزارع بأبراج «لا روكا كاستيو» (١٠١) الصلبة ، برؤوس حادة مسننة ، بعوهات قوطية ، باستحكامات وشرفات طبيعيـــه من غرانيت . كانت جبـــال « ايسين » التعسفيـــة المكوره مثل الخذروف ، المرتفعة الملساء مثل الطاولات ، تري مستطيلات ومثلثات من ثلج .

وكانت السماء تصنع سقفها من خيوط الحرير ومن فلزات المعادن : يتلألأ اللون الاصفر في الاعالي محوما كما الطير الهائل عبر الفضاء النقي . كان كل شيء يتغير فجأة ، يتحول الى فم حوت ، الى نمر ارقط متوهج، الى مشاعل تجريدية .

شعرت ان السعة كانت تنتشر فوق راسي وقد رسمتني فأسمتني شاهد الـ «ايسين» الباهر بأطواده، بتلالاته ، بملايينه من الاشجار الميتة المحروقة التي تتهم قاتليها القدماء ، مع سكون عالم يولد فيه كل شيء معد: مهرجانات الارض والسماء . لكن ينقصه الكنف ، النظـــام الجماعي ، التشييد ، الانسان . ان من يعيش في مثل هذه الارض الخلاء يحتاج الى تضامن انساني جد فسيح مثل هذه المساحات الواسعة الكبيرة .

ابتعدت حين كان ينطفيء الشفق ، والليل كان يخيم ازرق مفزعا .

---

١٠٠ ــ الكوارتزيه : نسبه الى «كوارتز» وهو المرو .

١٠١ ــ لا روكا كاستيو : معناها ، الصخرة القلعة .

رايات ايلول

ان شهر ايلول في جنوب القارة الامريكية اللاتينية لهو شهر عريض مزهر . كذلك ان هذا الشهر مليء بالرايات .

في بداية القرن الماضي في عام ١٨١٠ وفي شهر ايلول هذا انشقت او توطدت الانتفاضات ضد السيطرة الاسبانية في اراض عديدة بأمريكا الجنوبية .

في شهر ايلول هذا نحن امريكان الجنوب نذكر التحرر والانعتاق ، نحتفل بالابطال ، نستقبل الربيع الرحب الفسيح جدا الى حد انه يتجاوز مضيق « ماغابانيس » ليزهر حتى في « باتاغونيا اوسترال » حتى في «كابو دي اورنوس» .

لقد كانت مهمة جدا للعالم سلسلة الثورات الدورية التي كانت تنفجر من المكسيك حتى الارجنتين وتشيلي .

لم يكن القواد يتشابهون فيما بينهم . فـ (بوليفار) كان محاربا ودمثا، موهوبا باشراق نبوي . (سان مارتين) (١٠٢) كان منظما عبقريا لجيش عبر سلسلة الجبال الاكثر ارتفاعا وصعوبة على وجه الارض كي يشن في تشيلي المعارك الحاسمة في سبيل تحريرها . (خوسيه ميغيل كاريرا) (١٠٣) (برناردو اوهيغنس) (١٠٤) كانا مبدعي أوائل الجيوش التشيلية كما كانا كذلك السباقين في جلب المطابع الى تشيلي وسن القوانين المحرمة للرق الذي

---

١٠٢ ـ سان مارتين : بطل من أبطال التحرر في امريكا اللاتينية (١٧٧٨ ـ ١٨٥٠) .

١٠٣ ـ خوسيه ميغيل كاريرا : بطل من ابطال التحرر في تشيلي، كان عسكريا وسياسيا (١٧٨٥ ـ ١٨٢١) .

١٠٤ ـ برناردو اوهيغينس : بطل من ابطال التحرر في تشيلي (١٧٧٨ ـ ١٨٤٢) .

الفي قبل سنوات كثيرة من الغائه في الولايات المتحدة .

ان (خوسه ميغيل كاريرا) و(بوليفار) وبعض المحررين الآخرين كانوا يخرجون من الارستوقراطية الـ «كريوبيا» . كانت مصالح هـذه الطبقة تصطدم بشكل عنيف مع المصالح الاسبانية في امريكا . لم يكن الشعب يوجد بعد كتنظيم بل كان في شكل جمهرة غفيرة من عبيد تحت اوامر السيطرة الاسبانية . كان على الرجال ، من أمثال (بوليفار) و(كاريرا) ، الذين كانوا قد قرؤوا الموسوعات وتخرجوا من الكليات العسكرية الاسبانية ان يحطموا جدار العزلة والصمت والجهل كي يتوصلوا الى تحريك الروح القومية في نفوس الشعب .

ان حياة (كاريرا) كانت قصيرة ولكنها ملتهبة مثل بـرق . «العسس التعيس » عنونت انـا كتابا قديمـا يحتـوي على ذكريـات ، سترته انا بنفسي منذ عـدة سنين . ان شخصيته الجذابـة جلبت النزاعات حول راسه كما مانعة الصواعق تجذب وتجبذ شرارات العواصف. اخـر الامر أعدم رميا بالرصاص في «ميندوثـا » بأمر مـن حكـام الجمهورية الارجنتينية الحديثة الاعلان اذ ذاك . كانت رغباته الجامحـة بتحطيم السيطرة الاسبانية قد وضعته على راس الهنود المتوحشين فـي السهول الارجنتينية . حاصر «بونوس ايريس» وكان على وشك ان يأخذها عنوة . بيد ان رغباته الحقيقية كانت تميل الى تحرير تشيلي وفي هـذا الاصرار استعجل فقام بحروب وحروب عصابات أدت به الى خشبـة الاعدام . لقد التهمت الثورة في تلك السنين المضطربة احد ابنائها الاذكياء الشجعان . يدين التاريخ بهذا الفعل الدامي (او هيغينيس) و(سـان مارتين) . لكن التاريخ في شهر ايلول هذا ، الشهر الربيعي المليء بالرايات يغطي بأجنحته ذكرى الابطال الثلاثة في هذه المعارك التحريرية التي دارت رحاها على مسرح واسع من سهول هائلة ومن ثلوج خالدة .

ان (اوهيغينيس) وهو بطل آخر من محرري تشيلي ، كان رجـلا متواضعا بسيطا . كانت حياته ستكون غامضة هادئة لو لم يكن قد تلاقى في لندن ، حين لم يكن له من العمر الا سبع عشرة سنة ، مع ثائر قديم كان يجوب بلاطات ملوك اوروبا كلها بحثا عن مساعدة لقضية الانعتـاق

الامريكي . كان يسمى السيد (فرانثيسكو دي ميراندا) (١٠٥) . ومن بين اصدقائه الكثر اعتمد على ود امبراطورة روسيا (كاتالينـــا) (١٠٦) ودعمها القدير . بجواز سفر روسي وصل الى باريس وكان يدخل ويخرج فـــي امارات اوروبا ودويلاتها .

انها لرواية رومانطيكية ذات نفس يمثل «فترة» مما يجعلها تبدو مغناة (Opera) . (اوهيغينيس) كان ابنا غير شرعي لنائب الملك الاسباني وكان هذا جنديا جمع ثروة كبيرة فأصبح حاكما باسم الملك على تشيلي وهو من اصل ايرلاندي . رتب الامور (ميراندا) لاثبات اصـــل (اوهيغينيس) حين ادرك فائدة الشاب وما يمكن ان يكون لاصله من نفع في تحريض شعوب المستعمرات الاسبانية في امريكا . في كتب التاريخ تروي اللحظة التي كشف فيها (ميراندا) للشاب (اوهيغينيس) سر اصله ودفعه الى العصيان والتمرد . خر الشاب الثائر راكعا وعانق (ميراندا) وبين النحيب والبكـــاء وعده بالانطلاق من لندن الى تشيلي حالا ليقود هناك حركة التمرد ضـــد النعوذ الاسباني . كان (اوهيغينيس) هو من حقق الانتصارات النهائية في الفضاء على النظام الاسنعماري بتشيلي وهو يعتبر مؤسس جمهوريتنا .

اما (ميراندا) فقد قضى نحبه حين كان سجينا من قبل الاسبان في سجـــن « لا كار"اكــــا » بـ « قادش » . أن جســـد هـــذا الجنرال في الثورة الفرنسية ومعلم ثوريين كثيرين قد لـــف" في كيس والقي به الى البحر من اعلى السجن .

(سان مارتين) مـــات بعد أن نفاه ابنـــاء قومه ، في « بولونيا » بفرنسا عجوزا وحيدا .

(او هيغينيس) محرر تشيلي مات في «البيرو» بعيدا عن كل ما يحب ، مطرودا ، بعد ان استولت الطبقة الاقطاعية «الـ كريويا» على الثورة .

---

١٠٥ ـ فرانثيسكو دي ميراندا : بطل من ابطال التحـــرر في امريكا الجنوبيـــة (١٧٥٠ ـ ١٨١٦) .

١٠٦ ـ كاتالينا : هي امبراطورة روسيا (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) .

منذ وقت قريب ، حين مررت بـ «ليما» Lima وجدت في متحف «البيرو» التاريخي بعض اللوحات التي رسمها الجنرال (او هيفينيس) في أعوامه الاخيرة . موضوع هذه اللوحات كلها هو تشيلي . كان يرسم ربيع تشيلي ، اوراق وازهار شهر ايلول في تشيلي .

في شهر ايلول هذا جعلت أذكر تلك الفترة من الانعتاق والتحرر ، اسماء أبطالها ، حوادثها ، رغباتها وآلامها ، بعد مضي قرن على تلك الفترة ها هي الشعوب تهتز من جديد وها هو تيار مضطرب من ريح وغضب يحرك الرايات . ان كل شيء قد تغير منذ تلك السنين القصية السحيقة ، لكن التاريخ يتابع مسيره وها هو ربيع جديد يملأ أصقاع امريكا وأجواءها .

(بريستيس Prestes)

ولا اي زعيم شيوعي في امريكا كانت حياته معرضة للخطر دوما كما كانت عليه حياة (لويس كارلوس بريستيس) . لقد كان بطلا عسكريا وسياسيا للبرازيل . لقد تجاوزت حقيقته وأسطورته منذ زمن كثير التقييدات العقائدية فاستحال هو الى تجسيد حي للأبطال القدماء الاشاوس .

لهذا ، حين تلقيت دعوة وانا بـ «ايسلا نيغرا» لزيارة البرازيل والتعرف على (بريستيس) قبلت الدعوة حالا . عرفت كذلك انه لن يكون هناك مدعو اجنبي آخر غيري وهذا ملأني فخرا فشعرت اني اشارك بشكل ما في حركة انبعاث .

كان (بريستيس) حديث الخروج الى الحرية بعد ان قضى اكثر من عشر سنوات في عبودية السجن . ان هذه الاعتقالات الطويلة الامد ليست استثنائية شاذة في بلدان «العالم الحر» . فزميلي وصاحبي الشاعر (ناظم حكمت) قضى ثلاث عشرة او اربع عشرة سنة في سجون تركيا . الآن وانا اكتب هذه الذكريات أذكر ان ستة او سبعة من شيوعيي «الاورغواي» قد دفنوا في السجون دون اي اتصال بالعالم منذ اثنتي عشرة سنة . لقد

سلمت الديكتاتورية البرازيلية زوجة (بريستيس) وهي المانية الاصل ، الى الـ «غيستابو» . قيّدها النازيون بالسلاسل الى الباخرة التي كانت تقلها الى عذاب الموت . وضعت طفلة تعيش الآن مع ابيها ، انقذتها من بين انياب الـ «غيستابو» السيدة المحترمة التي لا تملّ ، السيدة (ليوكاديا بريستيس) والدة هذا الزعيم . بعد ان وضعت زوجة (لويس كارلوس بريستيس) طفلتها في فناء سجن ، دق النازيون عنقها . ان هذه الحيوات المستشهدة كلها جعلت الناس لا ينسون (بريستيس) ابدا طيلة السنوات الطويلة التي قضاها في السجن .

انا كنت في المكسيك حين ماتت والدته السيدة (ليوكاديا بريستيس) . كانت هي قد دارت العالم كله وهي تطالب بتحرير ابنها . ابرق الجنرال (لاثارو كارديناس) (١٠٧) وهو رئيس سابق للجمهورية المكسيكية ، الى الديكتاتور البرازيلي طالبا منه ان يعطي (بريستيس) بضعة ايام من حرية تسمح له ان يحضر جنازة والدته . كان الرئيس (كارديناس) في رسالته يقول بأنه يضمن شخصيا عودة(بريستيس) الى حبسه فكان جواب (غيتوليو بارغاس) (١٠٨) سلبيا .

لقد ساهمت في سخط العالم كله فكتبت قصيدة على شرف السيدة (ليوكاديا) وفي ذكرى ابنها الغائب وفي لعنة الطاغية .

انشدتها على ضريح السيدة النبيلة التي قرعت ابواب العالم عبثا في سبيل تحرير ابنها . كانت قصيدتي تبدأ في وقار واعتدال :

سيدتي ، لقد جعلت من قارتنا الامريكية اكبر وأعظم .
لقد منحتها نهرا نقيا من مياه جمة ،

---

١٠٧ ـ لاثارو كارديناس : زعيم سياسي مكسيكي ، كان جنرالا في الجيش ثم اصبح رئيسا للجمهورية (١٨٩٥ ـ ١٩٧٠) .

١٠٨ ـ غيتوليو بارغاس : زعيم سياسي برازيلي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٤) .

لقد منحتها شجرة كبيرة ذات جذور لا نهائية :
ابنا لكم جديرا بوطنه العميق .

لكن ، بمقدار ما كانت القصيدة تستمر كانت تغدو اكثر عنفا ضد المستبد البرازيلي .

لقد انشدتها في جهات كثيرة ثم راحت تنسخ وتطبع في منشورات وعلى البطاقات البريدية فجابت القارة بأسرها .

ذات مرة ، حين كنت امر ب «بناما» ارفقتها بمجموعة من القصائد في احدى قراءاتي الشعرية بعد ان انشدت قصائدي الغزلية . كانت القاعة مليئة وكان حر البرزخ يجعلني أعرق وارشح . كنت قد وصلت في انشادي الى الابيات التي تلعن الرئيس (بارغاس) حين شعرت ان حنجرتي قد جفت . توقفت عن الانشاد ومددت يدي نحو كأس كانت قريبة مني . في هذه اللحظة رأيت شخصا يلبس بدلة بيضاء يقترب مني مستعجلا نحو المنبر . انا ، معتقدا انه مستخدم تابع للقاعة ، مددت له الكأس كي يملأها لي بالماء . لكن الرجل هذا المرتدي البذلة البيضاء رفض ذلك وقد شعر بالاهانة والتفت الى الحضور ثم صرخ بشكل عصبي Soyo Embaxaidor do Brasil (١٠٩) . احتج لان (بريستيس) ما هو الا مجرم عام ...» .

فقاطع الجمهور هذه الكلمات بتصفير حاد مدو . طالب شاب ملون ، عريض كخزانة ، نهض من وسط القاعة وشق له دربا نحو المنبر ومد يديه الى عنق السفير . انا أسرعت كي احمي الديبلوماسي ولحسن الحظ استطعت ان أخرجه من ذاك المكان دون اي ضرر كان يمكن ان يلحق بمنصبه وسمعته .

بهذه السوابق بدا سفري من «ايسلا نيغرا» الى البرازيل للمشاركة في الابتهاج الشعبي ، طبيعيا بالنسبة للبرازيليين . لقد اندهشت حين رأيت الجمهرة الغفيرة التي كانت تملأ ملعب «باكايمبو» Pecaimbu

---

١٠٩ ـ العبارة بالبرتغالية ، معناها ، انا سفير البرازيل .

في «سان باولو» . يقولون انه كان هناك اكثر من مائة الف نسمة . كانت الرؤوس ترى صغيرة جدا داخل تلك الدائرة الواسعة جدا . لقد بدا لي (بريستيس) ذو القامة الضئيلة وهو بجانبي وكأنه (العازر) وقد خرج من القبر ، نظيفا ومتزينا للمناسبة . كان ضامرا ابيض حتى الشفافية ، بهذا الشحوب الغريب الذي يبدو على ملامح السجناء . نظرته الحادة الشديدة، دوائره المزرقة حول عينيه ، أساريره الرقيقة جدا ، رصانته الخطيرة ، كل شيء كان يذكر بالتضحية الطويلة خلال حياته كلها . غير انه تكلم في هدوء جنرال منتصر .

انا انشدت قصيدة على شرفه كتبتها ساعات قليلة من قبل . غير فيها (خورخه أمادو) كلمة واحدة وهي كلمة **البنائين** (١١٠) واستبدل بها كلمة **Pedreiras** (١١١) البرتغالية . على الرغم من تخوفاتي فقد فهم الحشد الغفير كله قصيدتي المكتوبة والمقروءة باللغة الاسبانية . بعد كل سطر من قراءتي المتمهلة البطيئة كان ينفجر تصفيق البرازيليين . كان لتلك التصفيقات رجع عميق في شعري . ان شاعرا ينشد أشعاره امام مائة وثلاثين الف نسمة ليس في مكنته ان يظل هو نفسه كما كان من قبل ولا يستطيع ان يكتب بالطريقة نفسها بعد هذه التجربة .

في النهاية اجد نفسي وجها لوجه امام البطل الاسطوري (لويس كارلوس بريستيس) كان ينتظرني في منزل احد اصدقائه . ان كل ملامح (بريستيس) — قامته الصغيرة، نحولته ، بياضه كبياض الورق الشفاف تتطلب امعانا كإمعان التصوير الدقيق . كذلك كلماته ، ولربما تفكيره ، تبدو في تناسق مع هذا المظهر الخارجي .

انه ودي معي ولطيف داخل اطار تحفظه المعروف به . اعتقد انه يخصني بهذه المعاملة الودودة التي نحن الشعراء نجدها دوما لدى الآخرين في معاملتهم لنا وهي معاملة تلطف بين الطراوة والمراوغة ، شبيهة جدا بمعاملة الكبار حين يتحدثون الى الصغار .

---

١١٠ — البنائين : هكذا في الاصل Albaniles عن العربية .

١١١ — معناها : الحجّارة .

دعاني (بريستيس) الى الغداء في يوم من ايام الاسبوع التالي . عند ذلك وقعت لي واحدة من هذه المصائب التي لا يمكن عزوها الا الى القدر او الى فوضويتي وعدم مسؤوليتي . ان اللغة البرتغالية ، مع انها تملـك سبتها وأحدها لا تشير الى الايام الاخرى مثل الاثنين والثلاثاء والاربعاء الا بتسميات شيطانية على النحو التالي (Segonda Feira, Tersa Feira, Guarta Feira قافزة عن Feiara الاول باعتباره تحصيل حاصل . انـا أتخربط بهذه الايام البرتغالية دون ان ادري في اي يوم يكون يومها .

رحت لأقضي بضع ساعات على الشاطيء مع صديقة برتغالية جميلة مذكرا نفسي في كل لحظة انه في اليوم التالي ينتظرني (بريستيس) على الغداء . في La quarta Feira علمت ان (بريستيس) انتظرني فـــي Tersa Feira بلا جدوى والمائدة جاهزة بينما كنت انا أقضي تلـك الساعات في شاطيء «ابانيما» ibanima . بحث عني في كل جهة دون ان يعرف احد اين موضعي . القائد الزاهد كان قد احضر تكريما لي زجاجات نبيذ فاخرة ممتازة من الصعب الحصول عليها في البرازيل . كنا سنتغدى نحن الاثنين وحدنا .

كلما ذكرت هذه الحكاية ، اريد ان اموت خجلا . لقد استطعت ان اتعلم كل شيء في حياتي غير اسماء ايام الاسبوع بالبرتغالية .

(كودوفيا Codvila)

لدى خروجي من «سانتياغو» عرفت ان (فيتوريو كودوفيا) كان يريد التحدث معي فذهبت لأراه . كنت أحافظ دوما على صداقة طيبة معه حتى موتــه .

كان (كودوفيا) ممثلا للأممية الثالثة وكانت تجتمع فيه عيوب تلـــك الفترة كلها . كان شخصانيا استبداديا ، وكان يظن انه يملك الحق دوما، كان يفرض رأيه ويعتقد انه الفيصل ، كان يتدخل في آراء الآخرين كمـا السكين في الزبدة . يدخل الى الاجتماعـــات في عجلة واستعجـــال

ليعطي الانطباع بأن كل شيء عنده قد انجز وانه فكر في كل أمر ووجد له حــــلا . يبدو عليه حين ينصت الى آراء الآخرين وكأنه يفعل ذلك فـــي كياسة وذوق ، وفي تململ وعدم صبر . من بعد كان يعطي أوامره الباتة وتعليماته القاطعة . قدرته كانت هائلة وسيطرته على الانشاء والتركيب كانت باهظة تبعث الآخرين على الارهاق . كان يعمل بلا كلل وكان يفرض هذا النسق السريع المتواصل على رفاقه . لقد تكونت لي فكرة دائمة عنه الا وهي انه آلة كبيرة للفكر السياسي في تلك الاوقات .

لقد كان له نحوي دوما شعور خاص جدا بالتفهم والمراعاة . لقد كان هذا الايطالي المهاجر النفعي فيما هو مدني ، انسانيا بشكــــل فائض ، ذا شعور عميق وحس فني يجعلانه يتفهم نقاط الضعف في رجال الثقافة ، ولكن هذا ما كان ليمنعه من ان يكون عديم الشفقة ــ واحيانا نحسا ــ في الحياة السياسية .

كان منزعجا منشغلا ، قال لي ، بسبب عدم تفهم (بريستيس) لموقفه المعادي للديكتاتورية «البيرونية» . فقد كان (كودوفيا) يعتقد ان (بيرون) وحركته كانا امتدادا للفاشية الاوروبية . ولا اي انسان معادٍ للفاشيـــة يمكن لهان يقبل بتضخم «بيرون» وبنشاطاته المتكررة فيالقمع والاستبداد. كان (كودوفيا) والحزب الشيوعي الارجنتيني وبساريون آخرون يفكرون في تلك الفترة ان الجواب الوحيد على (بيرون) هو العصيان .

(كودوفيا) كان يريد ان اتكلم انا في هذا الموضوع مع (بريستيس) . ليس هذا بمهمة يجب عليك تأديتها ، قال لي . لكنني شعرت بانه كـــان منشغلا في اطار هذه الثقة بالنفس التي كانت تميزه .

بعد المهرجان السياسي الذي جرى في «باكيامبو» تحدثت مطولا مع (بريستيس) . لم يكن ممكنا العثور على رجلين مختلفين متناقضين اكثر منهما . الايطالي ــ الارجنتيني الضخم الطافح كان دائما يشغل الغرفـة كلها ، الطاولة بأسرها ، الجو بكامله . (بريستيس) الضامر الزاهد كان جد هش الى حد ان هبّة ريح كانت تستطيع ان تحمله عبر النافذة .

غير اني وجدت من وراء المظاهر رجلين صلبين جدا لا يختلف احدهما

عن الآخر في صلابته وعناده .

«ليس ثمة من فاشية في الارجنتين ، ان (بيرون) هو قائد وليس زعيما فاشيستيا» قال لي (بريستيس) مجيبا على اسئلتي . «اين هي القمصان البنية ؟ القمصان السوداء ؟ المليشيا الفاشيستية ؟».

«زد على هذا ، ان(كودوفيا) يخطيء . يقول (لينين) انه لا يمكن اللعب بالعصيان . ولا يمكن ان تعلن حرب بدون جنود ، اذا كان لا يعتمد فيها الا على المرتجلين العفويين» .

كان الرجلان المختلفان جدا في اعماقهما متشابهين في انهما لا يمكن اقناعهما . احدهما ، بشكل محتمل (بريستيس) ، كان له الحق في هذه الاشياء لكن اعتقادية كليهما ، اعتقادية هذين الثوريين المستحقين للاعجاب كانت تثير حولهما بشكل دائم جوا انا كنت اجده خانقا .

يجب عليّ ان اضيف هنا ان (كودوفيلا) كان رجلا حيويا . بالنسبة لي فقد كانت تعجبني جدا محاربته للحشمة وتصنع الحياء و « البوريتانية » (١١٢) لفترة شيوعية . كان (لافيرته) رجلنا التشيلي العظيم جدا في تلك الاوقات القديمة المتعصبة المتحزبة ، ضد «الكحولية» حتى الهوس . كان (لا فيرته) العجوز يقبع (١١٣) كذلك في كل لحظة ضد الحب والعلاقات الغرامية التي كانت تنشأ خارج «حكم الشرع» (١١٤) بين رفاق الحزب ورفيقاتهم . كان (كودوفيلا) يهزم معلمنا المحدود بما له من سعة حيوية .

---

١١٢ ـ البوريتانية : هي مذهب التمحيص والتمسك المتشدد بالدين ، يمكن ترجمتها ب الحنبلة .

١١٣ ـ يقبع : قبع الخنزير اي دمدم وهمهم .

١١٤ ـ حكم الشرع : في الاصل Registro Civil اي السجل المدني .

(ستالين)

ان كثيرا من الناس قد اعتقدوا في اني سياسي مهم ، او اني كنت ذلك السياسي . لست أدري من اين خرجت هذه الاسطورة الشهيرة جدا. ذات مرة رايت ، صدفة ، صورة لي صغيرة مثل صور الطوابع ، في صفحة من صفحات مجلة Life . كانت هذه المجلة تعرض على قرائها صور قادة الشيوعية العالمية . لقد بدت لي صورتي المحشورة بين صورة (بريستيس) وصورة (ماو تسي تونغ) فكاهة مسلية ، غير اني ما أوضحت انا لقراء المجلة شيئا لاني دائما كنت اكره رسائل الاستدراك او الاحتجاج التي تبعث عادة الى الصحف لتوضيح امر او آخر . كذلك كان شيئا لطيفا ان اترك C.I.A (١١٥) على خطئها مع أن لها في العالم اكثر من خمسة ملايين من العملاء والمخبرين .

ان اطول اتصال قمت به مع زعيم قطب في العالم الاشتراكي جرى خلال زيارتي للصين حين تبادلت مع (ماوتسي تونغ) في مجرى احتفال ، شرب الانخاب . عندما تلامست كأسانا نظر الـي " بعينين مبتسمتين وبابتسامة عريضة واسعة بين لطيفة ومستهزئة ، احتفظ بيدي في يده حين سلم علي " ، ضاغطا عليها خلال بضع ثوان اكثر مما هو معتاد عليه . من بعد عدت الى المائدة لاجلس في مكاني .

ابدا ما شاهدته اثناء زياراتي الكثيرة للاتحاد السوفيتي لا (مولوتوف) (١١٦) ولا (فيسهينسكي) ولا (بيريا) (١١٧) ولا حتى (ميكويان) ، ولا (ليتفيتوف) وهذان الاخيران هما شخصيتان اجتماعيتان اكثر من غيرهما وأقل غموضا من الآخرين .

---

١١٥ ـ ادارة الاستخبارات الامريكية .

١١٦ ـ مولوتوف : سياسي سوفييتي ولد عام ١٨٩٠ .

١١٧ ـ بيريا : سياسي سوفييتي مشهور (١٨٩٩ ـ ١٩٥٣) .

اما (ستالين) فقد لمحته اكثر من مرة ، ودوما في النقطة نفسها : المنصة التي تعلو فوق الساحة الحمراء وتغص بالقـــادة السوفييت ذوي المناصب العالية ، سواء في الاول من ايار او في السابع من تشرين الثاني كل عام . لقد قضيت ساعات طويلة في «الكريملين» بصفتي عضوا فـــي اللجنة المحكمة لمنح الجائزة التي كانت تحمـــــل اسم (ستالين) دون ان نتواجه البتة ، في ممر ، ودون ان يأتي هو ليزورنا خلال مداولاتنـــا او ولائمنا او ان يدعونا ليحيينا . لقد منحت الجوائز دوما باجماع الاصوات لكن كان يسبق الاقتراع نقاش مغلق لاختيار المرشح . لقد كان لـــديّ الانطباع بأن شخصا ما من امانة سر اللجنة المحكمة كان يعدو بما كنا نتفق عليه ، قبل اتخاذ القرارات النهائية ، ليرى فيما اذا كان الرجل الكبـــير يصادق عليها ام لا . لكن لا أذكر مطلقا انه كان ثمة اعتراض او اية ممانعة من قبله ، ولا أذكر كذلك انه ، على الرغم من قربه المحسوس منا ، كـــان يشعر بأنه يعلم بوجودنا . لقد كان (ستالين) بشكل مقرر يزرع الغموض كمنهاج يتخذه ، او انه كان هيّابا كبيرا ، رجلا سجين نفسه . وربما يمكن ارجاع هذه الميزة الى التأثير المسيطر الذي كان (بيريا) عليه . لقد كان (بيريا) هو الوحيد الذي يدخل ويخرج ، دون اعلام مسبق ، الى غـرف (ستالين) .

بيد انه كان لي في مناسبة ما علاقة غير متوقعة ، ما زالت تبدو لي حتى الآن غريبة ، مع رجل «الكريملين» الغامض . كنا نروح في صحبة آل (اراغون) ــ (لويس) و(ايلسا) ــ في طريقنا الى موسكو لنشارك فـــي اجتماع اللجنة المحكمة التي كان عليها أن تتداول في منح جائزة (ستالين) لذاك العام . فأوقفتنا في «فرصوفيا» عواصف ثلجية هائجـــة هائلة . فعرفنا اننا لن نصل الى «موسكو» في الوقت المحدد . احد مرافقينـــا السوفييت تكلف بارسال اسماء المرشحين الذين انا و(أراغون) كنا قـــد اخترناهم ، برقيا باللغة الروسية الى «موسكو» . على فكرة ، هذه الاسماء قد ووفق عليها في الاجتماع . لكن ما هو غريب حقا في هـــذا الامر ان السوفييتي الذي تلقى الاجابة على ذلك هاتفيا ، اخذني جانبا وقال لي على حين غرة :

ــ اهنئك ، ايها الرفيق (نيرودا) . ان الرفيق (ستالين) حين قدمت

اليه قائمة المرشحين للفوز بالجائزة صرح متسائلا : «ولماذا اسم (نيرودا) ليس بين هذه الاسماء ؟» .

في العام التالـــي استلمت انا **جائزة (ستالين) للسلم والصداقة بين الشعوب** . ربما اني كنت استحقها عن جدارة لكنني اتساءل كيف علم ذلك الرجل النائي بوجودي ؟.

عرفت في تلكم الاوقات بتدخـــلات مشابهة لستالين . حين كانت تتفاقم الحملة ضد «الكونية» **El Cosmopolitismo** ، حين كان المتحزبون ذوو «العنق القاسي» يطالبون برأس (ايهرينبورغ) رن جرس الهاتف ذات صباح في منزل مؤلف «خوليو خورنيتو» فردت على النداء (لوبا) صوت غير معروف بشكل غامض ، سأل :

ــ اموجود (اليا غريغوريفيتش) ؟

ــ من حضرتك ؟ اجابت (لوبا) .

ــ هنا (ستالين) ــ قال الصوت .

ــ يا (اليا) ، ثمة رجل يمزح يريد التكلـم معك ــ قالت (لوبــــا) (ايهرينبورغ) .

لكن حين اخذ الهاتف عرف الكاتب انه صوت (ستالين) المسموع جدا من لدن الناس جميعهم :

ــ لقـــد قضيت الليلـــــة وانا اقرا كتابـــك « سقوط باريس » **la caida de Paris** . فاحببت ان اتصل بك كي اقول لك ان تظل مستمرا على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جدا ، ايها العزيز (اليا غريغوريفيتش) .

قد تكون هذه المكالمة الهاتفية غير المتوقعة قد جعلت حياة (ايهرينبورغ) العظيم تطول .

مثال آخر . كان (ماياكوفيسكـي) قد مـات ، لكن أعـــداءه الرجعيين العنيدين كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بانيـــاب وبسكاكين ، مصممين مصرين على محوه من خارطة الادب السوفييتي . حينذاك حدث امر غيّر كل ما بيتوه وافترضوه . كتبت حبيبته (ليلي بريك) رسالة الـى (ستالين) تشير له فيها الى ما هو مخجل وعار في تلك التهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (ماياكوفسكي) . كان المعتدون يظنون انهم لن يعاقبوا على فعلتهم محميين بتألبهم الجماعي . فاصيبوا بخيبة امل . لقد كتب «ستالين» على هامش رسالة (بريك) : «ان (مايافوفيبسكي) لهـو احسن شاعر في العهد السوفييتي» .

منذ تلك اللحظة اخذت تبنى المتاحف وتقام النصب التذكارية تكريما لـ (ماياكوفيسكي) وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخر جدا . فصعق المخرصون وخمدوا امام نفخة (يهوه) في الصور .

علمت كذلك انه حين مات (ستالين) عثروا بين اوراقه على قائمـــة اسماء كتب عليها «ممنوع اللمس» ، بخط يده . في رأس هذه القائمة كان اسم الموسيقي (شيوكاكوفيتش) (١١٨) ثم تتلو اسماء شهيرة اخـرى . (ايسنتستين) (١١٩) ، (باسترناك) ، (ايهرنبورغ) ، الخ .

ان الكثيرين ظنوا اني ستاليني مقتنع . لقـد صورني الفاشيـــون والرجعيون على اني مفسر غنائي لستالين . لا شيء من هذا يغضبنـــي ويزعجني . ان الاستنتاجات كلها ممكنة في عهد مشوش بشكل شيطاني .

ان المأساة الذاتية بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كانت هي اننا ادركنا انه ، في نواح عديدة من مشكلة ستالين كان للعدو الحق . لقد تلت هذا الكشف الذي هز النفس حالة وعي اليمة . بعض الشيوعيين شعر انه كان

---

١١٨ ـ شيوكاكوفيتش : مؤلف موسيقي سوفييتي ولد عام ١٩٠٦ .

١١٩ ـ ايسنتستين : مخرج سينمائي سوفييتي (١٨٩٨ ـ ١٩٤٨) .

مخدوعا فقبل في عنف ، منطق العدو وعبر الى صفوفه . آخرون اعتقدوا ان الاحداث الرهيبة المفزعة التي كشف عنها **المؤتمر العشرون** بشكل غير رحيم تفيد في ان تبرهن على نزاهة حزب شيوعي انقذ نفسه وهو يُري العالم الحقيقة التاريخية وهو يقبل مسؤوليته الذاتية .

ان كان فعلا ان هذه المسؤولية تقع علينا جميعا ، فان فضح تلك الجرائم كان يعيدنا الى النقد الذاتي والتحليل وهما مادتان جوهريتان في مذهبنا . كان هذا يعطينا الاسلحة كي نمنع ان تتكرر مثل هذه الاشياء الرهيبة جدا .

هذا كان موقفي : على الرغم من دياجير عهد (ستالين) ، التي لم اكن اعرفها كان يبرز امام عيني (ستالين) الاول ، رجل مبدئي ، طيب ، دمث، قانع مثل زاهد ، مدافع جبار عن الثورة الروسية . بالاضافة الى هذا كان ذاك الرجل القصير ذو الشاربين الكبيرين قد اصبح عملاقا في الحرب ، فقد اقتحم الجيش الاحمر واسم (ستالين) على كل شفة ، حصن الابالسة الهتلريين فجعله غبارا .

بيد اني ، كتبت قصيدة واحدة اهديتها الى هذه الشخصية القديرة وكان ذلك في موته . يستطيع من يشاء ان يعثر عليها في اعمالي الكاملة . ان موت مارد «الكريملين» كان له وقع دولي . فلقد اهتزت الغابة الانسانية له . قصيدتي هذه التقطت مشاعر ذاك الهلع الأرضي .

درس في التواضع

لقد باح لي (غابرييل غارثيا ماركيث) ، وهو يشعر بإهانة كبيرة ، كيف انهم حذفوا في موسكو بعض العبارات الغرامية من كتابه الرائع «مائة سنة في الوحدة» .

ـ ان هذا لسيء جدا ـ قلت انا للناشرين .

ـ لكن الكتاب لا يفقد شيئا ـ اجابوني ، وانا ادركت بأنهم كانوا

قد شذبوه من غير نية سيئة . لكنهم شذبوه .

كيف يتم اصلاح هذه الاشياء ؟ انني في كل مرة أصبح أقل علما في المجتمع . خارج مبادىء الماركسية العامة ، خارج كراهيتي للراسمالية وثقتي في الاشتراكية ، كل مرة أغدو أقل فهما لتناقض الانسانية العنيد.

كان علينا نحن شعراء هذه الفترة ان نختار . لم يكن الاختيار سريرا من ورود . لقد اصبحت الحروب الرهيبة الظالمة ، الاضطهاد المستمر ، ظلم المال واعتداؤه ، المظالم كلها ، اكثر امعانا ووضوحا . لقد كانت صنّارات النظام الهرم هي «الحرية» المشروطة ، الناحية الجنسية ، العنف واللذات المدفوعة على أقساط شهرية مريحة .

لقد بحث شاعر الحاضر عن مخرج من قلقه . بعضهم التجأ الى الصوفية او نحو حلم العقل . بعضهم الآخر يشعر انه مفتون بالعنف العفوي المهدم للشباب ، فعبر ليصير «تلقائيا» immediatista دون الاخذ بعين الاعتبار ان هذه التجربة ، في العالم الحالي الحربي ، قد أدت دوما الى القمع والتعذيب الجسدي العقيم .

لقد وجدت في حزبي ، الحزب الشيوعي التشيلي ، مجموعة كبيرة من اناس متواضعين كانوا قد نحوا جانبا الغرور الشخصي ، حب الزعامة، المصالح المادية . شعرت باني سعيد في معرفة اناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام اي في سبيل العدالة .

قط لم تكن لي من مصاعب مع حزبي الذي بتواضعه توصل الى تحقيق انتصارات عظيمة لشعب تشيلي ، شعبي . ماذا استطيع ان اقول اكثر من هذا ؟ اني لا اطمح الا الى ان اكون جد متواضع مثل رفاقي ، جد مثابر وغير قابل للهزيمة كما هم عليه . ابدا لا يتعلم المرء ما فيه الكفاية من التواضع . قط ما علمني شيئا الافتخار الشخصي الذي يتحصن «المذهب الارتيابي» el escepticismo كي لا يتضامن مع العذاب الانساني .

(فيديل كاسترو Fidel Castro) (١٢٠)

بعد اسبوعين من دخوله المنتصر الى «لا هافانا» وصل (فيديل كاسترو) الى «كاراكاس» في زيارة قصيرة . لقد جاء ليشكر علنا الحكومة والشعب الفنزويليين على المساعدة التي كانت «فينزويلا» قد قدمتها له . هـــذه المساعدة كانت عبارة عـــن اسلحة لقواتـــه ولم يكـن ، طبعـــا ، (بيتانكـورت (١٢١) (المنتخب حديثا رئيسا للجمهورية) من امده بهذه المساعدة بل كان امير البحر (وولففانغ لارازابال) . لقـــد كـــان (لارازابال) صديـــق الحركات اليسارية الفينزويلية بما فيها الحزب الشيوعي فلبى مطلب التضامن مع كوبا ، الذي وجهه اليه هؤلاء اليساريون.

لقد رايت في حياتي قليلا من الاستقبالات السياسية الحماسية جدا مثل الاستقبال الذي خص به الفينزويليون هذا الشاب المنتصر في الثورة الكوبية . لقد تكلم (فيديل كاسترو) خلال اربع ساعات مستمرة فـــي الساحـــة الكبرى المسمـــاة « الـ سيلنثيو » (١٢٢) وهـــي قلب «كاراكاس» . انا كنت واحدا من المائتي الف شخص الذين استمعوا وهم واقفون على ارجلهم بدون نبس الى ذلك الخطاب الطويل . بالنسبة لي كما بالنسبة لآخرين كثيرين كانت خطب (فيديل) وحيا وتنزيلا . حين كنت اسمعه يتكلم امام ذاك الحشد الغفير ، ادركت ان عهدا جديدا قد بـــدا بالنسبة لامريكا اللاتينية . لقد اعجبت بجدة لغته. لقد اعتاد احسن القادة النقابيين والسياسيين على هرس صيغ قد يكون محتواها ذا قيمة لكنهـا كلمات مستهلكة وهنة من كثرة التكرار . لقد كان (فيديل) يتجاهل مثل هذه الصيغ . لغته كانت طبيعية تعليمية . كان يبدو وكانه هو نفسه يتعلم فيما كان يتكلم ويعلم .

لم يكن الرئيس (بيتانكورث) يحاضر في الاحتفال . كانت ترهبه فكرة

---

١٢٠ ــ فيديل كاسترو : الزعيم الكوبي المعروف ولد عام ١٩٢٦ .

١٢١ ــ بيتانكورث : سياسي فينزويلي ولد عام ١٩٠٨ .

١٢٢ ــ سيلنثيو : معناها السكون .

ان يتواجه وشعب « كاراكاس » اذ لم يكن فيها شعبيا ابدا . كـــل مرة كان (فيديل كاسترو) يذكر فيها اسمه في خطابه كانت تسمع توا تصفيرات واستنكارات التي كانت يدا (فيديل) تحاولان تهدئتها . انا اظن ان ذاك اليوم قد وضع ختما نهائيا لعداوة استفحلت شيئا فشيئا بين (بيتانكورث) والثوري الكوبي . لم يكن (فيديل) ماركسيا ولا شيوعيا في ذاك الوقت ، كلماته نفسها كانت تنأى كثيرا عن هذا الموقف السياسي . ان رايـــي الشخصي هو ان ذاك الخطاب ، شخصية (فيديل) اللامعة والحماســة الجماهيرية التي كانت تنبعث . الشغف الذي ابداه شعب «كاراكاس» حين كان ينصت اليه ، احزنت كل هذه الاشياء قلب (بيتانكورث) وهو سياسي ذو أسلوب عتيق ، ذو بلاغة ، رجل محافل واجتماعات سرية . منذ ذلك الحين و(بيتانكورث) يمقت فيْ حنق لا يرحم كل حكاية تجعله يشتمّ من قريب او بعيد رائحة (فيديل كاسترو) او الثورة الكوبية .

في اليوم التالي لذاك المهرجان السياسي ، حين كنت انا في الريف اقوم بنزهة يوم الاحد وصلت الينا بعض الدراجات النارية كانت تحضر لي دعوة الى السفارة الكوبية . كانوا قد بحثوا عني طيلة النهار كله دون ان يعثروا عليّ وفي النهاية اكتشفوا موضعي . كان الاستقبال سيجري في مساء ذات اليوم نفسه . (ماتيلده) وأنا اتجهنا مباشرة الى مقر السفارة . كان المدعوون جد كثيرين الى درجة انهم كانوا يتجاوزون سعة القاعـــات والحدائق ، في الخارج كان الشعب يتزاحم وكان صعبا جدا اجتيـــاز الشوارع التي تؤدي الى مقر السفارة .

تخطينا قاعات مزدحمة بالناس ، متراسا من أذرع تحمـــل كؤوس «كوكتيل» كانت ترتفع فنعبر . اخذنا شخص ما عبر دهاليز وسلالم الى طابق آخر . في مكان مفاجيء كانت تنتظرنا (ثيليا Celia) صديقـــة (فيديل) وسكرتيرته وأقرب الناس اليه . (ماتيلده) بقيت معها . اما انـا فقد ادخلوني الى الغرفة المجاورة . وجدت نفسي في غرفة نوم اضافية كأنها غرفة نوم بستاني او سائق . لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو ان احد الاشخاص كان نائما عليه فنهض منه في استعجال تاركا الشراشف في

فوضى والمخدة (١٢٣) على الارض . ثمة طاولة سرير صغيرة ولا شيء آخر .
ظننت انهم من هناك سيأخذوني الى قويعة لائقة كي أقابل القائد . لكن هذا
لم يكن هكذا اذ فتح الباب على حين غرة واذ (فيديل كاسترو) يملأ الفراغ
بقامتـــه .

كان اطول مني براس . اتجه نحوي بخطى سريعة .

ـ مرحبا ، (بابلو) ـ قال لي وغمرني بذراع شادّة ضاغطة .

لقد فاجأني صوته النحيل الرقيق ، الطفولي تقريبا . كذلك شيء
في منظره كان يتطابق مع لحن صوته . لم يكن (فيديل) يعطي الانطباع بأنه
رجل كبير ، بل طفل صغير كانت قد تطاولت فجأة ساقاه دون ان يفقد
وجهه وجه فتى ، ولحيته الضئيلة ، ذقن مراهق .

ترك ذراعه عني في فظاظة وخشونة . ثـم ظل كمن للدعته الكهرباء .
دار نصف دورة واتجه عازما حازما نحو ركن في الغرفة . دون انتبه انا
كان قد دخل في خفوت مصور صحفي ومن هذا الركن اخذ يوجه آلته
التصويرية نحونا . (فيديل) انقضّ عليه دفعة واحدة . رأيته وهو يمسك
به من خناقه ويهزه فسقطت آلة التصوير على الارض . اقتربت مـــن
(فيديل) واخذته من ذراعه وقد فزعت حين رأيت المصور الضئيل يكافح
بلا جدوى ويحاول ان يتملص منه ويتخلص . غير ان (فيديل) قذف به نحو
الباب واجبره على الاختفاء . من بعد التفت اليّ مبتسما ، التقط آلـــة
التصوير من الارض ورماها فوق السرير .

لم نتكلم عن الحادثة بل عن امكانات انشاء وكالة انباء لامريكا بأسرها .
يظهر لي انـــه من جراء تلك المحادثة الثنائية ولـــدت وكالة « الصحافـــة
اللاتينية» . من بعد كل واحد منا خرج من باب ليعود الى الاستقبال .

---

١٢٣ ـ المخدة : هكذا في الاصل Almohada . عن العربية

بعد ساعة على ذلك ، حين كنت اعود من السفارة في صحبة (ماتيلده) رجع الى مخيلتي وجه ذاك الصحفي المروع والسرعة الغريزية لرئيس حرب العصابات الذي انتبه الى وصول الدخيل الخفوت من وراء ظهرينا .

هذا كان اول لقاء لي مع (فيديل كاسترو) . لماذا رفض بشكل قاطع تلك التصويرة ؟ أكان رفضه يتضمن سرا سياسيا صغيرا ؟ الى الآن لم استطع ان اتوصل الى فهم ، لاي سبب كانت مقابلتنا يجب ان تتم في جو ذي طابع سري جدا .

كان اول لقاء لي مع (تشي غيفارا) مختلفا جدا . جرى اللقاء في «لا هافانا» . وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريبا، وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية او الاقتصاد ، لا أذكر الآن على وجه الدقة . مع انه كان قد حدد لي منتصف الليل ، انا وصلت متأخرا. كنت أحضر اجتماعا رسميا وأجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان «تشي» ينتعل جزمة ، ويرتدي زيا عسكريا للميدان ويتمنطق بحزام فيه مسدسان . كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصرفي .

كان (تشي) اسمر ، متمهلا في الكلام ، ذا نبرة ارجنتينية واضحة . كان رجلا يصلح الحديث معه في تروٍّ، بسهول «بامبا» Pampa بين «ماته» (١٢٤) و«ماته» . جمله كانت قصيرة موجزة تقضب في ابتسامة كما لو انه يترك التعليق معلقا في الهواء .

لقد لذ لي ما قاله لي عن كتابي «النشيد العام» . كان يعتاد قراءته ليلا على رجاله المحاربين في «لا سييرا مايسترا» . الآن ، بعد أن مرت

---

١٢٤ ــ ماته : كنا قد اشرنا الى انه نوع من الشاي يشربه الامريكيون اللاتينيون والمغتربون العرب العائدون الى وطنهم العربي من امريكا اللاتينية .

١٢٥ ــ ريجيس دو بريه : هو الصحفي الفرنسي الذي رافق (تشي غيفارا) في«بوليفيا» ثم سجن هناك .

السنون ، اقشعر حين افكر ان اشعاري رافقته كذلك في موته . عن طريق (ريجيس دوبري) (١٢٥) عرفت انه في جبال «بوليفيا» احتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما : كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

لقد قال لي (تشي) تلك الليلة شيئا بلبلني كثيرا ولكنه من ناحية يفسر مصيره الذي آل اليه . كان نظره يشرد عني نحو النافذة المعتمة لذاك البناء المصرفي . كنا نتكلم عن احتمال غزو امريكي شمالي لكوبا . انا كنت قد شاهدت في شوارع «لا هافانا» أكياس رمل منتشرة في نقاط استراتيجية . هو قال لي بشكل مفاجيء :

ـ الحرب ... الحرب نحن دوما ضد الحرب ، اما وقد قمنا بها فنحن لا نستطيع الحياة بدون الحرب في كل لحظة نريد ان نعود اليها .

كان يفكر في صوت عال ويخاطبني . انا استمعت اليه في ذهول صريح واضح . بالنسبة لي الحرب هي تهديد وليست بمصير .

ودعته وما عدت فرايته من بعد قط . من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي . لكنني ما زلت أرى في (تشي غيفارا) ذاك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوما في معاركه البطولية ، ازاء الاسلحة ، مكانا للشعر .

ان كلمة «أمل» تعجب كثيرا امريكا اللاتينية . يطيب لنا ان تسمى قارتنا «قارة الامل» . لو ان المرشحين للنيابة ، لعضوية مجالس الشيوخ ، للرئاسة ، يسمون انفسهم «مرشحي الامل» .

في الواقع ان هذا الامل هو شيء هكذا مثل الفردوس الموعود ، وعد بالدفع ، اداؤه يتأجل دوما . يؤجل الى المرحلة التشريعية القادمة ، الى السنة القادمة او القرن القادم .

حين نشبت الثورة الكوبية حدثت لملايين من الامريكيين الجنوبيين يقظة فجائية . ما كانوا اول الامر يصدقون ما كانوا يسمعون . لم يكن

هذا مكتوبا في اسفار قارة قد عاشت وهي تفكر بيأس في الامل .

واذ ، على حين غرة ، (فيديل كاسترو) وهو كوبي لم يكن احد قبل يعرفه ، يمسك بالامل من شعره او من قدميه ولا يسمح له أن يفلت من بين يديه بل يجلسه في مائدة او دارة شعوب امريكا .

منذ ذلك الحين الى الآن تقدمنا كثيرا في طريق الامل هذا الـذي غدا واقعا حيا . لكنا نحيا والروح في خيط (١٢٦) . بلد مجاور ، جد قدير وجد امبريالي ، يريد سحق كوبا مع الامل ومع كل شيء . تفـ... جماهير امريكا الصحف كل يوم ، تنصت الى الاذاعات كل ليلة . تتنفس هذه الجماهير الصعداء . كوبا توجد ، يوما آخر ، سنة اخرى . نصف عقد آخر (١٢٧) . لم يقطع راس أملنا ، لن يقطع .

رسالة الكوبيين

منذ زمن والكتاب البيرويون ، الذين لي بينهم اصدقاء كثر أعتمد عليهم دوما ، كانوا يضغطون كي يمنحني بلدهم وساما رسميا . أعترف ان الاوسمة بدت لي دائما الى حد ما مضحكة . ان الاوسمة القليلة التي أملكها هي أوسمة علقت على صدري بدون اية محبة ، على مهام أديتها ، بسبب اعمال قنصلية قمت بها اي بسبب لياقة او عادة مألوفة . مررت ذات يوم بـ «ليما» فأصر (ثيرو اليغريا) (١٢٨) الروائي الكبير صاحب رواية « الكلاب الجياع » الـذي كان اذ"اك رئيس الكتاب البرويين ، على أن يمنحني بلده وساما آنذاك . كانت قصيدتي « مرتفعات «ماكتشو بيكتشو» » قد صارت جزءا من الحياة البيروية ، ربما انـي

---

١٢٦ ــ الروح في خيط : تعبير اسباني بمعنى الجزع والهلع .

١٢٧ ــ في الاصل كلمة واحدة وهي lustro تعني مدة خمس سنين ، نقترح ان تترجم الى العربية بكلمة خاموس .

١٢٨ ــ ثيرو اليغريا : روائي وشاعر من البيرو ١٩٠٩ ــ ١٩٦٧ .

استطعت ان أعبر في أبياتها عن بعض المشاعر التي كانت ترقد نائمة مثل حجارة لبناء عظيم . اضف الى هذا ان الرئيس البيروي لذات الوقت وهو المهندس المعماري (بيلاونده) (١٢٩) كان صديقي وقارئي . مع ان الثورة التي طردته من بلده فيما بعد ، وهبت البيرو حكومة ، بشكل غير متوقع منفتحة في طرق التاريخ الجديدة ، فانني ما زلت أعتقد ان المهندس المعماري (بيلاونده) كان رجلا ذا عفة نفس ليس تمحى ، انهمك في اعمال باطلة نوعا ما قادت في النهاية به الى ان يصبح معزولا عن الواقع الرهيب وان يغدو مفصولا عن شعبه الذي كان هو يحبه بشكل عميق .

قبلت أن أمنح وساما ، هذه المرة ليس بسبب خدماتي القنصلية بل بسبب قصيدة واحدة من قصائدي . بالاضافة الى هذا وليس هو بالامر الاقل شأنا ، كانت لما تزل بين شعب «تشيلي» وشعب «بيرو» جراح لم ترقأ . ليس الرياضيون والديبلوماسيون والسياسيون هم وحدهم من يجب عليهم ان يعملوا على ايقاف نزيف دماء الماضي بل كذلك ، وفي حق اكثر ، الشعراء الذين حدود أرواحهم اقل من حدود أرواح الآخرين .

في تلك الفترة نفسها قمت بسفر الى الولايات المتحدة . كان الامر يتعلق بمؤتمر عالمي « نادي القلم » (١٣٠) . من بين المدعوين اليه كان اصدقائي : (آرثر ميلر) (١٣١) الارجنتينيان (ايرنستو ساباتو) و (فيكتوريا اوكامبو) ، الناقد الاورغوايي (امير رودريغيث مونيغال) ، الروائي المكسيكي (كارلوس فوينتيس) . كذلك شارك كتاب من بلدان اوروبا الاشتراكية كلها تقريبا .

بلغت كذلك حين وصولي ان الكتاب الكوبيين كانوا مدعوين ايضا .

---

١٢٩ ـ بيلاونده : سياسي من البيرو . كان رئيسا للامم المتحدة ، الجمعية العامة (١٨٨٣ ـ ١٩٦٦) .

١٣٠ ـ نادي القلم : كنا قد اشرنا الى انه ناد يجمع الادباء الامبرياليين والصهيونيين.

١٣١ ـ آرثر ميلر : كاتب مسرحي امريكي شمالي ولد عام ١٩١٥ .

كـــان اعضاء « نادي القلـم » مندهشين لان (كاربينتيير (١٣٢) لـــم يكن قد وصل ، فطلبوا مني ان أستعلم عن الامر ، فتوجهت الى ممثل وكالة «الصحافة اللاتينية» في نيويورك الذي تفضل فسمح لي ان ارسل برقية من وكالته الى (كاربينتيير) .

كان الجواب الذي جاء عن طريق وكالة «الصحافة اللاتينية» هو أن (كاربينتيير) لم يستطع المجيء لان الدعوة وصلته متاخرة جدا وان تأشيرة الدخول الامريكية لم تكن جاهزة . احد ما كان يكذب في هذه المناسبة : كانت التأشيرات قد منحت منذ ثلاثة اشهر ومنذ ثلاثة اشهر كذلك كانوا يعرفون بالدعوة وقد قبلوها . يفهم من هذا ان امرا بالتغيب صدر من جهة عليا في آخر ساعة .

انا اديت اشغالي الدائمة . القيت قراءتي الشعرية الاولى في نيويورك بمكان فسيح جدا امتلأ الى درجة انهم اضطروا الى وضع شاشات تلفزة خارج المسرح كي يرى ويسمع آلاف الناس الذين ما استطاعوا الدخول . لقد اثر بي الوقع الذي أحدثته قصائدي ، المعادية للامبريالية في عنف ، في هذا الحشد من الامريكيين الشماليين . لقد ادركت أشياء كثيرة هناك في «واشنطون» وفي «كاليفورنيا» حين اخذ الطلبة والعوام يعبرون عـــن استحسانهم لكلماتي التي تدين الامبريالية . تأكدت عن كثب ان الاعـــداء الامريكيين الشماليين لشعوبنا هم كذلك على حد سواء اعـــداء الشعب الامريكي الشمالي .

اجروا معي بعض المقابلات الصحفية . ان مجلة **Life** التي تصدر بالقشتالية (١٣٣) والتي يشرف عليها امريكيون لاتينيون دخلاء قد تعسفت في آرائي وبترتها . لم يستدركوا حين طلبت منهم ذلك . لكن الامر لم يكن شيئا خطيرا . ان ما حذفوه كان فقرة أدين بها الحرب في الفيتنام

---

١٣٢ ـ كاربينتير : روائي كوبي ولد عام ١٩٠٤ .

١٣٣ ـ القشتالية: تسمى اللغة الاسبانية كذلكبالقشتالية Castellano ، وهـي تسمية اكثر دقة نظرا لوجود عدة لغات اخرى في اسبانيا .

وفقرة أخرى حول زعيم أسود اغتيل في تلك الايام . فقط بعد سنوات شهدت الصحفية التي اجرت المقابلة ان المقابلة قد خضعت للمراقبة .

عرفت خلال زيارتي ــ وهذا يشرف زملائــــي الكتاب الامريكيين الشماليين ــ انهم مارسوا ضغطا قويا كي امنح تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة . يبدو لي انهم وصلوا الى حد انهم هددوا «مكتب الدولة» باصدار استنكار علني يتخذه اعضاء «نادي القلم» ان استمروا على رفضهم باعطائي تأشيرة الدخول . في اجتماع عام كانت فيه تستلم وساما الشخصية الاكثر احتراما واعتبارا في الشعر الامريكي الشمالي الا وهي الشاعرة العجوز (ماريانه مور) التي ماتت بعد شهور من ذلك التاريخ ، تناولت هي الكلمة لتعلن عن بهجتها بأن دخولي الشرعي الى البلد قد تحقق بفضل وحــــدة الشعراء . لقد حكوا لي بان كلماتها المرتجة المؤثرة قد قوبلت بتصفيق حاد وهتاف عال .

ما هو اكيد وما لم يسبق اليه هو اني ، بعد هذه الجولـــــة المتميزة بفعاليتي السياسية ونشاطي الشعري المكافح ، وبعد ان قمت في الدفاع عن الثورة الكوبية ودعمها اثناء القسم الاكبر من جولتي هذه ومن نشاطي هذا ، تلقيت ما ان عدت الى تشيلي رسالة الكتاب الكوبيين الشهــــيرة الوبيلة التي تهدف الى اتهامي بالانصياع بله بالخيانة . لم أعد أذكر العبارات التي استعملها المدّعون العامون في شأني . لكنني استطيع القول بأنهم كانوا ينصبون انفسهم معلمين للثورات ، مؤدبين في السنن التي يجب ان تطبق على كتّاب اليسار . بغطرسة وبسلاطة لسان وبمداهنة كانوا يحاولون ان يقوّموا من فعالياتي الشعرية والاجتماعية والثورية . ان منحي الوسام على قصيدة «ماكتشو بيكتشو» وحضوري مؤتمر «نادي القلم» وتصريحاتــــي وقراءاتي الشعرية ، كلماتي وأعمالي المعادية للنظام الامريكي الشمالي التي عبرت عنها في فم الذئب (١٣٤) ، كل هذا كان يوضع موضع الشك ، مزيفا او مفتري من لدن الكتّاب السابق ذكرهم ، ان كثيرا منهم حديثو الوصول

١٣٤ ــ في فم الذئب : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي بين شدقي الاسد او في عرينه او في جفن الردى .

الى الميدان الثوري ، وكثيرا منهم يتقاضون مكافآت عن حق واستحقاق او عن ظلم واجحاف من الدولة الكوبية الجدبدة .

ان هذا العدل من الشتائم قد تضخم بتواقيع اكثر فأكثر طولب بها في عفوية مشكوك بها من منابر جمعيات كتاب وفنانين . وكلاء مفوضون كانوا يتراكضون من هنا الى هناك في «لا هافانا» بحثا عن تواقيع نقابات مهنية بكامل اعضائها ، لموسيقيين وراقصين وفنانين تشكيليين . كـــان ينادي للتوقيع على الفنانين والكتاب العديدين العابرين الذين دُعُوا الـــى كوبا في سخاء عظيم فلبوا الدعوةوامتلأت بهم الفنادق الفخمة ذات الفخفخة والأبهة . بعض الكتاب الذين ظهرت اسماؤهم مختومة (١٣٥) على هامش الوثيقة المجحفة أوصل اليّ أخبارا ملفقة : «لم أوقع تلك الرسالة قط ، علمت بمضمونها بعد ان رأيت عليها توقيعي الذي ابدا ما وضعته» . صديق لـ (خوان مارينيو) قد زعم لي بأن هذا هو ما جرى له كذلك ، مع اني لم استطع التأكد من ذلك كله . لكني تأكدت من ذلك بالنسبة لآخرين .

لقد كان الموضوع كبة خيوط ، خذروف ثلج او تلفيقات عقائدية كان من الضروري جعل الآخرين يعتقدون بها مهما كلف الامر . تمركزت وكالات مختصة في مدريد وباريس وعواصم أخرى ، عكفت على ارسال أعداد من الرسالة الكذوب او طبعها من جديد فخرجت الآلاف من هذه الرسالة ، وبخاصة من مدريد ، في ارساليات بعشرين أو ثلاثين نسخة الى كل عنوان وكل شخص . لقد كان مسليا بشكل نحس (١٣٦) استلام هـــذه الظروف المزخرفة بصور (فرانكو) على الطوابع البريدية وفي ضمنها كان يتهم (بابلو نيرودا) بأنه ضد ـ ثوري .

---

١٣٥ ـ نحب ان نلفت أنظار القارىء العربي الى ان (نيرودا) يستعمل هنا كلمات لها معان كثيرة بعضها لطيف والآخر عنيف ، فهنا كلمة مختومة قد تعني كذلك ، مداسة ، او مركولـة .

١٣٦ ـ بشكل نحس : هذه الكلمة بالنص الاسباني قد تعني كذلك : يساري ، كما في العربية ، أيسر = أعسر .

لا يخصني التحري عن اسباب تلك النوبة (١٢٧) : الزيف السياسي ، الخور العقائدي ، الاحقاد والاحساد الادبية ، ماذا أدري انا كم من اشياء دفعت بهؤلاء الكثر لتسن معركة ضد رجل واحد . لقد رووا لي من بعد ان المحررين المتحمسين ، المحرضين والمتصيدين لتواقيع تلك الرسالة التسهيرة كانوا هم الكتّاب (روبيرتو فيرنانديت ريتامار) و(ادمونـــــدو ديسنويس و(ليسباندرو اوتيرو) . بالسبة ل (ديسنويس) ول (اوتيرو) لا اذكر اني قد قرأت لهما شيئا ابدا ولا عرفتهما شخصيا . اما بالنسبة ل (ريتامار) فبلى. في «لا هافانا» وفي «باريس» كان يلاحقني بإطرائه وتملقه بشكل مثابـــر مواظب . كان يقول لي بأنه كان قد نشر مقدمات متوالية ومقالات تقريظية حول مؤلفاتي . الحقيقة هي انني ما اعتبرته ابدا بدي قيمة بل اعتبرتــه واحدا من هؤلاء الذين يطفون فجاة من السياسيين والادباء في عصرنا .

ربما انهم تصوروا انهم بهذا يسنطيعون ان يؤذوني او يدمروني كحزبي ثوري . لكن حين وصلت الى شارع تياتينوس في «سانتياغو» بتشيلي لمعالجة الموضوع لاول مرة مع اللجنة المركزية للحزب ، وجدت ان لهـــم رأيهم ، على الاقل من الناحية السياسية .

يتعلق الامر بأول هجوم ضد حزبنا التشيلي . قالوا لي .

كانت تعاش في تلك الاوقات نزعات جدية . كان الشيوعيــــون الفنزويليون والمكسيكيون يتنازعون عقائديا مع الكوبيين . من بعد ، في ظروف مأساوية لكن بشكل ساكن اختلف كذلك البوليفيون .

الحزب الشيوعي التشيلي قرر منحي في احتفـــال عام مدالبــــة (ريكابرّين) التي احدثت حينذاك وخصصت لتمنح الى احسن اعضائه . لقد كان ذلك جوابا مقنعا . لقد تحمل الحزب الشيوعي التشيلي في ذكاء تلك الفترة من الاختلافات واصر على عزمه بتحليل اختلافاتنا داخليا . مع

---

١٢٧ ــ النوبة : في الاصل Arrebato ، وهي الكلمة العربية الرباط ، ومن معانيها بالاندلس العربية ، الهجوم المفاجيء ، ومن معانيها بالاسبانية اليوم ، ما قيدناه.

الزمن امحى كل ظل لهذا النزاع ويوجد الآن بين الحزبين الشيوعيين ، وهما اكثر الاحزاب الشيوعية اهمية في امريكا اللاتينية ، تفاهم واضح وعلاقة اخوية .

اما بالنسبة لي فما زلت انا من كتب كتاب «اغنية مفخرة» . انه لكتاب ما يزال يعجبني . ولا أستطيع ان انسى اني كنت اول شاعر خصص كتابا بكامله لتمجيد الثورة الكوبية .

اني لادرك ، طبعا ، ان الثورات وبخاصة رجالها ، تقع من حين الى حين في الخطأ وفي الظلم . ان القوانين التي ما كتبت ابدا في الانسانية تلف على حد سواء الثوريين وغير الثوريين . لا احد يستطيع ان ينجو من الاخطاء ، نقطة صغيرة عمياء داخل مسيرة كبرى ليس لها من أهمية في سياق قضية كبيرة . لقد ظللت اغني ، احب ، احترم الثورة الكوبية ، شعبها ، أبطالها النبلاء .

لكن كل واحد وله نقطة ضعفه . انا لدي نقاط ضعف كثيرة . مثلا، لا يعجبني ان اتخلى عن الافتخار الذي اشعر به بسبب سلوكي الصلب ، سلوك مناضل ثوري . ربما انه لهذا او لثلمة أخرى في ترهاتي رفضت حتى الآن وسأظل أرفض ان أصافح اي واحد من الذين وقعوا بوعي او بغير وعي تلك الرسالة التي ستظل تبدو لي وصمة عار .

الفصل الثاني عشر

وطن عذب وقاس

تطرف وجواسيس

ان الفوضويين القدماء ـ والشيء نفسه ينطبق على فوضويي اليوم هذا ـ يميلون الى موقف مريح جدا ، بشكل اليف جدا ، وهو موقف الفوضراسمالية (١) ، وهو وكر ينحشر فيه كذلك السياسيون الهدافون(٢) ومدّعو اليسارية والمستقلون المزيفون . ان العدو الرئيسي للرأسمالية القامعة ، هم الشيوعيون ، وهي لا تخطيء في تصويب سلاحها نحوهم . ان

١ ـ الفوضراسماليه : الفوضوية ـ الراسمالية .

٢ ـ الهدافون : رجال المطاوعة ، وهم رجال من المقاومة غير منظمين ، يحسنون اصابة الهدف .

هؤلاء الفرديين المتمردين جميعهم يمكن تطويعهم بشكل او بآخر بواسطة الحكمه او الدهاء الرجعي الذي يعتبرهم مدافعين بطوليين عن مبادىء مقدسة . ان الرجعيين يعرفون ان خطر التغييرات في مجتمع ما لا يكمن في التمردات الفردية بل في تنظيم الجماهير وفي وعي طبقي شامل .

لقد شاهدت هذا كله بوضوح في اسبانيا خلال الحرب . كانت بعض المجموعات المعادية للفاشية تلهو في عيد المرافع تجاه قوات (هتلر) و(فرانكو) الزاحفة نحو مدريد . استثني منهم طبعا أولئك الفوضويين الاشاوس الذين لا يقهرون ولا يستسلمون من أمثال (دوربوتي Durputi ورفاقه الكتلان (٣) الذين قاتلوا في «برشلونة» قتال الاسود .

ان الجواسيس لهم اسوأ من المتطرفين بألف مرة . يتسلل الى صفوف مناضلي الاحزاب الثورية من حين لآخر العملاء المعادون، المخبرون، المندسون الذين يعملون لصالح الشرطة او الاحزاب الرجعية او الحكومات الاجنبية . يؤدي بعض منهم مهمات خاصة من تحريض وزج وتوريط ، وبعضهم الآخر يكتفي بمراقبة طويلة الاناة . انها لحكاية قديمة قصة (ازيف) . فلقد شارك قبل سقوط القيصرية الروسية بعدة عمليات ارهابية وسجن مرات عديدة . ان مذكرات مدير الامن العام في العهد القيصري التي ظلت سرية الى ان نشرت بعد الثورة تروي في تفصيل كيف ان (ازيف) كان في كل لحظة عميلا لـ «اوتشرانا» . لقد اتسق في رأس هذه الشخصية الغريبة ، الارهابي والمخبر معا ، في احدى العمليات التي قام بها قتل احد «الدوقات» .

تجربة اخرى من هذه التجارب المدهشة وقعت في «لوس انجليس» « سان فرانسيسكو » او بمدينة اخرى من ولاية «كاليفورنيا» . خلال الفترة «المكارثية» الجنونية اعتقل اعضاء الحزب الشيوعي في تلك المحلة كلهم . كانوا خمسة وسبعين شخصا ، معدودين، محصيين ، مؤرخين حتى في أقل جزئيات حياتهم حسنا جدا ، تبين ان هؤلاء جميعا بلا استثناء كانوا عملاء للشرطة . لقد سمحت لنفسها مؤسسة

---

٣ ـ الكتلان : هم سكان المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا .

F.B.T (٤) ان تنشيء حزبها الشيوعي الصغير الخاص بها من عناصر ما كان يعرف بعضهم بعضا ، لكي تلاحقهم من بعد وتنسب لنفسها انتصارات عظيمة على اعداء غير موجودين . لقد توصلت هذه المؤسسة الى اختلاق حوادث مضحكة مثل فصل رأس الكرنب حيث كان يحفظ فيه الاسرار الدولية المنفرفعة رجل يدعى (تشالميرس Chalmers) وهو شيوعي قديم باع نفسه مقابل دولارات الى الشرطة . كذلك نسجت هذه المؤسسة حكايات فظيعة من بينها الحكاية التي نسبت الى الزوجين (روسينبورغ Rosenberg) (٥) اللذين أعدما فأثار هذا سخط الانسانية .

لقد كان تسرب العملاء الى صفوف الحزب التيوعي التشيلي صعبا جدا دوما لان هذا الحزب هو منظمة ذات تاريخ طويل وذات اصل بروليناري بشكل مغلق . ان نظريات حرب العصابات في امريكا اللاتينية، على العكس ، فتحت الابواب لكل صنف من الوشاة والنافخين . ان العفوية والارتجالية و«الشيوعية» الحديثة العهد بالنضال في هذه المنظمات جعلت من الصعب فضح هؤلاء الجواسيس المندسين واعتقالهم. لهذا فان الشكوك رافقت دوما قادة رجال العصابات المقاتلة اذ كان عليهم ان يحتاطوا حتى من ظلهم . لقد غذى روح المغامرة بشكل ما الحماس الرومانطيكي والتنظير الخاص بحرب العصابات الجامحة التي غمرت امريكا اللاتينية كلها . ربما ان هذا العهد قد انتهى باغتيال (ارنيستو غيفارا) وموته البطولي . لكن خلال زمن طويل اتخم داعمو هذا التكتيك النظريون القارة كلها بنظريات وفرضيات التي تعهد الحكومة الثورية الشعبية في المستقبل ، ضمنيا ، الى المجموعات المسلحة في «الفلاّقة» (٦) وليس الى الطبقات التي تستغلها

---

٤ ـ F.B.T : هي مؤسسه الشرطة السريه في الولايات المتحدة الامريكية .

٥ ـ روسينبيرغ Alfred : سياسي الماني (١٨٩٣ ـ ١٩٤٦) .

٦ ـ الفلاّقة : كلمة كان يطلقها المستعمرون الفرنسيون على الثوار في المغرب العربي، وجدناها صالحة لترجمة كلمة «la montonera» اي مجموعة من الثوار يمتطون الخيل ويحاربون قوات الحكومة. وواضح اننا لا نتبنى مفهوم «الفلاقة» الذي يعني عند المستعمرين الفرنسيين ، قطاع الطرق بل مفهوم الاغنية الجزائرية : «قالوا . فلاقة ، يا فرنسا ، ما احناش ، فلاقة . لكن رفاقة ، خيوه (اخوة) في جيش التحرير ، الله ينصر» .

الراسمالية . ان عيب هذا التعليل والتبرير يكمن في ضعفه السياسي قد يحدث في بعض الظروف ان قائد حرب العصابات يكون مزودا بعقلية سياسية قديرة كما في حالة (تشي غيفارا) ، لكن هذا قليل الحديث ويخضع للصدفة . ان من يبقى سالما بعد انتصار حرب العصابات ليس في مكنته توجيه دولة بروليتارية لكونه فقط كان اكثر شجاعة من غيره ولكونه حظي بحظ اكبر تجاه الموت او لانه احسن التصويب تجاهالاعداء او انه اقدر على اطلاق النار من غيره من الاحياء .

الآن سأروي تجربة شخصية . انا كنت اذ آك في تشيلي حديث الوصول من المكسيك . في احدى الاجتماعات السياسية التي كنت انا اتردد عليها اقترب مني رجل ليحييني . كان سيدا ذا عمر متوسط ، مثالا للنبيل العصري ، يرتدي هنداما لائقا جدا ويضع نظارة من هذه النظارات التي تمنح المرء وقارا امام أعين الناس وهي عبارة عن عدستين بلا اطر او حامل ، من هذ التي تعلق فوق الانف . واذ به شخصية لطيفة مهذبة جدا:

ـ يا سيد (بابلو) ، لم اتجرأ ابدا على الاقتراب من حضرتك مع اني ادين لك بحياتي . اني واحد من اللاجئين الذين انقذتهم حضرتك من معسكرات الاعتقال ومن أفران الغاز ، حين شحنتنا في باخرة «وينيبينغ» باتجاه تشيلي . انا كتلاني وماسوني . وضعي هنا جيد اذ انني اعمل خبيرا في بيع الادوات الصحية بشركة كذا وهي احسن شركة في تشيلي الخ .

حكى لي انه يسكن في شقة محترمة بمركز «سانتياغو» وان جاره هو بطل في «التنس» مشهور يدعى (اغليسياس) كان زميلي في المدرسة . كانا يتكلمان عني دائما واخيرا ، قررا ان يدعواني لكي يكرماني . لهذا جاء ليراني ويبلغني الدعوة .

ان شقة هذا الكتلاني كانت تدل على الرفاهية التي كانت تتمتع بها بورجوازيتنا الصغيرة . أثاث كامل ، «بهية» (٧) Paella مذهبة ووافرة.

---

٧ ـ بهية : هي صنف من الطعام يصنع من الرز والخضروات واللحوم والاسماك تشتهر به مدينة «بلنسية» باسبانيا .

كان (ايفليسيساس) معنا خلال فترة الغداء كلها . كنا نضحك متذكرين المدرسة القديمة في «تيموكو» التي في سراديبها كانت اجنحة الخفاقيش تلامس وجوهنا . في نهاية الغداء قال المضيف الكريم الكتلاني بضع كلمات قليلة واهداني تكريما لي نسختين تصويريتين رائعتين : واحدة لـ (بودلير) والثانية لـ (ادغار بو Edgar Poe) (٨) . وهما عبارة عن راسي شاعرين رائعين ما زلت احتفظ بهما في مكتبتي .

ذات يوم من الايام سقط هذا الكتلاني صاحبنا صريع الشلل ، هامدا في سريره دون أن يستطيع التكلم او الحراك او التعبير بالاشارات والحركات . لا يتحرك فيه غير عينيه اللتين كانتا تريدان في الم أن تبوحا بشيء الى زوجته وهي اسبانية جمهورية ممتازة ذات تاريخ مجيد لا تشوبه شائبة او الى صديقه وجاره (ايفليسياس) بطل «التنس» صديق طفولتي . لكن الرجل مات بدون كلام او حراك او بوح .

حين امتلأت الدار بالدموع وبالاصدقاء وبالاكاليل تلقى الجار لاعب «التنس» مكالمة غريبة غامضة «نحن نعرف مدى الصداقة المتينة التي كانت بين حضرتك وبين المرحوم الكتلاني . هو لم يتعب من اطراء حضرتك والثناء على فضائلك ومزاياك . ان اردت حضرتك أن تقوم بمعروف كبير وخدمة جليلة لذكرى صديقك فافتح الصندوق الكبير واستخرج منه عليبة حديدية مستودعة هناك . سأعود للاتصال بحضرتك بعد ثلاثة ايام» .

لم تشأ الارملة ان تسمع شيئا من هذا القبيل لقد كان حزنها محتدا محتدما فلم ترد أن تعرف شيئا حول هذا الموضوع ، تركت الدار وانتقلت لتسكن في غرفة بـ «بنسيون» يقع في شارع «سانتو دومينغو» . صاحب «البنسيون» كان يوغوسلافيا من رجال المقاومة في يوغوسلافيا ابّان الاحتلال النازي ، رجلا متمرسا في السياسة . عثر هذا اليوغوسلافي على العليبة الحديدية ففتحها في صعوبة ومشقة . اذ ذاك قفز اكثر الارانب البرية مفاجأة (٩) . كشفت الوثائق المحفوظة عن ان المرحوم كان دوما

---

٨ ـ ادغار الن بو Allan : كاتب من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٩-١٨٤٩).

٩ ـ تصمير للمثل الاسباني : «من حيث لا يتوقع المرء ، يقفز الارنب البري» .

عميلا فاشيا . كانت نسخ رسائله تبين اسماء العشرات من المهاجرين الذين حين عادوا الى اسبانيا بشكل سري وغير شرعي سجنوا او أعدموا . ومن بين هذه الرسائل كان ثمة رسالة يشكره النازيون فيهـــا على خدماته . توجيهات اخرى ارسلها الكتلاني هذا افادت البحرية النازية لكي تغــرق بواخر حمولة كانت تخرج من الساحل التشيلي محملــة بأعتدة حربية . احدى هذه الضحايا كانت بارجتنا الجميلة ، فخر البحرية التشيليـــة ، «لاوتارو» Lautaro المحنكة المجربة . فاغرقت خلال الحرب بحمولتها من ملح البارود حين خرجت من مينائنا : ميناء «توكوبيا» . فقد الحياة في غرق هذه البارجة سبعة عشر تلميذا من المدرسة البحرية العسكرية ماتوا جميعا غرقى او متفحمين .

هذه هي مآثر الكتلاني الاجرامية الذي ابتسم لي ذات يوم ودعانـــي الى الفداء .

الشيوعيــون

.... لقد انقضت بضع سنين على انتسابي الى الحزب .... انـــا راض .... الشيوعيون يؤلفون أسرة طيبة ... بشرتهم مدبوغة ولكـــن قلبهم مشدود الاوتار ... من كل جهة يتلقون ضربـــات الهراوات ... هراوات مقتصرة عليهم ... فليحي الروحانيون ، الملكيون ، الشاذون ، المجرمون على اختلاف أصنافهم ... فلتعش الفلسفة ذات الدخان لكن بلا هياكل ... فليحي الكلب الذي ينبح ويعض (١٠) ... فليعش المنجمون اللوطيون ... فلتعش صور الدعارة ... فليحـــي مذهب الاستهتـــار والخلاعة ... فليحي القريدس ... فليحـــي العالم كل العالـــم الا الشيوعيين .... فلتعش أحزمة العفة (١١) ... فليحي المحافظون الذين

---

١٠ ـ تضمين للمثل الاسباني «كلب ينبح لا يعض ابدا» ، وقد جعله هنا ، يعض .

١١ ـ أحزمة العفة : كانت الراهبات في العصور الوسطى يضعن احزمة لا يخلعنها ابدا ، حول فروجهن ....

لم يغسلوا أقدامهم العقائدية منذ خمسمائة سنة ... فليحي القمل في الاحياء البائسة ... فليعش الرمس الجماعي المجاني ... فلتحي الفوضراسمالية ... فليحي (ريلكه Rilke) (١٢) ... فليحي (اندريه جيد) (١٣) مع غلامه ... فليعش التصوف والاتصالات الروحية على جميع انواعها ... فكل شيء جيد حسن ... وكلهم أبطال ... الصحف جميعها يجب ان تصدر ... كلهم يستطيعون ان ينشروا ما شاؤوا ما عدا الشيوعيين ... السياسيون جميعا يجب ان يدخلوا في «سانتو دومينغو» بلا أصفاد ... يجب عليهم جميعا ان يحتفلوا بموت السفاح ، موت (الـ تروخيو) الا الذين قاتلوه بصلابة اكثر .... فليحي «الكرنفال» (١٤) ، آخر ايام «الكرنفال» ... ثمة أقنعة للجميع ... أقنعة مسيحي مثالي ، أقنعة يساري منطرف ، أقنعة سيدات محسنات وفاضلات مشفقات ... لكن ، حذار، امنعوا الشيوعيين من الدخول... اوصدوا الباب جيدا... لا تخطئوا ... فليس للشيوعيين الحق في شيء... فلنهتم بما هو ذاتي، بماهية الانسان ، بماهية الماهية .... هكذا سنصبح جميعا قانعين راضين ... لدينا حرية ... ما اعظم الحرية !... هم لا يحترمونها ، لا يعرفونها ... الحرية للاهتمام بالماهية ... بما هو جوهري في الماهية...

... هكذا انقضت السنوات الاخيرة ... انقضى «الجاز» ، اتى «الـ سوول» el Soul ، غرقنا في بديهيات الرسم التجريدي ، زعزعتنا الحرب وقتلتنا ... في هذا الجانب من العالم كل شيء ظل على حاله ... أم لم يبق على حاله ؟... بعد عدة خطب عن الروح وبعد عدة عصي على الراس ، شيء كان يسير على غير ما يرام ... يسير سيئا جدا ... اخطأت التقديرات ... فالشعوب تنظمت ... اخذت تتوالى حروب العصابات والاضرابات ... كوبا وتشيلي استقلتا ... شرع رجال كثيرون ونساء كثيرات بترديد **النشيد الاممي** (الانترناشيونال) ... يا للغرابة ... يا للاحباط ... ها هم يغنون هذا النشيد باللغة الصينية ، باللغة البلغارية ، باللغة الاسبانية في امريكا .... يجب اتخاذ اجراءات

---

١٢ ـ ريلكه (**Rainer** Maria) : شاعر الماني مشهور (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) .

١٣ ـ اندريه جيد : كاتب فرنسي معروف ١٨٦٩١ ـ ١٩٥١) .

١٤ ـ الكرنفال : هو عيد المراقع .

عاجلة ... يجب منع هذا النشيد ... يجب ان نزيد في الكلام عن الروح ... يجب ان نزيد في اطراء العالم الحر .... يجب ان نزيد في ضربات الهراوات ... يجب ان نزيد في دفعات الدولارات ... هذا يجب الا يستمر ... بين حرية العصي والخوف من (خيرمان ارثينييفاس) (١٥) ... والآن كوبا ... في نصف كرتنا الخاصة بنا ، في منتصف تفاحتنا ، هؤلاء الملتحون يغنون النشيد نفسه ... فبماذا ينفعنا المسيح ؟... وبأي شكل قد خدمنا القساوسة ؟... لم نعد نثق بأحد ... ولا حتى بالقساوسة انفسهم... فهم لا يرون وجهات نظرنا ... لا يرون كيف هبطت أسهمنا في السوق المالية (البورصة) ....

... اثناء ذلك يتسلق البشر عبر النظام الشمسي ... تبقى آثار احذية في القمر ... كل شيء يصارع من اجل التغيير ، الا الانظمة القديمة .... ان حياة الانظمة العتيقة ولدت من انسجة العناكب في العصر الوسيط ... انسجة اكثر قساوة من حدائد المعدات الآلية ... بيد انه ، ثمة أناس يؤمنون بالتغيير وقد مارسوا التغيير ، وقد جعلوا التغيير ينتصر وجعلوه يزدهر .... عجبا .... ان الربيع حتمي ....

شاعرية وسياسية Poética Politica (١٦)

لقد قضيت عام ١٩٦٩ كله تقريبا في «ايسلا نيغرا» . يقتني البحر في الصباغ شكلا خياليا من النمو يبدو وكأنه يعجن رغيف خبز هائلا . انه لأبيض مثل الطحين الزبد المسفوح الذي تدفعه خميرة العمل الباردة .

ان فصل الشتاء لساكن وذو ضباب . نضيف كل يوم على روعته الارضية حطب الدفء في المدفأة . يهبنا بياض الرمال في الشاطىء عالما خاليا وحيدا كما كان قبل ان يوجد السكان او المصطافون على سطح هذه

---

١٥ ـ خيرمان ارثينييفاس : مؤرخ وعالم اجتماعي معاصر ، من كولومبيا .

١٦ ـ لاحظ التشابه الصوتي بين الكلمتين .

الارض . لكن ارجو الا يظن اني امقت الحشود الصيفية من الناس . ما ان يقترب الصيف حتى تقترب الصبايا من البحر . رجال ونساء يلجون في الامواج على حذر ثم يخرجون قافزين من خطر . هكذا يؤدون رقصة الانسان الالفية تجاه البحر ، ولربما ان هذه الرقصة هي اول رقصات البشر .

في فصل الشتاء تحيا منازل «ايسلا نيغرا» ملتحفة ظلام الليل . ما من دار تشتعل غير داري . أحيانا اظن ان ثمة احدا في الدار المواجهة . ارى نافذة مضاءة . وما هو الا سراب . ما من احد في دار القبطان . انه نور داري ينعكس على نافذته .

خلال ايام هذه السنة كلها كنت امضي لأكتب في ركن مكتبي . ليس الوصول اليه بالامر السهل ولا المكوث فيه . ثمة شيء يجذب كلبيّ (باندا Panda) و(تشو تو Chou tu) وهو جلد نمر من «بنغالا» Bengala فرشناه في الحجرة الصغيرة ، كنت قد احضرته معي من الصين منذ سنوات كثيرة ، فتساقطت منه مع مضي السنين مخالب وشعر بالاضافة الى العثّ الذي انتشر فيه وكنا أنا و(ماتيلده) نحذر منه .

كان يروق لكلبيّ التمدد فوق جلد عدوّهما القديم . كما لو كانا قد خرجا منتصرين من عراك معه ، كانا يرقدان وتأخذهما سنة النوم سريعا وقد انهكهما العراك معه . كانا يتمددان متصالبين عند باب الحجرة كأنهما يريدان اجباري على عدم الخروج ، على البقاء لأواصل عملي .

في كل لحظة كان يقع شيء في البيت . كان يرن جرس الهاتف البعيد عني فماذا يقولون للهاتف الداعي ؟ لست هنا . ثم يعود فيرن مرة أخرى ، فبماذا يجيبون ؟ انا هنا .

لست هنا . انا هنا . انا هنا . لست هنا . هذه هي حياة شاعر لم يعد ركنه النائي في «ايسلا نيغرا» بناء .

دوما يسألوني وبخاصة ، يسألني الصحفيون . في اي كتاب اشتغل، ما هو الشيء الذي أكتبه . دائما اندهش من مثل هذا السؤال بسبب

سطحيته . لان الحقيقة هي انني دائما أشتغل بالشيء نفسه . ابدا لم أدع أن أعمل الشيء ذاته . أهو شعر ؟

لقد علمت بعد مدة طويلة بأن ما كنت افعله واكتبه يسمى شعرا . ما اهتممت قط بالتحديدات والعناوين . تبعث في نفسي السأم حتى درجة الموت النقاشات الادبية الجمالية . لا أستصغر من يجرون هذه المناقشات بل اني بقدر ما اشعر اني لا امت بصلة الى شهادة الميلاد أشعر كذلك اني غريب el Post Mortem في الخلق الادبي . «أن لا يتوصل اي شيء خارجي الى أن يسيطر عليّ» قال (والت وايتمان) . ويجب الا تحل الزينة مهما كانت قيمتها محل الخلق العاري .

لقد بدلت الكثير من الدفاتر خلال السنة كلها . ها هي هناك هذه الدفاتر المربوطة بخيط خطي الاخضر . لقد حبرت الكثير من هذه الدفاتر التي راحت تصير كتبا كما لو انها كانت تمر من حالة تحوّل الى اخرى ، من الجمود الى الحركة ، من اليرقانات الى الحباحب .

لقد اتت الحياة السياسية كما يجيء الرعد لتخرجني من أعمالي فعدت مرة أخرى الى جمهرة الناس .

ان الجمهرة الانسانية كانت بالنسبة اليّ درس حياتي . أستطيع ان اصل الى هذه الجمهرة بخجل الشاعر المتأصل فيه ، بفزع الخائف ، لكن، ما ان اصبح في حضن هذه الجمهرة ، حتى أحس بالتقمص واذ بي جزء من الاغلبية الجوهرية واذ بي ورقة من أوراق شجرة الانسانية الكبيرة العظيمة .

وحدة وجمهرة ستظلان واجبات الشاعر الاساسية في زمننا هذا . لقد اغتنت حياتي بمعركة تلاطم الامواج في الساحل التشيلي . غمرتني واستهوتني المياه القاتلة والصخور القاتلة والتكاثر في الحياة المحيطية ، والتشكيلة المتقنة من «العصافير التائهة» ورونق الزبد البحري .

لكني تعلمت اكثر من تموج الحيوات العظيم ، من نظرة الحنان في

آلاف العيون التي نظرت اليّ معا . قد لا يلتقط الشعراء جميعهم رسالة العيون هذه ، لكن من أحس بها مرة سيحفظها في قلبه ، سيجريها في اعماله الادبية .

انه لجدير بالذكرى وممزق للقلب بالنسبة للشاعر ان يجسد لأناس كثيرين ، خلال دقيقة ، الامل .

مرشح لرئاسة الجمهورية

صباح ذات يوم من عام ١٩٧٠ وصل الى مخبأي البحري ، الى داري في «ايسلا نيغرا» الامين العام لحزبي ورفاق آخرون . جاؤوا ليعرضوا عليّ الترشيح المبدئي لرئاسة الجمهورية وهو ترشيح سيقترحونه فيما بعد على ستة او سبعة احـــزاب في **الوحدة الشعبية** la unidad Popular كانوا قد هيأوا كل شيء : برنامج ، طبيعة الحكومة ، اجراءات عاجلة في المستقبل القريب الخ . حتى تلك اللحظة كانت تلك الاحزاب قد تقدمت بمرشحيها وكل حزب كان يريد ابقاء مرشحه باستثناء الشيوعيين فلم نكن قد تقدمنا بمرشحنا بعد . كان موقفنا هو دعم المرشح الوحيد الذي تختاره احزاب اليسار وسيكون هو مرشح **الوحدة الشعبية** . لكن لم يكن هناك حينذاك اجماع وقرار حاسم وما كان من الممكن ان نترك الامور تستمر على هذا النحو . كان مرشحو اليمين قد انطلقوا وبدأوا بحملات الدعاية . ان لم نتحد في مرشح عام واحد بهذه الانتخابات فاننا سنصاب بهزيمة نكراء.

كانت الطريقة الوحيدة لاستعجال تحقيق هذه الوحدة هي اننا نحن الشيوعيين نعين مرشحنا الخاص . حين قبلت بالترشيح بناء على رغبة حزبي اصبح الموقف الشيوعي واضحا جليا . سندعم المرشح الذي يضمن موافقة الآخرين على ترشيحه ممثلا وحيدا **للوحدة الشعبية** . ان لم يتوصل الى هذا الاجماع فان ترشيحي سيحافظ عليه حتى النهاية .

كانت وسيلة مشرفة لاجبار الآخرين على الاتفاق . عندما قلت للرفيق (كورفالان) بأني موافق على الترشيح كنت ادرك انهم سيوافقون من بعد على انسحابي في المستقبل لاعتقادي ان تنازلي فيما بعد هو امر لا مناص

منه . فلم يكن ثمة احتمال قوي بأن يتفقوا على ترشيح مرشح شيوعي يلتفون حوله . بتعبير افضل كانوا جميعا يحتاجون الينا كي ندعمهم (بما فيهم بعض مرشحي **الديموقراطية المسيحية**) ولكن ولا واحد منهم كان يحتاجنا كي يدعمنا .

لكن ترشيحي الذي خرج في ذاك الصباح البحري «ايسلا نيغرا» قبض على النار . لم يبق مكان في تشيلي الا وطلب حضوري اليه . لقد تاثرت جدا امام المئات بل الآلاف من الرجال والنساء الذين كانوا يعصرونني، يقبلونني ويبكون . سكان ضواحي «سانتياغو» ، عمال المناجم في «كوكيمبو» رجال النحاس والصحراء ، فلاحون ينتظرونني خلال ساعات وساعات وصغارهم على أكتافهم او بأذرعهم ، اناس تعيش الاهمال وعدم الاعتناء من نهر «بيثو بيو» Bio Bio الى أبعد من مضيق «ماغايانيس»، كنت أحدثهم جميعهم او اقرأ لهم قصائدي في عز المطر ، في وحل الشوارع والطرقات ، تحت الريح الجنوبية التي تجعل الناس يرتعدون بردا .

كنت اتحمس ، ففي كل مرة كان يأتي الى مهرجاناتي أناس اكثر ، كل مرة يجيء نساء اكثر . في افتتان وفزع بدأت أفكر فيما عليّ عمله ان فزت برئاسة جمهورية بلد من اكثر البلدان شراسة بشكل مأساوي تعنتا واكثرها استدانة وقد يكون اكثرها نكرانا للجميل . كان يهتف للرؤساء خلال الشهر الاول فقط ومن بعد خلال الخمس سنوات والاحد عشر شهرا المتبقية كانوا يعذبون بعدل او بدون عدل .

حملة ايينده (Allende

في لحظة مناسبة وصلت البشرى : ظهر (ايندي) على انه المرشح المحتمل **للوحدة الشعبية** بأسرها . بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من الترشيح . امام حشد هائل جذل فرح تكلمت انا لاعلن انسحابي وتكلم (ايندي) ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعة له . لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الاشجار . من غصون الاشجار كانت تبرز سيقان ورؤوس .

ليس من شيء مثل هؤلاء التشيليين المدربين على التسلق .

انا كنت اعرف المرشح . كنت قد رافقته ثلاث مرات سابقة ، وانا اقذف الاشعار والخطب عبر اراضي تشيلي الوعرة اللامنناهية كلها . ثلاث مرات متعاقبة ، كل ست سنوات ، كان صاحبي الملحاح جدا يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . هذه ستكون الرابعة والرابحة (١٧) .

يـــروي (ارنولـــد بينّيت) او (سومرست ماوغهـــام) (١٩) (لا اذكـــر جيدا اي الاثنين) انـــه ذات مرة كان عليـــه ان ينـام (من يروي هذه القصة) في غرفة (وينستون تشرشل) (٢٠) نفسها . اول شيء عمله ذاك السياسي المهيب حين فتح عينيه هو انه مد يده وتناول سيجارا كوبيا كبيرا من على الطاولة الصغيرة التي كانت قرب السرير وبدأ بتدخين هـذا السيجار . هذا لا يستطيع عمله الا رجل المفاوير القـوي الصحيح ذو الصحة المعدنية في العصر الحجري .

ان صمود (ايينده) واحتماله وجلده كانت تدع مرافقيه جميعا وراءه. كان له فن جدير (تشرشل) بأم عينه . كان ينام حين يعنّ له النوم . أحيانا كنا نمضي عبر الاراضي القاحلة اللامنتهيـــة في شمال تشيلي . (اليندي) كان ينام نوما عميقا في ركن من أركان السيارة . على حين غرة تبدو نقطة حمراء صغيرة في الطريق : حين نقترب تستحيل هذه النقطة الى مجموعة مؤلفة من خمسة عشر رجلا أو عشرين مع نسائهم وأطفالهم وراياتهم . تتوقف السيارة ، (ايينده) يفرك جفنيه كـــي يواجه الشمس الشاقولية والمجموعة الصغيرة التي كانت تنشد ، يتحد معهم ينشدون معا

---

١٧ ــ الرابعــة الرابحة : التعبير الاسباني المعروف هو مثل التعبير العربي : الثالثة الثابتــة .

١٨ ــ ارنولد بينيت : كاتب انجليزي (١٨٦٧ ــ ١٩٣١) .

١٩ ــ سومرست ماوغهام : كاتب انجليزي (١٨٧٤ ــ ١٩٦٥) .

٢٠ ــ وينستون تشرشل : هو السياسي الانجليزي المعروف (١٨٧٤ ــ ١٩٦٥) .

النشيد الوطني ، ثم يحدثهم حديث النشيط السريع الفصيح البليغ ثـم يعود الى السيارة فنتابع متجولين عبر طرق تشيلي الطويلة جدا ، يعـود (أليندي) فيغرق في نومه بدون اي جهد . كل خمس وعشرين دقيقة كان المشهد يعاد : مجموعة ، رايات ، نشيد ، خطاب ، عودة الى النوم وهكذا دواليـك .

كان يقابل التظاهرات الهائلة المؤلفة من آلاف وآلاف من التشيليين ، يبدل بالسيارة القطار وبالقطار الطائرة وبالطائـرة الباخرة وبالباخـرة الحصان ، فأتم (أييندة) بلا تردد اشغال تلك الاشهر المضنية المنهكة . ومن خلفه كان اعضاء موكبه منهكين مرهقين . من بعد ، حين اصبح رئيسا فعليا وشرعيا لتشيلي سببت فعاليته غير الرحيمة اربع او خمس سكتات قلبية بين مساعديه ومعاونيه .

سفارة في باريس

حين وصلت لاقوم بأعباء سفارتنا في باريس ادركت ان عليّ ان ادفع ضريبة ثقيلة الى بطلاني . لقد وافقت على هذا المنصب دون ان أفكر في الامر مليا ، تاركا نفسي للدبدبة الحياة . كان يطيب لي ان أمثل حكومة شعبية منتصرة توصلنا اليها بعد سنين طويلة من الصبر على حكومات غبية وكذابة . ربما ان الدافع الاكبر في أعماقي كان هو ان ادخـل الى دار السفارة التشيلية بباريس في كرامة جديدة فلطالما ذّللت فيها حين كنت انظم ترحيل الجمهوريين الاسبان باتجاه بلدي . كان كل واحد مـن السفراء السابقين قد ساهم في اضطهادي وتعذيبي ، كان كل واحد منهم قد شارك في ايذائي وجرح كرامتي . سيجلس المضطهَد على كرسـي المضطهِد ، سيأكل على مائدته ، سينام على سريره ، سيفتح النوافذ كي يدخل الهواء الجديد الى بناء السفارة العتيق .

كان أصعب شيء هو جعل الهواء يدخـل . لقد تسرب الاسلوب الصالوني الخانق الى خياشيمي وعينيّ حين وصلت و(ماتيلده) في تلك الليلة من آذار عام ١٩٧١ الى غرفة النوم واضطجعنا على الفراش الفاخر حيث مات بعض السفراء وبعض السفيرات في هدوء او في فزع .

انها غرفة نوم صالحة لايواء فارس وفرسه ، ثمة سعة كافية لكي يتغذى الفرس وينام الفارس . ان السقف عال جدا ومزين بتشكل ناعم. اما الاثاث فهو عبارة عن اشياء مخملية ذات لون غامق مثل لون ورقة جافة ، مزخرفة بهدابات مرعبة ، ينم هذا الاثاث عن ثروة وانحطاط في الوقت نفسه . ربما ان الزرابي قبل ستين سنة كانت جميلة لكنها الان اتخذت لونا لا بفهر من حف ودعس ، ورائحة عث كرائحة احاديث مجاملة ميتة .

كي يزيد الطين بلة فان موظفي السفارة العصبيين كانوا قد فكروا في كل شيء الا في تدفئة غرفة النوم العملاقة . قضينا ، انا و(ماتيلده) ، اول ليلة ديبلوماسية في باريس ونحن متشنجان متجمدان .

في الليلة التالية سرت التدفئة في الغرفة ، كان لهذه المدفأة المركزية ستون سنة من العمر ، وهي تستعمل وتستخدم فتعطلت فيها المصافي والمسام . لم يكن الهواء الساخن في هذا الجهاز العتيق يترك شيئا يمر الا اللاماني من حامض الكربون . لم يكن عندنا الحق في ان نشكو من البرد كما في الليلة السابقة لكننا كنا نشعر بالاختلاج والغم من جراء التسمم . كان علينا ان نفتح النوافذ كي يدخل البرد الشتائي . ربما ان السفراء القدماء كانوا بهذا ينتقمون من متسلق جاء ليحل محلهم دون ان تكون له مميزات بيروقراطية ولا مآثر سلالية وعائلية .

فكرنا : يجب علينا ان نبحث لنا عن منزل حيث نستطيع التنفس مع الاوراق ، مع الماء ، مع العصافير ، مع الهواء . هذا التفكير كان يتحول مع الزمن الى هوس . مثل سجينين مورقين ينتظران اطلاق حريتهما كنا نبحث ونبحث عن الهواء النقي خارج باريس .

كوني اصبحت سفيرا كان شيئا جديدا وغير مريح بالنسبة لي . لكن هذا المنصب كان يتضمن تحديا . كانت قد نشأت في تشيلي تورة ، ثورة على الطريقة التشيلية ، محللة جدا ومناقش فيها كثيرا . كان اعداء الداخل والخارج يسنون أسنانهم كي يقوضوها . لقد تعاقب خلال مائة وثمانين سنة على حكم بلدي الحكام انفسهم ولو كانوا بعناوين مختلفة . فعل هؤلاء الحكام جميعهم الشيء نفسه . استمرت الاسمال ، المنازل غير

اللائقة بالبشر ، الاطفال بدون مدارس ولا احذية ، السجون وضربات الهراوي على رؤوس شعبي المسكين .

الآن نستطيع ان نتنفس وان نغني . هذا هو ما كان يعجبني في وضعي الجديد .

ان التعيينات الديبلوماسية في تشيلي تتطلب موافقة مجلس الشيوخ . كان اليمين التشيلي قد تملقني بشكل مستمر كوني شاعرا حتى انه القى خطبا على شرفي . انه لواضح انهم كانوا سيلقون هذه الخطب بسرور اكثر على لحدي وفي مأتمي . في تصويت مجلس الشيوخ لابرام تعييني سفيرا انقذت باكثرية ثلاثة اصوات لا غير . صوت شيوخ اليمين وبعض الشيوخ من **المنافقين ــ المسيحيين** (٢١) ضدي تحت سر الكريات البيضاء والسوداء .

كان السفير السابق قد غطى الحيطان بصور أسلافه في المنصب دون تمييز بالاضافة الى صورته الشخصية . كانوا مجموعة هائلة من شخصيات فارغة ما عدا اثنين او ثلاثة منهم من بين هؤلاء الشهير المجيد (بليست غانا) (٢٢) وهو يعتبر « بلزاكنا » التشيلي الصغير . أمرت بانزال الصور الطيفية واستبدلت بها أشكالا اكثر صلابة : خمسة تماثيل منقوشة لأبطال منحوا تشيلي راية ، قومية ، استقلالا ، وثلاث صور معاصرة : صورة (أغيره ثيردا) وكان رئيسا للجمهورية تقدميا ، صورة (لويس ايميليو ريكابيرين) وهو مؤسس الحزب الشيوعي التشيلي ، وصورة (سالفادور اليندي) . اصبحت الحيطان احسن وافضل .

لست أدري ماذا كان يفكر به موظفو السفارة الديبلوماسيون وهم في مجموعهم يمينيون . كانت الاحزاب الرجعية قد طوقت واحتوت ادارة

---

٢١ ــ المنافقون ــ المسيحيون (Hipocrita - Cristiano) : لاحظ التلاعب اللفظي مع (Democrata - Cristianos) اي ، **الديموقراطيون ــ المسيحيون** .

٢٢ ــ بليست غانا Cuillermo : روائي وديبلوماسي تشيلي (١٨٣٠ ــ ١٩٢٢) .

البلاد خلال مائة سنة . لم يكن يعين احد ولا حتى حاجب ان لم يكن محافظا او ملكيا . برهن الديموقراطيون المسيحيون الذين يطلقون على حزبهم اسم «ثورة في حرية» من جهتهم على شره وحب في التسلط مثل الرجعيين العتاق . من بعد ستتحد المتوازيات الى ان تصبح خطا واحدا تقريبا .

البيروقراطية ، ارخبيلات الابنية العامة، كل شيء ظل مليئا بموظفين، بمفتشين ، بمستشارين من اليمين. كما لو انه ما انتصر (اليندي) والوحدة الشعبية ابدا في تشيلي ، كما لو ان وزراء الحكومة الآن ليسوا اشتراكيين وشيوعيين .

في مثل هذه الظروف طلبت ان يملأ منصب المستشار في سفارتنا بباريس بأحد اصدقائي ، وهو ديبلوماسي خريج المدرسة الديبلوماسية وكاتب ذو اهمية كبيرة ، الا وهو (خورخه ادوارس) (٢٣) مع انه ينتمي الى أسرة من اكثر الأسر رجعية في بلدي فقد كان رجلا يساريا دون انتماء حزبي معين . ان ما كنت احتاج اليه هو موظف ذكي يعرف مهنته ويكون اهلا لثقتي . كان (ادواردس) حتى تلك اللحظة القائم بأعمال سفارتنا في «لا هافانا» . كانت قد وصلت اليّ بعض الاخبار الغامضة عن بعض الصعوبات التي كان يلاقيها في كوبا . بما انني كنت اعرفه على انه رجل يساري خلال سنوات عديدة فلم اعط اهمية كبيرة لهذا الموضوع .

وصل مستشاري الفذ من كوبا عصبيا جدا وباح لي بحكايته . تكوّن لديّ الانطباع بأن الحق كان عند كلا الجانبين ولم يكن عند اي منهما ، كما يحدث احيانا في الحياة . استعاد (خورخه ادواردس) شيئا فشيئا أعصابه الممزقة . فلم يعد يأكل أظافره وعمل معي بقدرة جلية وبذكاء ووفاء واخلاص وجدارة . كان مستشاري هذا خلال تلك السنتين من العمل الصعب المرهق في السفارة ، أحسن زملائي ، وكان الموظف الوحيد في هذا المكتب الكبير الذي لم يكن فيه عيب من الناحية السياسية .

---

٢٣ ــ خورخه ادوارس : كتب كتابا هاجم فيه حكومة كوبا الثورية .

حين حاولت الشركة الامريكية الشمالية فرض الحظر على النحاس التشيلي اجتاحت اوروبا بأسرها موجة من الغضب ، لم تكن الصحف والتلفزات والاذاعات هي وحدها من اهتم بهذا الموضوع بل دوفع عنا مرة اخرى بضمير شعبي كاسح .

عمال الموانىء في فرنسا وفي هولاندا رفضوا تفريغ شحنات النحاس في موانئهم لكي يعلنوا عن سخطهم تجاه هذا العدوان . لقد هز هذا السلوك الرائع العالم كله . ان مثل هذه الحكايا التضامنية تعلم تاريخ زمننا هذا اكثر مما يمكن ان يعلمه اساتذة الجامعات .

اذكر ايضا حالات اكثر تواضعا مع انها اكثر تأثيرا في القلوب . في اليوم التالي على الحظر ارسلت لنا سيدة فرنسية متواضعة من مدينة صغيرة في محافظة من محافظات فرنسا مائة فرنك ، ثمرة توفيراتها كي تساعد في الدفاع عن النحاس التشيلي . وكذلك رسالة تضامن حارة وقعها السكان جميعا ورئيس البلدية وراهب الكنيسة والعمال والرياضيون والطلبة .

من تشيلي كانت تصلني رسائل من مئات الاصدقاء المعروفين وغير المعروفين تهنئني على مجابهتي للقراصنة الدوليين دفاعا عن نحاسنا . لقد تلقيت وساما ارسلته امرأة فلاحة يحتوي على قرعة وأربع من الكمثرى ونصف «دزينة» من فليفلة خضراء حادة .

في الوقت نفسه اصبح اسم تشيلي عظيما رائعا . لقد تحولنا الى بلد يوجد ويفرض وجوده . قبل كنا نمر فلا نُرى في مجموعة البلدان المتأخرة . الان لاول مرة كانت لنا سيماء خاصة بنا ولم يكن في العالم من يجرؤ على انكار عظمة صراعنا في تشييد مصير قومي لنا .

أن كل ما كان يحدث في وطننا كان يثير عاطفة فرنسا بله اوروبا قاطبة . اجتماعات شعبية ، مؤتمرات طلابية ، كتب تنشر في اللغات كلها، كانوا يتدارسوننا ، كانوا يفحصوننا ، كانوا يصفوننا . انا كان عليّ ان اكبح الصحفيين الذين كانوا في كل يوم يريدون ان يعرفوا كل شيء واكثر

من كل شيء . اصبح الرئيس (الليندي) رجلا عالميا . ان ثبات طبقتنا العمالية كان مثارا للاعجاب والثناء .

ان المودة المتقدة نحو تشيلي قد تضاعفت بسبب المنازعات المتفرعة عن تأميم طبقات نحاسنا . لقد فهم الناس في انحاء العالم كله ان هذا التأميم هو خطوة جبارة في سبيل استقلال تشيلي الجديد . لقد جعلت الحكومة الشعبية ، بدون اية مواربة من اي صنف ، سيادتنا على نحاسنا من اجل وطننا نهائية حاسمة .

الإياب الى تشيلي

حين عدت الى تشيلي استقبلني سندس جديد في الطرقات وفي الحدائق . كان ربيعنا الرائع قد جعل يرسم باللون الاخضر على أوراق الغابات . تحتاج عاصمتنا القديمة الرمادية الى الاوراق الخضراء كما يحتاج قلب الانسان الى الحب . فتنشقت النسيم الندي من هذا الربيع الفتي. حين نكون بعيدين عن الوطن لا نذكر البتة فصول شتائه . ان البعاد يمحو اسى الشتاء وذكرى القرى المهملة ومنظر الاطفال الحفاة في البرد . لا يأتي لنا فن التذكر الا بالارياف الخضراء والازهار الصفراء والحمراء والسماء المزرورقة التي يتغنى بها النشيد الوطني . هذه المرة شاهدت الفصل الجميل الذي كان من قبل رؤيا بعاد .

خضرة اخرى كانت تلطخ جدران المدينة . كان طحلب الكراهية يغطيها . لافتات ضد كوبا ، لافتات ضد السوفييت ، لافتات ضد السلام والانسانية ، لافتات ضد الشيوعية تقطر سفاهة وكذبا وبهتانا ، لافتات سفاحة سفاكة افاكة تتكهن بمذابح ومجازر و«جاكارتاس» (٢٤) . هذه هي

---

٢٤ ـ جاكارتاس Yakartas : ج جاكارتا وهي عاصمة اندونيسيا ، وهو بهذا يشير الى المذابح التي اقترفت ضد الثوريين الاندونيسيين على اثر انقلاب العسكري اليميني العميل للامبريالية الامريكية الذي اطاح بحكم (سوكارنو) .

الخضرة الجديدة التي كانت توسخ جدران المدينة .

انا كنت اعرف بالتجربة لحن هذه الدعاية ومعناها . فلقد عشت في اوروبا السابقة على عهد (هتلر) . كان هذا هو روح الدعايـــة الهتلرية ، الافراط في الكذب ، حرب صليبية من تهديد وذعر ، انتشار اسلحـــة الكراهية كلها ضد المستقبل . شعرت بأنهم يريدون تغيير جوهر حياتنـا نفسه . ما كنت أقدر ان أفسر لنفسي كيف يمكن ان يوجد تشيليـــون يهينون بهذا الشكل روحنا القومية .

حين غدا الارهاب ضروريا بالنسبة لليمين الرجعي استخدم اليمين الارهاب بلا تردد وبلا تأنيب ضمير . ان الجنرال (شنيدير) الذي كان القائد الاعلى للجيش ، وهو رجل محترم ومحترم عارض قيام انقلاب عسكري كان يهدف الى منع تسلم (ايينده) سدة رئاسة الجمهوريـــة فاغتالوه . مجموعة متنوعة من الاشرار الآثمين رشته بالرصاص في ظهره فهوى قتيلا قرب داره . كان يقود العملية جنرال سابق طرد من صفوف الجيش . كانت هذه الحفنة مؤلفة من شراذم صغار ومن مجرمين محترفين .

بعد ان ثبتت الجريمة على هذا الجنرال الذي خطط للجريمة سجن وحكمت عليه المحكمة العسكرية بثلاثين سنة في الحبس ولكن الحكـــم خفض الى سنتين من لدن محكمة العدل العليا . ان رجلا فقيرا يسرق عن جوع دجاجة يلقى ضعف العقوبة التي أنزلت بمن اغتال القائد الاعلـــى للجيش . انه التطبيق الطبقي للقوانين التي سنتها وشرعتها الطبقـــة المسيطرة .

ان أنتصار (ايينده) قد سبب لهذه الطبقة المسيطرة ذعرا مميتا. لاول مرة فكروا في ان القوانين التي فبركوها في حيطة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم . هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وحليهم وعملاتهم الصعبة الى الالتجاء في جهة من الجهات . ذهبوا مع ذهبهم الى الارجنتين ، الى اسبانيا حتى أنهم وصلوا الى استراليا . ان خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة الى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

(فريـــي Frei) (٢٥)

ان الطريق التشيلي المحدد من كل جهة بعراقيل جهنمية شرعية كان في كل لحظة دستوريا ضيقا . اثناء ذلك أصلحت طبقة الاقلية الحاكمة من ثوبها المهلهل الممزق وتحولت الى عصبة فاشية . ان الحصار الـــذي فرضته الولايات المتحدة على تشيلي اثر تأميم النحاس امسى اكثر تعنتا وظلما . لقد رمت L.T.T بالاتفـــاق مع الرئيس السابق (فريـــي) الديموقراطية المسيحية في أحضان اليمين الفاشي الجديد .

لقد شعلت شخصيتا (اليندي) و(فريي) المتناقضتان المتنافرتان شعب تشيلي على الدوام . ربما يعود ذلك الى هذا التباين فيما بينهما فهما رجلان جد مختلفين ، زعيمان على طريقتهما الخاصة بكل منهمـــا في بلد بدون زعامة ، كل واحد منهما له اهدافه وطريقه المحدد جدا .

اعتقد اني اعرف معرفة جيدة الرئيس (ايينده) ، لم يكـــن فيه اي شيء مبهم معمى . اما بالنسبة لـ (فريي) فقد كنت زميلـــه في مجلس الشيوخ . هو رجل غريب الاطوار ، متبصر جدا ، بعيد جدا عن العفوية الاليندية . مع ذلك ينفجر بشكل مألوف في ضحكات عنيفة في قهقهات تصم الآذان . بالنسبة لي فانه يعجبني الناس الذين يضحكون مقهقهين (انا ليست لي هذه الموهبة) . لكن ثمة قهقهات وقهقهات . قهقهات (فريي) تخرج من وجه مهموم ، جاد ، يراقب خرم الابرة التي يخيط بها خيطـه السياسي الحيوي . انها اضحكة مفاجئة تذهل شيئا ما كما نعيب بعض الطيور الليلية . اما من جهة اخرى فان سلوكه يكون عادة رصينا وودودا بشكل بارد .

ان تعرجاته السياسية كانت تحبط عزائمي الى ان ايأستني منـــه تماما . أذكر انه جاء ذات مرة ليراني في داري بـ «سانتياغـــو» . كانت

---

٢٥ ـ فريي Eduardo : كان رئيسا للجمهورية التسيلية من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٥ ، ومن هذا العام الى عام ١٩٧٠ ، اي الى ان تولى (اليندي) مقاليد الامور فيتشيلي.

تطفـــو في ذاك الحين فكرة تفاهـــــم بين الشيوعيين والديموقراطيين المسيحيين . هؤلاء ما كانوا آنذاك يتسمّون هكذا بل كانوا ما يزالــــون يحتفظون باسم « فلانخه ناثيونال »(٢٦) Falange Nacional وهو اسم فظيع تبنوه تحت التأثير الذي أحدثه فيهم الشاب الفاشي (بريمـــو دي ريبيرا) ، من بعـد ، حين انقضت الحرب الاسبانيـــة ، أثّر فيهـــم (ماريتاين) (٢٧) وأصبحوا معادين للفاشية وغيّروا الاسم .

كان حديثي معه غامضا ولكنه كان وديا . بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كان يهمنا التفاهم مع جميع الناس والجهات ذات النية الطيبة ، ان كنـا منعزلين لن نصل الى اية جهة . أكد لي (فريي) داخل مراوغته الطبيعية بساريته الظاهرية لذاك الوقت . ودّعني وهو يهدي اليّ واحدة من هذه القهقهات التي تتساقط من فمه كالاحجار . «سنواصل الحديث» ، قال، لكن بعد يومين ادركت ان حديثنا قد انتهى الى الابد .

بعد انتصار (ايينده) خلق (فريي) وهو السياسي الطموح البارد حلفا رجعيا له لكي يعود الى السلطة . لقد كان مجرد وهم حلم العنكبـــوت السياسي المجمد . نسيجه لن يدوم ، لن يفيده في شيء الانقلاب العسكري الذي استهواه . ان الفاشية لا تسمح بالتعاقـــدات بل تطلب امتثـــالا وخضوعا . ان شخص (فريي) سيصبح في كل عام اكثر عتمة وسيكون عليه ان يجابه ذات يوم مسؤولية الجريمة .

(توميـــك Tomic)

لقد اهتممت بالحزب الديموقراطي ـ المسيحي منذ ولادته ، منذ ان هجر اسمه المنكر اسم «فلانخه» . لقد نشأ هذا الحـــزب حين شكلت

---

٢٦ ـ فلانخه ناثيونال : معناها ، **الكتائب الوطنية** .

٢٧ ـ ماريتاين Jacques : فيلسوف فرنسي ولد عام ١٨٨٢ .

مجموعة قليلة من المفكرين الكاثوليك حلقة «ماريتاينية» و«تومية» (٢٨) . لم اهتم بهذا التفكير الفلسفي اذ ان لي لا مبالاة طبيعية تجاه منظّري الشعر والسياسة والجنس . لقد تجلت النتائج العملية لهذه الحركة الصغيرة بشكل فريد غير متوقع . توصلت الى ان أجعل بعض القادة الشبان في هذه الحركة يتكلمون لصالح الجمهورية الاسبانية في مهرجانات سياسية كبيرة نظمتها بعد عودتي من مدريد المناضلة . لقد كانت هذه المشاركة غير عادية الى درجة ان الزعامة الدينية الاكليروسية العتيقة كانت على وشك ان تحل الحزب الجديد يدفعها الى ذلك **الحزب المحافظ** . لم ينقذهم من الانتحار السياسي سوى تدخل أسقف رائد . ان بيان أسقف «تالكا» Talca انقذ حياة هذه المجموعة التي اصبحت مع الزمن اكثر الاحزاب السياسية عددا في تشيلي . تغيرت عقيدته مع مضي السنين بشكل كامل .

لقد كان الرجل الأهم بين المسيحيين الديموقراطيين بعد (فريي) هو (رادوميرو توميك) . عرفته اثناء فترتي البرلمانية ، وسط الاضرابات والجولات الانتخابية في شمال تشيلي . لقد كان الديموقراطيون المسيحيون اذ"اك يطاردوننا (اقصد الشيوعيين) ليشاركوا في مهرجاناتنا السياسية . نحن كنا (وما زلنا) اكثر الناس شعبية في صحراء ملح البارود والنحاس ، اي ، بين اكثر الكادحين تضحية في القارة الامريكية . من هناك كان قد خرج (ريكاباريّن) ، هناك كانت قد ولدت الصحافة العمالية وأوائل النقابات ، لولا الشيوعيون ما كان وجد شيء من هذا كله .

لم يكن (توميك) في تلك الفترة امل الديموقراطيين المسيحيين فحسب، بل كان كذلك شخصيتهم الجذابة جدا وكلمتهم الفصيحة جدا .

كانت الاشياء قد تغيرت كثيرا في عام ١٩٦٤ حين ربحت الديموقراطية المسيحية الانتخابات التي رفعت (فريي) الى سدة رئاسة الجمهورية . ان حملة المرشح الذي فاز على (ابينده) قد قامت فوق قاعدة

---

٢٨ ـ تومية : نسبة الى مذهب (توما الاكويني) في الفلسفة .

من العنف ضد الشيوعية لم يسبق لها نظير، منظمة بالحان‌صحفية واذاعية كانت تهدف الى ارهاب السكان . كانت تلك الدعاية توقف شعر الرأس : الراهبات سيعدمن ! الاطفال سيمثل فيهم بالحراب الملتحون الشبيهـــون بكاسترو ! الطفلات الصغيرات سيؤخذن عنوة من آبائهم وأمهاتهم ليرسلن الى سيبيريا ! عُرف فيما بعد من تصريحات أدلت بها لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ان ادارة C.I.A انفقت عشرين مليون دولار في تلك الحملة الارهابية .

بعد ان نـُصّب (فريي) رئيسا للجمهورية ، صنع حاضرا يونانيا لمنافسه الكبير الوحيد في الحزب : عين (رادوميرو توميك) سفيرا لتشيلي فـــي الولايات المتحدة . كان (فريي) يعرف ان حكومته ستعيـــد النظر فـــي الاتفاقيات المعقودة مع شركات النحاس الامريكية الشمالية . ففي تلــك اللحظة كان البلد كله يطالب بتأميم النحاس . استبدل (فريي) بصفتـــه خبيرا مشعوذا ، بعبارة التأميم كلمة «تشييل النحاس» (٢٩) فأبرم باتفاقيات جديدة موضوع تسليم تروتنا الوطنية الرئيسية الى الشركتين الطائلتين «كينوكوت» و«اناكوندا كوبر كومباني» كانت النتيجة الاقتصادية لتشيلي مريعة جدا . النتيجة السياسية بالنسبة لـ (توميك) كانت حزينة جدا : فلقد محاه (فريي) من الخارطة . ان سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة يساهم في تسليم النحاس للشركات الاجنبية لن يدعمه الشعب التشيلي مطلقا . لذلك جاء (توميك) في الانتخابات الرئاسة الثالثة من بين ثلاثـة مرشحين .

بعد قليل من تخليه عن منصبه سفيرا لتشيلي في الولايات المتحـدة جاء (توميك) في مطلع عام ١٩٧١ ليراني فى «ايسلا نيغرا» . كان حديث الوصول من الشمال وفي ذلك الوقت لما يكن بعد قد رشح نفسه رسميا للرئاسة . لقد حافظنا على صداقتنا وسط الاضطرابات السياسية ومـا زلنا نحافظ عليها حتى الان . لكننا في صعوبة تفاهمنا هذه المرة . هو كان يريد اجراء تحالف اوسع بين القوى التقدمية بدلا من حركتنا حركـة **الوحدة الشعبية** تحت اسم **اتحاد** الشعب . ان مثل هذا الاقتراح كـــان

---

٢٩ ــ تشييل النحاس : اي جعله شيليا .

مستحيل التحقيق ، فمشاركته في المفاوضات النحاسية كانت لا تؤهل ترشيحه امام اليسار السياسي . اضف الى هذا ان الحزبين الاساسيين الكبيرين في الحركة الشعبية : الشيوعي والاشتراكي كانا قد بلغا سن الرشد وعلى قدرة كافية لكي يوصلا الى سدة الرئاسة واحدا من صفوفهما.

قبل ان يذهب من داري ، وقد كان يائسا ، باح لي (توميك) بأمر مهم. وزير المالية الديموقراطي المسيحي (اندريس ثالديبار) اطلعه بالوثائق على افلاس الواقع الاقتصادي في البلد آنذاك .

ـ نحن نمضي الى الهاوية ـ قال لي (توميك) ـ . ان الوضع لا يسمح باكثر من اربعة اشهر . انها لمصيبة . لقد زودني (ثالديبار) بكل التفاصيل عن افلاسنا الذي لا مفر منه .

بعد شهر من انتخاب (ايينده) وقبل ان يتولى رئاسة الجمهورية رسميا اعلن (ثالديبار) على الملأ ان مصيبة البلد الاقتصادية مشرفة على الوقوع ، لكنه عزاها هذه المرة الى ردود الفعل الدولية التى اثارها انتخاب (ايينده) هكذا يكتب التاريخ . على الاقل هكذا يكتبه السياسيون الملتوون الانتهازيون من أمثال (ثالديبار) .

(ايينده Allende)

كان شعبي اكثر شعب غُدر به في هذا الزمن . لقد نشأت من صحاري ملح البارود ، من مناجم الفحم تحت البحرية ، من المرتفعات الرهيبة حيث يرقد النحاس وتستخرجه ايدي شعبي بأعمال غير انسانية، نشأت حركة تحريرية ذات اهمية كبيرة . هذه الحركة حملت الى رئاسة الجمهورية في تشيلي رجلا يدعى (سالفادور ايينده) لكي يقوم باجراء اصلاحات وتأدية مهام عادلة لا يمكن تأجيلها ، حتى ينقذ ثروتنا القومية من المخالب الاجنبية . حيث حل ونزل ، في اكثر الاقطار بعدا عن بلدنا ، اعجبت الشعوب بالرئيس (ايينده) وأثنت على جبهة حكومتنا الائتلافية الرائعة. ابدا في تاريخ مقر هيئةالامم المتحدة بنيويورك ما سمع تصفيق حاد كالذي قابل به مندوبو العالم كله رئيسنا . هنا ، في تشيلي ، كان يشاد،

بين صعوبات جمة ، مجتمع عادل بشكل حقيقي ، يقام على قاعـــدة سيادتنا ، على اس كرامتنا القومية ، على دعامة بطولة احسن سكــان تشيلي . كان الى جانبنا ، الى جانب الثورة التشيلية ، الدستور والقانون، الديموقراطية والامل .

لم يكن ينقص الجانب الآخر شيء من الاشياء . كان لهم مهرجـون ومشعوذون ، سحرة مدربون ، ارهابيون ، حملة مسدسات وسلاسـل حديدية ، رهبان مزيفون وعساكر مخلوعون حقيرون . هؤلاء وأولئك كانوا يدورون ويلفون في «كاروسيل» (٣٠) المكتب . كانوا يروحون يدا بيد مع الفاشي (خاربا jarpa) وبنيه «وطن وحرية» (٣١) مستعدين لكسر رأس كل ما يوجد وازهاق روح كل من يوجد بغرض استرداد الحانوت الكبـير الذي كانوا يسمونه : «تشيلي» . بجانبهم لكي يحيي سهرة هذه الفرقة المتجولة ، كان يرقص راقص مصرفي كبير ، شيء ملوث بالدماء ، وبطل رقصـة « الرومبـا » هذا هـو (غونثاليث بيديـلا) الـذي سلـم وهو «يرومبي» ، حزبه منذ زمن طويل الى اعداء الشعب . الان كان (فريي) هو من بعرض حزبه الديموقراطي المسيحي على نفس اعداء الشعب فكان يرقص على الوقع الذي يعزفه هؤلاء له ، وكان يرقص كذلك مع العقيـد السابـق (بياوكس) الـذي شاركه فـي فعلته . هؤلاء كانوا الفنانين الرئيسيين في المهزلة . كانوا قـد أعدّوا وهيأوا مؤن الاحتكـار : «المجيليين» (٣٢) ، ادوات السحل ، الرصاصات التي بالأمس أماتت شعبنا في «اكيكه» ، في «رانكين» ، في «سالفادور» ، في «بورتـو مونت» ، في «لا خوسه ماريا كارو» ، في «فروتيار» ، في «بوينته التو» ، وفي عدة اماكن اخرى . ان مغتالي (هرنان ميري) كانوا يرقصون مع الذين كان من المفروض ان يدافعوا عن ذكراه على الاقل . كانوا يرقصون رقصا طبيعيا

---

٣٠ ـ كاروسيل Carrousel : هي كلمة فرنسية معناها ، ارجوحة الخيل ، حيث عدة فرسان يؤدون حركات تبهر الانظار ، وهي بمعنى التهريج .

٣١ ـ وطن وحرية : شعار الحزب .

٣٢ ـ المجيليون Miguelitos : كل من يسمى بـ (ميجيل) وهو هنا بالتصغير للتحقير.

بشكل منافق . كانوا يشعرون بالاهانة ان عوتبوا على هذه « الاشيـــاء الصغيرة » .

ان لتشيلي تاريخا مدنيا طويلا بقليل من الثورات وكثير من الحكومات الثابتة وهي حكومات محافظة وقليلة الشأن . رؤساء صغار كثيرون ما عدا اثنين كانـــا رئيسين كبيريـــن وهما (بالماثيدا) (٣٣) و(ايينده) . وما هو غريب حقا ان كليهما ينحدران من الوسط نفسه ، من البورجوازية المثرية التي تسمي نفسها هنا بالارستوقراطية . بما انهما كانا رجلـــي مبادىء وهبا نفسيهما في سبيل اعلاء شأن بلد جعلته الطبقة الحاكمـــة الغبية قليل الشأن ، فقد قيدا الى الموت بالطريقة نفسها . اجبر (بالماثيدا) على الانتحار لانه قاوم صد منح ثروتنا من ملح البارود الى الشركـــات الاجنبية .

(ايينده) اغتيل لانه أمم الثروة الاخرى المختزنـــة في جوف ارض تشيلي وهي النحاس . وفي كلتا الحالتين قامت الاقلية التشيلية بثورات دامية ، وفي كلتا الحالتين تحول العساكر الى كلاب صيد لهذ الطبقـــه المستغلة . الشركات الانجليزية في عهد (بالماثيدا) والشركات الامريكيـــة في عهد (ايينده) حرضت على هذه الانتفاضات العسكرية وانفقت عليهـــا الاموال .

وفي كلتا الحالتين نهب منزل الرئيس بأمر من «ارستوقراطيتنـــا» المبجلة . قاعات منزل (بالماثيدا) قوضت بضربات الفؤوس . امـــا منزل (ايينده) ، فبفضل تقدم العالم ، قصفه من الجو طيارونا البواسل .

غير ان هذين الرجلين كان يختلف احدهما عن الآخر اختلافا كبيرا . كان (بالماثيدا) خطيبا آسرا . كانت له طبيعة تحب السيطرة اخذت تقربه اكثر فأكثر من الحكم الفردي . كان اكيدا من سمو مقاصده . في كل لحظة كان يرى انه محاط بالاعداء . لقد كان تفوقه على الوسط الذي كان يعيش فيه كبيرا جدا وكذلك غدت وحدته كبيرة جدا فأدت به الى الانطواء

---

٣٣ ـ بالماثيدا José Manuel : هو محامي وسياسي تشيلي (١٨٣٨–١٨٩١) .

على نفسه . اما الشعب الذي كان من المفروض ان يدعمه فلم يكن حينذاك يوجد كفوءً ، اي ، لم يكن منظما . لقــــد كان مصــير ذاك الرئيس ان يصبح اشعاعا ، ان يظل حالما : ان حلمه بالعظمة بقي حلما . بعد اغتياله تملك التجار الاجانب الجشعون والبرلمانيون «الكريويون» ملح البارود . للاجانب الملكية والامتياز و«للكريويين» الموسسات . بعد ان تقاضوا اجرهم عادت الامور الى مجاريها وجفت دماء آلاف الرجال من ابناء الشعب الذين سقطوا في ميادين المعركة . فلم تتوقف عمال شمال تشيلي وهم اكثـــر طبقة مستغلة في العالم ، منذ ذلك الحين عن انتاج كميات هائلة مــــن الليرات الاسترلينية في سبيل «لندن سيتي» .

لم يكن (اييندە) خطيبا بارزا ابدا. اما بصفته سياسيا فقد كان حاكما يستشير قبل اتخاذ اي اجراء ، لقــــد كان عدوا للديكتاتورية وكـــــان ديموقراطيا مبدئيا حتى في الجزئيات الضئيلة فلقد حالفه الحظ اذ وجد بدل شعب (بالمائيدا) الغر طبقة عمالية قوية كانت تعرف كل شيء . لقد كان هذا الرجل ، مع انه لم يخرج من بين صفوف الطبقة العاملة ، نتاج نضال هذه الطبقات ضد الجمود وفساد الطبقة المستغلة . لهذه العوامل والاسباب كان ما حققه (اييندە) خلال هذه الفترة القصيرة اكثر بكثير مما حققه (بالمائيدا) بل هو اعظم ما حُقق على مدى تاريخ تشيلي كله . ان تأميم النحاس وحده كان عملا جبارا بالاضافة الى مشاريع اخرى تمت في عهد حكومته ذات الطبيعة الجماعية .

ان اعمال (اييندە) وآثاره ذات القيمة القومية التي لا تمحى أغضبت اعداء حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الازمة ينــــمّ عنه قصف القصر الرئاسي . ان المرء ليتذكر la Blitz Krieg للطيران النازي في قصف مدن آمنة عزلاء ، مدن اسبانية وانجليزية وروسية ، الآن كانت الجريمة نفسها تحدث في تشيلي اذ ان طيارين تشيليين نهشوا وانقضوا على القصر الذي كان خلال قرنين من الزمن مركز الحياة المدنية في البلاد .

اني اكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة ايام فقط على تلك الاحداث التي لا يمكن نعتها والتي أدت الى موت صاحبي ورفيقي العظيم الرئيس (اييندە) . لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سرا ، ولم يسمحوا الا لأرملته بأن ترافق ذاك الجثمـــان الذي لا

يموت . ان رواية المعتدين هي انهم وجدوه جثة هامدة بأدلة بيّنة على انه انتحر . اما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة اذ انه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلا وحيدا فردا : الا وهو رئيس جمهورية تشيلي (سلفادور الليندي) الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون ان يكون له من رفيق غير قلبه العظيم ، وقد احيط بالدخان والنيران .

لقد كان لهم ان ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى ابدا عن منصبه . فدفن ذاك الجسد سرا في مكان ما . لقد مضى ذاك الجثمان الى اللحد لا يصاحبه الا امرأة واحدة وحيدة تحمل في نفسها الم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي مخرقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة اخرى .

نيرودا
حياته وأعماله

١٩٠٤ ــ ١٢ تموز : يولد نيفتالي رييس باسوالتو (بابله نيرودا) في قريــة «العريتسة» بتشيلي .
آب : تموت امه ، وقد ترك موتها في نفسه اثرا يظهر في شعره وفي حياته .

١٩٠٦ ــ ينتقل والده الى بلدة «تيموكــــو» ليعمل سائــــق قطار فــي السكك الحديدية . فيأخذ الطفل معه الى هذه البلدة ، حيث يعود الاب ليتزوج من جديد .

١٩١٠ ــ ينتسب الى معهد هذه البلدة الى ان ينهي دراسته الثانوية ــ قسم الآداب .

١٩١٧ ــ ١٨ تموز : ينشر في احدى صحف هذه البلدة اول محاولة ادبية له ، وهي مقالة بعنوان «حماسة ومثابرة» موقعة باسمه الحقيقي.

١٩١٨ ــ ٣٠ تشرين الثاني : ينشر في مجلة كانت تصدر في العاصمــــة «سانتياغو» اول قصيدة له عنوانها «عيناي» .
تظهر له في هذه السنة ثلاث قصائد منشورة في المجلة نفسهــــا بالاضافة الى قصائد اخرى نشرت في مجلات طلابية ادبية .

١٩١٩ ــ يبدأ بنشر قصائده تحت عدة اسماء مستعارة .
يشترك في مسابقة شعرية فيحصل على الجائزة الثالثة عن قصيدة له بعنوان «ليلي" مثالي"» .

١٩٢٠ ــ تشرين الاول : يتخذ له نهائيا اسما مستعارا ، وهو الاسم الذي

عرف به حتى انه طغى على اسمه الحقيقي ومحاه كليـا ، وسبب اتخاذه هذا الاسم (بابلو نيرودا) يعود الى اعجابه الفائق بالشاعـر والكاتب القصصي التشيكوسلوفاكي (جان نيرودا) الذي عاش في براغ ما بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٩١ .
٢٨ تشرين الثاني : يحصل على الجائزة الاولى من لجنة مهرجـان الربيع ببلدة تيموكو .
يعين رئيسا للنادي الادبي في هذه البلدة وينتخب نائب الامين العام لجمعية الطلبة في هذه المنطقة .
يعد ديوانين للنشر ولكنه لا ينشرهما بل يختار بضعة قصائد منهما لينشرها في اول ديوان له «شفقيات» .

١٩٢١ ــ ينتقل الى العاصمة سانتياغو لينتسب الى معهد يعدّه ليصبح مدرسا للغة الفرنسية .
١٤ تشرين الاول : يحصل على الجائزة الاولى في مسابقة أعدهـا اتحاد الطلبة بتشيلي عن قصيدته «أغنية المهرجان» .

١٩٢٢ ــ تشرين الاول : تنشر مجلة «الازمان» عددا خاصا عن شعر تشيلي الجديد ، وتعتبر (بابلو نيرودا) شاعر المستقبل واحسن من يمثـل هذا الشعر الجديد .

١٩٢٣ ــ آب : يظهر اول ديوان له تحت عنوان «الشفقيات» .

١٩٢٤ ــ حزيران : ينشر ديوانه الثاني «عشرون قصيدة حب وأغنيـة (بالرفع) يائسة» .

١٩٢٥ ــ ينشر قصيدة طويلة في كتاب مستقل بعنوان «محاولة الانسان اللانهائي» .
يترأس تحرير احدى المجلات الادبية ويساهم في مجلات عديدة .

١٩٢٦ ــ ينشر كتاب «خواتم» وهو نثر فني ، اشترك معه في هذا الكتاب الاديب الكاتب ، مواطنه ، (توماس لاغو) . ينشر رواية له بعنوان «القاطن وأمله» . يبدأ بترجمة العديد من الكتاب والشعـراء الفرنسيين ــ كان قد ترجم من قبل عن الفرنسية ــ ولكن هـذه الترجمات لم تلق النجاح الذي اخذت تلقاه ترجماته الجديدة .

١٩٢٧ ــ يعين قنصلا فخريا في «رانغون» (بيرمانيا) .
في طريقه الى رانغون يزور ليشبونة ومدريد وباريس ومارسيليا .

١٩٢٨ ــ يعين قنصلا في «كو لومبو» (سيلان) .

١٢٢٩ ــ يحضر في كالكوتا بالهند مؤتمرا من اجل استقلال الهند .

١٩٣٠ ــ يعين قنصلا في باتابيا (جوه ، أندونيسيا) .
٦ تشرين الثاني : يتزوج من (ماريا Maria) التي التقى بها في « جاوه » .

١٩٣١ ــ يعين قنصلا في سينغابور .

١٩٣٢ ــ يعود الى تشيلي بحرا .

١٩٣٣ ــ ٢٤ كانون الثاني : ينشر ديوانه «حامل المقلاع المتحمس»
نيسان : ينشر الجزء الاول من ديوانه الرائع « اقامة في الارض » يضمنه مجموعة من القصائد كتبها ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ .
٢٨ آب : يصل الى «بونوس ايرس» عاصمة الارجنتين ليستلم منصبه قنصلا عاما فيها .
١٣ تشرين الاول : يتعرف على الشاعر الاسباني الخالد (فيديريكو غارثيا لوركا) الذي كان يزور الارجنتين .

١٩٣٤ ــ ٥ ايار : يسافر الى برشلونه باسبانيا لاستلام منصبه قنصلا فيها .
٤ تشرين الاول : تولد في مدريد ابنته (مالبا ماريا) .
٦ كانون الاول : يقدمه (لوركا) لطلبة جامعة مدريد في مهرجان تكريمي له حيث ينشد مختارات من شعره .

١٩٣٥ ــ ٣ شباط : ينتقل من برشلونه الى مدريد قنصلا عاما في العاصمة الاسبانية .
١٥ ايلول : يظهر الجزء الاول والثاني من ديوانه «اقامة في الارض» (١٩٢٥ ــ ١٩٣٥) .
تشرين الاول : يظهر العدد الاول من مجلة «حصان أخضر من اجل الشعر» برئاسة تحرير (بابلو نيرودا) .

١٩٣٦ ــ ١٨ تموز : تنشب الحرب الاهلية في اسبانيا ويقتل صديقه (لوركا) .
يعزل من منصبه .
يسافر الى باريس .

يصدر مجلة «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .
ينفصل عن زوجته التي عاش معها تعيسا غير سعيد .

١٩٣٧ ـ شباط : يلقي في باريس محاضرة عن (لوركا) .
١٠ تشرين الاول : يعود الى تشيلي .
٧ تشرين الثاني : يؤسس ويرأس «حلف مثقفي تشيلي من أجل الدفاع عن الثقافة» .
١٣ تشرين الثاني : ينشر ديوانه «اسبانيا في القلب» .

١٩٣٨ ـ ٧ ايار : يموت والده في تيموكو . ولم يكن (نيرودا) يشعر نحوه باية محبة .
آب : يرأس تحرير مجلة «فجر تشيلي» .

١٩٣٩ ـ يسافر الى فرنسا .

١٩٤٠ ـ ٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
١٦ آب : يصل الى المكسيك حيث عين قنصلا عاما .

١٩٤١ ـ سافر الى غواتيمالا .

١٩٤٢ ـ نيسان : سافر الى كوبا .
٣٠ ايلول : ينشر قصيدته «نشيد حب الى ستالينغراد» .
تموت ابنته في اوروبا وهي مريضة بشلل الاطفال منذ ولادتها ، ولم يرزق بغيرها .

١٩٤٣ ـ يسافر الى الولايات المتحدة .
١ ايلول : يشرع بالعودة الى تشيلي ماراً بالعديد من الاقطار الامريكية اللاتينية حيث يلقى الترحيب وحسن الاستقبال الى ان يبلغ سانتياغو في ٣ تشرين الثاني .
يتزوج للمرة الثانية في المكسيك بامراة تكبره بخمس عشر سنة : كان قد التقى بها في مدريد وتدعى (ديليا Delia) وهي رسامة ارجنتينية اثرت فيه عقائديا وجعلته نحو منحى جديدا في حياته .

١٩٤٤ ـ يحصل على جائزة المجلس البلدي لمدينة سانتياغو .

١٩٤٥ ـ ٤ آذار : ينتخب نائبا في البرلمان .

يحصل على الجائزة القومية للآداب .
٨ تموز : ينتسب الى الحزب الشيوعي التشيلي .
١ آب : يشرع السفر ليتجول في بعض أقطار امريكا الجنوبية حيث ينشد قصائده ويلقي محاضرات عديدة .
ايلول: يكتب ملحمته الرائعةعن جبال«البيرو» تحتعنوان «مرتفعات ماكتشو ـ بيكتشو» .

١٩٤٦ ـ ٢٨ ايلول : يصدر حكم قضائي بعلن ان اسمه الرسمي قد أصبح (بابلو نيرودا) .

١٩٤٧ ـ يصدر ديوانه الكبير «اقامة ثالثة» ، ويضمنه كتبا صغيرة كان قد نشرها من قبل مثل «اسبانيا في القلب» .

١٩٤٨ ـ يصدر الامر باعتقاله بعد عزله من مجلس النواب فيختفي عن انظار رجال الامن .

١٩٤٩ ـ ٢٤ شباط : يخرج هاربا من تشيلي عبر الجبال .
٢٥ نيسان : يحضر المؤتمر العالمي الاول لانصار السلام وبذلك يظهر لاول مرة بعد طول اختفاء ، ويعين عضوا في المجلس العالمي للسلام .
يسافر الى الاتحاد السوفييتي لاول مرة حيث يحضر الذكرى المائة والخمسين لبوشكين .
٢٧ حزيران : يجري له ادباء الاتحاد السوفييتي حفلة تكريم يحضرها أدباء من جميع انحاء العالم .
تموز : يزور بولونيا وهنغاريا .
آب : يسافر الى المكسيك حيث يمرض فيبقى فيها الى نهاية العام تحت المعالجة .

١٩٥٠ ـ ينشر في المكسيك ديوانه الضخم «النشيد العام» . يسافر الى غواتيمالا .
حزيران : يسافر الى براغ ثم الى باريس .
يسافر الى روما ثم الى نيودلهي حيث يلتقي بنهرو .
تشرين الثاني : يحضر في فارصوفيا المؤتمر الثاني لانصار السلام.
٢٢ تشرين الثاني : يمنح جائزة السلام العالمي .

يدعى لزيارة تشيكوسلوفاكيا فيلبي الدعوة ويقضي في احـــد قصورها فترة من الزمن .

١٩٥١ ــ يذهب الى ايطاليا فيتنقل في أنحائها منشدا شعره او مشرفا على ترجمات كتبه .
آب : يحضر في برلين مهرجان الشباب العالمي الثالث .
يذهب بالقطار الى جمهورية منغوليا الشعبية .
يزور الصين الشعبية .

١٩٥٢ ــ يقيم في ايطاليا .
ينشر ديوان «أشعار القبطان» .
١٢ آب : يعود الى تشيلي فتجري له حفلات استقبال كثيرة .
كانون الاول : يسافر الى الاتحاد السوفييتي بصفته عضوا في لجنة جائزة السلام العالمية .

١٩٥٣ ــ ٢٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
٢٠ كانون الاول : يستلم جائزة ستالين للسلام .

١٩٥٤ ــ تموز : ينشر ديوانه «أناشيد بدائية» .
تموز : ينشر ديوانا آخر بعنوان «الاعناب والريح» .

١٩٥٥ ــ ينفصل عن زوجته الثانية التي لم يكن يحبها بل كان يعجب بهـا وبثقافتها الواسعة .
يتزوج للمرة الثالثة والاخيرة بماتيلده Matilde التى أحبها كثيرا وتغنى بها في كثير من قصائده .
ينشر كتابه «أسفار» Viajes وهو كتاب نثر يحكي فيه عـن مشاهداته في رحلاته .

١٩٥٦ ــ كانون الثاني : ينشر ديوانه الجديد «أناشيد بدائية جديدة» .

١٩٥٧ ــ يختار رئيسا لجمعية الكتّاب في تشيلي .
١٨ كانون الاول : ينشر ديوانه «كتاب ثالث للاناشيد» .

١٩٥٨ ــ ١٨ آب : ينشر ديوانه الجديد «شاذ» .

١٩٥٩ ــ يتجول في فينزويلا لمدة خمسة اشهر .
٥ تشرين الثاني : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «ابحارات وعودات» .
٥ كانون الاول : ينشر ديوانه الغزلي «مائة ارجوزة غزلية» .

١٩٦٠ ــ يسرح في رحلة طويلة يزور فيها العديــــد من الاقطار الاوروبية والامريكية .
ينشر في كوبا ديوان «اغنية مفخرة» .

١٩٦١ ــ شباط : يعود الى تشيلي .
٢٦ تموز : ينشر ديوانه «أحجار تشيلي» .
٣١ تشرين الاول : ينشر في تشيلي ديوانه «أناشيد شعائرية» .

١٩٦٢ ــ ينشر في كتاب (بالاشتراك مع (نيكانور بارا) Nicanor Parra
مجموعة خطب تحت عنوان «خطب» .
يسافر من جديد ليزور كثيرا من البلدان .
٦ ايلول : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «صلاحيات كاملة» .

١٩٦٣ ــ تنشر له اعماله الكاملة ــطبعة ثانيةــ .

١٩٦٤ ــ ١٢ تموز : ينشر له كتابه الجميل الكبير «مذكرة «الجزيـــــرة السوداء» » في خمسة اجزاء بعناوين مختلفة .
٩ ايلول : ينشر ترجمته لرائعة شكسبير «روميو وجولييت» .

١٩٦٥ ــ شباط : يعود فيسافر الى اوروبا .
حزيران : يمنح لقب دكتور شرف من جامعة اوكسفورد .
في هنغاريا يكتب (بالاشتراك مع الكاتب الروائي المعروف ، جائزة نوبل ، (ميغيل انخيل استورياس) مجموعة مقالات نشرت في كتاب تحت عنوان «ونحن نأكل في هنغاريا» . وقد ترجم هذا الكتاب الى اربع لغات أخرى ونشر الكتاب في اصله الاسباني وترجماته فـــي وقت واحد .
يسافـــــر الى موسكو فيمنح الشاعـــــر الاسباني (رافائيـــــل البارتي) جائزة لينين بصفته عضوا في اللجنة المحكمة .
يعود الى تشيلي عن طريق الارجنتين .

١٩٦٦ ــ يعود للسفر فيذهب الى الولايات المتحدة والمكسيك والبيرو .
ينشر ديوانه عن الطيور «فن العصافير» .
يكتب مسرحية بعنوان «بريق وموت» (خواكين موريتا) .
ينشر في برشلونة باسبانيا ديوانه «الدار في الرمال» .

١٩٦٧ ــ نيسان : يعود فيسافر من تشيلي .

٢٢ ايار : يشارك في مؤتمر الادباء السوفييت المنعقد فى موسكو .
يزور ايطاليا وفرنسا وبريطانيا .
آب : يعود الى تشيلي .
تطبع له مسرحيته وتمثل في تشيلي .
ينشر ديوانا جديدا بعنوان «أغنية للبحارة» .
تنشر له أعماله الكاملة (طبعة ثالثة مزيده) في بونوس ايرس بالارجنتين عن دار النشر «لوسادا» .

١٩٦٨ — ينشر ديوانه الجديد «أيادي النهار» وكان هذا الديوان قد نشر في أعماله الكاملة (الطبعة الثالثة) .

١٩٦٩ — ينشر ديوانا جديدا «نهاية العالم» .

١٩٧٠ — ينشر ديوانا آخر «أحجار السماء» . وآخر «السيف المتوقد» .
يعين سفيرا لبلاده في باريس .

١٩٧١ — ٢١ تشرين أول : يفوز بجائزة نوبل للآداب .
ينشر ديوانا جديدا «ما زال» .

١٩٧٢ — ينشر آخر ديوان له «جغرافيا باطلة» .
يعود الى بلاده مارس باسبانيا .

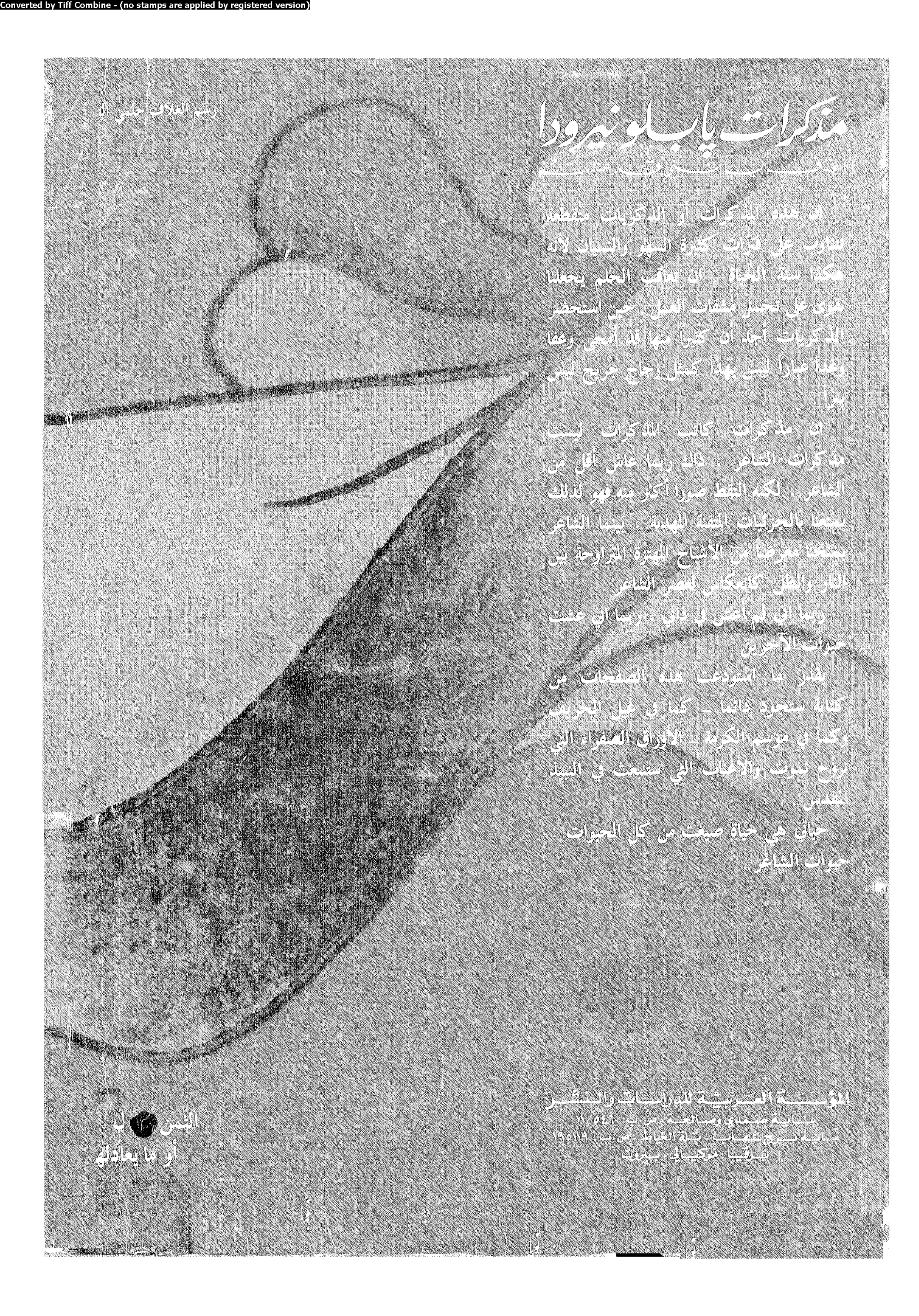
١٩٧٣ — ٢٣ ايلول : يموت بالسرطان في سنتياغو عاصمة تشيلي حيث دفن . بعد ان شهد الانقلاب العسكري الذي اطاح بالحكم الديموقراطي الذي كان هو احد دعائمه ، ولذلك فانه يقال بانه قتل كما قتل الرئيس (سالفادور ايينده) بأيدي اعداء الحرية والنور والعدالة .

الفهرست









رسم الغلاف حلمي ال
مذكرات بابلو نيرودا
اعترف بأنني قد عشت
ان هذه المذكرات أو الذكريات متقطعة تتناوب على فترات كثيرة السهو والنسيان لأنه هكذا سنة الحياة . ان تعاقب الحلم يجعلنا نقوى على تحمل مشقات العمل . حين استحضر الذكريات أجد أن كثيرا منها قد أمحى وعفا وغدا غباراً ليس يهدأ كمثل زجاج جريح ليس يبرأ .
ان مذكرات كاتب المذكرات ليست مذكرات الشاعر . ذاك ربما عاش أقل من الشاعر . لكنه التقط صوراً أكثر منه فهو لذلك يمتعنا بالجزئيات المتقنة المهذبة . بينما الشاعر يمنحنا معرضاً من الأشباح المهتزة المتراوحة بين النار والظل كانعكاس لعصر الشاعر .
ربما اني لم أعش في ذاتي . ربما اني عشت حيوات الآخرين
بقدر ما استودعت هذه الصفحات من كتابة ستجود دائماً - كما في غيل الخريف وكما في موسم الكرمة - الأوراق الصفراء التي تروح تموت والأعناب التي ستبعث في النبيذ المقدس .
حياتي هي حياة صيغت من كل الحيوات : حيوات الشاعر .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقيا : موكيالي - بيروت
الثمن ل.ل.
أو ما يعادله